عبد الرحمن منيف

أرض السواد

II

HAMDAN.B
24/11/08

الطبعة الأولى، 1999
جميع الحقوق محفوظة

الناشران

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج
الكارلتون، ص. ب: 5460 ـ 11
تلفاكس: 807900/ 807901
التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف:
5605432، فاكس: 5685501

المركز الثقافي العربي
للنشر والتوزيع

المملكة المغربية.
الدار البيضاء: 42 الشارع الملكي
(الأحباس) ص. ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 ـ فاكس: 305726
لبنان
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية
المقدسي. ص. ب: 5158/ 113
هاتف/ فاكس: 343701/ 352826

عبد الرحمن منيف

أرض السواد

II

المركز
الثقافي
العربي

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

55

سيفو، بعد الرحلة النهرية وبعد أن سافر بدري إلى كركوك، تغيّر أصبح إنساناً مختلفاً تماماً. حتى هو لا يعرف ماذا جرى له، أو كيف.

أصبح نزقاً، ميالاً للمشاكسة، كما أصبح العمل الذي يقوم به عبئاً ثقيلاً أقرب إلى الهمّ. أكثر من ذلك، أخذ يلوم نفسه لأنه بدد حياته في هذه الرحلة العمياء التي لا تنتهي بين الشط وبيوت المحلة، يقوم بالعمل ذاته كل يوم، وكل أيام السنة. وأي عمل؟ أن ينقل بالقرب المياه الصافية من النهر، لتعود هذه المياه إلى النهر مرة أخرى، وإن يكن في مكان أبعد من المحلة، بعد أن تكون قد تلوثت وتلونت وتغيرت، أصبحت شيئاً آخر. ألم يتعب الناس، مثله، من استهلاك المياه؟ ألا يتوقفون يوماً واحداً؟!

كان في رحلاته القصيرة، بين الجرف وتلك البيوت المبنية بالطوب، يفكر، يحلم، يسافر، لكن فجأة يجد نفسه ذاهباً إلى الجرف ذاته، أو عائداً منه، والمياه تنز على جسده، على الأرض الموحلة، قرب النهر، ثم المغبرة ما إن يصعد نحو تلك البيوت.

وإذا كانت رائحة المياه في أوقات سابقة تعبق في أنفه، وتولد لذة حتى في أيام الشتاء الباردة، فقد أصبحت لها في الأيام الأخيرة رائحة مختلفة، لا يعرف كيف يصفها، لكنه لم يعد يطيق هذه الرائحة، وأصبح شكله، وهو يترنح قرب الشاطىء، بليداً، منفراً، بل ويثيره هو نفسه!

هل تغيرت رائحة الماء؟ هل تغير شكل النهر؟

يجزم سيفو أن شيئاً ما تغيّر، أنه متأكد من ذلك. فإذا كانت فصول

السنة تغيّر لون الماء، وبعض الأحيان مذاقه، وإذا كان شكل النهر لا يثبت على حال، إذ يتسع أو يضيق، تعتكر المياه أو تصفو، تبعاً للأمطار والفيضان الذي يأتي من بعيد، ويقدّر ذلك كل من يعرف المواسم، متى ترتفع مياه النهر، ومتى يأتي الفيضان، فإن الأمر بالنسبة لسيفو أكبر من ذلك وأخطر، وقد أحس بذلك بجسده وروحه، وهذا ما جعله عصبياً، ضيق النفس، وما جعله يفكر بطريقة تختلف عن أية فترة سابقة.

بعض الأصدقاء لاحظوا أن سيفو تغير خلال الفترة الأخيرة. لاحظوا ذلك من صمته الطويل، من الهرم الذي سيطر على ملامحه، خاصة على العينين، إذ أصبحتا تنظران إلى كل ما حولهما دون أن تريا، وكأنهما في أغلب الأحيان في حالة سفر بعيد، ثم فجأة، مع شيء من الرجفة، خاصة الرأس، تعود النظرات من هذا السفر. وكالأعشى الذي يدهمه الضوء القوي المفاجىء، يحتاج لوقت ليألف ثم يستعيد صلته بما حوله.

كان الأصدقاء يحاولون إعادته من الأمكنة البعيدة. يستجيب مرة وينفر مرات. يستجيب بسرعة مرة، وتطول استجابته مرات. ولأن الجميع يعرفون مزاجه تركوا له الفرصة كي يتصرف، حتى في اختيار الوقت الذي يناسبه للكلام.

بعد أيام من سفر بدري ذهب إلى الحاج صالح العلو:

ـ لولا كم آدمي بالمحلّة كان بطّلت هالشغلة من زمان، حجي!

ـ لولاك، يا أبو فلاح، كان متنا من العطش، فالله يخلف عليك، وجزاك عنا ألف خير.

ـ وإذا مات سيفو؟ إذا الله أخذ وديعته، ما لازم محلة الشيخ صندل تلقى فد واحد حتى يجيب الماي؟

ـ فال الله ولا فالك يا ابن الحلال، لا تجيب طاري الموت من غبشة الصبح. قول: يا رزاق، يا كريم، اللهم أدِم علينا الصحة والعافية...

وتغيرت اللهجة، أصبحت مستغربة:

ـ شنو شايف بنومك يا أبو فلاح حتى تقول هذا الكلام؟

ـ شما شفت يا حجي ما مهمّ، ما له قيمة . .

افترّث شفتاه عن ابتسامة حزينة وأضاف :

ـ بالمختصر المفيد، حجي، هذا حدي ويّا هذي الشغلة. ما عاد بي حيل، وزهقت روحي منها. فيرحم والديك، وأنت تمون على أهل المحلّة، دوروا على غيري، شوفوا واحد غير سيفو!

قالت أم قدوري، التي سمعت الكلمات الأخيرة، وكانت قادمة تحمل الشاي :

ـ ينطيك قلبك، أبو فلاح، تتركنا؟ تريدنا نموت من العطش؟ تريدنا نجيف من الزبل والسيانات؟ هاي الله يقبلها منك؟

رد سيفو، بعد أن سحب مقداراً كبيراً من الهواء :

ـ ما عاد بي حيل يا جماعة الخير، وروحي شاخت . . .

وبعد قليل وبحدة :

ـ كل يوم . . كل يوم! إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء!

قال الحاج صالح العلو :

ـ طوّل بالك، يا أبو فلاح، أعطينا مهلة، وانشاء الله يصير خير!

قالت زوجة الحاج صالح :

ـ يوم أسود إذا شربت الماي من غير إيد أبو فلاح!

ولئلا يُساء فهم ما قالته، تابعت بسرعة :

ـ أنت قول، أبو قدوري، شقد اكو فرق بين الشاي اللي أخدره من مية سيفو والشاي بالمحلات الثانية؟ بذاك الصوب؟!

رد سيفو بسخرية :

ـ قابل آني جايب الماي من بيت أبوي؟ من بير زمزم؟ كل الأوادم تشرب من الشط، نفس النهر ونفس الكيل . . .

وبعد قليل، وبدعابة :

ـ لو تريدين أظل أكرب حتى أنقض وأموت موتة چلب؟ موتة زمال جوّا الحمل؟

ـ كفانا الله الشر، أبو فلاح، شنو هذا الحچي؟

ملا حمادي الذي وصلته أخبار مشوشة أن سيفو سوف يهجر مهنة السقاية، قال بنوع من التعريض:

ـ وشلون راح يعيش؟ على الصدقة؟ من القراية على القبور؟

ولما كان لا ينتظر جواباً، أضاف بسخرية:

ـ حتى الفاتحة ما يعرفها، فشنو بآخر أيامه راح يقرا على القبور سورة البقرة؟

وخفض صوته كثيراً، كأنه يكلم نفسه:

ـ ما يملك غير طرق خصاويه...

وارتفع صوته من جديد:

ـ الله أعلم أنه باچر، إذا بطّل سقّا، ما راح يفارقني، يقعد هنا ويخنزر، حتى يهزّم المصلين؛ راح يصير بوجههم مثل ناكر ونكير، والواحد بدل ما يتوضأ يقول: أحسن لي: أتيمم أو أصلي بالبيت!

أما حين تقابل الملا حمادي مع الأسطة إسماعيل، وسأله حول ما قيل عن احتمال اعتزال سيفو للمهنة، وكيف يمكن له أن يعيش، فقد رد عليه الأسطة بحدة:

ـ اكو شغلات، ملا، هي وحدها اللي تقرر، مو اللي يشتغلها يقرر!

مع ضحكة ساخرة، كبيرة، سأله الملا من جديد:

ـ هاي شلون، هاي منين جبتها؟

ـ هاي ما جبتها من بيت أبوي، ملاّ، بس ينراد لها عقل يشتغل حتى يفتهم!

ـ فهّمنا، عليك نور، أبو حقي!

هكذا قال الملا حمادي، وقد أحس أنه في موقع قوي. رد الأسطة بنفاذ صبر، وبتعريض أيضاً:

ـ راح افهمك، ملاّ، واندعي لله حتى يفتح عليك...

وتغيرت اللهجة تماماً:

ـ اكو شغلات من المهد إلى اللحد، مثل شغلات الملوك، واللي يقرون على القبور، واللي يگدون. واكو شغلات وحدها تقول: بس. الزورخانة للثلاثين. المرية لما توصل للأربعين، ما تلد ولا تخلف. القحبة إذا كبرت وتريد تبقى بالسلك تصير قوادة. . . افتهمت لو تريد بعد؟

ارتبك الملاّ حمادي. وقد أحس بالتعريض، قال بحدة:

ـ أشوفك، أبو حقي، صرت تخلط شعبان برمضان، وتريد تاخذ الناس فلاحة، لو آني غلطان؟

ـ غلطان ونص، مولانا. أي نعم، غلطان. . .

وبعد قليل وبغيظ:

ـ انهدّ ظهره، سيفو. كل يوم ألف مرة من الشط للشيخ صندل. لو كان حديد تخ، لقال: ييزي. شتريد منه أزيد؟ ثلاثين، أربعين سنة، ما قال كلمة، ما قال أشهد أن لا إله إلا الله.

قاطعه الملاّ حمادي بانفعال وغضب:

ـ استغفر الله؛ استغفر الله. . .

قال الأسطة، وخرج صوته هادئاً، لكنه شديد الصرامة:

ـ قول عليّ اللي تقوله، ملا. أنت أمّنت الدنيا والآخرة، وغيرك لا هذي ولا ذيك. . .

وتغير صوته قليلاً:

ـ آني، بتكّاني، بالفي والمي، يجي واحد يريد يزين أزينه بكيفي وبواش بواش، ووقت الزيان نسولف، نحچي، وإذا خلص، أقعد، أصفن، أدخن سبيل، حتى يجي واحد غيره. أما هذا المسكين، سيفو، فيظل مثل ثور الطاحون، طول النهار، بالشموس رايح جاي. وإذا الناس شبعت من الأكل ما تشبع من الماي، وهذا الكديش لازم يظل يركض!

واصبحت نبرة الصوت معادية:

ـ خافوا الله، قولوا أكو يوم آخرة. أكو حساب وكتاب يوم القيامة، والإنسان وما سعى، موهالشكل؟

قال الملاّ حمادي ببرودة أعصاب:

- وين چنّا وين صرنا . . .

حاول ان يبتسم وقد تغيرت ملامحه:

- أبو حقي، وداعتك، ما كان سؤالي إلا خوفي على أبو فلاح؛ ما أريده بآخر أيامه يترزل، يگدي، يمد إيده للناس ويقول: صدقة يا أولاد الحلال، صدقة يا أهل المروة. هذا كان قصدي . . .

وتغيرت اللهجة:

- أنت أخذتنا شاطي باطي، وكأن لك ثار وياي، وتريد تنتقم، تريد تبرّد قلبك. ما يخالف، أنا أسامحك!

- إسمع، ملا، الحق . . حق، وماكو بيني وبينك حساب أو ثارات؛ أما إذا تريد تخبطها، وتخليها عرب وعجم فهذي سالفة ثانية!

أما الحاج علاوي الذي عرف بالأمر متأخراً، لأنه سافر إلى سوق الشيوخ من أجل تحصيل ديون مستحقة له، وما إن رأى الاصدقاء في قهوة الشط، وكانت ملامحهم توحي أنه لديهم الكثير ليقولوه، خاصة لصديق مسافر، فقد سأل بنفاذ صبر، بعد أن رأى في وجوههم كلاماً:

- ترى يا جماعة ماكو أصعب من الموت، فإذا مات أحد من الجماعة، أحد من القرايب، وما سمعت، ترى قولوا . . .

وتابع باسترسال:

- ماكو أحد يقدر يهرب من الموت، وهذا مكتوب على الكل، بس واحد يسبق، وواحد يلحق، فإذا أكو شي، إذا أكو واحد مات، وفاتنا نمشي بجنازته، ترى يصيبنا أجر إذا قرينا الفاتحة على روحه، إذا شفنا أهله وقلنا لهم: عظم الله أجركم!

رد أكثر من واحد:

- الدنيا بعدها بخير، حاج علاوي، ماكو أحد من الجماعة مات بغيبتك، بس . . .

- قولوا . . . شنوا بس؟

ـ سيفو يريد يبطّل!

ـ لهْ لهْ . . هاي بيها كسرة ظهر، قولوا غيرها يا معودين!

ـ إذا تقدر تقنعه نكون ممنونين، وتسوي فضل على المحلة كلها.

أُرسلت نسوة إلى فطيم، لعلها تستطيع ما عجز عنه الرجال. قالت له، وقد جاء متأخراً في ذلك المساء:

ـ سخنت الأكل نوبتين، وكل شوي أقول لروحي: هسه يجي أبو فلاح، بعد شوي يجي أبو فلاح . . .

وتغيرت اللهجة قليلاً:

ـ اشو تأخرت؟ ظل بالي يمك!

نظر إليها بطرف عينه، عله يكتشف ما وراء هذه اللهفة، هذا الاهتمام. حين وجدها تراقبه وهو ينزع دشداشة الشط، ويبدو مثل طائر بلا ريش، قالت بنوع من الدعابة:

ـ تبين زغران، أبو فلاح، وكأنك رجعت عشر سنين، عشرين سنة لورا؟

ـ مو بس عشر سنين، عشرين سنة، رجعت جاهل ينراد له ديس ومميّة!

ابتسم بسخرية وحزن، وقد أحس أن كلام فطيم أقرب إلى التعريض، أو وراء مثل هذا الكلام طلبات، كأن يصطحبها لزيارة سلمان باك أو الكاظم، وربما فكرت أكثر من ذلك. ولكي يقطع عليها الطريق، قال بتحد لا يخلو من سخرية:

ـ لو طلع براسك نخلة ما راح أسوي اللي ببالك، ما راح أسوي إلا الشي اللي بدماغي. هذا لازم تفتهميه كلش زين، فطوم!

كان يتكلم وهو عار، تقريباً، إذ بعد نزع الدشداشة، ظل هكذا قبل أن يرتدي ملابس البيت، وكأنه نوع من التحدي! وفطيم التي فوجئت بهذه اللهجة الحازمة، لا يمكن أن تسلم أو تنهزم بسهولة، خاصة وأن الكلمات التي تتحرج النسوة من استعمالها تبدو لها عادية، ولا تتردد في أن تقولها أمام الآخرين.

قالت، وخرج صوتها خشناً:

ـ أكو ناس ما يلوق لهم الهلا والمرحبا، وإذا الواحد طرى شبابهم أو حسنهم، عبالهم قشمرة، ويقولون: باوعوا شقد عيونه مالحة، وبس يريد يزلّقنا!

تناول الدشداشة المنزلية، أدخل رأسه فيها، وقبل أن تنهدل على جسده، قال بنفاذ صبر:

ـ أكو لقمة تنعلس لو انشبّ وأنام؟

ـ سويت لك اليوم تشريب طماطة، وهسه، لما تذوقه، راح تقول. ألف رحمة على والديك فطوم، تاكل وتندعي لي!

ـ صدق. . . چذب؟

ـ وبعد قليل قال فيما هي تنهض بحيوية لإعداد الطعام:

ـ تظلين بنت أوادم. تظلين بنت أصل!

وهو يأكل بشهية، بمتعة، وقد لاحظت ذلك من الأصوات التي تصدر عنه، من فرحة العينين، وأيضاً حين طلب رأساً إضافياً من البصل. سألته قبل أن يشبع:

ـ جتني اليوم أم حمودي وقالت: سمعنا أن أبو فلاح راح يبطّل، وقال لأهل المحلة دوروا على سقا غيري . . .

ولم تنتظر جواباً، تابعت بنبرة جديدة: وقلت لها: منين هالحچي يا معوّدة؟ لا تصدقي يمّه، هذا حچي حساد، حچي ناس ما يريدون الخير للمحلة، والغيرة ماكلة قلوبهم!

توقف قليلاً عن المضغ، وهو ينظر إلى عينيها، لكيتشف مقدار الصدق فيما تقول، وما إذا كانت تعني الكلمات التي تقولها. تابعت، وهي تنظر إلى أسفل، لكي لا تلتقي العيون:

ـ وقلت لها: الحمد لله والشكر، أبو فلاح بعده بحيله وشبابه، ولو راد، إذا نفسه حنّت أو اشتهت، مرية جديدة، آني اللي تزوجه!

راق له هذا الحديث، عاد إلى المضغ، وخرجت الكلمات من فمه مبعثرة:

- إي . . وبعد، شنو قالت وشنو قلت؟
- سوالف تجر بعضها، يا أبو فلاح!
وتغيرت نبرة صورتها، وهي تسأل من جديد:
- آني متعجبة، منين أم حمودي صفّطت هذا الكلام، منين جابته؟
- أم حمودي تحچي الصدق، والمحلة كلها تدري: بآخر خميس هذا الشهر أقول لهم: في أمان الله يا جماعة الخير. أبو فلاح ما عاد سقا، ما عاد يشيل من الفجر إلى غياب الشمس قرب الماي، وين اكو حب ما متروس، وين اكو تنكة فارغة هاتوا. . . خذوا. . . لا. . . خلصنا!
وبعد قليل:
- أريد أشوف وجه ربي، أريد أستريح. .
- وشلون نعيش يا رجال؟
- مثل ما عايش باقي الناس!
- كل واحد عنده صنعته، عنده صرماية، وانت، الله يسلمك، دمرت الأول والتالي، فإذا بطّلت نفتح حلوقنا للهوا، لأن ماكو لا قدامنا ولا ورانا.
صمت سيفو، لأنه يعرف كيف تلحّ فطيم، وتظل حوَل الأمر الذي تريده حتى تصل إليه أو أن يغضب، وهو لا يريد أياً من الأمرين الآن، خاصة وأنه لا يزال حائراً. صحيح أنه قرر ترك مهنة السقا، وهذا قرار لا رجوع عنه، لكن ماذا يفعل بعد ذلك؟ وكيف يمكن أن يؤمّن ما يحتاجه؟ هل تكفي النقود التي أودعها لدى الحاج علاوي؟ قد تكفي شهرين أو ثلاثة، مع بعض الحرص، لكن ماذا بعد ذلك؟
سألت فطيم من جديد، ولكن بطريقة رحيمة، ولا تخلو من مسكنة:
- أعرف، يا أبو فلاح، شقد تتعب، وهذا الظهر لو أنه صخر كان ساف، لكن الخبزة تنراد، والدنيا كلها تعب. .
وبعد قليل، وبمذلة:
- أقدر أغزل، والغزل ينباع، لكن ما أعرف يكفينا لو لا!
- منو قال آني راح اقعد بالبيت؟

ـ ومنو قال لك أقعد؟

ـ عبالك أقعد وأقابلك؟

ولم يتركها لتجيب، تابع بحدة:

ـ هذي لا تحلمين بيها، هذي ما راح تصير أبدا!

ردت بنوع من السخرية المغتاظة:

ـ هذا الخد تعوّد على اللطم. . .

وبعد قليل وبحزن أكثر:

ـ صار لي سنين وأيام ما أشوفك إلا بالظلمة. تروح من الفجر وترجع بعد ما تغيب الشمس. .

وبعد لحظات من الصمت، أضافت:

ـ قلت روحي لما تزوجتك: صار لي رِجّال، خيمة، ظل يكلكل عليّ، وما راح أخاف من شي أو من أحد. .

أخذت نفساً عميقاً، وتابعت:

ـ جمعة نروح على سلمان باك، وجمعة بعدها على الكاظم أو الشيخ عبدالقادر، وجمعة ثانية نسيّر على سامرا. .

وتغيرت اللهجة، أصبحت استنكارية:

ـ وشقد سولفت لي على البصرة والعشار؟ وقلت: يجي يوم ولا بد نوصل لهناك، وبشط العرب ناكل كباب!

ضحكت بسخرية وأضافت:

ـ حتى كباب الكاظم ما وكلتني!

رد بحدة وغضب:

ـ آني، من سنين وأيام، ما حطيت كباب الكاظم بحلقي، وتشوفيني صاير مثل زمال الطاحون: من الجرف لكل زاغور بالشيخ صندل. شوكت أروح للكاظم؟ للشيخ عمر؟ شوكت أشوف دربي، أشوف وجه ربي؟

قالت بمسكنة:

ـ أعرف. . أعرف، وما قايلة فد شي، ودوم أقول لروحي: الحمد لله

والشكر، ما دام قادرين نحصّل خبزتنا!

وبعد قليل، كأنها تكلم نفسها:

ـ كل اللي راح، كل اللي صار، بصفحة، بس شلون هسّه نقدر نحصّل خبزتنا؟

ـ فطيم. لا تضوجيني...

وبسرعة وبحدّة:

ـ روحي لابت، صارت واقفة بالزردوم، وكل ما وصلت الجرف اتجنّز، اصير غير آدمي: الدنيا سودا، والجرف مثل السيانات، وأقول: شلون كل هذي الأيام والسنين مرت وآني رايح جاي، ليش ما طقت روحي؟ ليش ما متُ وخلصت؟

واحتدت اللهجة تماماً:

ـ تقولين لروحك: سيفو راح ينام للظهر، وعند العصريات يتدهدى للقهوة، وهناك يقعد ويسولف، وكأن الدنيا بألف خير؟

ولم يتركها لتجيب:

ـ ما راح اقعد وأقابلك. ما راح أنام للظهر. والقهوة إذا مريت بيها أمرّ غبشة أو آخر الليل!

تطلعت إليه باستغراب، وقد فتحت عينيها على اتساعهما. تابع:

ـ لو عمري أصغر عشر سنين، عشرين سنة، مثل ما تقولين، كان رحت بعيد بعيد، لكن بتوالي العمر البني آدم يعجز ويتقرّم..

سألت بلهفة: وين تريد تروح؟

ـ وين الصيادين يروحون. وين الصيادين يوصلون!

ـ بآخر أيامك راح تصير صياد؟

ـ بآخر الأيام، فطيم، كل شي يصير!

ـ وراح تصيد بآخر الأيام، سمكة بزّ أو تصيد كوسج؟

ـ إذا صدنا بز ناكلها، وإذا صادنا كوسج ياكلنا، هذا هو حال الدنيا: يا ماكل يا مأكول!

56

وبعد شهور عاد بدري إلى بغداد في إجازة.

وصول بدري أثار اهتمام المحلة، وخلق مناخاً جديداً في قهوة الشط فالعائد، بنظر المقيمين، بالإضافة إلى كونه صديق الجميع، فإنه الشخص المناسب والمؤهل لفض المنازعات، وإنهاء الخصومات، كما أنه الوحيد القادر على التعامل مع الجميع بروح من الأخوة والمحبة، وبالتالي تصفية القلوب.

ما كادت فطيم تعلم بوصول بدري، حتى كانت أول الزائرين. جاءت في الصباح الباكر، ورغم أن أم قدوري تعوّدت النهوض مع صياح الديك، فقد استغربت الزيارة في هذا الوقت. قالت، وهي ترحب بارتباك:

ـ ها، عيني، انشاء الله أبو فلاح بخير؟

ـ شيصير عليه يمه، مثل الصل، وكل نهاره يهفي من مكان لمكان!

ـ الحمد لله يمه، لأن الرِجّال لأهله مو بس هيبة، هو عمود البيت، وهو الأول والتالي...

استراحت قليلاً، وقد زايلها الخوف، ثم تابعت:

ـ وأبو فلاح، مع أنه نكت بينا، لكن مثله ماكو!

ـ على مود هالقضية سريت، وجيت من وقت، يمكن الله!

ـ قولي يا بعد عيني، شنقدر نسوي؟ شنو اللازم؟ وأنت تعرفين: أبو قدوري أبد ما يقصّر.

ـ ماكو، يا أم قدوري، أحد يمون عليه مثل، الله يسلمه، بدوري.

وحده يقدر يقول له: ارجع سقا يا أبو فلاح. اترك الاكو والماكو، لأن الناس عطشت بعدك، وقلبك ما ينطيك تترك الناس وتقول: مالي لازم.

ـ لو تعرفين، يا أم فلاح، شقد قلنا، شقد قرينا على راسه حتى يبقى، لكن، الله يسلمه، سنكر، حط رجليه بالحايط، وقال: ما أريد. وأبو قدروي أخذه على صفحة وقال له: أنطيك كُثر ما تنطيك المحلة كلها، بس ابق، لكن أبد!

ـ أدري، أدري يا أم قدوري، وكل المحلة تسولف وتقول.

وبعد أن هزّت رأسها بحزن، أضافت، وكان صوتاً مختلفاً:

ـ وحده بدري اللي يقدر عليه، ويسمع منه، وكل ما أريده أن احچي وياه، الله يسلمه، وأقول له شقد ترزلنا، وشلون عيشة عايشينها، لأن كل ما اسأل أبو فلاح، كل ما أحچي وياه، يقول: ما عليك، لازم أسوي اللي بدماغي، ولازم أنتقم من هذا الزمان الأگشر، وآني، يا أم قدوري، ما أعرف شنو اللي بدماغه، وإذا اكو أحد انتقم منه فمني وحدي ينتقم، وما أدري شسوي، شقول!

وبعد أن قضت المرأتان وقتاً وهما تتحدثان، رأت أم قدوري أن تأتي بالباميا والعدس لتشتركا معاً في التقميع والتنقية، انتظاراً للوقت الذي يستيقظ فيه بدري. ولم تنسيا الحديث عن أخبار المحلة، وما جرى فيها، ثم عرجتا على بنات المحلة، من هي الجميلة، ومن هي البيضاء، وميزة واحدة عن أخرى، وما إذا كانت هذه أو تلك من الفتيات ينتظرها ابن عم أو ابن خال.

قال لها بدري، بعد أن رحّب بها كثيراً:

ـ ما أقدر أقول فد شي هسه، خليني أشوف عمو سيفو، وبعدها الله كريم!

أما ملا حمادي فقد أرسل إلى بدري عبود الأعرج. جاءه عبود إلى قهوة الشط، وقال له، مثل أي تلميذ بليد:

ـ الملاّ يريدك!

ـ يريدني آني؟

ـ أي نعم!

ـ آني منو؟

ـ ما أدري!

ـ وشلون عرفت أنه يريدني آني؟

ـ شاور عليك ودزني!

ـ أكو أوادم بقهوة الشط أكثر من سوق هرج، فيجوز انت غلطان، متوهم!

ـ ما أدري!

ـ زين.. زين، ابني، روح للي دزك، وقل له: اللي يريد بدري يجي لهنا!

ولم يأت الملاّ حمادي إلى قهوة الشط، لكن رابط في مكان غير بعيد، وما إن خرج بدري من القهوة، مع مجموعة من الأصدقاء، حتى هجم عليه الملا. قبّل وجنتيه مرات كثيرة، كما لو أنه يقبل شباك الكاظم، وعاتبه، وطلب أن يراه في أقرب فرصة، لأمور هامة، واليوم قبل الغد، وأبلغه أنه سينتظره ضحى اليوم التالي عند الحاج علاوي.

وبدري الذي لم يكن صديقاً، أو ممن يكنون الود للملا حمادي، لكن، نتيجة العاطفة الفياضة والإلحاح الذي لا يقاوم، وافق على أن يلتقيه في المكان والوقت اللذين حددهما.

ورغم أنه لم يكن لدى بدري أي مانع لأن يبقيا عند الحاج علاوي، وأن يجري الحديث، أي حديث، أمامه وبحضوره، إلا أن الملاّ حمادي بدا محرجاً، صامتاً، وكأنه نسي ما قاله في الليلة السابقة! وحين سأله بدري، بعد أن ابتسم بطريقة ساخرة، أقرب إلى التعريض، عما يريده منه، رد بارتباك:

ـ هسه نتمشى ونسولف!

وقام للتو، ويريد من بدري أن يقوم أيضاً. قال بدري، وكان صوته

أقرب إلى المرح:

ـ على الحجي ما تنضم أسرار، ملا؛ مو بس هالشكل، بعدنا ما شفناه!

ـ الحجي أخ، أعز من أخ، وما ينضم عنه فد شي، لكن آكو سالفة بيني وبينك.

قال الحاج علاوي معرّضاً:

ـ هذا محلك، ملا، شوكت ما تريد، أنت صاحب المحل ونحن الخطار، وإذا ردت آني أترخص... حتى تسولف!

ـ على بختك حجي، وآني لولا المونة والثقة ما كان تواعدت هنا، وماكو فد شي ينضم عليك..

وبعد قليل وبأسلوب اعتذار:

ـ والمسألة من الأول للتالي ما تسوى، وما أريد أدوّخ راسك بيها.

قال بدري، وهو ينهض:

ـ نترخص، حجي، حتى ما يفوت الملاّ الأذان والصلاة!

حاول الملاّ حمادي، اختصاراً للوقت، أن يذهبا إلى الجامع، لكن بدري اعتذر، لأن أصدقاء سيمرون عليه في البيت! وهكذا وجد الملاّ نفسه في بيت الحاج صالح العلو.

قال لبدري وهما يجلسان في الفسحة السماوية، تحت شجرة النبق، وكان منفعلاً:

ـ الشكوى لغير الله مذلة، يا بدري أفندي، لكن...

سحب نفساً عميقاً، وقطب جبينه، إسترسل:

ـ يجوز آني ما أعرف أتصرف، ما أعرف أتعامل مع الأوادم، لكن أتمنى لو تشوف قلبي...

ارتبك، وكأنه لا يعرف كيف يتابع، وقد اختلطت في ذهنه كل الأمور. بعد فترة صمت طويلة بدأ من جديد:

ـ ما أريد أقول، يا بدري أفندي، أن جماعة المحلة زنادقة، كفرة، وقلوبهم ما تعرف الرحمة، وآني وحدي الخوش آدمي، ما اقدر، والعياذ

بالله، أقول هالشكل، كل الناس خير وبركة، ويجوز جماعتنا أحسن من غير أوادم، لكن ما أدري ليش يباوعون عليّ خزر، وليش يعادوني ويكرهوني!

ـ الكل يحچون عليك، ملا، بالخير، ويقولون لو الواحد افترّ بغداد كلها بالصوبين مثل الملاّ حمادي ما يلقى!

ـ لا تصدق، مولانا. . .

واقترب من بدري، كأنه يفضي إليه بسر:

ـ حتى الجامع، على مودي، ينهزمون منه، وما يجي ببالهم إلا إذا صارت موتة أو وقعت مصيبة.

ضحك بسخرية وتابع بنبرة مختلفة:

ـ مو بس هالشكل، صار اللي يصلي منهم يروح لجامع بعيد، لذاك الصوب، وما بقي بجامع الشيخ صندل إلا كل مجردم ووجعان واللي واقعة قلاقيل طيزه. . .

وتغيرت النبرة، أصبحت غاضبة:

ـ وإذا سألتني عن السبب أقول لك: سيفو والأسطة إسماعيل، ومن ورا، وبسكوت، أبو نجم!

ـ هذي كلها أوهام وخيالات، ملا، والواحد من اللي سميتهم يحلف براسك!

ـ وهمين أنت، بدري أفندي، قشمروك؟

ـ ما ينراد لها قشمرة، المسألة واضحة، وأكيد أنت متوهم!

ـ مولانا، الجماعة ما لهم شغل إلا: ملا حمادي سوّى؛ الملاّ حمادي قال؛ وإذا سوينا أو قلنا فد شي، وسبحان من لا يخطىء، يرقص لنا أبو فلاح يچفية؛ وتنطش عن طريق القصخون، الأسطة إسماعيل، بكل مكان؛ ومن العصرية إلى آخر الليل، كل واحد يجيب لأبو نجم سالفة عن الملاّ حمادي يتلقاه بحيل صدر، وبالهلا والمرحبا وبالحامض والشاي، ويسمع كل كلمة، وبعد ما يضحك، ويغشى من الضحك، يقول له: تعال

كل يوم وجيب وياك سوالف
ـ منين لك هالسوالف، ملا؟ هاي كلها كلام عدوين وحساد.
ـ ماكو شي ينضم، بدري أفندي، وكل سالفة تدرج وحدها، تمشي على رجليها حتى توصل، وجماعتنا هنا، الله يسلمهم، حوصلتهم زغيّرة!
ـ يا معوّد لا تصدق كل ما ينقال، والناس بالقهاوي ما عندهم غير السوالف!
ـ ما علينا، بدري أفندي، نحن أولاد اليوم!
ـ يعني؟
ـ أريد منك، يا بدري أفندي، والجماعة يسمعون كلامك، أن يتركوني، أن يدخل الرحمان قلوبهم، أن يعرفوا: آخرتها موت، وبعده حساب وكتاب، وان الملاّ حمادي يحبهم ويودهم مثل ما يحب نفسه..

وكاد يتابع، لكن بدري رفع عينيه إلى شجرة النبق ثم إلى الحائط وراءها، وقال بلهجة لا تخلو من سخرية ومكر:
ـ خاف يفوتك الأذان، ملا، لأن الظهر صار.

وباضطراب نهض الملاّ حمادي، ركض قاطعاً المسافة بين بيت الحاج صالح العلو والجامع هرولة!

أما الأسطة إسماعيل، الذي كان يحلق شعر بدري، حين سئل عن الملاّ حمادي، وقد جاء ذكره عرضاً، فقد رد وهو يبتسم:
ـ ما تغرك العمايم واللحى، مولانا، لأن هذا، اللي يتظاهر أنه مسيكين، خيّط ببيته بيوت، وموبس بالمحلة، بمحلات ثانية، وانتقل لذاك الصوب؛ ولا تستغرب إذا سمعت، بجيّة ثانية، إنه صار شريك لعزرا أو ابن الچلبي!
ـ ومنين له الفلوس؟
ـ قرش فوق قرش تجمع، مولانا!
ـ صدق، أبو حقي، منين الفلوس؟
ـ مثل النملة يجمع، ومثل الذيب ينهش من هنا... من هنا، وما خلى

وما بقى!

ـ وهذي الفليسات، مال الگدية، تسوّي بيوت؟

ـ الگدية والبوق والأوقاف وزكاة فلان وزكاة فلان وخمس الجد . . .

وضحك بسخرية، ثم أضاف:

ـ وشلون البزون يشتَمّ اللحم من بعيد، والزنبور يندل بليّا دليل، والفارة تجمع وتطمّ، الملاّ أشطر منهم ويعلمهم دروس!

توقف عن الحلاقة، واستدار ليقابل بدري وجهاً لوجه:

ـ وابخل من چلب، حتى أولاده ميتين من الجوع، ويجوز الخبزة اللي يگدّونها يسرقها منهم!

ـ تغير هواية الملاّ حمادي، ما كان هالشكل!

ـ من يومه هالشكل، يا معود!!

وعاد الأسطة إسماعيل إلى الحلاقة، وهو يقول:

ـ وما أدري شراح يسوي بهذي الفلوس! مجوّع روحه ومجوّع أهله . . .

وضحك بسخرية وهو يضيف:

ـ مو بس هالشكل: باچر راح يموت وماكو أحد يندل وين ضام الفلوس، وتروح بول بشط!

وتعمد بدري ألا يبحث الأمر مع سيفو، لأن الأسطة اسماعيل الذي يتمتع بمقدار كبير من المرونة، وقادر على إقامة علاقات مع كثيرين، كان هذا رأيه بالملا حمادي، وما يعرفه عنه من سلوك وتصرفات، فكيف يكون الحال مع سيفو، وماذا سيكون رأيه بالملا؟

قال بدري ذات غروب، وكانوا جماعة في قهوة الشط وبينهم سيفو، وقد ارتفع صوت الملاّ حمادي بآذان المغرب:

ـ تغيّر هوايه صوت الملاّ حمادي، كان بآذانه خشوع، ويطلع من الصدر . . .

التفت نحوه سيفو نصف التفاتة، تابع وكأنه لم يره:

- كان إذا وذّن، إذا مجّد، يشرح القلب، وكان لصوته حنيّة وجلال، هسه ما أدري شلون، صوته صار خشن وبيه لكّة.

قال سيفو، وكأنه يكلم نفسه:

- من يومه هالشكل، وأبد ما تغيّر، لكن غيره تغير!

تابع بدري دون أن يوجه الكلام إلى سيفو، أو أن يرد عليه:

- أتذكر أيام بعيدة، أيام الصيف، ما أن يبدأ بالتمجيد مع الفجر حتى نقعد من النوم، وتشوف الصوت يرتفع كأنه الرعد، وينزل حتى يغيب، ويترفع نوبة ثانية ويلمع كأنه على بُعد ذراع منك. ومع التمجيد: اليمام يهدل والبلابل تغني، وحجيتنا، أم قدوري، تسبّح وتقول: يسلم حلقك!

التفت سيفو نحوه بكليته، وقد انفتحت عيناه باندهاش، وكأنه لا يصدق الكلمات التي يسمعها. لما وجده جاداً، علق بغضب:

- بابا أنت غلطان، متوهم، أنت تحجي عن ملا مهدي مو عن هذا الملا!

- ليش شقد صار له ملا حمادي بجامع الشيخ صندل؟

قال سيفو وهو يرفع رأسه بشكل مائل، وكأنه يتذكر:

- إذا ما كذبني ربي، هذي هي السنة العاشرة على وفاة الملاّ مهدي.

- يعني السنة العاشرة للملا حمادي..

هكذا رد بدري، ثم أضاف مستدركاً:

- لا... إذن آني احجي عن ملا مهدي، ولما كنا جهال!

قال سيفو بتعريض لا يخفى:

- اكو فرق من الأرض للسما بين الصوتين. وين صوت ملا مهدي ووين هذا الصوت!

ولئلا يترك سيفو فرصة للتمادي بشأن الملاّ حمادي، وكي لا يغضب ويغضب غيره، سأل:

- اتركنا، آغاتي، من الملالي، وخلينا نحچي بالشي اللي منه نتيجة...

ضحك بدري، وكانت ضحكته أقرب إلى القهقهة، وبعد أن هدأ:

ـ تمون عمو سيفو، تفضل، احچي بالشي اللي ينفع!

ـ سمعت من الولد، وهذي عليها بيني وبينك عتاب طويل، إنك، هذي المرّة، ناوي تقطع عتبة جهنم...

تظاهر بدري أنه لم يفهم، هز رأسه ويديه أكثر من مرة، وقال:

ـ عتبة جهنم؟ اكو أحد بيه عقل ويريد يعتّب هذي الدرجة؟ يقطعها؟

ـ إسمع بدري...

وضحك سيفو بحزن قبل أن يضيف:

ـ أنت تدري وآني أدري، والجماعة كلهم يدرون، فعلى ويش تقشمر روحك وتقشمرنا؟

قال خضيّر ملا نوري، الذي ظل صامتاً، حين كان يجري الحديث عن ملا حمادي، لئلا يساء فهم كلامه إذا تحدث عن واحد من نفس السلك، قال بمداعبة:

ـ يجوز آني الوحيد اللي ما يدري، لكن كلمة من هنا... كلمة من هنا، ولقفتها: بدري يريد يتزوج. هذا جواب الحزورة، لو آني غلطان؟

وتعالت الأصوات:

ـ جبتها... أبو نوري!

ـ أبد مو غلطان، مولانا!

ـ راح تنكسر رقبته هذا اللي كان شايخ بيها!

ـ وباچر حوله يماعون، نريد وما نريد!

ـ مو بس هالشكل، مولانا، قبلهم ومعهم، ام الولد: هذا يصير وهذا ما يصير!

ـ الزواج ينراد له هز كتاف، الزواج مو شقا!

ـ الزواج شر لا بد منه!

ـ أنتم السابقون ونحن اللاحقون، ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

قال خضيّر، بعد الصخب والتصفيق، وبعد التعليقات التي أصبح من الصعب وقفها، وقد استغل لحظة هدوء:

- يشرفني، ومن أسباب الفخر، وآني راح اتخرج بعد أسبوعين، أن يكون أول مهر أقطعه مهر بدري أفندي... إذا يوافق!

وقف سيفو وسط المجموعة، وقال، وخرج صوته حاداً ممزوجاً بالغضب:

- يوافق، مولانا، يوافق ونص، لأنّا ما نريد يقطع المهر فد واحد تخرمن عكوسه اللئامة، أو يبيع أهله وعشيرته بفلسين!

ولأن الكثيرين في قهوة الشط يتكلمون بالتورية، ويفهمون على بعضهم بأقل الكلمات، ويبدو حديثهم بريئاً وعادياً، إلا إذا أرادوا التشهير العلني، عند ذاك يتصدى من يسأل، من يستوضح بعض العبارات. إذا حصل ذلك، وبطريقة لا تخلو من الغضب والتحدي، تنكشف الأمور، تُسمى الأشياء بأسمائها، وقد تقع بعض الحرائق أيضاً!

قال أحد ضيوف خضيّر ملا نوري، وقد نمّت لهجته عن الصدق والبساطة:

- من أول الليل، وكل ما ينحچى وينقال، أحس بيه دفن، الكلمة كلمتين، والواحد يرمي للثاني حصوة يريد يزلّقه فشنو القصة؟

-... والأخ من يا ديرة، من يا منطقة؟

- من سامرا.

- من هذا الصوب أو ذاك الصوب؟

- وجوه الخير إلها علامة، عمو سيفو، ما تنضم!

- بربي صحيح، ويبين عليك إبن أصل...

وتغيرت لهجة سيفو وهو يضيف بحزن:

- سالفتنا ببغداد، بالصوبين، طويلة، وإلها جلاجل. بذاك الصوب: السراي والوالي والجندرمة واللي عندهم فلوس، وبهذا الصوب واقعين براسنا دق: ضرايب وعسكرية، وفوقها خبز شعير، فلازم نحچي دفن،

ولازم، إذا لطمنا، نقول إنّا نلطم على الموتى، مو على الناس العايشين اليوم، ولازم. . .

قال الأسطة إسماعيل الذي وصل للتو، وبعد أن سمع العبارات الأخيرة لسيفو:

ـ شنو فاتحة؟ عزا؟ شنو القصة؟

عقّب خضيّر ملا نوري:

ـ كنا، يا أبو حقي، قبل ما تجي، نتدانش: منو راح يقطع المهر، وشوكت، وشلون راح يصير العرس، ومثل هذي المسائل، وجيت أخوك أبو فلاح: هذا الصوب وذاك الصوب، وتعال اخلص.

رد سيفو بدعابة:

ـ مولانا. . . قالوا من قبل: أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة، وآني صار لي أيام وسنين حلقي ما انفكّ، فحرام إذا قلنا كلمتين؟

ـ خلونا، يا جماعة الخير، من أبو فلاح، لأن ماكو أسهل من التفاهم وياه، وهذا له وقته، بس هسه نريد نعرف منو اللي راح ينهلس ريشه، ومنو اللي جا أجله ويريد يتزوج؟

هكذا سأل الأسطة اسماعيل

فاتجهت الأنظار إلى بدري، وكأن اتفاقاً جرى بين الجميع أن تكون العيون وحدها وسيلة التعبير. تطلع أبو حقي إلى بدري. هز رأسه عدة مرات، وخرجت الكلمات بطيئة:

ـ بعرس المسعدة القمر غاب. . وأبو حقي آخر من يعرف، مو هالشكل، مولانا، بدري أفندي؟

وقبل أن يجيب بدري، أضاف الأسطة:

ـ لو تريدني أغيب من صدق؟

أجاب بدري بمرح:

ـ انت أعرف مني، يا أبو حقي، بأهل الكرخ: يزوجون ويطلقون بليا ما ياخذون رأي العريس والعروس. .

ورداً على هزات رأس الأسطة التي ظلت تتوالى، تابع:

ـ والجماعة هنا حدّدوا كل شي: منو يقطع المهر، شوكت، و... و وما بقي إلا تحديد يوم الحمام والزيان... لو آني غلطان يا جماعة؟

قال سيفو بسخرية، وهو يعلن تضامنه مع الأسطة إسماعيل:

ـ كنت ناذر، يوم عرسك، أرقص لك بچفّية، لكن يبين أنك ما تريدنا لا آني ولا أبو حقي!

صاح عدنان الفضل، قريب بدري:

ـ يا جماعة رحتو زايد، وبعدين خاف الشقا يصير جد، والناس تاخذ على خاطرها..

والتفت إلى الأسطة إسماعيل الذي استمر واقفاً، وهو يتابع الحوار:

ـ تفضل استريح أبو حقي، هذا أولاً، وبعدها: السالفة من الأول للتالي، ويجوز مثل كل مرة، أن هناك نيّة للزواج، تصير ما تصير، الله أعلم، فقولوا انشاء الله، خلي البك يوافق، وبعدها كل شي سهل!

قال خضيّر ليخلق جواً من المرح:

ـ راح يوافق، مولانا، لأنّا نريد نشتغل؛ وأول شغلة يسويها الواحد أبد ما ينساها!

رد سيفو بمداعبة:

ـ أي نعم، مولانا، خاصة مثل هذي الشغلة، لأن بيها كسران رقبة، كسران ظهر، فشلون ينساها؟

قال خضيّر مواصلاً المرح:

ـ وزيان العرس على أبو حقي ببلاش!

ـ راح ازينك زيان بعمرك ما تنساه، بس أنت قرر، قول: إي!

قال بدري وقد استولت عليه الغبطة:

ـ قررت، قررت، وأقول إي، وأنتم شهود!

قال سيفو، وكأنه يكلم نفسه، لكن الجميع يسمعون:

ـ على بركة الله، بس لازم تعرف مولانا: الخشة للحمام مو مثل

الطلعة منه!

كان يمكن لهذا الجو أن يستمر لولا وصول حسون!

ولأن الجرح الذي تخلف في قلوب الكثيرين، نتيجة بكاء حسون، قبل فترة قصيرة، لا يزال طرياً، ولا يقوى أحد على أن يسيء إليه أو أن يزعجه، فقد لاقى اقتراح خضيّر ملا نوري أن يسرحوا مع النهر، وأن يغني في هذه الليلة، عربوناً للأفراح القادمة، لاقى الاقتراح حماساً كبيراً، وبسرعة، وبضجة غير قليلة، غادروا قهوة الشط إلى بستان سليم المدلل.

قال خضيّر ملا نوري لحسون، وكان يسير إلى جانبه، ويمسك يده، عند الساعد، بمودة:

ـ الليلة، ببستان المدلل، راح أخلي نجوم السما، وهي تسمع الأوف والآه، تتمنى لو تنزل على القاع...

وشد على الساعد أكثر وأضاف:

ـ وما ظل من الجماعة بليا زواج إلا أنت وبدري. وما دام بدري أخذ قراره، وعليه شهود، ما ظل إلا أنت!

ـ وآني قررت، لكن ما أدري شوكت!

هكذا رد حسون، وكان بصوته انكسار وحزن. أما وهم يمرون حيث يجلس الأسطة عواد، وقد رآهم متهللين فرحين هكذا، فسأل:

ـ ها... وين؟ خير؟

وإذ لم يجب أحد، وكانت الابتسامات هي الرد، فقد تابع:

ـ روحتكم كلكم سوا ما هي لله، لازم يكون وراها فد شي!

قال خضيّر ملا نوري، وكان آخر الخارجين:

ـ روّحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة، ان القلوب إذا كلّت عميت، هكذا جاء في القول الكريم، ونحن يا أبو نجم، ما نسوّي إلا بما أمرنا الله!

رد الأسطة عواد، وكان يبتسم:

ـ الله... وهل هالله بحسون يا جماعة، ديروا بالكم عليه.

استدار حسون نحو الأسطة عواد وابتسم، كانت ابتسامته حزينة!

57

كانت قد مضت فترة، سبعة شهور وبضعة أيام، على إقامة بدري في كركوك حين وصل إلى هناك الآغا سيد عليوي، وصل فجأة ونزل في القلعة، مع عدد من السرايا للمرافقة والحماية.

وإذا كانت مثل هذه الفترة تعتبر عادية، وقصيرة أيضاً، في الظروف الطبيعية، فإن التغيُّرات التي جرت في بغداد خلالها، ثم الاحتمالات المتوقعة، أو حتى المفاجئة، لحملة الجنوب، والقلق الذي اعترى الشمال، بعد أن تجدد النزاع داخل الأسرة البابانية، وتوقُّع أن تتحرك بغداد نتيجة ذلك، كل هذه الأمور أعطت للزمن معنى وسياقاً جعل سيد عليوي ينسى بدري أو يكاد.

فوجىء بوجوده حين استقبل ضباط القلعة، إذ كان يسلّم بحياد ممزوج بود مصطنع، إلى أن التقت عيناه بعيني بدري. فجأة تذكر أن الباشا أبعده، غضب عليه لسبب ما. ورغم أنه سأل عن السبب، في البداية، إلا أن تلاحق الأحداث والتغيرات جعلته ينسى ثم يهمل، إلى أن غاب الموضوع عن البال بصورة كاملة.

الآن، يجد نفسه وجهاً لوجه أمام بدري. تراجع برأسه فجأة إلى الوراء، رغم أن يداً كانت ممدودة للمصافحة. لما تأكد أن بدري إياه، مرت صور كثيرة ماضية، ابتسم بتشفٍ وقال بسرعة:

إذا أنت، همين، هنا، منو بقي من جماعة الباشا ببغداد؟

تظاهر بدري أنه لم يفهم السؤال. قال، وكأنه يجيب عن سؤال آخر:

ـ صار لي هنا، سيدي، أزيد من ستة شهور!

ـ وشلون، والَمَك الجو؟ تعودت عليه؟

ـ ما يفرق عن جو بغداد، سيدي...

وابتسم قبل أن يضيف:

ـ ويجوز هنا أرحم من جو بغداد، من صيف بغداد، سيدي!

رد الآغا، وقد تذكر أموراً كثيرة:

ـ إذا الواحد جاي بكيفه، إذا جا مسيّر فالجو أرحم!

ولأن الضابط الذي يليه أدى التحية، ويفترض بالآغا ألا يطيل الوقوف، مهما كانت المعرفة، أو مهما كان السبب، فقد قال بسرعة:

ـ راح أشوفك نوبة ثانية.

رد بدري كأي ضابط مهذب شديد الانضباط:

ـ حسب أوامرك، سيدي!

لم يكن الآغا متعجلاً للقاء بدري، فهو غير مطمئن أولاً، ثم أن «شعور السمكة بالأمن يساعد على صيدها!»، وهكذا طوّقه رجال الآغا، لكن بكثير من المودة والاهتمام، ودون التطرق إلى الباشا أو موقفه منه، كما لم يسألوا عن أسباب نقله، أو ماذا يمكن أن يفعل في المستقبل.

حين التقاه الآغا، بعد أسابيع، وقد أضفى على اللقاء طابع العفوية، إذ جرى بعد سباق للخيل بين ضباط القلعة، قال له:

ـ كنت أظنّ أن ضباط الباشا لا يحسنون سوى نقل الرسائل والتعليمات، أما أن يفوزوا بسباقات الخيل فهذا شي جديد!

ـ علمونا في المدرسة الرماية وركوب الخيل...

وابتسم قبل أن يواصل، كي يخلق جواً أليفاً:

ـ أما السباحة فقد تعلمناها وحدنا، وقبل أن نتعلمها شربنا من الشط كما تشرب الجمال!

ـ ونقل الرسائل؟

ـ تعلمنا في المدرسة الطاعة وتنفيذ الأوامر، وما يطلبه الرؤساء!

شد الآغا على ساعده، قريباً من الكتف، تعبيراً عن الود، وأضاف بمرح:

ـ الضابط الجيد هو الذي ينفذ أوامر رؤسائه بأمانة، دون أن يسأل لماذا صدرت تلك الأوامر، أو ما هو المقصود منها.

ـ تماماً سيدي!

وانتهى ذلك اللقاء، لكن أحس الطرفان أن شيئاً ما وراء الكلمات التي قيلت، وبالتالي لا حاجة للاستعجال، أو للاستنتاج والتقرير قبل الأوان، خاصة وأن رجال الآغا أكدوا له أن بدري يعيش حالة أقرب إلى العزلة، إذ حمل معه مجموعة من الكتب، ويقضي وقتاً طويلاً في القراءة، أو الرياضة، ولا يميل إلى لقاء أغوات المدينة، وليس له علاقات أو صداقات يمكن أن تكون مصدراً لمعلومات يمكن أن يرسلها إلى الباشا.

أما عندما وصل الحاج صالح العلو وزوجته لزيارة ابنهما، وقد نزلا في أحد خانات المدينة، وعرف الآغا بوصولهما من رجاله، فقد منح بدري إجازة لكي يكون معهما، وأبلغه أنه إذا لم تكن إقامتهما مريحة بالمقدار الكافي فيمكن أن يهيىء لهما مكاناً في القلعة، أو في المنزل الذي استأجره طلعت باقة، وما زال فارغاً!

ورغم أن بدري اعتذر عن قبول أي من المكانين، أكد للآغا أن الإقامة في خان المسافرين مريحة، وأشار، بطريقة خفية، إلى أنه في الزيارة القادمة إذا لم يستأجر بيتاً خاصاً، فسوف يقبل بما يعرضه عليه. وقد استنتج الآغا أن إقامة بدري ستطول، إما بسبب فداحة الذنب، أو لأنه مكلف بمهمة، وهذا يتطلب أن يكون أكثر حذراً، أو ربما أقل تحفظاً، «فالرجل إما من رجال الباشا الأساسيين، أو أنه تم الاستغناء عنه نهائياً» وفي محاولة لاختبار أي من الاحتمالين أكثر ترجيحاً، قام بزيارة الحاج صالح العلو، دون أن يُشعِر بدري مسبقاً لا بالفكرة ولا بالموعد.

قالت أم قدوري، بعد الزيارة، وبعد أن سمعت الآغا يخاطبها، ويناديها بالحجية:

ـ يابا بدري، قلبي قال لي: آمركم هذا حيّال، حنقباز.

رمقها الحاج صالح بنظرات حادة، وكان يتطلع إليها مستغرباً، إذ لم يصدر عن الآغا ما يؤكد مثل هذا الاستنتاج، وربما كان العكس أكثر احتمالاً، بسبب الود الذي أبداه، وأيضاً نتيجة التبسط في الحديث.

قال الحاج صالح بحدة:

ـ كل ما أقول لروحي تعلّمتْ، صارتْ.. اشوفك تعيدين كلام القولة الخنفسانة أم طالب وتزيدين عليه شوية لواص!

ـ شنو لازمته هذا الحچي، أبو قدوري؟

ـ لأن الرُّجال ما قال كلام مو زين، وكل كلمة والثانية: عيني وآغاتي!

ضحكت، وهي تهز رأسها، وتابعت بحدة:

ـ إذا شفت فد واحد يحچي بمونة هالشكل بليا ما يعرف ويّا منو يحچي، فلازم البني آدم يخاف!

ـ شنو قصدك؟

ـ كل كلمة والثانية يقول لي: حجية، شمدرّيه حجبت لو لا؟

ـ ظلت على هذي يا بنت الحلال؟

ضحك، وكان ضحكه أقرب إلى القهقهة، وهو ينظر إلى وجه أم قدوري الذي احتقن واحمر. وقال بعد أن هدأ قليلاً:

ـ إذا سمع الناس يصيحوني: حجي؛ واذا شاف فوطتك شراع مركب والسبحة تزيد عن ألف، وكل دقيقة: طق.. طق.. طق، شتريدين يصيحك: مهيوبة؟ غزالة المحلة؟

قال لروحه: المرية مثل رجلها، إذا هو حجي لازم تكون هي حجيّة، فلا تروحي زايد، وتقولي فلاني وتركاني عن الرُّجال!

ـ زين.. آني ما عليّ، لكن أقول فد شي: إذا هذا الرجال ما طلع خوش آدمي آني ما افتهم شي!

ـ شلنا على الرجال غير مروته يا أم قدوري؟ شنريد منه؟ شعلينا بيه؟

ـ مو إنت زلقتني وسألت؟

ـ سألنا وكفرنا؟

وبعد قليل، وقد غرق الثلاثة في الصمت، ومرت الصور والمشاهد والكلمات التي جرت وقيلت، قال الحاج صالح، وكأنه يكلم نفسه:

ـ الرجال تعنى وجا وزارنا. سولف وتشاقى، وما قال فد شي مو زين، وبدل ما نقول: يخلف عليه، ويكثر خيره وقعت براسه طخّ!

وتغيرت اللهجة تماماً، أصبحت أقرب إلى التأنيب:

ـ الحق عليّ، كل مرة تطلبين، أقول: أي، ما يخالف لكن كل مرة تسوين لنا مكسورة، لأن أم طالب وهذا الأعيور كل ما تهدا يثورها، ولازم يقولون: عظم ضبع وجلدِ واوي وكبد نعامة وحافر بغل. وذول ابد ما يرضون وانت وياهم!

قامت بمسكنة، وفي محاولة لتجاوز الموضوع:

ـ ليش انحمقت هالكثر؟

وبعد قليل:

ـ أولها وتاليها ما تسوى. يجوز آني ما أعرف الناس، لكن البني آدم يهدس، يسأل قلبه، وما ينعرف شنو اللي يصير.

قال الحاج صالح، في محاولة لأن يتغلب على زوجته نهائياً:

ـ إنت، بدري، تعرف أحسن منها ومني، شتقول؟

ابتسم بدري، نظر إلى الاثنين، لما وجدهما ينتظران جوابه، قال، وخرج صوته أقرب إلى الحزن:

ـ الآغا مو سهل، يجوز يبان بسيط، محبوب، لكن سره بعيد، ويعرف شلون يوصل، شلون تنكال الكتف!

وترك الآغا فترة أخرى تمر، وخلال هذه الفترة لا بد أن يتأكد ما إذا بقيت لبدري أية علاقة مع الباشا والسراي، خاصة وأن المراقبة والتحريات في كركوك جعلته على يقين أن الرجل يعيش منفياً، ويفضل أن يكون بعيداً عن الآخرين.

ومثلما للباشا عيون في أغلب الأمكنة، فقد حرص الآغا على أن يزرع

عدداً من رجاله في السراي. كانوا حراساً وفي الإسطبل، إضافة إلى بعض العاملين في المطبخ والتموين. ولم ينسى الحرملك أيضاً. وعن طريق هؤلاء كان يصله الكثير من الأخبار. ورغم التغييرات الكثيرة التي حصلت، فقد استطاع عدد كبير من هؤلاء أن يبقوا في أماكنهم، وبصمت وبهدوء. كانوا ينقلون فقط ما يرون وما يسمعون، ويتقاضون لقاء ذلك مكافآت سخية، الأمر الذي جعلهم أكثر حرصاً على التكتم والتخفي، حفاظاً على حياتهم، ورغبة في استمرار تلك المكافآت!

بعد تأكد الآغا من انقطاع علاقة بدري بالسراي، أوعز لمرافقه، حامد، أن يتابع الرحلة معه، ليس فقط بإحاطته بجوّ من الود والثقة، بل ومحاولة كسبه ليكون من رجال الشمال، كما أصبحوا يطلقون على هذه المجموعة.

وحامد الذي بدأ المحاولة مبكراً، مستفيداً من معرفته السابقة ببدري، ومن الصفات المشتركة التي اكتسباها نتيجة مرافقة القادة، إضافة إلى التقارب بالعمر، ارتأى كمدخل لهذه المحاولة، أن يزيل أية انطباعات سلبية حول ما يُحتمل أن تكون قد نقلته روجينا، وبشكل خاص عن نجمة، التي سأل عنها بدري.

حين تطرق حامد ـ وقد تعمد أن يفعل ذلك بشكل عرضي، وبسياق الحديث عن أيام اللهو في بغداد ـ إلى روجينا، وما كانت توفره من متع، وعن البنات الجميلات الصغيرات اللواتي كن رهن إشارتها... حين تطرق حامد لهذا الموضوع دارت الأرض ببدري، استعاد اللحظات البرّاقة الخصبة في تلك الحفلة المجنونة، وكيف كانت نجمة نجمة حقيقية ظهرت فجأة في عالمه وتأبى أن تغادره. تمثَّلت له، من جديد، بذلك التدفق السخي، وكأنها قطعة من نور دافيء يجتاح كيانه، كله، نور يدخل إلى الجسد على شكل موجات متتابعة وتظل تدور وتزمجر، وكأنها بداية نشوء الكون، بداية التحامه وخصبه.

تلك اللحظات، رغم قصرها، رغم بعدها، لا تزال كالأنفاس تتردد في صدره، يعيشها في نومه وفي أغلب ساعات الصحو، وبمقدار ما تنعشه،

وتمده بالعنفوان تشعره بالضعف والحيرة، ولا يعرف أن كان يجب أن يحاول من جديد أم يعتبر الأمر انقضى، خاصة وأن الشهور الماضية، رغم صعوباتها قد دفعته للنسيان، كما شكّل البعد حاجزاً ومسافة، حتى لو أراد أن يحاول من جديد.

وحامد، بمكر أو بعدم تقدير، لم يتطرق إلى نجمة تحديداً، وكأنها مجرد واحدة، مثل جميع الأخريات. علاقة قد تستمر لفترة، ثم تنتهي، لا بد أن تنتهي، لأن هذا النوع من النساء خلق لساعة، لليلة، لفترة من الزمن، حتى إذا جاء فصل جديد، حلّ محل الفصل المنصرم، وكما تذبل الورود، كما تنتهي الأغنية، تتوارى وتغيب إلى الأبد، أو تنهض ورود جديدة غير تلك التي ذبلت، ترتفع الأصوات بأغانٍ غير تلك التي كانت وملأت الأسماع والقلوب في ليالٍ سابقة.

ورغم الجرأة، وقد تصل إلى حدود التهور، التي يُظهرها الرجال في الحرب والرياضة، وفي لحظات التحدي، فإن العكس يحصل في العلاقة مع المرأة، وبعض الأحيان في الحديث عنها. وهذا ما جعل بدري يصمت كحجر، ولا يجرؤ على مجرد السؤال!

حتى المكر الخفي الذي تلجأ إليه المرأة في محاولة معرفة أي شي عن الرجل الذي تحب، تقابله بلادة أقرب إلى الغباء لدى الرجل، إذ يعجز عن التصرف، عن التفكير السليم، من أجل الوصول إلى بداية من أي نوع مع المرأة التي يحب، يلجأ إلى استمرار العذاب، إلى الانشغال بنسج الأحلام لليال طوال، لتنحل هذه الأحلام وتتلاشى مع أول أضواء نهار جديد، ثم ليبدأ مرة أخرى، وينتهي إلى نفس المصير!

كلما حاول حامد أن يلج هذا الباب، أن يفتح أفقاً، كان بدري يسده أو يتعامى عنه. حتى في كركوك، وفي الوقت الذي يبذل صغار الضباط الكثير من الجهد والمال من أجل إشباع رغباتهم، كان بدري بعيداً أو غير راغب، وكان مشغولاً بالكتب التي حملها معه، أو بأخرى يفتش عنها في أسواق كركوك، أو لدى بعض المهتمين. فإذا وجد وقتاً إضافياً أغرق نفسه

بالرياضة، وأجهد جسده ليحمله على النوم، وحين يجفوه النوم ويمل القراءة، يركّب لنفسه جناحين ويسافر إلى أمكنة بعيدة.

وإذا كان بعض كبار الضباط اتخذوا لأنفسهم بيوتاً في المدينة، أو ثكنات بعيدة، وكذلك فعل أكثر المتزوجين من صغار الضباط، فقد كا للكبار أماكن ثابتة في القلعة، وغالباً ما يقضون فيها أوقاتهم، لكن بعض الأحيان كان كبار الضباط يستقبلون «ضيوفاً»، الأمر الذي ـ . يقيمون في تلك البيوت.

طلعت باقة الذي التحق، كأغلب الضباط الكبار، بكركوك، وبالقلعة واتخذ له بيتاً في طرف المدينة، من الناحية الغربية، كان كثير الغياب كركوك، حتى ظن الكثيرون أنه نُقل، أو أن وجوده لا يتعدى الزيارات .. فترة وأخرى.

ذات ليلة جاء حامد. منذ اللحظات الأولى بدا في وجهه كلام يستطيع كتمانه، قال لبدري بنوع من الحسد والتحريض:

ـ ما مخلّين لغيرهم إلا البقايا والعظام، هذا إذا تركوا فد شي. وهـ واقعين باللحم!

وحين ظهر على بدري الاستغراب والتساؤل، وكأنه لم يفهم ما يعنيه، تابع بحدة:

ـ طلعت بك له ثار ويّا كل مريّة، يلزم وحدة ويهد وحدة، وأبد ما يشبع، وما يندري شراح يسوي باچر واللي عقبه إذا الآلة تعطلت أو ما لقى بنت سبعطش!

ـ لا تدوخني حامد، قل لي بالمختصر المفيد شنو القصة؟

ـ بالمختصر، مولاي، إن طلعت بك جايب وياه، هذي المرة، فد بنيّة دوخت الجماعة كلهم: زغيّرة، العوبان، بيضا، بطول النخلة، وإذا ضحكت تضوي السماء، والملائكة تتكربس. . .

توقف فجأة. تطلّع إلى بدري باندهاش، وحاصت عيناه في كل الاتجاهات، وكأنه يتذكر. لما تأكد، أو رجح احتمالاً على غيره، قال،

وخرج صوته مشروخاً:
ـ لك بدري، عيوني، تعرفها، أي نعم، بربي تعرفها!
ـ آني؟ من هي؟ وين؟
ـ تتذكر حفلة القلعة، اللي صارت بعد معركة الفرات، ولا بد أنك تتذكر البنيّة اللي رقصت ودوخت العالم.
ـ نجمة؟
ـ يرحم والديك. بلي، نجمة!
ـ شبيها؟
ـ استقعدها طلعت بك، وجابها، جت وياه...
وبعد قليل وبغلّ:
ـ وكل يوم والثاني، وكل كم ليلة، حفلة للضالين، ترقص وهم سكارى، ما يعرفون إلا قولة: الله، يا عين، يا ليل!
سأل بدري بغضب:
ـ متأكد.. حامد؟
ـ بلي.. شنو تتصور اتشاقى ويّاك؟
بعد فترة من الصمت والكلمات التائهة، سأل بدري، وكان يبدو حزيناً وشقياً:
ـ وثامر؟
ـ منو.. ثامر المجول؟
ـ أي.. ثامر المجول
ـ بطّل. تركها ومشي، قضّى وياها كم شهر، وبعدها قال لها: في أمان الله!
ـ قول غير شي، يا معوّد!
لم يجب حامد، هز رأسه، وكأنه يتذكر أشياء كثيرة، وبعد فترة من الصمت سأله بدري بعصبية وحزن:
ـ يعني نجمة بهذي الديرة، بكركوك؟

ـ أي نعم!
ـ وطلعت بك مستقعدها؟
ـ أي نعم مولانا!
ـ مع الأسف!
ـ لا تتأسف، مولانا، هذا درب لا بد يوصل للطاحون.
وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:
ـ هذي، مولانا، تربية روجينا، روجينا ربتها على إيديها، وبعد ما صارت: عصفور وفلت من الإيد، طارت بعيد، وبعد ما خلصت من الدفتردار اندارت على ثامر، وبعد ما شبعت منه وكّرت بحضن طلعت بك، وما يندرى باچر بحضن منو!
ولم يشأ بدري أن يذهب بعيداً في السؤال والتقصي، لئلا ينكشف تعلُّقه بها، وكيف قضى الأيام والليالي لا يفكر إلا فيها. ترك للصمت أن يمتد بينهما. شعر خلال ذلك بالألم والحقد، وشعر أيضاً أن شيئاً ثقيلاً كان رابضاً على كتفيه سقط. قال في نفسه «كم يبدّد الإنسان من الأوقات في الوهم، وكيف يُتعِب نفسه في نسج سداة بلا لحمة، وفي فتح قناة لا تصلها الماء أبداً».
لما رأه حامد سارحاً في أمكنة بعيدة، سأله بمداعبة ماكرة:
ـ إذا تشتهيها، لا تخف، يجي دورنا!
ـ حتى لو اشتهيتها في يوم من الأيام، بعد هالكلام وقعت من عيني، ما عادت تسوي شي!
رد حامد وهو يتلمظ:
ـ بعدها، بنت الحرام، تفور مثل التنور، تخبّل، تاخذ العقل!
ـ إذا ذول السكارى يتناوبون عليها واحد ورا اللاخ، شنو اللي بقي منها؟
ـ ذيك الليلة شفتها ترقص، كانت عارية: ربي كما خلقتني، وكانت لازقه فوطة ساعة تحطها وساعة تشيلها، وتعال، بيك أعصاب وتحَمَّل،

قول آني رجال!

ـ نقدر نشوفها؟

ـ ليش لا . . .

وبعد قليل:

ـ لا بد نلقى فد حجة، فد سبب، ونچيّت.

تطلع إلى عيني بدري، وهو يهز رأسه، وكأنه يضع خطة من أجل الوصول، وحين بدا له أن ذلك ممكن، غمز بعينه وكان يبتسم، وأضاف:

ـ خليها عليّ، يوم والثاني ولازم نصل!

58

رغم المحاولات، لم يستطع حامد أن يهيئ الفرصة لرؤية نجمة إلا بعد شهور، وبعد وصول البريد، وفيه خبر الإنعام على الآغا بخلعة وعلى بعض الضباط بالترقية. إذ اغتنم طلعت بك هذه المناسبة، ودعا عدداً محدوداً من الضباط، على رأسهم الآغا إلى بيته.

كانت عادة الآغا أن يصطحب عدداً من المرافقين والحرس، لأغلب الأماكن التي يزورها، إلا أنه يختصر هؤلاء إلى الحد الأدنى، وقد يستغني عنهم، حين يزور بعض الأصدقاء، أو يحضر حفلات خاصة. وحامد الذي يفترض أن يكون موجوداً حيث يكون الآغا، عليه أن يبقى في القلعة إذا ذهب الآغا إلى بيوت محددة، من ضمنها بيت طلعت باقة، لأنه وحده الذي يعرف مكان وجود الآغا، ويستلم نيابة عنه الرسائل الطارئة أو الأخبار والاتصالات المهمة، ويبلغ ما يعتبره ضرورياً ولا يحتمل التأجيل أو الانتظار.

أما كيف يصطحب بدري، وما هو المبرر الذي يسوّغ ذلك، فقد تفتّق ذهن حامد عن سبب كافٍ: البريد الخاص بكفري، بما فيه الرواتب، والذي تأخر أكثر مما ينبغي، خاصة وأن بدري عائد إلى بغداد في إجازة، وسوف يغادر في اليوم التالي.

في الحالات العادية قد لا يكون هذا المبرر كافياً، لكن الآغا الذي يريد امتحان بدري، والتفويض الذي أعطي لحامد، ثم السفر في الصباح الباكر، وأيضاً حالة الغبطة بالخلعة ليس لأهميتها بالذات، ولكن للتدليل

على أن الباشا يمنحه ثقته بالخلعة والترقية معاً، وكيف يمكن أن تُستغل هذه المناسبة لحشد التأييد والدعم للآغا، كل هذه الأسباب جعلت ذهاب الاثنين إلى بيت طلعت باقة مبرراً!

لو لم يكن حامد لتعذَّر على أي واحد، حتى من الضباط، أن يدخل. وقائد مفرزة الحراسة الذي تباطأ، وظهر عليه التردد، حول السماح لبدري، ما لبث أن امتثل حين تلقى رد حامد الحازم.

كانت الجلسة على مصطبة وسط الحديقة الفسيحة، المليئة بالأشجار والنباتات المتسلقة، بطريقة تنير وتحجب بنفس الوقت، ومن الطرف الجنوبي، حيث كان يتصاعد الدخان كانت رائحة الشواء تعبق ومن المكان مخلّفة حالة من الشهوة تثير الشره، خاصة وأن أسياخ اللحم كانت تنتقل من يد إلى يد، وكان المشرفون على الشواء يعرفون كيف يخلقون جواً من العدوى والمرح.

وصل حامد وبدري أثناء إحدى الاستراحات. فالفرقة الموسيقية كانت غارقة في الأكل، والمدعوون ينتقلون من مكان إلى آخر، مع الصخب والنكات، بعد أن امتلأوا بالشراب والطرب.

طلعت باقة الذي استقبل حامد، استغرب مجيء بدري. لكن همسات تبادلها الاثنان بددت الاستغراب، وإن ظل التردد قوياً فيما إذا كان هذا الزائر يستحق أن يبقى، أن يشارك أم لا. ولئلا يطول التردد توجه حامد نحو الآغا. أسرّ له بأشياء، ما لبث أن هتف بعدها الآغا بطريقة مسرحية:

ـ إذا الاحتفال الكبير راح يفوتك فابق معنا هذه الليلة!

تطلع بدري إلى أكثر من اتجاه، إلى أكثر من وجه، وكأنه يستأذن، وأجاب:

ـ أمرك، سيدي!

وبعد قليل، في ظل الصمت المفاجىء، تابع بدري:

ـ تهانينا، سيدي، بهدية الباشا!

ـ الباشا ما ينسى أحد!

لما أدرك طلعت بك اهتمام الآغا بهذا الضابط الصغير، غمز بعينه، آمراً المشرفين على الطعام والشراب أن يخدما الضيفين الجديدين.

كانت نجمة تربض، مثل قطة، في زاوية الطاولة التي يجلس الآغا على رأسها. لم يكن يفصل بينها وبينه سوى كرسي، ربما كان يشغله، في وقت سابق، طلعت بك. كانت ملفعة بعباءة، وفوق العباءة سترة أحد الضباط، فتبدو، من خلال هذا الشكل، وكأنها وجه، كله عينان، تملأن هذه المساحة الرحبة. كانت تتابع، بصمت، الرجال والأشباح والأضواء التي تتغير كل لحظة. كانت هناك، ولم تكن. كانت تنظر، ترى ولا ترى. كان الآخرون حولها بكثافة، لكنها تبدو وحيدة. الأكل أمامها كثير، لكن لا تأكل، أو تأكل قليلاً، بسرية، بعد إلحاح وطلب الآخرين، وربما لا تأكل، لأن القطط تركت الأماكن وتجمعت تحت قدميها، قريباً منها، وكانت تلك القطط ترفض دعوة الآخرين وإغراءهم لأنها وجدت مكانها!.

ومثل عادة المرافقين الذين يبدون اهتماماً زائداً من أجل تأمين راحة الذين يرافقونهم، فإنهم يرضون لأنفسهم، مؤقتاً، بأقل الشروط، ويبالغون بإظهار التضحية. فإذا كان حامد رفض بأدب بالغ الجلوس، وظل ينتقل من مكان لآخر، فإن بدري الذي كان مستعداً لأن يجلس، في أي مكان، دون أن يُشعر أحداً بالمضايقة، اعتبر دعوة الآغا له للجلوس على كرسي وراءه، قريباً منه، شرفاً كبيراً وتقديراً خاصاً.

فجأة وجد نفسه وراء الآغا، وغير بعيد عن نجمة!

كالرّيح حين تتخلل الأشجار، كالأضواء الخافتة وهي تعبر الفجوات، وكالآهات التي تصعد من الأعماق ولا تنتظر من يسمعها، مرت بنظرتها كنسمه صغيرة، كضوء خافت، رأته ولم تره. هل هي امرأة تلك الليلة نفسها؟ امرأة الحضور والعنفوان والحزن؟

في فترة الاستراحة، بين وصلة وأخرى، يفيض الناس، يحاولون تعويض الغياب الذي حاصرهم وجمدهم؛ بنفس الوقت يحاول من كان كل شيء أن يغيب، أن يتراجع، لكي تعاد القسمة بين الموجودين،

ويتوزعون بشكل مختلف، لعلّ القسمة الجديدة تكون أكثر عدالة ورأفة، وتحل مكان القسمة التي كانت قائمة، وربما مفروضة.

بدت له حزينة أكثر مما توقع، وأكثر مما يحب. العينان، بالدرجة الأولى، تقولان حزناً قديماً يضاف إليه حزن جديد كل يوم. النظرات البطيئة، كأنها تتحرك دون رغبة، وقد غادرها توق الاكتشاف أو التعرف. والشفاه، رغم الابتسامة المرسومة، أقرب إلى الضيق أو الرفض، أما الرقبة الطويلة فإنها تبرز العروق من خلال فارق اللون بينها وبين البشرة.

قال بدري لنفسه، وهو يختلس إليها نظرات مكتشفة، بعد أن كوّن لها صوراً لا تنتهي في كثير من لياليه السابقة «إذا انقطعت صلة الفتاة عن الأهل، وحين تنتقل بين الرجال، تفقد الرغبة في البيت والأولاد، ولا بد أن تمتلىء بالحزن، حتى لو دوت ضحكاتها كالطبول».

لما بدأ المغني التركماني الغناء من جديد كان صوته يراوح بين الطرب والحنين إلى مكان آخر، إلى أناس آخرين، لأن نجمة التي توقعت نغماً يلائم الرقص، لم تجد في الغناء أو العزف الذي يرافقه ما يساعدها على المشاركة. ظلت واقفة في مكان غير بعيد عن الطاولة، إذ لم تجد أن الفسحة في الوسط تلائمها.

كانت بالغلالة الخفيفة، وقد اختبأت قليلاً تحت ظلال الجهنمية، بانتظار أن يصبح النغم والغناء ملائمين للرقص. أشبه بدفقة ماء تهبط من فوق لكنها لما تصل بعد، أو مثل شلال غادر مستواه الأول ويندفع نحو الأسفل. فالساق الممتدة قليلاً، وقد انسكب عليها الضوء، لامعة تنبض بالحرارة، والصدر الذي تستره حمّالات بلون قاتم يضيء بالبياض الناصع، وقد ارتفع واكتنز، واليد تتحرك بين فترة وأخرى وكأنها توقّع الهواء لتجعله أكثر استعداداً لاستقبال اندفاعة الجسد التي تتهيأ لها، كما تتهيأ الفرس لارتخاء اللجام.

في لحظة صمت بين كلمة وأخرى، وكان المغني لا يزال يتيه في أمكنة بعيدة، صرخ طلعت باقة:

ـ الله بيم بلا ويرسون . . . ملاّ ، نريد غنا يرقّص!

هزَّ الملاّ كمال رأسه برضا وموافقة كبيرة ، ختم أغنيته بسرعة ، وما أن امتدّ صمت قصير لبضع ثوان ، حتى اندفع ، دون تمهيد ، بأغنية شعبية يرقص على لحنها الناس في عيد النوروز . أنشد مطلعها ، ولحقته الفرقة الموسيقية ، أما حين اندفعت نجمة إلى الحلبة فقد اشتعل الجو كله . كان جسدها يضيء ، يتفجر ، يحرك الحواس كلها ، يجعل كل من ينظر إليها ، يعجب كيف يمكن للجسد أن يتكلم هكذا ، أن يعبِّر بهذا المقدار!

وإذا كان الملاّ كمال يتقدم ويتأخر ، وكأنه يراقصها ويحرضها لتدع جسدها يقول كل شيء ، فما اكتنزه ذلك الجسد مع الأيام ، وتراكم الخبرة وتوالي المران ، جعله يتحرك بطريقة كأنه كتلة واحدة ، ومجموعة أجزاء في آن ، فالفخذ ، من الركبة وحتى الحضر ، حين يهتز ، يُظنُّ أن أمواجاً داخله تخضّه ، ترجّه ، ثم فجأة يستعاد بتوقفه المفاجىء ، لينضم إلى الصدر والرقبة ، كما تنضم الأنغام والأصوات بحيث يصعب تجزئتها أو فرزها مرة أخرى .

واليدان والصدر ، والردفان والظهر ، والكتفان والرقبة ، وكل مساحة من هذا الموج الأبيض الذي يتفجر بالضوء واللذة ما إن تتوالى الحركات ، ما إن تتواصل ، وحتى لما تتوقف ، يحس الإنسان أن قوة تطبق عليه ، تحاصره ، فيجد نفسه وقد أصبح كالوتر المشدود؛ مأخوذاً ، مسلوباً ليقع أخيراً في الأسر!

قبل أن تنتهي الرقصة الأولى ، اندفع أكثر من واحد إلى الحلبة ، كان كل منهم يحمل منديلاً ، وبطريقة بدائية ، غير متقنة ، وبحركات فجَّة ، يحاول أن يُواجه تلك الشعلة من العنفوان ، التي انفصلت عن كل ما حولها وأخذت ترقص لنفسها ، تعبوا ولم تتعب . والملا يونس ، بصوته الأجش ، يعرف كيف يخلق الفرح ، كيف يجعله يتوهج ، رغم التكرار ، خاصة وأن الذين يتابعون ما عادوا يرون سوى الشهوة التي تفيض من داخلهم ، وتحرقهم .

بدري الذي بدا مأخوذاً، وتركزت نظراته على هذا الألق الذي يزداد التماعاً، شعر في لحظة معينة أنه يشتهي هذا الجسد أكثر مما يحبه، أو يحب الإنسان داخله، وحامد الذي ظل يتحرك وينتقل من مكان إلى آخر، بحجة ملء كأس جديد، أو لتبادل تعليقات وهمسات مع بعض الضيوف، كان يفعل ذلك ليقترب أكثر، ليشهد الجسد عن قرب ومن كل الزوايا. لما حاذى بدري همس:

ـ لا تخاف. نيشن زين، وباچر أو اللي عقبه راح ننتقم.

وبدري الذي سمع ولم يسمع، شعر أن عواطفه تجاه المرأة تختلف في هذه الليلة عن تلك الليلة. الآن يراها بركة من اللذة، من الشهوة، وهي توزع حركاتها ونظراتها على الرجال حسب الرتب. في المرة السابقة بدت خائفة، وتريد أن تنتهي بسرعة.

وسمع حامد يهمس من جديد:

ـ ما يخالف، راح تجي يا ذاك اليوم، وتنوشها إيدي، وبعدها الله كريم!

رد بدري، وكأنه يكلم نفسه:

ـ إذا وصلنا السرا راح تشد لباسها ويصير الكلام وياها بعرضحال، يا معود!

ـ مولانا، اللي تشوفهم يرمقون لها بچفيه ما عاد بيهم حيل، الواحد منهم يحط رأسه وينچفي، هذي ينراد لها شباب مثلي ومثلك، وهي وحدها راح تجينا وتقول: صدقة لله.. يا معودين!

ـ زين.. زين انتظر!

ـ شكو ورانا، ننتظر، مو اليوم عقبه!

انتهت الوصلة. غمز الآغا حامد طالباً منه أن يقترب. همس بأذنه وك وجه إليه بعض الأوامر. هزّ حامد رأسه عدة مرات دلالة الفهم والطاع وما أن انتهى حتى طلب من بدري أن يستعد لينصرفا. التفت الآغا إ بدري وقال له بصوت مسموع:

ـ نحتاجك هنا، لا تتأخر.

ـ أمرك سيدي!

ـ ولا تنسى تسلم على الجماعة!

ـ أمرك.. سيدي!

قضيا الجزء الأكبر مما تبقى من الليل في أحاديث متعددة، لكن الحديث عن نجمة لم يتوقف. ظلت مسيطرة وكثيفة الحضور، وبعد أن أعدّت رسالة إلى قائد قلعة كفري، وسلّمت الرواتب، قال له حامد وهو يودعه:

ـ بعودتك راح يكون الرطب استوى وناكله سوية.

لم يكن يعني التمر وحده، كان يعني نجمة بالدرجة الأولى.

وفي الطريق إلى كفري، ثم بعد ذلك، وفيما بدري يواصل السفر إلى بغداد، استعاد أموراً كثيرة، واستغرب كيف أن نجمة سيطرت عليه خلال الفترة السابقة، وكان مستعداً من أجل ذلك أن يفعل أي شيء. هل أحبها؟ هل اشتهاها؟ هل كان قادراً على أن يحبها إلى النهاية كما افترض. أم أنها نزوة؟ قال لنفسه، عندما بدت بغداد تتراءى له: «راح تهلهل أم قدوري وتجمّع علينا الجوارين إذا قلت لها: يا الله حجية راوينا شطارتك وإستنقي البنيّة اللي تريدينها زوجة لابنك بدّوري» وحين لاحت له نجمة من جديد قال بصوت عالٍ، وكان معه في القافلة اثنان رافقاه من كركوك، وآخرون التحقوا به من كفري، ثم في محطات الطريق بعد ذلك:

ـ يا جماعة الخير، بعد الخبز والملح اللي تقاسمناه، وهذي أمانة برقابكم، نحن أولاد ديرة واحدة، واللي يصير على الواحد يصيب الكل...

أنصت إليه رفاق القافلة باهتمام، خاصة بسبب الجدية الأقرب إلى الحزم التي أعطت كلماته إيقاعاً مختلفاً عن الأحاديث التي جرت بينهم خلال الأيام السابقة.

تابع في ظل الصمت الذي خيّم فجأة:

ـ ماكو أحد ببغداد ما يعرف قهوة الشط، وآني كل مسوية هناك، وأريد أشوفكم، نتعشى، نتغدى، نسولف...

توقف لحظة، ثم تابع بنبرة جديدة:

ـ ويجوز تصير القسمة وأعقد مهر، فأريدكم تكونون موجودين...

ابتسم، وأضاف بكلمات أقرب إلى المرح:

ـ لو أدري شوكت راح يكون المهر كان عزمتكم من اليوم، لكن... هذي ما بإيدي. وعلى كلٍ لازم نتشاوف بالقهوة ونتفق.

وافترقت القافلة، توزعت على محلات بغداد، لكن الوعد بالتلاقي وتبادل الزيارات كان حازماً!

59

نقل الآغا إلى الشمال كان مفاجئاً له وموجعاً، وكان يفترض أن يحد الأثر نفسه على ريتش، نظراً للعلاقة التي توثقت بين الاثنين، ولأنهما ا على مجموعة من الخطوات لإضعاف الوالي وخلق المصاعب في وجهه تمهيداً لإسقاطه أو على الأقل إضعافه. لكن ريتش، بعد صدمة المفاجأة، والتي لم تطل، اعتبر الأمر بسيطاً وربما إيجابياً، إذ أن الموقع الجديد سيمكّن الآغا من الحركة والاتصال والتحريض، خاصة وأن رجاله سيكونون معه، كما أن تضاريس المنطقة الشمالية ستوفر له حماية أكيدة، فيما لو فكر باشا بغداد أن يلجأ إلى القوة.

صحيح أن الخطط التي تم الاتفاق عليها بين الاثنين لم تعد صالحة أو ممكنة الآن، لكن المهم أن تُكَوَّن قوة خاصة ومستقلة تحت إمرة الآغا، وأن يكون وحده القادر على تحريكها، وما حملة الجنوب التي لم يتوقف الآغا عن إثارتها والتحريض عليها سوى الحجة لكي يمتلك مثل تلك القوة. لو حقق ذلك، واقترن بالنصر أيضاً، لأصبح أقدر على مواجهة الباشا، هذا عدا عن استنزافه مالياً وعسكرياً، وعندئذٍ يصبح مرغماً على التنحّي أو الاستجابة لكل ما تريده بريطانيا العظمى.

أما الآن، وبهذه الحركة المفاجئة، تتغير الصورة، مما يستدعي التفكير وإعادة ترتيب الأوراق، ولأكثر من طرف، لذلك لا داعي للاستعجال. الوضع الجديد، رغم غموضه، ربما يصبح أكثر ملاءمة، «لأن بغداد، كما قال ريتش لنفسه، مثل السلحفاة: بطيئة الحركة، بطيئة الاستجابة، لكن إذا

تحركت لا تقف».

وأخذ ريتش يتذكر الأحداث التي مرت به منذ أن وصل إلى هذه المدينة العجيبة. إنها مدينة لا تقرأ بسهولة، ولا يحزر عليها. تظل هادئة ساكنة فترة طويلة، حتى يُظن أنها فقدت كل حافز، ولم يعد يعنيها شيء، لكن حين تدوي الطلقات على أسوارها، وتزحف نحوها الجموع، تتذكر أن لها دوراً، وقادرة على فعل شيء يفاجئها نفسها ويفاجىء القادمين إليها، وكأن جنوناً أصابها.

تذكر ريتش الباشاوات الذين حكموا هذه المدينة، معظمهم، إن لم يكن كلهم، انتزعوها بالقوة. جاؤوا إليها من خارجها، واقتحموا أسوارها. صحيح أن الناس يتظاهرون أنهم لا يسمعون، وحياتهم تسير كالمعتاد، لكن حين تدوي طبول الخارج، ثم تتسلل، فإن جميع الطبول الداخلية تتدحرج من أماكنها، ترافقها البيارق والرايات، وغالباً ما تخرج من مقامات الأولياء أو ما يجاورها من الأماكن، لتملأ المدينة، ولا بد عندئذ أن يحصل شيء، بغض النظر عن النتائج.

الآن، وبعد أن تم نقل الآغا، لا بد أن تطوى الأوراق القديمة، وتفتح أوراق غيرها، وهكذا قرر ريتش أن يبدأ زيارة إلى الشمال طالما أجلها، ويحسن أن يتجنب كركوك، لكي لا تظن به الظنون.

خلال رحلة الشمال، اكتشف ريتش، أكثر من قبل، خطورة داود. فالعلاقات التي أقامها متينة واسعة، والذين يكنون له الولاء، إلى درجة الحماس، كثيرون، وينتشرون في أماكن عديدة. هذا عدا عن الزيارات والوفود التي لا تنقطع إلى بغداد، أو منها إلى مدن وقبائل الشمال.

ورغم أن طبيعة ريتش اعتماد سياسة الهجوم عندما يحس بالخطر «لأن هؤلاء الشرقيين يفهمون لغة القوة أكثر من أية لغة أخرى، ولا بأس من المال، بين فترة وثانية، شرط ألا يكون هذا المال منتظماً من حيث المقادير أو المواعيد»، فإن هذه الرحلة علّمته شيئاً إضافياً: «كي تكون قريباً من الآخرين اقترب من مشاكلهم وتعاطف مع همومهم قدر ما تستطيع: أخلق

لهم أعمالاً واهتمامات في محيطهم، لكن اجعل هذه الأشياء لا تكتمل ولا تستمر إلا من خلالك، مما يتطلب أن يلجأوا إليك دائماً، دون إشعارهم بالمذلة» وهذا ما دفع ريتش لأن يولي الآثار، المهمة التي أجلها لبعض الوقت، معظم عنايته، من حيث الاهتمام وفرص العمل.

إذ حين وجد أن الفرنسيين سبقوه إلى الشمال، وأنهم استعانوا ببعض رجال الدين المسيحيين لمساعدتهم في البحث والتنقيب عن الآثار، شعر أنه خُدع، وأنه تأخر كثيراً. صحيح أن آثاريين انكليز جاؤوا، خلال فترات متعاقبة إلى بغداد، وأبدوا رغبة في البحث، بل وطلبوا مساعدة الباليوز، سواء أثناء وجوده أو قبل ذلك، إلا أن أكثر هؤلاء غرقوا في الوسط والجنوب. كما يتذكر أن عدة رسائل وصلته من السفارة في اسطنبول، ومن لندن أيضاً، تطلب إليه الاهتمام بهذا الجانب، ولكن وجد ان ما يمكن عمله هو تكليف عدد من التجار اليهود أن يطلعوه على اللقى التي يمتلكونها، أو التي تصل إلى أيديهم، قبل أن يتصرفوا بها. ولقد اشترى بالفعل عدداً غير قليل مما عُرضَ عليه، وطالب بالمزيد!

الآن، في هذه الرحلة، يكتشف أن الإنكليز خُدعوا كثيراً، فقد غرقوا في المكان غير المناسب، إذا ظلوا يبحثون في الجنوب، وكأن رهاناً من نوعٍ لا يقاوم جعلهم يصرّون على ذلك!

قال لنفسه بنوع من السخرية: «صحيح أن الرب كان يقود خطوات الطرفين، لكن يبدو أنه، لسبب ما، حين كان يقود خطواتنا، أوصلنا إلى المكان الخطأ، بينما رب أولئك الكاثوليك قادهم إلى حيث يجب أن يكونوا، ولقد سبقونا إلى هناك، وعلينا الآن أن نسرع قبل فوات الأوان!».

وحين كان يستعيد رحلات الإنكليز الباحثين عن الآثار، ويقارنها بما فعل الفرنسيون، يشعر بالغيظ، فالإنكليز جاءوا يحملون معهم «العهد القديم» وكانوا يبحثون اعتماداً على ذلك «الكتاب». كانوا يحسبون المسافات، ويسألون السكان المحليين بإلحاح عن أسماء الأماكن، ويقضون الليالي الطويلة في مقارنة مخارج الكلمات والحروف، علّهم

يصلون إلى جنة عدن، باعتبارها مهد الحضارة، ولا بدّ أن يكون مكانها عند التقاء النهرين، أو في مكان غير بعيد، كما يشير العهد القديم.

أما الفرنسيون الخبثاء، مثلما يقول ريتش لنفسه بغيظ، فقد اعتمدوا على دين معاصر، وعلى رجال دين أحياء، وهؤلاء قد درسوا العهد القديم، لكن لم يشغلهم عن سماع ما يقوله رجالهم الذين جاؤوا من أجل اكتشاف كل شيء، وقراءته بعيون الأحياء لا بعيون الموتى.

ونكاية بالذين سبقوه، خاصة من «علماء» الآثار، فقد أولى ريتش عناية فائقة للمواقع التي مرّ بها. لم يكن يكتفي بتسجيل أسماء تلك المواقع اعتماداً على ما يقوله السكان المحليون، كان يحاول أن يفعل أشياء أخرى أيضاً. فما أن يصل إلى موقع قديم، أو إلى مكان يعتقد، من تضاريسه، أن له علاقة بالآثار، حتى يأمر بالاستراحة والتوقف. وعلى ضوء المعلومات التي يحصل عليها، أو التقدير الذي يتوصل إليه، تطول الاستراحة ويستمر التوقف. وخلال ذلك لا بد أن يقيس المساحة والارتفاعات، ويجوس المنطقة بعناية، ويجمع من أفواه السكان القصص والحكايات عن ذلك المكان. ثم يجمع ما يستطيع الحصول عليه، ويكتب في مذكراته: «مررنا يوم بمكان كذا وحصلت على المعلومات التالية». ويدوّن أدق التفاصيل حول لون التربة، ودرجة الحرارة، والانحدار، وما إذا كان يرتبط بسهول أو جبال، ومصادر المياه، إلى غير ذلك من المعلومات، والتي لا بد أن يرفعها، ذات يوم، في وجه هؤلاء الذين يأتون من أقصى الأمكنة، لا لكي يروا بأعينهم، وإنما بعيون الآخرين، وخصوصاً بعيون أنبياء العهد القديم!

وكي لا يترك الأمر لمستقبل مجهول، أو للصدف. ولأن الفرنسيين يعملون. يجب أن لا ينتظر، عليه أن يعمل، أن يبدأ فوراً.

وهكذا امتدت الرحلة وطالت. ومن أجل تبرير امتداد الرحلة وطولها، كان يقول لنفسه: «من الخطأ اعتبار أن المركز، والمركز وحده، هو الذي يقرر النتائج، إذ يمكن للأطراف، إذا أُحسن تحضيرها وتدريبها، أن تُطبق على المركز كما يُطبق الوحش على فريسته، ويكون الظفر مؤكداً إذا

أحست الفريسة أنها بعيدة أو أنها بمأمن».

كان يقول ذلك ويتذكر الإجراءات التي اتخذها داود لإعادة ترتيب السراي والحراسات، وأيضاً بعد تغيير القطعات المحيطة ببغداد، وتغيير إجراءات الحماية.

ليس ذلك فقط، كان يقول لنفسه بنوعٍ من الثقة الفياضة: «يكون الصياد غبياً إذا ترك وعلاً يعبر حقله، ويكون عَلى مرمى من بندقيته، بحجة أنه ذاهب لصيد الخنازير!».

كان يردد مثل هذا الكلام لأنه في هذه الرحلة يستطيع أن يحقق أموراً عديدة في وقت واحد. سوف يلبي الدعوات التي وجهت إليه. وسوف يُشعر الأصدقاء أنه قريب منهم ولم ينسهم. أما الطريق الذي يراد إنشاؤه بين بريطانيا والهند، فلا بد أن يكون مختلفاً عن الطريق الذي خطته الدواب، لذا فالاقتراحات التي سيقدمها إلى لندن هي ثمرة اطلاع مباشر، ومعرفة إنسان قطع المسافة على قدميه! وأخيراً: الكنوز التي تراها العين، قبل أن ينهبها الفرنسيون، وربما بموافقة من داود، أو على الأقل وهو يغض النظر عما يفعلون، فقط كي يغيظ بريطانيا العظمى ويتحداها!

ولئلا يضيع أو ينتظر، ولأن الفرنسيين سبقوه إلى رجال الدين المسيحيين في الشمال، فلا بد أن يعتمد على آخرين، وأن يكون هناك دافع داخلي ومغرٍ كي يتحمس هؤلاء من أجل مساعدته.

هكذا توصل إلى معادلة شديدة البساطة، وشديدة الإقناع: سوف يركز جهده في البحث حيث يبحث خصومه، الفرنسيون، لأنهم حين اختاروا تلك الأماكن لم يختاروها عبثاً، فهي ثمرة جهد طويل ومعرفة، وبدل أن ينتظر وصول العلماء الإنكليز، وإجراء المسح والأبحاث، عليه أن يقطف الثمرة الجاهزة، وهي ليست بعيدة عن عينيه! قد يضطر، للتمويه فقط: أن يبحث في الجانب الشرقي في الموقع، حين يبحث الفرنسيون في الجانب الغربي، لكن سيسبقهم في الوصول إلى قمة الموقع، من أجل تثبيت علم الامبراطورية، وعند ذاك لا بد أن يظهر الفرنسيون كمعتدين إذا أرادوا إنزال

العلم ومنافسته على القمة. فهزيمة نابليون لا تزال قريبة وتدوّي في الآذان، والمهزوم هناك لا يستطيع أن ينتصر هنا، أو أن يحتفظ بالنصر لفترة طويلة فيما لو حققه فعلاً.

أما كيف سيحقق هذه الخطة، فإنها، لبساطتها، لا تتطلب سوى أن نُعلن.

تلك الليلة، أواخر الربيع، شعر ريتش أنه ملك حقيقي. شعر بغبطة عارمة حين توصل إلى تلك الخطة. صحيح أنه لا يطمح، ولم يفكر مجرد تفكير، أن يكون ملكاً للامبراطورية، لكن الملك الحقيقي، كما افترض، هو الذي يستطيع أن يحقق هدف الامبراطورية؛ وهو الجدير بتمثيلها من حيث الروح والجوهر، هو الذي يترك مأثرة في ضمير الأجيال: هكذا يجب أن يفعل الإنكليزي المخلص.

وإذا كانت الحكمة والشجاعة معاً، في لحظة الحريق، تقضيان أن يُنقِذ الإنسان ما يمكن إنقاذه، وليس ما يحب إنقاذه، وعليه ألا يتأخر في ذلك، فإن تكوين فريق للبحث عن الآثار، بالحد الممكن والمعقول، ودفعه بسرعة إلى العمل، يشبه فريق الإنقاذ من الحرائق.

وكلمة السر لتكوين هذا الفريق، وسرعة تدخله: الكنوز!

حين توصل ريتش لهذه الفكرة، وإمكانية تحقيقها، شعر أنه يمثّل بريطانيا العظمى، وأنه ضميرها، وأنه مستقبلها. وهذا معناه، بشكل ما، في وقت ومكان محددين، أنه الملك الفعلي!

ولم يتأخر، ولم يتردد في أن يبدأ.

ماري الحالمة، ذات النسب العريق، وكان ريتش يحرص على أن يوفر لها أقصى شروط الراحة، من حيث اختيار الطريق الأقل وعورة كي تسلكه، وإطالة فترة استراحتها في كل محطة، راق لها، في بداية الرحلة، أن تجمع أنواعاً كثيرة من الزهور البرية، وتشكّل منها باقات، لكن لشد ما كانت تحزن حين ترى تلك الزهور تذبل بسرعة، وفي أحيان كثيرة قبل أن يصل ريتش مع قافلة الرجال، فتضطر لأن تنتخب عدداً من تلك الأزهار

لتضعها في الكتب الكثيرة التي حملتها زاداً لرحلة الشمال الطويلة والمضنية.

أمّا بعد أن أهداها ريتش عقداً قدمه إليه شيخ قبيلة تركمانية شمال شرق كركوك، ورغم انثلام بعض حباته، وعثر عليه في أسفل أحد التلال، فقد بدا فاتناً وأجمل من العقود التي تصنع في أوروبا، بأحجاره الثمينة وألوانها البراقة. أصبحت ماري بعد هذه الهدية أكثر أفراد المجموعة رغبة في البحث عن الآثار، وكانت مستعدة أن تفعل ذلك بنفسها! بل واقترحت أن يُصرف النظر عن هذا التقسيم الجائر للمشاركين في الرحلة، بحيث تتوحد القافلة، ولا تبقى قافلتان أثناء المسير، واحدة للرجال والأخرى للنساء مع عدد من الحرس والمرافقين. وحين وجدت ريتش غير متحمس للأمر، بحكم التقاليد السائدة في هذه البلاد، وأيضاً لتجنيب النساء المشقة، اقترحت أن تتاح الفرصة للنسوة كي يشاركن في التنقيب في بعض الأماكن، حيث يطول توقف القافلة. ولقد حقق لها ريتش هذه الرغبة. وكم كانت فرحة مدهوشة حين عثرت على قطع من الفخار المزخرف، وقطع من الزجاج الملون. !

لقد تغيرت ماري إلى أقصى حد، وخلال فترة قصيرة. إذ بعد الأمراض الغامضة التي كانت تستبد بها في بغداد، وتجعلها قلقة، منهكة، وبعض الأحيان شديدة التطير والكآبة، ولا تكف عن مطالبة ريتش أن يلتمس من رؤسائه كي يختصروا فترة إقامته «في هذا المكان النائي، والذي لا بد أن يؤدي إلى الموت، أو على الأقل يسبّب أمراضاً لا شفاء منها» كان ريتش يحتال على الأمر بإغراقها بالهدايا والوعود معاً، ويضطر، بعض الأحيان، حين يبدو له وضعها وقد اقترب من درجة الخطر، أن يسافر إلى أوروبا، خاصة إنكلترا، لقضاء إجازات طويلة، ويحاول، خلال تلك الإجازات، أن يبدو إنساناً آخر: أكثر بساطة ومرحاً، علّها تعوّض ما فاتها في تلك «المدينة البعيدة» كما تُسمّي بغداد بإصرار لا ينفك يتزايد سنة بعد أخرى، ولا تتردد أن تقول ذلك أمام عدد من الأصدقاء وبعض الزوار،

تعبيراً عما تكنه من كراهية لهذه المدينة.

الآن، في هذه الرحلة، بدت ماري امرأة مختلفة، ولقد ظهر ذلك بتصرفاتها، وأيضاً على شكلها. لم تعد تغرق في تلك الروايات الخيالية، والتي من شأنها أن توفر لها جواً مختلفاً عن ذاك الذي تعيشه. كما طوت دواوين الشعر التي تعودت قراءتها قبل النوم. أما الزهور البرية التي أخذت تتفنن بانتقائها، وطريقة ترتيبها، وكانت تشكلها بشعرها، أو تصنع منها أطواقاً تضعها في رقبتها، فقد تراجع اهتمامها بها مقارنة بالآثار، بعد أن اكتشفت ثم فتنت بهذا العالم الواسع والغني.

حتى التعب الذي ظلت تشكو منه طوال الفترات السابقة، وقد حاربه طبيب الباليوز إلى الدرجة القصوى، رغم أنها تقضي وقتاً طويلاً في سريرها، ولا تقوم بأي عمل مجهد، وأعطاها من المقويات الكثير، لعلها تسترد نشاطها وحيويتها. هذا التعب زال تماماً في هذه الرحلة، بل حلّ مكانه نشاط فياض وحيوية دافقة، وقد تمثل ذلك بالنهوض مبكراً، وبشهية فائقة للأكل، عدا عن المرح والضحكات التي كانت تدوي لأبسط الأمور، ولأقل الكلمات إثارة.

قال الطبيب: «إنه هواء الشمال، إذ غالباً ما يكون الطقس هو الداء وتغييره هو الدواء». وقال الطباخ الرئيسي: «السفر يفتح الشهية، ثم إن خضار الشمال وفاكهته تعتمدان على المطر والندى، وليس كخضار بغداد وفاكهتها التي تُسقى بذلك الماء الثقيل، ماء دجلة». أما ريتش ذاته، الذي فوجىء بمقدار التغير، وقد سماه انقلاباً، فاعتبره نتيجة الوعد بضرورة أن يفكرا جدياً ان وقت الإنجاب قد حان، ولا بد أن يكون لهما طفل! ومما جعل ريتش يرجح هذا الاحتمال، شرط ماري أن يولد الطفل في انكلترا، «كي يكون طبيعياً بين زملائه، ولا يحمل عقل الشرق».

أما السبب الحقيقي لهذا التغير، والشبيه بالانقلاب، فهو أن ماري وجدت الهواية التي تلائمها، التي تحبها: الآثار، والتي اكتشفتها فجأة، دون تخطيط سابق، ودون تصميم، وكأنها خُلقت لهواية من هذا النوع!

ومثل أشياء عديدة في هذه الحياة، حين يكتشف الإنسان أنه أخطأ موقعه أو دوره خلال فترة معينة، وقد اهتدى أخيراً للدور الذي يلائمه والموقع المناسب، فإنه يحاول تعويض ما فاته، إذ يقبل على العمل بحمية كبيرة، وبجموح يلفت نظر الآخرين، وقد يستغربونه.

فما تكاد ماري تعثر على مجموعة من كسر الفخار أو قطع الزجاج الملون، حتى تصيبها حمّى من أجل جمع كمية أكبر منها. وما إن تجد حجراً تعتبره جميلاً أو مميزاً، مهما كان حجمه، حتى تبدأ التوسل لريتش كي يأمر بنقله مع القافلة. أكثر من ذلك، كانت تحمل عينات من التربة والرمال في أكياس صغيرة أو بصرر، وفي قناعتها أن تلك العينات إذا أرسلت إلى بريطانيا، وتم تحليلها هناك، لا بد أن تؤدي إلى نتائج خارقة!

ريتش الذي اصابته العدوى، واعتبر هذه طريقة لعلاج ماري، ما لبث أن ضاق بمبالغاتها، وكثرة مطالبها، وبعض الأحيان استحالة تلبية تلك المطالب. لجأ إلى أساليب شتى، كي يلتفّ على الأمر، إذ بالإضافة إلى أحاديثه الطويلة معها حول ضرورة اختيار الأشياء المهمة، النادرة، والاقتصار، في هذه المرحلة، على معرفة المواقع وتسجيلها، على أن تأتي في فترة لاحقة عمليات البحث والتأكد، فقد وافق على حمل بعض العينات، وتظاهر بنسيان عينات أخرى! كما طلب أن يُودع بعضها لدى أصدقاء، على أن تُحمل في طريق العودة، أو في وقت آخر.

هذه الأمور التي أثارت اهتمام ريتش في رحلة الشمال، وغيّرت ماري تغييراً كبيراً، ما لبث أن انعكست على جميع أفراد الرحلة، ثم أخذت تنقل العدوى لكل من تصبح له علاقة بالقافلة. حتى شيوخ القبائل المحليين، الذين تعودوا مشاهده هذه التلال منذ أن رأت عيونهم النور، أصبحوا، بحكم الحمّى التي دبت فجأة، ثم الكلمة السحرية التي أطلقها ريتش، «الكنوز»، شديدي الحرص على أن يتعاملوا مع الأمر بطريقة مختلفة: استخرجوا، من أماكن بعيدة، الأساور والأطواق، وأنواعاً أخرى كثيرة من الحلي والمباخر والحجارة المصقولة، كما حاولوا أن يتذكروا أين وجدوا

لك الأشياء، أو أين أصبحت بعد أن تم العثور عليها. وتساءلوا ما إذا كانت هذه القطع مهمة بذاتها أو أنها تدل على وجود الذهب، كما تدل بعض النبتات الصغيرة التي ترفع رؤوسها أيام الربيع على وجود الكمأة أو الدرنات الأخرى تحت التربة.

حتى الفلاحون الذين تصبح عيونهم، خلال هذه الفترة من السنة، مثل عيون القطط الخائفة، إذ تتراوح بين الأرض التي زرعوها، ونما فيها الزرع، لكنه بحاجة إلى مزيد من الأمطار، وبين السماء التي لا تفارقها أنظارهم وهي تناشدها من ناحية، وتستطلع الغيوم التي تعبرها، في أحيان كثيرة، مسرعة. حتى هؤلاء الفلاحون، ودون إيعاز من الشيوخ، اندفعوا لملاقاة القافلة مع المساحي والفؤوس، بعد أن وصلتهم الأخبار: «القنصل يدفع أجوراً سخية لقاء حفر بعض التلال، أما إذا وجدت الكنوز فسوف يدفع أجراً مضاعفاً».

كان ميناس يجد صعوبة في تحديد عدد العمال اللازم لكلٍ من التلال. وكان يختار، بناء لتوجيهات ريتش، ولتوصية الشيوخ، العدد الذي يعتبره كافياً، لكن هذا العدد لا يلبث أن يزداد، ويوافق ريتش على هذه الزيادة، لأن من سيُرفضون لا بد أن يعملوا وحدهم، لحسابهم الخاص، في جانب آخر من التل، إذا لم يكن اليوم فغداً، وريتش لا يريد أن يبقى شيء خارج سيطرته، خاصة وأن الفرنسيين، بعد عدة تجارب، ظنوا وأشاعوا بين الذين عملوا معهم، وأوصلوا ذلك عن طريق رجال الدين: «الإنكليز عابرون، قد يبقون هنا يوماً أو اثنين، وبعد ذلك سيواصلون الرحلة إلى مكان آخر، أما نحن فباقون، ولذلك لا حاجة للقلق أو الخوف!».

ومع كل يوم يمر، وفي كل محطة جديدة، ترتفع حمى الاهتمام، سواء في القافلة أو في الأماكن التي تعبرها. بل وأصبح السكان المحليون ينتظرون وصول ريتش بعد أن سبقته الأخبار كي يعرضوا عليه ما لديهم من لُقى وأشياء منسية. كانوا يحملون أواني فخار قديمة وقطعاً حديدية صدئة، وبانتظار وصوله يقلّبون تلك الأشياء باستغراب وتساؤل: ما فائدتها؟ لماذا

يجمعها؟ ماذا سيفعل بها؟ ومع الأسئلة التعليقات الساخرة والمراهنات!

وماري التي فتنت، أول الأمر، بالخرز والحلي، ما لبثت أن وجدت في الأشياء الأخرى جمالاً لا تعرف كيف فاتها، أو لم تلتفت إليه من قبل، الأمر الذي دعاها لأن تهتم بكل شيء بدا لها قديماً! حتى الصخور، على جانبي الطريق، أو في أعالي الهضاب، كانت تتراءى لها آثاراً، وكثيراً ما طلبت أن تتوقف القافلة لتتأكد ما إذا كانت الأشكال التي تراها في الصخور، من صنع الإنسان أم من فعل الطبيعة. كانت تتلمس بيدها، وبعض الأحيان تغمض عينيها وتترك أصابعها وحدها تجوس الصخر وتتقراه، علّها تكتشف شيئاً لم يسبقها إليه أحد. أكثر من ذلك كانت تصف لريتش، وتظل تؤكد بكلمات قاطعة، أن أغلب ما رأته في رحلة اليوم لا يمكن أن يكون نتيجة فعل الطبيعة وحدها، إذ لا بد أن يكون الإنسان قد تدخل بشكل ما، بنسبة ما، مضيفة أن الإنسان الذي سكن هذه المنطقة فنان بطبعه ومزاجه، وجاءت الطبيعة كي تساعده على إبراز هذا الفن.

ريتش الذي تعود أن يستمع بصبر، خاصة من ماري، ورغم تعب النهار المضني، يحاول التوضيح بأساليب شتى أن الرياح، وعوامل التعرية الأخرى، يمكن أن تبدع في الطبيعة أشكالاً وأشياء قد يعجز الإنسان عن القيام بها، وأن هذا الأمر لا علاقة له بالآثار، خاصة التي يبحث عنها. لذلك يجب عدم التوقف عند ظواهر الطبيعة، وعدم إفساح المجال أمام الخيال لئلا يذهب إلى أمكنة بعيدة، أو افتراض أشياء وهمية، ولكن ماري، مثل قطة مخنوقة، تصرخ:

ـ لا يمكن أن أصدق؛ إنه شيء خارق!

وحين يوافقها ريتش ان ما رأته شيئاً جميلاً، وقد يفوق ما تصنعه يد الإنسان، إلا أن الطبيعة وحدها، دون تدخل من أحد، هي التي صنعته، ترد بحزن:

ـ يجب أن نتأكد، أن نتحرى بدقة، فالإنسان القديم، من حيث القوة والضخامة، يختلف عن الإنسان المعاصر!

ولأن ريتش لا يريد أن يدخل في رهان خاسر، كما لا يقوى على احتمال مثل هذه الأفكار، ويهمه أن يستريح من تعب ذلك النهار، يوافقها على ضرورة التأكد والتحري بدقة، ويعدها أن يتلمس بأصابعه، كما تفعل هي، في الأيام التالية.

وتستمر القافلة في رحلتها نحو الشمال، مع ميل متزايد نحو الشمال الغربي. ويسجل ريتش في مذكراته المعلومات التي يرى ضرورة تسجيلها، وفي جوانب متعددة، من حيث المحاصيل ومصادر المياه ونوعية السكان، والمسافات بين الأماكن. وحين يتذاكر مع ماري حول رحلة ذلك اليوم، يجد أن مزاجها متعلق بشيء واحد: الآثار. فإذا صدف أن انقضى أحد الأيام دون مفاجأة أثرية جديدة، دون لقى جديدة، يُعثر عليها، أو يقدمها السكان المحليون، فإن حالة من السوداوية تسيطر عليها، مع إلحاح متزايد أن يبحث مع السكان المحليين عن الأماكن الأثرية وضرورة الوصول إليها ولا يهمها أي شيء آخر!

ولأن ريتش لم يكن يحلم أن تصل ماري إلى هذه الحالة المعافاة، وأن تجد عملاً أو هواية في هذه البلاد البعيدة، فقد كان مستعداً لتقديم تنازلات كثيرة من أجل أن تستمر بحماسها وحيويتها، وأن تكون ماري معه لا ضده، فقد كان يشعر أن وحدته تزداد، وألمه يتضاعف حين يجدها غارقة في كتبها، بعيدة عنه، وبعض الأحيان كارهة ورافضة للبقاء، رغم كل ما يبذله من أجل أن يجعل الحياة معقولة، إذا لم يستطع أن يجعلها جميلة في هذا المكان النائي!

ومن أجل أن يسود السلم، أن تقتنع ماري بما يفعله، وجدوى هذا العمل، كان يجاملها كثيراً. ورغم أن رحلته كانت متنوعة الأسباب والأغراض، فقد اضطر أن يقنع نفسه، أكثر مما ينبغي، أن الآثار، خاصة في هذه المرحلة، وبمواجهة الفرنسيين تحديداً، تستحق أن يخصص لها جل اهتمامه، وأن يجعلها الغاية الأساسية، مما اضطره أن يغيّر، أكثر من مرة، اتجاه السير. أو إطالة الإقامة في مكان معين، أو مغادرته بسرعة.

حتى ميناس الذي كان شديد الصرامة في انتقاء المكارية، وقد حرص على اصطحاب أكثرهم من بغداد، نتيجة المعرفة والخبرة، فقد أصبح مضطراً، بسبب الأحمال الجديدة، إلى قبول مكارية جدد ودواب من أنواع لم يفكر أن تكون ضمن قافلته! مع ما يتطلبه ذلك من أعباء المؤونة، وسرعة الحركة والانضباط، إضافة إلى تحمّل اختلاف الأمزجة والعلاقات، وما تؤدي إليه من خلافات ومكائد، مما جعله، في إحدى المحطات، يضطر إلى جلد ثلاثة من الأكراد وأحد البدو، من رفاق القافلة، نتيجة مخالفات وتحديات لم يستطع احتمالها أو السكوت عليها.

ولئلا تصبح حركة القافلة ثقيلة، بما يضاف إليها في كل محطة من أحمال، ومن أجل محاصرة الفرنسيين في أهم المواقع التي يعملون فيها، قرر ريتش أن يكتفي بتسجيل أسماء المواقع، وطلب من الشيوخ تأمين حراستها، وإبلاغه ما ان يقترب الفرنسيون منها، كما اتفق مع ميناس على ضرورة إعادة جزء من القافلة بأقرب وقت إلى بغداد، والإسراع إلى نينوى، حيث يوجد أكبر نشاط أثري للفرنسيين هناك.

ماري التي ازداد تعلقها بالمواقع واللقى التي عثروا عليها، وما كانت لتوافق على مغادرة أي منها إلا بصعوبة، وكثيراً ما نظرت إلى الخلف، وبحزن، وهي تفارقها، أصبحت تقضي وقتاً طويلاً في محطات السفر، وهي تعيد ترتيب اللقى. كانت ترتبها حسب الألوان والأحجام، وبعض الأحيان حسب ما تعتبره أكثر جمالاً أو انسجاماً، الأمر الذي ولّد كماً غير قليل من سوء التفاهم بينها وبين ريتش، الذي كان له رأي آخر حول الترتيب المناسب، إذ يجب أن تبقى مواد كل موقع مستقلة عن مواد المواقع الأخرى، وأن تبقى كل مادة مستقلة عن غيرها من المواد، على أن يجري التصنيف في وقت آخر، ومن قبل أشخاص ذوي دراية.

كانت ماري توافق على رأيه، من حيث المبدأ، كما تقول، لكن لا تستطيع أن تمنع نفسها من استخراج بعض اللقى من أماكنها، وإجراء مقارنة بين مجموعة وأخرى، مما يؤدي إلى اختلاطها من جديد، أو عدم التأكد

ما إذا كانت تنتمي لهذه المجموعة أو لتلك!

أما حين تقرر استئجار بعض الأكلاك، واعتماد الطريق النهري من أجل إرسال الأحمال إلى بغداد، فقد كان ذلك اليوم يوماً حزيناً، وقراراً قاسياً لماري. كانت تريد أن تُبقي هذه اللقى معها، حولها، تماماً كما تريد الدجاجة أن تبقي صيصانها إلى جانبها. أما أن تسافر الأحمال وحدها، أن تكون بعيدة عنها، فما كانت لتحتمل ذلك بسهولة. !

وريتش الذي كان حاداً نزقاً في علاقاته مع الآخرين، ولم يكن يبالي بما يتولد من حدته أو نتيجة نزقه من ردود أفعال، كان شخصاً مختلفاً تماماً مع ماري، ربما لما يكنه لها من حب، واعترافاً بتضحيتها حين قبلت به زوجاً، رغم الفرق من حيث الموقع الاجتماعي والعراقة، وأيضاً الفرص التي كانت متاحة لها، ثم مرافقتها له إلى ذلك المكان الذي لا يقبل به إلا المنفيون والحالمون، وبعض الذين يهوون المغامرات والأماكن المجهولة! إنه يقدر لها كل هذه الأشياء، الأمر الذي جعله معها بالغ الرقة شديد الحرص على أن يؤمن لها اقصى ما يستطيع من شروط الراحة، إذا لم يستطع أن يؤمن لها السعادة.

أما بعد إقامتهما الطويلة في بغداد، وحالة الكآبة التي أخذت تسيطر عليها، وبشكل متزايد، وما ولّدته هذه الحالة لدى ريتش من مشاعر هي مزيج من الشفقة والاعتراف بالذنب والشهامة، فقد أصبح مستعداً لأن يكون معها شخصاً مختلفاً عن صورته أمام الآخرين، وبالتالي لا يتردد في تلبية جميع ما تطلب. !

الآن، وهو يراها شديدة الانفعال، ظاهرة الحزن، حين تقرر إرسال الأحمال إلى بغداد، بل وتفكر جدياً أن ترافق تلك الأحمال بالنهر، وريتش يبذل أقصى طاقته وكل ما يملك من وسائل الإقناع لثنيها، مؤكداً لها أن ما سوف تراه فيما تبقى من الرحلة يفوق بكثير أي شيء رأته من قبل، وهي بدموع سخية تعلن احتجاجها، بل ورفضها، إلى أن تم الاتفاق على حل وسط: أن تستبقي ضمن القافلة مجموعة من اللقى، التي تعتبرها الأحب

إليها، على أن تسافر البقية، مع وعد برحلة جديدة خلال هذا الخريف، وأبعد تقدير خلال الربيع القادم، مخصصة بالكامل للآثار، وأن يُحمل من هذه المواقع أقصى ما يُستطاع حمله. وكتأكيد لهذا الاتفاق، قال ريتش لميناس، الذي ظل حائراً ازاء التعليمات المتناقضة حول الإيعاز للأكلاك بالإبحار أو إلغاء الرحلة كلية... قال له ريتش، وكانت ماري تنظر إليه بجفون ثقيلة:

ـ يجب أن تبدأ منذ الآن بالتحضير لرحلة جديدة في الخريف القادم، وستكون هذه الرحلة مقتصرة على الآثار...

ثم بصوت واضح وبنبرة أعلى:

ـ نحتاج إلى بغال قوية لهذه الرحلة، ونحتاج إلى أدوات هندسية، وإلى عمال مهرة...

وتطلع إلى ماري وهو يضيف:

ـ وستكون ماري هي رئيسة هذه البعثة الأثرية!

قال ميناس، وهو ينقل نظراته بين الاثنين:

ـ سأبذل أقصى جهدي من أجل توفير كل شيء، وسنعثر على آثار كثيرة وجميلة...

وبعد قليل وبمرح:

ـ هل أستطيع أن أعطي الأوامر بتحرك الأكلاك؟

هز ريتش رأسه دلالة الموافقة. أما ماري فقد استدارت ودخلت خيمتها.

ولم تتأخر القافلة حتى نصبت خيامها بالقرب من نينوى.

60

الموصل، المدينة والمحيط، أيام الربيع مكان السحر الحقيقي. الطبيعة التي ظلت متوارية كامنة، طوال الشهور السابقة، تخلت فجأة عن اتزانها، نزعت الوقار الذي كانت تتلحف به وأخذت تصرخ وتتحدى إلى أن بلغت مرحلة الجنون. فالألوان تتفجر كل لحظة، في كل مكان، وتتغير في اللحظة ذاتها، أو في اللحظة التي تليها. وكنوز الأرض التي اختبأت بخوف طوال أيام الشتاء، قررت أن تهاجم وتكتسح كل شيء. أما البرودة القارية، والتي تبلغ ذروتها في ساعات الصباح المبكرة، فتتحول، في هذا الفصل، إلى عبق فياض ما إن ترتفع الشمس ذراعاً أو ذراعين.

حتى البشر والحيوانات والطيور في الربيع يصبحون مخلوقات أخرى، مخلوقات مختلفة، وكأن مساً أصابها، أو سرى فيها نسغ جارف كما يسري في الأشجار. فالرجال الذين كانوا يحرصون على الأصوات الهادئة البطيئة، ويؤثرون، في أحيان كثيرة، الصمت والتأمل، يصابون بحالة من الانفعال أقرب إلى الهياج، إذ ترتفع أصواتهم، ويميلون إلى التحدي. كما ترتفع معها الأغاني والكلمات البذيئة والتعليقات الجنسية المكشوفة، كما يذهب الكثيرون إلى بيوتهم مبكرين، بحجة أنهم لا يحتملون برودة المساء!

وإذا كانت النباتات تتحدى دون أن تغادر أماكنها، وتصرخ طالبة أن يأتي الناس لرؤيتها، وتولّد داخلهم الهموم والأسئلة، وذلك الخدر اللذيذ الذي يبدأ من العين ليسري في جميع جوانب الجسد، ويظل مستقراً هناك

فترة طويلة، إذا كانت النباتات بألوانها وتنوعها وعبقها تفعل ذلك، الطيور، من الخراقة والخفة التي تستبد بها، لا تستطيع أن تخفي بذاءاتها أو أن تتستر عليها، بل أكثر من ذلك تفاخر بها وتتحدى!

الطيور في الربيع تمثيل لحالة العري الحقيقية التي فُطرت المخلوقات كلها: تتغازل علناً وبلذة، تعشق وتشتهي دون تردد و مخاوف، سوى ممن هو أقوى، ومن ذات الجنس. وهي تلجأ إلى ذلك خاصة حين تنتقل من مكان إلى آخر، كي تعطي المخلوقات الأخرى در كيف يكون الحب، وكيف تصبح الشهوة الجانب الآخر للحب، أما الغز الطويل فيفتح ألف باب للنشوة، وكل هذه الأبواب لا تغلق!

حتى الفتيات، أول نضجهن، بعد أن تكون أعينهن قد تفتحت على الألوان، فإنها تتفتح الآن على تلك الرقة التي تتمثل بالطيور، خاصة الحمام، التي لا تتعب من المطاردة، من التمسح ببعضها، من اشتباك المناقير، وأيضاً تلك الوشوشة التي لا تعلن شيئاً لكنها تقول كل شيء. وهذا ما يجعل الفتيات، في هذا الفصل بالذات، أكثر نضارة وأخطر، لأنهن يغادرن الخجل ويكففن عن النظر إلى الأرض، إذ تصبح نظراتهن أكثر جرأة واستقامة، وأشد فتكاً، بعد أن جنّت الحنايا داخلهن وتحركت الشهوة، تماماً كما تفعل الأرض، كما تفعل طيور الحمام.

أما الحيوانات الداجنة، خاصة الأغنام، التي تبدو أقرب إلى البلادة بنظراتها البلهاء، وحركاتها التي لا تعرف الرشاقة، فإنها في أيام الربيع، خاصة من خلال المواليد الجديدة، تصبح مخلوقات بالغة الجمال، بالغة الرقة. فعيون الخراف الصغيرة، في أسابيعها الأولى، لا تخلو من مكر لذيذ، ومن تحدٍ، وكأنها تحن إلى أيام ماضية، حين كانت تسرح حرة في البراري، وتعرف كيف تدافع عن نفسها، وتتسلق أعلى الأمكنة وأصعبها من أجل أن تبقى. أما صوف الحملان الجديدة فتُذكّر بأول أيام الخلق، بتلك اللمعة الزاهية، وذلك الدفء الذي يفيض بسخاء، حتى تبدو أ. ببياض الثلج وهو يهبط من السماء.

السنة.

لم يخطىء ريتش حين وصل إلى الموصل في هذه الفترة من السنة. يتذكر سنة سابقة، جاء أيضاً في فصل الربيع، لكن أمطار تلك السنة كانت قليلة، ورغم مخاض الطبيعة القاسي الطويل، فقد انتهى ذلك المخاض إلى تعبيرات زاهية، لكنها قليلة، بحيث لم تقنع أحداً. ويتذكر أن الموصل، حين جاء سابقاً، كانت تحارب البدو الذين تدفقوا عليها بكثافة، ولم تستطع أن تردهم إلا بصعوبة، وبعد أن قدمت الكثير من الدماء والأموال. لقد جاء ريتش يتوسط ويصلح ويداوي الجراح، وغرق في الغرف أياماً بعد أيام، ولم يستطع أن يشهد من الطبيعة إلا ظلالها، ولم يصله إلا نواحها مع نواح الناس.

في هذه المرة، بمقدار ما فوجئت ماري، فوجىء. وبمقدار ما صرخت ماري، وشهقت، لروعة الطبيعة وجمالها، فقد شاركها الإعجاب والدهشة، وإن لم يجرؤ على التعبير بالطريقة نفسها أو بالمستوى نفسه!

وإذا كانت ماري قد فتنت إلى أقصى حد بروعة الألوان وتنوعها، وكانت في أحيان كثيرة لا تصدق ما ترى، بل وتغمض عينيها متعمدة، وفي ظنها أن ما تراه مجرد حلم، وما إن تنفتح العينان مرة أخرى، حتى تتلفت من جهة إلى ثانية، وتصرخ:

ـ لا أصدق هذا الجمال، هذه الروعة، يا كلود!

ورغم أنها عادت، مثل ما فعلت في بداية الرحلة، إلى جمع الزهور، لكنها كانت تفعل هذه المرة بطريقة نزقة، ولا تخلو من جموح في بعض الأحيان، وكأن الطبيعة ذاتها تغلغلت داخلها، وأخذت تحفر وتقرض. حتى حركاتها وأفكارها وردود أفعالها اتسمت بمقدار كبير من الحدة والطرافة، وفي حالات معينة لم تخلُ من الغرابة.

وتتذكر القافلة كيف أنها توقفت في إحدى مراحل الطريق، وطال وقوفها، كي تحضن ماري كل حمل من الحملان في قطيع كبير. لقد تحولت إلى طفلة شقية وهي تطارد الحملان. كانت تفعل ذلك بلذة، بشوق، غير عابئة بانتظار القافلة، أو بالكلمات التي يمكن أن تُوصف بها

تصرفاتها! أما في الليل، وحين التقت قافلة الرجال بقافلة النساء، المحطة المقررة، ورغم أن ريتش قضى وقتاً غير قليل في زيارة مضار إحدى القبائل، فلم يكن يفصل بين وصول القافلتين إلا وقت قليل، أثار استغراب ريتش، وحتى قلقه، في اللحظات الأولى، لكن حين عر السبب، من المعاونيين أولاً، ثم من ماري ذاتها، فقد انخرط في موجة الضحك!

وفي تلك الليلة، ألحت ماري على أمرين: أن يشتري لها ريتش عد من الخراف الصغيرة، وأن تحملها معها إلى بغداد، «لأنها لم تحب طوال إقامتها في هذا البلد، كما أحبت هذه المخلوقات الجميلة!» وريتش الذي شاركها الإعجاب بجمال الحملان، أكّد لها أن في بغداد مثلها أو أجمل منها «ثم إنه من القسوة فصلها عن أمهاتها وهي ما تزال رضيعة!».

أما الأمر الثاني الذي ألحّت عليه ماري فهو أنه «حان الوقت كي يكون لنا طفل» وقد حاول الإثنان تخطي التحفظات التي كانت تمنع أحدهما أو كليهما في السابق!

لقد تدخلت الطبيعة، في هذا المكان، إلى جانب ريتش، وإن لم تتخل عن ماري. فقد أصبح ريتش أكثر قدرة ومرونة على التحرك والاتصال بمن يريد الاتصال بهم، ولبى دعوات كانت مؤجلة منذ وقت طويل. واستفسر عن أمور قبلية، من حيث التحالفات والعداوات والمراعي والمياه، وأوعز، بشكل مباشر أو غير مباشر، بضرورة حل بعض النزاعات والمشاكل المعلقة، أو تركها، ضمن حسابات اعتبرها هامة وضرورية في تلك المرحلة.

فعل ذلك، ولم تغب عنه مراقبة الطبيعة والتمتع بجمالها في هذا الوقت من السنة. وقد أشار، أكثر من مرة، أنه لم يشهد جمال هذه المنطقة كما يشهده الآن! والشيوخ الذين كان يروق لهم سماعه وهو يتحدث العربية بلهجة وإن لم تكن لهجتهم تماماً، إلا أنها مفهومة ومقبولة، خاصة وأن أجانب آخرين، بمن فيهم الأتراك، لا يتكلمون مثله، أو تبدو لهجتهم مثير

للالتباس ثم للضحك. ولقد أكد له الكثيرون، وربما الجميع، أن الأرض هنا من الخصوبة إلى درجة لا يتصورها الإنسان، كل ما تحتاجه المطر! فإذا جاء المطر بكميات ومواعيد مناسبة، وهذا لا يحصل دائماً، فإن الخيرات كثيرة إلى درجة لا يعرف الناس أين أو كيف يخزنونها، وأكدوا له أن قسماً كبيراً من هذه المحاصيل يتلف، أو يصبح طعاماً للحيوانات! أما السنوات التي ينحبس فيها المطر، أو يأتي بمواعيد غير مناسبة، فإن الناس تأكل بعضها، كما قالوا!

أما كيف لم تتخل الطبيعة عن ماري فالأمر شديد البساطة: إذ بعد أن سيطرت عليها الآثار، وكادت تخلب لبها، غير تاركة لها أية هوايات أخرى، وكانت لا تخفي حزنها، وأيضاً خوفها، على اللقى الهامة التي تجمعت، ثم أُرسلت عبر النهر إلى بغداد، فقد وجدت في الطبيعة، مرة أخرى، عوناً. فهذا الكم من الجمال، خاصة الألوان، لا يمكن لأية امرأة، مهما كان حالها، أن تغفل عنه، أو أن تتجاهله. وإذا كانت ألوان بداية الرحلة قد فتنتها، فماذا تستطيع أن تقول الآن؟ وإذا كانت قد جمعت مقداراً كبيراً من الزهور، ووضعت قسماً غير قليل منها في كتبها، فقد أصبحت الآن أكثر ميلاً ليس لأن تجمع الزهور، أو أن تضع نماذج جافة منها في الكتب، فحسب، بل إنها تريد البذور. وهذا ما حاولت بإلحاح أن تبحثه مع ريتش، وأن تجعله ضمن الاهتمامات الأولى، لعلها تستطيع أن تنقلها، أو تنقل جزءاً منها، إلى بريطانيا!

ريتش الذي استمع إليها بكثير من الاهتمام والصبر، وهي تتحدث عن الألوان، إلى درجة أنها بدأت تشتق أسماء جديدة، حين لم تلبّها الأسماء المتداولة والمعروفة، وكانت تصف ما رأته، وفي كل مرة تقول أو تصف اللون الذي يستعمله الكثيرون، ولكن تضيف أنه ليس فقط ذلك اللون المعروف، إذ بالإضافة إليه هناك ألوان أخرى متداخلة وممتزجة به، بحيث «لا يكفي أن نقول الأصفر، مثلاً، لأن هذا الأصفر يتخلله البنفسجي والأزرق والبرتقالي...» وتحار كيف تصف، كيف تفسر. تفعل ذلك،

في محاولة لإقناع ريتش بضرورة بذل كل ما يستطيع من أجل الحصول على البذور! وهو بمقدار ما يوافق، ويؤكد صحة ما تقول، فإن لديه أسبابه كي لا يجاريها فيما ترغب، وحالما يجد لحظة صمت، حالة تُساعده على شرح وجهة نظره، يقول بلهجة مسالمة:

ـ ألوان بالغة الروعة. ألوان تتجاوز ما هو متعارف عليه في أوروبا، لكن. . .

ويبتسم، وتعقب الابتسام فترة صمت، علّها تمهد لما سيقوله:

ـ لكن هذه الألوان مستمدة من الطبيعة. . . هنا. . .

ويجد أن هذه العبارة متعثرة، لا توضح ولا تقول شيئاً. يتابع بصعوبة:

ـ لو أخذنا هذه البذور إلى هناك، ولا بد أن أفعل، فإن احتمال أن تتفاعل مع التربة والطقس احتمال ضعيف، فهناك البرودة الطويلة، الشمس الهادئة، وربما الخجولة، حتى في أيام الربيع ثم الصيف، وهذه الأسباب جعلت لكل نبتة أمكنة وظروفاً تواتيها.

وترد بحدة:

ـ يجب أن نفعل، يجب أن لا نخضع لليأس أو أن نستسلم!

ويوافق، لكن لا بد أن يضيف:

ـ يمكن لهذه النباتات، لتلك الألوان، أن تظهر حيث ننقلها، إذا وفّرنا لها مناخاً يشابه المناخ الذي كانت فيه!

ويأتي صوت الإصرار مخنوقاً:

ـ تعرف كم أخذنا نباتاً من الهند والملايو، ومن أفريقيا أيضاً، ومن غوانا الجديدة، واستطعنا استنباتها من جديد في بريطانيا!

ويرد بسخرية مبطنة:

ـ أعرف، ولكن في حدائق خاصة، في أماكن مغلقة!

ـ ويمكن أن نفعل الشيء ذاته، في البداية، ثم نكيّف تلك النباتات!

ـ بالتأكيد يمكن، ولكن لا يُعرف ما إذا ستكون لها فرصة مواصلة الحياة، بحيث تصبح نباتات الحقول والبراري هناك كما هي هنا!

ـ يجب أن نحاول.

ويردد باستسلام:

ـ لا بد أن نحاول!

ويظل الجنون مستبداً مسيطراً، فمع كل مرحلة جديدة تقطعها القافلة، ورغم المهرجان الذي تفرده الطبيعة في كل مكان، فيبدو كأنه عرس يزداد ألقاً وحرارة يوماً بعد آخر، فإن المفاجأة الكبرى التي كان ريتش يخبئها لماري ستقع في الأماكن الأثرية القريبة من الموصل، في نينوى ونمرود وقرصباد. كان يريد أن يدفعها لهذا الجحيم اللذيذ، كي لا تخرج منه أبداً! حين يفعل ذلك، وبعد أن تدخل ماري هذا «الجحيم»، وتلمّ بالكثير، لا بد أن تبدأ بدراسة كل شيء، كما فعلت في أوقات سابقة، حين غرقت بكل ما يتصل بصناعة الحلي، إذ قرأت عن ذلك جميع ما وقع تحت يديها من كتب، ثم حين اهتمت بالفراشات، وكونت مجموعة كبيرة، فمن المؤكد أنها ستفعل الشيء ذاته بعد هذه الرحلة، بعد أن اكتشفت عالم الآثار الجميل والغني. إذا فعلت ماري ذلك سوف تحرره، كي ينصرف لأمور من الضروري أن يتابعها، وسوف يكون متأكداً أن هذا الحقل الهام وجد من يهتم به ويرعاه!

لقد اضطرت ماري أن تلبي عدة دعوات في المدينة، أكد لها ريتش أنها بالغة الأهمية، «لأن الداعين، بالإضافة إلى كونهم أصدقاء سياستنا، فإنهم سيكونون شديدي النفع في مجال الآثار». لبت ماري تلك الدعوات، رغم الجهد الذي بذلته كي تبقى امرأة مجاملة، إذ سألت عن أمور كثيرة، إلا أن الاستغراب لم يفارقها: كيف يهجر هؤلاء الناس الطبيعة في لحظات عنفوانها ويحبسون أنفسهم وراء الجدران، متعمدين أن يخلقوا فاصلاً بينهم وبين مصدر الحياة الحقيقي؟ ولقد توصلت إلى إجابات اعتبرتها شديدة البؤس: فمن أجل أن يظهر هؤلاء الأغنياء ثراءهم، من خلال السجاد والسيوف وأدوات الأكل، ولتظهر النسوة ما لديهن من الثياب والحلي، ولكي يتفنن في ذلك، فقد حرموا أنفسهم، وببلاهة، من الكنوز التي

يمتلكونها!

ورغم أن ريتش، في هذه المرحلة، أولى أمور السياسة والقبائل والطرق جل اهتمامه، ولم يتطرق إلى الآثار إلا عرضاً، فإن الرياح الفرنسية كانت تهب تجاهه دون توقف، وكانت تزداد سرعة ما إن يلتقي رجل دين مسيحي، أو واحداً من الذين يعتبرون أنفسهم من وجهاء هذه الطائفة، إذ كان يجري الحديث سريعاً حول ما يبذله الفرنسيون من رعاية للطائفة، وكيف يستخدمون الفقراء منها في أعمال قد لا تؤدي إلى أية نتيجة، فقط لكي لا يُتركوا عاطلين عن العمل، ولئلا يمدوا أيديهم إلى الآخرين.

كان رجال الدين، ووجهاء الطائفة، يقولون ذلك أمام القنصل الكبير، لعله يتقدم ويمد يد المساعدة، كي تشعر الطائفة أن هناك من يرعاها ويهتم بشؤونها! وريتش الذي يستمع باهتمام، ويسأل، في أحيان كثيرة، بشكل غير مباشر، عما يفعله الفرنسيون، وأيضاً عما تحتاجه الطائفة، كان يزداد ضيقاً وغيظاً، لأنه يحارب في المكان غير المناسب، وفي الوقت غير المناسب. إذ بدل أن يكون المسيحيون، في أوروبا وهنا، على وفاق، وفي صف واحد، إزاء الأعداء المشتركين، وإزاء المضايقات والمصاعب التي يخلقها أو يتسبب بها الولاة وأتباعهم تجاه كل ما هو مسيحي، فإن العداء أبرز ما يميز علاقاتهم في أوروبا وفي كل مكان آخر.

لقد اختفى الفرنسيون كما تختفي حيّات التبن، رغم أنهم كثرة في هذه المنطقة، خاصة في مجال الآثار.

قال لنفسه، حين سأل عن عددهم، ومنذ أي وقت هم هنا، وعن علاقاتهم بالسكان: «إنهم مثل قادتهم، مثل رؤسائهم، كل واحد منهم يفترض أن لديه رسالة، وعليه واجب، لكن يجب أن يفعل ذلك بشكل سري، لأن الثورات، كما يتوهمون، لا تنجح أبداً إذا كانت في المرحلة الأولى علنية، وتفشل إذا كانت في المرحلة الأخيرة سرية». واستغرب أن أحداً منهم لم يفكر في الاتصال به، أو مجرد أن يتوجد حيث يكون. قال لنفسه بغيظ: «لقد أفسدتهم الثورة الفرنسية، وأفسدهم أكثر نابليون؛ أما

الفساد الأكبر فسببه تلك الجيرة التي لا تفرز سوى العداوة، وعلى بريطانيا أن تفكر بطريقة مختلفة، إما باستيعابهم أو بإلغائهم».

أما بعد أن عرف عن نشاطهم الحثيث في مجال الآثار، فقد تطير، خاصة وأن أحد الشماسين في الكنيسة الكبرى بالموصل أبلغه أن قبو الكنيسة مليء بالكنوز التي جلبها الفرنسيون؛ قال له ذلك كي يدلل على مدى قوة المسيحية، وما تستطيع أن تفعله في هذا المكان بالذات!

لقد لام ريتش نفسه كثيراً، في مراحل الطريق، نظراً لتقصيره في هذا المجال، وفي هذا المكان بالذات. وحين تزيد الشواهد والشهود يزداد شعوراً بالذنب، ويزداد تحدياً في ذات الوقت. لكن، وكما قال لنفسه، إن الذي ينتصر في أوروبا لا بد أن ينتصر في أي مكان آخر، والمهزوم في عقر داره لا يمكن أن يكون منتصراً في مكان آخر، لذلك لا بدّ أن ينهزم الفرنسيون هنا، كما هزمتهم بريطانيا في أوروبا، وفي البحار أيضاً، بحيث لن يُقدّر لهم اللعب إلا في الهامش، وحين يغيب اللاعبون الحقيقيون. وهذا ما يستدعي أن يولي الآثار والمسيحيين ما يستحقانه من اهتمام، وألا يتأخر كثيراً، خاصة وأن الروس، مثل الدببة القطبية، ما إن شعروا بالدفء حتى بدأوا بالظهور هنا.. وهناك أيضاً!

كم من الهموم والأفكار والأحلام، وهو يقطع الطريق بين الموصل ونمرود، انتابته واستفزته، وجعلته أيضاً يفكر بطريقة مختلفة عن السابق؟ كم تمنى لو أنه يتفرغ لتحدٍ حقيقي، وفي واحد من هذه المجالات، لكن الامبراطورية، كما قال لنفسه: «حين تكبر، تتنوع همومها واهتماماتها، وإذا استطاعت أن تضبط حركتها بتوقيت مناسب، وحسب أولويات محددة، تماماً كما هي الفرق السمفونية، فعندئذٍ ستقدم شيئاً كبيراً وواسعاً، ويضم الكثيرين أيضاً، لكن بتناغم جميل، حتى أن الإنسان يحار في تحديد من يعمل ومن ينتظر دوره!».

مع آخر الخطوات نحو نمرود، ومن أجل أن يهيىء ماري للمفاجأة، وقد تعمد أن يوحّد القافلة في هذه المرحلة، قال لها بنوع من المداعبة:

ـ أما زلت تكرهين الصيد مثل عادتك دائماً؟

نظرت إليه، وقد فاجأها السؤال، وفي ظنها أنه سيستبدل بندقية الصيد بالبندقية الحربية الموضوعة باتقان وراءه، في جانب من السرج. أكثر من ذلك ظنت أنه يريد أن يُظهر لرفاق القافلة براعته! لكن حين وجدته هادئاً، ولا ينوي شيئاً من ذلك، ردت، وخرج صوتها محايداً، وإن شابته رنة سخرية:

ـ وهل تريد أن تغير رأيي بعد محاولاتك الكثيرة السابقة؟

ـ إنه مجرد سؤال!

نظرت إليه من جديد، في محاولة لأن تكتشف ما وراء سؤاله. ظلت تنظر صامتة. تابع:

ـ أتمنى أن تبقي كذلك إلى النهاية!

ـ إنني لا أفهم ماذا تعني!

ـ ستفهمين الآن كل شيء!

إلى ذلك الوقت كانت ماري، وقد بدأت تظهر معالم القصر الملكي، متوترة، مشدودة، ولا تعرف لماذا يثير ريتش مثل هذه الأسئلة، بدل أن يتحدث عن قصر أشور زيربال وما يمكن أن تراه في هذا القصر. حين وجدته صامتاً، وإن بدا في عينيه حديث طويل، قالت في نفسها «كثيراً ما يروق للرجال الاحتفاظ بأسرار مفترضين أن النساء غير جديرات بها!» ابتسمت وهي تضيف لنفسها في محاولة للشعور بالزهو: «لكنهم مخطئون، فالمرأة تعرف تلك الأسرار، وتعرف أخرى غيرها، ولكنها تتظاهر أنها لا تعرف. . . إلى أن يأتي الوقت المناسب، وقد يكون ذلك الوقت حين ينسى الرجال تلك الأسرار».

الغبار الذي تثيره طليعة القافلة، وهي تتسلق الهضاب في طريقها نحو القصر، أخذ يضايق ريتش. قال لماري وهو يركز حصانه ليخرج عن القافلة:

ـ يجب أن نسبق الجميع، اتبعيني!

وانتحى الحصانان إلى جهة اليمين، خارجين عن نظام القافلة، وركض

وراءهما شماس الكنيسة، الذي طلب منه ريتش أن يرافقهم، ويكون دليلهم في زيارة هذه المواقع، وأيضاً كي يعرف ويستفسر منه بدقة عمّا فعل الفرنسيون، وعن الأشياء الموجودة في قبو الكنيسة!

وإذا كانت الحركة قد أخلّت بنظام القافلة، وجعلت ميناس يتحسب، ويلتفت إلى جميع الجهات مستطلعاً، إلا أن التفاتة ريتش، وقد تجاوز القافلة، مع حركة اليد، وهو يشير لميناس بالهدوء، أعادتا النظام للقافلة، وجعلها تواصل سيرها لتنحرف نحو اليمين قبل أن تصل إلى أسوار القصر الملكي، وتتجه إلى المعسكر، الذي أقيم في اليوم السابق، وقد اختير له مكان لا يعتبر بعيداً، وفي فسحة مستوية من الأرض تجعل الإقامة مريحة، والوصول إلى القصر الملكي غير شاق.

يمكن للكلمات أن تقول، أن توضح أكثر الأحيان، لكنها في أحيان معينة تكون عاجزة، بائسة، فقيرة، وناحلة إلى درجة الرثاء. والعين إذا كانت تستطيع أن تحتضن الكون حتى الأفق، وأن ترى، في لحظة، ما يحتاج إلى أوقات طويلة كي يقال ويروى، فإن طاقة العين على الاستيعاب في بعض الحالات لا تقوى على احتمال هذا التدفق الذي يفيض فجأة ويغمر كل شيء!

حين وقفت ماري أمام الجدار المنقوش عليه رحلة صيد الملك أشور زيربال، وقفت مذهولة. فتحت عينيها على اتساعهما، واغمضتهما عدة مرات، في محاولة لأن تستوعب ما ترى. في إحدى اللحظات، ربما لا شعورياً، رسمت على وجهها علامة الصليب، وكأنها تستدعي قوى خفية كي تقف معها، لتسندها.

قال لها ريتش، في الليل المتأخر، وقد عافها النوم، وكانت لا تزال تحت تأثير صدمة ما رأت ذلك اليوم:

ـ رأيتك تصلّبين، ورأيت دمعة جامدة في عينيك، وهذه الدمعة لا تسقط إلى الخد، ولا تغيب. . .

وبعد قليل:

ـ هل أنا مخطىء؟

لم تجب. سحبت مقداراً من الهواء يكفي لإنقاذ غريق، وهزت رأ مرات عديدة متواصلة. وإذا كانت قد فهمت مغزى سؤال ريتش حين سأ وهم يقتربون من القصر الملكي في نمرود عن الصيد، فقد قالت و يغادران القصر، وكنوع من الامتنان:

ـ لن ألومك على رحلات الصيد. . . بعد اليوم يا كلود!

وحين سألها ما إذا كانت ترغب في الصيد، بعد أن رأت الملك وخيوله الطائرة نحو الطرائد، ردت بدعابة لا تخلو من الغبطة:

ـ يكفي أن تكون أنت الصياد، وتعرف ما يجب صيده!

وكان يسعدها، تلك اللحظات، أنها إحدى طرائده، أو الطريدة الأجمل في حياته!

أما في الليل المتأخر، وهما يستعرضان مشاهد اليوم، وبعد أن تجولا في جميع أنحاء القصر، فقد عادا مرة أخرى إلى عربة الصيد. كان تتلمس النقوش والعربة والخيول، ليس بيديها وحدهما، وليس بجميع أصابعها فقط، كانت تتلمس النقوش بجسدها، وبطريقة حسية، وكأنها تريد الالتحام بالمشهد كله، أن تصبح جزءاً منه. في هذا الليل قالت لريتش، بنوع من الرجاء، الأقرب إلى التوسل:

ـ قد أكون مجنونة، أو أصبحت مهووسة بهذه الأشياء الرائعة. . .

وامتلأ صوتها بالحزن:

ـ هل تتصور، يا كلود، أننا قادرون على مغادرة هذه البلاد، وترك هذه الأشياء وراءنا، بحيث لا نستطيع أن نراها مرة أخرى؟

رد في محاولة لمنعها من مواصلة الحزن:

ـ سوف تتاح لنا فرص كثيرة لرؤيتها. . .

وبعد قليل، وكأنه يفكر بأشياء كثيرة معاً:

ـ إذا لم يكن كل سنة، فحالما نملك وقتاً أو ظروفاً مؤاتية!

سألت ماري بتردد، وشاب صوتها نغم يائس:

ـ ألا نستطيع أن نرحّلها؟ أن نحملها إلى هناك لتبقى، حيث يجب أن تبقى، إلى الأبد؟

ضحك بحزن، ورد كأنه يخاطب نفسه:

ـ كيف نستطيع أن نحمل هذه الكتل الهائلة؟ وماذا تعني إذا عزلناها عن كل ما يحيط بها؟

وتغير صوته، أصبح أكثر خفوتاً:

ـ هل نستطيع أن نحمل الجبال؟ أن نغير مجاري الأنهار؟ أن نجعل الشمس في بريطانيا كما هي في الهند، في العراق؟

قالت ماري بحماس وحيوية:

ـ لا شيء يمكن أن يقف في مواجهة الإرادة والتصميم.. يا كلود!

وبعد قليل، وبطريقة مفاجئة وصبيانية:

ـ ماذا لو تركتني هنا وعدت إلى بغداد؟ إنني أفضل الإقامة في هذا المكان عن العودة إلى هناك!

رغم الحزن، أو بسببه، ضحك، وكأنه حائر في اختيار الإجابة المناسبة، وبعد أن هدأ تساءل:

ـ وبقاؤك هنا بقصد الاستمتاع أم لاختراع طريقة من أجل نقل الآثار إلى بريطانيا؟

ـ دعني، سوف ترى!

ـ بعد أن رأيت الآثار وتمتعت بها، أريد أن أرى الطفل واتمتع به. ألم نتفق؟

ـ ونخلّف كل شيء وراءنا ونمضي؟

ولأنها تعرف ماذا يعني له وجود الفرنسيين، وكيف يستفزونه، خاصة وقد مضى على وجودهم وقت طويل، وحصلوا على أشياء كثيرة، قالت بنوع من التحدي:

ـ ونترك لهم كل شيء؟

وبعد قليل وباستفزاز أكبر:

ـ وإذا كانوا قد حصلوا على الكثير دون أن ينافسهم أحد، دون
يشعروا بخوف، فماذا تتصور أنهم سيفعلون بعد زيارتنا؟ بعد أن أ
بالخطر؟

رد بنوع من الهدوء المقصود وكأنه دبر أمراً:

ـ لدينا الكثير لنفعله غداً ثم في الأيام التالية، وعلينا أن ننام قليلاً ·
نشيطين. . . في الغد!

وتغيرت النبرة:

ـ ثم إن القرار، أي قرار، إذا اتُّخِذَ بهدوء، ولم يكن مجرد رد فعل
يكون أكثر صواباً ولا يؤدي إلى الندم.

وناما في تلك الليلة متعانقين، وكانا يحلمان بأشياء كثيرة!

61

مع كل يوم ينقضي في نمرود يزداد الإعجاب وتزداد المخاوف: «الفرنسيون وضعوا أيديهم على جميع الكنوز. انتزعوا كل شيء، وأصعب الأمور أن تنتزع عظمة من حلق كلب» هكذا يقول ريتش لنفسه، وهو يواصل زيارة القصر الملكي، ويقضي فيه ساعات طويلة كل يوم. أما فكرة أن يبدأ التنقيب في الجانب الآخر من التل، ثم يتسلل، خفية، إلى الذروة، حيث يركز العلم البريطاني هناك، كتأكيد أنه وصل قبل الآخرين، كما حصل أثناء اكتشاف أميركا، أو كما يفعل متسلقو الجبال، إذ ينتقلون من ذروة إلى أخرى، بمخادعة ومكر؛ لو لجأ إلى هذا الأسلوب فسوف تبدو الأمور مكشوفة، نابية، وكأنه يريد أن يفتعل حرباً مع الفرنسيين في هذا المكان النائي.

نقطة ضعفه الأساسية أن ليس لديه فريق عمل للبقاء هنا. حتى لو شرع بنفسه فلن يجد من يواصله بعده، لأن جميع من حوله مجرد عمال عاديين، منفذين، ولا يمكن الاعتماد عليهم بعد سفره، لأنهم لا يتقنون سوى تلقي الأوامر: «احفروا هنا».. «أحفروا بهدوء».. «توقفوا».. «انقلوا التربة».. «ارفعوا هذا الحجر».. «انزلوا عميقاً في الأرض دون أن تمسوا الجوانب». هذا ما يستطيعه هؤلاء الناس، وهو لن يقوى على البقاء معهم طويلاً، لديه أشغال كثيرة تنتظره في بغداد وفي أماكن أخرى!

وماري الهاوية، أثارت مجموعة من الاقتراحات «لا بد من نقل هذه الآثار الكبيرة». قد تبدو الفكرة مجنونة، غريبة، ولكن متى كان المنطق

الهادىء البارد وحده الذي يوصل إلى نتائج كبيرة؟ «وماذا لو بقيت هنا شهور، أتستطيع خلالها أن تؤمّن فريق عمل؟» وهل بإمكانها أن بمفردها؟ وماذا سيقول الآخرون: الفرنسيون والأتراك وأهل المنطقة زوجة القنصل تحولت من سيدة بلاط إلى مجرد عاملة يدوية، وبمستو أدنى من العمال العاديين؟ وفكرة من هذا النوع، ألا تقابل أو يُردّ بضحكة ساخرة؟ ألا يعتبر مجرد وجود فرد إنكليزي، في المكان المنا والوقت المناسب، سبباً كافياً لترتيب حقوق؟ وهذه الحقوق المكتسبة يجرؤ أحد على إغفالها في أية قسمة لاحقة؟ والقسمة إذا جرت ألا على القوة والنفوذ؟ قال لنفسه بمرارة: «شرط القسمة الأساسي أن يكو المرء موجوداً وقوياً، ولذلك فإن فكرة بقاء ماري ليست خاطئة أو مرفوضة تماماً، لكن هل يكفي وجودها دون فريق، دون خبراء، لوقف ز الفرنسيين؟».

أفكار كثيرة كانت تراوده. كان يبوح لماري ببعضها، ويُبقي الأخرى أحلاماً تراوده وحده، لأن ماري لا تعرف التدرج أو الحلول الوسطى. حين تقتنع بأمر يسيطر عليها إلى الدرجة القصوى، بحيث لا تقوى على رؤية غيره، أو إمكانية وجود شيء أكثر أهمية منه، لهذا عليه أن يُنضج الاقتراحات، أن يقلّبها من كل الجوانب، حتى إذا اقتنع، إذا اطمئن، يمكن أن يطرحها للتداول أولاً، ثم لإقناع الآخرين بها بعد ذلك.

وإذا كانت فكرة أن تبقى ماري هنا، كما اقترحت، راودته، من جديد، وهو يراها هكذا أمام النقوش على الجدران، خاصة رحلة الصيد، وكأنها تناجيها، ولا تكف عن الحديث عنها أغلب ساعات اليقظة، ولا بد أنها تحلم بها في الليل أيضاً، فإن فكرة أن يكون أباً، وتلك الطريقة المتلهفة التي عبرت ماري من خلالها كي تصبح أماً، جعلته قلقاً شديد الحيرة في تحديد أولوياته وعواطفه.

ولأن الرحلة، في هذه المنطقة، ما تزال في بدايتها، قرر أن يترك على هواها، تماماً كما تُترك الخيول قبل اليوم الذي ستدخل فيه السباق

دون لُجُم، دون سروج ومهاميز، ودون سياط أيضاً، عله يستطيع في نهاية الرحلة أن يجد حلولاً مناسبة!

وباعتبار أن مواصلة الرحلة إلى نينوى، ثم إلى قرصباد، يمكن أن تتم إما بالعودة إلى الموصل، أو متابعتها مباشرة، والطريق الأخير أطول وأكثر تعرجاً، ولأن الشماس يريد أن يشارك في أعياد الفصح، وقد كان ذا فائدة لا تقدّر، إذ بدا لريتش بالمعلومات التي يملكها، وبالخفايا التي لا يستطاع لوصول إليها دون معونته، وكان أكثر أهمية من الكتب التاريخية والأثرية لتي حملها ريتش في سفرته، فقد تقرر الرجوع إلى الموصل.

قال ريتش لنفسه بعد أن شهد الاحتفالات التي أقيمت في هذه المدينة «يبدو أن هذا العيد بالنسبة للسكان، مسيحيين ومسلمين، أكثر من مجرد طقس ديني. ربما تكون لهذا العيد جذور أسبق من الديانات السماوية، لأن مشاركة الجميع فيه، ثم طريقة احتفال الناس، تجعل الإنسان يتساءل: أليس هذا هو عيد الخصب؟ عيد النشور والبعث الجديد؟ وإلا كيف نفسر احتفال المسلمين، وبذات المراسيم تقريباً؟ الأمر، برأيي، يتجاوز المجاملات أو المشاركة الشكلية، ولا بد أن أدرس الأمر في الأماكن الأخرى لأتأكد».

أما ماري التي ظلت مأخوذة بما شهدته في نمرود، حتى أنها اقترحت على ريتش أن يبحث عن رسام في المدينة يمكن أن يصور النقوش المرسومة، إلى أن يتم استدعاء أحد الرسامين من بريطانيا، لأن ما افترضته في نفسها من موهبة تمكّنها من استنساخ تلك النقوش أسفرت عن «كارثة» كما قالت لريتش، بعد عدة محاولات قامت بها. الأمر الذي جعلها تمزق تلك الرسوم «لأنها تعطي صورة مشوهة عن هذه المعجزة الفنية». رغم أن الشماس حنا هيأ لها عدداً من الألوان استقطرها من الزهور والنباتات، ومزجها بطريقة فنية بارعة، وقد سجّلت ماري الوصفة بكل تفاصيلها، وأشارت أنها قد تحتاج إلى مساعدته في وقت لاحق، وربما تطلب منه أن يمدها ببعض تلك الألوان!

الهادىء البارد وحده الذي يوصل إلى نتائج كبيرة؟ «وماذا لو بقيت هنا لعدة شهور، أتستطيع خلالها أن تؤمّن فريق عمل؟» وهل بإمكانها أن تعمل بمفردها؟ وماذا سيقول الآخرون: الفرنسيون والأتراك وأهل المنطقة: زوجة القنصل تحولت من سيدة بلاط إلى مجرد عاملة يدوية، وبمستوى أدنى من العمال العاديين؟ وفكرة من هذا النوع، ألا تقابل أو يُردّ عليها بضحكة ساخرة؟ ألا يعتبر مجرد وجود فرد إنكليزي، في المكان المناسب والوقت المناسب، سبباً كافياً لترتيب حقوق؟ وهذه الحقوق المكتسبة هل يجرؤ أحد على إغفالها في أية قسمة لاحقة؟ والقسمة إذا جرت ألا تعتمد على القوة والنفوذ؟ قال لنفسه بمرارة: «شرط القسمة الأساسي أن يكون المرء موجوداً وقوياً، ولذلك فإن فكرة بقاء ماري ليست خاطئة أو مرفوضة تماماً، لكن هل يكفي وجودها دون فريق، دون خبراء، لوقف زحف الفرنسيين؟».

أفكار كثيرة كانت تراوده. كان يبوح لماري ببعضها، ويُبقي الأخرى أحلاماً تراوده وحده، لأن ماري لا تعرف التدرج أو الحلول الوسطى. حين تقتنع بأمر يسيطر عليها إلى الدرجة القصوى، بحيث لا تقوى على رؤية غيره، أو إمكانية وجود شيء أكثر أهمية منه، لهذا عليه أن يُنضج الاقتراحات، أن يقلّبها من كل الجوانب، حتى إذا اقتنع، إذا اطمئن، يمكن أن يطرحها للتداول أولاً، ثم لإقناع الآخرين بها بعد ذلك.

وإذا كانت فكرة أن تبقى ماري هنا، كما اقترحت، راودته، من جديد، وهو يراها هكذا أمام النقوش على الجدران، خاصة رحلة الصيد، وكأنها تناجيها، ولا تكف عن الحديث عنها أغلب ساعات اليقظة، ولا بد أنها تحلم بها في الليل أيضاً، فإن فكرة أن يكون أباً، وتلك الطريقة المتلهفة التي عبرت ماري من خلالها كي تصبح أماً، جعلته قلقاً شديد الحيرة في تحديد أولوياته وعواطفه.

ولأن الرحلة، في هذه المنطقة، ما تزال في بدايتها، قرر أن يترك نفسه على هواها، تماماً كما تُترك الخيول قبل اليوم الذي ستدخل فيه السباق:

دون لُجُم، دون سروج ومهاميز، ودون سياط أيضاً، عله يستطيع في نهاية الرحلة أن يجد حلولاً مناسبة!

وباعتبار أن مواصلة الرحلة إلى نينوى، ثم إلى قرصباد، يمكن أن تتم إما بالعودة إلى الموصل، أو متابعتها مباشرة، والطريق الأخير أطول وأكثر تعرجاً، ولأن الشماس يريد أن يشارك في أعياد الفصح، وقد كان ذا فائدة لا تقدّر، إذ بدا لريتش بالمعلومات التي يملكها، وبالخفايا التي لا يستطاع الوصول إليها دون معونته، وكان أكثر أهمية من الكتب التاريخية والأثرية التي حملها ريتش في سفرته، فقد تقرر الرجوع إلى الموصل.

قال ريتش لنفسه بعد أن شهد الاحتفالات التي أقيمت في هذه المدينة «يبدو أن هذا العيد بالنسبة للسكان، مسيحيين ومسلمين، أكثر من مجرد طقس ديني. ربما تكون لهذا العيد جذور أسبق من الديانات السماوية، لأن مشاركة الجميع فيه، ثم طريقة احتفال الناس، تجعل الإنسان يتساءل: أليس هذا هو عيد الخصب؟ عيد النشور والبعث الجديد؟ وإلا كيف نفسر احتفال المسلمين، وبذات المراسيم تقريباً؟ الأمر، برأيي، يتجاوز المجاملات أو المشاركة الشكلية، ولا بد أن أدرس الأمر في الأماكن الأخرى لأتأكد».

أما ماري التي ظلت مأخوذة بما شهدته في نمرود، حتى أنها اقترحت على ريتش أن يبحث عن رسام في المدينة يمكن أن يصور النقوش المرسومة، إلى أن يتم استدعاء أحد الرسامين من بريطانيا، لأن ما افترضته في نفسها من موهبة تمكّنها من استنساخ تلك النقوش أسفرت عن «كارثة» كما قالت لريتش، بعد عدة محاولات قامت بها. الأمر الذي جعلها تمزق تلك الرسوم «لأنها تعطي صورة مشوهة عن هذه المعجزة الفنية». رغم أن الشماس حنا هيأ لها عدداً من الألوان استقطرها من الزهور والنباتات، ومزجها بطريقة فنية بارعة، وقد سجّلت ماري الوصفة بكل تفاصيلها، وأشارت أنها قد تحتاج إلى مساعدته في وقت لاحق، وربما تطلب منه أن يمدها ببعض تلك الألوان!

أكثر من ذلك، تساءلت ما إذا كانت هذه الطريقة في الصيد أكثر جدوى وأكثر متعة من الطرق الأخرى، خاصة المتبعة في بريطانيا؟ وريتش الذي أحس بحنان هذه الالتفاتة، وبتراجع كراهية ماري للصيد، أشار إلى فروق دقيقة تتعلق بنوع الطرائد التي يراد صيدها، ولطبيعة المناخ في كلا البلدين، ولم ينس أن يضيف مازحاً:

- ثم إن هؤلاء الملوك، رغم عظمتهم، وما يستطيعون تسخيره من رجال وأدوات، إلا أنهم لا يملكون، مثلنا، الأسلحة الحديثة، خاصة البنادق، والتي تمكّن من إصابة الطرائد من مسافات ودون مخاطر!

ما كادت ماري تصل إلى المدينة، وتشهد عدداً من الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة عيد الفصح، حتى أخذها الحماس الديني، فشاركت في خدمة أحد القداديس، وتبرعت مع ريتش للكنيسة، وأطرت المطران كثيراً. كما بدا لها الشماس إنساناً مختلفاً، وهو يتحرك بحيوية من مكان إلى آخر، رغم العرج الذي كان يستطيع إخفاءه ببراعة من خلال الحركة السريعة المتقنة!

أما الألوان، ألوان ملابس النساء والأطفال، وحتى ألوان البيض المسلوق، فقد فتنتها تماماً، كانت زاهية، متألقة، وشديدة التنوع، أو كما قالت لريتش:

- ربما لا يتكرر مثل هذا المهرجان من الألوان في مكان آخر!

وريتش الذي هز رأسه موافقاً، ربما لم ينتبه، بما فيه الكفاية، للألوان التي تشير إليها ماري، لذلك تابعت:

- يبدو لي أن هؤلاء الناس البسطاء يختارون ألوانهم، أو يستمدونها، من الطبيعة المحيطة بهم. الطبيعة هي التي أملت عليهم، تماماً كما فعلت بالطيور الأفريقية الملونة، إذ قد تبدو ألوانها مباشرة، وبعض الأحيان فجة، لكن بمجملها تظهر منسجمة وتناسب كل شيء حولهم!

نتيجة الفرح الداخلي الذي سيطر على ماري، خاصة حين شاركت في احتفال أقيم في قرية مسيحية قريبة من الموصل، ورأت مهرجان الألوان

أيضاً، ولكن كان يبدو في القرى أكثر زهواً، وأكثر التحاماً بالطبيعة، تمنت لو تتاح لها الفرصة لتصميم مجموعة من الثياب النسائية، مع الحلي، تختارها من عدة أمكنة، لتكون هديتها لبريطانيا حين تعود بصورة نهائية، دلالة على تفاعل الحضارات، وما يمكن أن يضيفه الغرب إلى ثرائه المتعدد المصادر. أكثر من ذلك تساءلت لماذا يصرّ الإنكليز على تلك الألوان الباردة، الشديدة الوقار، والفاقدة للفرح؟

ولأن ريتش لاحظ انشغال الشماس، واستمرار زياراته مع الخوارنة إلى أحياء وبيوت المسيحيين في المدينة، فقد كاد ييأس من إمكانية أن يرافقه إلى نينوى وقرصباد. لكن في عشية ليلة السفر، جاءه بعد الغروب بقليل، موفداً هذه المرة من المطران، ليكون في خدمة سعادة القنصل، وليبلغه، مرة أخرى، بركات الكنيسة واستعدادها أن تضيف جهودها ونفوذها لتصبح الرحلة أكثر نفعاً وجدوى للقنصل والرعية معاً.

ريتش الذي فرح بوصول الشماس، وبالرسالة التي حملها، لام نفسه أنه لم يقدم هدية أكبر للكنيسة، ربما نتيجة الغيظ الذي ما زال يحسه تجاه الفرنسيين، وقرر أن يصلح الخطأ أثناء الرحلة، أو حين عودته إلى الموصل مرة أخرى.

لقد ارتأى المطران ضرورة استمرار الشماس دليلاً، باعتبار أنه اشتغل مع الفرنسيين في وقت سابق، وفي نينوى بالذات. وبالتالي يمكن أن يكون مفيداً ليعرّف القنصل على أية تفاصيل تهمه وقد تساعده، ليس فقط عن الآثار، وإنما عن المنطقة، خاصة رعايا الكنائس المسيحية، وربما لتقديم ما تحتاجه من مساعدات وحماية.

هكذا أكد الشماس وهو يشرح بإفاضة موقف المطران، وكيف طلب منه أن يترك كل شيء، وأن يكون في خدمة القنصل!

قدّر ريتش هذه الالتفاتة، وإمكانية أن يعرف عن طريق الشماس، بالإضافة إلى المواقع الأثرية، وما فيها من كنوز وأشياء هامة، بل قد يستطيع إقناع أو إغراء الشماس بان يفتح له أبواب أقبية الكنيسة في

الموصل، وقد يصل معه إلى أكثر من ذلك، خاصة بعد أن توثقت العلاقات، ثم جاء اهتمام المطران وتوصيته!

قال ريتش لنفسه، بعد أن اتفق والشماس على أغلب التفاصيل، «المال يجعل الكثيرين يخرّون على الركب» وابتسم وهو يودعه، وكان يقول لنفسه: «المال قادر على فتح الأبواب المغلقة، وبإمكانه اختراق الحواجز والستائر ومعرفة أدق الأسرار».

هذه الرعاية من الكنيسة، رغم مظاهر الحفاوة والاهتمام، قابلها ريتش بتقدير، لكن بحذر أيضاً، وأخذ هذا الحذر يزداد، إذ قد تخفي وراءها أموراً أخرى، «فهؤلاء الشرقيون، وبذكاء فطري، يحاولون استغلال الاختلاف والتنافس بين الأجانب، وقد يزيدونهما أيضاً، ثم يتدخلون كوسطاء من أجل ابتزاز الطرفين!». خاصة وأن الخلاف الإنكليزي ـ الفرنسي لم يعد خافياً على أحد، و«بالتأكيد ليس لهؤلاء الفرنسيين من عمل في ليالي الشتاء الطويلة، وحين يتعذر عليهم مواصلة البحث عن الآثار، إلا مهاجمة الإنكليز وشتمهم، ولا يترددون في أن ينسبوا لهم كل المساوىء».

لكن مثل عادة الإنكليز دائماً، لم يظهر على ريتش الشك أو الانفعال، «لأن من تظهر عواطفه وحقيقة مواقفه ومشاعره قبل الأوان تجاه الخصم يكون قد خسر نصف المعركة سلفاً» هكذا قال وهو يوصي نفسه!

ثم ماذا لو أن الكنيسة، وبالتواطؤ مع الفرنسيين، تريد أن ترصد كل خطوة من خطواته، وأن تعرف ليس فقط ما يعمله، بل وما يفكر فيه؟ أيوجد أسهل من أن يكون دليله، الذي يكون عينه ولسانه، أثناء التعرف على المنطقة، بآثارها وبشرها، هو من يتجسس عليه، ومن ينقل إلى خصومه أصغر التفاصيل وأكثر الحركات خفاء؟

لن يترك ريتش لمجرد شماس في كنيسة نائية أن يخدعه، أن يسخر منه أمام رؤسائه. وإذا كان قد تعلم بعض الأمور الهامة عن طبيعة سكان هذه المنطقة، فإن من جملة ما تعلّم: «المال يلين القلوب ويجذب الكثيرين، شريطة أن تعرف لمن تعطيه ومتى، وأيضاً بأية مقادير، لأن المال إذا أعطي

لغير مستحقيه، أو إذا أُعطي أكثر أو أقل من المناسب، فلا بد أن يولّد ردود أفعال سلبية».

وابتسم ريتش، وقد بدأت تتداعى في ذهنه صور الأشخاص الذين تعامل معهم. صحيح أنه أخطأ التقدير، في البداية، لكن ما لبث أن تجاوز تلك الأخطاء بسرعة، وأصبح بإمكانه الآن أن يتصرف وهو واثق، خاصة وهو يسمع، ليس ما يقوله هؤلاء، وإنما ما ينقل على ألسنتهم!

وبتداعي هذه الصور، قال لنفسه: «وبعض الناس يهمهم أكثر من المال: الكلام الدافىء الذي تقوله لهم، وطريقة القول، ثم كيف تتعامل معهم، خاصة أمام أنصارهم، وحتى أمام الغرباء؛ لأن الكلام، مجرد الكلام، يعني الكثير لهؤلاء الشرقيين، ربما لعدم ثقتهم بأنفسهم، ولأنهم بحاجة دائماً إلى اعتراف الآخر. وهذا يستدعي أن تحفظ بعض أشعارهم وأمثالهم، حتى لو استعملتها بشكل خاطىء، من حيث النطق أو التوقيت، إذ يشعرون عند ذاك بنوع من التفوق وهم يأخذون دور المعلمين!».

وإذ بدأت الرحلة في اليوم التالي، وقد تحركت مبكراً، لأن الحرارة أخذت ترتفع يوماً بعد آخر، فإن أحد الشيوخ أصرّ على ضرورة أن ترافق القافلة مجموعة من رجاله للحراسة والمهابة معاً، وكي يقول أمام خصومه أو منافسيه، ذات يوم، أن القنصل الإنكليزي أثناء تلك الزيارة كان بحمايته!

وريتش الذي يتيح هوامش من هذا النوع، لإرضاء غرور مثل هؤلاء الشيوخ، يعرف كيف يضع لها حداً أيضاً، وبعض الأحيان بشكل فظّ، لكن لا يصل إلى حد الجرح أو الإهانة «لأن الشرقي حين يُجرح يتحول إلى ذئب، تعمى بصيرته تماماً ويصبح مستعداً لارتكاب كل أنواع الحماقات».

بدا من لقاء مجموعة الحراسة بالقافلة، أن أكثرهم، وربما الجميع، يعرفون الشماس حنا، بل وتربطهم به صداقة. والشماس بمقدار ما يعرف عن الآثار يعرف أكثر المنطقة وناسها، كما أن له دراية بنباتات الأرض وحشراتها وطيورها وحيواناتها، وكيف يحوّل الكثير من النباتات إلى

أكلات شهية، أو إلى ألوان وأصباغ، وكان يحمل في خرجه كميات منها!

ولأن الشماس أخذ ينحدر نحو الشيخوخة، ويظهر ذلك من حركته الثقيلة بعض الأحيان، ومن طريقة امتطاء البغل، فإن العرج الذي يحاول اخفاءه ببراعة، يظهر في بعض المواقف، ويثير مقداراً من الضحك يشارك هو نفسه فيه، ثم يحتال على الأمر بالغناء، إضافة إلى الكم الكبير من النكت الجنسية التي يحفظها!

في لحظة مناسبة، حين سُئل رئيس مجموعة الحراسة عن الشماس، أجاب بمرح:

ـ أبو يعقوب رابطها بالدنيا وبالآخرة..

وبعد قليل وهو يضحك:

ـ بعد ما خلّص حسابه مع الدنيا يريد هالحين يواجه رب العالمين بقلب قوي!

ولما سألوه كي يوضح أكثر، رد وهو يهز يده في الهواء:

ـ أبو يعقوب ما حافظ إلا وقت العيدين ووقت الحصاد. أما إذا حلّ وقت الكراب والبذار فما أحد يلقاه: ملح وذاب!

وفهم الذين سألوا ولم يفهموا، لكن لم تتغير عواطفهم تجاه الشماس!

في نينوى، وإزاء العربة الملكية لسرجون، وقد بدت في الضوء الذي يتسرب من الفجوات، قالت ماري بتأكيد لا يلبث يتزايد يوماً بعد آخر، إنها رأت تلك العربة تتحرك، تسير، تماماً كما كانت عربة جورج الثالث، وتذكرت كيف كانت الجماهير تزحف لتحية الملك، لإظهار عواطفها وما تكّن له من الحب والولاء. وتتذكر ماري، منذ ان كانت صغيرة، كيف كانت تهيء فستانها الأبيض المزيّن بالشرائط الملوّنة قبل شهور من يوم التاج، وحين ترتدي ذلك الفستان، وتقف على الرصيف، لتقديم احترامها، كانت تحس أن الملك يتطلع إلى ساقيها، كانت بطريقة خجولة، والعربة تتقدم ببطء، تُنزل الفستان، وهي تميل قليلاً من جانب إلى آخر، لكن في كل المرات، بدا لها أن الملك يتطلع إلى الساقين!

الآن، وهي تنظر إلى العربة الملكية في نينوى، تحس بالكبرياء ذاته، كما كانت قبل سنين عديدة، خاصة أن سرجون والعربة معاً تخففا كثيراً من الأشياء الزائدة، ومن القسوة المفرطة. أصبح الملك أشد وضوحاً وتصميماً، وهو يركز نظراته، وقد تجسّد بقوة وشموخ. حتى الحرس، وكانوا قريبين وبعيدين في آن واحد، فقد زادوا، من خلال مواقعهم وحركاتهم، في إظهار جبروت سرجون وقوته. أكثر من ذلك، بدا لماري أن النحت قد تعمق أو ارتفع. حتى العجلة التي تقود العربة الملكية، تجلت لها في لحظات كثيرة وكأنها عربة جورج الثالث، ذلك الملك الذي لم يحكم مثله ملك بريطاني من حيث الفترة الزمنية، أو من حيث المهابة.

وإذا كانت عربة سرجون الملكية قد مثَّلَتْ القوة والمهابة معاً، وبدا فيها الملك ذاته، وقد تطلع إلى البعيد، فإن قصور سرجون الأخرى، وما يحيط بها من فخامة، وما تشير إليه من اتساع، شغلت القافلة، وهي تقطع الطريق إلى قرصباد، بعد أيام قضتها في نينوى. جعلت كل فرد يتيه في الخيال، وهو يستعيد أياماً ماضية، ويتساءل عن جبروت هؤلاء الملوك، وأيضاً ما كانوا يتمتعون به من نفوذ وقوة من أجل إشادة مثل هذه القَصور. وكيف كانوا يسخّرون الآلاف المؤلفة من أجل جلب الحجارة وصقلها، ثم تشييد القصور التي لا يُعرف أين تبدأ أو أين تنتهي!

الشماس يسير بالقرب من ريتش وماري، وهو لا ينفك يتحدث عن قوة سرجون، وما استطاع أن ينجزه، ثم كيف امتدت فتوحاته واتسعت حتى وصلت إلى أمكنة بعيدة.

كان الشماس يتحدث بحمية وانفعال، ويبالغ في أحيان كثيرة، كأنه عاش في تلك الأزمنة، وفي هذا المكان بالذات! لأن التفاصيل التي كان يوردها، وهي خليط من المعلومات والرغبات وتداخل العصور، كانت تجعل ماري تفتح عينيها على اتساعهما، وتحاول التدقيق بكل ما يقوله. تسأل عن زوجات هذا الملك، تسأل عن العدد والأعمار والألوان، وما إذا كان يفضل زوجة بذاتها أو مجموعة من الزوجات. والشماس الذي يزداد

حماسة وهو يجيب، وأغلب الأحيان بثقة زائدة، كان يُدهش ماري، يجعلها تُخرج تلك الأصوات الحادة المخنوقة، وتلتفت مرات كثيرة إلى ريتش. وتحاول أن تقول له: هل رأيت؟ تفعل ذلك دون كلمات، لكن العينين، في أحيان كثيرة، تكفي لتقول كل شيء. وريتش الذي يسمع ولا يسمع، لأنه يعتبر أن ما يقوله ذلك الشماس مجرد هذيان أو خيالات مريضة يفرزها خيال شرقي يهوى الخوارق ويذوب في المبالغات!

كان الشماس يفعل ذلك، ويزيد بمبالغاته ما إن تقترب القافلة من محطتها الأخيرة في هذا الاتجاه. وكأنه يهيىء للمفاجأة.

في قرصباد، وفي مواجهة الثور المجنح الذي يحرس بوابة قصر سرجون، وبذلك السواد الذي يتلألأ في ضوء شمس الأيام التي أعقبت عيد الفصح، كانت صرخة ريتش المفاجئة أكثر حدة، وهو يرى ذلك الثور الضخم، والذي هو مزيج من الكائنات والإنسان والرموز، عند البوابة. أما ماري التي لم تتمالك نفسها من البكاء، فكانت دموعها خليط عجيب من الخوف والتقدير والحب، وحتى الهيام.

الضخامة الهائلة، القوة التي لا تقهر، الاختلاف الكلي عن المحيط، من حيث لون التمثال، أو نوع الصخور التي قُدَّ منها؛ وأيضاً المهابة الكلية، الممزوجة بالخوف، التي تصدم عيني كل إنسان في لحظات اكتشافه الأولى.

في تلك اللحظات، والشماس يحاول أن يشرح ويفسر، لم يكن ريتش بوارد أن يسمع أية كلمة، قبل أن يتملى، أن يُشبع حواسه كلها بهذا المشهد. أشار بيده اليسرى، وقد زمّها تماماً، طالباً من الشماس أن يهدأ، أن يكف عن أي شرح أو تفسير، فقد كان يروق له، تحت تأثير الانفعال، أن يتماس مع هذا الأثر الهائل، أن يغرق فيه، أن يتفاعل معه إلى الحد الأقصى، ثم يأتي، بعد ذلك، العقل، المنطق، أو أية وسيلة أخرى، لتفسير ذلك!

وإذا كان الثور رمز حضارات أخرى، دلالة على القوة والخصب، فإن

هذا الثور يختلف عن أي ثور آخر وُجد أو يمكن أن يوجد. فالجناحان اللذان يبرزان في الجوانب لا يؤكدان السيطرة والقوة فقط، بل ويقولان أيضاً القدرة على الاجتياح، الصعود إلى الأعالي، الرغبة في إعادة تركيب الكون، ما أن يشير إليه الملك كي يفعل. !

لقد كان الشماس بارعاً وخبيثاً، لأن مشهداً مثل هذا لا يمكن أن تصطدم به العين في مكان أو زمن ويبقى الإنسان كما كان قبل رؤيته!

حتى الآثار المصرية العملاقة التي شهدها ريتش وماري معاً، ولم تستبعد ماري أن تكون مخلوقات من خارج هذا الكوكب قد ساهمت بتشييدها، وكانت مستعدة للدفاع عن ذلك. إلا أنهما في نهاية رحلتهما المصرية توصلا إلى مجموعة من الاستنتاجات والقناعات، كانت القادرة على تفسير تلك الحضارة.

أما هنا، في هذا المدى اللامتناهي من السهول والبياض، وأيضاً من التربة الرخوة اللحقية، فلا يعرف الإنسان كيف يفسر، أو يقتنع بسهولة، الشيء الوحيد، الذي يمكن أن يُفسّر، جزئياً، قوة هذه المملكة وجبروتها، وبالتالي قدرتها على تسخير الآخرين، كل الآخرين، كي يكونوا في خدمتها، من أجل جلب تلك الصخور من فوهة الجحيم، بذلك الملمس الناعم، وتلك اللمعة الخارقة الاستثنائية. إذ لا بد أن تكون النيران وحدها هي التي تولت صقلها وإعادة تشكيلها لتصبح بذلك النقاء، بتلك الصلابة، وأيضاً بذلك اللمعان المذهل.

بعد ساعات من التأمل والدوران، قالت ماري:

ـ يمكن أن تقول أي شيء يا كلود، يمكن أن يكون رأيك مختلفاً عن رأيي، لكن يجب أن تعرف شيئاً واحداً: أنا مستعدة أن أدفع حياتي ثمناً للثور المجنح . . .

أخذت نفساً عميقاً، وعلا الشحوب وجهها، قبل أن تضيف:

ـ أثر مثل هذا لا يمكن أن يُترك في هذا المكان الموحش، وأن يكون تحت تصرف شعب متخلّف لا يفهم ولا يقدر ما لديه، وقد يسيء إلى هذ

الأثر دون أن يحس أنه يرتكب حماقة أو جريمة!

تطلع إليها ريتش طويلاً قبل أن يسأل:

ـ ولكن ماذا نستطيع أن نفعل يا عزيزتي؟ لو كان صغيراً يمكن حمله، ولو كانت لدينا وسائل تساعدنا على التعامل معه، لما ترددت في الموافقة على نقله إلى بريطانيا فوراً، كي يحمي امبراطوريتنا الراهنة كما حمى إمبراطوريات سابقة... لكن انظري إلى ضخامته، إلى وزنه، إلى ارتفاعه، فما عسانا نفعل إزاء وضع مثل هذا؟

ردت ماري بانفعال أقرب إلى التحدي:

ـ وكيف فعل الذين نحتوا مثل هذا التمثال قبل آلاف السنين؟ هل كانوا أقوى أو أكثر جدارة منا؟ ألم يجلبوا الصخر من أمكنة بعيدة؟ ألم يشعروا بالتحدي الذي فجّر كل عبقريتهم؟

وتغيرت نبرة الصوت وهي تضيف:

ـ يجب يا كلود أن تفكر بكل هذا لكي تحس بالتحدي، يا عزيزي، هل يمكن أن تسلم بالهزيمة قبل أن تخوض المعركة؟

ـ ولكن ماذا نستطيع أن نفعل، هذا هو السؤال؟

ـ فعلاً هذا هو السؤال!

بعد أيام، وكانا لا يزالان يفكران بطريقة مناسبة للتعامل مع الثور المجنح، وفي محاولة لإقناع ماري باستحالة التعامل مع آثر بهذا الحجم، قال ريتش بمزيج من الحزن والسخرية معاً:

ـ ألم تقولي، يا ماري، قبل فترة، ونحن نتحدث عن أهرامات مصر، أن مخلوقات من كواكب أخرى هي التي صنعت تلك العجائب؟

ـ نعم ـ قلت، ولكن ماذا يعني هذا؟

ـ لو أننا نملك قوة أكبر، ظروفاً أفضل، لفعلنا مثلهم!

ـ ماذا تقصد؟

ـ إذا استبعدت المخلوقات من الكواكب الأخرى التي يمكن أن تشيد مثل تلك العجائب، واعتمدت على نفسي، لسخرت مئات، ألوف

العمال، وأجبرتهم على سحب الثور المجنح، وربما شيئاً أكبر منه، من هذا المكان إلى البصرة، وحالما يصل إلى هناك، وتكون سفننا موجودة، نستطيع أن نرحّل الثور، ومعه ثيران أخرى إلى بريطانيا. .

وكاد يسترسل، ولكن سؤال ماري لم يتأخر:

ـ إذا كان مئات العمال يكفون للقيام بهذا العمل، فما الذي يمنعنا من تأمين هؤلاء وتكليفهم من أجل إنجازه؟

ـ ولكننا لسنا الحكام، بعد، في هذا المكان، يا ماري. .

وبعد قليل وبحزن:

ـ لو كانت لدينا القدرة لتسخير العمال، دون ردود فعل، لما ترددت في القيام بذلك!

ـ يمكن أن ندفع أجورهم، يمكن أن يساعدنا الأصدقاء دون غضاضة!

ـ ولكن أن تتم عملية من هذا النوع، تحت أبصار الناس، لا بد أن يسيئوا فهم الموضوع كله. . .

وزفر، هز رأسه عدة مرات، وأضاف:

ـ هؤلاء الشرقيون كثيرو الشكوك، يسيئون الظن بكل شيء لا يفهمونه، إذ يحوّلون التراب إلى ذهب، ويعتبرون ما يُريده غيرهم، أيّا كان، ذا قيمة استثنائية. ويطالبون مقابلاً له قيمة تزيد مئات، آلاف المرات، عن قيمته الحقيقية، فقط لأن غيرهم يريده.

وبعد قليل:

ـ لبريطانيا أهداف كثيرة في هذا البلد، وفي البدان المجاورة، ومن الخطأ أن يرانا الناس نحلبهم، ونسرق خيراتهم. . .

وتغيرت اللهجة تماماً:

ـ يمكن أن يعطوا الكثير، دون شعور بالغبن، إذا افترضوا، أو توهموا، أنهم يعطون، لأن الكرم من الصفات التي يتميزون بها، وقد يبالغون في هذا المجال كثيراً، لكن إذا أحسوا ان ما يؤخذ يتم دون معرفتهم، دون إرادتهم، فعندئذٍ يتحولون إلى مجموعة من الحمقى، وتكون ردود أفعالهم

غريبة، وغالباً لا تتناسب مع أهمية الشيء الذي أُخذ!

ومثلما اشتعل خيال ماري في الأمكنة السابقة، فقد اشتعل إلى درجة الالتهاب في مواجهة الثور المجنح. أصبحت لا تتحدث إلا عنه، ولا تريد أن ترى شيئاً غيره، ولا تتصور أن هناك رمزاً للقوة أكثر منه اكتمالاً. كما أخذ خيالها يتفتق عن اقتراحات لا تخطر ببال من أجل نقله إلى بريطانيا. وريتش الذي كان يشاركها الرغبة ذاتها، رجل عملي، لذلك انصرف تفكيره إلى محاولة حرمان الفرنسيين من الإنفراد، لأن الزمن سيعمل لمصلحته، فإذا استطاع الآن منعهم، ولفترة من الزمن، فسوف يجد الطريقة التي تمكِّنه من التعامل مع هذا الأثر الهام.

وزيادة في الحيطة سوف يلجأ إلى أكثر من قوة، واعتماد أكثر من أسلوب في التعامل. سوف يبعث إلى اسطنبول ولندن، وإلى الهند أيضاً، بطلب آثاريين، وضرورة التعجيل بإرسالهم، كي ينقبوا ويركزوا حيث يعمل الفرنسيون الآن «والفرنسيون بمقدار ما يبدون هادئين، أو يتظاهرون بالهدوء، فإنهم، في أعماقهم، مجموعة من الحمقى، إذ يسهل استفزازهم، فما أن يروا الإنكليز إلى جانبهم، قريبين منهم، حتى يتهيجوا كما تتهيج الثيران من اللون الأحمر، ولا بد أن يبدأوا المعركة. وعند ذاك يمكن تدبر الأمر معهم!».

لن يكتفي بذلك، سوف يبحث الأمر في بغداد. وعلى ضوء رد الفعل الذي سيلقاه هناك، يمكن أن يوسّع المعركة أو أن يختصرها، خاصة أن الأتراك عموماً، وهذا الوالي على وجه التحديد، كثيرو الشكوك، شديدو الارتياب بكل ما يفعله أو يقوله الإنكليز، وفي أحيان كثيرة يهزون رؤوسهم موافقين ودلالة الاقتناع، لكنهم يفعلون العكس تماماً، تعبيراً عن الكبرياء، ورغبة في إظهار استقلالهم أو عدم خضوعهم لهؤلاء الأجانب الكفرة. «وأغرب شيء أنهم يعنون بالأجانب الكفرة الإنكليز وحدهم، وكأن الفرنسيين يصلّون معهم الصلوات الخمس، أو ربما صدقوا ما أعلنه نابليون أنه أسلم وارتدى العمامة!».

قد لا يضطر لبحث الأمر مع داود باشا بالذات، إذ يمكن لأحد مساعديه، الكيخيا أو عزرا، أن يكفي أحدهما أو كلاهما لوضع حد لنشاط الفرنسيين، كما أنهم سيكتمان الأمر عن الوالي، إذا لم يكن بصورة نهائية، فلا أقل من مرور فترة تكفيه كي يتصرف!

وإذا كان الإثنان سيطلبان ثمناً، الكيخيا يريد ثمناً سياسياً، بالدعم والتأييد إذا تطورت الأمور؛ وعزرا، مثل عادته، وإن تظاهر أنه يمزح، يمد يده ويحرك أصابعه بطريقة معينة، مع نكتة يرويها، ولا تخلو من مغزى، طالباً مقابلاً لأية خدمة يؤديها، إذا كان أحدهما أو كلاهما سيطلب مقابلاً ويبالغ في ذلك، فإن لديه وسيلة إضافية لمواجهة الموقف: سيعتمد على قوة محلية، إذ ليس أسهل من إيكال هذه المهمة لإحدى القبائل، وعند الضرورة لقبيلتين، ويجعل ساحة المعركة التي ستدور: قرصباد، مما سيؤدي إلى حرمان الفرنسيين من العمل، وجعلهم في خطر دائم، وقد يضطرهم هذا إلى الهرب، أو على الأقل لإيقاف جميع الأعمال... حتى إشعار آخر!

حين وصل ريتش إلى هذه الحلول والبدائل شعر أنه أنجز نصف المعركة، فالخطة الجيدة، خاصة في مواجهة مهزوم، تحديداً في أوروبا، معناها إلحاق المزيد من الهزائم بهذا الخصم، لأن النصر يقود إلى نصر، كما أن الهزيمة تؤدي إلى هزيمة أكبر، خاصة وأن «الآخر» يحارب بردود الفعل، بالانفعال والخوف من هزيمة جديدة.

لما لاحظت ماري ابتسامة على وجه ريتش، ولم تعرف لها سبباً، أو كيف تفسرها، سألت:

ـ مثلما أحب ابتسامتك أخاف منها... يا كلود!

واصل ابتسامه وطَرَف بعينيه موافقاً، وهي طريقة يلجأ إليها بعض الأحيان، خاصة مع الغرباء، حين يستمع إليهم وهم يثرثرون ويحرّكون أجسادهم كلها، كوسيلة إضافية للإقناع. لما تراه ماري هكذا في احتفالات القنصلية، تحرك وجهها متسائلة، عند ذاك يزيد ابتسامته، ويطرف بعينيه

الاثنتين أو يغمز بواحدة، دلالة أن كل شيء يسير كما يريد. بعد انتهاء مثل تلك الحفلات، وحين تسأله عن أحد المواقف، أحد الأشخاص، وكيف رد، يقول بثقة:

ـ في المدرسة تعلمنا الإصغاء، وفي وظائف الخارجية تعلمنا مع الإصغاء الابتسام، وفي مثل هذه البلدان تعلمنا أيضاً أن نسمع ما يقولون، وأن نفعل ما نريد!

ـ والآن: أياً من الدروس تريد تطبيقه معي، أو عليّ؟

ـ تعرفين، ماري، ان ليس كل ما يتعلمه الإنسان قابلاً للتطبيق؛ وليس كل ما هو قابلاً للتطبيق يمكن أن يطبق بنفس الطريقة، أو على الجميع!

ـ لم أفهم شيئاً أبداً!

ـ بصراحة: فكرت كيف نواجه الفرنسيين!

ـ قل لي كيف؟

ـ أن نكسب الزمن، وأن نكون عقلانيين!

ـ ولكن عملياً. . . كيف يتم ذلك؟

ـ شِعْر أقل. خيال أقل. صبر أكثر. . هدوء دائم!

وفي الليل، وكان القمر بدراً، وقد انتظرت ماري اكتمال القمر، وكانا في جو من المرح والود، وهما يحاولان أن ينجبا طفلاً، ذكر لها كيف خطط، وما يمكن أن يفعله، أولاً، لوقف الزحف الفرنسي، ثم بعد ذلك، وبالتعاون مع الآثاريين الذين سيصلون، كيف يمكن التعامل مع الآثار الهامة التي رأوها في الأماكن الثلاثة الأخيرة.

أما في اليوم الأخير لزيارة قصر سرجون الثاني، وبعد أن طافت ماري في كل الأنحاء، فقد توقفت طويلاً، وربما للمرة المائة، عند الثور المجنح. كانت تتلمس جنباته، وبأقصى ما تمكّنها أصابع القدمين من الامتداد. كانت تتلمس وتتطلع إليه، إلى السماء، إلى قوة مجهولة، كي تقوى على الوفاء بالنذر الذي قالته، وكانت تتطلع إلى القَمر: «أريدك هناك، بمكان يليق بك، لتتخلص من الوحشة التي امتدت آلاف السنين،

وأريد الطفل هنا» طبطبت على بطنها، وأخذت نفساً عميقاً، وبكل ما تملك من قوة!

في اللحظات الأخيرة، وقد جيء لها بالحصان الذي ستمتطيه، وكان الشماس مشتعلاً، نتيجة شربه مقداراً كبيراً من النبيذ الذي أهدي إليه من قرية مجاورة، قال لها وقد أسند كعبها الأيسر بيده ليساعدها على الركوب:

- تمنيت لو تتاح الفرصة لسيدتي أن تمتطي هذا الثور كما تمتطي هذا الحصان!

تطلعت إليه شاكرة، ثم التفتت إلى ريتش، ولا تعرف كيف قالت:

- سنقضي ما تبقى لنا من أيام على هذه الأرض إلى جانبه هنا... وهناك.

ولما رأت ابتسامته، ورأت عينيه تطرفان، أضافت:

- لا بد أن يغادر هذا المكان الموحش، نعم يجب أن يفعل ذلك... وبطريقة حالمة:

- نعم، سوف يغادر، سوف يتحرك، إذا لم يكن كتلة واحدة، فمجموعة من الأجزاء، وإذا أراد أحد، ذات يوم، أن يشهد الثور المجنح، فلن يتكلف الوصول إلى هنا، سوف يراه هناك!

وعادت القافلة إلى الموصل. وخلال الأيام القليلة التي قضتها هناك، استقبل ريتش الكثيرين، وقدم هدية لائقة للكنيسة، وهدية خاصة للشماس، وشكر كل الذين أتاحوا له هذه الرحلة التاريخية.

62

في النصف الثاني من حزيران عاد ريتش إلى بغداد، بعد أن قضى ثلاثة أشهر وبضعة أيام في رحلته إلى الشمال. توقف، بشكل متعمد، في خان بني سعد وقتاً إضافياً، ريثما تستكمل كافة الترتيبات التي تليق بعودته ودخوله، بعد هذا الغياب الذي بدا طويلاً بالنسبة له، وأيضاً لآخرين كانوا ينتظرون هذه العودة.

تراءت له بغداد، وقد دخلها بعد العصر وقبيل الغروب، مدينة مختلفة، من حيث المناخ، ومن نظرات الناس أيضاً، فالبرودة، أو على وجه أدق، الجو المنعش الذي رافقه حتى بعودته، أصبح لافحاً شديد الحرارة، خلال النهار، منذ أن ترك تلك البلدة. ولو كان الأمر عادياً، ولا يتعلق بغيابه الطويل، ثم بمتطلبات المنصب، وما يقتضيه من مراسم لائقة، لفضّل دخول بغداد ليلاً، أو في الصباح الباكر، كي يتجنب الحرارة والإرهاق، لكن، وكما قال لنفسه، وهو يحدّد ساعة وصوله: «. . . في أحيان كثيرة يجب أن يتكيف الإنسان مع طبيعة المركز الذي يشغله، والموقع الذي يكون فيه، خاصة في بلد مثل هذا، حيث تُعطى للمظاهر المرتبة الأولى في تحديد الأهمية والقوة».

ورأفة بماري، وبعض النسوة اللواتي كن معها، فقد فكر للحظة، أن يبعث بها قبله، لتتجنب قطع المسافة بين خان بني سعد وبغداد تحت تلك الشمس الحارقة، لكن ما لبث أن صرف النظر عن تلك الفكَرة، فقد أرادها أن تكون إلى جانبه هذه المرة، وهو يدخل المدينة، لما سيكون لذلك من

وقع استثنائي، لا بد أن يصبح حديثاً لبغداد أياماً بعد أيام، خاصة بعد أن لوحّتها الشمس، وجعلتها متوردة متألقة، واكتسبت سمرة فاتنة ملفتة. ثم إن أهل بغداد إن كانوا قد لمحوا ماري، وربما رآها بعضهم عن قرب، فسوف تكون شديدة التأثير، وسط الموكب، إلى جانبه، حين تتعلق بها الأنظار!

أكثر من ذلك، يريد أن يعطي درساً، حتى لو كان أقرب إلى الصدمة، لهذا المجتمع المنافق، خاصة للطبقة الثرية والحاكمة فيه. إذ بمقدار ما تتظاهر هذه الطبقة بالعفة والطهارة، حين تغيّب النساء بشكل كامل، حتى ليظن الإنسان، في لحظات معينة، أن هذا المجتمع يخلو بالمطلق من النساء، فإن الوقت الذي يُصرف على التفكير بالمرأة، والحديث عنها، لا يُصرف مثله في مكان آخر من العالم! كما أن أنواع الممارسات التي تجري بسرية، تحت جنح الظلام، في البساتين، أو في بيوت خاصة، تجعل الإنسان يتساءل: إذا كانوا غارقين في هذا الجو، وإلى هذه الدرجة، متى يكون لديهم وقت للأشياء الأخرى؟

ثم ماذا يقول الناس، وهم يرون ماري، التي جاءت من أوروبا البعيدة، من انكلترا، تمتطي ذلك الحصان الأسود الشموس، والذي يعرف كيف يُظهر نفسه ويظهر الفارس الذي يمتطيه، حتى لو كان ضمن مئات الخيول؟

إن الصدمة، في حالات كثيرة، بداية الرؤية الصحيحة للأمور. كما تجعل، حتى أبلد الناس، يقارن ويتساءل، وقد يعيد النظر بمسلمات كانت قائمة وراسخة إلى ما قبل حدوث تلك الصدمة. ومهمته منذ أن وصل إلى هذه المدينة أن يكون مركزاً لكل شيء، ليشعر الجميع أنه لا يمكن حدوث أمر أو استمراره دون موافقته، ليس لبراعته فقط، بل ولأهمية الدولة التي يمثلها، هذه الأهمية التي يقرّ بها الجميع، وإن كان الحكام يحاولون تجاهلها، في الظاهر، لكن في أعماقهم يعترفون ويحسبون، وبالتالي لا يتخذون أية خطوة إلا وفي تقديرهم أن الباليوز راضٍ عنها، أو في أسوأ الأحوال لا يعترض عليها!

وتراءت لريتش صورة داود باشا: «يبدو ناعماً، ولا يخلو من لطف، كما يحسن الاصغاء، لكنه بارد، شديد الحذر. أما إذا أراد أن يتجاوز حدود المجاملة، ويسترسل في الحديث، فإن ما يقوله لا يمكن إعادته أو تلخيصه، إذ لا يتعدى الكلمات المألوفة، المتداولة، والتي لا تعني شيئاً في النهاية. كما أن شعوره بأهميته لا تخفى. يتبدى ذلك من المظاهر والشكليات التي أدخلها على السراي، من حيث طريقة الاستقبال، وملابس الحرس ورجال التشريفات، إلى نافخي الأبواق، والذين يقدمون القهوة والغلايين. ثم الذين يمرون بالمباخر. أما الصمت الذي يخيم على السراي، فيبدو عميقاً ممتداً وكأن لا أحد في مساحة قطرها ميل أو يزيد، وحين تنتهي الزيارة يضجّ البهو والممرات فجأة بأصوات رجال لا يُعرف أين كانوا، أو كيف انفجروا هكذا!»

كان ريتش يسترسل، وهو يستعيد صور داود: حين كان قريباً من سعيد؛ ثم لما اعتزل؛ ولما تسلل إلى الشمال دون أن يحس به أحد. ورغم أن الباليوز زرع رجاله في كل مكان، ومثلما كان له رجال قرب الوالي، كان له رجال في التجمعات المناوئة، وفي الأسواق، وله صداقات في أوساط كثيرة، بحيث يعرف كل ما كان يدور. إلاّ أن شعور ريتش بالغيظ لأن داود غادر المدينة دون أن يحس، لا يزال قوياً. بل أكثر من ذلك رافقه بعض الأشخاص الذين كانوا من أصدقاء الباليوز، ويعرفهم ريتش شخصياً.

أما بعد أن عاد داود والياً لبغداد، فقد بقي لطيفاً ودوداً، بل وحاول أن يتظاهر بنسيان مواقف الباليوز في دعم سعيد، أو في حماية بعض رجاله، ثم كيف أخرج العديد منهم في الوقت المناسب، لعلهم يكونون شركاء لداود بعد أن تعذر عليهم أن يصبحوا حكاماً.

ولأن عادة ريتش ألا يقطع مع أحد، حتى لو تحول إلى خصم، إذ يُبقي صلة من نوع ما، وغالباً خفية وغير مباشرة، فقد تلقى رسائل مبكرة من سفارته في اسطنبول، تبلغه أن نتيجة الصراع الذي يدور في بغداد ستكون

لمصلحة داود، لأن اسطنبول اختارته لحكم العراق، وتطلب السفارة منه وتؤكد أن يبقى قريباً وإيجابياً، وتضيف واحدة من الرسائل: «. . . ثم إن ما يهمنا، ويجب أن تنتبه إلى ذلك جيداً، ليس الكلام الذي يقال، وإنما الأعمال والخطوات التي تتخذ، لأن العادة في الشرق أن يقال كلام كثير، وبعض الأحيان شديد التباين، لإرضاء بعض الفئات، أو لمواجهة بعض المصاعب. وقد يكون ضمن الذي يقال ما يسيء أو يجرح، وربما لا يخلو من تعريض أو اتهامات. أمور مثل هذه غير مستبعدة، يجب أن نسجل اعتراضنا عليها، لكن يجب أن لا تصبح بمثابة إعلان حرب أو سبباً للقطيعة».

كانت مثل هذه الصور تتلامع في ظهيرة ذلك اليوم بذهن ريتش، بعد أن تحولت قافلة الشمال إلى موكب أقل حجماً، لكن أكثر انتظاماً وتجانساً وتماسكاً. أما حين استقبلته الفرقة الموسيقية التابعة للباليوز عند مشارف بغداد، بملابسها الأنيقة اللامعة وخيولها المنتقاة، الحسنة الطلعة والزينة، فقد شعر أن رحلة الشمال كانت ضرورية، وتحمل معانٍ كثيرة، ولعدة جهات. ولما نظر إلى ماري بجانبه، وهو يدخل بغداد، ورأى الناس يقفون على جانبي الطريق، وبدوافع مختلفة، فقد تأكد أنه يمثل دولة عظمى، أو بكلمة أدق: أعظم وأقوى دولة في العالم.

ورغم أن رسائل عديدة وافته من الباليوز إلى الشمال، وفي عدة محطات على الطريق، وكان بعضها يطلب رأيه بأمور محددة، فإن كم الأخبار الذي وصله، ومن مصادر مختلفة، جعله يشعر، في لحظات معينة، وكأنه لا يزال في بغداد، وأن شيئاً لم يفته. لكن والناس ينظرون إلى موكبه، بدا له أن في العيون أكثر من حب الاستطلاع، مثل عادتهم في مرات كثيرة سابقة، إذ تحمل النظرات معنى التساؤل والإعجاب، وفيها شيء من الدهشة.

ومع أن الحرارة لا تزال لافحة، إلا أن البساتين على الجانبين، ثم قرب النهر، وتلك النسائم التي تهب عادة من جهة الغرب في مثل هذا

الوقت، جعلت حشود الناس تتزايد ما إن يُسمع صوت الموسيقى، وما إن يتقدم الموكب، خاصة بعد أن اجتاز الباب الشرقي، نحو وسط المدينة.

في لحظة معينة، ورغم انتظام سير الموكب، إلا أن صوت طبل مفاجىء، وقد ارتفع بقوة من أحد الأزقة، ولّد نشازاً أجفل الخيول، وكان أولها حصان ماري، لكن استطاعت بسرعة، وبكفاءة لفتت نظر الكثيرين، أن تسيطر عليه. وسمعها، وقد انتظمت خطوات الموكب من جديد، تقول:

- مناظر رائعة. شيء لا يصدق!

لم يجب، التفت إليها بطرف وجهه، وغمز بعينه.

ناطق أفندي الذي أرسل من السراي لاستقبال ريتش، ووقف طويلاً مع مساعد القنصل، لفت نظره زي العاملين في الباليوز، الذين جاءوا للاستقبال. إذ رغم تنوع الأزياء، فقد احتفظ الذين جاءوا من الهند بملابسهم الهندية، وكذلك الذين جيء بهم من افريقيا، ومن مدغشقر، وإن غلب على الآخرين الزي البريطاني، الشديد الصرامة، لكن بدا المشهد بمجموعه منسجماً، بل وجميلاً. وقد ثمّن ناطق أفندي عالياً الدقة والانتظام، بدءاً من الزي، مروراً بالوقفة الجادة، وانتهاءً بالصمت الجليل الذي سيطر تماماً، حتى على الحيوانات! أما حين أراد أن يفتح حديثاً مع مساعد القنصل، فقد تلقى إجابات سريعة، رداً على الأسئلة التي وجّهها، وكان الصوت همساً أو أقرب إلى الهمس، دون أن تلتقي النظرات، وما لبث أن انتهى الحديث كما بدأ.

قال ناطق أفندق لنفسه، رغم المرارة التي شعر بها لانقطاع الحديث: «... السبب في عظمة الدول، واتساع ممالكها، وقدرتها على إخضاع الآخرين، يتلخص بأمر أساسي: وجود النظام، وتقيد الجميع بهذا النظام، من الكبير إلى الصغير، وفي كل الأوقات». هز رأسه عدة مرات ضجراً، وقد طال وقت الانتظار، وأيضاً نتيجة الحرارة، لكن لما التفت حواليه، ورأى رجال الباليوز، شعر بالخجل، إذ ربما كانوا مسرورين في هذا

الجو، وسعداء أنهم ينتظرون صامتين. قال ليعزي نفسه: «في جوٍ مختلف عن الأجواء التي عاشوا فيها، وبين شعب لا يكنّ لهم الود، ومع ذلك يبدون راضين، أما نحن...».

أما حين سلّم على ريتش، وقدّم التحيات باسم الوالي، فقد قدّر ريتش هذه الالتفاتة، وطلب إليه أن ينقل إلى الوالي تحياته واحترامه. وحين وقعت نظرات ناطق أفندي على ماري، وقد لبست ملابس الفرسان، واعتمرت قبعة من الفلين، فقد بدت له أشبه باللعبة، بالبشرة التي لوحتها الشمس، وتركت في بعض المواضع ظلالاً زادتها فتنة، وكاد، في لحظة انفعال، أن يمد إليها يده، لكن في اللحظة التالية، وخشية من الخطأ، اكتفى برفع اليد في الهواء، مع هزات رأسه وابتسامة عريضة قالت تقديره وحتى إعجابه.

أما التقرير الذي رفعه إلى الباشا فكان موجزاً، لكن له دلالات لا تخفى. كتب: «... وصل سعادة القنصل قبل أذان المغرب بساعة زوالية. كان حصانه يسير خبباً، وإلى جانبه فارس آخر، وهو معه الحافر على الحافر، لا يقترب ولا يتأخر عنه، حتى ظن من رأى الموكب أن له أميرين وليس أمير واحد، فلما اقتربا تبين أن حرم القنصل من كانت تساوقه. كانت بملابس الفرسان، بلا شارة أو نيشان، لكن بهاء الطلعة، وجلال التلعة، قالت عن المقام حتى دون كلام؛ أما باقي موكب القنصل فالمساعدون والحرس، كلٌ بهندام يليق وبمسافة تحدّد ولا تعيق. وبعد أن أبلغته تحيات المقام العالي، تمنيت له طيب الوصول والمقام في حضرة وحماية والينا، فشكر وحمد وقدر، وطلب أن تُرفع لمقامكم أسمى التهاني مع دوام الصحة والعافية وراحة البال.

استدراك 1: كانت ملابس القنصل وحرمه تشبه ملابس صيادي الفرنج، أما الألوان فكانت أقرب إلى لون التراب الجاف. حتى العمائر كانت بذات اللون. أما باقي الموكب فاللون هو البهاري الكاشف، عدا ميناس فقد ارتدى زياً عربياً أقرب إلى زي بدو الموصل.

استدارك 2: بناءً للتعليمات لم أمكث أكثر من الوقت الذي يتطلبه تقديم التحية، واعتذرت بعدها وانصرفت، سالكاً طريق الشط.

استدراك 3: لا يمكن تقديم توصيفات أكثر لمقامكم إلا إذا كانت الرغبة حاصلة والسؤال قائماً وبانتظار التوجيه. خادمكم ناطق قزويني».

الأخبار التي سرت في السوق أكدت منذ الصباح أن القنصل عائد ذلك اليوم. وإذا كان الكثيرون هزوا أكتافهم دون اهتمام، وكأن الأمر عادي أو لا يعنيهم، فقد انتشرت عند الضحى إشاعة قوية أن القنصل يصطحب معه في عودته أعداداً كبيرة من حيوانات الجبال النادرة، وستعرض هذه الحيوانات أمام العموم، لكن لم يُحدّد ما إذا كانت ستتقدم موكب القنصل أم ستتبعه. وجاء من قال عند الظهر ان الباليوز، وكنوع من التقدير العالي لمقدم القنصل، سوف يصطحب في الاستقبال عدداً من الحيوانات المفضلة لدى سعادته. وأكّد بعض المتفائلين وأصحاب الخيال، أن نزالات سوف تجري بين الحيوانات القديمة والجديدة، لكن لم يقل أحد منهم أين، وهذا ما جعل الكثيرين، خاصة من الصبية والنساء، يخرجون إلى الشوارع، ترقباً لهذا الحدث الخارق الذي لا بد أن يقع، إذا لم يكن في الباب الشرقي فبكل تأكيد في الباليوز أو حواليه!

63

حسون رافق موكب القنصل من الباب الشرقي حتى الباليوز، الأمر الذي جعله، خلافاً لعادته، يتأخر أكثر من ليالٍ سابقة في الوصول إلى قهوة الشط!

ولما كانت الأخبار والإشاعات قد انتقلت من الرصافة إلى الكرخ عند الظهر، أو بعد ذلك بقليل، وكانت أثناء انتقالها، خاصة في المراكب التي تتباطأ حركتها بين الضفتين في مثل ذلك الوقت من النهار، لقلة عدد الراغبين في الانتقال، أو لتباعد وصولهم، كانت الأخبار تتضخم وتتغير وهي تنتظر على الضفة الشرقية، ثم أثناء عبور النهر، حتى إذا وصلت إلى الضفة الأخرى تصل مختلفة، مليئة بالمبالغة، حتى لا تكاد تصدق!

وأهل الضفة الغربية، الذي يميلون بطبيعتهم إلى الابتعاد عن السلطة، ويكرهون هؤلاء الأجانب الذين وصلوا فجأة، لا لكي يمارسوا التجارة، كما هي العادة، وإنما لينشروا هذا القدر الكبير من الأسئلة والمخاوف، إذ كانوا يتحركون في الليل، ويظهرون فجأة ويغيبون فجأة، ولا يعرف على وجه الدقة، أو على وجه اليقين، ماذا يفعلون أو ماذا يريدون؛ أهل هذه الضفة كانوا يراقبون عن بُعد، ويضعون بينهم وبين هؤلاء الأجانب مسافة، كما يشكرون الله أن الباليوز بذاك الصوب، وليس عندهم، وإلا لكان حالهم أكثر سوءاً ولزادت مخاوفهم أيضاً.

الآن، وقد وصلت الإشاعات والأخبار بهذا الشكل، لا يعرفون ما يصدقون وما يكذبون. وما عدا بعض الصبية، وعدد قليل من الرجال الذين

لم يستطيعوا مقاومة الفضول، خاصة وأنهم لم يروا الحيوانات التي عرضها الباليوز قبل فترة، فقد اندفع هؤلاء يركبون الزوارق إلى الضفة الأخرى؛ أما الصبية المفاليس فقد وضعوا ملابسهم على رؤوسهم، أو أمسكوا بها بيد، ومالوا قليلاً على جنوبهم، وهم يخبطون الماء بيد واحدة، كي يعبروا النهر. وحين تتعب يد من الإمساك بالثياب، أو من طريقة السباحة، كانوا يبدلون. ولقد شعر هؤلاء بفخرٍ حين عبروا ووصلوا مثل الآخرين، خاصة وأن التيار لم يحملهم إلى نقطة محددة في الجهة الأخرى، وإنما سار بهم بعيداً، فما وجدوا أنفسهم إلا وهم أقرب ما يكونون إلى الباب الشرقي!

فرحوا بذلك، ولم يأبهوا لبلل الثياب، رغم حرصهم ألا تبتل، وما كادت أقدامهم تطأ صوب الرصافة حتى ارتدوا ثيابهم على عجل، والتحقوا بكثيرين كانوا متجهين إلى الباب الشرقي لرؤية عجائب ذلك اليوم!

حسون الذي يفاجئه أي شيء، كان هذه الليلة مفاجأً أكثر من ليالٍ أخرى كثيرة. دخل قهوة الشط متأخراً وهو يصيح بانكسار وضعف:

ـ فريرات. . . فريرات

الذين التفتوا إليه، ولم يروه يحمل أية فريرات، هزوا رؤوسهم طويلاً بتساؤل وباستغراب. لم يأبه إلى العيون التي كانت تتابعه وهو يذرع القهوة إلى نهايتها، ثم ينزل الدرجات القليلة كي يصل قريباً من الرواد الذي فضّلوا الهواء الطلق، مقابل النهر تماماً، وهناك اقتعدوا الكراسي المصنوعة من سعف النخيل. وصل حسون إلى هناك وهو يصيح بنفس الطريقة المسكينة:

ـ فريرات. . إي نعم فريرات، منو اللي يريد يشتري فريرات حسون؟

بعد هذه الجولة، وبعد أن سمع عدة مرات أسئلة لا تخلو من بذاءة، وهي تستفسر أين وضع الفريرات، وقف في أعلى الدرجات، وما كاد يُسأل من جديد عن فريراته، حتى وضع يده على صدره، عند القلب، وهو يردد:

ـ الفريرات هنا، يا معودين. فؤادي متروس فريرات، لكن منو يعرف،

منو يدري؟

وتغيرت النبرة، أصبحت وجداً:

ـ مو بس قيس مجنون، مو بس عنتر بليا عقل؛ اليوم، بعد شوفة اليوم، حسون جنّ، صار أكبر مجنون!

وتتعالى الأصوات:

ـ حرامات. . . حرامات يجن حسون!

ـ لهْ. . لهْ. . . لهْ، ما معقول، لأنْ إذا اكو عاقل بالدنيا هو حسون!

ـ حسافا إذا جن حسون!

ـ موافقين على اللي تقوله، بس شنو اللي جننك؟

ـ إذا كانت ليلى جننت قيس، وعبلة كسرت ظهر عنتر، فأنت منو اللي جننك؟ منو اللي كسر ظهرك؟

ويصيح حسون، وهو يرفع يديه طالباً الصمت، ومشيراً إلى آخر الذين علّقوا:

ـ يسلم حلقك، أبو عبدالله، لأنك عرفت الداء!

يتوقف قليلاً، ويتوجه إلى الجميع:

ـ إذا ابن الأوادم، أبو عبدالله، عرف الداء، فمنو منكم يعرف الدوا؟

وتتعالى الأصوات من جديد:

ـ ماكو طبيب يوصف دوا، إذا ما عرف وين الداء!

ـ ولازم يعرف أسبابه!

ـ ولازم يعرف ليلى وعبله. . .

ـ وزليخة ولطيفة وأبو قرون!

ـ احچي، يا معود، قول، حسون، وشوف شلون تجيك رحمة الله!

ـ وشلون تجيك مصايب الله يا حسون!

بعد أن هدأ حسون، وجيء له باستكان الشاي فشربه على مهل، وكان حزيناً، وقد ظهر ذلك من هزات رأسه الملتاعة، أبلغ الذين يريدون سماعه ما رأى: «. . . بغداد، ذاك الصوب، انقلبت، ناس تدافع ناس تريد تشوف

القنصل. هسه يجي، بعد شوي يجي. بعد آذان العصر دقت المزيقا، وآني، حتى أشوف زين قلت لنفسي: مالك حسون ألا تصعد تيغة أو تقمز فوق شجرة. وربنا سبحانه، لأنه يحب حسون، لقى لي تيغة وبظهرها شجرة، شلون مكان، لو الواحد يتمناه ما يلقاه، طفرت، وما اشوف نفسي إلا وكأني بحضن أمي وأبوي. الناس تباوعني وتقول ألف نيالك. ما أطوّل عليكم السيرة، بعد ما فات العصر شوية انهرجت الدنيا، ركض الناس، وآني بمكاني. دقت المزيقا أزيد من قبل وآني بمكاني مخيّل، أباوع الرايح والجاي. وما شفت إلا الخيل مقبلة، شلون خيل تفتح النفس! ميّات الحصونة، كل حصان أحلى من الثاني. وصارت الدنيا مثل يوم القيامة!

استراح قليلاً، ثم تابع:

- وبنص هذي الخيل حصان أسود مثل الليل، ومنو راكبه؟

وسمع إجابات سريعة:

- طبيعي هذا حصان الآغا، برق!

- لا هذا حصان عزرا!

- يا جماعة وين رايحين؟ هذا حصان الباليوز!

هز حسون رأسه وهو ينظر إلى الذي حزر أنه حصان الباليوز، ومن جديد سمع من يقول:

- إذا كان هذا حصان الباليوز فلازم يكون راكبه أبو الباليوز.

- يعني القنصل!

- أو واحد من جماعته

رد حسون، وخرج الصوت من أعماقه:

- اللي راكب الحصان القنصلة، الباليوزة

- منو؟ شنو؟ شتقول؟

- إي نعم آغاتي، زوجة القنصل، بدر الدجى، ملكة الزمان، صاحبة العز والصولجان، هي اللي راكبة ومخيّلة...

وبدا أنه لا يستطيع المتابعة، فذاكرته مثقلة بمشاهد، وهذه المشاهد

تتزاحم إلى درجة لا يعرف كيف يعيد ترتيبها، كيف يرويها. لما خيم الصمت وطال، سمع أكثر من تعليق:

ـ ما يصير هالشكل حسون، توصّل اللقمة يَمّ الحلق وبعدين توقف!

ـ كلامك كله لثامة حسون، تريد تقول: موتوا. شفت وما شفتم!

ـ خلوا الآدمي يستراح حتى يسولف زين!

ـ يا الله، آغاتي، حسون، تكلم... قول.

قال حسون بعد أن زفر بلوعة:

ـ القنصل شنو؟ القنصل منو؟

وتغيرت النبرة قليلاً:

ـ كل واحد شاف القنصل ميّة نوبة: هو رايح على السراي، هو جاي من السراي؛ هو طالع للصيد، هو راجع من الصيد... ما علينا، لكن الخاتون، أويلاخ، منو منكم شاف الخاتون؟

وحين خيم الصمت من جديد، تابع حسون:

ـ وآني بمكاني أباوع وما أصدق عيوني: هذي أنس لو جان؟ مرّية لو شيطان؟

وتغيرت اللهجة، أصبحت فرحة:

ـ تباوع على الناس وتضحك، فرحانه چنها بليلة عرسها!

ـ وبعد شنو، احچ يا معوّد، برّد فوادنا.

ـ كل هذا اللي صار بصفحة، واللي صار بعده بصفحة ثانية!

وتغيرت لهجته، أصبحت مليئة بالطرب:

ـ الله، من فوق، بسابع سماواته، ما ينسى با جماعة الخير، يباوع ويشوف منو الآدمي، منو الخوش ولد، منو المظلوم، من اللي يستاهل...

وكاد يتابع بهذه الطريقة، لكن سمع صوتاً غاضباً:

ـ لا تدوخنا حسون، لا تلقلق، قول شنو اللي صار، وخلصنا!

ـ وآني على التيغة، وظهري تسنده شجرة تكي، قاعد كأني أمير،

والناس جواي تروج وتموج، وبعد ما خلص السلام والكلام، دقت المزيقا: حركة، للأمام.

وزفر كأنه جريح، ثم تدفق:

ـ مشى موكب الباليوز، وكل الناس وراهم. وما إن وصلوا يمي حتى وقفوا. هي اللي وقفت، وقالت لرجلها: باوع. تباوع عليّ وضحكتها صارت شبر!

وتعالت الصرخات:

ـ الله ربك حسون!

ـ من مثلك حسون!

ـ هذي ما تصحّ غير للغانمين يا حسون؟

ـ طمست بيك حسون، الله ربك، وبعد هذي الليلة ثلاثة ما راح ينامون: الله والخاتون وحسون!

ـ بيش بلشت حسون؟

قال حسون بحرقة:

ـ وبعدها الناس تسأل: ليش الواحد يتخبل؟ ليش يجن؟

وجاءته الردود من عدة جهات، وكانت بين الاستفزاز والإشفاق:

ـ حضّر حالك حسون، بآخر الليل راح تجيت عليك!

ـ شوف الفسقان، شنو آخر الليل؟ هسه لايبة عليه بالدرابين تصيح وتنتخي: وينك عيوني حسون؟

ـ الحب، يا جماعة الخير، مثل الطلقة، يصوّب ويجرح، ونوبات يقتل، والطلقة إذا طلعت أبد ما ترجع!

ـ يعني شنو قصدك: حسون تصوّب؟ انجرح؟

ـ ويجوز يموت!

ـ بيش بلشت حسون؟

ـ يا أبو بشت، بيش بلشت. . . إي نعم بيش بلشت.

قال حسون وهو يضرب على ساقيه:

ـ خلوني بهمي وقهري، يا جماعة
وتطلع إلى الأعلى، كأنه يخاطب الله:
ـ أنت، يا محب، يا ودود، يا كريم يا مجيب، تعرف ما في القلوب وما في الغيوب، ساعدني على القوم الظالمين!
وسمع أكثر من صوت يردد:
ـ يا محب، يا ودود... يا محب يا ودود... يا محب...
سيفو الذي جاء من حلقة غير بعيدة، وكان يراقب الذين أحاطوا بحسون، وهم يحاولون أن يزيدوا عليه أكثر من ليال سابقة، وبعد أن سمع آخر التعليقات، قال بنوع من النزق، الأقرب إلى التأنيب:
ـ انتو، يا أهل هالصوب، ما بيكم غير الكلام، ومو على كل الناس، على الفقرا، على المساكين...!
وبعد قليل، وقد امتلأ صوته بالغضب:
ـ حرام... تبوقون لسانه، وبعدها تحطوه وسطاني، فكوا عنه ياقة.. هدّوه!
قال حسون بلهجة مسكينة:
ـ صار لي أيام ما شفتك، عمو سيفو. شلونك؟ شلون كيفك؟
ولئلا تتطور الأمور، جاء الأسطة عواد وسحب حسون من يده، قال وكأنه يوجه الكلام إلى الآخرين:
ـ عود الحامض برد، وقلبك من اللغوة ساف.. ما ضجت؟ ما تعبت؟ يا الله قدامي!
ولم يعرف أهل قهوة الشط، تلك الليلة، غير أن القنصل كان مسافراً، وعاد من سفره، وأن حسون وقع في غرام زوجة القنصل!

64

الذين يعرفون الاسم الكامل لحسون قليلون، لأن الألقاب التي تطلق عليه تجعل الناس ينسون أو لا يحفلون باسم العائلة، خاصة وأن حسون من الشق الفقير في عائلة أبو خليل، ولأنه تعمّد الابتعاد عن محيط تلك العائلة وعن الأعمال التي تمارسها، فلما جاءت الألقاب لم يعترض، ولم تعترض العائلة، إذ لا يشرفها أن ينتسب إليها هذا المتشرد الهزوءة.

في فترة معينة، حين كان يجري الحديث عنه أمام من لا يعرفه، يُسمّى حسون أبو الخيل، ربما لأن هذا الاسم يُشابه اسم عائلته، خاصة وقد كان مهووساً بالخيل، وتعوّد أن يقضي في حظائرها وقتاً غير قليل، وكان يرافقها إلى مضامير السباق، ويندفع للحديث عن صفات بعضها، وما تتمتع به من مزايا، وكأنه مالكها.

وفي فترة لاحقة سُمي حسون شبوط، ليس لأنه صياد، وإنما لأنه صديق الصيادين، وكان يتوسط بين هؤلاء والذين يريدون شراء السمك، وغالباً ما يستطيع الوصول إلى نتائج ترضي الطرفين.

أما عندما صادق الذين يطيّرون الحمام، وتعلق بالحمام الورداني، وكان لا يملّ الحديث عن صفات هذا الجنس، فقد أطلق عليه اسم حسون الورداني، ثم ما لبث أن تحول إلى حسون الورد، تحبباً!

وحسون أبو الفريرات أطلقه عليه الصغار، وأصبح لا يعرف إلا به في طول بغداد وعرضها بين هؤلاء الصغار. أما الكبار فكانوا يسمونه حسون الإخباري، لأنه الأول في نقل الأخبار، وإن يكن بطريقته الخاصة.

في المرحلة الأخيرة، وبعد عودة القنصل من الشمال، وحين أصبح حسون يقضي ساعات كل يوم مقابل الباليوز، لعل زوجة القنصل تظهر ويراها، فقد أطلق عليه الناس في صوب الرصافة: حسون الإنكليزي، وسرعان ما انتقل اللقب إلى الصوب الآخر من المدينة، ولاقى هناك هوى واستحساناً، بحيث طغى على جميع الألقاب السابقة!

لم يكن حسون بحاجة إلى أي لقب، إذ بمجرد أن يطلق الاسم، دون أية إضافة، يُعرف أنه هو المقصود، في الوقت الذي لا يتحدد غيره، ممن يحملون ذات الاسم، إلا إذا عرفوا بأسماء آبائهم أو عائلاتهم.

بعد أن أطلق على حسون اللقب الجديد، وبعد أن يكون قد قضى ساعات في محيط الباليوز، يصل إلى قهوة الشط، وغالباً دون أخبار، وبرغبة أن ينزوي في مكان بعيد، قرب النهر، رافضاً الإجابة على الأسئلة التي توجه إليه، ولا يتردد، في بعض الأحيان، أن يرفع صوته بالغناء.

أهل صوب الكرخ الذين يتسمون بالبساطة إلى درجة السذاجة، بمن فيهم رواد قهوة الشط، كانت تسيطر عليهم رغبة لا تقاوم للسخرية وتدبير المقالب والاستغابة. إنهم تجاه بعضهم مسكونون بهذه الخصال إلى درجة المرض، ويتفننون في ذلك، وكأنهم أعداء! فالواحد منهم يتسقط أخبار الآخرين بكثير من الاهتمام والحرص، خاصة أخبار الفضائح الصغيرة، وما يمكن أن يكون مادة لحديث مثير، فإذا لم يجد بالغ في تقصي الأخطاء والنواقص، بل وتوهم بعضها. حتى الملامح والتصرفات، حتى الأسماء والمهن، للشخص أو لأقاربه، إذا كانت مناسبة لاستغابة، لا يوفرها!

وحسون الذي يعتبر موضوعاً شديد الإغراء، ودائم الحضور، ما إن يصل إلى قهوة الشط حتى يتظاهر الكثيرون أنهم لم يروه، أو لا يعنيهم أمره، خاصة بعد أن أصبح «صريع الغرام» كما وصفه الاسطة اسماعيل. فإذا اختار مكاناً بعيداً، وبدأ يدندن لنفسه، وغالباً لا يسمعه إلا القريبون، تتعالى صيحات الاستحسان وطلب الإعادة والزيادة من أشخاص عديدين. وحسون إذا غنى فمن أعجب المغنين، لأنه لا يحفظ كلمات أية أغنية

بشكل دقيق أو كامل، كما لا يتقن الألحان، لذلك يصبح غناؤه أقرب إلى الصياح والفوضى، لكن وهو يسمع كلمات الإطراء يطرب فيواصل «ويجود»، الأمر الذي يُخرج الأسطة عواد عن طوره، باعتباره أحد المولعين بالمقام، يصرخ عليه بحدة:

ـ بيزي حسون، سد حلقك واسكت.

وبألم يتابع الأسطة:

ـ چانت عايزة والتمّت: أثول يصيح بالدرابين فريرات.. فريرات صدق روحه أنه صار قاري مقام...

يتمهل قليلاً ثم يضيف بنزق:

ـ وولد المحلة يريدون يأكلون حلاوة براسه، كل ما خلص ثوّروه، جابوه بزفة أم سلاح: أعد.. أعد حسون، بعد حسون، وتعال اخلص!

يرد عليه الأسطة اسماعيل الذي يجلس إلى جانبه:

ـ على كيفك، أبو نجم، الرِجال يغني من حرقة قلبه، فخليه ينفه!

ـ هذا غنا، أسطه، لو عياط وعفاط؟

ـ يريد يسلي نفسه يا أبو نجم!

ـ يسلي نفسه بروسنا؟

ـ شيسوي إذا ذيك صدت، وما قالت: بوه!

وبعد قليل بلهجة حزينة:

ـ فإذا الغرب ما حنوا عليه فنحن أهله وجماعته لازم نحنّ عليه.

ينظر إليه الأسطة عواد بتدقيق ليكتشف ما إذا كان جاداً ويعني الكلمات التي يقولها، قبل أن يرد عليه. والأسطة اسماعيل يعرف كيف يتفنن بإخفاء مشاعره، وغالباً ما يؤدي أدواره بإتقان. يقول الأسطة عواد:

ـ المقام، مولانا، مو لعبة، والغنا مثل الصلاة والصوم لا يقربه إلا المطهرون، وين رايح إنت؟

ـ يا أبو نجم، الرجال ما قايل عن روحه انه قاري مقام، أو راح يصير مثل ثامر المجول؛ الرجال يريد يتونس، وهسه يتعب ويسكت!

يحرك الأسطة عواد يده في الهواء رافضاً التبريرات التي يوردها الأسطة اسماعيل، ويصرخ من جديد:

ـ تعال يمّي، يا مصايب الله، تعال حسون، حتى نتفاهم!

ولأن حسون يعرف ماذا يعني غضب الأسطة عواد، ويقدر ذلك من نبرة الصوت، فإنه لا يستطيع أن يتمادى، أن يواصل التحدي. يرد، وهو لا يزال في مكانه:

ـ خلص. . أستاذي، التوبة!

وتتكرر القصة ذاتها بعد أيام قليلة. وإذا كان الأسطة عواد قد فكر بتخصيص ليلة في الأسبوع لقراءة المقام في مقهاه، لينافس مقهى القشلة ومقهى مراد، فإن عقلاء صوب الكرخ أشاروا عليه أن يصرف النظر عن الموضوع، لأن السكارى سيتجمعون في المقهى كما يتجمع النحل على الحلوى، ويمكن لهؤلاء أن يفعلوا أي شيء، وبالتالي سوف يفسدون الأخلاق ويسيئون إلى المحلة. ورغم أن الأسطة عواد استجاب لرأيهم، إلا أن ذلك لم يمنعه من تخصيص ليلة، بين أسبوع وآخر، لاستقبال بعض أصدقائه من قراء المقام في المسافرخانة التابعة للمقهى، وهناك ترتفع أصوات الغناء وتدور الكؤوس. وفي مثل تلك الليالي، وبدل أن يغني حسون، مثل عادته، كان يذوب صمتاً ودموعه وحدها هي التي تتكلم. وكان يقسم ألا يعود إلى الغناء مرة أخرى، لأن صوته، كما يعترف للأسطة عواد سِقط، خردة، ولا ينفع إلا للنداء على الفريرات!

ويكف حسون عن الغناء لبضع ليالٍ، لكن رواد قهوة الشط لا يكفّون عن حسون، إذ لا بد أن يستفزوه. فحين يكون غارقاً في وحدته، رافضاً الانضمام إلى أية مجموعة تدعوه، تتصاعد، بين فترة وأخرى، من المقهى، من مركبٍ يقترب، أصوات أغانٍ يحبها، كان يغنيها. ومثلما تتشمم الكلاب رائحة الأشياء الجديدة، إذ ترفع رؤوسها بعصبية وسرعة، لتعرف من أين يأتي الصوت، والشيء الذي يثيرها، يرفع حسون رأسه، فإذا وجد الأمر جدياً، يزحف بهدوء إلى مصدر الصوت سواء داخل

المقهى، أو إلى طرف النهر، لكن ذلك لا يعدو أن يكون فخاً له، إذ ما يكاد يقترب حتى يطلب منه أن يغني. يرفض أول الأمر، يقول إن صوته هرب منه، لا يطاوعه، ولا يقول أنه يخشى الأسطة عواد، حتى إذا بلغ الإلحاح درجة لا تقاوم، يقول، ويخرج صوته غاضباً:

- الله وعباد الله ضد الفقير!

ويبدو كلامه غير مفهوم، فيأتيه أكثر من صوت:

- الفقرا لهم الله وعبد الله، يا معود!

- ونحن عباد الله، كلنا وياك، حسون، فلا تدير بال!

فيسأل، وهو يشير برأسه، دون أن ينظر إلى الأسطة عواد:

- وهذا البلاء منو يرده عنا؟

- لا تدير بال، حسون، لأنه حتى أبو نجم يهز رأسه سنطة وهو يسمعك، لكن ما يريد يبيّن عليه أنه مطروب، يخاف يقولون عليه صار أبو كيف!

- وإذا انحمق وقلب الدنيا علينا؟

- أنت غنِّ وخلِّ أبو نجم علينا!

ويبدأ حسون. يبذل قصارى جهده أن تكون البداية متقنة، جدية، لكن لا يعرف الكلمات، ولا يجيد اللحن، رغم المساعدات التي تقدم إليه من الذين حوله، إذ يتبرع أكثر من واحد لتلقينه. بعد فترة قصيرة تفلت الأمور، يتداخل اللحن مع ألحان أخرى، وتتداخل كلمات كل الأغاني معاً، وهذا ما يخرج الأسطة عواد عن طوره، لأنه في حقيقة الأمر مع الغناء الجميل، وأكثر من ذلك مع الذي يضبط المقام. ولأن حسون ليس في الأمرين شيئاً، فهذا ما يجعل الأسطة يغضب، وبعض الأحيان يثور، خاصة إذا بلغ الحال حداً لا يمكن السكوت عليه. يصرخ من مكانه البعيد:

- لك حسون كافي تقوقي، انشب واسكت!

وحسون الذي اندمج بالغناء، وأُخذ بكلمات الإطراء التي يسمعها، لا يعرف هل يواصل استجابة لنداء قلبه، ورغبة الذين حوله، أم عليه أن يمتثل لأمر الأسطة؟ يسكت قليلاً، مقاوماً التحريض، ومنتظراً ردّ فعل الأسطة.

وحين يتواصل الإلحاح عليه، خاصة من خضيّر ملا نوري، الذي يردد بخفوت شديد آخر كلمات الأغنية، يقول وهو يتلفت إلى وجوه الذين حوله:

ـ ها.. شنو اللي قلناه؟ شبيكم؟ احچوا، قولوا، لو تردون الفاس توقع براسي وحدي؟

وحين يجدهم غير مكترثين برد فعل الأسطة عواد، يتابع بمرارة:

ـ الواحد أحسن له يظل عايش ديم، وإذا راد يغني يغني وحده... وبالتشول!

ويسمع كلمات اللوم والعتاب من حوله، فيصرخ:

ـ واحد يهبش واللاخ يقول حح، هذا حال كل واحد منكم يا أهل هذا الصوب!

وينتهي الأمر، أغلب الأحيان، بأن يصمت حسون، أو أن تنسحب المجموعة، خاصة إذا كان خضيّر ملا نوري موجوداً، لأن خضيّر بمقدار ما يحب الغناء، الساخر منه تحديداً، ويجيده، فإنه لا يجرؤ على الغناء إلا ضمن الأصدقاء، وبعيداً عن الأعين، خاصة بعد أن التحق بالمدارس الدينية، ويفترض أن يتخرج منها بعد بضعة شهور.

إذا كان خضيّر ملا نوري موجوداً، وبعد عملية القمع التي مارسها الأسطة عواد، يبدأ أفراد المجموعة بالانسحاب واحداً بعد آخر، بعد أن يكونوا قد اتفقوا على الذهاب إلى مكان مناسب. في الصيف يسرحون مع النهر، وأيام البرد ينزوون في بيت واحد منهم، ولا بد أن يكون حسون موجوداً، ولأكثر من سبب: ليكون تغطية، فلا يعرف أحد أن خضيّر هو الذي يغني، وليكون نجماً بين وصلة وأخرى، خاصة بعد أن أصبح «صريع الغرام»، ولا يمل من إعادة ما وقع له لما كان ينتظر القنصل في الباب الشرقي حين عاد من رحلة الشمال!

وبنفس الاندماج، وبطريقة الابتهال الصامت، حين يسمع حسون المقام في المسافرخانة، يفعل وهو يصغي إلى خضيّر. الفرق الوحيد أنه

في الحالة الثانية يترك لجسده أن يكون وسيلته في التعبير، إذ يحرك يديه بطريقة إيقاعية، دون صوت، وكأنه يقود جوقاً موسيقياً؛ أو يهز رأسه مع الكتفين كما يفعل الصوفيون؛ وأحياناً يقف ويحرك جذعه كله، لكن دون خلاعة وكأنه يصلي. حتى عندما يضجّ الآخرون بالضحك لما تحمله الأغاني من طرافة وسخرية، لأن خضيّر يجيد تحوير كلمات بعض الأغاني، إذ يحوّلها إلى نقد لاذع، فإن حسون يظل مأخوذاً بالنغم، بالصوت الشجي، فلا يشارك بالضحك، كما يضيق بالتعليقات!

كان خضيّر لا يتردد على قهوة الشط إلا قليلاً، ويحرص على وقار مبالغ فيه إذا جاء، فلا يمارس أياً من الألعاب التي تستهوي الآخرين، كما يفضل الجلوس لبعض الوقت، خاصة أول وصوله، مع المسنين، ورجال العلم، «للانتفاع بعلمهم»، كما يقول، حفاظاً على سمعة عائلته المعروفة بالتدين، ولأنه سينضم إلى سلك رجال الدين، فإن الطرب يسري في دمه، والسخرية جزء من تكوينه، حتى أن الأسطة اسماعيل، راهن الكثيرين «أن خضيّر حتى لو صار مفتي اسطنبول راح يوم من الأيام يكسر الحِب» والذين سمعوا هزوا رؤوسهم استغراباً، وكانوا بين الشك واليقين وقالوا بأسف: «بهذي الأيام ما عاد ينحزر على أحد».

ومثلما يقع بعد حفلة المقام في المسافرخانة، إذ يمتنع حسون عن الغناء أياماً، يرد على الذين يطلبون منه الغناء بعد أن سمع خضيّر:

- رمانتين بفرد ايد ما تنلزم!

وحين يعتبرون كلامه غير مفهوم، يتابع كأنه يخاطب نفسه:

- إذا برّدتْ فوادي، وقالت: أي، راح أعزم كل أهل المحلة، وراح أغني بالليل وبالنهار، ولسبعة أيام، يوم ورا يوم، فخلوني هسه!

ويفهم الذين يسألونه، الذين يطالبونه بالغناء، من يعني، بل ويعرفون دون سؤال، لكنهم يبدون جهلاً أكثر من قبل. يظهر ذلك من استغرابهم، من رفات العيون، من الحركات، فإذا تمادى حسون بالتجاهل أو بالصمت يسألون ببراءة مصطنعة:

ـ بشّر يا معود، قول، منو هي المسعدة؟

يبتسم ببراءة وحزن، ويرد:

ـ بربي تعرفون يا قواويد، لكن لازم تسألون!

وحين يلحّون أكثر يرد بنفاذ صبر:

ـ جماعة ذاك الصوب!

ويرفض بعد ذلك أن يضيف أي شيء، لأن أية كلمة أخرى قد تدفعه للبكاء. وأهل صوب الكرخ، رغم سخريتهم، وغلاظة قلوبهم بعض الأحيان، إلا أنهم ضعفاء إلى أقصى حد تجاه الدموع، خاصة دموع الرجال، وتجاه حزنهم. قد يتسامحون، وربما يقدرون دموع المرأة إذا بكت. يحترمون ذلك ويفهمونه، لكن ضعفهم كله، الممزوج بالحدة والعنف والتطرف، يظهر إذا بكى أحد الرجال. إذ بالإضافة إلى أنهم لا يحبون ذلك، يشعرون تجاهه بالضعف، وهذا ما يجعلهم لا يتجاوزون حداً معيناً مع حسون، وكل رجل آخر، فإذا أحسوا أنهم بلغوا هذا الحد توقفوا ولا يتمادون بعد ذلك أبداً.

هؤلاء الناس، الذين يبلغون درجة مفرطة من الحساسية، لا يترددون في ارتكاب الحماقات، يفعلون ذلك في لحظة نشوة، أو في حالة ضعف، وهذا ما يجعلهم لا يكفون عن حسون!

فإذا غاب عن الوجه، ورغم ما يكنون له من الود، فإن خيالهم يتوقد من أجل خلق المتاعب له. يتفننون في ذلك مستخدمين كل طاقاتهم. يقضون الساعات، ويبذلون الجهد، بل ويتكلفون المال، فقط لكي يرتبوا المقالب، ويثيروا المشاكل، ليعرفوا كيف سيتصرف حسون.

ربما يفعلون ذلك لمواجهة الضجر، لجعل أيامهم أقل قسوة، وقد يفعلون لإثبات براعةٍ ما من نوع ما، أو ربما لينتقموا من أنفسهم أكثر مما ينتقمون من حسون!

فالتتار الذين يحملون البريد، حين يصلون إلى بغداد بين فترة وأخرى، يكون لوصولهم ضجة كبيرة، لأنهم يحملون أخباراً هامة، وغالباً تتعلق

بالسراي وكبار الموظفين والتجار. يتجه التتار فور وصولهم إلى ساحة السراي، وبعد أن يسلموا البريد الرسمي، يبدأون بالمناداة على الذين لهم رسائل وردت إليهم من اسطنبول، ومن مراكز الولايات، فإذا كان الذي يُنادى عليه موجوداً يستلم رسالته، بعد أن يدفع إكرامية بسيطة. هكذا يفعل التجار الذين ينتظرون بريداً، أما الغائب الذي يُنادى عليه، فيُبلغ من قبل المعارف والأصدقاء، وعليه مراجعة التتار الذين لهم مكان قرب القلعة، وهناك يتم تسليمه الرسالة مع إكرامية أكبر يدفعها «نظراً للمناداة عليه مرتين ثم حفظ الرسالة وسلامة الوصول.» أما أن يأتي واحد من التتار إلى قهوة الشط حاملاً رسالة فأمر نادر، بل لم يقع أبداً من قبل!

لكن هذا ما حصل في إحدى الليالي، في قهوة الشط، وكانت الرسالة لحسون.

إذ بعد أن جلس حامل البريد إلى جانب الأسطة عواد، أبلغه بأمر الرسالة، طالباً حضور حسون لاستلامها. بدت الدهشة الأقرب إلى الإنكار على وجه الأسطة. قال للتتري، حامل البريد، بنوع من الاستغراب:

- خاف إسم على إسم، مولانا؟

وحين أكد حامل البريد أن الرسالة لحسون، وأن العنوان قهوة الشط، ويجب أن تُسلم باليد. رد الأسطة، كأنه يخاطب نفسه:

- واي.. واي، انقلبت الدنيا!

والتفت إلى الأسطة اسماعيل، قبل أن ينادي على حسون، وهمس:

- شنو قولك، أبو حقي، صدق؟ چذب؟

رد الأسطة اسماعيل، وقد اكتسب صوته حزماً ظاهراً:

- بهاي الدنيا، أبو نجم، كل شي يصير...

وبعد قليل، وقد انخفض صوته:

- يجوز جايته من تلفات الدنيا ورثة من عمة أو خالة، منو يدري!

ونودي على حسون. جاء به اثنان من صناع المقهى. بدا خائفاً مرعوباً وهو بينهما. لم يرتكب هذا اليوم خطأ يمكن أن يلومه عليه الأسطة عواد،

فلماذا يساق هكذا؟

حين وجد جمعاً حول الأسطة، ضمن وجوه يراها لأول مرة، والكل نظرون إليه، يريد وصوله، تحول خوفه إلى عناد في محاولة للدفاع عن نفس. تباطأ سيره ثم وقف. لكن كلمات الأسطة اسماعيل الحنونة جعلته دأ قليلاً. قال له:

ـ بالعجل، ابني، حسون. الله باعث لك رزقة!

هدأ حسون قليلاً، لكن لم يزايله الخوف. حين وجد الآخرين ينظرون إليه وينتظرونه تقدم.

نظر إليه حامل البريد بإمعان وكأنه يعاين خروفاً أو بغلاً، فلما بدا له أن الرجل الذي أمامه يمكن أن يكون حسون الذي يبحث عنه، التفت إلى الذين حوله وسأل بجدية صارمة:

ـ نريد اثنين معرّفين.

رد الأسطة اسماعيل بسرعة:

ـ كلنا هنا نعرفه ومستعدين نبصم ونحلف.

نظر حامل البريد من جديد إلى حسون، سأله:

ـ أنت حسون أبو. . .

هز حسون رأسه، وكان الخوف مسيطراً. تصدى الأسطة اسماعيل من جديد للإجابة:

ـ أي نعم حسون أبو خليل، من محلة الشيخ صندل، أعزب، الشغل بيّاع شرّا!

كانت الأنظار تتوزع بين حسون وحامل البريد، وتتابع ما يقول الأسطة اسماعيل، وكأنها تسمع بحسون لأول مرة، أو تعيد اكتشافه من جديد. وحسون الذي بدا مستغرباً أن الأسطة يتحدث عنه هكذا، لا يعرف ما يراد له أو ماذا يراد منه.

ومن خُرْج كان يحمله، مد حامل البريد يده واستخرج بضع رسائل، فرزها بسرعة، أبقى واحدة وأعاد الرسائل الأخرى إلى الخرج. كما استل

من مكان آخر دفتراً سميكاً قذراً، وقال وهو يفتحه: المعرّف الأول

تبرع الأسطة عواد أن يكون المعرف الأول. إذ بعد أن دوّن اسمه، جر حامل البريد يده ونفخ على الإبهام ليرطّبه بحلق مفتوح إلى أقصى حد، ثم جر اليد كلها وضعها على خرقة فيها بقايا حبر، حتى إذا تلوث الإبهام، وقف نصف وقفة وهو يسحب اليد إلى الدفتر، وهناك وضع البصمة، ونفخ من جديد على الدفتر، ولكن هذه المرة بشفاه مزمومة ليجفف الحبر.

وكان المعرّف الثاني الأسطة اسماعيل، رغم أن عديدين تبرعوا بالتعريف بحسون، إلا أن يد أبو حقي، وقد شمّر ومدها بسرعة، كانت الأسبق، وهكذا وضع بصمته على الدفتر أيضاً.

أما حسون الذي كان يتابع كل ما يجري بعيون خائفة، وبإهتمام، فقد أجفل وتراجع حين طلب إليه أن يتقدم. قال بتوسل:

ـ ما أريد. . آني ما عليّ!

نبر الأسطة اسماعيل، وبطريقة أقرب إلى الأمر:

ـ لا تصير أثول، جايّك خط من اسطنبول وتقول لا؟ هاي وين صارت؟

قال الأسطة عواد بطريقة أبوية:

ـ تعال. . تعال ابني، ابصم واستلم.

رد حسون، وكان يوجه الكلام إلى الأسطة عواد:

ـ آني ما عليّ، أستاذي، وكل شي ما مسوي!

ـ أعرف، إبني، ماكو أحد قال فد شي، وهذا خط جاك من اسطنبول ويريدك الآدمي أن تستلمه. . .

هكذا شرح الأسطة عواد، وكانت عيناه وحركاته تطلب من حسون أن يتقدم، ان لا يخاف. وتعالت الأصوات تحثه.

ـ الله ربك حسون، خط من اسطنبول؟ منو مثلك؟

ـ على ويش خايف؟ منو تجيه رزقة ويقول ما أريد؟

ـ هذا يوم الحظ، حسون!

ـ الله يعطي الحلاوة للي ما عنده سنون!

ـ تعال، خلّصنا، خلينا نشوف الخط من يا ديرة، من يا آدمي؟

ودُفع حسون. مد يداً ترتجف، ومثلما بصم قبل أبو نجم والأسطة سماعيل، بصم هو أيضاً، وأعطيت إليه الرسالة! كما أعطيت إكرامية حامل البريد، دفعها، تبرعاً، الأسطة عواد.

وإذا كان هذا المشهد قد أثار استغراب كل من رآه، وكل من سمع به، فإن ما تلاه أكثر غرابة: فالرسالة لم تكن باللغة العربية، كما ليست بالتركية. وحين عرضت على عدد من الأفندية في المقهى اختلف هؤلاء، قال بعضهم إنها مكتوبة بالألمانية، وقال غيرهم: بالفرنسية، وقال آخرون، وكانوا أكثر جزماً، إنها مكتوبة بالإنكليزية. أما حامل البريد الذي أطال مكوثه في القهوة، وشرب عدة استكانات من الشاي، حين سئل عن مصدر الرسالة، فقد أجاب بأنه لا يعرف شيئاً، وأن مهمته تقتصر على استلام الرسائل وتسليمها، وهذه الرسالة جاءت من اسطنبول بكل تأكيد، لكن لا يُعرف إن كان مصدرها اسطنبول أو مكان آخر.

ليلة لا تُنسى في قهوة الشط!

لم يبق أحد إلا وكان له رأي، ولم يتفق رأي مع آخر اتفاقاً كاملاً، لكن قبل أن تنقضي تلك الليلة استلم الأسطة عواد الرسالة، وضعها في الدرج، حيث يضع الفلوس، وقفل الدرج، وقال للذين حوله:

ـ العجلة من الشيطان يا جماعة الخير، وما دامت الرسالة صارت جوا أيدينا، فلا بد نلقى من يقراها ويفرزن اللي بيها، وعندها نقول: ولد لو بنية!

وتوجه إلى حسون يخاطبه:

ـ وأنت، ابني حسون، ومثل ما قلت لي انك ما تعرف أحد باسطنبول، بديرة ثانية بعيدة، وما لك هناك قرايب، فلا بد أن واحد مر ببغداد فد يوم وشافك وشفته، وقال لروحه لازم نتذكر ابن الأوادم حسون، ودز لك هذي الرسالة. وباچر أو اللي عقبه يبين كل شي، فنام مثل كل ليلة ولا تدير بال، وآني أعقب الموضوع!

65

. . . ومثلما اختلف افندية قهوة الشط حول اللغة التي كُتبت بها الرسالة، اختلفوا حول ما ورد فيها.

الأسطة عواد الذي اخذ الأمر بجدية صارمة، فضّل أن يستشير أحداً من صوب الرصافة، معتبراً أن أي واحد من هناك لا بد أن يكون أكثر حياداً ممن يعرفون حسون في هذا الصوب.

كان أول من عرضت عليه الرسالة جاكي الأصفر.

كان جاكي منهمكاً بحساباته حين عرضت عليه الرسالة. نحاها جانباً وظل مشغولاً بنقل حسابات من دفتر إلى آخر. كان وهو يعمل يردد الأرقام بصوت مسموع، وبعد أن ينقل الرقم ويتأكد منه أكثر من مرة، يقول لنفسه، وكأنه يكافئها:

ـ أحسنت أبو ساره.

وكاستراحة قصيرة، بين فترة وأخرى، يرفع رأسه قليلاً وينظر إلى الأسطة أو إلى غيره، ويبتسم باقتصاد، بطريقة رتيبة، وكأنه يقوم برياضة لفكّه، دون أن تُعتبر الابتسامة وداً أو اعتذاراً عن التأخر!

بعد أن انتهى من نقل صفحات من دفتر إلى آخر، وقف، تمطّى، هزّ رأسه أكثر من مرة، كأنه يفيق من نوم، أو يُفرغ جسده من واجب حتى يبدأ واجباً آخر. لما رأى الاسطة عواد ينظر إليه، فطن للرسالة. التقطها. قال له قبل أن يقرأ أي شيء:

ـ قراية لو قراية وجواب؟

رد عليه الأسطة، في محاولة لخلق جو من الصداقة:

ـ صار زمان ما شفناك بذاك الصوب.. أبو ساره!

ـ عينك تشوف: الشغل ما يخلص!

ـ آخر نوبة لما تلاقينا، قبل سنة، أكثر من سنة، وعَذت تمرّ على القهوة، حتى نقعد ونسولف.

ـ هاي وين أكو منها.. علوّاه، لكن...

وتعمد جاكي أن يفسح للصمت طريقاً، لئلا ينقضي الوقت بالثرثرة. حين خيم الصمت من جديد سأله جاكي:

ـ ها، أسطة، قراية لو قراية وجواب عليها؟

ـ أول نوبة اقراها، قل لنا شكو بيها، وبعدين الله كريم!

ـ يعني فد قراية؟

ـ زين، آغاتي، فد قراية!

وبدأ جاكي يقرأها لنفسه. كان الأسطة عواد يتابع ما يرتسم على وجهه من أثر وانفعالات لما يقرأ. رأى شفته السفلى ترتخي، تنزمّ؛ رأى عينيه ترفان؛ ورأى يده اليسرى ترتفع في الهواء ثم تتحرك وكأنه يتساءل.

في ظل الصمت المخيم، والأسطة ينتظر، تطلع جاكي الأصفر إليه بإمعان وسأل:

ـ منو هذا حسون؟

لم يرد الأسطة أن يفرط ويقول شيئاً يندم عليه. لم يجب، وإنما سأل:

ـ ما تقول لي شنو كاتبين له؟

ـ وهذي اللغوة شنو؟

ـ أبو ساره انت اللي تقرا مو آني!

ـ هذا الحچي كله خرابيط. واحد سكران يخيط ويخربط!

ـ قول غير حچي يا معود!

ـ أصلاً ماكو واحد عاقل يكتب مثل هذا الكلام، وهمين يحچي على جماعة السراي!

ـ شيقول؟ شنو المكتوب؟

ـ أسطة، نص الكلام ما ينقرا، ما ينفهم، والنص اللاخ فشار!

وطوى الرسالة، أعادها إلى الأسطة عواد، وقال، وقد بدا صوته مختلفاً:

يجوز آني ما يفتهم، ما يعرف يقرا، فدوّر على واحد غيري، أسطة، يرحم والديك!

ـ أبو ساره.. غيّر.. بدّل...

ولما هز رأسه وكتفيه دلالة أنه عاجز، أضاف الأسطة عواد:

ـ من ذاك الصوب جيتك متعنّي، وقلت لروحي ماكو إلا أبو ساره، هو وحده اللي يدبر المسألة!

ـ أبدالك، اسطة عواد، ما أقدر. شوف أحد غيري!

ولم يُجْدِ الحاح الأسطة، رغم الايضاحات التي قدمها عن حسون، إذ وصفه بأنه رجل فقير، على باب الله، كما قال، وأن له أقرباء في اسطنبول، وربما يكون واحد منهم قد أرسل إليه شيئاً أو ترك له ميراثاً. لكن جاكي الأصفر، الذي استمع دون اهتمام، أكد للأسطة عواد أنه غير قادر على مساعدته، إذ لم يستطع قراءة الكثير مما هو مكتوب، وربما تكون اللغة التي كتبت بها الرسالة ليست الانكليزية التي يعرفها، ولذلك عليه أن يستعين بآخرين، متمنياً له التوفيق، كما قال وهو يودعه!

هذه البداية شكلت للأسطة عواد صدمة وتحدياً، كيف يعجز أبو ساره عن قراءة مجرد رسالة عادية لإنسان فقير مثل حسون؟ ألا يجوز أن يكون فيها أمر يخشاه، ولا يريد أن يكون شاهداً أو ترجماناً، كعادة اليهود الذين يرفضون أن يكونوا طرفاً في مشاكل قد تؤثر على تجارتهم؟ أو هل ينفذ تعليمات معلمه عرزا، الذي أعلن أكثر من مرة، أن «صوب الكرخ ما يجي منه إلا دوخة الراس» وكان يشير ضمناً إلى مواقف هذا الصوب تجاه الأحداث التي مرت، ولذلك يحب أن يعاقب الآن؟

إذا كان الأمر قد شغل الأسطة عواد بهذا القدر، فإنه شغل آخرين

أيضاً، خاصة الأسطة اسماعيل، الذي كان يتحرك رغبة للانتهاء من عمله والذهاب إلى القهوة، وقد اضطر إلى صرف آخر اثنين من الزبائن، دون حلاقة، متذرعاً بالتعب وانشغال البال، أو كما قال لهما مازحاً «نحن بيوم الأحد، وايدي، بعد أسبوع من الشغل صارت ترجف، فإذا ردتم زيان رعيان أنا حاضر، وإذا ردتم زيان أفندية، يرجع الواحد منكم بعده ابن عشرين سنة، فتعالوا يوم الثلاثاء غبشة، وبعد الزيان راح تقولون: عاشت إيدك أبو حقي»

قال أبو نجم للأسطة اسماعيل، بعد أن خفّض صوته، والتفت إلى أكثر من جهة، يتأكد أن لا أحد يسمعهما:

ـ ترى فتنا بدرب ما يطلع، أبو حقي!

ـ شلون يا معود؟ المن شفت؟ شكو مكتوب بالخط؟

ـ شفت جاكي، جاكي الأصفر.

ـ أي، شقلّك؟ شنو اللي كاتبين، وممن؟

ـ كل شي ما قدرت أعرف يا أبو حقي، وانلاصت عليّ أكثر من قبل!

ـ شلون يا معود؟

ـ ابن الحرام، جاكي أبو الزلف رد الخط وقال شوف غيري!

وشرح الأسطة عواد ما حصل له بالتفصيل؛ حتى رائحة الخان التي خنقته أثناء ساعة الانتظار، أشار إليها. وكيف أن جاكي لم يفطن، أو لم يفكر، بأن يأمر له بأستكان شاي، رغم أن قهوة ابن زبيبة على بعد خطوتين، وان صانع القهوة مر عدة مرات، وأطل برأسه وسأل ما إذا يأمره أبو ساره بأي شيء!

وإذا كانت هذه التفاصيل تعني شيئاً للأسطة اسماعيل في وقت آخر، فقد اضطر إلى مقاطعة أبي نجم أكثر من مرة لمعرفة النتيجة. أما حول ورود ذكر للسراي في الرسالة، وبمقدار ما أخاف الأسطة عواد، فقد جعل الأسطة اسماعيل يتحسب ويتساءل أيضاً، وإن لم يشارك الرأي في أن تكون هذه الرسالة رداً من السلطان على مضبطة قيل إنها رفعت لاسطنبول.

رد عليه بلهجة بين الجد والمزاح:

- سلطان الإسلام ويكتب بلغة الكفار؟ هاي وين صارت أبو نجم؟

- آني وياك، أبو حقي، لكن ليش جت سيرة فلان وفلان؟

- مثلي مثلك، ما أدري، أسطة، لكن يجوز أكو فد واحد باسطنبول يعرفه وقال: سلموا لي على فلان وعلى فلان.

- وهذا اللي دز الخط ما لقى إلا حسون حتى يكلفه بالسلام؟

- لا بد يكون اللي دز الرسالة غريب، والغريب، مثل ما يقولون أعمى ولو كان بصير. ما يعرف الدنيا، وما يعرف الناس، وقال لروحه: رسالة لبغداد، لحسون، فشنو راح اخسر إذا قلت له: سلم على فلان وفلان؟

قال الأسطة عواد، وكأنه يخاطب نفسه:

- ما تجي المصايب إلا من الحبايب، وهذي المصيبة من ورا راس حسون!

- وكّل الله، أبو نجم، من ساعة لساعة فرج!

وابتسم أبو حقي، وكأنه تذكر شيئاً. نظر بإمعان إلى الأسطة عواد وتساءل:

- مسألة أن تكون هذي الرسالة من السلطان، شيلها من بالك، لأن السلطان مو قشمرة.

ولو راد يكتب يعرف المن يدز الخط! اسأل روحك يعرف لو ما يعرف؟

- شلون ما يعرف، آغاتي!

- ولعلمك، أبو نجم، سلطانّا يعرف التركي والعربي، وإلاّ شلون يصلي؟ شلون يقرا الدعا شلون يفتهمه؟

- أنا وياك أسطة. وهذا اللي يحيرني.

- والحل؟

بعد فترة صمت، وبعد أن تبادل الاثنان التحيات مع كثيرين، وقدّر كل من مرَّ بهما انهما مشغولان بأمر الرسالة، سأل الأسطة عواد فجأة، وكأن

الفكرة طرأت له في اللحظة:
ـ هذا، صاحبك، ذنون الحاج حسين، ما يفيدنا؟ ما يقدر يفك الطلسم؟
نظر أبو حقي إلى الأسطة عواد، بعد أن استدار نحوه بكليته، وقال بفرح واندهاش:
ـ يسلم حلقك، يا أبو نجم، جبتها، وهذا الكلام اللي ينصرف!
وأضاف، وقد شعر بالظفر:
ـ ليش نسيناه؟ ليش ما جا ببالنا؟
ـ صاحب الحاجة يصير أرعن، ينسى، أو تتيه عليه، ما يعرف المن يسأل أو شيسوي، لكن ربك دائماً يذكّر ويلهِمْ.
واتفق الاثنان على أن يذهبا مبكراً إلى ضاحية الأعظمية، والتي تتطلب سفراً، حيث يسكن ذنون الحاج حسين، وهذا الرجل من زبائن الأسطة اسماعيل، وكان يأتي إليه بين فترة وأخرى ليحلق له شعره، وبعد أن ينتهي لا بدّ أن يمر على قهوة الشط منفرداً أو بصحبة الأسطة اسماعيل. وكان ذنون يحمل باستمرار كتباً، ويقول، بدعابة، لأي إنسان يسأله عنها إنها «بلغات الصليبيين: الانكليز والألمان والفرنسيين»، ويستمر في التعداد ليدلل على معرفته بلغات كثيرة! كما يؤكد أنه بعد قراءة أي من هذه الكتب يحس أن رأسه يكبر «ولا بد أن يأتي يوم يطالبه الأسطة اسماعيل بأجرة رأسين بدل الواحد، لأن رأسه يكبر يوماً بعد يوم تماماً كما تكبر الرقية» والحقيقة أن الأسطة اسماعيل لمّح، مداعباً، إلى شيء قريب من هذا، لكن بسبب مرور فترة طويلة بين حلاقة وأخرى، وليس بسبب حجم الرأس!
ما أن استقر رأيهما على استشارة ذنون حتى بدآ التفكير باختيار طريقة الذهاب. يمكن أن يمتطيا البغال، أو استئجار عربة، ولكن وصول سيفو في تلك اللحظات، وسماعه الحديث الذي كان يدور، جعلهما يقتنعان أن المركب أفضل طريقة، خاصة بعد أن عرض سيفو تأمين المركب، وهو

لصديق بدأ يتفاوض معه كي يصبحا شريكين! ومما زكّى استخدام المركب الحرارة الشديدة خلال النهار، ثم هكذا ينتقلان مباشرة من الكرخ إلى الاعظمية، دون أن يضطرا للذهاب إلى صوب الرصافة.

فكر سيفو أن يرافقهم حسون في هذه الرحلة، ليسمع بأذنه ما جاء في الرسالة، لكن رد الأسطة اسماعيل كان حاسماً:

ـ خلينا من هالمسكين يا أبو فلاح، يثبرنا بليّا افادة!

ـ وحتى لو ردناه يروح ينهزم، قال الأسطة عواد، وشفتوه الليلة كيف استلم الخط!

ـ ومن الغبشة يسري حتى يقابل الباليوز، قال أبو حقي، وكان يبتسم.

وركبوا إلى الأعظمية في الصباح الباكر لليوم التالي.

الهواء شمالي غربي، ناعم، منعش، وتزيده نعومة ولذة رطوبة الماء في ذلك الغبش المتلون ببقايا الظلمة. أما أسراب الطيور النهرية، بلونها الأبيض الناصع، فكانت مثل ضحكات الأطفال، كما وصفها الأسطة اسماعيل، الذي فوجىء بالمناظر حوله، وكأنه يراها لأول مرة!

قال يخاطب الأسطة عواد، لكنه يريد أن يسمع سيفو:

ـ مقابلين الحياطين الأربعة من غبشة الصبح حتى تظلم العين، والمقص بايدينا: تك.. تك.. تك، وبعدها شلون ما نعمى؟ ما نتقزم؟

لما وجد الأسطة عواد مأخوذاً بالمناظر، وقد سمعه ولم يسمعه، سأل:

ـ ما تقول لي يا أبو نجم شلون عيشة عايشينها؟

هز الأسطة عواد رأسه آسفاً، وأجاب، وقد خرجت الكلمات ببطء:

ـ الخبزة تنراد، أبو حقي، لأن الله ما يدندل بزنبيل؛ لازم الآدمي يركض، يكدّ، حتى يحصّل خبزته.

ـ ما اختلفنا، لكن أكو فرق بين اللي يقضي عمره بزاغور، وبين اللي يسرح ويّا الخضرة والماي.

قال سيفو بغيظ:

ـ لما قلنا هذا الكلام قلتم: سيفو صار خشمه عالي، ما يتحاچى، وما عاد يذكر الخبز والملح. . .

وأراد أن يواصل، لكن الأسطة اسماعيل قاطعه:

ـ على كيفك أبو فلاح، لا تعجج الماي. . .

ابتسم وكانت ابتسامته أقرب إلى القهقهة وهو يضيف:

ـ ماكو أحد وقف وياك مثلي يا أبو فلاح. تتذكر عركتي ويّا ملا حمادي، ويّا الحاج علو. قلت لهم: هدوا الآدمي، خلوه يشوف دربه. دوروا غيره!

ـ ما أنسى فد شي، أسطة؛ ولو سألتني شكثر عدد استكانات الشاي اللي شربتها بقهوة الشط. . أتذكرها.

استدار الأسطة عواد بفرح، وكان إلى ذلك الوقت يتابع النقاش وقد ركزت نظراته على الأماكن التي يمر بها المركب، علق وهو يبتسم:

ـ اللي ما يعرفك زين، اللي يباوعك من بعيد يا أبو فلاح، يقول: هالرجال ما يتذكر اسمه، ما يتذكر شنو كان عشاه. . . لكن تظل كرخي أصيل، وتظل مخلص للحليب اللي رَضّعك!

ثم صاح بمناجاة:

حيي عني الكرخ يا صاح وهل — لذّ عيش في سوى الكرخ لنا
كم كسانا البشر فيه من حلل — وسقانا الدهر كاسات الهنا

قال الأسطة اسماعيل الذي لا يتخلى عن السخرية:

ـ لعلمك، أبو نجم، بعدنا بصوب الكرخ، بعدنا ما عبرنا لذاك الصوب، فشنو بدأ الحنين والشكوى والنجوى؟

ـ كلمة تنقال، أبو حقي؛ وبعدين لا تقعد لي سچينة خاصرة، خصوصاً قدام الرجّال اللي رايحين يمه!

لما تقدم المركب مسافة إضافية ظهرت جزر صغيرة، وقد زُرعت بمحاصيل صيفية. كانت خضرة المزروعات ريانة براقة تُفعم الجو برائحة زكية نفاذة، وكانت تملأ العيون بنوع من الحذر، يحس معه الانسان أنه لا

يرى لون خُضرة واحد، شيئاً مألوفاً، فالهواء، وهو يتموج في هذا المجرى، يغيّر الألوان والأشكال، وبالتالي يغير نظرة الانسان وهو يستقبل هذا الجمال المتحرك المتغير في كل لحظة.

صاح سيفو بنغم في محاولة للاستفزاز:

ـ خيار الشواطي.. يا خيار!

ـ كل يوم بمثل هالجزرة تسوى سنة بزاغور الدهدوانة والشيخ صندل والشيخ معروف، قال الأسطة اسماعيل، وبعد قليل، وهو يسأل سيفو:

ـ شتقول أبو فلاح؟

ـ لولا إني خلصت من ذيك الزواغير، كان هسة آني ميت، يقولون: الله يرحم سيفو، كان خوش آدمي...

ضحك وهو يضيف، وبدت لهجته مختلفة:

ـ ما باقي لنا بالدنيا إلا چم يوم، وإذا عشنا مثل ما راد غيرنا، خلنا نموت مثل ما نريد! وبعد قليل وبحزن:

ـ وإذا رب العالمين سألنا: ها يا جماعة.. شلون كانت دنياتكم.. نقول له خلقتنا بكيفك ومتنا بكيفنا!

كان استقبال ذنون لهم مرتبكاً، ولا يخلو من الشعور بالحرج. فهذا الرجل الذي يحاول أن يبدو أنيقاً في كل زيارة للأسطة اسماعيل ثم لقهوة الشط، والذي تظهر عليه علامات الرفعة، وقد يوصف بالتكبر لمن يلتقيه أول مرة، بدا لهم، بالدشداشة القديمة الواسعة، بالشعر المنفوش، بالحركة السريعة المضطربة، وهو يدعوهم بود ظاهر للتفضل والدخول، أقرب إلى تصرفات الأطفال وطريقتهم في الحركة والكلام.

كان يسكن على طرف النهر، في بيت تظهر عليه آثار نعمة قديمة، إذ رغم اتساعه إلا أن الإهمال لحق بالكثير من جوانبه، وترك عليه الزمن علامات تتبدّى بوضوح من الألوان، من تراكم أشياء كثيرة في الزوايا، ومن البلى الذي لحق الأبواب والنوافذ والأدراج. ولأن الرجل أعزب ويعيش وحيداً، فقد تزايدت الفوضى وظهرت في كل ناحية.

بعد ترحيب حار، وفي محاولة للاعتذار، خرج صوته مسكيناً:

ـ لو قايلين، لو أدري، كان قلنا لوحدة، ثنتين، من القرايب، حتى نحضّر البيت، القعدة، لكن أبو حقي، مثل عادته، يسوّي الأمور سنطة!

وحين توالت الكلمات المتسامحة، التي تتفهم الأمور وتقدر ظروف الآخرين، شرح ذنون أنه يعيش بمفرده، خلال فصل الصيف، في هذا البيت الذي لا يشغل منه سوى غرفة واحدة، في الطابق الأعلى، أما باقي أيام السنة فيقضيها في بغداد، في محلة قنبر علي. إنه يفعل ذلك لأن هواء الأعظمية بالصيف يرد الروح، ويشفي من الأمراض التي تتراكم طوال العام في محلات بغداد المكتظة. وأشار إلى أنه يقضي النهارات كلها في البستان: يقرأ ويشرب ويراقب الطيور، فإذا تعب يصنع من الغضار تماثيل تحاكي التي كان يُعثر عليها أثناء التنقيب، خاصة في أور. وإذا تعب أكثر، أو تعب من صناعة التماثيل ينظم الأشعار، ويلحّن بعضها!

وفي محاولة لخلق جو حميم، ولأنهم أصدقاء، فلن يضطر لتبديل ملابسه، كما قال، ويفضل أن يكون الجلوس في البستان، تحت ظلال النخيل، وبالقرب من أشجار الحمضيات!

لما انتقلوا إلى البستان كانت المفاجأة كبيرة: لقد خلق ذنون لنفسه جنة صغيرة، فتحت شجرة كرمة ممتدة، كبيرة، وكريمة أيضاً، وضع مجموعة من المقاعد الخشبية، وأخرى مصنوعة من جريد النخيل، ورمى فوقها بسطاً ملونة ومساند، وكانت ثلاث طاولات موزعة بعناية، واحدة عليها خضرة طازجة منتقاة بمعرفة، لجمالها وطيب مذاقها، وأخرى، جانبية وقد تراصّت فوقها الكتب والزجاجات الملأى والفارغة، إضافة إلى مجموعة من المراوح وعدة ناركيلات، وربما أدوات صيد السمك، وبندقية حربية. أما الطاولة الثالثة وكانت أكبر الطاولات وبعيدة قليلاً، فقد امتلأت بمجموعة من التماثيل الطينية المفخورة والغضار غير المشغول.

كان يهب من جهة الغرب، من جهة النهر، هواء سخي منعش، يحمل رائحة الماء، والزهور التي تحيط بالمكان من ثلاث جهات، ويبدو أن

ذنون كان شديد العناية بالنباتات الصغيرة، لأن طريقة تنظيمها وتوزيعها تدل على اهتمام وذوق، وكان جانب من النهر يظهر في نهاية البستان.

ـ عندك هذي الجنة وتريد تحبسنا جوا، بالزاغور؟

هكذا سأل الأسطة اسماعيل، وهو ينظر بإعجاب إلى كل شيء يراه، وكان يتفقد المكان باهتمام. رد ذنون وهو يفرك يديه:

ـ بصراحة، فكرت من لحظة وصولكم أن تكون قعدتنا هنا، لكن قلت لروحي خاف الجماعة يضوجوا من ريحة العرق. . .

وأشار إلى الطاولة المليئة بالخضار والفاكهة، وكان عليها أيضاً كأس من العرق، وكتاب!

ـ لا يا معوّد، شكو بيها، وهمّ العرق، نعمة الله!

هكذا رد الأسطة عواد وقد تهلل وجهه، خاصة وأن كلمة شاعر التي ذكرها ذنون، ثم كلمة تلحين بعض القصائد، رنّتا في أذنه، وقدّر أن يوماً جميلاً، وربما حافلاً، ينتظرهم.

أما الأسطة اسماعيل فقال محذراً ومنبهاً، لكن بمكر لا يخفى:

ـ ترى اللي يشرب بهذا المكان جزاه مثل جزا فرارية العسكر: القاط قاطين!

ـ شلون أبو حقي؟. سأل الأسطة عواد.

ـ إذا شفع لك هذا الصوب، ترى الصوب الثاني ما يشفع، فدير بالك أبو نجم!

ـ ليش يا معود؟ شمسوّين؟ قاتلين؟ ناهبين؟ لو فرارية؟ سأل الأسط عواد.

ـ آني عليّ أقول لك، أنبهك، وبعدين افتصل أنت وربك.

ـ قول، نوّرنا، آغاتي!

ـ من هذي الصفحة: أبو حنيفة؛ ومن ذيك الصفحة: الكاظم، فشلون راح تخلص؟ وين تروح؟

ـ سيد ذنون صب لي جَدَخ. . .

هكذا توجه بالكلام إلى المضيف، ثم التفت إلى الأسطة اسماعيل، وتابع:

ـ آني شفيعي أبو الخيمة الزرقا، اللي يعرف ما في السرائر، وهو الغفور الرحيم!

وتوجه ذنون كطفل مطيع ليحضر كأساً للأسطة عواد، وأثناء تحضير الكأس سأل:

ـ وأنت . . أبو حقي؟

ـ أشرب شُويونة وذنبي برقبتكم، وعندي همّين شرط!

ـ شنو شرطك؟

خرج السؤال من الأسطة عواد: ومن ذنون معاً! ضحكا، وكان الضحك أقرب إلى القهقهة، لتوارد الخواطر وخروج السؤال بذات اللحظة.

ـ الشرط، وقبل الشرب، أن تخلّص لنا شغلتنا، حتى إذا شربنا نعرف إنّا ذبحناها على قبلة!

ـ قول، أبو حقي، وشرطك على العين والراس!

وتولى الحديث الأسطة عواد:

ـ أكو بمحلتنا فرد رجال فقير، على باب الله، وما أدري إذا شفته بالقهوة لو لا، اسمه حسون، هذا الآدمي جته رسالة مكتوبة بالأجنبي، جابها حامل البريد بنفسه للقهوة، وما ندري شكو مكتوب ببطن هذه الرسالة، خير لو شر، بيها رزقة أو كسران ظهر، فقلنا لروحنا ماكو إلا سيد ذنون، وحده اللي يقدر يقراها ويقول لنا ممن وشكو بيها!

هكذا لخص الموضوع، دون أية إشارة إلى أنها عُرضت على جاكي الأصفر. ودون انتظار انتزع الرسالة من جيب داخلي، مما يدلل على حرصه، وقدمها إلى ذنون.

سيفو الذي أعجب بالبستان وبالمكان، لفتت نظره أكثر من أي شيء آخر التماثيل والغضار. إذ بعد أن تجول قليلاً، تجمد عند تلك التماثيل. كان ينظر إليها باهتمام، وبكثير من الإعجاب، ثم أخذ يدور حولها ليراها

من كل الجوانب، فبدا مسحوراً. ودّ من أعماقه لو يلمسها، لو يحمله ليعرف وزنها، لكن لأنه يعرف طين الشط كم هو هش، وقابل للتشقق ثم الانكسار فالتفتت، فقد تردد في أن يمد يده، وهكذا ظل يتأملها من بعد! حتى المناقشات عن الشراب والشروط لم ينتبه لها، وربما لم يسمعها، لأن ذنون بعد أن اتفق مع عواد واسماعيل، وبعد أن استلم الرسالة، سأل الاثنين بهمس:

ـ . . . وصاحبنا يشرب لو لا؟

رد أبو حقي بمداعبة:

ـ هذا اللي شايفه، هذا اللي ما عاجبك، شرّب صوب الكرخ كله، ومو سنة وثنتين، عشرين سنة، ثلاثين سنة، لكنه مثل الجمل شال على ظهره الذهب وأكل العاقول. . . .

وذنون الذي كان يستمع بأدب، لا يعرف إذا كان الأسطة اسماعيل يمتدح سيفو أم يذمه، يثني عليه أم يلومه، وبالنتيجة لا يعرف هل يشرب أم لا يشرب. قال ذنون وخرج صوته مسكيناً:

ـ كل الناس خير وبركة يا أبو حقي، وما دام جا وياكم، ولا بد يكون صاحب، فسعره سعرنا، لكن ما أدري يشرب أم لا؟ أنتم أدرى!

قال أبو نجم لينهي مكر الأسطة اسماعيل:

ـ اسأله، مولانا، لأن الشرب واهس!

لما توجه ذنون نحوه، ورأى مدى استغراقه وهو يتأمل التماثيل، وكانت ملامح وجهه وحركاته تتوالى، وقد غرق في ذلك العالم، وقبل أن يسأله عما إذا كان يرغب بمشاركتهم في الشراب، وجد نفسه يقول:

ـ الظاهر أنها عجبتك!

كمن يفاجأ بصوت في الظلمة، أو بحركة غير متوقعة، انتفض سيفو بعد أن رنّت في أذنه تلك الكلمات. نظر إلى ذنون بعيون ترفرف، وربما التقط الكلمة الأخيرة التي قالها. ابتسم له تعبيراً عن الإعجاب والرضى. سأله ذنون من جديد:

ـ ها، شلون، عجبتك؟

ـ هوايه. . وكنت أشوف مثلها بمنامي، ونوبات أشوف الماي بطرف الشط يسوي مثلها، لكن بالعجل تتفلش، بلحظة تصير وبلحظة تذوب.

وصمت الاثنان، وتاها في أمكنة بعيدة. بعد هذا الصمت جاء صوت ذنون من جديد:

ـ يم العمارة كنا نلاقي مثل هذي، وكانوا يقولون عمرها آلاف السنين!

ـ ألفات السنين؟ معقول؟

ـ أي نعم، مولانا، إذا انفخرت زين تبقى!

هز سيفو كتفيه استغراباً وابتسم، وبعد قليل:

ـ هاي أنت مسوّيها؟

ـ أي نعم!

ـ ويقدر الواحد يتعلم ويسوي مثلها؟

ـ ماكو أسهل منها، بس ينراد لها صبر، وبال طويل.

في هذه الأثناء كان الأسطة اسماعيل يقترب، وقد دفعه الفضول أن يسمع ما يدور بين الاثنين، دون أن يحس سيفو باقترابه. عندما أصبح قريباً وقادراً على التقاط الكلمات، سمع سيفو يقول:

ـ علوّاه لو چنت ازغر فد عشرين سنة، چان بقيت هنا و. . .

وقبل أن يضيف كلمة أخرى، لمح ابتسامة على وجه ذنون ونظرة صغيرة. التفت، وجد الأسطة اسماعيل، كان يبتسم ويهز رأسه كأنه قبض عليه متلبساً، وعلّق:

ـ أزغر عشرين ثلاثين سنة حتى تكربس بنات الناس، حتى ما تترك وحدة من شرّك، مو هالشكل؟

ـ أذكر ربك يا أبو حقي، لا تقسّم وحدك مثل أي فسقان!

ـ آني فسقان أبو فلاح؟ ما يخالف!

قال ذنون ليعيد الحديث إلى سياقه الأوّل:

ـ استنقي أي واحد من هذي، أبو فلاح، وهدية مني!

ولم يمهله أبو حقي لكي يجيب، قال بمكر:

ـ شنو، مولانا، صاير تعبد الأصنام؟ هذي آخرتك يا أبو فلاح؟

ـ لهْ.. لهْ يا أبو حقي، سوّيتنا عبدة أصنام؟ هاي تاليها؟

هكذا تدخل ذنون بلوم ودود، وكان يتابع، لولا أن صوت الأسطة عواد جاء قوياً منذراً:

ـ وينكم يا جماعة، ترى العرق غير الشوربة، إذا سخن يصير زقنبوت، فتعالوا حتى نشوف دربنا!

وبمرح توجهوا إلى الطاولة، حيث الفاكهة والخضار، وما كادوا يجلسون حتى سأل ذنون:

ـ شنو رأيك، أبو فلاح، تشاركنا؟ أصب لك فد قدح؟

هز سيفو رأسه كأنه يتذكّر، ابتسم، وقبل أن يرد على سؤال ذنون سلباً أو إيجاباً، قال وخرج صوته من مكان بعيد:

ـ شربت بحياتي نوبتين أو ثلاث نوبات، وهذا، قبل سنين وسنين، لما چنت في البصرة. النوبة الأولى ضحكت... ضحكت حتى توجعت وتوجع ربعي. ما ظل أحد إلا وقال: يبزي يا معود، ما عاد بينا حيل.

ونوبة ثانية، رب العالمين ذبّ عليّ القهر فبكيت، ونوبة لما تخاربنا آني والملاّ حمادي وهسّه ما أدري أقول أي أو لا!

قال أبو حقي مداعباً:

ـ هالنوبة راح ننطيك نص قيراط، حتى لا تضحك ازيد من اللازم، ولا تبچي وتبچّينا وياك.

لا يمكن أن يكون السكر، أو بالأحرى الشراب، السبب في أن لا أحد استطاع أن يفهم شيئاً واضحاً ومحدداً من رسالة حسون. إذ بعد أن قرأها ذنون عدة مرات، وحاول أن يترجم كل فقرة، ورغم الجهد الذي بذله لتفسير بعض الفقرات والكلمات وعلاقتها فيما بينها، مع الشتائم الكثيرة التي اضطر لاطلاقها وهو يصف كاتب الرسالة بالجهل وارتكاب الأخطاء، لم يصل إلى نتيجة واضحة، وللتدليل على ذلك، وفي محاولة لإقناع نفسه،

وأيضاً إقناع الآخرين، جلب ورقة بيضاء كبيرة، وأخذ يكتب بعض الكلمات، كما وردت في الرسالة خطأ، وما هو الصحيح الذي يقابلها، وكان يريها للأسطة عواد ولأبي حقي، ليؤكد خطأ وجهل كاتب الرسالة!

بعد ساعة من المحاولات والجهد قال ذنون بنوع من اليأس الحزين:

ـ يا جماعة الخير هذا الكلام ما يترّجم!

وفي محاولة أخرى للبرهنة على صحة رأيه قال:

ـ ما يخالف، خلينا نترجم كلمة.. كلمة.

اقترب منه أبو حقي، كان ينظر إلى الصفحة المفتوحة، والتي تشبه حروفها النمل الأسود: متداخلة، متراصة، لا يعرف أين تبدأ وأين تنتهي.

وضع ذنون إصبعه على الصفحة من جهة اليسار، وقال:

ـ نبدأ «السيد حسون. تحية. الجامع الأيسر والماء. السهر، كيف ينتظر الإنسان. إخرس»

ويشتم ذنون قبل أن يتابع:

ـ اكو بالدنيا أحد يكتب الماء والسهر هالشكل؟

ويحار قبل أن يواصل الترجمة، لكنه يتابع بصبر مع الشَتائم والسخرية.

أثناء الترجمة ولأن كل ما هو مكتوب مجرد لغو كانت النظرات المتبادلة حائرة متسائلة، وسيفو الذي كان يسمع بصمت، وبعد أن شرب جزءاً من القدح، أخذ يبتسم ويهز رأسه، ثم أخذ يضحك. نظر إليه الأسطة عواد بصراحة، وكأنه يطلب منه أن يكف، أن يصمت. أحس أن استمراره قد يثير الأسطة، حمل قدحه واتجه إلى التماثيل مرة أخرى!

قال أبو حقي، في محاولة لأن يترك أملاً من أجل الوصول إلى نتيجة حول ما جاء في الرسالة:

ـ كل ظني، يا أبو نجم، أن الرسالة مكتوبة بحساب الجُمل.

ـ والرأي؟

ـ أن نسأل اللي يفتهمون بقراية هذا الحساب!

سأل ذنون، في محاولة تقدير جدية الموضوع:

ـ وصلته رسائل قبل هذي؟

ضحك الأسطة عواد بمرارة:

ـ إذا أبوي بقبره وصلته رسائل، حسون وصلته رسائل قبل هذي!

قال الأسطة اسماعيل مواصلاً النظر دون أن يرى:

ـ ويجوز، يا جماعة الخير، أن الرسالة مجفورة جفر. فإذا ما انقرت على حساب الجمل لازم ندوّر على أحد يفك جفرها!

رد الأسطة عواد بحدة:

ـ انلاصت علينا يا أبو حقي، وخاف يصير بينا أن اللي يتركه الحرامي ياخذه فتاح الفال!

ـ ما لازم نيأس، ما لازم نسلم، أبو نجم.

ـ والرأي؟

ـ إذا يتكرم علينا سيد ذنون ويترجم لنا الخط كلمة.. كلمة، وبعدها نشوف!

ـ بالنسبة لي ما تفرق، هكذا رد ذنون، لكن خاف بعد التعب تبين أنْ كلها قشمرة!

ـ يا معود، أبو البريد، تعنّى وجا بنفسه للقهوة، وما سلّم الخط إلا بألف ويلاه، وهذي ما صارت من قبل وما أظنها تصير.

ـ زين.. زين ما يخالف، لكن بشرط...

تساءل الأسطة عواد بسخرية:

ـ أنت وأبو حقي ما تبطّلون من الشروط؟

ـ آني ما عليّ، وما عندي شروط، أريد نخلص، وشلون ما تردون آني موافق.

رد أبو حقي بنوع من التسليم، وقد رأى الآخرين أقل حماسة منه، ففاجأه ذنون:

ـ شرطي أن أترجم وأنتو تتولون تحضير الأكل...

وقام، وأخذ يشير بيديه، بجسده كله، وهو يضيف:

ـ تردون دجاج، هذي الدجاجات وهذا الحطب. وإذا ردتم سمك فاكو سمّاك قريب . . .

وأُعدّ الدجاج. تولى سيفو معظم المهام، وترجم ذنون الرسالة كلمة كلمة، وسلم الأصل والترجمة إلى الأسطة عواد، لكن بدا الأسطة وهو يستلم الأوراق، أقل تفاؤلاً مما كان حين سلمها لذنون.

خلال الغداء وقبله شربوا وتحدثوا بأمور كثيرة. والجو، رغم الحرارة، كان أكثر رحمة من أماكن أخرى. أما حين جاء المركب، ووقف مقابل البستان عند العصر، وقد اعتذر الملاح عن البقاء أو مشاركتهم، لأن لديه أصدقاء في الأعظمية، ويريد زيارتهم، فقد كانوا جميعاً أقرب إلى النشوة، لكن دون سكر. ولئلا تحدث مناقشة جديدة، فقد وضع ذنون أحد التماثيل في المركب، وهو عبارة عن شخص يرفع يده اليسرى فوق جبينه، في محاولة لاتقاء الشمس، وكأنه يحدّق إلى نقطة بعيدة في الأفق.

قال لسيفو، وهو يودعهم:

ـ صارت الصوغة قبلك.

عند الغروب وصلوا إلى محلتهم في الكرخ.

قال أبو حقي بنوع من التحدي:

ـ أبو نجم . . انطيني الرسالة، وقبل أن يؤذن العشا ارجع لك بالخبر اليقين.

ـ شلون؟ المن؟

ـ ما عليك، مشوار الطريق، واستكان شاي، وانشاء الله ما نبات الليلة إلا على نور!

وذهب الأسطة اسماعيل إلى خاتشيك ديمرجيان، وتعمد أن يأخذ معه حِقّاً من الخمر، وهو في طريقه إليه!

66

لما وصل الأسطة اسماعيل إلى بيت خاتشيك، كان أحد رجال الدين الأرمن قد سبقه إلى هناك، وبدا أنه وصل قبله بدقائق، لأن الأولاد الصغار أخذوا يتوافدون تباعاً للسلام على الخوري، وكان يظهر عليهم، من خلال بقايا الماء على شعورهم ووجوههم، ومن خلال الملابس التي استُخرجت للتو من الصناديق، أنهم لم يتوقعوا هذه الزيارة، وأنهم استعدوا لها بسرعة.

زوجة خاتشيك التي بدت فرحة وملهوفة، كانت تقدم أبناءها والبنات واحداً بعد آخر بكثير من الاهتمام. أما خاتشيك فكان يبدو مرتبكاً محرجاً، سواء بالكلام الذي يتبادله مع الخوري أو بطريقة التصرف.

وصول الأسطة اسماعيل غيّر الجو. فحق الخمر الذي جلبه، وكان ينوي أن يفاجىء به خاتشيك، بدا عبئاً للاثنين. إذ بين أن يُقَدّم باحتفاء، وأن يُستقبل بما يليق به، فإن وجود الخوري، وقد جلس في صدر الغرفة، بعد أن نزع غطاء الرأس، وفك أزرار الثوب الكهنوتي، جعل الأمر محرجاً. إذ بعد أن احتفظ الأسطة اسماعيل بالحق، استغل دخول البنت الصغيرة التي جاءت للسلام، فوضعه جانباً، ثم غمز خاتشيك أن يحمله بعيداً.

كان الخوري، بعد أن تخفف من القلنسوة، غريب الشكل من حيث الهيئة والألوان. فالأماكن التي كانت محجوبة بالثياب، من أعلى الجبهه ونهاية الرقبة، ثم ما يليها، بدت بلون مختلف عن الوجه، وكأنها طُليت

للتو، خاصة وأن العرق، رغم محاولات تجفيفه، كان ينز بغزارة، أما القلنسوة التي كانت مقلوبة إلى جانبه، حين أدارها قليلاً، فقد ظهرت متسخة عند الحواف وشديدة الرطوبة.

حيّا الأسطة اسماعيل الخوري باحترام، وكان يودّ أن يخلق جواً من الألفة السريعة، لكن الخوري كان مشغولاً بتجفيف عرقه، وكان بعيداً أيضاً، الأمر الذي لم يفسح لأكثر من كلمات تبادلها الرجال، في الوقت الذي جلس الصغار صامتين، وكانوا يراقبون كل حركة، كل كلمة، بعيون وآذان يقظة. وإذا كان خاتشيك اعتبر وصول الاسطة هدية من السماء، وكان قبل ذلك متحسباً خائفاً من زيارة الخوري، إذ لا بد أن يكرر عليه، مرة أخرى، الوصايا العشر، ثم يبدأ بتأنيبه على إهماله لواجباته المنزلية والدينية معاً، فإن وجود إنسان غريب، ضيف لم يره من قبل، سوف يجعله يختصر وصاياه، وقد لا يلجأ إلى التأنيب. وهذا ما جعل خاتشيك يتخلى بسرعة عن تحفظه ثم ارتباكه ويبدو عادياً، وما كان ليقوى على ذلك لو كان بمفرده مع الخوري وزوجته!

أما الزوجة التي تطيرت إلى أقصى حد من زيارة الأسطة اسماعيل، واعتبرتها غير لائقة، سواء من حيث التوقيت، أو من حيث إفسادها لما كانت تخطط له، خاصة وأنها رجت، دون أن يدري خاتشيك، الخوري أن يقوم بهذه الزيارة، كي تضع حداً لغياب خاتشيك عن البيت، وأيضاً لإهماله، فقد صمّمت أن لا تترك الأمور تفلت من بين يديها، مهما كانت النتائج.

فبعد أن دفعت الأولاد كالكرات، واحداً بعد آخر، إلى تقبيل يد الخوري، وكان هذا يعطي يده بطريقة آلية، جاءت بعد أن ارتدت الملابس التي تليق بهذه المناسبة.

كانت، حتى اللحظات الأخيرة، تتجاهل وجود الأسطة، كطريقة في معاقبته، ومنصرفة بكليتها إلى الخوري، وهي تردد كلمات الشكر والتقدير لقيامه بهذه الزيارة المباركة، والتي لن تنساها مدى العمر، ثم أخذت

تعرّض، دون تسمية، بالذين يقتحمون بيوت أو حياة الآخرين، ودفعهم إلى إهمال أسرهم، وإلى إنفاق المال على الشراب وعلى أشياء أخرى لا تفيد. تعمدت أن تقول ذلك باللغة العربية، وإن بدت لغتها ثقيلة، وبعض الأحيان غير مفهومة، وكأنها تتوجه بالخطاب إلى الأسطة اسماعيل وإياه تعني. وحين لا تسعفها العربية، أو لا تعتبرها كافية، تلجأ إلى الأرمنية، وحينذاك تتدفق بسرعة، وقد احتقن وجهها وبرزت عروق الرقبة. لا تكتفي بذلك، بل كانت تشير إلى خاتشيك، وقد أشارت أكثر من مرة، وباستخفاف، إلى الأسطة اسماعيل!

شعر الاسطة بالحرج، فهذه هي المرة الثالثة التي يدخل فيها بيت خاتشيك. جاء في المرتين السابقتين مع آخرين، مرة حين باع خاتشيك مركبه، وكان الأسطة شاهداً على هذا البيع؛ والثانية لما عُثر على راهب كرملي مقتولاً، وكان المطلوب وجود مترجم بين راعي الدير ورجال التحقيق، وقد تبرع الأسطة اسماعيل أن يدلهم على خاتشيك للقيام بهذه المهمة. وفي المرتين كانت زوجة خاتشيك تظهر وتغيب كالشبح، وكأن ما يجري لا يعنيها أو لا يعني شيئاً لها. وفي المرتين أيضاً أصرّ خاتشيك على أن يشربوا كأساً سريعاً. في المرة الأولى يؤكد أن البيع تم بنفس راضية، وليبارك البيع؛ والثانية لأنه لا يستطيع الترجمة، أو القيام بعمل جدي، دون أن يتناول كأساً، «والكأس لا يمكن أن يشربه البني آدم وحده لازم يشربه ويّا ربعه» وقد اضطر الأسطة اسماعيل أن يشرب معه، خاصة في المرة الثانية، ليحمله على مرافقته بسرعة والقيام بالترجمة بين الطرفين.

إنها إذن المرة الأولى التي يلتقي فيها بزوجة خاتشيك.

لما وجدها منفعلة هكذا، وقد أشارت إليه أكثر من مرة، شعر بالحرج، ولام نفسه أن جاء في هذا الوقت. بل وفكر أن ينسحب، لكن وجد من غير اللائق أن يغادر بهذه السرعة، خاصة وأنه وافق على الدخول، وأصرّ خاتشيك على بقائه.

فهم الأسطة، أو قدّر، من خلال المناقشة، أن «محاكمة» تجري

خانتشيك، فإذا لم تكن محاكمة بالمعنى الدقيق للكلمة، فإنها نوع من التأنيب، لكن لم يفهم علاقته بالأمر.

قال، في محاولة لأن يخلق جواً مسالماً:

ـ ترى يا جماعة أطلب منكم السماح. يجوز جيتي ثقيلة، لكن الحاجة توازي...

خيم، بعد هذه الكلمات، صمت حذر، فقد تطلعت إليه العيون ترقب ما سوف يضيفه. تابع بصوت خرج عميقاً:

ـ يجوز أم آرام ما تعرفني زين، وأهل بغداد يقولون: ظالم لا تكون من الدعا لا تخاف، وآني ما لي لا بالأول ولا بالتالي، فإذا تردون هسه أمشي!

رد خانتشيك بحدة

ـ على بختك أسطة، لا أنت تسويها ولا آني أقبل، شنو خلص الخير من الدنيا؟ ما عادت الناس تعرف بعضها؟ هاي وين صارت؟

ـ أشوف أم آرام مقبطة ومتوازية، وبين دقيقة والثانية تشاور عليّ!

ـ أنت ما عليك، أسطة، وزيارتك خير وبركة.

قال الخوري بكثير من الرصانة:

ـ أم آرام يريد من خانتشيك أن تبقى بالبيت؛ أن تهتم بالأولاد، هذا كل كلامه.

ـ وآني كل جيتي على مود رسالة وصلت بلغة أجنبية وأريد من أبو آرام أن يترجمها، يقول لي شكو بيها.

ارتاحت الزوجة قليلاً، لكن لا تريد أن تقدم تنازلاً، قالت، دون أن يُعرف لمن كانت توجه الحديث؛

ـ تمنيت يقعد فد ليلة بالبيت. كل ليلة، ومن راس الدربونة، يصيحون عليه، وقبل ما يخلص الصوت ما نشوفه إلا غاب!

ولئلا تفوت الفرصة، أو يجري التطرق إلى موضوع خلافي جديد، سأل الأسطة، وكان سؤاله أقرب إلى الاستئذان:

ـ أكو عندكم مانع إذا قعدنا، آني وأبو آرام، بقبّة ثانية، أو رحنا للقهوة

اللي بصفكم حتى يترجم لي الرسالة؟

كان بصوته الأقرب إلى الرجاء، بوجهه المتوسل، يستعطف. وأم آرا التي كانت تنقّل نظراتها بين الرجال الثلاثة، في محاولة لامتحان مد الصدق، وأيضاً حجم التنازل الذي توافق عليه، وجدت نفسها بعد نظرت نحو الخوري الذي هزّ رأسه دلالة الموافقة تقول:

ـ إذا كنتم متوازين، والسالفة ساعة زمان فما يخالف...

وتغيرت اللهجة وهي تخاطب خاتشيك:

ـ بس لا تصير لك حجة، وما تجي إلا آخر الليل، مثل عادتك؛ فأبونا ما راح يروح حتى ترجع، لأنه يريد يحچي وياك!

ومثل السمكة التي تهرب من الشباك، مثل الطير الذي يفلت بعد أن تكون الأيدي قد شدّت على صدره والجناحين وأشعرته بقرب النهاية، هرب خاتشيك، أفلت من الأيدي والعيون والأفواه التي كانت تحاصره.

قال للأسطة اسماعيل، وهما يجتازان بسرعة الدربونة الضيقة المعتمة:

ـ اسألني آني...

تنحنح أكثر من مرة، ليجلو صوته قبل أن يتابع:

ـ ماكو أنجس من الإنكليز إلا ذول اللي هسه شفت واحد منهم...

ولئلا يسيء فهمه الأسطة اسماعيل تابع:

ـ مسوّين حالهم حراس الجنة والنار؛ هذا يصير وهذا ما يصير؛ هذا حلال وهذا حرام، وكأن مفتاح الدنيا والآخرة بحزامهم، وما يدرون إن الله مو قشمرة، وأنه يعرف كل شي ويشوف كل شي!

قال الأسطة اسماعيل، بعد أن اجتازوا الدربونة، وأصبحوا في شارع عريض:

ـ لا تدير بال يا معوّد، كلهم فرد شكل، عدكم وعدنا!

ـ شنو، أبو حقي، تريد تعلمني؟ أنا أخوك وأعرفهم.

وبعد قليل، وهو يبتسم ويتلفت:

ـ صونة ومغشوقة، واحد مثل اللاخ!

كان يتلفت ليختار المكان المناسب الذي يجب أن يذهبا إليه. فالقهوة القريبة، قهوة سبع، رغم أنها فسيحة، وعلى شاطىء النهر، إلا أنها ليست المكان الذي يلائم خاتشيك، خاصة في مثل هذا الوقت.

قال وخرج صوته متوتراً، أقرب إلى التبرير:

ـ بعدها وقت، هسه، فإذا رحنا يم ميخا، نقدر نقعد وحدنا ونسولف؛ نخلّص شغلتنا بالعجل، وبعدها الله كريم، شتقول؟

ـ المهم نترجم الخط، أبو آرام، وانت اختار المكان اللي يوالمك!

ـ يم ميخا أحسن شي!

لما رجع الأسطة اسماعيل، عند منتصف الليل، إلى قهوة الشط، كان أكثر من واحد بانتظاره: الأسطة عواد، سيفو، فتاح الحلي، نجمان، وكان حسون أيضاً!

دون تمهيد، وبلا تحفظ، قال، وهو يواجه العيون التي تنظر إليه وتسأله:

ـ كل مين يبكي على ميته... يا أبو نجم!

قعد. قال لنجمان، وخرج صوته حاداً:

ـ انطيني فد استكان شاي، لأن قلبي ساف...

والتفت إلى الأسطة عواد الذي كان ينتظر جواباً أو نتيجة:

ـ ما يقبل، أبو آرام، إلا أن يلزم الحبل من الراسين. يترجم كلمة ويجز قمع، وما أدري الشتايم اللي يترجمها مكتوبة لو هي من عنده...

ابتسم بحزن وأضاف، وقد تغيرت لهجته:

ـ يشتم الانكليز ويشتم المريّة واليوم اللي تزوج بيه؛ وكل ما أردّه للجادة، وأقول له: ترجم المكتوب، يرد: لا تدير بال يا معوّد لأن ما بقي شي اليسوى. وبعدها كلمة من هنا وكلمة من هنا وانلاصت!

قال سيفو بنفاذ صبر:

ـ والنتيجة؟ الخلاصة؟

ـ ساعة يجر بالطول وساعة يجر بالعرض، والنتيجة بوش، يا أبو

فلاح . . .

ضحك بحزن وأضاف :

ـ وقبل ما أشوفه، قبل ما يقرأ الخط، كانت المسألة ما بيها إنّ، لكن بعد شوفته، وبعد ما قرا الخط، انلاصت، صار يشيل من اللحية ويحط على الشارب، وما يندرى الصدق من الچذب، من الخرابيط اللي براس أبو آرام!

قال سيفو، وهو ينهض، وليس من عادته أن يبقى حتى هذا الوقت :

ـ ربابة يم طيز بعير، وتعال اسمع!

قال الأسطة عواد، يريد أنْ ينتهي من هذا الموضوع :

ـ ما النا إلا يعقوب، يعقوب حوحو. وباچر من الغبشة، قبل صياح الديك، لازم اشوفه!

67

. . . وصاحت ديكة بغداد كلها، صاحت مرات كثيرة، والأسطة عواد لا يزال مرابطاً في القهوة، لا يغادرها، ولا يخفي قلقه، لأن الصديق الحقيقي ليعقوب حوحو هو ناجي البكري، «والأستاذ ناجي شمسته عالية» كما قال الأسطة لنفسه، وهو ينتظر وصوله، إذ عن طريقه يمكن حل هذه «القرادية» كما سمى الرسالة، أو «الحزورة» كما أطلق عليها الأسطة اسماعيل، وهو يعيدها إليه. إذ قال له، وكان صوته مزيجاً من السخرية والحزن:

ـ الله أعلم أن هذا الخط، يا أبو نجم، مثل النواط مال البدو، ما يسوى فلسين . . .

أخذ نفساً عميقاً وأضاف:

ـ فلا تتعب روحك. إدفن وطم، لأن هذا المقرود، حسون، ما هو وجه رسائل من اسطنبول، ويجوز اللي دزّ الخط يريد يقشمرنا، حط فلسين بأيدين واحد من التتار وقال له: بوجهك لقهوة الشط، سلّم الرسالة وما عليك!

ـ تاهت علينا يا أبو حقي، وما أقدر أقول أي او لا . . .

هز رأسه عدة مرات وأضاف:

ـ وإذا مثل ما تقول، فهذا اللي سواها يريد يلعب بخلقتنا، يريد يقول: حسون وكل اهل الكرخ عقل سز، قشمرتهم ولعبت بيهم طوبة!

ـ والرأي؟

ـ خلنا نشوف يعقوب، وبعدها لكل حادث حديث!

وتغير صوت الأسطة عواد، خرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ إذا چانت كلها قشمرة، وعرفت اللي سواها، فوالله وبالله وتالله لأرجعه لبطن أمه!

بعد أن ارتفعت الشمس أذرعاً عديدة في السماء، دبت الحركة في أحياء بغداد، فتراجعت ثم تلاشت أصوات الديكة والكلاب، وأخذت قهوة الشط، مثل عادتها كل يوم، تستقبل روادها.

والرواد أنماط وأمزجة وأوقات. بعضهم يأتي مبكراً، وبعضهم يتأخر في الوصول. بعضهم يأتي للقاء أصدقاء محددين، لأعمال محددة، وأيضاً في أوقات محددة، وبعضهم يأتي، بحكم العادة، لتبادل الأخبار، لقضاء الوقت، ولا يهّم متى يأتي ومتى يذهب.

ناجي البكري، الذي درس الحقوق الشرعية والأنظمة في اسطنبول، كانت له في سنوات سابقة مواعيد دقيقة ثابتة في الوصول إلى قهوة الشط، وفي مغادرتها. وقد ظل محافظاً على تلك المواعيد؛ حتى أن الأسطة اسماعيل، ومن قبيل الدعابة والتعريض بالملا حمادي، الذي لا يضبط مواعيد الصلاة، اقنع الكثيرين أن الملاّ لا يرفع الأذان مرتين: ظهراً ومغرباً، إلاّ حين وصول الأستاذ ناجي إلى قهوة الشط!

كان ذلك في وقت سابق، وقت امتلأ فيه ناجي البكري بحلم قوي: «ثورة الشرق»: رهان كبير سيطر عليه أثناء دراسته في اسطنبول، واستمر معه سنوات عديدة لاحقة. وقد تأكد هذا الرهان أكثر من قبل لما وصل نابليون إلى مصر، وبدأت الاصداء والرغبات، ومعها صيحات التحريض، تتردد بين بعض المتعلمين والحالمين، وكانت تلاقي استجابة، خاصة في الليل، لدى الشعراء، إذ كان هؤلاء ينظمون قصائد تحريض أو هجاء، لكن لا يلبثون أن ينكروها أو ينسوها في الأيام التالية!

ويعقوب حوحو، الذي تقاعد الآن، قيضّ له أن كان في باريس أثناء قيام الثورة الفرنسية، وقضى هناك، قبل الثورة ثم أثناءها، بضع سنين، وقيل انه شارك في بعض الأحداث. ويبالغ عدد من معارفه فيؤكد أنه كان له دور فيها، رغم أنه لم يشر إلى ذلك؛ ثم جاء بعد سنين إلى حلب، ومنها

إلى بغداد، ليعمل مترجماً في القنصلية الفرنسية.

أما العلاقة بين الأستاذ والمسيو، كما أصبح يطلق اختصاراً على ناجي البكري ويعقوب حوحو، فقد قامت، في جانب، على حلم «ثورة الشرق»، كما اتفقا، دون صعوبة، على التسمية، وفي الجانب الآخر على صراع الديوك، تلك الهواية التي استبدت بالرجلين، بل وكانت طريق التعارف بينهما، قبل أن يكتشفا أن أشياء كثيرة تجمعهما!

بعد أن توقفت الثورة الفرنسية عن تحريض مخيلة الشعراء والحالمين، وبعد أن أصبح نابليون منتصراً ومهزوماً في ذات الوقت؛ قادراً وعاجزاً بنفس المقدار، موجوداً غائباً في عين اللحظة، فقد تغير الاثنان: الأستاذ والمسيو.

ثم مع تراجع وهزائم نابليون، تأجلت ثورة الشرق، وازداد اهتمام الاثنين بصراع الديوك! بل أصبح صراع الديوك بديلاً مقنعاً، على الأقل في هذه الفترة، وإلى أن تنجلي الأمور، أو كما اتفق الاثنان، وهما يبتسمان بحزن «إلى أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود»، كما لخّص المسيو الاتفاق!

ورغم أن صراع الديكة يخلّف خصومات لا تنتهي، وغير قابلة للشفاء، ليس بين الديكة ذاتها، وإنما بين مالكيها، وبعض الأحيان بين المراهنين عليها، فإن أول اتفاق جرى بين الأستاذ والمسيو، باعتبار أن الاثنين يملكان ديوكاً من ذات النوع، بل وقيل انها من نفس الأب! ألا يدخلا صراعاً مباشراً كخصمين أو متنافسين، إذ الأكثر أهمية أن يثبتا للآخرين أن الديوك الهراتية هي الأقوى والأذكى، وهذا يقتضي أن يؤكدا تميز وقوة «الثوار» كما الديوك الهراتية في مواجهة الديوك من السلالات الأخرى الخسيسة.

مع صراع الديوك كانت الأحلام، مثل الغيوم أيام الربيع والخريف، تتكاثر، تتكاثف، وكان معها الحديث الذي لا ينتهي عن كيف يجب أن يكون هذا الشرق. كانت تُبنى الممالك كل ليلة، وكانت في اليوم التالي تتعدل وتتغير، وقد تهدم. وبين الهدم والبناء من جديد، كان الأستاذ والمسيو يعرفان شيئاً واحداً: هذا الشرق، بصورته الحالية، يجب أن لا

يبقى؛ يجب أن يتغير. وثورة الشرق يجب أن تقوم لتغيره. ولا بد أن تكون قوية، عاصفة، بحيث لا تترك أحداً أو شيئاً كما كان من قبل. ومثلما قام بالثورة الفرنسية أناس مجهولون، لم يعرف أحد أسماءهم من قبل، وأغلبهم من الفقراء والمفكرين والشعراء، يجب أن يحصل هذا في الشرق وفي ثورته!

كان الأستاذ والمسيو يغيران بين فترة وأخرى المرشحين للقيام بثورة الشرق. وبمقدار ما كانا يتفقان، بحيث يترافق مع القسم الدمعُ الذي يطفر من العيون دون إرادة، فإنهما كانا مستعدين، في الأيام التالية، لإعادة النظر، للتغيير، «لأن هذا الشرق مختلف عن الأماكن الأخرى، عن فرنسا تحديداً، ولذلك فإن الذين سيقومون بالثورة هنا لا بد أن يكونوا مختلفين عن الذين قاموا بها هناك، ومعنى ذلك: يجب أن نبحث ونكتشف من هم المستعدون للقيام بالثورة!»

في وقت من الأوقات قالا إن المؤهلين للثورة هم الشقاة الذين يسيطرون على الأحياء. في وقت آخر قالوا: إن البدو هم الذين يملكون السلاح، وهم غير راضين عن السلطة ولذلك هم الثوار المرشحون؛ ثم قالوا إن الأفندية أكثر استعداداً من غيرهم. وقالوا أشياء كثيرة أيضاً!

حتى ذلك الإدمان على صراع الديوك، وغشيان المقاهي، ربما يساعد على اقتراب «ثورة الشرق»، وهذا ما جعل الاثنين يزيدان ارتباطهما بالناس الذين يترددون على حلبات صراع الديكة، لأنهم يمثلون الجميع، ويتميزون بالجرأة والصوت العالي وبالاستعداد للتضحية! وما جعل الاستاذ لا يتخلف يوماً واحداً عن قهوة الشط، «لأن الثورة تحتاج إلى مراكز قيادة، والمقاهي والأفندية يمكن أن يكونوا القادة!»

لكن مع استمرار تراجع نابليون وتوالي هزائمه، ولأن سباستيان لم يعد السفير الذي يملي ارادته على اسطنبول، ويفرض ما يريد في الولايات، بما في ذلك تعيين والي بغداد؛ ولأن القنصل الفرنسي عجز عن شراء عصا ذات مقبض فضي لمترجمه، رغم أنه كتب إلى سفارته في اسطنبول، وإلى

وزارة الخارجية في باريس، وبدا المسيو يعقوب حوحو ضئيلاً، بل ذليلاً، بالمقارنة مع العاملين في الباليوز، حتى الذين دونه مرتبة، فقد أحس أن كرامته أهينت، وأصبح عاجزاً عن القيام بالدور الذي يتمناه، فأوقف الحديث عن ثورة الشرق، نكاية بوزارة الخارجية التي رفضت شراء العصا ذات المقبض الفضي، «ولأن الثورات تحتاج إلى عقول كبيرة، وإلى إرادة حازمة لا تعرف التردد، وليس إلى مكاتبات تمتلىء دائماً بالعتاب واللوم»، كما هي عادة كتب وزارة الخارجية، وكتب السفارة في اسطنبول!

أما عندما قبض على نابليون، وأرسل إلى سانت هيلانة، فقد أحس المسيو حوحو بالحزن الشديد، وقيل انه غرق في صمت مذهل، بحيث أصبح عاجزاً أو رافضاً الحديث مع الآخرين، وقد استمر ذلك شهوراً عديدة، وعندما عاود الكلام من جديد، قال كلمات ترددت على ألسنة كثيرين من الأفندية في بغداد.

ـ فرنسا غير جديرة بالثورة التي قامت فيها، والدليل أنها قتلت زعماء الثورة؛ والعالم غير جدير بنابليون، لأن هذا العالم ولد في الظلمة، وأَلِفَ الظلمة، وفيها سيبقى وإليها سيمضي!

ولم تمض فترة قصيرة إلا وقرر أن يهجر الوظيفة، وان ينصرف إلى قراءة التاريخ، «لأن العالم لا يمكن أن يتغير دون أن يملك ذاكرة، والتاريخ هو الذاكرة، وأول شرط يجب أن يتوفر فيمن يريد تغيير العالم أن يعرف تاريخ هذا العالم». وكان ضمن اهتمامات المسيو يعقوب حوحو أن يكتب تاريخ العالم، وهذا ما جعله ينصرف عن أي شيء آخر، بما في ذلك صراع الديكة.

ورغم أن «ثورة الشرق» تأجلت أو توقفت بموافقة الأستاذ والمسيو، ورغم أن هواية صراع الديكة لم تعد مشوقة لأي منهما بنفس المقدار، إذ دخل اليها المحتالون وذوو الأخلاق الرديئة، الذين لا يتورعون عن الخداع والغش، بما في ذلك حقن الديوك بالمواد المهيّجة، خاصة الفلفل البغالي، وبالخمور أحياناً، هذا عدا عن ادخال سلالات رديئة إلى حلبات الصراع. رغم ذلك فإن العلاقة بين الأستاذ والمسيو استمرت، لكن بتقطع وتباعد.

بعد أن ارتفعت الشمس كثيراً في قبة سماء بغداد ذلك اليوم، وكاد الأسطة عواد ييأس من مجيء الأستاذ ناجي، ويطوي «القرادية» او يمزقها، لكي يحشد نفسه من أجل معرفة الذي دبر هذا المقلب، وبالتالي الانتقام منه، وصل الأستاذ.

قال له الأسطة بطريقة لا تخلو من عتاب:

ـ من الصبح وآني انتظر، وينك يا معود؟

ـ خير. . خير أبو نجم؟

ـ أقعد، استريح.

ـ شوشّت فكري، قل لي، أكو فد شي؟

ـ أريد عونك، أريد مروتك.

ـ أنا حاضر أبو نجم، بس أنت أؤمر؟

ـ قرادية حسون شوطت قلبي، فأريد نوصل أنا وأنت يم المسيو، ونشوف، يطلع من هذي القرادية فد شي أو كلها قشمرة!

والأستاذ ناجي الذي سمع، عرضا، أن رسالة وصلت إلى حسون، لم يلتفت للأمر، حتى لم يكن مستعداً لسماع أية تفاصيل. الآن، يلاحظ أن الأسطة مهتم وقلق، ولكن ما علاقة يعقوب حوحو؟ وماذا يستطيع أن يفعل؟ سأل وقد سرى إليه القلق:

ـ شنو علاقة المسيو برسالة حسون؟

ـ اللي دازّها، ابن التي، كاتبها بالانكليزي، وينراد أحد يترجمها!

ـ وينها؟ راويني

لما رآها الأستاذ ناجي، هز رأسه بحزن، طواها من جديد، وقال:

ـ يا الله، بوجهنا عليه، والرجال ما راح يقصّر!

ونهض الأستاذ ناجي. قال له الأسطة:

ـ اشرب فد شي قبل ما نمشي، شاي، حامض. . .

ـ لا . . لا نشرب عند المسيو، يا الله، بالعجل!

قال يعقوب حوحو، بعد أن قرأ الرسالة بتأنٍ:

ـ هذي، يا جماعة الخير، مو رسالة، هذي قشمرة. فد واحد ضايج وما عنده شغل، قال لروحه: ليش ما اتونس براس حسون وأهل قهوة الشط، انقش كلمتين بالانكليزي، بالهندي، وادزها، وبعدها خلي الناس يحيرون، يبتلشون، خاصة وان اكثر أهل بغداد بألف ويلاه حتى يفكوا الخط العربي، فشلون اذا وصلتهم رسالة بالانكليزي، بالفرنسي!

سأل الأستاذ ناجي باستغراب:

ـ معقول مسيو؟ بعد اكو بالدنيا اوادم ما لهم شغل إلا القشمرة والضحك على الناس؟

ـ ماكو أكثر من ذول، مولانا، وتلقاهم بكل مكان، بكل ملّة، ومو بس بالقهاوي، بالسرايات والسفارات. . .

هز رأسه أكثر من مرة، وأضاف، فبدا صوته مبحوحاً:

ـ وآني، لأني سافرت وعاشرت، وراسي شاب من الشوفات اللي شفتها، أعرف قصص لها أول وما لها تالي عن الكلاوات والسختات اللي تتسوى بين السياسيين، بين التجار، بين العسكر. . حتى القناصل، وهنا، ببغداد، كانت تصير بينهم قصص تنكتب؛ ومع ذلك، إذا الواحد منهم شاف الثاني ابتسامته شبر ولا كأنه مسوي فد شي!

قال الأسطة عواد، وهو لا يقوى على إخفاء ابتسامته:

ـ إذا كان بين الكبارية، بين القناصل أو جماعة السراي، تصير كلاوات ودقات، بسبب الجاه أو المال، فهذا الفقير، حسون، ليش يسوون بيه مثل هذي الدقة؟ شنو اللي رايدنه منه وشنو اللي راح يحصّلونه؟

رد المسيو يعقوب، وخرج صوته حاداً:

ـ مولانا. . ماكو أنجس من البني آدم بين مخلوقات ربنا كلها. .

وتغير صوته مرة أخرى:

ـ باوع المخلوقات كلها، من أصغر ما خلق الله، النملة، حتى أكبرها الفيل، ما تلاقي عندهم من القسوة والخسة والأنانية والسرسرلوغية مثل ما تلاقي عند البني آدم. . .

وعاد إلى النبرة الأولى:

- يقتل، يسرق، يجمع ويضم، يكذب، والواحد يفتن على اللاخ، يتآمر عليه، يخونه، الغني يأخذ من الفقير، القوي يظلم الضعيف، وكل شي تفكر بيه، تتصوره، البني آدم يسويه؛ وبعدين ينفض إيده، ويقوم يصلي ويندعي ربه: اغفر، ارحم يا رب، أنت الرزاق الكريم يا رب! هاي وين تلقاها عند مخلوقات الله الثانية؟

توقف لحظة، أحس أنه ابتعد، هز رأسه عدة مرات، وتابع بمرح:

- نوبة سافرت مع جماعة لأفريقيا، وبعيني شفت: الغزال ما يبعد عن الأسد إلا أمتار؛ حمار الوحش يرعى والنمر بصفه؛ والطيور تنلزم باليد، وماكو أحد خايف من اللاخ، كل واحد يحصّل اللي يشبّعه، وبعدها كل واحد بأمان الله...

وتغيرت النبرة:

- هاي وين تتحصل، وين تنلقى، بين الأوادم؟

- ماكو اعتراض على اللي قلته، مسيو، كل ما تفضلت بيه على العين والراس، بس شنو علاقته برسالة حسون اللي قريتها؟

- مولانا... بعد ما يخلّص الانسان من جمع الفلوس، بعد ما يضمن الجاه، يوقع برووس المساكين: هذي للفراش، وهذي لتمسيد الرجلين. هذا للنكتة وهذا للونسة، هذا للراس، وهذا للطاس...

وضحك بقهقهة وختم:

- وصاحبكم حسون، وسمعت أهل الصراع يسولفون عليه، حاطينه وسطاني، وكل ما ضاجوا صاحوا: جيبوا الاقرع، واشتغلت رحمة الله!

الأستاذ ناجي البكري ظل صامتاً طوال الوقت. كان يسمع ويتابع باهتمام واستغراب معاً، قال بعد أن وصل المسيو يعقوب إلى هذي النتيجة:

- ومن تلفات الدنيا، وبالانكليزي، يدزون لحسون رسالة؟

- أستاذ، وأنت سيد العارفين، هذي لا شغلة اسطنبول ولا لغة انكليزية، هذي شغلة قرايب وأصحاب، وإذا الله ما كذبني: الشغلة ترهمت

وتسوت بقهوة الشط!

فتح الأسطة عواد عينيه اندهاشاً، وقال كأنه يكلم نفسه:

ـ جماعتي وآني اعرفهم: الواحد منهم ابعد من سامرا ما وصل. إذا أحدهم راد يتشاقى بلسانه، بنكتة، ببستة، أما تجي رسالة من اسطنبول، فهاي بيها: إنّ!

ـ مولانا.. هذي شغلة طباخ هندي، او شلاتي من مالطا، ويجوز بحار من بوشهر. وواحد من الجماعة حطّ بجيبه فلسين وقال له: اكتب اللي يطلع براسك، وهذا سكران وما كذّب خبر. نقش سطرين ثلاثة بانكليزية بنات الهوى وقال له: خذ، وإذا تريد بعد آني جاهز. وهذا دز الخط لصاحب باسطنبول، بالطريق، وقال له: دزه لحسون، لقهوة الشط... هذي كل السالفة، إذا ما كذبني ربي!

سأل الأستاذ ناجي:

ـ متأكد مولانا؟ قريته زين؟

ـ مولانا.. كانت توصل للقنصلية رسائل مثل هذي، وبعد ما حرنا بيها دخنا، عرفنا انها قشمرة أو حتى توقع بينا وبين بعض الناس!

قال الأسطة عواد بحزن:

ـ ما يخالف، وجع الكتف ولا همّ القلب...

وبعد قليل، وهو يبتسم:

ـ قلنا لروحنا: يجوز بتوالي الأيام احد تذكّر حسون، بعث له صوغة، لكن اللي الله باليه البني آدم ما ينفعه!

قال الأستاذ ناجي في محاولة للتخفيف عنه:

ـ وكّل الله يا رجال، ومهما ضاقت تنفرج!

ـ تنفرج، مولانا، لكن الصواب أكلناه...

وخفّض صوته، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ لازم أعرف منو اللي نجّر الخازوق!

68

لـم يكـن أسـهـل مـن أن تـستـمـر «رسـالـة» حسـون مـوضـوعـاً أثيـراً لـدى الكثيرين في قهوة الشط، وان تشغلهم لفترة طويلة. إذ بالإضافة إلى الغرابة والطرافة، فالأمر متعلق بحسون، ثم أن الرسالة مكتوبة بالانكليزية. ومما زاد في الأهمية أيضاً أنه لم يتم الوصول إلى نتيجة واضحة حول ما جاء في تلك الرسالة أو معرفة من أرسلها!

ورغـم أن الأسطة عـواد أبلـغ وجهاء القهـوة الـذين سـألـوه، أن الأمـر لا يتعـدى المـزاح الثقيـل، ولا بـد أن يعـرف فـي يـوم مـن الأيـام مـن دبّر هـذا المقلب، ويصفي حسابه معه، فقد أصبح ضيق الصدر، سريع الغضب، حين يجري التطرق إلى الموضوع من جديد. وكان لا يتردد في أن يوجه الشتائم إلى ذلك المجهول الذي أساء إلى نفسه، وإلى صوب الكرخ، وإلى قهوة الشط، قبل أن يوجه الإساءة إلى حسون. وكان ينهي الموضوع بأن يقول:

ـ هذا اللي سواها يقدر يضم راسه يوم اثنين، لكن لازم يبين، وإذا بيه مرجلة خليه يطلعها يوم نتقابل!

ولا يقبل بعد ذلك أي حديث أو استسفار، لكن تظل عيناه كالمنجل تحصدان كل واحد من رواد قهوة الشط، وفكره لا يتوقف ولا يهدأ وهو يقرأ الوجوه، وهو يستعيد الأحداث والوقائع التي حصلت لحسون، ومن كان وراءها، وهل يحتمل أن يتجاوز الأمر رواد القهوة إلى آخرين في المحلة، في صوب الكرخ، وربما أحد في الصوب الآخر، عبر النهر؟

وإذا كانت أمور أقل أهمية تبقى مثار اختلاف واجتهاد وتحريض، وتشغل الكثيرين، فقد وُجد من همس في أذن حسون، ثم في آذان آخرين، أن زوجة القنصل، ولا أحد غيرها، من أرسل الرسالة، ولا بد من الاقدام، خاصة وأن الأمر يحتمل نتائج إيجابية كثيرة!

سأل بعض رواد القهوة الملاّ حمادي، في واحد من دروس شهر شعبان، حول حكم الشرع في أمر امرأة من دين آخر أحبت رجلاً مسلماً وهبته نفسها، هل يعتبر تخليها عن الزوج، وهو من دينها قبل أن تسلم، سموحاً به شرعاً؟

والملا حمادي الذي لم يفهم المسألة، أو يستوعبها، احتاج إلى طرح سؤال مرة أخرى وثالثة، وطلب أكثر من ذلك أن يُقرّب السؤال، بالأسماء والصفات، كي يعطي حكماً، فكان السؤال صريحاً ومباشراً: ماذا لو أن زوجة الباليوز النصرانية، مثلاً، أحبت رجلاً مسلماً، حسون مثلاً، وأرادت أن تهب نفسها له، أن تتزوجه، ولو كان المهر حفنة من حنطة، هل يعتبر مثل هذا الزواج جائزاً شرعاً، وماذا تترتب عليه من نتائج؟

يقول الأسطة اسماعيل الذي نُقل إليه جواب الملاّ حمادي:

ـ ظل الملاّ حمادي يهز رأسه مثل الحردون، ولا أحد يدري: كان يفكر أو صفنة زمال؛ ظل بهذا الشكل ساعة زمان، حتى أيّس اللي سأل، وضاج اللي يصلون، ولما شاف كل العيون تباوعه ولازم عليه الجواب، رد بكلمة واحدة: جائز!

ويضيف الأسطة إسماعيل، وهو لا يقوى على إخفاء سخريته:

ـ قالوا له: مولانا، شنو قصدك؟ شنو حكمك؟ وهذي «الجائز» شنو معناها، ووين تنصرف؟ رد، وهو ينهض للصلاة: اللبيب من الإشارة يفهم!

لما سمع سيفو ما رواه الأسطة اسماعيل عن الملاّ حمادي، قال مع صوت أخرجه طويلاً من بين شفتيه:

ـ لا بالله حصّلنا. . .

وأضاف بنبرة ساخرة:

- إذا كان موذنّا من ديرة الواق الواق، وخطيبنا من أهل البشناق، فأمة العراق، يا جماعة، بألف خير، جروا صلوات على محمد!

وساءت العلاقات أكثر من قبل بين سيفو والملا حمادي، لأن الذين نقلوا أضافوا وغيّروا ما قاله سيفو، إلى درجة أن من حاولوا التوسط بين الاثنين عجزوا، ليس فقط عن جمعهما، بل وقف الحرب التي دبت بينهما، خاصة وأن الذين سمعوا ما قاله الملاّ حمادي، لما علم بقرار سيفو اعتزال مهنة السقا، وكتموا الأمر عنه في البداية، عادوا لرواية ما سمعوا، مع التبديل والتحوير، وأكدوا على أن سيفو لا يحفظ آية واحدة من القرآن، فكيف يمكنه أن يقرأ على القبور!

وسيفو الذي جرّ أنفاساً عميقة، وهو يسمع بغيظ، ما يحتمل أن يكون ملا حمادي قد قاله، وبعد أن هزّ رأسه عدة مرات، قرأ بصوت عالٍ، وبنوع من التحدي، بضع سور من القرآن، وختمها بأن قال: صدق الله العظيم، ثم التفت إلى الذين نقلوا اليه ما قاله الملا:

- الموتى ما ينراد لهم قراية، كل ما يريدوه أن الأحياء يفكوا عنهم ياقة، يخلوهم بقبورهم وما يتحارشوا بيهم، خاصة من ملالي آخر زمان...

وتغيرت ملامح وجهه من الغيظ، وهو يضيف:

- وذول جماعة «جائز» ما يعرفون الحلال والحرام؛ يحللون ويحرمون بكيفهم؛ ويشرّبون للواحد على قد فلوسه...

ضحك بسخرية وأضاف بنبرة مزدوجة:

- شنو رأيك، مولانا، بصيد البر؟ جائز!

شنو رأيك، مولانا، بصيد البحر؟ جائز!

شنو رأيك، مولانا، بصيد الأنثى؟ جائز!

وشنو رأيك، مولانا، بالنهاية والختام، بصيد الذكر؟ همين.. جائز!

ردد أبو فلاح الأسئلة والاجابات على مقامين: النوى والبيات، كان يفعل ذلك بمرح ممزوج بالغيظ، وهو يدور حول نفسه. ولما عاتبه بعض

الأصدقاء، في وقت لاحق، ردّ بنزق:

ـ لا تغرّكم البسملة والحوقلة، لأن مو كل ما يبرق ذهب!

وأضاف، وخرج صوته منغّماً:

ـ . . . ومن الملاّ بالك. . بالك!

ولزم الملاّ حمادي، مثل عادته، الصمت، «لأن رمضان على الأبواب، وهذا شهر القرآن والغفران، وآني غفرت لابو فلاح» ونقل بعض الأصدقاء، في محاولة لأن يحننّوا ويرققوا قلب سيفو، لكي يعفو ويغفر، أن الملاّ كانت تسيل دموعه مدراراً إن ذُكرت بعض الأحداث التي مرت، وما قيل خلالها من كلام. لكن سيفو يسمع ويهز رأسه، دلالة أنه أخذ علماً، وهو لا يزال مصرّاً على موقفه من الملاّ حمادي الذي جرحه، دون مبرر، وبعد الخبز والملح، كما يرد على الذين يطالبون بأن يتصالح معه.

حسون فهم من الرسالة، رغم الضجيج وما قيل عن الاختلافات، شيئاً محدداً: الرسالة من زوجة القنصل، وقد اضطرت أن ترسلها إليه بهذه الطريقة لكي لا يعرف زوجها، إذ لو عرف فسوف يتصرف مثل أي أب أو أي زوج: أن يقتلها أو أن يهاجر.

إذا كان بعض أفندية قهوة الشط أبدى استعداداً لمساعدة حسون بكتابة رسالة لزوجة القنصل، رداً على رسالتها، ولا بد أن تتناسب تلك الرسالة مع حجم اللهيب الذي يتأجج في صدره ويحرمه النوم، وأن تتضمن أشعاراً أيضاً، لتصبح تلك المرأة أسيرة ليس فقط لعيني حسون اللتين لا يمكن أن تنساهما، بل ولكلماته أيضاً، وربما بمقدار أكبر! وهذا ما جعل هؤلاء الأفندية يرددون على مسامعه الكثير من العبارات المؤثرة، والكلمات القوية، «حتى إذا فلتت من كلمة ما تفلت من الثانية» ويرددون بافتتان تلك الكلمات التي تتكرر دائماً، ويختمون بقول: والأذن تعشق قبل العين أحياناً!

لكن الأفندية الذين أبدوا هذا القدر من الاستعداد لم يكونوا في عجلة ن الأمر، خشية من الأسطة عواد، إذ ربما اعتبرهم مسؤولين، بشكل ما،

عن الرسالة السابقة؛ ثم انهم لا يريدون أن يضيعوا لهفة حسون بالاستجابة السريعة له ما داموا يتمتعون كل ليلة، وهو يلاحقهم ويسألهم ما إذا «حضروا المسألة» يقول ذلك بطريقة مواربة غامضة في محاولة للتكتم عم يطلب أو ما يريد!

ثم برزت أثناء البحث والمناقشة مجموعة من الأسئلة:

- لك مصخم حسون، باوع شقد اكو فرق بينك وبينها، بين الرجال والمرية: هي تعرف اسمك، تعرف أصلك وفصلك، فإذا ردنا نكتب لها رسالة حتى توقع اكثر مما هي واقعة، فشنوا اسمها؟ المن لازم تتوجه الرسالة؟

ويحار حسون في الإجابة. يضرب كفاً بكف. يضرب ساقه وخده، ويجر شعره، ثم يبدأ بأن يشتم نفسه على هذا الجهل، على الغفلة التي منعته من السؤال عن اسمها، وكيف يجب أن يخاطبها!

وإذا كان الاسم يشغل ليلة أو أكثر من ليالي قهوة الشط، ويعد حسون أن يبذل كل ما يستطع من أجل السؤال والتقصي حول الاسم، فإن ليلة أخرى تنقضي عما إذا كانت المرأة، مثل زوجها، تعرف العربية، ولذلك يمكن كتابة رسالة الغرام بالعربية، أم أن الأمر يقتضي ترجمتها؟

وفي الوقت الذي أصرّ بعض الذين بحثوا الأمر على ضرورة كتابة الرسالة بالعربية، لأن بهذه اللغة وحدها يمكن التعبير عن العواطف، وما يعانيه العاشق، إضافة إلى أن الرسالة يجب أن تتضمن كلمات وعبارات قد لا توجد في لغات أخرى، وقد أوردوا عبارات مثل: يا ملوعة وحارقة الفؤاد؛ يا حبة العين، نارك ولا جنة هلي؛ بطة وصادوني.

وتباروا في إيراد عبارات غريبة، مفترضين أن ليس لها مقابل بأية لغة أخرى، وبالتالي إذا كُتبت الرسالة بالعربية يكون لها وقع يختلف تماماً عن أية ترجمة. وللتدليل على صحة ما يقولون أكدوا أن جميع الترجمات للرسالة، وما تخللها من أخطاء واختلافات، نتيجة جهل المترجمين للإنكليزية!

وكادوا يذهبون إلى أبعد من ذلك، إلا أن منعم الفراتي، وهو قريب لعثمان الهاجري من ناحية الأم، وقد جاء إلى قهوة الشط عرضاً أو مضطراً، كي ينتظرالأسطة إسماعيل، ليرافقه من أجل خلع ضرس عثمان الذي لم يمكّنه من النوم في الليلة الفائتة. منعم الفراتي الذي سمع ما كان يتداوله بعض الأفندية، وكان قد عرف بأمر الرسالة، سأل:

ـ ليش تختلفون على قوة اللغة العربية إذا راح تترجم الرسالة؟

وجاءه أكثر من سؤال أو تعليق:

ـ الأحسن ما تترجم!

ـ العربية أقوى بما لا يقاس، آغاتي!

ـ والعربية في الحب توقّع الطير الطاير!

ـ والعربية مو بس لغة الحب.. ولغة الحرب، مولانا!

رد منعم الفراتي، وكان ضيفاً لأحد الأفندية، وخرج صوته ودوداً محايداً:

ـ ما اختلفنا ان العربية أقوى، وهي لغة القرآن، ولغة الحب والحرب، لكن المريّة ما تعرف العربي زين...

وحين تطلعت اليه العيون باهتمام وتساؤل، مفترضة أنه يعرف ما لا يعرفه الآخرون، تساءل:

ـ لو چانت تعرف العربية لكتبت الرسالة بالعربية!

واهتزت الرؤوس بالموافقة والتأييد، لكن لا أحد يسلّم بالهزيمة، قال أحد الذين أوردوا بعض أبيات الشعر:

ـ وين أكو بالدنيا، من يوم آدم حتى اليوم، واحد يقدر يقول بغير اللغة العربية:

مكرّ مفرّ مقبلٍ مدبرٍ معاً كجلمودِ صخرٍ حطّه السيلُ من علِ

وما أن تُحلّ مشكلة، ولو نظرياً، حتى تبرز مشاكل أخرى، أخطر وأكثر تعقيداً:

ـ لو فرضنا أن الرسالة انكتبت، وما يهم بالعربي، بالتركي، وقولوا

همين ترجمت، شلون راح تسلمها حسون؟

ويذعر حسون في مواجهة هذه المشكلة التي لم يفكر فيها، وإلى أن يتوصل إلى حل، تتلاحق التعليقات:

- بربي، بديني، إذا تخطى حسون العتبة، راح الباليوز يهدّ عليه كل الوحوش، وهذي مو بس تمزقه وتاكله، راح يكون لها يوم عرس!

- يعني بعدها حسون ماكو؟

- مو بس ماكو، حتى قبر ما راح يحصّل!

- ليش، مولانا، حسون مو آدمي؟ ما لازم يكون له قبر؟

- بابا.. راح يكون حال حسون مثل اللي يغرق بالشط: ذاك ياكله السمك والكوسج، وهذا تاكله الأسود والنمور وواويات الباليوز!

- يا جماعة أنتم وين رايحين؟ وحوش الباليوز باقفاصها ومقفول عليها، وما تنهدّ إلا بألف ويلاه، شنو الدنيا قوتره؟ وإذا انهدّت ما يفرق بالنسبة لها حسون من غير حسون؟ تاكل الأخضر واليابس!

- كل ظني أن حسون ما راح تاكله الوحوش، راح تصرعه رصاصات الحراس!

- ينقتل على مود خط؟ على مود عرض حال؟ هاي وين صارت؟ شلون ظلم؟ هاي يرضاها الله؟

- لو قلنا أن الوحوش بأقفاصها، ومقفول عليها، والحراس ما اطلقوا النار، وجا حسون يهفي على الباليوز، وتلقاه البوابين وسألوه: ها، مولانا، شتريد؟ شكو عندك؟ شنو راح يكون جوابه؟ رسالة؟

يضحك الذي يسأل هذه الأسئلة، وقبل أن يتبرع أحد للإجابة، يتابع:

- بوجههم على القنصل: تفضل مولانا، فد واحد سلّم الرسالة وينتظر الجواب!

- إذا حسون سوى هالشكل، وما قتله القنصل فوراً، دفاعاً عن الشرف والناموس، راح يسلمه للسراي، وتعال اخلص يا حسون!

- وإذا وصل ليد الوالي، إذا لزمه، الله أكبر...

ـ بالتأكيد يصلبه!

ـ ويصلبه هنا، على نبقة قهوة الشط!

ـ ويخلوه معلق مو يوم واثنين، حتى يجيف، حتى تاكله الطيور!

وتتساقط بغزارة، دموع حسون. وفجأة يتغير الجو، يشعر الرجال الذين كانوا إلى ما قبل لحظة يتبارون في السخرية من حسون، بالحزن والغضب، ويشعرون أكثر من ذلك أنهم أخطأوا، وأنهم تمادوا في الخطأ، وعند ذاك يخيّم صمت قاس، ويتجنب الجميع النظر إلى حسون، أو حتى تبادل النظر فيما بينهم، إذ لو فعل أحد ذلك لانخرط في البكاء، أو دخل في معركة مع الآخرين، باعتبارهم تسببوا بهذا المقدار من الإساءة!

إذا انتهت الأمور عند هذا الحد، أو بهذا الشكل، وبعد أن يخيم الصمت فترة غير قصيرة، تأتي مبادرة من طاولة مجاورة، من زائر جديد، في محاولة لمصالحة حسون، لتطيب خاطره، وغالباً ما تترافق المحاولة بكلمات كبيرة، مع أمر بتجديد استكانات الشاي والحامض، وعناية خاصة بحسون.

وأثناء غياب حسون، يتبادل الذين تسببوا بالإساءة اللوم والعتاب، مع وعود قاطعة الا يعودوا إلى مثل ذلك مرة أخرى، وأن يكتفوا بمداعبات بريئة عابرة، لأن «من يسيء إلى طفل أو امرأة، من يؤذي حيواناً أو شجرة، من يسخر من عجوز أو مريض أو غريب، ومن يجرح الذين على باب الله والفقراء، من يفعل ذلك له حساب في الدنيا والآخرة، وهذا مقياس الشرف والناموس». هكذا قال ناجي البكري ذات يوم بعيد، حين قبض بعض الشبان على قطة، قالوا انها غافلتهم وانتزعت سيخاً من الكباب، فقرروا اعدامها، وما أن قبضوا عليها حتى علقوها بحبل وشنقوها في قهوة الشط على شجرة النبق، الأمر الذي أثار الكثيرين، ودفع ناجي لأن يخطب ويحذر ويلوم، ومن الكلمات التي قالها تلك العبارة التي أمر الأسطة عواد أن تُخط وأن تعلق في قهوة الشط، وظلت هناك فترة طويلة، بحيث حفظها الكثيرون، وظلوا يرددونها، خاصة حين يساء إلى حسون أو

إلى غيره من الضعفاء.

ومثل عادتهم أهل صوب الكرخ، خاصة رواد قهوة الشط، فهم يتأثرون بسرعة: يحزنون، يرقون، يتسامحون، ويبالغون بالشجاعة والكرم، وعن ذلك تروى القصص. لكنهم وبنفس السرعة، ينقلبون إلى حالة من الجلافة والخشونة، وينسون ما عاهدوا أنفسهم عليه، حتى ليظن من يرقب تصرفاتهم، ويتابع أفعالهم، أن داخل جلد كل واحد منهم أنفاراً وأرواحاً عديدة، قد تزيد على أيام الأسبوع!

فبعد التسامح المبالغ فيه تجاه حسون، والذي استمر أياماً، جاء من همس في أذنه أن هناك إنساناً واحداً فقط يمكن أن يوصله وينقذه، وعليه بدل أن يصلب نفسه كل يوم مقابل الباليوز، أن يذهب إلى روجينا، لأنها وحدها التي «تمون» على زوجة القنصل!

كاد هذا الاقتراح أن يشغل رواد قهوة الشط، ويصبح مدار بحث واقتراحات، لولا أن حدثاً جديداً، وأكثر أهمية، وقع: وصول بدري مر كركوك، والإعلان أنه جاء لكي يتزوج!

69

وجاء بدري في زيارة جديدة إلى بغداد، ونتيجة إلحاح الأسرة والمعارف وكثير من الأصدقاء، أعلن أخيراً استجابته لرغبة الزواج، فأخذت تجتاح محلة الشيخ صندل، وان بشكل خفي، حركة حافلة موّارة، رغم أن حياة المحلة استمرت، في الظاهر، أو كما يراها الغريب، مثلما هي، ومثل الأيام الأخرى.

وهذه الحركة التي لا تهدأ رغم التستر والانكار، تبلغ ذروتها مرتين يومياً، عند الضحى ثم في المساء المتأخر. فموكب النسوة حين يتحرك ضحى من بيت الحاج صالح العلو، يبدأ بزيارات إلى بيوت محددة في المحلة ذاتها، ثم في أيام لاحقة يتجاوز محلة الشيخ صندل إلى محلات أخرى في صوب الكرخ، وصدف أن عبر الموكب النهر، إلى الجهة المقابلة في الرصافة، لزيارة إحدى القريبات التي خلّفت سبع بنات على التوالي، قبل أن تنتقل الأسرة إلى الرصافة، بناء لطلبٍ، أقرب إلى الأمر، من أحد المنجمين، والذي أكد أن الريح الغربية تعيق قدوم الطفل الذكر!

كان الموكب وهو يقوم بهذه الزيارات، يضفي عليها الكثير من مظاهر البراءة والعفوية، أو على الأقل يحاول ذلك، دون أن ينجح، أغلب الأحيان!

فأم قدوري حين تبعث بأحد الصغار لعائلة صديقة تبلغها أنها آتية للزيارة، فكأنها تشعرها بضرورة الاستعداد لأمر غير عادي. والعائلة التي تُبلّغ بذلك، تلتقط الإشارة بسرعة، خاصة من جانب البنت، أو أكثر،

المرشحة للزواج، إذ تستعد وتبذل أقصى ما تستطيع لكي تفوز بهذا الفارس الذي حلمت به كل بنات المحلة. وحين تصل أم قدوري، ومعها دائماً العمة زاهدة، واحدى البنتين الكبيرة غالباً، إضافة إلى عدد من القريبات، وتتغير القريبات تبعاً للعلاقة التي تربطها بالعائلة التي تزار، تتأكد الظنون، ويصبح الهدف أكثر وضوحاً، رغم البراعة التي يبذلها الطرفان في إخفاء النوايا والتظاهر بعكسها.

وخلال الزيارة، وقد تطول بعض الأحيان، تتوزع الأدوار والمهمات. فمن التدقيق بشكل البنت، وطريقة تصرفها، إلى التركيز على أسئلة وطلبات معينة، لمعرفة ردود فعلها وكيف تتكلم وبأية طريقة تجيب، إلى امعان النظر بزوايا البيت، لتقدير مدى النظافةِ والذوق والترتيب. وإذا كانت أم قدوري لا تتحرك خلال الزيارة، فإن أكثر ما يشغل العمة زاهدة: النظافة، وهذا ما يجعلها تدقق وتبالغ في التدقيق. فما أن تجد الفرصة سانحة حتى تقلب الأغطية، وتتشمم الوسائد، وتنظر تحت السجاد والمقاعد لتقدر مدى النظافة. كما أنها تطلب أن تتوضأ، لتتاح لها الامكانية أن تجوس في البيت، وتتطلع إلى الزوايا، وتتظاهر بالخطأ حين تفتح باباً مغلقاً لترى وتتأكد من كل شيء!

أما نعيمة فإن المهمة الموكولة لها أن تختلي بالبنت المرشحة، وتعرف عنها كل ما تستطيع، بأسئلة غير مباشرة، بالمرور على غرفتها، برؤية ثيابها وبعض أشيائها الخاصة!

يجري كل ذلك دون أن تصدر كلمة تشير إلى أنهم جاءوا لخطبة، أو أن بدري جاء هذه المرة من أجل الزواج! وحتى لو طرح سؤال عن احتمالٍ مثل هذا كانت تتم الإجابة عليه بالنفي، أو أن الأمور مؤجلة الآن، وإلى أن يوافق «الأفندي» ويقرر.

لعبة يمارسها الطرفان باتقان وبراعة، ورغم أن كل طرف يعرف هدف الآخر، إلا أنه ينكر هذه المعرفة، بل ويتصرف بطريقة تعطي انطباعاً وكأن لا شيء وراء مثل هذه الزيارة!

وإذا كانت النسوة قد التقطن بداية الخيط من الرجال، وما دار في قهوة الشط، فإن هذا مجرد بداية، إذ لا يكفيهن أن تكون الأمور بهذا الاختصار، أو على هذا الشكل الفج: «بدري يريد يتزوج»، فالتفاصيل والأشياء الصغيرة أكثر أهمية بالنسبة لهن، إذ لا يمكن معرفة المزاح من الجد، وتمييز الأخبار المؤكدة من الإشاعات، إلا من خلال أمور محددة بدقة: ما هي الكلمات التي قيلت؛ كيف قيلت؛ ومن قالها.

جولة النسوة، والتي قد تطول وتمتد إلى الغروب، ويتخللها بعض المفاجآت بقدر ما تولّد الاضطراب والفوضى في بيت الحاج صالح العلو، نتيجة غياب أم قدوري المفاجىء، فانها تكشف عجز الرجال، وعدم قدرتهم عن تدبير أمورٍ كانوا يفترضون أنها شديدة البساطة، لكن ذلك يستقبل، من الطرفين، بكثير من الرضا والتعليقات المرحة. فحين ترى أم قدوري حجم الفوضى التي نتجت عن وجبة الغداء تنادي بناتها بمرح، وتشير إلى كل شيء وهي تقول:

ـ غيبة ساعات شغل أيام. . .

تهز رأسها وهي تضحك، وبعد قليل:

ـ رهّمت كل شيء قبل ما أمشي: هذا المرق ما ينراد له إلا تسخين؛ وهذا التمن بس يتهدى، وهنا الطاوة، وهذا الملح، وهذا الفلفل، وهنا الچفچير، وهذي جانة الخبز. . . وشنو بعد. . .

ويتغير صوتها وهي تجمع الأواني، وتعيد الأشياء إلى أماكنها:

ـ ما يخالف، بس انشاء الله تتم الأمور على خير!

وتبدأ مع البنتين، مع النسوة القريبات جداً، اللواتي رافقنها بالزيارة، باستعراض التفاصيل الصغيرة من لحظة خروجهن إلى أن عدن. وفي كل محطة تعتبرها أم قدوري أو أية سيدة رافقتها مهمة، لا بد من التوقف، واستعادة كل ما جرى وتقييمه. وكيف يمكن أن يقارن مع محطة أخرى، مع خيار آخر. يفعلن ذلك بكثير من الصرامة والحزم، «لأن المسألة مو هينة ولا زغيّرة، مسألة عمر؛ وعائلة بيت العلو ما يحبون أن أحد

يقشمرهم».

حصيلة المناقشات والمقارنات الصارمة تستمر من الغروب وتطول في بعض الليالي وتمتد. قد تنقطع لفترات قصيرة، خاصة حين تضطر إحدى القريبات للمغادرة، بعد أن تكون قد أبدت رأيها وملاحظاتها، وما تعتبر أكثر ملاءمة أو أكثر أهمية، وتنقطع مؤقتاً مرة أخرى حين يصل الرجال لتعاود من جديد في السهرة.

ولما كانت عادة الحاج صالح أن يذهب إلى قهوة الشط مبكراً، بين العصر والغروب، فقد تعوّد الرجوع إلى البيت مبكراً أيضاً، كي يجمع صَلاتَيْ المغرب والعشاء معاً، فهو يفضل أن يتخفف من ملابسه، وأن يقرأ سور القرآن التي تستهويه أكثر من غيرها، وأيضاً كي يتجنب رائحة العطور القوية التي يدمن بعض رجال الدين على استعمالها!

إذا كانت هذه عادة الحاج صالح العلو، فإن عادات الأبناء مختلفة، حتى ليمكن القول إنهم بلا عادات، أو لم يتوصلوا بعد إلى عادات ثابتة ومضطردة. فلا تُعرف لهم ساعة محددة للمغادرة أو للعودة؛ ولا يعرف إن كانوا سيتناولون عشاءهم في البيت أم خارجه. وهل سيعودون مبكرين أو متأخرين. وهذا ما كان يجعل أم قدوري قلقة تنتظر عودتهم، كي تتأكد أنهم تناولوا عشاءهم؛ أنهم لا يشكون من ألم أو همّ. حتى في المرات التي لم تكن تقوى على الانتظار، كانت توقظ بنتاً أو زوجة أحد الأبناء كي تنتظر مكانها، مع توصيات لا تنتهي حول مكان الأكل والخبز وما هو مهيأ لليوم وما هو معد للغد.

الآن، وما أن عاد بدري، وأعلن رغبته بالزواج، حتى تغيّر نظام البيت، خاصة بعد أن بدأت الجولات اليومية لاختيار الفتاة المناسبة لتكون زوجة لبدري. وإذا كانت ذروة الحركة الصباحية تبدأ عند الضحى، ولا يعرف إلى متى ستستمر، فإن الذروة المسائية تبدأ في المرحلة الأخيرة من طعام العشاء أو عند انتهائه، لأن أم قدوري، بعد أن تحضر كل شيء، تبدأ بعرض حصيلة اليوم. ورغم أن النسوة الحاضرات، وقد شارك بعضهن في

الجولة، قد اتفقن على أولويات ومزايا للفتيات اللواتي تمت زيارتهن، إلا أن أم قدوري، سواء بطريقة عرضها للنتائج، أو لأنها ميالة لواحدة أكثر من الأخريات، ويظهر ذلك من طريق الكلام، من التركيز على واحدة، تثير اللواتي شاركنها في الجولة، ثم اتفقن معها في المناقشة على الأولويات. وهكذا يبلغ الصخب أقصاه، ويتخلل ذلك الكثير من التعليقات الساخرة والمرح والاختلاف، لكن الأمور لا تصل إلى حد الحسم، لأن الحاج يتدخل في الوقت المناسب:

ـ يواش. . يواش، وبدري اللي صام وطال صيامه ما يجوز أن يفطر على جريّة!

وتبدأ نقاشات جانبية. فإذا كانت أم قدوري عجزت عن اقناع العمة زاهدة، أو الحجّية، كما أصبح يطلق عليها، مع أنها لم تذهب إلى الحج بعد، «لكن النية موجودة، ومع الحجّي أو واحد من الولد، انشاء الله السنة اللي تجي نصعد على عرفات»، فإن اقناع الآخرين لا بد أن يؤدي إلى «فض المشكلة» كما تقول أم قدوري.

وبدري الذي يراقب المناقشة بكثير من المرح والتعليقات الساخرة، ويعلن أنه مع الأكثرية، «المهم اتفقوا، وأنا موافق»، لا يريد أن يمتثل للشروط والمقاييس التي يضعها الأخوة أو العمة، وهو أكثر ميلاً إلى رأي أمه، لكنه يرى أنه من السابق لأوانه أن يحسم الأمر، أو أن يقول كلمة نهائية.

فالأخوة، قدوري ونعيم، ومعهم العمة، مع اختلاف بعض التفاصيل، يريدون: «واحدة تزيّد الخير ما تنقّصه؛ بنت عائلة؛ أبوها معروف بالسوق؛ شبعانة وما بعينها شي! أما بنت قصاب، بنت حايك أو نجار فالواحد ما يتزوج مريّة، يتزوج عشيرة، وتعال اخلص!»

وتضيف العمة زاهدة:

ـ مو بس هالشكل، إذا الواحد كان واهسه: هذي بيضة، شقرة؛ وهذه حلوة وطويلة؛ وما باوع أصلها وفصلها، مين يدري شنو راح يصير بيها مع

الأيام والأولاد، وشلون راح تنقلب، ويضيع علينا الأول والتالي!

- وأبوها من المفاليس. . .

هكذا يعلق قدوري، رداً على أمه التي اعتبرت زكية بنت نعمان المتولي بنتاً مناسبة، بعد أن اضطر أبوها، الذي كان صاحب مزارع إلى رهن ثم بيع مزارعه والتحول إلى تجارة الخيام والحبال!

قال نعيم بسخرية:

- وهذي الحبال راح تجر آخر فلس بجيبنا!

ويسأل بدري أمه:

- وانت شلون شفتيها؟ وشنو حكمك عليها؟

- اليوم شفناها، وشفنا مريم بنت شعبان أبو الحب، وشفنا نظيمة بنت محمود، وإذا خيرتني اختار زكية: طويلة، عيونها وسيعة، بيضة، مشيتها زينة؛ وإذا الواحد سألها، حچى وياها، ما ترفع عينها، وما تقول إلا: بلي عمة!

ويرد قدوري:

-. . . وأبوها باع مزرعة الشيخ سعد، وبعدها رهن مزرعة شلغوم وباعها، ومزرعة الجعيفر شراكة ويا غيره وقالوا راح يأخذوها منه؛ وبعد المزارع والمحصول صار يفتر على الناس: تريدون خيام؟ حبال؟ تريدون حبال بالدين؟

وتقول العمة، الحجية زاهدة:

- وقالوا لي إن ببيتها خلّفت خمس بنات، وما خلفت ولد؛ وأمها خلفت كومة بنات قبل ما يجيها ولد، وقرايبها كلهم ما يخلفون إلا بنات!

وينتهي النقاش بأن يقول الحاج صالح:

-. . . يا جماعة. . العجلة من الشيطان، وما دام بدري ما مستعجل، نلقى، فطوّلوا بالكم، مو اليوم باچر، مو هذي. . غيرها، وماكو ببغداد أكثر من البنات!

وفي قهوة الشط، وان لم يجر الحديث عن الموضوع مباشرة، أو

دائماً، فإن التعليقات لا تنتهي!

يقول سيفو لبدري مداعباً بعد أن زالت صدمة المفاجأة:

ـ والله لو كانت عندي بنيّة ما تفلت مني.. لو طلعت براسك نخلة!

ـ علواه.. عمو سيفو، ووين أكو أحسن من هيج عم!

ـ لكن فلتّ!

يقول سيفو ذلك بحزن، وقد تذكر خيبته كلها، إذ كان ينتظر أولاداً لم يأتوا أبداً، وفي محاولة لأن يعزّي نفسه يتابع:

ـ ويجوز هالشكل أحسن، لا ولد ولا تلد، وباچر إذا الواحد حط راسه وغفا فد نوبة، فلا من يبكي عليّ ولا من يتعارك ويا اللاخ على ميراث.

ويبتسم سيفو، تصبح ابتسامته ضحكة وهو يتابع:

ـ على ميراث؟ الحمد لله والشكر: القربة يبست، والسمك بالشط يلبط، وكل واحد وذراعه!

ويعلّق الأسطة اسماعيل ساخراً:

ـ والصنم اللي جبته من ذاك الصوب المن راح تورّثه؟

وتنفتح العيون بدهشة، وتتردد الكلمة ذاتها:

ـ صنم؟

ـ شنو.. الصنم؟

ـ شنو قصة الصنم.. أبو فلاح؟

ويرد سيفو بسخرية، وهو يشير إلى الأسطة إسماعيل:

ـ اسألوا المفتي، اسألوا شيخ الإسلام!

ويروي أبو حقي بمرح كيف أن سيفو تجمّد أمام التماثيل التي يضعها ذنون، وكيف حصل على واحد منها، وأنه لفرط اعجابه بالتمثال، فلا بد أنه أصبح عابداً له!

يهز سيفو رأسه ساخراً ويقول:

ـ ما أحط بذمتي، لكن الله أعلم أن الملاّ حمادي دفّى ايديك وحط بجيبك وقال لك: وقع الثور، وقع سيفو، وهسه لازم نكوّمه ونخلص منه!

ويقترب الأسطة عواد، وحين ينظر إلى الوجوه، حتى لو لم يسمع كل ما يدور، يقدّر إذا كان الجو رائقاً أو تكدره بعض المنغصات، لما رأى أبا فلاح يتطلع نحو الأسطة اسماعيل ويهز رأسه، علق بمرح:

ـ أقول لروحي: شلون الغُرب حاكمين البلاد والعباد، فإذا أعز أخّين ما قدروا يتوالموا، فعوافي للغُرب ونحن نستاهل كل شي!

ويهدر صوت سيفو:

ـ وين رايح أبو نجم... القضية قضية دين وناموس!

ـ شلون أبو فلاح؟ شنو اللي صاير بالدنيا؟

ـ الصوغة اللي حطها صاحبه، ذنون، بالبلم ذاك اليوم، وقال لي هذي مني إلَك، صار إلها ايدين ورجلين...

ويضحك سيفو بسخرية قبل أن يتابع:

ـ صارت صنم، وصار سيفو من اللي يعبدون الأصنام! هاي تاليها؟ تقبلها؟

رد الأسطة اسماعيل بمرح:

ـ يبين عليك، يا أبو فلاح، شارب لبن حامض، وابد ما تتحمل الشقا؛ سويتها قضية دين وناموس، وهي ما تسوى!

قال الأسطة عواد ليغير الجو:

ـ اليوم، يا جماعة، هواية حارّة، جهنم، فشلون راح تصير بتموز وآب؟

ـ وهيج حرارة تخلى الآدمي يصير عصبي، لأن الدماغ يفور.

هكذا قال بدري، في محاولة إضافية، كي يعود الجو إلى المرح. نظر إليه سيفو بطرف عينيه وابتسم، وبعد قليل أضاف:

ـ تمون مولانا، واللي تريده يصير، بس أريد اسأل ابو حقي فد سؤال: ليش، مولانا، تارس تكّانك ملاعيب؟ سماور وسيف وناركيله، وملاعيب من الهند والسند، وما أدري بعد شنو ومنين...؟

وحين ابتسم الأسطة اسماعيل، تابع سيفو دون أن يترك الإجابة:

ـ العين، مولانا، ما تشبع، ما تشبع من المسائل الحلوة، الملونة، اللي تفرح القلب، فحرام على واحد مثلي إذا شاف فد شي وقال: هذا حلو، هذا الشي يفرح القلب؟

وتعالت الأصوات:

ـ أبد مو حرام!

ـ ان الله جميل ويحب الجمال!

ـ سبحان الذي خلق الإنسان على أحسن تقويم!

قال بدري، وخرجت الكلمات غمغمة:

ـ وأم قدوري تفترّ من الصبح حتى تلاقي لبدري بنيّة حلوة وطويلة لأن كلنا نحب الجمال!

وتعالت أصوات المرح. هز الأسطة عواد رأسه طرباً وانسحب، أما أبو حقي فبعد أن وقف تقدم نحو سيفو وقبّل رأسه وهو يقول:

ـ زعل الدنيا كلها كوم، وزعلك يا أبو فلاح كوم، ولعنة على وجدان اللي يزعّلك!

قال بدري وهو ينهض مستأذناً:

ـ من رخصتكم، يا جماعة، لأن وراي، بعد، حصبة وجدري؛ لازم أباوع شكو عند أم قدوري واستنقي، لازم أقول إي أو لا، فلا تنسونا من الدعا، يا جماعة الخير.

70

بعد عشرة أيام من الركض المحموم، ومن المشاورات التي تمتد في بعض الليالي إلى ساعة متأخرة، ولم يتخللها إلا يوم عطلة واحد، إذ لا يليق بالنسوة التزاور يوم الجمعة، حين يكون الرجال في بيوتهم؛ وبعد اختلافات كثيرة وتردد، كاد بدري يعلن في إحدى الليالي عزوفه التام عن فكرة الزواج، أو على الأقل أن يؤجل الأمر إلى وقت لاحق، كطريقة للضغط، وإجبار أخويه، بالإضافة إلى العمة، الحجية زاهدة، على التنازل، خاصة فيما يتعلق بثروة الفتاة التي قد تصلح زوجة!

قالت العمة زاهدة، حين شعرت أن بدري قد يصرف النظر عن الزواج:

ـ وين أكو بنيّة كاملة؟ الكمال لرب العالمين وحده..

تغير صوتها وهي تضيف:

ـ البنيّة إذا چانت نظيفة وبنت أصل فهذا اللي نريده.

وحين وجدت الصمت قوياً ثقيلاً، ولا أحد يريد أن يضيف، خاصة بعد الحدة التي بدرت من نعيم، لما اعترض على زكية بنت نعمان المتولي التي اقترحتها أمه من جديد، فقد تابعت العمة:

ـ المال يجي ويروح، لكن الأصل ما ينلعب بيه أبداً، يظل ويّا الآدمي من الساعة اللي يقول: واع ويع، ويبقى لازمه إلى أن يموت... وحتى بعد ما يموت...

ولم يعلق أحد. كان الجو لا يزال محتدماً. أضافت:

ـ ومو بس هالشكل، الواحد بليا أصل: عطابة بريح؛ عظمة بچول. البنية إذا چانت تحب النظافة وحريصة وبنت أصل تعمّر بيوت، أما إذا ـانت وسخة وأصلها به كلّة فتحرق الأخضر واليابس وتهدم البيوت.

قال الحاج صالح بحزم أقرب إلى الحدة:

ـ هذي السوالف نعرفها زين، وقريناها على روس الناس، اللي يسوى منهم واللي ما يسوى، وهسه نريد نتيجة، نريد نشوف دربنا. . . .

أخذ نفساً عميقاً، وتابع، فجاء صوته حاداً:

ـ صار أسبوع، أكثر من أسبوع، ومن بيت لبيت، من بنيّة للثانية، والنتيجة: قبض ماكو! هذي طويلة، وهذي قصيّرة. هذي أمها تخلف ولِد، وهذي أمها تخلف بنات. هذي فلاني وهذي تركاني، والنتيجة: إيدينا والحصير!

قالت أم قدوري بتحدٍ:

ـ زكية ماكو مثلها!

ـ وأبوها ليش طايح حظه؟

هكذا سأل نعيم، وكان محتداً، أقرب إلى الغضب.

رد الحاج صالح، وقد جعل صوته رحيماً:

ـ يا ابني، الرزق من الله، وأنت تعرف: الزرع يطلع يوم ويغرق يوم؛ والواحد يربح يوم ويخسر ثاني يوم، التجارة ماكو بيها ربح دوم وكل يوم، لا إذا كان الواحد يشتغل بالربا. فإذا الحاج نعمان خسر اليوم يجوز يربح ـم ثاني. . هاي حال الدنيا!

سأل نعيم، ولكن بحدة أقل:

ـ وليش خسارة ورا خسارة؟ ما عنده عقل؟ ما يقدّر؟ ما يعرف السوق؟

ضحك الحاج صالح قبل أن يجيب:

ـ يا وليدي، التجارة مثل القمار، وما يغرّك هوا اليوم، يجوز باچر بصير شرقي، وأنت بالسوق وتعرف: البني آدم طماع: يركب الريح اللي جابت له الفلوس أول نوبة، وما يدري شكو باللوفة، يا ريح جاية وشنو

راح تجيب، ربح أم خسارة!

قال قدوري، في محاولة لأن يبني جسراً:

ـ وأهل السوق يقولون إن الحاج نعمان ديّن عالم هوايه؛ وأنه وافق على تأجيل الديون سنة بعد سنة إلى أن رهن بستان الشيخ سعد، وبعدين باعه حتى يوفي وبستان شلغوم اشتراه بالدين، ولما عجز عن تسديد الدين أخذه الديانين، هذي كل القصة!

ـ وليش ما باع واحد حتى يوفي الثاني، ويخلص من المشاكل؟

هكذا سأل نعيم، فرد الحاج صالح:

ـ سبحان الذي لا يسها ولا ينسى، والبني آدم طماع، يجوز قال لروحه بستانين أحسن من واحد، وهذا يوفي اللاخ، وحط من هذا على ذاك، وتدين، واشترى وباع، حتى وقع. يجوز المسألة صارت هالشكل.

قالت أم قدوري لتخلق جواً جديداً:

ـ نحن ما علينا بالسوق، وشنو اللي صاير بيه، نحن علينا البنيّه.

قالت نعيمة، وكانت منفعلة وهي تتكلم:

ـ وقالت لي زكية: إذا تزوجت اللي ببالي، ويجوز تقصد بدري، وتريد تسمّعني، راح أمشي زحف، وهذا نذر عليّ، للشيخ عبد القادر، ولازم أزور أبو حنيفة والكاظم، وأعلق لكل شباك مو شمعة... عشر شموع.

قالت العمة زاهدة بجدية صارمة:

ـ النذر لازم يتوفى، والبني آدم إذا نذر وما وفى يتشور!

أضافت أم قدوري، وكانت تبتسم:

ـ وشقد باوعت بوجهها؛ شقد سولفت وياها، وإذا سألتوني هسه شنو لون عيونها، فما أقدر أقول، إذا الله ما كذبني، أخضر، أزرق، أو الأخضر والأزرق مخبوطين!

قالت نعيمة، وقد تجرأت أكثر من قبل:

ـ شصار يمه...؟ أخضر، لو نسيتي؟

ـ ما أدري، يا بعد عيني....

ضحكت أم قدوري، وضعت يدها على فمها، مثل عادتها حين ضحك، وأضافت:

ـ نوبة أشوف العيون خضر. نوبة أشوفها زرق. ونوبة بين وبين، لكن تخبّل.

طرب الحاج صالح لهذا الكلام، ضحك، كان ضحكه أقرب إلى القهقهة؛ قال بعد أن هدأ:

ـ راح أجرّها وياج ميانة، أم قدوري، وأقول: نفسي رادت واشتهت، وأريد منك، ما دام صايرة وصايرة، بدل الوحدة ثنتين، وحدة لبدري والثانية لأبو قدوري!

وبرد فعل صاخب قالت أم قدوري:

ـ ما دام آني حية تموت وما تشوفها!

ربما كان الرد سريعاً، مبالغاً فيه، خاصة لوجود الآخرين! لأن العمة زاهدة التي كانت إلى ذلك الوقت مرتاحة، أقرب إلى المرح، شعرت بالإهانة، بالقسوة والتحدي، قالت؛ بعد أن غيّرت جلستها:

ـ يموت عدوه، يمه، شنو اللي سواه؟ شنو اللي قاله؟

ـ ما سمعت شقال؟

ـ كل رِجّال يتمنى ويقول، وعلى مود كلمة تتدردب الدعاوي، وتقولين وتفاولين؟ هاي شلون تصير؟

تدخّل قدوري بغضب!

ـ وين چنا وين صرنا؟ خلونا نخلص من القضية الأهم!

قال بدري:

ـ الزواج، يا جماعة الخير، بداية، شراكة، فإذا تريدوني أتزوج لازم البنيّة تجمع ما تفرق، تزيد ما تنقّص؛ ولازم تقول: الحياة تبدأ من اليوم!

التفت نعيم لقدوري وهمس:

ـ كلام مكتبلية، كلام أفندية قهوة الشط!

قالت العمة في محاولة لحسم الأمر:

- اليوم الخميس ليلة الجمعة، وهذا يوم مبارك، نبيّت خيرة بمديحة وزكية، ومنو يختارها الخضر صارت سهمنا ونصيبنا، شتقولون؟

سأل الحاج ابنه بدري:

- صارت يمك، إبني، شتقول؟ شنو رأيك؟

نظر بدري إلى أمه قبل أن يجيب. طرفت بعينها: أن نعم. نظر إلى العيون التي تتابعه، تنتظر قراره، قال وهو يبتسم:

- بيتوا خيرة والله كريم!

ومرّ الخضر تلك الليلة. ترك إشارة بارزة على صحن زكية. كانت الإشارة من الوضوح إلى درجة أن اعترف الجميع برؤيتها! أما بعد أن تذوقوا الحليب المطبوخ الذي مسه الخضر، فقد كانوا واثقين أن الخير كل الخير، فيما اختاره هذا المقدس، لأنهم لم يتذوقوا، طوال حياتهم، حليباً أطيب من هذا الحليب!

قال الحاج صالح، وهو يغادر البيت:

- اليوم، على خيرة الله، يصير الكلام ويّا أم البنية، ويّا قرايبها، ولازم البنيّة تعرف. ومو باچر، عقب باچر، الرياجيل. . .

ومشى خطوتين، توقف لحظة يفكر، قال مستدركاً، بعد أن اقتربت منه أم قدوري:

- واليوم ينحچي بكل شي: يوم النيشان، والمهر، وبالزغيّرة والچبيرة، حتى إذا رحنا عقب باچر نروح على ضو، سمعت زين؟

هزت رأسها عدة مرات، وهي تضع يدها على فمها لتخفي ضحكتها!

ومشى خطوة أخرى، وتوقف:

- وتقولين لهم: ونريد الزواج بالعجل، ويجوز البنية تبقى وياه بكركوك فد شهر، اثنين. .

- بلي. . بلي، كل هذي المسائل ببالي، أبو قدوري.

- وما نريد خبصة، لأن الزواج الصدق راح يصير بعد رجعتهم من كركوك.

وإذا كانت عادة أم قدوري أن تبعث أحداً للإخبار عن زيارة ستقوم بها، ان الحجية زاهدة أصرّت أن تتم الزيارة هذا اليوم دون إخبار «لأنّا نريد نشوف البنية بليا صبغ وبليا شناشيل، نشوفها مثل ما خلقها رب العالمين». م قدوري اعتبرت أن في الأمر تجاوزاً، وربما يخلّف القيل والقال. فردت عليها العمة:

ـ لا تديرين بال يا معودة!

ـ خاف يصير بيها زعل، حجية، وينقال فلاني وتركاني!

ـ نقول: چنّا بزيارة الشيخ معروف، وعطشنا، وماشفنا حالنا إلا بكم!

ـ وشلون نقدر، بعدها، نحچي عن المهر والنيشان والأكو والماكو؟

ـ وشلون تريدينا نأخذ البنيّة بليا ما نخمها؟ لازم نشوفها بليا صبغ ديرم، بليا كحل وحنة!

ـ حجية.. خمينا كل شي، وشفنا البنية على البطانة، وما بقي هسه لا: شوكت وشقد والفتافيت الزغيّرة!

ـ هالشكل كل شي صار بالعجل، وبليا ما أدري؟

ـ ناب عنا كلنا الخضر والعباس، وأنت اللي بيتي الخيرة، لو نسيت؟

ـ زين.. زين، آني ما عليّ، أروح وياكم، لكن أي شي يصير، الخطية برقبتكم.

بعد أن رتبت النسوة الأمور كلها، وقد جرت بسرعة ويسر، ذهب الرجال وتم الاتفاق.

قال سيفو للحاج صالح، وكان صوته يرتجف من الانفعال:

ـ أي شيخ يقطع المهر إلا ملا حمادي!

ـ شلون يصير.. أبو فلاح؟ هو شيخ المحلة وإمام الجامع.

ـ هذا نفَسه موزين، حجي، وآني أجيب لك بدل الشيخ مية!

ـ خاف يزعل الملاّ حمادي ويأخذ على خاطره!

ـ ننطيه فلسين، يصير ممنون، وبعدها ما عليه بغير شي.

ـ وإذا قال فلاني وتركاني وخبصنا بالمحلة؟
ـ ما عليك، حجي، آني اتكفله، آني أعرف شلون أخليه يسكت!
ـ إذا وافقناك وقلنا أي، بليّا ملا حمادي، منو راح يقطع المهر؟
ضحك سيفو، هز رأسه عدة مرات ورد:
ـ ذاك اليوم، بقهوة الشط، خضيّر ملا نوري دق على صدره وقال: آني اللي أقطع مهر بدري ابن الحاج صالح العلو، وماكو أحد غيري!
ـ منو؟ شسمه؟
ـ خضيّر ابن ملا نوري.
ـ هذا الزعطوط المتعيقل، اللي ما طرّت شواربه؟
ـ أي.. ابن الملاّ نوري.
ـ لا... يا أبو فلاح، أنت ما تقبلها...
وبعد قليل:
ـ يجوز الواحد ما يرضى على الملاّ حمادي؛ يقول عليه طماع، بخيل، لكن يبقى رِجّال چبير، عاقل، وهذي شغلته.
بدا سيفو محرجاً، فإذا استطاع إبعاد الملاّ حمادي، على الأقل بشكل أولي، فإنه لا يستطيع إقناع الحاج صالح أن يكون البديل هذا الشاب المبتدىء، والذي يبدو أصغر من هذه المهمة.
قال، في محاولة لتأكيد ابعاد الملاّ حمادي:
ـ زين... زين حجي. آني، من ساعتي، أعبر لذاك الصوب وبوجهي إلى مقام الشيخ عبد القادر، وإذا ما اتفقت مع الملاّ محمود اتفق ويّا الملاّ عزيز، موافق؟
ابتسم الحاج صالح بحزن، أخذ نفساً عميقاً، وقال:
ـ المسألة كلها، ما تسوى أن تروح وتتعنى، وبعدها يجوز الملاّ محمود يقول: هذا اليوم ما يوالمني، تعال غير يوم؛ والملا عزيز عنده فاتحة أو قراية، واليوم مشغول: المقام والزيارة وما أدري بعد شنو، فخلينا نفضها بهذا الصوب، وهي، أولها وتاليها، ما دام الكل موافقين: زوّجتك

سي بمهر قدره.. وبعدها الفاتحة، ونخلص.

ـ زين حجي.. إذا ما تريد خضيّر نجيب أبوه، الملاّ نوري، شتقول؟

ـ قالوا لي إنه ما عاد بيه حيل، وما يطلع من البيت.

ـ لا، انت ما عليك، نطلّعه، نجيبه.

ـ وقالوا لي إنه خالص، ما يمشي، وإذا مشى خطوتين يگح ويضرط.

ـ يزيّدها الناس، حجي، وأنت تعرف كلام الناس!

ـ وسمعت، يا أبو فلاح، إنه صار يضيّع، ما يعرف الواحد من اللاخ، وما يعرف شنو اللي يسويه!

ـ كلام عدوين، حجي، عدوين وحساد، الملاّ حمادي وأمثاله!

تطلع إليه الحاج صالح طويلاً. كان يبتسم ويهز رأسه. قال سيفو لئلا يفلت منه الأمر:

ـ أنت خليها عليّ، حجي، ولا تدير بال!

ـ كل اللي تريده، يا أبو فلاح، أن تكسر رقبة الملاّ حمادي، مو هالشكل؟

ـ يا أبو قدوري، كل ما أريده وأتمناه أن اللي يزوج بدري يكون يحبه، يقول كلمة تطلع من قلبه...

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ ببغداد ماكو أكثر من الجوامع، وماكو أزيد من الملالي، فما لازم الملاّ حمادي وحده يشيخ بروسنا: حلال وحرام، يصير وما يصير...

ـ خلينا هسه، يا معوّد، نزوج بدري، وبعدين كل واحد له دَيْن يحصله، أو له ثَار يأخذه!

ـ لا ديون ولا ثارات يا حجي، بس الواحد ينغث إذا شاف العوجه وسكت عليها!

ـ والخلاصة؟ النتيجة؟

ـ أدبر، الملاّ نوري يقطع المهر!

لم يكن الملاّ نوري بالسوء الذي صُوّر أو توقعه الحاج صالح. صحيح

أن مشيته ثقيلة، ولا بد أن يستعين بأحد، إضافة إلى العكاز، إذا أراد أن يجتاز عتبة أو أن يصعد درجاً، لكن ذاكرته لا تزال يقظة، ولا يكف عن المزاح، كما لا يتردد في استعمال الكلمات البذيئة.

قال لبدري قبل أن يعقد القران:

- أنتو، بيت العلو، خوش أوادم، أباً عن جد الشهادة لله، بس ما أدري هذول اللي راحوا على العسكرية، وصاروا من رجال الباشا، شلون صاروا؟

رد الأسطة إسماعيل بمداعبة:

- ماكو أقوى من عِرْق الثّيل، يا شيخنا، والطبع يغلب التطبع، فلا تخاف!

واستمر الملاّ نوري موجهاً الكلام إلى بدري:

- ويقولون على العسكر: عيونهم مالحة، الحلال والحرام بالنسبة الهم مو مثل الخيط الأبيض والخيط الأسود!

وتصدى الأسطة للرد مرة أخرى:

- أصابعك، يا شيخنا، ما تشبه بعضها!

- ما نريد زيان ببلاش يا أبو حقي، لأن الزواج مو قشمرة، والواحد خلّف وربّى ويريد أن تكون وديعته للي يستاهلها.

هكذا رد الملاّ نوري على الأسطة إسماعيل، وهو يستدير نحوه بثقل وبطء. سيفو الذي بدا مختلفاً بشكله تماماً، بعد أن لبس صاية شاهي جديدة، وتحزم بحزام حياصة بين الأحمر والبني، كما وضع على كتفيه خاچيه بلون البلح؛ كان سيفو فخوراً وخائفاً في آن، إذ يريد أن يُعقد القران بسرعة، وأن يرضى الجميع، وخشي أن تأخذ المناقشة بين الملاّ والأسطة إسماعيل مساراً قد يؤثر على النتائج.

قال في محاولة لتجاوز هذه المناقشة:

- بالكرخ كله، بهذا الصوب وذاك الصوب، ولو تفتر بغداد من أولها لتاليها، مثل بدري ما تلاقي، مولانا!

تطلع الحاج صالح بطرف عينيه إلى سيفو، كأنه يلومه على هذا الاختيار، ولهذا الكلام الذي لا يرى له مناسبة أو ضرورة، قال، وخرج صوته مخدشاً:

ـ نسأل نسيبنا، الحاج نعمان، ولا بد أنه سأل وتحرى منو هو بدري!

قال الحاج نعمان بفخامة:

ـ والنِعم، والسبعة أنعام.

قال الملاّ نوري مازحاً:

ـ إذا هذا اللي رايدينه فعلى بركة الله، راح هسه نقرا الفاتحة، وبعدها عليكم المزيقا والطبل!

والتفت إلى أكثر من جهة، وصاح:

ـ جيب الدفتر يا خضيّر وتعال!

قال الكثيرون أن الحفلات الثلاث التي أقيمت لم ير صوب الكرخ مثيلاً لها منذ زمن طويل.

وإذا كانت الحفلة التي أقامها الحاج صالح في بيته حضرها الكثيرون، فان الحفلة التي أقامها الحاج نعمان المتولي تخللتها قراءة سيرة المولد. ولم يحضر الملاّ حمادي في المرتين. أما الحفلة التي أقيمت في قهوة الشط، وقد أصرّ على إقامتها الأسطة عواد وأصدقاء بدري، لتكون وداعاً للعزوبية، فلم يبق أحد من الرجال والشبان، وحتى عدد كبير من الصبية والأطفال إلا وحضر. حتى الملاّ حمادي، الذي تظاهر أنه لم يسمع ولا يدري، فقد أُرسل إليه وفد، كان على رأسه الأسطة إسماعيل، وحضر أو أحضر! وقيل إن المبلغ الذي وُضع في جيبه، والكلمات التي همسها الأسطة في أذنه. «بأن أم قدوري نذرت أن يعقد مهر أولادها الملاّ الذي عقد مهر زواجها، أي الملاّ نوري» مما جعل الملاّ حمادي يرافق الوفد الذي جاء لإصطحابه!

الأستاذ ناجي البكري تحدث بصوت عالٍ عن الحياة الجديدة التي تنتظر بدري، وقال بعض المسنين إنه تحدث في السياسة، وكان يقصد أشياء كثيرة بغمزاته وإشاراته!

ونمر بن ذياب، كبير شقاوات صوب الكرخ لم يلب الدعوة وحده، أحضر عدداً غير قليل من رجاله، ودعا ضيوفاً من صوب الرصافة. وكان دخولهم إلى قهوة الشط احتفالياً، إذ لم يكتفوا بالأهازيج والطبل، فقد أطلقوا النار بغزارة، الأمر الذي جعل الكثيرين يتحسبون، مما دعا الأسطة عواد وبعض الوجهاء، أن يلتمسوا من نمر التوقف عن إطلاق النار، وقد استجاب، وامتثل رجاله، عدا مرة واحدة، حين قام سيفو للرقص، فقد أطلق نمر ذاته عدة طلقات تحية للعريس ولسيفو!

وحسون، كما أكد كثيرون، لم ينم خلال هذه الليالي الثلاث، إذا ظل يركض ويبلّغ من لم يُبلغ، وينقل الكراسي والسجاد، وعلق أغصاناً خضراء على باب القهوة، كما رقص وغنى أيضاً. ولقد استقبل الحضور غناءه في قهوة الشط بكثير من الحفاوة والاهتمام، وامتدح بعضهم صوته لما فيه من جنّية وشجن!

والأسطة إسماعيل، ونعمان، والأسطة عواد. . .

لم يبق أحد إلا وشارك، أو على الأقل كان موجوداً. حتى فطيم، زوجة سيفو، ورغم التعليمات المشددة من سيفو ذاته، ومن نساء المحلة، أن لا تقترب، فقد اقتربت كثيراً، وقيل إنها زاحمت الصبية وهي تحاول أن تجد لها مكاناً قرب سور القهوة!

وصوت الطبل الذي طغى وسيطر منذ أذان العشاء، وكان يتردد صدا ويزاحم صوت الملاّ حمادي عند أذان الفجر!

في اليوم الثالث غادر بدري بغداد، عائداً إلى كركوك، على أن توافيه زكية وبعض قريباتها، إلى هناك، ومعهن «من يريد من محلة الشيخ صندل»، إضافة إلى جميع عائلة الحاج صالح العلو، بعد أن تُستكمل التحضيرات هنا. . . وهناك، «وبأقرب فرصة ممكنة» كما قال سيفو، وهو يقدم له التمثال الذي تلقاه من ذنون هدية. . .

71

عصر اليوم السابق للسفر التقى بدري بزكية لأول مرة. جاءت مع أمها وعدد من قريباتها بزيارة إلى بيت الحاج صالح العلو، كي تتعرف بمن سيصبح زوجها!

يتذكر بدري انه رأها مرة أو اثنتين حين كانت صغيرة. جاءت ذات ضحى حاملة علاّقة فيها عثق من تمر البرحي، قالت ان أمها أرسلته، وانه من بستان الشيخ سعد. وجاءت مرة ثانية، أو ربما كانت أختها التي جاءت، بصحن فيه «خبز العباس.». لا يتذكر بدري الشكل أو الملامح، لكن يتذكر ابتسامة افترشت وجهها حين سألها عن اسمها. كانت تبتسم بود وبراءة، ودون خوف أيضاً.

مرت أيام كثيرة منذ ذلك الوقت. الآن، في هذه العصرية، يحاول بدري أن يستجمع الصور والملامح، لكنه لا يستطيع، رغم الوصف المسهب الذي قدمته أمه، وساعدتها، وصححت لها كثيراً، نعيمة، ثم تدخلت العمة زاهدة تضيف أوصافاً أخرى، فاختلطت الكلمات وتداخلت الصور، بحيث لم تبق إلا صورة ابتسامة قديمة، لا يدري إن كانت هي التي رآها، أم ابتسامة أخرى!

وإذا كانت أم قدوري والابنتان، إضافة لاثنتين من القريبات، قد انهمكن منذ الصباح بتنظيف البيت وإعداده لهذه الزيارة، فان العمة زاهدة مرضت قبل ظهر ذلك النهار، وأخذت تحضّر لنفسها أدوية تعوّدت على تناولها في مثل هذه الحالات، كما انشغلت بعد الظهر بأدعية وابتهالات

تساعدها على سرعة الشفاء! وحين كانت تفرغ قليلاً، أو تستعد لدور جديد من الأدعية، لم تكن تتردد في تقديم توجيهات، أقرب إلى الأمر، حول ما يجب عمله لتكون الدار أكثر نظافة، وأيضاً أكثر فخامة، لإظهار غنى العائلة وعراقتها! وأم قدوري التي كانت تسمع، لكن دون اهتمام، وتواصل العمل كما تعتبره ضرورياً أو تراه ملائماً، لا تريد في مثل هذه المناسبة أن تحتد أو أن تحتك مع العمة. أما الأختان فكانتا تردان على العمة بكلمات لا تتغير إلا قليلاً: «أي عمة، ما يخالف» «زين... زين عمة» «بلي عمة».

حين جاءت الزائرات كانت العمة، بالسبحة الطويلة، وبالابتسامة المتحفظة، أول المستقبلات، كما كانت أول من جلس، وفي مكان تستطيع أن تراقب كل شيء. كما لم تتردد في إصدار الأوامر حول سرعة توزيع المراوح، رغم أن هذا سيتم حالماً تنتظم حلقة الجلوس. وأمرت أيضاً أن يُستبدل الماء الذي قدم بماء أبرد، مع إنها تعرف عدم وجود ماء أكثر برودة!

أما عندما عاد الحاج صالح وبدري، وقد استقبلتهما الأم بالزغاريد وإلقاء النقود والسكاكر، فقد أبدت العمة استغراباً، وكأن هذه العودَة تأخرت أو تقدمت قليلاً، رغم أنه تم الاتفاق عليها، وهيأت النسوة لها!

وحين طلبت أم قدوري من زكية وأمها أن ترافقاها للتعرف على العريس ووالد العريس، كانت الحجية زاهدة هي التي تقود الموكب إلى حيث يجلس الحاج صالح وبدري، إضافة إلى بعض الأطفال الذين انهمكوا بجمع النقود والسكاكر!

خلال الساعة التي قضتها زكية في الحديقة، تحت شجرة النبق، ومعها عدد من النسوة، إضافة إلى العريس وأبيه، شعرت بغبطة لم تستطع أن تخفيها، أو أن تسيطر عليها. ظهر ذلك من خلال ابتسامتها الواسعة، التي تكررت مرات عديدة، ومن خلال رشاقة الحركات، خلافاً للتوصيات التي وُجهت لها بأن لا ترفع رأسها؛ أن لا تضحك؛ وأن تجيب، إذا سئلت، بأقل الكلمات!

لقد شعرت زكية، خلال تلك الساعة، إنها أسعد فتاة في بغداد كلها، وأنها وصلت إلى الحلم الذي كان يراودها الأيام والليالي، وها هو قد تحقق. فهي ترى بدري إلى جانبها، أصبح عريسها، وقد تجرأت أكثر من مرة ونظرت إلى عينيه، إلى حركاته. أما الصوت، صوته، وهو يتسلل إلى أذنيها، فبدا عذباً كأنه أغنية، شديد الألفة كأنها تعرفه.

حين قال لها إنه ينتظرها في كركوك، ويجب ألا تتأخر، هزت رأسها بالموافقة، لكن ارتبكت قليلاً. ولما أكد على ذلك مرة أخرى، رفعت إليه عينين حانيتين وقالت «زين. . زين». وظلت تراقب حركاته العفوية، حتى لما كانت تتوجه الأنظار إلى الذين يتكلمون. ولقد أحست برعشة في جسدها أكثر من مرة، خاصة حين كان يستدير قليلاً كي يواجهها. كانت الرعشة تشبه تلك التي تخلفها المياه على الجسد حين تتناوب الحرارة والبرودة بغير انتظام!

تمنت لو تسافر معه، أن تكون إلى جانبه. ان ذلك لو حصل أكثر متعة من الثياب التي ستنشغل بتحضيرها خلال الفترة القادمة، خاصة وأنه سيكون بعيداً، خلافاً لحالات كثيرة مماثلة. لكنها لا تستطيع شيئاً، إذ يجب عليها أن تنتظر، أن تتحمل، في الوقت الذي يقرر الآخرون كل شيء نيابة عنها!

كانت الساعة قصيرة وطويلة بالنسبة للاثنين، فقد مضى الوقت بسرعة، أسرع مما يحصل في الحالات الأخرى؛ وكان طويلاً، لأن العيون ظلت تنصب عليهما، تراقب كل حركة، تحاول أن تسمع كل كلمة. ورغم أن الحجية زاهدة بقيت صامتة، إلا أن عينيها لم تتوقفا عن الكلام والسؤال والعتاب. أما الحاج صالح فقد خلق جواً من المرح والألفة، ربما ليشغل النسوة، وليخلق للعروسين مجالاً لتبادل بضع كلمات. وفي نهاية الزيارة ظلّلت شجرة النبق جميع الموجودين، خاصة حين ارتفعت زغاريد أم قدوري، وشاركتها النسوة الأخريات ذلك!

لما وصلت العربتان لحمل الزائرات، والعودة بهن، وقبل أن يغلق

الباب، سألت أم قدوري ابنها، همساً:

ـ ها، بشّرني، شلون شفتها؟

ـ ملوكية، تخبّل، نصيحة أخ لأخوه!

ـ ليش ما تقول نصيحة أم لابنها؟

وبعد قليل وبلهجة عتاب:

ـ تظلون، أنتم الرياجيل، ظنانين، وتحسبون المرية ما تعرف!

سألها بدري ليواصل المرح، وهو يدفعها أمامه بإتجاه الآخرين:

ـ زين.. زين إذا تعرفين كل شي، فشنو لون عيونها، خضر أو زرق؟

كان يمكن لطيف الفرح الذي خيم على هذه الزيارة أن يتواصل، لكن الضيق الذي بدا على العمة، إذ آثرت أن تنسحب، تاركة للأخريات وداع الزوار، أفسح مجالاً للقلق أن يتسرب، وجعل الأشياء أقرب إلى الهشاشة أو في حالة من السيولة يمكن أن تنزلق وقد تتغير.

فما أن صعدت أم قدوري الدرجتين الواطئتين بإتجاه مقدمة البيت، حيث جلست العمة زاهدة، حتى سمعتها تقول:

ـ عبالك لعَابة!

التفتت أم قدوري، بعد أن طرقت الكلمات مسامعها، وسألت:

ـ تحچين وياي، حجية؟

ـ احچي ويا روحي، ومن قهري!

ـ ليكون أحد غثك، قال فد شي؟

جاءت نعيمة في تلك اللحظة. تابعت العمة زاهدة:

ـ اللي غاثني كومة العظام هذي، عبالك ما بيها لحم، كأنها خراعة زرع!

تبادلت الأم وابنتها نظرات الاستغراب والتساؤل، فقد بدت زكية هذا اليوم أجمل وأرَقّ من أي يوم سابق. سألت نعيمة:

ـ عمة، على من تحچين؟

ردت بطريقة ساخرة، ولا تخلو من قسوة:

ـ احچي على بنيّة بذاك الصوب. . .
وبعد قليل وكأنها توجه اللوم إلى أم قدوري:
ـ لو رحنا ذاك اليوم سنطة، بليا زفة وطبل، چان شفناها مثل ما خلقها الله، وچان ما أكلنا أصابعنا ندامة!
ـ يا معودة، حجية، شنو هذا الحچي، قابل نحن رايدين نشتري مايشة؟
ـ وقابل ولِدنا يتزوجون جلد وعظم؟
قالت نعيمة، ولم يخل كلامها من مزاح:
ـ عمة، خاف ما شفتيها زين، ويجوز الكحل بالعين يسوي غباش!
ـ قولي عليّ عمية، مو هذا اللي تريدين تقولينه؟
ـ لخاطر الله، عمة، لا تصيرين عصبية، وآني ينقطع لساني إذا ردت أقول فد شي مو زين.
قالت أم قدوري لتحسم الأمر:
ـ بدري، لمن شافها، طار عقله بيها، وهذا بدري اسأليه!
ـ آني ما عليّ، وباچر راح تاكلون أصابعكم ندامة! قالت العمة زاهدة.
بعد كلمات العمة، وقد حرصت أم قدوري على إبقائها ضمن هذه الحدود، لئلا يلتهب الجو، فقد انداح جرح كلما برأ ينفتح من جديد، كما حصل في مرات كثيرة سابقة، بسبب التحدي المتبادل بين المرأتين، لكن دواعي السفر، وجو الفرح، جعل أم قدوري تنصرف بكل طاقتها إلى تأمين مستلزمات بدري، وتهرب من الخصومة التي تريد العمة فرضها، قالت لها، وهي تنسحب:
ـ لا تديرين بال حجية، لأن القلب إذا حَب، حُقة لحم زايدة. . ناقصة ما تغيّر فد شي!
هزّت الحجية رأسها، وقالت كأنها تكلّم نفسها:
ـ بآخر الليل تسمعين العياط!
سيفو الذي ودع بدري، مع آخرين، في قهوة الشط، جاء مرة أخرى

إلى بيت الحاج صالح العلو. قال، وهو يداري خجله لهذه الزيارة:

- شفت ضوّكم، وسمعت الصوت، فقلت لروحي: الجماعة بعدهم يتعللون. . .

وبعد قليل، في محاولة للتبرير:

- وآني ما جايني نوم، قلت أمر بيكم، أقعد وياكم شوية، وبعدها نقول لبدري في أمان الله، ونمشي.

وسهر سيفو، وطالت سهرته. ورغم أن لديه الكثير ليقوله، خاصة لبدري، إلا إنه لم يتكلم تلك الليلة إلا القليل. حتى إجاباته على الأسئلة التي توجه إليه كانت سريعة مختصرة. ولم يغادر سيفو إلا بعد أن طلبت أم قدوري من ابنها ان يغفو ساعة، ليكون نشيطاً في اليوم التالي، يوم السفر.

وفي الصباح الباكر، حين أزف سفر بدري، كان سيفو ضمن المودعين أيضاً. قال له الحاج صالح مداعباً، وقد قدر انه لم ينم إلا قليلاً:

- صاير مثل السمچ، يا أبو فلاح، تنام وعيونك مفتحة!

- لاحقين على النوم، حجي، لا تدير بال!

قال بدري ليواصل المداعبة:

- قومة أبو فلاح من غبشة زكاة، لأنه يريد يقعّد الملاّ حمادي، خاف تروح عليه نومة، وينسى الأذان!

رد سيفو ساخراً:

- لا تخاف يكون قعد، هذي مصلحة، والأذان شغل!

وسافر بدري، عائداً إلى كركوك.

72

طوال أيام الرحلة إلى كركوك، كان طيف زكية لا يفارقه: بشرة هي خليط من البياض ولون القمح الناضج، شعّت فجأة تحت شجرة النبق في عتمة أول المساء. أما الابتسامة التي لفتت نظره منذ سنين عديدة فلا تزال هي نفسها، وإن شابها قليل من الإرتباك. وحين تتسع تلك الابتسامة تشف عن صفين من الأسنان المنتظمة البيضاء، والجميلة أيضاً. أما الطول فكان أبرز ما يلفت إليها النظر، خاصة في مثل هذا العمر، إذ تبدو وقد غادرت سنوات الصبا الأولى على عجل، لكن لم تدلف بعد إلى اكتمال الأنوثة، مما يجعل الكثيرين يعتبرونها أميل إلى النحافة.

كانت هذه الملامح تتراءى له، لكن لا تلبث أن تتشوش وتتداخل، ثم سرعان ما تغيب، لتحل مكانها، في مسامه، ثم في ذاكرته، رائحتها. وها هي الرائحة تتكرر الآن، خاصة أثناء عبور الأماكن الظليلة، أو حين التوقف على ضفاف ديالى، أو قرب أحد العيون. فتلك الرائحة الفواحة، وهي مزيج من النعناع والقداح والفلفل، وقد تداخلت مع الورد وحب الهال، واختلطت أيضاً بما يماثل رائحة العشب بعد المطر، تعاوده مرة بعد مرة.

تحت شجرة النبق، كان الهواء إذا تحرك قليلاً، خاصة حين تدير زكية المروحة التي بيدها، وقد فعلت ذلك مراراً وبتعمد، كان يندفع نحوه شذى مسكر، فيشعر أن في داخله شيئاً يتفتح، ينتعش، وكأنه يصرخ: «إذا تعذر أن نبقى معاً منذ هذه اللحظة، فلتبق معك، لترافقك رائحة البشرة الخصبة وشذى الانثى المولهة!»

وتذكر بدري كيف أن أمه إذا طلبت شيئاً من مسافر، أو أوصت مسافراً على شيء، فغالباً ما يكون له علاقة بما يجعل رائحة الإنسان، أو طعامه، وحتى المكان الذي يقيم فيه، فواحاً زكياً، أكثر من حرصها على الأشياء الثمينة، وهذا ما كان يدفعها لأن توصي على نباتات وخلائط لتضاف إلى الطعام، أو إلى مياه الغسيل، أو لتكون، في بعض الأحيان، دواء أو حرزاً، الأمر الذي يجعلها في مواسم الورد والقداح والياسمين وبعض النباتات الأخرى، تبذل جهوداً كبيرة من أجل صنع الأشربة واستخلاص العطور، حتى أصبح يقال إن بيت الحاج صالح العلو يُعرف، حتى للغريب الذي لم يصل إليه من قبل، من الرائحة الزكية التي تنبعث من جنباته، نظراً لكثرة الأزهار والرياحين، وعطرها الذي يمتد إلى مسافات.

وهذا ما كان يجعل الحاج صالح يضيق بالأماكن المغلقة، وما يدفعه، حتى في أيام الشتاء الباردة، إلى الاغتسال يومياً، وإلى ترك النوافذ مفتوحة خلال النهار. ولهذا السبب كان الحاج صالح يفضل الصلاة في بيته، أو في أماكن مفتوحة، مما ولّد نوعاً من الجفاء بينه وبين الملاّ حمادي. كما جعله يشعر بالمرارة، وبشيء من الغضب، حين ترك سيفو المهنة، وإلى أن تـ العثور على سقا آخر.

كان الحاج صالح يعتبر أن الكثيرين يميلون إلى «غسل العصافير» أو طريقة البدو في الاستحمام، إذ يكتفون بصب الماء على رؤوسهم، أو يخوّضون في مياه النهر، ويحتالون على الروائح التي تنزّ من أجسادهم بالعطور، بدل غسل تلك الأجساد جيداً وتعريضها للهواء.

وسط هذا الجو تكونت عادات ونمت طقوس في أسرة الحاج صالح العلو، وأصبحت من الصفات التي تميز أفرادها، وحتى الأصدقاء، وان بمقادير متفاوتة.

الآن، وبدري يواصل الرحلة إلى كركوك، يحمل أطياف زكية، لكن يحمل أكثر من الأطياف الرائحة التي تعشقته، تسربت إلى مسامه وملأته. وإذا لم يستطع، خجلاً، أن يدقق بملامح زكية، أن يمسحها بنظرات

فاحصة مكتشفة، فقد امتلأ بذلك الشذى الذي هفَّ حين كانت مقبلة لتسلم عليه وعلى أبيه، ثم أخذ هذا الشذى يتكاثف ويعبق، وها قد أصبح زوادته في هذا السفر!

ولأن الرحلة طويلة وحافلة بالمشقة، وقد تخللتها محطات كثيرة يمكن أن تتيح فرصاً لأحاديث طويلة متشعبة، إلا أن التعب، إضافة إلى الحر، كانا من الشدة إلى درجة أصبح الصمت سيداً، وجعل رفاق السفر لا يتبادلون إلا أقل الكلمات، كما دفعهم لأن يغرقوا في النوم باكراً، استعداداً لمشاق اليوم التالي، وهذا ما حمل بدري على أن يرحل في أيامه الماضية، وأن يبحر إلى المستقبل أيضاً!

وإذا كان الماضي، بالنسبة لأي إنسان، عزيزاً، ويعني له الكثير، وقد يعجب مما حصل له فيه، خاصة المواقف التي اتخذها، والقناعات التي دفعته لاتخاذها، فان حجم الحماقة، وربما الجنون، في هذه المواقف يجعله يتساءل من جديد عما إذا كان مستعداً الآن لمثلها، أو لما هو أقل!

يتذكر بدري الرسائل التي حملها من الباشا إلى الآخرين، كيف تحدث معهم وهو ينقل تلك الرسائل. وكيف أكد على التعليمات، وبالكلمات نفسها التي قالها الباشا، فهل يستطيع الآن أن ينظر إلى عيونهم بنفس الطريقة؟ أن يردد ذات الكلمات؟ والمشاعر التي كانت تسيطر عليه وهو يقوم بذلك، هل كانت نابعة من داخله أم ملتصقة به مثل الغبار الذي تخلفه حوافر الخيول حين يمتطيها في مهمات عاجلة؟

يتذكر الآن ابتسامات سيد عليوي، بعد أن يتبلغ رسالة من رسائل الباشا وتعليماته، كانت مزيجاً من الامتثال والسخرية والكره معاً، فهل يجرؤ، بوضعه الراهن، أن ينظر إلى عيني سيد عليوي، أو الكيخيا، أو حتى من هم أدنى منهم، دون أن يشعر بالرهبة، ويتحسب لردود أفعالهم؟ قال لنفسه: «الإنسان جريء بمقدار القوة التي تقف وراءه، والباشا حين طلب إليّ نقل الرسائل، كان يريد أن يُسمع صوته، أن تصل كلماته ذاتها، كي يشعر من يستلمها، من تصل إليه، ماذا تعني ومن هو الباشا!»

أما وهو يستعيد صور كبار الضباط والموظفين، حين يصلون إلى السراي، وهم ينتظرون في غرفة سيد خلف، إلى أن يحين الوقت ليستقبلهم الباشا، وكيف كانوا يبدون رقة متناهية في التعامل، في الكلام، ويظهرون ميلاً مفرطاً للحديث، كي يؤكدوا لصغار موظفي السراي مدى الطيبة التي تملؤهم، ويتصرفون بتواضع لا يتناسب والرتب التي يحملونها، ثم كيف رآهم في مواقع عملهم، في الثكنات والدواوين، وقد أصبحو بشراً من نمط آخر. قال لنفسه ورأسه يهتز بحزن، وكان يلكز البغل «ناس الحكومة، كما يقول الحاج صالح، مثل بعضهم، والواحد منهم يعرف اللاخ على البطانة؛ أو مثل ما يقول ربعنا: حرامي الهوش يعرف حرامي الدواب، وواحدهم كأنه الثاني مثل أسنان المشط».

وما دامت الرحلة طويلة ومستمرة، فإن بدري يتذكر أشياء كثيرة، خاصة وأنه سبق له سلوك هذا الطريق برفقة داود باشا، وقضى في المحطات ليالي شديدة الحلكة، مليئة بالمخاوف.

كان الجو، في تلك الليالي، شديد التقلب، مليئاً بالمفاجآت. وتبعاً لذلك كان يتغير المزاج ومعه السلوك. وحتى السحنة كانت تتغير. فمع وصول الرسل والبريد من بغداد، من اسطنبول، أو حتى من القبائل في الجبال أو عند أطراف بغداد، يسيطر جو من الصمت والتكتم، إلى أن تتسرب بعض الأسرار والأخبار، فيتغير مزاج الرجال، وتتغير ردود أفعالهم، ويظهر ذلك حتى لو أرادوا التكتم أو التظاهر بشكل مختلف... عدا الباشا.

كان داود باشا قادراً وبارعاً في إخفاء عواطفه، وفي إخفاء الكثير من الأخبار التي لا يريد لها أن تظهر أو أن تنتشر. وكان قادراً أيضاً على أن يبث في رجاله العزم وقوة الإرادة. كما لا ينسى لحظة واحدة ما يريد، وكيف يقنع كل الذين حوله بضرورة الترفع عن الأشياء الصغيرة، ونسيان الخصومات. يفعل ذلك بأساليب لا حصر لها، وحسب الشخص أو الطرف المقابل.

يتذكر بدري كيف أن الباشا أنّب وقسا على خادمه فيروز حين أبلغه أن طباخه الخاص، مصطفى الأردبلي، كذب حول عدد الخراف التي ذبحها،

أنها تنقص ثلاثة رؤوس عما ادعاه. قال له الباشا بعتاب لا يخلو من
دة: «يجوز، بزيادة مراقبة الغنم، نوفر كم راس، لكن الراس الكبير
كون في خطر» ولما أبدى فيروز استغرابه، ولم يفهم ما قصد إليه الباشا،
د عليه بحنق، وكان يشير إلى رأسه: «روحنا بإيده، وآني، بأكلي، عبده،
فاتركنا من هذي المكسرات: خروف زايد، خروف ناقص».

أما المبالغ التي كان يدفعها الباشا بسخاء، حين كان في الشمال، لرؤساء القبائل، للقادة، للذين ينضمون إليه، فأصبح يجمع الآن أضعاف أضعافها، ليس من الذين دفع إليهم، وإنما من القادرين على الدفع، من الذين يجب أن يدفعوا في المرحلة الجديدة!

قال بدري لنفسه: «يختلف الباشا عن التجار، لأن المال بالنسبة له وسيلة للسيطرة، إذ يمكن عن طريقه استمالة الآخرين أو حتى إخضاعهم. أما التجار فانهم أقل شجاعة من الباشا بكثير، لأنهم يفرحون إذا كنزوا الأموال، وبودهم ألا تغيب عن أنظارهم لحظة واحدة، وحين تذهب إلى غيرهم يستبد بهم حزن لا يستطيعون إخفاءه أو مقاومته!»

ومثل رشق أمطار الشمال، كانت الأفكار والصور والذكريات تتوالى في ذهن بدري، فلا يعرف كيف يرتب الأمور، أو يجعل لها نسقاً وسياقاً، بل وشعر انه ليس بحاجة إلى ذلك، المهم أن تنقضي الساعات، وأن يقطع هذا الطريق الطويل الشاق لكي يصل إلى كركوك، ويبدأ بترتيب حياته الجديدة.

والفكرة التي طالما استبعدها، بل وحاربها، وهي أن يترك العسكرية، ويعود إلى مهنة العائلة، ورغم أن أباه لم يتطرق للموضوع في هذه الزيارة، ربما متعمداً، كي «يورطه» أولاً في الزواج، الذي كان يرفضه من خلال التأجيل، أخذت تتراءى له الفكرة الآن أقل سوءاً مما افترض في البداية، وإلا كيف يفسر العقوبة التي يواجهها الآن في كركوك؟

لقد عامله الباشا بقسوة بالغة، ولعل أكثر ما آلمه الطريقة التي خاطبه بها: كان صامتاً أول الأمر، ثم حين تكلم كان يدير إليه ظهره، وظل كذلك فترة غير قصيرة. حتى الكلمات الأخيرة التي قالها، ليطيب خاطره،

جرحته أكثر مما واسته، تماماً كما يفعل الملاّ وهو يعلم الأطفال في الجامع، إذ لا بد أن يضربهم، أن يؤلمهم، كي يعرف الأهل مدى حرصه، ومن أجل أن يأخذ الأطفال الآخرون درساً!

لماذا نسي الباشا خدماته السابقة وتضحياته، ولم يتذكر إلا تلك الزيارة لروجينا، والتي لم تحمل أي معنى يضرّ الباشا أو يسيء إليه؟

قال بدري لنفسه، وقد امتلأ بالمرارة: «الباشا لا يعرف إلا الساعة التي يعيش فيها، وحدها تعنيه، أما الماضي فيأتي ويغيب بقدر ما يخدم اليوم والغد، ولذلك يجب الا يخطىء من يعمل مع الباشا. أما الباشا نفسه فيمكن أن يفعل أي شيء، وكيفما يريد، دون أن يُسأل، دون أن يلام».

وحين تذكر جماعة السراي، وأنه لم يزر أحداً منهم، كما لم يدع أي واحد لحفلة عقد القران، شعر بالندم، رغم أن سيفو ذكّره عدة مرات، وعلى شكل سؤال، ما إذا نسي أحداً أو يُفترض دعوة أحد، وأبدى استعداده للعبور إلى الضفة الأخرى من أجل هذه المهمة، لكن المرارة التي أحس بها، ليس فقط تجاه الباشا، بل وتجاه رجال السراي، حيث لم يسأل عنه أحد، جعلته يتناسى متعمداً دعوة أي منهم. قال وهو يلكز البغل، الذي بدا رتيباً إلى درجة الإملال: «صحيح أن زلمة الباشا باشا، لكن الناس في السراي مثل باقي الأوادم».

وإذا كانت رياح الماضي، والذكريات، حملته بعيداً، فان الخوف من المستقبل، أو بالأحرى ما يجب عليه أن يفعله ليواجه هذا المستقبل، لم يغب عن باله، فهو، الآن، شخص مختلف، فما أن تلتحق به زكية سيصبح مسؤولاً عن عائلة، وبعد سنة سيصبح أباً، وقد لا تمر بضع سنين حتى تكبر العائلة، ولا يعرف هل يبقى في العسكرية أم يجب أن يفكر بعمل آخر، ثم إلى متى سيبقى في كركوك؟ وحتى لو نُقل إلى مكان ثانٍ، ورقي إلى رتبة أعلى، هل يطيق أن يبقى بعيداً عن بغداد، عن صوب الكرخ وقهوة الشط والشيخ صندل؟ وماذا إذا عاد إلى السراي، هل يستطيع أن ينسى الإساءة والعقوبة؟ وسيد عليوي، الذي لا يعرف حقيقة عواطفه

موقفه، هل يرضى عنه؟ وحامد لماذا يعامله بهذه الطريقة، وماذا يريد منه؟

حتى المناقشات حول بساتين الحاج نعمان المتولي، وطريقة نعيم وهو يوجه اللوم، لأنها لم تُدر بالطريقة المناسبة، هل يمكن أن يصبح بديلاً للحاج نعمان في الإشراف، أو إدارة ما تبقى منها، لكي يثبت لنعيم، للآخرين، إنه قادر أن يكون مثلهم في التجارة وجمع المال؟

وإذا فشل؟ وإذا غرق الزرع، كما قال أبوه، وتراكمت الديون، وجاء أصحاب تلك الديون ليطالبوا، لينتزعوا البساتين واحداً بعد آخر، هل يحتمل مثل الكلمات التي قالها أخوه؟ هل يكتفي بالتفسير والتبرير كما يفعل أغلب التجار حين يخسرون؟ وماذا إذا لم يوافقه الحاج نعمان، من البداية، على أن يسلمه الإدارة، هل يطلب من زكية أن تترجى أباها، أن تبكي وتعطي الوعود؟ وهل الحاج نعمان حر التصرف أم عليه التشاور مع أولاده؟ وهل يقبل هؤلاء أن يأتي غريب لينافسهم، ليزاحمهم، ثم ليصبح سيداً عليهم؟

ابتسم وقال لنفسه: «يجوز من حسن الحظ ان البساتين راحت قبل الزواج، وهذا معناه ان اعتمد على نفسي، لا على اب أو على عم».

أما لو امتثل لرأي أبيه، واختار مكاناً إلى جانبه في العلوة، فهل يقوى على المساومات الصغيرة، وتلك العمليات المليئة بالدهاء والمكر، كما يفعل أخوه نعيم؟ ولماذا نفر من هذا الجو منذ وقت مبكر، وهرب إلى الرياضة أول الأمر ثم إلى العسكرية؟ وأخوته الذين صمتوا حين كان الأب يحاول إقناعه بأن لا يذهب إلى المدرسة العسكرية، ثم تظاهروا انهم لم يروا ولم يسمعوا بالمحاولات التي تبذلها الأم، بتحريض من الأب، لحمله على ترك العسكرية، وأن العمل والمكان جاهزان لاستقباله، هل كان صمت الأخوة سيستمر لولا رفضه وعناده، وتأكدهم أن التجارة لا تستهويه، وبالتالي لن يزاحمهم؟

لقد مرت هذه الصور، وغيرها الكثير، في ذهنه، وكان يشعر انه غير مضطر لاتخاذ قرار، على الأقل الآن، وأن العسكرية، رغم المشقة، يمكن

أن تكون صيغة لحياته، كما هو حال الكثيرين من زملائه، خاصة وأن المهنة يمكن أن تتيح له فرصاً ليصبح ملاكاً أيضاً، وقد تفتح له آفاقاً، كما حصل لعدد من كبار الضباط.

قال لنفسه، في محاولة لأن يرجىء إتخاذ أي قرار: «ما نريد نشتري المعلف قبل الحصان» وحين تطلع إلى البغل الذي يركبه ابتسم. كان البغل يمشي بخطوات قوية، ثابتة، ومن ينظر إليه يظن أنه حصان، فشعْر الرقبة مقصوص بمعرفة تدل على مدى العناية التي كان يوليها له مالكه السابق. وتذكر كيف اشتراه له نعيم. قال له، بدعابة:

- أنت اللي يقرر: بعد ما تركبه، تريد تبقّيه أو تبيعه..

ابتسم، وهو ينظر إليه بتحديد:

- نعرف أمه، أما أبوه فالله أعلم...

هز رأسه أكثر من مرة وأضاف:

- وراح تتأكد أن الأم تعرف شلون تخلّف. وجماعة الجبل يفضلون البغال، أما جماعتنا هنا، فالواحد ما يهمّه إلا الاسم، إلا المظهر!

وقال له قدوري ليزيل أي شعور بالغضاضة:

- وبعدين، أنت راح تمشي الغبشة، وماكو أحد راح يشوفك ويسأل: حصان لو كديش؟ وأن ابن صالح العلو راكب الصبحة أو بغل أبو بابين!

ولئلا تتولد أية أحاديث في قهوة الشط، وتصبح مجالاً للتندر، سواء لعائلة الحاج صالح العلو، أو للعريس، أودع البغل في الليلة الأخيرة في بقجة مجودي أبو اللبن، وأُتي به في الصباح الباكر. وفضل بدري أن يمشي إلى الجرف، وأن يركب قفة مستقلة، على أن يُحمل البغل بمركب آخر، وعند الباب الشرقي، وعلى ضوء «خيول» القافلة، يقرر بدري ما إذا سيركب البغل الذي تم شراؤه، أم يختار واحداً من «خيول» القافلة، والتي لم تكن تختلف عن هذا البغل إلا بالتسمية.

في الباب الشرقي، بعد أن قلّب الخيول، فضل أن يمتطي البغل الذي غُسل جيداً في النهر، وكلف قدوري من اختار له سرجاً جميلاً ومريحاً،

وأكد نعيم أن من يبيعه في كركوك لا بد أن يربح الضعف!

وتذكر بدري قول أبيه:

ـ وأنت، يا ابني، لا تخاف، ولا تدير بال: تريد تكرب أكرب على ثور، وإذا تريد تحارب فلازم تعرف المهرة اللي جواك، أما السفر فينراد له رهوان، والواحد، ابد، ما يخلص من كلام الناس!

حين بدت كركوك في الأفق، قال رئيس القافلة، كاكا محمود، لبدري:

ـ هذي كركوك، أغا!

ـ أي نعم، وصلنا.

ـ وأنت، بس، كركوك؟

ـ أي نعم، شنو نسيت؟

ـ والحصان؟

ـ شبيه الحصان؟

ـ خوش حصان!

ـ أي نعم، وأنت شفته بعينك!

ـ تبيعه؟

ـ هذا صار صاحب، حملني من هناك لهنا، شلون أبيعه؟

ـ إذا تبيعه آني يشتري!

ـ وآني، إذا أريد أشتري منك الحصان اللي تركبه، بيش تبيعه؟

ـ آني ما يبيع!

ـ أنت بس تشتري؟

ـ أي نعم!

ـ آني أريد أرجع بغداد، وأريد الحصان يبقى وياي!

ـ إذا يريد يرجع بغداد آني، كاكا محمود، ياخذك.

ـ بس هذا خوش حصان، وأريد أرجع عليه!

ـ آني إذا اشتريت ما أبيع هذا الحصان، وأنت ترجع عليه!

بعد مفاوضات لم تطل كثيراً، وقد تخللتها المداعبات والوعود، وأيضاً

حساب ثمن العلف، ثم تقدير قيمة السرج، تم الاتفاق على أن يشتري الكاكا محمود البغل، وقد ربح بدري ليرة ذهبية زيادة عن ثمن شرائه، وتنازل عن نصف قيمة السرج. مع وعد أن يكون له الخيار في أن يشتريه مرة أخرى، إذا عاد إلى بغداد!

أما حين اقتربت كركوك أكثر، وأصبحت القافلة على مشارفها، فقد قرر بدري أن يستريح في القهوة المطلة على القلعة، على أن تواصل القافلة مسيرها، مارة بالثكنة، وإبلاغ حامد أو رمزي، أو أي ضابط مناوب، أن بدري في القهوة وضرورة إرسال حصان أو عربة كي تحمله من هناك إلى القلعة.

والكاكا محمود الذي كان فرحاً للصفقة التي أنجزها، وكان شديد الاحتفال بهذا البغل طوال الطريق، إذ كان يراقبه ويختبره، لم يتأخر في إبلاغ ضباط الثكنة بوجود «ضابط كبير في القهوة، بانتظار عربة القيادة».

أما وهو يودع بدري، وكان يشد على يده بحرارة، فقد سأله:

- أغا.. شوكت ترجع لبغداد؟

ولأن بدري لا يعرف متى سيعود، فقد رد عليه بمداعبة:

- انت.. كاكا، شوكت ترجع لبغداد؟

- آني أرجع بعد شهر، مثل هذا الوقت، بس يصير القمر بدر بالسما!

قال له بدري بحزن:

- آني راح أتأخر...

وبعد قليل، وقد تغيرت النبرة:

- وإذا ردتك وين ألقاك، كاكا؟

- اسأل بالسوق وين الكاكا محمود مراد. بالسوق يعرفون وين أكون!

وهكذا عاد بدري إلى كركوك بعد أن أنجز مهمة تأخرت كثيراً: أن يجد شريكة لحياته، وقد وجدها، وأنجز مهمة أخرى: حقق أول ربح تجاري في حياته!

وبدأ يعد الأيام والليالي انتظاراً لوصول زكية!

73

المرارة التي استبدت بالآغا، وصلت إلى درجة الحقد، بعدما تأكد أن نقله إلى الشمال كان بداية للتخلص منه، وإبعاد خطره عن بغداد، عن الوالي تحديداً، لم يخفف من هذه المرارة إلا وجود رجاله حواليه، فما دامت قواه لم تُمس، وهي معه، ورهن إشارته، سيعرف كيف يرد في الوقت المناسب، وكيف ينتقم. كان ينتظر اللحظة المواتية، الحجة التي تمكّنه من الزحف على بغداد وتلقين الوالي درساً جديداً. ولا بد أن يكرر صيغة الزحف السابق، ومثلما انقضّ على سعيد سينقض من جديد على داود، هذا الرجل الماكر الذي استغله وضلله، وبعد أن استعان به لاسقاط سعيد، ها هو الآن يتخلى عنه!

صحيح أن داود، وهو يكلفه بشؤون الشمال، قال كلمات كبيرة. امتدحه حين تحدث معه على انفراد. وهو يتحدث في الحفلة الكبيرة التي أقامها له في السراي، قبل أن يتحرك بأيام.

لكن ما فائدة المدائح والكلمات الكبيرة إذا تحولت إلى عقوبة، إلى منفى؟ وهل تتوفر ظروف مثل تلك التي مكنته وداود من هزيمة سعيد؟ وسعيد وداود.. هل هما متشابهان؟ من طينة واحدة؟ وإذا كان سعيد، وابن الزنا، حمادي، قد هيآ الظروف من أجل أن ينقض الخصوم عليهم، وأن يتكون ذلك الإجماع، هل يعطي داود الفرصة ويخلق ظروفاً مشابهة؟ وأهل بغداد... لماذا ينامون فترة طويلة ثم يصحون فجأة؟ إنهم بشر من طينة خاصة، يتحملون كثيراً، يتظاهرون أنهم لا يسمعون ولا يرون ما

يجري حولهم. بل أكثر من ذلك تبدو عليهم اللامبالاة وهم يمارسون حياتهم كل يوم، وفجأة يتحولون إلى مجموعات من الوحوش، وحوش لا ترويها إلا الدماء، لماذا سكتوا وغابوا طوال الفترة الماضية؟

كانت مثل هذه الأسئلة تراود الآغا، تخطر بباله عندما يسمع أن بغداد تنام وتستيقظ دون أن يخطر لأي واحد فيها أن يقول لا، أن يرفع صوته، حتى ولو في لحظة غضب، لكي يشتم داود، كما كان يُشتم سعيد. كان ينقل له رجاله أن الحياة عادية، هادئة، رغم الضرائب الجديدة التي فرضها داود. وأن الناس يتسابقون عصر الخميس ويوم الجمعة إلى مراقبة صراع الديكة وسباق الخيل، وإنهم يتراهنون وينفعلون، ولا يتردد الذين يخسرون في شتم الذين يربحون، ويتوعدونهم أن تكون الأمور مختلفة في الخميس القادم، في الجمعة التي ستأتي. وحين تنقضي هذه الأيام يعودون إلى حياتهم العادية. يتراكضون في الأسواق، يبيعون ويشترون، يخسرون ويربحون، لكن كل ذلك يجري بهدوء، دون شكوى، أو بشكايات صغيرة حول التأخر في سداد دين أو عدم توريد البضاعة في الموعد المتفق عليه. وما أن تنقضي مثل هذه الأمور حتى يعود الناس إلى المقاهي إلى الغناء، إلى الهموم الصغيرة.

أحس الآغا بغصة لأنه غرق في القلعة، وبين الثكنات، وترك بغداد لغيره. لو أنه وثَّق علاقاته بالمخاتير، بالشقاوات، بالذين يحملون الأعلام ويصيحون، لأخذت الأمور شكلاً آخر. كان داود لا ينسى أحداً من هؤلاء: يجتمع بهم، يدفع لهم، يبعث برجاله لكي يسأل عن أحوالهم، ولذلك كانوا سنداً له حين تقدمت القوات لحصار بغداد. كان هؤلاء مثل القنوات التي تسير فيها المياه. إذ رغم أن لكل منهم مكانه، طريقته في العمل، فانه يعرف كيف يخاطب رجاله، كيف يحرضهم. لقد فاته هذا الأمر. اهتم الآغا بالشيوخ والآغوات، اعتبرهم القوة التي يمكن أن تعينه حين يحتاج إليها. لكن الشيوخ والآغوات، وربما لم يصيروا كذلك إلا لأنهم يعرفون كيف يغيبون في الوقت المناسب! ومتى عليهم أن يظهروا من

جديد! وحتى غيابهم أو ظهورهم فانه يرتبط بأسباب مقنعة لهم وللذين حولهم: «دفعنا دماءنا وبخلوا علينا بكم فلس». «طلبنا فلم يسمعوا ولم يستجيبوا، فكيف نحارب معهم؟».

لا حاجة للندم، فالناس سريعو التغير، وهم دائماً مع القوي، مع الذي يدفع، ولن يكون داود أكثر مهارة من غيره، أو أقدر. المهم اختيار الوقت المناسب ليتحرك، وسوف يعرف كيف يحرّك الناس.

كان الآغا شديد الثقة. بل أكثر من ذلك، كان يعتبر أنه هو الذي حقق النصر لدواد، وهو الذي فتح بغداد، جعل المدينة والناس تتحول بين يوم وآخر، ولا بد أن يفعل ذلك مرة أخرى، لكن هذه المرة لنفسه. لن يكون أداة لأحد، لن يتوارى أو يتواضع لكي يقطف النصر غيره. فما دام رجاله حوله، وما دام الشمال معه، سيعرف كيف يرغم داود على التسليم. سوف يحاصر بغداد مرة أخرى، سوف يمنع عنها المؤن ويمنع التجار من الخروج. وحين يجوع الناس سيصرخون. حتى داود الذي نسب النصر لنفسه، ما كان ليستطيع أن يدخل بغداد إلا بعد حصار طويل. وخلال ذلك الحصار ضج الناس وارتفعت الشكوى، ثم انفجرت الشتائم، تلتها الطبول والأعلام بعد ذلك. الإنسان لا يصرخ إلا إذا ضُرب، إذا جاع، ومفاتيح بغداد بحزامه. لن يرحم ولن يخاف. فقط ينتظر الوقت المناسب. ولا بد أن يحين هذا الوقت، وأقرب مما يتصور الكثيرون. المهم أن يحتفظ برجاله، أن يكسب ولاء الشمال. أن يبقى الآغوات معه.

وسط التفكير والهموم، وانتظار الوقت المناسب لإعلان التمرد والعصيان على داود، جاءت فجأة روجينا، جاءت وهي تحمل رسالتين. واحدة كتبها مترجم القنصلية، بطرس يعقوب، والثانية نقلتها إليه شفوياً، وعلى مراحل!

رسالة بطرس مليئة بالألقاب والجمل الفخمة، ولم يستطع أن يفهم منها الآغا سوى أن القنصل افتقده بعد أن غادر بغداد، وكان بوده لو انه باق، لأن الباشا «رجل صعب ولا يمكن التفاهم معه، خاصة بعد أن غادر

الأصدقاء». ويسميه هو تحديداً. وذكر بطرس يعقوب أن القنصل يحتفظ له بذكريات طيبة، «وإنه رهن الطلب» ولم يفهم ماذا تعني هذه الكلمة، أو ما يريده منه القنصل. ولولا امرأة مثل روجينا تعرف كيف توضح وتسهل الكثير من الأمور، لتعذر عليه أن يفهم أو يفسر مثل تلك الكلمات. قالت له إن الود انقطع بين الباشا والقنصل، وأصبحت العلاقة أقرب إلى الجفاء. وقالت إن القنصل ما كان ليتخلى عن سعيد ويترك خصومه ليفتكوا به لو كان يعلم أن الأمور ستعود كلها لداود.

هكذا كانت بداية الرسالة الشفوية، ثم تبعتها تفاصيل كثيرة: القنصل مستاء من طريقة داود في الحكم والتعامل، فقد توهم أنه أصبح والياً أكبر من الولاة الآخرين، ويريد أن يتشبه بسيده سليمان الكبير، كما يعتبره مثلاً. وإذا كان القنصل استمر بعلاقاته مع السراي خلال الفترة الماضية فلوجود أشخاص مثل الآغا، أما الآن، وبعد أن تنكر داود لكل أصدقائه، لكل الذين ساعدوه، فان القنصل يتطلع إلى الأصدقاء لكي يصححوا الموقف، ولا يجد أكثر جدارة وكفاءة من الآغا. كانت روجينا في بعض الليالي تتكلم بطريقة لا تخلو من دلع، إذ تتعمد أن تكون قريبة جداً من الآغا، وحين لا تكفي الكلمات للتعبير عما تريد، كانت تميل عليه، تنكزه بكتفها كوسيلة إضافية في الإقناع! كانت تفعل ذلك، وهي تقول، ويعلو صوتها:

- ومنو داود لولاك أنت، أنت يا بعد عيني!

ويبتسم الآغا. وهو يتطلع بتحديد إلى عينيها، ليعرف ما إذا كانت تنقل كلمات وأفكار القنصل أم تتكلم باسمها. وحين تجده بعيداً، صامتاً، وابتسامته كأنها تعني امرأة أخرى، شيئاً آخر، تتغير نبرة صوتها. وهي تسأل:

- دي احچي. قول. لخاطر الله!

فيرد بمرح:

- شتدرين أقول يا وردة؟

- فد كلمة منك وكل شي يتغير!

- الكلمة للخاتون، لروجينا الوردة، أم لغيرها؟

ـ بس أنت احچي، والكلمة الحلوة، الكلمة الزينة، من حلقك الحلو، تفتح أبواب السما، تغير الأول والتالي!

يواصلان اللعبة لبعض الوقت، تتمتع روجينا، تحس أن كل خلية في جسدها تغير مكانها، تتحرك، تتفجر، لكن لا تنسى ما تريد. تقول وهي تحتك به بكل جنبها، وتكاد ترتمي عليه:

ـ لو تعرف شقد يحبك ويقدرك القنصل. يقول: لولا الآغا ما چان داود وصل للسراي، وبعدين، ومثل ما يقول أهل بغداد: ذَبّه قشر...

تبتعد قليلاً، فقط لكي تنظر إلى عينيه مباشرة، علّها تستطيع من خلال العينين أن تقول شيئاً إضافياً، وحين تجده مرحاً، تضيف بغنج:

ـ لا تعمل خير شر ما تلقى...

تتغير اللهجة قليلاً:

ـ الله ما يقبلها، والعبد ما يقبل. بدل ما يحطك بعينه، ويقول لك عيني وآغاتي شمرك بآخر تلفات الدنيا، وأنت، لأنك خوش آدمي، وما تريد تؤذي أحد، قاعد وصابر....

وتصبح حادة، أقرب إلى الغضب:

ـ وأنت، وكل واحد يعرف، القريّب والبعيد، منو هو الآغا، وشنو اللي سواه، وشنو اللي يقدر عليه. الناس حايرين: ليش؟ لشوكت؟ وهاي وين صارت عند الله لو عند العبد؟

وتعود إلى النعومة، إلى الدلع:

ـ وآني ووياي القنصل، راح نقول: غسلنا أيدينا وما علينا!

في رسالة بطرس يعقوب يذكر أن الفرس التي أهداها الآغا إلى القنصل، خلّفت، وكان المهر ذكراً جميلاً، وقد تفاءل بولادته جميع المقيمين في الباليوز، لأن قوائمه، الأماميتين، إضافة إلى القائمة اليمين الخلفية، محجلة بالبياض، وقد أطلق عليه القنصل تيمناً: الآغا. ويذكر بطرس أن القنصل ما كان ليطلق على المهر هذا الاسم، خاصة وأنه لم يتم الاستئذان، لولا تفاؤله وتوقعاته بخير كثير خلال الفترة القادمة.

أما روجينا فقالت بصراحة أكبر:

ـ ترى لولا معزّتك، ولخاطر القنصل، چان ما تعنيت وما جيت!

وحين ينظر إليها الآغا بتلك النظرة المتسائلة، تجيب:

ـ آني بكل وقت أحب أشوفك، لأنك تعرف شقد غلاتك عندي، لكن أنت بعيد، وتريد تظل بعيد، وإذا هذي المرة تعنيت وجيت، فما أدري أقدر نوبة ثانية، أو تظل أنت، ونظل نحن واحد بهذا الصوب والثاني بذاك الصوب، وماكو بينا إلا الروج والشرايع مقطوعة.

وفي الليلة قبل الأخيرة، وحين قررت السفر:

ـ ها... شتريدني أقول للجماعة.. قمحة لو شعيرة!

ولما ضحك وعلت ضحكته، أضافت بسرعة:

ـ الله وأكبر أنتم الرجال شقد قلوبكم قاسية، لا ترحمون حالكم ولا ترحمون غيركم!

ـ على كيفك، يا معودة...

وبعد قليل، وبلهجة جديدة:

ـ شنو المطلوب؟ شنو اللي ينراد منا؟

ردت وهي تهز رأسها، وتنظر إلى عينيه بتحديد:

ـ منو يلوق لهذي الفرس غير هذا الخيال؟

ولما رأته بعيداً، وليس لديه الرغبة بالجواب، أضافت:

ـ ياما كثر الليالي والأيام وآني أقول لروحي: يجي يوم ويصير حبيب الروح بالسراي، ووحده الحاكم الناهي!

زفر. كانت زفرته طويلة حارة. نظر إليها. وبدا لها أنه أول مرة يشتهيها، يريدها أو على الأقل يريدها قريبة. أضافت بسخرية:

ـ مربّط أيديك ورجليك وتقول: ربي أرزقني، فشلون تريد الله يرزقك وأنت تدفر النعمة، تهرب منها؟

ـ النعمة ما تندفر، خاتون، لكن ننتظرها حتى تلحق، ما نريدها فطيرة!

ـ دايم الدوم تقول هالشكل، وابد ما وصلنا!

ـ يواش . . يواش، يا معودة، لأن اللي قبالنا ذيب، ينام بعين وحدة.

ـ والناس اللي ينتظرون شتريدنا نقول لهم؟

وبعد قليل وبنبرة جادة ومتفائلة :

ـ وقال لي: بس يقول وشنو اللي يريده منا نحن حاضرين . .

ضحكت كأنثى :

ـ لازم تعرف، وأنت تعرف أحسن من أي واحد خلقه الله: المريّة أبد ما تقول للرجال أريد، لكن الرجال لازم يفتهم، ولازم يكون جسور، وإذا ما كان هالشكل ضاعت عليه وكسر قلب المرية!

قهقهت وهي تنهض، قالت وكانت تلتفت إلى الآغا الذي ظل ملتصقاً بكرسيه :

ـ وعقب باچر ورانا سفر، ولازم اتحضر!

بعد أن سافرت روجينا بدأ الآغا يتحرك، وبدأت أحلامه تكبر وتمتد، ومع الحركة والأحلام أخذ يستعد، لكن كل شيء كان يصل إلى الباشا، عن طريق العيون، عن طريق الحمام الزاجل، ومن بعض أوساط روجينا بالذات!

74

التغير الذي حصل في كركوك، خلال الوقت الذي غابه بدري، لم يقتصر على الطبيعة وحدها، فقد شمل القلعة وضباطها، وسرى إلى المدينة أيضاً.

إذ بعد أن هجم حر شديد أواخر الصيف، «ويزيد عن حر بغداد ويشابه حر البصرة» كما أشار حامد، وهو يعرض لبدري ما جرى خلال غيابه، إلا أن الجو في النصف الثاني من أيلول مال إلى الاعتدال، عدا ساعات الظهيرة، أما ليالي كركوك فكانت شديدة العذوبة، خاصة حين تنحدر النسمات الباردة من جبال الشمال.

«. . . والمواسم كانت زينة». قال حامد، وكان باين الرضا.

وأن تكون المواسم طيبة تعني الكثير، فحركة القبائل، العرب والأكراد، رغم كثافتها واستمرارها، لا تمثل خطراً، كما لا تدفع سكان المدن إلى الخوف أو الامتناع عن التبادل، مثلما يحصل في سنوات القحط أو أثناء وقوع المعارك. وينعكس ذلك أيضاً على القوات العسكرية، سواء في المدينة أو في القطاعات التابعة لها، الأمر الذي جعل الآغا في حالة من الرضى، إذ لم يكن مضطراً لتحريك قواته هنا وهناك، ولم يتكلف من الأعباء إلا القليل، وهذا ما دفعه إلى القيام بزيارات عديدة، ولاستقبال الكثير من الشيوخ والآغوات في كركوك.

وبدري الذي كان يدقق في وجه حامد ويديه، مستغرباً السمرة الزائدة، قال مازحاً:

ـ اللي يباوعك يقول كأن ما عندك فد شي إلا تفتر بالشموس. . .

وبعد قليل، وبما يشبه العتب:

ـ شنو. . شصاير بالدنيا، تترك المي والفي وتتخم من مكان لمكان بهالصيف الجهنم؟

ـ ليش القضية يمنا؟ ما تذكر لما چنت المرافق الأقدم للباشا؟ يقول: امشِ، لازم تمشي. يقول تعال، تقول أمرك سيدي. . .

سحب حامد نفساً عميقاً وأضاف:

ـ والآغا كل يوم والثاني يقول: تحضروا، ونتحضر، ونمشي، ونروح هنا. . وهنا. . .

وابتسم ثم هز رأسه عدة مرات قبل أن يتابع:

ـ ويجوز لو تأخرت شهر أو اثنين كان تلقاني أسود مثل الليل، مو مثل اللي يروحون إجازات، وبأحضان الحبايب ينامون للظهر!

وضحك الاثنان.

ومثلما كان لدى بدري الكثير ليقوله، كان لدى حامد، لكن الاثنين، بحكم طبيعة العمل الذي يمارسانه ـ وان أصبح ذلك جزءاً من الماضي بالنسبة لبدري ـ تعلما الحذر واعتماد الكتمان والإيجاز في الكلام؛ كما اكتسبا الكثير من صفات التواضع في بعض الأحيان، والدماثة في مواجهة الرؤساء وضيوفهم، لكنهم يعرفون كيف يكونون خشنين، أقرب إلى القسوة، في مواجهة آخرين، أو حين يُطلب منهم ذلك!

ورغم أن حامد أبدى الكثير من المرونة والود، وكسر حواجز عديدة، من أجل إقامة علاقات ودية مع بدري، إلا أن صفة الحذر، أو ربما الاختبار، لازمته، ولعل فترة الإجازة، كما قال كل واحد لنفسه، كانت فترة للتأمل، وأيضاً لتحديد نوع العلاقة التي يريدها، وتلائمه أكثر.

بعد أن تبادل الاثنان أخباراً قليلة، وقد كانت بمثابة تمهيد، قال حامد:

ـ شكرت ربي ألف مرة لأنك رحت بإجازة ذاك الشهر!

ولأن بدري اكتفى بابتسامة، وتحصن بالصمت، فقد تابع حامد،

وخرج صوته مختلفاً:

- لأنك لو بقيت هنا يجوز تورطنا. . .

وحين تطلع إليه بدري بتساؤل واستغراب، خاصة وأن كلامه بدا غامضاً، أخذ يوضح:

- بعد سفرك بأسبوع، بعشرة أيام، وكنا توّنا راجعين من كوسينجق جانا الخبر!

لم يستطع بدري أن يواصل لعبة الصمت، سأل بانفعال:

- خبر منو؟ خبر شنو؟

- خبر قتل نجمة!

- شلون يا معوّد؟

وأخذ حامد يروي كيف وُجدت نجمة مقتولة، ولم يعرف، حتى الآن، من قتلها، إذ بعد أن سافر طلعت باقة بمهمة، وما أن مر على سفره يوم وليلة، حتى اكتشفت نجمة غارقة بدمائها، وقد أُرسل وراء طلعت، وأعيد قبل أن يصل إلى المكان الذي كان يقصده، وبعد تحقيقات وسؤال الكثيرين لم يعرف القاتل، كما أن طلعت لم يوجه الاتهام لأحد. ورغم أن القضية انتهت إلا أن الأسئلة لم تنته.

وحين بدا الاستغراب على وجه بدري، أضاف حامد مازحاً، وبسخرية:

- طبيعي آني ما لي علاقة، والمسألة بين الكبار. . .

لم يسم أحداً، لكن إشارة اليد إلى الكتفين أوضحت أنه يقصد عسكريين، وأضاف وكأنه يتذكر:

- صارت بينا، بعدما سافرت، مرحبا، لكن الله ستر. . .

وبعد قليل:

- قلت لروحي: بس يرجع بدري من الإجازة نصيدها سوا. . .

وتغيّرت اللهجة.

- تعرف. . لو چنت هنا يجوز واحدنا شجع اللاخ، دفعه، ويجوز

تورطنا!

ـ ومنو تعتقد ورا قتلها؟

ـ المسألة أعقد من ذنب الضب!

وقف حامد. نظر عبر النافذة. خيم صمت ثقيل. بعد فترة ليست قصيرة جاء صوته:

ـ كل شي جائز، وماكو أحد بريء!

في ليلة أخرى، وحين تطرق الحديث إلى نجمة من جديد، أكد حامد أنه لا يستعبد، حتى طلعت نفسه، لأن الرسول الذي بُعث وراءه، وكان يقدّر أن يجده في جمجمال، وجده في كورة الهجيرة، وحين أبلغ بالأمر لم يبدُ عليه الاستغراب، وكأنه لم يفاجأ. أما مظاهر التأثر التي بدت عليه لاحقاً، فكانت عابرة ومصطنعة.

أما الضباط الآخرون، الذين تعودوا السهر عند طلعت فلا يمكن اعتبارهم أبرياء، إذ لم يكن أي منهم يخفي اشتهاءه لتلك المرأة، وبالغ بعضهم في مغازلتها، لكن بصوت عالٍ وأمام الآخرين، خاصةً أمام طلعت بك، لكي يثبت له أن هذا أقصى ما يريده، ويكتفي به، امتثالاً للعرف السائد في علاقات من هذا النوع، إذ ما دام كل شيء علنياً، فلا يُخشى أن يتم تجاوزه ما بقيت تلك المرأة تعيش تحت سقف «الصاحب» الذي اختارها.

وطلعت بك الذي كان يبالغ بالكرم فيما يقدمه لضيوفه، ويظهر مقداراً غير قليل من التسامح فيما يتعلق بالغزل الصريح، المباشر والعلني، من ضيوفه تجاه «البنية» كما اصطلح على تسميتها، كان يشعر بالغيرة إذا تم تجاوز الأمر حداً معيناً، كما أن عينيه لا تتوقفان عن المراقبة والتدقيق، وان تظاهر انه في مكان آخر، أو مستغرقاً في حديث مع آخرين.

ولأن الخطأ حصل منذ وقت مبكر، حين انتزع طلعت بك نجمة من ثامر المجول، وقد فعل ذلك كنوع من الرهان الأقرب إلى التحدي، وكان يريد أن يثبت للآخرين أن التحدي لا يزال قائما «لأن البنية، ومن أول ليلة

شافتني، قالت: عفت كل الرجال، وأنت الوحيد بقلبي، ولو خيروني الدنيا كلها، برجالها، بذهبها، بكل ما بيها، اختارك أنت» وهذا ما جعل طلعت بك واثقاً، وبعض الأحيان مغروراً إلى درجة التحدي!

واتفق بدري وحامد، أثناء المناقشة، أن هذا النوع من النساء، رغم مظاهر الفرح والطرب، خاصة أمام الآخرين؛ ورغم الجمال وفتون الزينة والمبالغة في إظهار السعادة، فان حزناً قاتماً حاداً، أقرب إلى المرض، يعاودهن بين فترة وأخرى. فإذا جاء هذا الحزن، إذا استبد وسيطر، يمكن أن يفعلن أي شيء، خاصة تجاه الرجل الذي يعتبر رب النعمة، وأنه حقق لهن كل شيء!

وتذكر الاثنان وقائع كثيرة، أغلبها ذات صلة بنجمة أو بنساء يشابهنها. وإذا لم يخف أي منهما اشتهاءها، وتمنى لو انه وصل إليها، إلا أن الاثنين شعرا أن شيئاً في داخل كل منهما انكسر، وكانا أقرب إلى الحزن لغيابها، خاصة وأنه لم يُعرف قاتلها، ولم يُعرف لماذا قتلت!

قال بدري، وقد اختلطت أشياء كثيرة في ذاكرته:

ـ بنيّة، وفقيرة، وحلوة، وتموت أمها يتقرم أبوها، وتكون أكبر الأخوة، وماكو بالبيت فد شي، فشلون تقدر تنزع العظمة من حلق كلب!

تطلع إليه حامد باندهاش وسأل:

ـ يبيّن تعرفها، مسلسلها أباً عن جد؟

ـ وداعتك ما أعرف عنها أي شي، لكن مثلها مثايل. وإذا ما كانت هالشكل تماماً، لا بد فد شي قريب!

قال حامد، وبطريقة استعراضية، وقد وقف ورفع يديه:

ـ دنيا.. كل شي يصير بيها!

وبعد أن مرت فترة من الصمت، وقد سرح كل واحد في عالم، سأل بدري:

ـ... وطبيعي اندفنت هنا؟

ضحك حامد بسخرية، وعلق:

ـ وين تريد تندفن، مولانا؟

وتغير صوته:

ـ إذا الملقن ما عرف شنو اسم أمها، وأبوها ضايع وماكو له أثر، فوين تريدنا ندفنها؟ المن تريدنا نسأل. . . ؟

وبعد قليل وبصوت حزين:

ـ الفقرا والقحاب. . .

توقف قليلاً، وقد تغيرت سحنته، وتابع كأنه يحدث نفسه:

ـ أي نعم، الفقرا والقحاب، وحتى عسكر هالأيام، يموتون سنطة، لا أحد يحس بيهم، ولا أحد يعرف قبورهم!

وإذا كان الكبار والعظماء يشغلون الناس بموتهم، ثم بعد أن يموتوا، فان الفقراء يشغلون بعض الناس بدفنهم، ثم يهبطون بسرعة إلى النسيان، ولا يعود أحد إلى تذكرهم، إلا إذا حدث شيء يذكّر بهم.

هذه القاعدة التي تحكم حياة الناس في أغلب الأماكن، كان لها أن تسري على نجمة أيضاً، لكن تلك المدينة المتوسطة بين مدن عديدة، وظلت محطة للقوافل، وبعض الأحيان الطريق بين بغداد واسطنبول، كان يروق لها أن تستقبل القصص وتنقلها، كما تستقبل المسافرين ثم تودعهم.

فنجمة، من يوم وصولها إلى كركوك، ثم بعد ذلك، ولشهور متعاقبة، أصبحت حديث المقاهي، لما ذُكر عن جمالها أولاً، ثم عن الغموض الذي لفّ حياتها، إذ لا يُعرف إن كانت زوجة لطلعت باقة أو مجرد خليلة، وما إذا كانت له وحده أم يشاركه فيها آخرون، خاصة وأن السهرات التي تعقد في بيته، وكانت تمتد وتطول، وما يتخللها من رقص وغناء، جعلت الكثيرين يتناقلون القصص أو يتخيلونها. كانت تلك القصص، ما إن تغادر المقاهي إلى البيوت، حتى يضاف إليها الكثير، وتتغير وتتبدل، بحيث لم يعد يعرف ما هو حقيقي وما هو من نسج الخيال؛ وما وقع فعلاً، وما يحتمل أن يكون مجرد تقولات أو أكاذيب. وقد تعزز كل ذلك من خلال المكان النائي الذي يقع فيه المنزل، ولأن أية علاقة لم تنشأ بين القادمة

الجديدة وبين أي من نساء كركوك. لم تحاول هي ولم يحاولن، ر
الفضول الذي كان يميز علاقة الطرفين، والرغبة في أن يعرف كل طرو
أخبار الطرف الآخر.

هكذا كانت الحال طوال الشهور التي قضتها نجمة في كركوك. الآن وبعد أن ماتت، أو بالأحرى بعد أن قتلت، لم يعد للمدينة من حديث غيرها. وهكذا تجددت القصص والحكايات مرة أخرى، وتبارى الناس في إيراد التفاصيل، وتحري المعلومات والأخبار، ومن يحتمل أن يكون وراء قتلها، ولماذا قتلت، ومقارنة ما يعرفه، أو ما سمعه، أي واحد في وقت سابق، مع ما يسمع الآن، مع ما يرويه الآخرون. وهكذا انقسم أهل المدينة إلى فريقين، الأول يتعاطف مع نجمة ويدافع عنها، ويعتبرها ضحية، خاصة وأن هذا الفريق يراها مجرد زوجة طلعت بك، ولا تختلف عن أية امرأة أخرى، ويميل إلى تكذيب ما يُروى عن السهرات التي ترقص فيها، أو إمكانية أن تكون لها علاقة بآخرين. أما لماذا قتلت، ومن قتلها، فيميل هذا الفريق إلى اعتبار أن جمالها، ثم فارق السن بينها وبين طلعت، هما السبب أو الدافع للقتل، إذ لا يستبعد أن تكون الغيرة هي التي دفعت الزوج لإرتكاب الجريمة، للشكوك والظنون، خاصة وأن غيابه عن كركوك كان يمتد لأسابيع في بعض السفرات!

أما الفريق الآخر، وكان أكبر عدداً، فقد اعتبر، ومنذ البداية، أن وجود امرأة من هذا النوع كافٍ لتلطيخ سمعة المدينة، وقد يجلب عليها الشؤم، خاصة وأن ذلك توافق مع وصول أعداد كبيرة من الضباط والجنود، وما يحتمل أن يتولد من أخطار وحروب ومجاعات، مما دفع أصحاب الخانات إلى المطالبة ببدل أعلى لقاء إقامة المسافرين، وجاراهم في ذلك التجار والذين وافقوا على تأجير بيوتهم إلى الضباط الذين آثروا السكنى في المدينة بدل البقاء في القلعة أو في الثكنات.

هذا الفريق لم يكتف بترديد القصص التي تروى عن الليالي الماجنة التي كانت تجري في بيت طلعت باقة، بل أضاف إليها الكثير، وأسرف في

إيراد التفاصيل، كما أكد أن الأمر لا يقتصر على هذا الضابط وحده، وتلك المرأة بمفردها، وإنما هناك أشياء كثيرة جرت، وأخرى ستجري، وما مقتل نجمة إلا البداية، لأن القتل جرى بين متنافسين، وبمجرد أن غادر «أبو قرون» المدينة. أما ما سوف تواجهه كركوك في المستقبل فلا يعرف سوى الله كم سيكون خطيراً وثقيلاً، ما لم يتدخل باشا بغداد، خاصة وأن الآغا، وبعد أيام من وقوع الجريمة، وحين سأله مخاتير الحي الشرقي، وقد تعمدوا أن يكون السؤال في سياق الحديث عن بدل إيجار البساتين الثلاثة القريبة من الثكنة الشرقية، والتي تجاور المقبرة تماماً، إذ رد حين سألوه عما إذا كان طلعت بك يريد بناء قبر للمتوفاة:

ـ هذي سالفة ماينحچي بيها يا أولاد الحلال!

ولما بدا لهم الجواب غامضاً، ويحتمل أكثر من تفسير، وقد ظهر ذلك على وجوههم، فقد تابع بحدة:

ـ تحمد ربها، هالخايبة، لأنها لقت مكان تندفن بيه، وبعدين ماكو أحد راح يسأل عنها أو راح يزورها، فليش المصاريف الزايدة؟

وإذا كانت عادة الناس في كركوك أن يتبادلوا مثل هذه القصص فيما بينهم، فقد تعوّدوا أن يسألوا المسافرين أيضاً عن الأشياء التي سمعوا بها أو وقعت لهم، ويكون ذلك سبباً كي يرووا لهم ما لديهم من قصص أو ما وقع في مدينتهم من أحداث، وهكذا حمل المسافرون قصة نجمة. رووها في الطريق، ثم أعادوا روايتها في بغداد.

إن ذلك مجرد حدس أو تقدير، فقبل أن ينقضي شهران على مقتل نجمة وصلت روجينا إلى كركوك، ووصلت أوامر السراي بنقل عدد من أقرب الضباط للآغا إلى بغداد، وكان ضمن هؤلاء طلعت باقة.

قيل إن روجينا جاءت بناء لدعوة من الآغا، وما يؤكد مثل هذا الظن الحفاوة التي أحيطت بها ومن معها من قبل الآغا وضباطه. لكن لم يعرف ما إذا جاءت لتبقى أم إنها مجرد زيارة، فكلا الاحتمالين تؤكده وقائع عديدة. إذ بالإضافة إلى الأحمال التي رافقتها، وكانت كثيرة، فقد هيىء

بيت طلعت باقة على عجل من أجل إقامتها، خاصة وأن طلعت لم يشأ العودة إلى ذلك البيت بعد مقتل نجمة، وقد أمر بعض عناصره بنقل أمتعته الشخصية إلى القلعة، وترك كل شيء على حاله. الآن، والبيت يهيىء، وقد نقلت إليه أشياء إضافية، فقد تأكد الذين راقبوا أو شاركوا بإعداده، أن الذين جاءوا سيقيمون لفترة طويلة!

نقل بعض الخدم أن روجينا أشرفت شخصياً على نقل ممتلكات نجمة إلى غرفة خاصة، أقفلتها بنفسها، ووضعت المفتاح في حقيبة كانت تلازمها باستمرار. ولقد فُسّر الأمر على أكثر من وجه. قيل: حزناً على الراحلة وكل ما يذكّر بها من ثياب وأمتعة. وقيل بسبب التطير الذي يحسه الأحياء تجاه أشياء الموتى، خاصة الذين يمتّون لهم بصلة القرابة أو المحبة، إذ يفضلون عدم رؤيتها أو استعمالها، وهذا ما يفسر الدموع الغزيرة التي ذرفتها روجينا أثناء الزيارة الأولى للبيت الذي كانت تسكن فيه نجمة!

كان لبعض التفسيرات حظ من القبول خلال الأيام الأولى، لكن رئيس القافلة الذي امتنع عن تحديد صفة روجينا أول الأمر حين سئل عنها، ثم أجاب بطريقة أثارت الانتباه ثم الاهتمام، وان ذلك ترافق مع ابتسامات وغمزات، لم يحتمل السكوت أكثر مما فعل، إذ أسرّ لصاحب الخان قبل أن يغادر إلى أربيل:

ـ هاي، مولانا، ببغداد تقرق...

وحين فتح صاحب الخان عينيه دهشة، ولم يستطع أن يفسر معنى هذه العبارة، أضاف رئيس القافلة:

ـ كلمتها ما تصير ثنتين، واللي تريده يصير!

ـ شلون آغاتي؟

ـ ما أدرّي، لكن اللي يقوله أهل بغداد: روجينا تحل من حبل المشنقة!

ـ أويلاخ، إذا ببغداد هالشكل، شلون هنانا ـ بولاية الفقرا؟

ـ آني ما عليّ، بس هالشكل يحچون، وهسه أريد امشي، توصيني فرد

شي، رايد فرد شي؟

ـ ما راح أخليك تمشي، قبل ما تقول لي هالبلية شنو ومنو!

ـ الله يخليك، يا معود، آني على هذا الطريق رايح جاي، ومنه رزقتي، فلا تقطع خبزتي، وتبليني!

ـ أمانة، والكلام يظل بينا، بس فهمني، شنو القصة؟

ـ بالقلم العريض، مولانا، هذي، قبل سنين، چانت أكبر قحبة؛ وتعرف القحبة لما تكبر، لما تبطل، شتصير...

ـ هالشكل؟

وبعد قليل وصاحب الخان يكلم نفسه:

ـ قلت لروحي! والوسواس الخناس قال لي: هذي البلية تغزل بالليل وتفك غزلها بالنهار، فالله يستر!

ـ وأنت لا سمعت مني، ولا تعرفني، مو هالشكل؟

ـ على بختك، أنت هسه تيسر، وأني لا شفت ولا سمعت!

ولم تتأخر معلومات رئيس القافلة في الوصول إلى المقاهي خلال النهار، ثم انتقلت إلى البيوت، لكن بانتقالها ووصولها تعرجت وتداخلت مع أسماء أخرى، مع صفات جديدة، وان تركزت العيون على كل خطوة من خطوات روجينا، وعلى كل كلمة تقولها، وهكذا تغيرت النظرة والتفسيرات. لذلك فان الإشاعة التي ترددت بقهوة الخان أن روجينا هي وريثة نجمة، وأنها جاءت لهذا السبب، هذه الإشاعة لاقت قبولاً متزايداً، خاصة لما نقل أحد خدم البيت «أن الخاتون قفلت على روحها باب قبة الميتة، وظلت تدوّر من الضحى إلى أذان المغرب».

ورغم أن الكثيرين تحسبوا وتشاءموا من هذه الزيارة، أو من اقامة روجينا، وتوقعوا أن تتجاوز كثيراً ما فعلته نجمة، خاصة وأن البنات الثلاث اللواتي كن معها، وقالت إنهن بناتها، كن من الصبا والجمال، وحتى الفتنة، بحيث لم تر كركوك مثيلات لهن، لكن الأوامر التي وصلت من بغداد، بنقل عدد من الضباط، واستدعاء آخرين، غيّرت الكثير، إذ ظلت

روجينا مرابطة في ذلك البيت، وانشغل الضباط باستعداداتهم للحركة، على الأقل لمعرفة ما يريده باشا بغداد، وقد اتفقوا مع الآغا على تنفيذ الجزء الأول من الأوامر: الذهاب إلى بغداد، امتثالاً للفرمان، وبعد معرفة النوايا، والتأكد من كل شيء، وأيضاً الاتصال ببعض الزملاء، لا بد من العودة إلى كركوك من أجل التسليم، ولجلب الأمتعة، ولأسباب أخرى أيضاً!

وهكذا انشغلت كركوك بأمور عديدة دفعة واحدة!

75

بدري الذي وصل إلى كركوك وهو يفيض بشذى زكية، وكان مصمماً على ترتيب أموره بسرعة، ليبدأ حياة جديدة، ما لبث أن واجه أوضاعاً وأسئلة لم تخطر له على بال.

فنجمة التي كانت حلماً، وعنت له في وقت سابق شيئاً لذيذاً، دافئاً وشهياً، وكاد من أجلها أن يرتكب حماقات كبيرة، لا يعرف كيف قدر على التخلص من تأثيرها، مع أن طيفها، أو ما يماثله، ظل يلح عليه ويعاوده في بعض الليالي.

لم يعد ينظر إليها الآن مثلما كان يفعل من قبل، فقد أصبحت مجرد امرأة مشتهاة، يود لو يكون له فيها نصيب، خاصة بعد أن استقرت في أحضان ذلك الرجل، طلعت باقة، الذي يشبه بحركته، حين يحاول أن يثبّت نفسه فوق الحصان، قربة ماء نصف ممتلئة، أو عجيناً مختمراً.

الآن، في الليلة الأولى لوصوله، تنفجر نجمة في وجهه من جديد، لكن هذه المرة ليس على شكل جسد يتدفق بالخصوبة والجموح، كل عضو فيه يتكلم وينادي، وإنما كسؤال: لماذا تنتهي المسكينة بهذا الشكل؟ ليس المهم من قتلها، وإنما لماذا تقتل؟ فالمبررات التي يمكن أن تساق لتبرير هذا القتل، سواء أكان بدافع الغيرة، أو بدافع الشهوة، لا تعني شيئاً بعد أن غادرت.

وتذكر الليلة الأخيرة قبل سفره إلى بغداد. كانت نجمة تلبد مثل قطة. كانت حزينة، رغم الابتسامات التي تحاول أن ترسمها على وجهها. حتى

الجسد، وهي ترقص، كان، بحركته الجامحة، يريد لطم العالم، الانتقا منه. أو كأنها ترد بذلك على عيون الرجال، كل الرجال، التي تلاحقها مثل أسياخ النار، كطوفان، تريد أن تنغرز في كل خلية من جسدها.

غابت نجمة. أصبحت الآن تحت التراب. ربما فاض دمها مر الجروح فغطى الجسد كله، حوّل لونه من البياض الزاهي إلى اللود البنفسجي القاتم، أو ربما سال الدم خيطاً رفيعاً من فوهة الجرح، حتى إذ تسرب كله إلى الخارج، أصبح جسد نجمة أصفر شمعياً، أصبح هش منفراً، وأخذت تتحرك فيه الديدان.

ورغم الموت والغياب، وبدلاً من طلب الغفران لهذا الموت الظالم والقاسي، فالآغا يعتبر أن القبر شيء زائد، غير ضروري، لأن لا أحد، في أي يوم قادم، سيأتي لزيارة هذا القبر، ليذرف دمعة، أو حتى للسؤال عمن يرقد فيه.

قال بدري لنفسه، وكان شديد الانقباض: «ماذا لو كانت تمتُّ بقرابة لواحد من هؤلاء الضباط، هل يمكن أن يُلعب بها كدمية ثم أن تقتل بهذا الشكل؟» وحاول أن يستعيد صوراً أخرى، صورة زكية. قال، وخرج صوته حاداً:

ـ المرأة حين تكون جميلة ووحيدة لا يمكن أن تنجو من غابة الرجال، غابة الذئاب!

وشعر بحقد على طلعت باقة، على الآغا، على مجموعة الضباط. وشعر أيضاً بحقد على نفسه، قال كأنه يخاطب شخصاً أمامه:

ـ مثلما يمكن أن يكون للديك بيضة في العمر، كما يقولون، أتمنى لو أن الرجل يحمل مرة كل عشر سنين ليقدر عذاب المرأة، ليعرف شقاءها وكم تعاني في غابة الذئاب!

ومع أن مقتل نجمة لم يغب عن لقاءات الضباط في القلعة، إلا أن الحديث عنها أخذ يجري همساً، وسرعان ما كان يتشعب ثم يضيع.

أما حين انتشرت الأخبار حول نقل عدد من كبار الضباط، وكان من

ضمنهم طلعت باقة، فقد تراءت لبدري وجوه هؤلاء المنقولين، وترددت في أذنيه أصواتهم وضحكاتهم. كان أكثرهم من الذين التقاهم في تلك السهرة. شعر أن القدر يعرف كيف ينتقم، ولا بد أن يفعل، إذ من المؤكد أن واحداً من هؤلاء قتل نجمة، أو على الأقل يعرف من قتلها، لكن أياً منهم لا يريد أن يعترف، لأن العلاقة بين رفاق السلاح، رغم التنافس، والذي يتجاوز الحسد إلى الضغينة، أقوى من أن تحمل أحدهم على قول الحقيقة، على البوح باسم الذي قتل تلك المرأة. قال بدري لنفسه بحسرة: «لو كانت العمة زاهدة الآن هنا لما استراحت يوماً واحداً قبل أن تصل إلى نتيجة. يمكن أن تستعين بالأولياء والسحرة والعرافين، يمكن أن تستعين بأي إنسان، من أجل كشف القاتل، لأن العرافين، كما تؤكد العمة، يعرفون من باض البيضة ومن زرع القمحة» وتذكر قصصاً كثيرة عن سرقات كُشفت، وعن جرائم عُرف من كان وراءها. صحيح ان تلك القصص تبدو له الآن غائمة، متداخلة لأن أكثرها جرى، أو سمع به، حين كان صغيراً، وكان الناس يتحدثون عن ذلك وكأن الأحداث وقعت لهم أو كانوا شهوداً عليها!

لما بدأ الضباط يغادرون إلى بغداد، تعمدوا أن يغادروا فرادى، وعلى دفعات، كما سلكوا طرقاً متعددة، ولا بد أن يكون قد تم الاتفاق على ذلك خلال الاجتماعات التي تزايدت كثيراً في الفترة الأخيرة. كانت الاجتماعات على شكل ولائم أو حفلات وداع. كما أن الضباط المنقولين، وهم يودعون جنودهم، كانوا يتظاهرون بالطيبة والبساطة، ربما للتكفير عن قسوتهم في السابق، أو في محاولة لكسب ود الجنود، علهم يكونون سنداً لهم في وقت لاحق، أو إذا دعت الضرورة!

قال مزاحم سعيد، ضابط القلم في القلعة، وكان يتحدث إلى حامد، وكان بدري أثناء الزيارة:

ـ الشغل، آغاتي، مو ذاك اللي يتعّب الإيدين، الشغل اللي يتعّب القلب. . .

وحين بدت كلماته غامضة، أضاف، وهو يبتسم:

ـ تعب الأيدين ساعة وينقضي، لكن شنو قولك بالتعب اللي م يخلص، ويزيد كل يوم؟

وحامد الذي بدا انه يفهم عن أي شيء يتحدث مزاحم، سأله بمرح:

ـ دفاترك صارت مثل دفاتر اليهود ما تنفتح إلا وقت الإفلاس، فحرام إذا انفتحت نوبة بالسنة ونقشت منها شهادة حسن سلوك؟

ـ الشهادة المن يستاهلها مثل البوسة بالعين، يا أبو جميل، لكن شنو قولك بشهادة فقر الحال اللي تريدونها، واللي تشبه شهادة أبو الحصيني؟

ـ يا معود. . . كلها وصلة كاغد، وبعدين. . منو اللي راح يقرا؟ منو اللي يقول صدق لو چذب؟

ـ نحن، يا أبو جميل، ضباط قلم، نفتهم على بعضنا بلسان الطير، فإذا انت ما درت بال، وقلت كاغد وماكو أحد يقرا، فأكو كل آدمي وابن حلال من جماعتنا قاعد لنا ركبة ونص، وإذا مو هنا. . . هناك، مو اليوم اللي عقبه، وتعال أخلص!

رد حامد بمزاح:

ـ يا مزاحم أفندي، شغلة ضباط القلم، وبكل ديرة، مثل شغلة اللي يدفن الموتى، لا يسأل منو ولا يسأل ليش. المهم: ختم الآغا، هو الأساس، فلا تعقّدها زايد. . .

استراح قليلاً، وأضاف بنبرة لا مبالية:

ـ وبعدين. . أنت ما عليك، انقش، وعلينا الختم، وأبوك الله يرحمه!

ـ شلون آني ما عليّ. . . آغاتي؟ عليّ ونص. . .

ولما رأى حامد يهز رأسه بسخرية، أضاف بحدة:

ـ ناقل الكفر موبس كافر، آغاتي، كافر ونص!

قال حامد بطريقة تعليمية:

ـ نسيت شنو اللي قاله الآغا؟ قال: كل ضابط اشتغل وياي، چان بامرتي، تسقط ذنوبه مثل ما الحج يُسقط من الذنوب ما تقدم وما تأخر!

رفع مزاحم سعيد يديه يأساً، وقال بتمتمة:

ـ بكيفكم، وآني إذا انسألت فد يوم أعرف شلون أدافع عن روحي، شلون أطلّع الأول والتالي.

ـ عفاريم، مزاحم أفندي، هذا الحچي اللي ينصرف، هذا هو الكلام زين!

وهكذا صرفت للضباط الشهادات التي أوصى بها الآغا، وكانت كلها إشادة وتقدير لحامليها، وتزكية لأعمال أكبر وأهم!

قال مزاحم لبدري، وقد التقاه في ندوة الضباط، بعد أن صرف آخر وثيقة:

ـ ترى آني ما عليّ، وختم الآغا هو الأساس.

وحين ابتسم بدري ولم يعلق، تابع مزاحم بسخرية:

ـ فرمانات چلاب... وبعدين ما يندرى: تنصرف أو تتنقع ويشربون مايتها!

ولأن روجينا وصلت في نفس الفترة، ومعظم الضباط يعرفها، ومن لم يعرفها سمع بها، فقد كانت مناسبة لإقامة حفلات عديدة. وقد تداخلت حفلات الاستقبال مع تلك التي أقيمت لوداع الضباط المغادرين، بحيث لم يعد يُعرف أيها ترحيباً بالذين وصلوا، وأيها لوداع الذين يغادرون! قال الآغا في الحفلة التي أقيمت على شرف طلعت باقة:

ـ نحن في كركوك ضيوف؛ الفرق أن واحد وصل قبل اللاخ، وواحد يسافر قبل اللاخ. لكن باچر أو اللي عقبه، بس الله يجمعنا ببغداد من جديد، راح نسوّي حفلات ما صار مثلها من قبل، ولهذا السبب اعتبروا أرواحكم أصحاب بيت.. وتصرفوا.

أما حين طالت إقامة روجينا، وتضاربت الأسباب حول زيارتها، ثم ما نقله الخدم والعناصر والحراس، وما قيل عن زيارات متعددة قام بها الآغا، وقد قام ببعضها منفرداً، وقام بأخرى مع بعض ضباطه لروجينا في بيت طلعت باقة، فقد تحسب الكثيرون في القلعة وفي المدينة.

قال رضوان قره غولي، صاحب الخان الكبير:

- چنا من قبل نقول: من الجندرمة بالك.. بالك؛ هسه كملت: من الجندرمة والمؤلفة قلوبهم وما يندرىٰ بعد منو!

كان يتحدث إلى بعض المسافرين، لكنه في الحقيقة كان يحدث نفسه، بعد أن سمع عن زيارات الآغا لروجينا. وحين أبدى الذين يسمعون استغرابهم، ولم يفهموا شيئاً محدداً، أضاف، وكان يبتسم:

- چنا، من قبل، خايفين من بدو ذاك الصوب، هسه صرنا نخاف من بدو الصوبين!

وفهم الذين يسمعون، ولم يفهموا، لكن أحسوا أن أياماً صعبة تنتظرهم!

ومع أن الآغا، منذ أن وصل إلى كركوك، بدا بنظر الذين يعرفونه شخصاً مختلفاً عما كانه في بغداد، إذ أصبح يتبادل الحديث، وان يكن بمقدار، مع العناصر والحراس، ولا يتردد في زيارة ضباطه في الثكنات أو في القلعة، ويشارك في بعض السهرات، فقد طرأ عليه تحوّل إضافي منذ أن وصلت أوامر نقل الضباط. لم يُستطع فهم هذا التحولَ، أو بالأحرى فُسر على وجوه عديدة. قيل بتأثير روجينا، وما خلقته في الجو من الليونة والمرح. وقيل بسبب نقل الضباط. وأكد بعض المقربين أن السبب الحقيقي وفاة المرأة التي أرضعته وربته، وقد بلغه ذلك من خلال رسالة عاجلة لقريب، حملها له التتار من بغداد!

وإذا كان وصول روجينا، ومعها الفتيات الثلاث، قد ألهب خيال الضباط والأفراد في القلعة والثكنات، وتبادل هؤلاء القصص فيما بينهم، وأضافوا إليها من عندهم الشيء الكثير، فان شيوخ البدو وأغوات الأكراد أخذوا يكثرون من زياراتهم إلى الآغا، وحين لا يجدونه يزورون كبار ضباط القلعة، ويوجهون الدعوات، كانت الدعوات تتسم بإلحاح، حول ضرورة أن يقوم الآغا بالرد على زياراتهم، ويضيفون، ببعض التردد والخجل، إنهم ينتظرون زيارته ومعه ضيوفه، كل ضيوفه، وهم يعنون

روجينا وبناتها، خاصة وأن الجو، في هذه الفترة، سواء في البادية أو في الجبال القريبة، أحسن من أي وقت سابق!

كان الآغا، إذا التقى هؤلاء الشيوخ والأغوات، يؤكد بعبارات قاطعة أنه سيلبي بسرور هذه الدعوات، وكان يبتسم، وهو يضيف:

ـ إذا وصلنا لديرتكم فحضروا روسكم يا قرعان، لأني راح أجي ووياي كل ربعي...

وبعد أن يهدأ من موجة الضحك التي سيطرت عليه يتابع:

ـ طبيعي ما راح أجي تك نفر، مثل أي عزابي، لأن برقبتي الله وعباد الله!

أما الضباط الذين ينوبون عنه في استقبال الشيوخ والأغوات فالعادة أن يكونوا أكثر صراحة:

ـ وكّلوا الله يا جماعة الخير، لأن أفندينا نوى وقال، وما يمضى أسبوع الثاني إلا وتشوفونا طابيّن، وبيكم حيل وتحملوا!

يقولون ذلك، تاركين لخيال السامعين أن يرحل إلى أمكنة بعيدة، وحين يلاحظ الضباط العيون المدهوشة المتسائلة يضيفون:

ـ والضيوف معنا، قبلنا، رِجلهم على رِجلنا، لأن أفندينا ما يقبل أن يترك أحد، أن ينسى أحد!

وظلت روجينا تلهب خيال الكثيرين، ويثير وجودها، مع الفتيات، الترقب والتساؤل.

76

الآغا الذي انشغل بالضباط قبل سفرهم، وبروجينا في بعض الليالي، ما لبث أن غاب، أو بالأحرى لم يعد يُشاهَد في القلعة أو الثكنات. قيل إنه سافر إلى بغداد؛ وقيل إنه مريض؛ وهمس بعض الذين يعرفون أكثر من غيرهم إنه مرابط في بيت طلعت باقة لا يغادره، والدليل: كميات الأكل التي تُحمل إلى هناك، علاوة على زيادة الحراسة حول البيت. وأضاف هؤلاء بصوت لا يكاد يُسمع أن الآغا يقضي كل وقته مع الفتيات، يقضيه في الصعود والنزول! وإذا أراد أن يستريح يكتفي بسماع الغناء أو مشاهدة الرقص، وحين يمل من كل ذلك: يلعب الورق. ويحرصون على أن تكون الكلمات الأخيرة عالية الجرس وتُسمع من الجميع!

وإذا كان وجود اثنين دليلاً أكيداً على وجود الآغا، وهما حامد وغايب، لأن الأول مرافقه، والذي يعرف مكانه، ويمكن أن يتصل به عند الضرورة، خاصة إذا جاء بريد بغداد، أو إذا وصل أحد الشيوخ الكبار أو واحد من الزوار المهمين، فان غياب حامد، أو عدم رؤيته في ديوان الآغا، يعتبر دليلاً قاطعاً على السفر.

أما الشخص الثاني فهو غايب، قريب الآغا من ناحية الأم، والمسؤول عن أمنه الشخصي، ويعتبر أقوى ضباط القلعة وأكثرهم نفوذاً، بحكم القرابة، وأيضاً للمهمة المنوطة به.

الآن، ورغم غياب الآغا، أو على الأقل عدم ظهوره، فان الاثنين موجودان. شوهد حامد في ديوان الآغا، وفي قسم اللوازم، وشوهد مرات

عديدة في «القلم». أما مباراة الفروسية التي جرت العادة أن تقام عصر كل يوم جمعة، خاصة في فصلي الربيع والخريف، وكان من عادة الآغا أن يحضر بعض هذه المباريات، أو أن ينيب عنه أحد كبار القادة، فقد أقيمت عدة مباريات لم يحضرها، وحضر اثنتين منها غايب، ولم يُعرف ما إذا كان مكلفاً بالحضور أو كان مجرد مشاهد من المشاهدين! ولم يعرف أيضاً ما إذا كان الآغا في كركوك أم غادرها إلى مكان آخر!

بدري الذي تعوّد أن لا يَسأل، لئلا يُسأل، لاحظ وجود حامد، بل رآه عدة مرات، وكان يسمع الهمس والأسئلة حول سفر الآغا أو ربما مرضه، وما قيل عن «غرقه» في بيت طلعت باقة. كما لاحظ بدري أن السمرة التي ميّزت بشرة حامد قد تراجعت أو زالت، وكان يتعمد إثبات وجوده أكثر مما فعل بالعادة.

ليس ذلك فقط، إذ بعد سفر الضباط إلى بغداد، تزايدت زيارات حامد لبدري، وجاء معه أكثر من مرة غايب نور الدين.

ورغم الدماثة التي يتصف بها غايب، والكرم واستعداده لتلبية ما يطلب منه، فقد اتضح لبدري، بعد أكثر من زيارة، أن غرض غايب معرفة ما إذا كان أثناء إجازته في بغداد زار السراي أو التقى بالباشا.

لم يسأل عن ذلك مباشرة، لكن من خلال أحاديث جانبية، من بعض الملاحظات، استطاع بدري أن يقدر.

ففي الزيارة الثالثة لغايب، قال عرضاً، وبدا على وجهه التأثر وما يشبه الحزن، أن أحد كبار موظفي الولاية، واثنين من الذين مروا بطريقهم إلى السلمانية والموصل، أكدوا أن الباشا مريض، وقد لاحظوا ذلك لما رأوه يصلي الجمعة، إذ بدا مصفر الوجه، وكانت يداه ترتجفان، وكذلك صوته!

لم يكن غايب يسأل، أو يريد إجابة على ما قاله. كان هدفه الأساسي أن يقيس رد فعل بدري، أن يستنتج، من كلمة، أو حركة، ما إذا رأى الباشا، ما إذا سمع عنه شيئاً من أحد المقربين.

وذكر غايب في لقاء ثانٍ أن قائمة أخرى لنقل عدد من الضباط على

وشك الصدور، ومن المتوقع وصولها بين أسبوع وآخر، ومن المرجح أن تشمل القائمة الضباط البغداديين، وأضاف، ضاحكاً، إنه يتوقع أن يكون اسم بدري ضمن الأسماء المرشحة للنقل!

من الإشارات المتزايدة فهم بدري أن غايب يريد معرفة ما إذا كانت لا تزال له صلة بالسراي، ولئلا تبقى اللعبة بينهما مثل لعبة القط والفار، أكد بدري أن إجازته اقتصرت على شيء واحد: الخطبة، وأنه الآن يستعد للزواج، وأشار بطريقة واضحة أن همه الآن يتلخص بأمر واحد: العثور على سكن مناسب في كركوك، تمهيداً لاستدعاء خطيبته والزواج.

ومن أجل تبرئة نفسه من أية شبهة حول وجود علاقة له بالسراي، تعمد بدري، وبوجود حامد، أن يحدثهما عن حفلة الخطوبة، وكيف عرض عليه بعض الأصدقاء دعوة زملائه من العاملين في السراي، لكنه اعتذر، وكان اعتذاره أقرب إلى الرفض، بسبب المرارة التي لا يزال يحسها تجاه السراي وجميع العاملين فيه.

وحامد الذي يسمع لأول مرة بخطبة بدري، إذ لم يسبق أن أبلغه بذلك، قال بعتاب لا يخلو من مرح:

ـ الماي تجري من جوّانا ونحن ما ندري. أقول لروحي: ليش بدري صاير عاقل، لا نشد عن روجينا، ولا تحرّش بالفخاتي اللي وياها!

رد بدري مدافعاً عن نفسه:

ـ اللي يسمعك يقول: بدري ما عنده شغل إلا شايله ودايرِ!

وضحك الثلاثة.

قال غايب في محاولة لإظهار أقصى الود:

ـ إذا فاتنا المهر ببغداد، وبدري معذور، ما راح يفوتنا الزواج هنا.

نظر بإمعان إلى بدري، وكأن فكرة طرأت له فجأة، تابع بلهجة ظفر:

ـ لازم نسوّي لك زفة تصير حديث كركوك سنين وسنين. . .

وبعد قليل، وهو لا يستطيع أن يخفي فرحه:

ـ وندعي أفندينا، وكل الضباط، ونحييها للصبح: دق وغنا، مزيقا

وطبل، ووين اكو واحد يصيح أوف أو عتابا: أنت يا فلان معزوم على عرس بدري...

وكاد يتابع، إلا أن حامد قاطعه:

ـ ويصير العرس تاريخ: قبل عرس بدري... وبعد عرس بدري!

رد بدري، وهو يحاول إخفاء خجله:

ـ يرحم موتاكم يا معودين، آني انهزمت من الهرجة، انهزمت من الحاج صالح العلو لأنه يريد يخبصها، يريد مزيقا وطبل، فخلوا الهرجة لغيرنا وخلونا نتزوج سنطة، هذا كل ما أريده!

قال غايب، وكانت لهجته حاسمة:

ـ أترك المسائل عليّ، وما راح تكون إلا راضي!

ـ لخاطر الله يا معوّد...

هكذا رد بدري، وأضاف برجاء:

ـ إذا إلي مودة عندكم، كل ما أريده زواج بسيط: صديقين... ثلاثة، وهلهولتين من أمي وأمها، وبعدها استكان شاي أو شربت، وفي أمان الله!

ـ أشوفك مستعجل، بس تريد تخلص!

بهذه الطريقة تدخل حامد، وتابع والضحكات لا تزال تملأ الغرفة:

ـ شنو صار بالدنيا: ابن صالح العلو يتزوج بسكوت؟ بليا دف ودنبك، وما تعرف بالعرس أمة الثقلين؟

ضرب على الطاولة، وقد علا صوته:

ـ أبد ما يصير!

ـ أهم شي هسه: نلقى بيت زين، وبعدها الله كريم، قال غايب.

ـ موعود ببيت، والصبح أشوفه، وإنشاء الله يصير خير، رد بدري.

بعد أيام، وقد أمّن رضوان قره‌غولي بيتاً لبدري، واستلم إيجاره لسنة كاملة، قال غايب بنوع من العتاب:

ـ هذي مو خوش بداية، لأن أفندينا قال: «... وبيت بدري على حسابي، وعرسه على حسابي، لأن الصديق لصديقه».

وبعد أن صفن غايب لحظات، أضاف:

- زين.. زين، ما دامت هذي فاتت، لا بد نلاقي غيرها ونتراضى.

في اليوم التالي جاء غايب وحامد معاً لزيارة بدري، وبعد أحاديث متنوعة، تخللها العتاب، لان بدري تعجل بدفع إيجار البيت، إذ كانت رغبة الآغا أن يفعل ذلك، قال، وهو يستخرج كيساً من جيب داخلي:

- وهذي هدية صغيرة من الآغا، ومعها التبريكات، وبالرفاه والبنين!

- هاي شنو؟

- مبلغ بسيط، هدية.

أبعد بدري الصرة قليلاً. تطلع إلى عيني غايب، ثم التفت إلى حامد:

- إذا تريدون نبقى أصدقاء، والعلاقات بينّا زينة، فاللي أرجوه أن تأخذوا الفلوس وياكم...

ابتسم وتابع بصوت خرج عميقاً:

- الله فضّل علينا، أعطانا حاجتنا وزود، ومثل ما تعرفون: الحاج صالح العلو رجال ميسور، ويريد يزوجني من كيسه، وهو متكفل بكل شي...

وبعد قليل:

- مو بس هالشكل... الإكراميات اللي اندفعت ليّ من السراي، من الباشا، كان الحجي يأخذها ويوزعها على الفقرا، وكان يقول: غيرك أحق بيها منك...

وعاد إلى النبرة الأولى:

- لهذا السبَب، وحتى نظل أصدقاء ومتفاهمين، وإذا تودوني وتريدون أكون مرتاح، فالرجاء أعفوني من هذا الهمّ.

قال حامد، وقد تخلل صوته اللوم:

- ولكن الهدية ما تنرد يا ابن الحلال!

- هديتكم واصلة، وإذا احتجت فلوس يوم من الأيام آني راح أطلب، آني اللي يقول: هاتوا يا جماعة الخير!

كان حامد يود أن يواصل في هذا الإتجاه، أن يلحّ أكثر من أجل قبول

المبلغ، لكن غايب أدرك، من طريقة الرفض، من الكلمات التي قالها بدري، عدم جدوى الإلحاح، إذ ربما يؤدي إلى نتيجة معاكسة، لذلك رد غايب، وهو يقلب شفته السفلى أسفاً.

ـ إذا كان هذا رأيك ما يخالف، لكن أريد منك كلمة، وعد.

ـ تفضل... اؤمر.

ـ إذا احتجت فد يوم، إذا ردت، فأعتب عليك، أزعل منك، إذا سمعت إنك رحت لغيري، موافق؟ تنطيني كلمة؟

ـ خلص.. خذها من هالشارب!

وأمسك بدري بشاربه، وكان يدير رأسه بين الاثنين وهو يبتسم، إذ شعر بالثقة لأنه أنقذ نفسه من هذا المأزق.

قال حامد، وقد شابت صوته المرارة:

ـ بصراحة.. هاي مو خوش دقة..

وبعد قليل:

ـ هذي هدية، والفلوس الها ألف طريقة حتى تنصرف...

وكاد يتابع، إلا أن ضحكة بدري، وكانت أقرب إلى القهقهة، جعلته يتوقف. بعد أن ساد الصمت قليلاً علّق بدري:

ـ يا معوّد، يا أبو جميل، أنت تريد مصلحتي لو تريد تهجم بيتي!

ولم يدعه يجيب، تابع بمرح:

ـ لو عرف الحجي، أبو قدوري، يسحب إيده، ويقول: أني ما عليّ، روح تزوج بالدين؛ وأنت تعرف، يا أبو جميل، أن اللي يتزوج بالدين ولِده يجون بالفايدة، فخلينا أول نوبة نتزوج، نلزم العصفور، وبعدها الله كريم!

ولما هز حامد رأسه، دون أن تعني هذه الهزات الموافقة، وان ارتسم على وجهه ظل ابتسامة، فقد تابع بدري بمرح:

ـ لو تريدنا، يا ابن الحلال، نضيّع الأول والتالي!

77

واستمر غياب الآغا، واستمرت الإشاعات.

الذين رجّحوا غيابه بسبب المرض، وقدّروا احتمال وصول راهب قوشية يعقوب متى، ليتولّى معالجته، كما حصل لقائد القلعة السابق، بدأت تخامرهم الظنون بعد أن مرت أيام كثيرة دون أن يصل هذا الراهب، الذي عرف ببراعته وجرأته، وقد استطاع أن يشفي القائد بعد أن عجز أطباء كركوك، وبعد أن جيء بطبيب معروف من الموصل ولم يستطع أي منهم شيئاً. لقد مر وقت طويل دون أن يصل يعقوب متى، كما لم يستدع أي من أطباء كركوك إلى القلعة أو إلى بيت طلعت باقة، الأمر الذي جعل الكثيرين يتساءلون ما إذا كان الآغا مريضاً أو مسافراً.

أما الذين رفضوا، منذ البداية، اعتبار المرض سبباً للغياب، وكانوا متأكدين أن روجينا و«البنات» هن السبب، فكان لديهم ما يؤيد ذلك: الطعام الذي ينقل إلى بيت طلعت باقة، الحراسات الشديدة حول البيت أو على الطريق المؤدية إليه، ثم الأخبار التي يتم تناقلها عن الخدم، وغالباً ما تُنقل همساً ويداخلها الكثير من التشويش، فقد رجح الظن في القلعة، ثم في المدينة، أن الآغا لم يغادر كركوك، وأنه مرابط في بيت طلعت باقة.

أما لماذا لا يغادر البيت، وما الذي يحمله على البقاء فيه طوال الوقت، فقد اختلفت التفسيرات وتضاربت:

قيل إن شرهاً جنسياً أقرب إلى الشبق استبد بالآغا بعد أن فُتن تماماً بجمال الفتيات الثلاث، وأنه لا يفعل شيئاً سوى الانتقال من واحدة إلى

أخرى، مع الشرب والرقص والغناء، بحيث لم يعد قادراً على الإفلات من هذا الجو، خاصة وأن روجينا حملت معها مجموعة من الأدوية والمنشطات تجعل الرجل في حالة من الهياج لا يستطيع معها أن يكف، أو أن يسيطر على نفسه. وهذا ما يفسر، إلى حد ما، إشاعة المرض التي راجت لبعض الوقت!

وقيل إن الآغا مرابط في بيت طلعت باقة، أو ربما في بيت آخر، لغير هذا السبب، إذ بعد أن تم نقل أقرب رجاله إليه، وكان يعتمد عليهم كثيراً، استبد به الحزن، فقد شعر أنه أصبح معزولاً وضعيفاً، كما يمكن الاستغناء عنه في أية لحظة، دون أن يقوى على مجرد السؤال أو الاعتراض، وهذا ما يفسر عزوفه وعزلته. أما ما يقال عن جو الخلاعة، والغرق في أحضان «بنات» روجينا، فإنه محض افتراء أو مجرد أوهام وخيالات من الذين يبغضون الآغا، لأن الرجل، مهما بلغ من القوة، ومهما استبدت به الشهوة، فإن الليل وحده يكفي ويفيض.

فإذا قيل ان التنوع يغري، واختلاف النسوة يحرض، وأن «بنات» روجينا ليس لديهن من عمل إلا إغراء الآغا لإغوائه، وأنهن من الفتنة والبراعة ما يجعلهن قادرات على تحريض حتى الصخر الأصم، وهذا ما يفسر الغياب الطويل للآغا، فإن رأياً مثل هذا لا يقنع الكثيرين. «فالآغا، كما يقولون، عرف من النساء ما لم يعرفه إلا قلة من الرجال، إذ بعد أن صادق وعشق وتزوج، غيّر الصديقات والعشيقات والزوجات بقدر عدد الأمكنة التي أقام فيها، بحيث لم يترك ملة أو لوناً أو بلداً يعتب عليه، فقد ارتوى إلى درجة لم تعد به طاقة أو رغبة».

وحين يُسأل هؤلاء عن غياب الآغا، وأين يمكن أن يكون، لا يجدون لديهم الكثير ليقولوه، أو يقولون شيئاً عنّ لهم في اللحظة، بل ويبلغ الأمر ببعضهم أن يذكروا شيئاً هم أنفسهم لا يصدقونه!

فرضوان قره غولي، صاحب الخان الكبير، حين سئل ما إذا كان الآغا في كركوك أم غادرها إلى مكان آخر، رد بسخرية:

ـ خلونا نسأل الكاكا محمود. . .

ورغم أن الكاكا محمود غير موجود، فلقد تابع الأسطة رضوان يخاطب شبحاً:

ـ قل لي كاكا: أنت صاعد لو نازل؟

ومع أنه لا ينتظر جواباً، إلا أنه ترك فسحة من الوقت تمر، وكأنه يستمع خلالها للجواب، وتابع يسأل:

ـ وبطريقك شفت أحد؟ سمعت أن أحد قبلك أو بعدك مرّ أو راح يمرّ؟

وبعد أن يهز رضوان قره غولي رأسه عدة مرات، دلالة أنه سمع وفهم، يلتفت لمن سأله ويجيب:

ـ سألنا الصاعدين، وسألنا النازلين، فقالوا: ما شفنا الآغا. ولأن الصاعدين ما شافوا الآغا، ولا النازلين، فالآغا بكركوك. . .

ويضحك، وتخرج ضحكته كالصهيل، وبعد أن يهدأ:

ـ بابا. . اللي تسألون عليه موكّر بفد مكان قريب!

ولأن الضجر يمد جناحيه على المدن الصغيرة، ويزيد ويتسع حين تتأخر الأمطار، وحين تتأخر القوافل، فقد ظلت كركوك تجتر ما وقع فيها، أو ما نقله المسافرون.

فنجمة التي شغلت المدينة طويلاً، وجعلت الناس يتساءلون ويختلفون، خاصة حين قتلت، عمن قتلها ولماذا، تراجع الاهتمام بها أو الحديث عنها، خاصة لعدم ظهور أي شيء جديد في الأمر، ثم لغياب من يذكّر بها بعد نقل الضباط وسفرهم.

حتى نقل الضباط، ورغم ما خلّفه من تساؤل وترقب في القلعة وفي الثكنات، فإن المدينة التي سمعت بالأمر لم تحفل ولم تنشغل به طويلاً. فالذين سافروا مثل الذين كانوا قبلهم، مثل الذين سيأتون بعدهم. وحتى الحفلات التي أقيمت للمسافرين، ستقام مثلها للآتين بدلاً عنهم، ويبقى كل شيء كما كان!

روجينا، بوصولها، ثم باستمرار إقامتها، وما أخذ الناس يتحدثون به

عن الفتيات اللواتي رافقنها، وهل تنوي البقاء أم ستواصل سفرها إلى مكان آخر، أم تعود من حيث أتت، فإن الفضول المشوب بالخوف، ثم رغبة التثبت، جعلا الناس لا يتوقفون عن رواية أخبارها، مع الزيادة والتغيير. قد يكون ما يقوله الكثيرون تافهاً أو ربما وهماً، وقد يكون تعبيراً عن رغبة أكثر من أي شيء آخر، لكن الفضول لم يتوقف، والسؤال لم ينقطع، خاصة بعد الذي قاله قاضي الحنفية تقي الدين أوغلي. فقد فسّر انحباس المطر بزيادة المعصية، وتفشي الفسق بين الناس، وكان يعني، دون تسمية، روجينا «وبناتها»، ويشير من بعيد إلى الآغا!

ومثلما تولد النكتة عفو اللحظة، وكذلك الإشاعة، فإن ما قاله قاضي حنفية لاقى آذاناً صاغية، ومال الكثيرون إلى قبول ما يقول، بل وربطوا ذلك بغياب الآغا، وما قيل عن ملازمته لبيت طلعت باقة بين «بنات» روجينا، وما يحصل في ذلك البيت من فسق وفجور. وهكذا أصبح هذا الأمر حديث كركوك وحديث المسافرين!

ولأن الإشاعة تولّد أخرى، فلا يعرف من الذي أكد أن عزلة الآغا، وهي صحيحة، ليست لها علاقة البتة بروجينا وبناتها، لأن الآغا الذي ظل قوياً، ظاهر المرح والنشاط، إلى أن جاء البريد، وما حمله من خبر وفاة مريم خاتون، المربية التي تعهدته بعد وفاة أمه، فقد أصابه غم شديد ما لبث أن تحول إلى كآبة تسيطر عليه ليل نهار. ورغم الصلاة والأوراد وإشعال البخور، فإن الغم يزداد والكآبة تقوى، وكان يرافقهما، في بعض الليالي، بكاء يطول إلى أن يصبح نحيباً موصولاً، خاصة وأن نفس الآغا عافت الأكل ورؤية الناس، الأمر الذي دفع معاونيه الأقربين إلى حمله إلى مقام الشيخ محمود، إذ ربما ببركات المقام، وعناية القائمين عليه، وقد اشتهروا بالتقوى، ولأن المقام في جبل عالٍ، إضافة إلى القرابين والنذور، لعل ذلك يُذهب حزن الآغا، ويعيده إلى ما كان عليه من القوة.

هذا الكلام تقاطع مع كلام الذين رجحوا، منذ البداية، مرض الآغا، ولذلك ارتفعت أصواتهم من جديد، دون النظر إلى طبيعة المرض أو من

يتولى العلاج.

وهذا الكلام ذاته دحض ما يقال عن الفسق والمعصية، وعلاقة الآغا بذلك. لكن بعض الذين تبنوا هذا الرأي تمادوا أكثر فيما يجب عمله. فالخلوة في مقام الشيخ محمود، وإن كانت نافعة، بل ضرورية، إلا أنها وحدها لا تكفي، فالغم لا ينتهي، والوسواس لا ينقطع إلا بالحج وزيارة قبر الرسول، وهذا ما يجب أن يفعله الآغا، في أقرب وقت، لأن الحج والزيارة يضيئان القلب، ويردان العافية، فثقة الإنسان بنفسه مستمدة من ثقته بالله، وقوته من قوته، وما عافية النفس والجسد إلا من مظاهر رضى الله على عبده.

حين يسمع بعض الناس عن خلوة الآغا يبتسمون ويهزون رؤوسهم سخرية وغيظاً، لأنهم على قناعة أكيدة أنه في كركوك، لم يغادرها، إذ لو فعل فلا بد أن يرافقه أقرب رجاله، خاصة حامد وغايب. حين يشار إلى ذلك يرد الذين على قناعة بخلوة الآغا: أن من شروط صحة الخلوة أن تبقى سرية، وأن تتم دون تباهٍ ودون إعلان، ويحسن ألا يعرف بها وريث أو قريب، لأن حال المختلي مثل حال الذي يريد الخروج منَ الدنيا، إذ لا يغريه مال أو جاه أو بنون، وليس في نفسه فضلة من أكل أو فرج أو شراب، وقد آلى أن يهب جسده وروحه إلى بارىء هذا الخلق.

يقولون ذلك ويوردون أمثلة عن رجال زهدوا بالدنيا، وعافت نفوسهم المسرات، وقاوموا الإغواء وزخارف الحياة، فذهب بعضهم ولم يعد، وتحول غيرهم إلى نساك يملأون ببركاتهم أصقاع الأرض، يظهرون للتائه فيدلونه، وللغريب يؤنسون غربته، وللجائع يقدمون له ما لديهم من زاد. ويضيفون: لم يذهب إلى الشيخ محمود مريض إلا وعافاه!

ولأن الضجر استبد أكثر من قبل بأهل كركوك، بعد أن حرثوا الأرض وبذروا الحب، وطال انتظار المطر، فقد استمروا يشغلون أيامهم ولياليهم بالثرثرة والتلصص، وبالغ بعضهم في ذلك أشد المبالغة.

فخيول الآغا شغلت الكثيرين، خاصة الذين يتاجرون بشراء الخيول

وبيعها، والذين يبادلون أو يزاوجون. فهذه الخيول لا تستعرض في ميادين عامة، ولا يعرف عددها على وجه الدقة، كما لا تعرف أحسابها وأنسابها، لأن الآغا، بعد تجارب عديدة، أصبح يضيق بشيوخ البدو وآغوات الأكراد الذين لا يملّون أبداً من ملاحقة الخيول، فإذا لم يستطيعوا المبادلة فالمشاركة بيد أو برجل، وحين لا يصلون إلى ذلك فلا أقل من التشبية، يطلبون ذلك بإلحاح، مع رجاء أقرب إلى التوسل: «ضرب واحد طال عمرك». والآغا الذي يعتبر خيله مثل نسائه، يجب ألا تظهر، ألا تُعرف إلا في أضيق الحدود، كان له هدف آخر: ألا يستطيع أحد رصد حركاته من خلال معرفة خيوله، إذ كثيراً ما يفضل الذهاب إلى بعض الأماكن أو زيارة بعض الأشخاص، متخفياً، وبأقل عدد من المرافقين، وهذا يتطلب ألا تعرف الخيول التي يمتطيها، وألاّ تتميز بالبهارج، كما يفعل أنصاف الشيوخ أو صغار الآغوات، الذين يبالغون بتزيين خيولهم لتدل على أهميتهم!

إذا كانت هذه عادة الآغا، وهذه تعليماته لسواسه، وقد ساعدته على أن يبقي جزءاً من تنقلاته خافياً، وأن لا يستطيع من يضمر له شراً أن يصل إليه، فإن أهل كركوك بلغوا من المكر حداً أنهم راقبوا كل شيء بعناية، وأقاموا من الصلات ما جعلهم يعرفون أدق الأمور وأكثرها خفاءً. فأي حصان يركبه الآغا، ويراه عدد من أهل المدينة، يرسخ لونه وشكله، وجميع ما يميزه، في ذاكرة الكثيرين وحين لا يعرفون اسم ذلك الحصان، يعطونه اسماً من عندهم، حتى يصبح ذلك الاسم أثبت عليه من اسمه الحقيقي!

رضوان قره غولي الذي يشغله أكثر من الخان الذي يديره، الخيول التي يستطيع الوصول إليها، لا ليتباهى، كما يفعل الكثيرون، وإنما ليبيعها في الوقت المناسب، ولمن يجب أن تباع له، وهذا ما جعله يوثق صلاته بسواس القلعة، ويحاول الوصول إلى خيول الآغا.

ولما كان الأسطة رضوان يعرف مواعيد وصول القوافل، ويعرف أي

الطرق تلك في ذهابها وعودتها، حسب فصول السنة، بل ويعرف مواعيد وصولها إلى محطة من المحطات، وكثيراً ما راهن وكسب، فقد شعر بالغضاضة الأقرب إلى المهانة أن لا يعرف ما إذا سافر الآغا أم لا يزال في المدينة. سأل وتحرى، حتى أصحاب البساتين في أطراف كركوك سألهم، لكن لم يستطع الوصول إلى تقرير يطمئن إليه.

لو أن رضوان قره غولي كان متأكداً من سفر الآغا لنفّذ الخطة التي راودته منذ وقت طويل: أن يشبّي إحدى أفراسه من «المسخوط»، إذ يعتبر هذا الحصان من أكرم الخيول، ونسبه، إضافة إلى الصفات الأخرى التي يتميز بها، يتحدث عنه الناس في بغداد والموصل وكركوك، ومدن أخرى عديدة. كان رضوان، وهو الذي أطلق على هذا الحصان اسم المسخوط، مستعداً للمخاطرة، خاصة وأنه اتفق مع زهدي شيخو على ذلك، لكن الاثنين لا يعرفان ما إذا كان الآغا في كركوك أم غادرها، وهكذا ظل الأسطة رضوان ينتظر ويتسقط الأخبار!

كان بدري يريد أن يجعل البيت لائقاً من أجل استقبال الضيوف القادمين من بغداد، وأن يجعله عشاً للأحلام الكثيرة التي تملأ مخيلته. كان يريد أن يرد لأمه، لأبيه، لكل الذين يحبهم، بعض ما يشعر به نحوهم، وهو ان يستقبلهم في أول بيت يمكن أن يسميه بيته. ظل يفكر بكل شيء، ويتهيأ له، بل وتساءل ما إذا سيفو سيأتي أم لا. قال لنفسه: «وين يفوّتها أبو فلاح؟ لا بد جاي يهفي».. وأبوه.. أين يجب أن ينام.. «ها، حجي، مثل عادتك، تريد تنام من وقت؟». وابتسم وهو يتصور أباه يرقص «راح أرقص بعرسك وأدق إصبعتين». ومرت صورة أمه. كان متأكداً أنها لن تنام في الليلة الأولى، وربما في الليلة الثانية. لن تستطيع، لأن الفرح يجعلها غير قادرة على الاستقرار في مكان. وتصور أختيه، وتصور عمته، قال لنفسه، وهو يغالب قهقهة أفلتت منه: «الحجية تنام بعين واحدة، ولا يمكن أن يفلت منها الطير الطاير» وتذكر أخوته، وتذكر الكثيرين. قال لنفسه بمرح: «ومنو يدري.. يجوز أبو حلق الذهب، الملاّ حمادي، ما

يفوّتها ولا يكذّب خبر، ما نشوفه إلا بوجهنا!».

والحديقة التي كانت جميلة ذات يوم، لحقها الإهمال، وطفت عليها نباتات وحشية، حولتها إلى غابة متشابكة، مما يتطلب بذل جهد كبير من أجل إعادتها إلى جنة تليق بالضيوف، وليعلّم أهل كركوك كيف يجب أن تكون الحدائق من حيث الجمال والترتيب! وقد تكون درساً لزكية أيضاً، إذ من خلال الجهد الذي سيبذله يمكن أن يثبت لها جدارته فيما لو طلب ذات يوم أن يكون مزارعاً ولم يرغب أن يسجن نفسه في علوة الحاج صالح العلو!

ولأن الشغل كثير ومتنوع، فقد اضطر للإستعانة بعدد من الأشخاص لمساعدته، كان على رأس هؤلاء قادر محمود.

وقادر كان ذات يوم صاحب بستان، لكن البستان انتزع منه لتوسيع الثكنة الشمالية. ولأنه رجل عنيد، ومتعلق بأرضه إلى درجة يستحيل عليه تصور قطع أشجار البستان لأي سبب، خاصة وأن في الجهة الأخرى من الثكنة أرضاً بوراً، ويمكن التوسع في تلك الجهة، فقد رفض قبول التعويض، وظل خلال ثلاث سنوات متواصلة يقدم الاسترحامات والعرائض، ويسافر من مكان إلى آخر، ويطرق أبواب الكثيرين، من أجل إعادة أرضه، لكن كل محاولاته انتهت إلى الفشل، وانتهى البستان إلى أرض جرداء، بُني في جزء منها اسطبل لبغال الثكنة، وتناثرت في الأجزاء الأخرى من الأرض مخلفات لا يعرف لأي أغراض استعملت أو كيف تجمعت.

ربما وُجد من أبلغ قادر أن بدري كان مرافقاً لباشا بغداد، وقد يعود كذلك في يوم من الأيام! ولأن لا أحد في كركوك، أو مر بها، أنصفه، أو سمع إلى النهاية شكواه، فقد افترض، أو توهم، أنه عن طريق بدري يمكن أن يصل إلى حقه، وهذا ما دفعه إلى التعرف عليه، وأن يكرر زيارته.

وبدري الذي استمع بروية إلى شكوى قادر، وعرف ما حلّ بالبستان، كان يود لو يستطيع مساعدته، ويود أكثر لو أن الرجل قبل التعويض وبدأ عملاً جديداً، لكن الرفض، الأقرب إلى العناد، الذي ميز موقف قادر، جعل

بدري حائراً حول الكيفية التي يمكن أن يساعده بها، فهو لا يريد أن يطلب من أحد هنا، ولا يجد الشجاعة، أو المبرر الكافي، لإرساله إلى بغداد، إلى أحد أصدقائه في السراي، ربما لتفاهة الموضوع، وأيضاً لقدمه، وقد لا يجد حلاً في ظل تشابك العلاقات. وهكذا ظل الموضوع معلقاً.

ولأن الموضوع ظل هكذا، فقد استمر قادر في التردد على بدري، علّه يستطيع إقناعه، وظل بدري يستقبله ويكلفه ببعض الأعمال بين فترة وأخرى، إذ يمكنه بهذه الطريقة أن يقدم له بعض المساعدة.

بعد أن تم استئجار البيت وشرع بتحضيره، كان قادر كل شيء. أما حين بدأ تنظيف الحديقة فقد تفجرت عبقريته وتفجر جنونه.

كان يبدأ العمل في الصباح الباكر، ولا يتوقف إلا بعد حلول الظلام. وكان الذين يساعدونه يضجّون بالشكوى، ولا يخفون سخريتهم من حرصه ومن طلباته. إذ لا يكفي أن تقلع الحشائش الضارة والأشواك، وتجمع الأغصان اليابسة، وتقلب الأرض، بل ويجب أن يتم التأكد من كل عرق أخضر، كل غصن في كل شجرة، وأن يعالج كل حوض، وأن تصفّ الحجارة بعد ربط خيط لكي تبقى بنفس الارتفاع، بنفس الاستقامة!

ولما كان الفصل أول الخريف، ولكل وقت نباتاته وزهوره، فلا بد أن يذرع قادر كركوك من أقصاها إلى أقصاها كي يختار من النباتات والبذور ما يلائم الفصل الحالي ثم الفصول التي تليه، أن يزرع بالمكان الذي حدده، وبالطريقة التي حددها، وكان بعض الأحيان يوقف العمل، بسبب أخطاء صغيرة، ليعاوده من جديد.

وبدري الذي افترض، خلال بعض الوقت، أن لديه أفكاراً نموذجية حول الشكل الذي يجب أن تكون عليه الحديقة، وكان يشارك، بعد أن يستبدل ملابسه العسكرية بأخرى تلائم العمل، ما لبث أن اكتشف جهله، ثم اكتشف عجزه، بالمقارنة مع معرفة قادر، وازاء نشاطه.

ويوماً بعد آخر أخذت تتكامل الحاجات الضرورية في البيت، ضمن ما يستطيعه الرجال. لكن أكثر منها بدأت الحديقة تتألق وتزهو، خاصة بعد أن

نُظفت السواقي ودارت فيها المياه، وبعد أن طُليت سيقان الأشجار بالكلس. أما حين بدأت بعض النباتات والزهور الموسمية تشق الأرض، وترفع رؤوسها الصغيرة، وأخذ الجو يعبق، عند أول المساء، برائحة شجرة الليل، فقد أحس بدري أنه أضاع شطراً من حياته وهو يبحث عن شيء لا يعرفه!

كان يلذ لبدري في بعض العصاري، وبحجة المشاركة في السقاية، أن يقضي ساعات في البيت الجديد، وخلال هذه الفترة توثقت علاقاته أكثر بقادر، أصبحا يتحدثان كأصدقاء، يتبادلان الأفكار والأخبار، حتى الأحلام كان أحدهم يقول للآخر بعض أحلامه. أما مسألة بستان قادر، فلم تعد تطرح إلا عرضاً، وإذا حدث ما يذكّر بها. بل وخطر لبدري لو أن قادر يعمل في بستان المتولي، بدل أن يبقى تائهاً بين أرض انتزعت منه وبين مطاردة حلم قد لا يتحقق، لكن هذه الفكرة لم تثبت طويلاً في ذهن بدري، بل اعتبرها قاسية، فمن الظلم أن ينتزع هذا الإنسان من بلده، من أهله، فقط من أجل أن يؤمن خبز أطفاله.

لما انقضى أيلول كله، وانقضت أيام تشرين جلها أو كلها ولم يأت المطر، فقد خاف الناس أكثر من قبل وزاد تشاؤمهم. وتذكر الكثيرون ما قاله الشيخ تقي الدين أوغلي حول المعصية والفساد والغلّ الذي يملأ قلوب الناس، وعاد التساؤل من جديد ما إذا كان الآغا مقيماً أم مسافراً، فإن كان مقيماً لا بد أن يظهر، إذ لا يعقل أن يبقى طوال هذا الوقت في أحضان «بنات» روجينا، فحتى الشباب، حين يتزوجون، ويكونون عادة في أوج قدرتهم وشهوتهم، لا يحتملون النوم مع زوجاتهم أكثر من مقدار معين، ثم يتعبون أو يملّون، فكيف بهذا الثور المسن الذي تجاوز الخمسين واقترب من الستين؟

أما إذا كان مسافراً فقد طال سفره. وحتى لو نقل، ألا يفترض أن تقام له الحفلات ويجري وداعه، كما حصل لضباطه وللقائد الذي سبقه؟

في خضم المشاغل والتساؤلات وصل كاكا محمود آتياً برحلة جديدة

من بغداد، وجاء لتوه إلى بدري.

كان يمتطي، مزهواً، الزعفران «الحصان» الذي اشتراه من بدري، ومعه أحد رجاله يجر بغلين يحملان أغراضاً بعثت بها أم قدوري.

كان الزعفران، رغم التعب، يبدو قوياً وفتياً، خاصة وهو يرى البغلين الآخرين ينوءان تحت ثقل الأحمال. وكان الكاكا محمود يبدو فخوراً ومنشرحاً. بعد التحية الحارة، والتبريك، متمنياً أن يكون البيت الجديد فاتحة الخير والأفراح، أنزل الأحمال، وسلمه رسالة من الحاج صالح العلو، كما نقل إليه تحيات الجميع، وأبلغه أيضاً أنه تم الاتفاق على نقل العائلة، وبعض الأصدقاء، وفي المقدمة العروس، في السفرة القادمة، وسوف لن يتأخر وصولهم عن شهر منذ الآن!

فضّ بدري الرسالة، التي خطها أخوه قدوري، وقرأ:

«حضرة ولدنا المكرم بدري أفندي ادامه الله وأعزه

بعد التحية من سويداء القلب، والسلام من جميع الأهل والمحبين، وبعد السؤال عن صحتكم الغالية، فإن سألتم عنا فنحن ولله الحمد في أتم الصحة وأهدأ بال، ولا ينقصنا إلا مشاهدة أنوار وجوهكم الكريمة.

«ولدنا العزيز

كان لفراقكم رنة أسى لدى جميع أفراد الأسرة فرداً فرداً، وأحدث سفركم فراغاً في قلوب جميع المحبين، لكن ما خفف الألم قرب لقيانا بالبهجة والسرور، وهذا سيتم بمشيئة العلي القدير. وبعد أن تم التشاور والاتفاق مع نسيبنا الحاج نعمان المتولي، في غرة ربيع الأول، وقد ربطنا القافلة واتفقنا ودفعنا الرعبون. ومن جهتهكم وصّوا حامل الرسالة، الكاكا محمود، على انتظام المواقيت وجلب دواب إضافية، لأن عدد المسافرين يزيد كل يوم، ولا تستغرب يا ولدنا الحبيب إذا جاءك كل جماعة قهوة الشط، عدا عن أفراد العائلة وعائلة نسايبنا.

«أخونا المبجل، حفظه الله

«تم تحضير هذا الخط قبل سفر القافلة بساعة، وقد طلب الوالد الكريم

الإيجاز وحسن الإعلام، أما السوالف الثانية فحين يجمعنا المولى، وهو السميع المجيب.

«الخاتون تتحضر حسب ما أخبرت الوالدة

«ألح سيفو شديد الإلحاح أن نخصه بسلام خاص، وما على الرسول إلا البلاغ. طمّن روحك ولا ينشغل بالك، وبعد هذا اليوم بشهر، وبمشيئة الباري، سنكون بطرفكم. أما أحمال السلام وقناطير الشوق فحدّث ولا حرج.

المرسل والدكم: الحاج صالح العلو

كاتب الخط: أخوكم المحب قدوري».

كان أغلب ما أرسل في الحملين له علاقة بغرفة النوم، وكان ضمنها الوسادة التي تعوّد بدري النوم عليها، كما أرسلت أمه مصحفاً، إضافة إلى بعض أدوات الطبخ. ووجد بدري أيضاً مجموعة من الصرر تحوي مواداً لم يعرف لماذا تستعمل أو كيف، لكن رائحتها الزكية وشت بما يحتمل أن يكون غرضها!

في الأيام الأخيرة من تشرين سقطت الأمطار، وبسقوطها تراجع الحزن، وتفاءل الكثيرون.

أما عندما شوهد الآغا، وهو يحضر مباراة الفروسية في الجمعة الأخيرة من تشرين، وبدا أكثر سمرة، وربما أكثر نحافة، فقد تأكد الكثيرون أنه كان مسافراً، لكن لا يعرف أين!

ولم تمض أيام حتى جاء قادر حاملاً سجادة صغيرة منسوجة بخيوط الحرير، ومعها قلادة، يعرض بيعهما. وحين سأله بدري لمن ومن أين، أبلغه أن أحد أقربائه اشترى السجادة والقلادة من رمضان بيشار، طباخ الآغا، وقد جلبها هذا، مع أشياء كثيرة أخرى، من كرمنشاه، حين كان مع الآغا في زيارة هناك، وعاد قبل أيام.

. . . واشترى بدري القلادة، لتكون أول هدية لزكية.

78

بدخول تشرين الثاني لم يتغير الطقس وحده، تغيرت أشياء أخرى كثيرة أيضاً.

روجينا التي جاءت فجأة، ودون أن يدري أحد، غادرت بنفس الطريقة، ولولا ثقة الناس برضوان قره غولي لما عرف الكثيرون بسفرها. فالعادة أن يجتمع المسافرون في الخان الكبير عند الفجر، وبعد أن تتم صلاة الصبح، يتولى الإمام قراءة عدد من الآيات وبعض الأوراد المناسبة للسفر، يقرأها على ماء في إناء خزفي، وبعد أن ينتهي يرش الماء على المسافرين والحيوانات والأمتعة. وحالما تبدأ القافلة بالمسير، مع التهاليل والأدعية، يتولى صاحب الخان رمي الإناء الخزفي وراء القافلة، وحين يتحول الإناء إلى شظايا، يحرص أهل المسافرين، أو من له بضاعة في القافلة، على التقاط كسرة من الإناء تيمناً وكفأل حسن.

في هذا الصباح، وبعد أن تحركت القافلة، لم ير أحد روجينا والبنات في الخان، لذلك لم يخطر بالبال أبداً أنها سافرت، أو يمكن أن تسافر في هذه القافلة. لكن ما حصل أنها والبنات اللواتي معها سبقن القافلة بمرحلتين، وهناك انتظرن. قيل إن روجينا غادرت كركوك قبل يوم وليلة، وقد رافقها الآغا، ونزل الجميع بضيافة إسماعيل الحاج سليمان، أحد آغوات المنطقة. وبعد سهرة تخللها الرقص والغناء، أهدى الآغا إسماعيل لروجينا حصاناً، وأهدى الفتيات أشياء ثمينة، وفي الصباح ودعها ورجاله بطريقة احتفالية مع الطبل والمزمار. رجّح بعض الناس، عقب سفر روجينا

بأيام أن الآغا كان بين المودعين، لكن أحداً لم يشاهده، فيما أكد من راقب سفر القافلة وجود غايب، الذي أشرف بنفسه على سفر الضيوف.

رضوان قره غولي، وهو يكسر الإناء الفخاري، والقافلة تبدأ مسيرتها، قال، وكان يرفع يديه فرحاً:

ـ ما أطولك يا درب بغداد!

وبعد قليل وبهمس:

ـ عسى أن يكون درب الصدّ!

الذين سمعوا الكلمات الأخيرة، كانوا متأكدين أنه يعني صادق جادو، الذي نافسه وسبقه لشراء حصان، ودّ رضوان لو أنه هو الذي اشتراه، وقد أخذه صادق وسافر به مع القافلة إلى بغداد، لأن السوق هناك أفضل لبيعه.

في المساء، وكان الأسطة رضوان بين أصدقائه، والجميع يدخنون الأراكيل، قال، وكان أكثر وضوحاً:

ـ بسفر الكروان اليوم، خلصنا من همّ، أكبر همّ!

لم تعن كلماته شيئاً هاماً للذين يستمعون، فالعادة أن يكون يوم سفر القافلة يوماً ثقيلاً مرهقاً، إذ كثيراً ما يتخلله في الساعات الأخيرة الاختلاف على دفع أجور الخان، أو ما يستحق كمقابلٍ للسفر؛ وربما يتأخر بعض المسافرين، وقد يعدل غيرهم عن السفر في آخِر لحظة، وما يعنيه ذلك من انتظار، أو من تأجيل الرحلة، إضافة إلى المساومات وإعادة ترتيب الأحمال والمسافرين.

قدر الذين سمعوا ما قاله رضوان أنه يتحدث عن متاعب سفر القافلة، مثل أية مرة، وحين صمت الجميع، ولم يسأله أحد عن الهم الذي يعنيه، سأل، وكان لا يخفي غبطته:

ـ ما سألتوني عن الهم اللي خلصنا منه، لو ما تريدون تعرفون؟

خفتت تدريجياً قرقرة الأراكيل، وتطلعت إليه العيون متسائلة. تنحنح قبل أن يتابع:

ـ من اليوم خلصت كركوك من الفسق!

تنبّه الذين يسمعون، فالعادة أن لا يتكلم الأسطة رضوان إلا قليلاً. أما الآن، وهو يتحدث بهذه الطريقة، دون أن يسأله أحد، وعن شأن لا علاقة له بالعمل، فقد انشدت إليه العيون وساد الصمت انتظاراً لما سيقوله. خفّض صوته قليلاً وهو يضيف:

ـ الكاكا محمود راح ياخذ بطريقه، من الحويلة، الأم وبناتها!

قال الكلمات الأخيرة وغمز بعينه، دلالة أنه يعني روجينا والبنات اللواتي جئن معها. لكن هذه الطريقة المواربة في إعلان الخبر لم تكن كافية أو تبعث على الطمأنينة، رغم أن الذين كانوا يصغون إليه قدّروا، دونما خطأ، أنه يعنيها، لكنهم يريدون أن يسمعوا بآذانهم اسم روجينا يتردد بوضوح. حين تتالت الأسئلة تستوضح وتتأكد، روى الأسطة رضوان كيف أن غايب استدعاه في اليوم السابق إلى القلعة وطلب منه أن يهيىء القافلة لتصطحب معها روجينا والذين جاءوا برفقتها، وأن ذلك سيتم من الحويلة وليس من الخان، ودفع إليه الأجور، وأوصاه أن يبذل أقصى ما يستطيع من أجل راحة المسافرين وسلامة وصولهم.

قال رؤوف، الذي له أكثر من عمل وأكثر من صفة في الخان:

ـ لما شفتك تكسر الحِبّ هالشكل قلت لروحي: عمي اليوم فواده محروق على بيعة هالحصان، وانشاء الله يوصل سلامات حتى ما يقول الناس: عين رضوان!

ـ يا حصان... يا معود...

وبعد قليل وهو يضحك:

ـ صحيح أن كل واحد يدوّر المكسب، لكن فراق هالقحبة، التي ثبرت الدنيا، أكبر مكسب إلنا كلنا، خلصنا وراح ترجع كركوك مثل ما چانت!

رد رؤوف، ولم يكن قادراً على إخفاء فرحه:

ـ بس ظل عليك، يا أبو شامل، تراضي أبو عزيز، لأنه راد وصلة من الحِب ما حصّل، راح كله سحن، لأنك شمرته شمرة مو شلون ما چان، ولما سمعك تقول درب الصد، قال: عوذة من هالسفرة، عوذة من

هاليوم، وبعدها تفل ومشى!

رضوان الذي اهتز بتأثير قهقهته، قال بعد أن هدأ:

ـ إذا ظلت على أبو عزيز سهلة، هذا من جماعتنا، ونعرف شلون نرضّيه...

وبعد قليل، وهو يلتفت إلى الذين حوله ويغمز:

ـ نحن، هنا، علينا نراضي أبو عزيز، وغيرنا، وبالطريق، عليهم ضوا عزيز، مو هالشكل؟

وضج الذين يسمعون بالضحك.

وقبل أن ينقضي ذلك المساء عرفت كركوك أن روجينا رحلت، لكن مثل عادة المدن الصغيرة، مثل عادة القرويين: الشيء الذي لا تراه العين لا يطمئن له القلب. وهكذا أصبح همّ الكثيرين أن يتحروا، أن يروا بأعينهم بيت طلعت باقة وقد غرق في الظلام. أن يسمعوا من مسافرين يصلون إلى كركوك من جهة الشرق أنهم رأوا روجينا ومعها البنات في طريقها إلى بغداد، أو حتى إلى مكان أبعد! ولم يطل الأمر، إذ ما كادت أول قافلة تصل، حتى أكد الذين كانوا فيها أنهم رأوا روجينا، وأضاف بعضهم مع حركات بالعيون والشفاه، أن «البنات ياخذن العقل!».

وإذا كانت عادة الآغوات في مثل هذا الوقت من السنة، وفي موسم الحصاد أيضاً، أن يرابطوا في قراهم لا يتركونها، وأن يلاحقوا الفلاحين للتأكد أنهم فلحوا وبذروا، خاصة بعد أن وقعت الأمطار، فقد شهدت كركوك أعداداً منهم تزيد كل يوم. صحيح أنهم لم يبقوا طويلاً، لكن الحركة التي رافقت وصولهم، ثم الأخبار التي راجت بعد ذلك، جعلت الناس يتساءلون ويتحسبون، خاصة وأن هؤلاء الآغوات اشتروا أكثر ما كان موجوداً من الدواب: الخيول والبغال، وعدد غير قليل من البقر والحمير!

رضوان قره غولي الذي لا يبيع ولا يشتري إلا بعد سؤال القوافل، كان يتحرى ويدقق، ويبالغ كثيراً بعض الأحيان «لأن الهوا الشرجي، كما يقول، بالصيف حريق وبالشتا غريق، وهذا الهوا ما يجي إلا من بغداد

وصوبها!» وكان بسؤاله يريد أن يعرف مزاج بغداد، وما إذا حصل فيها أمر، أو قد يحصل، يغيّر الجو والاحتمالات.

الآن، وبعد هذه الزيارات المفاجئة للآغوات، ومحاولتهم شراء كل أو معظم دواب كركوك، والسخاء غير المألوف في دفع ما يطلب منهم ثمناً لها، ثم ذلك الإلحاح على البائعين لتأمين دواب أخرى من القرى القريبة، هذه الأمور جعلت رضوان يمتنع عن بيع ما لديه من خيول، وجعلته يتحسب أيضاً، فقد قدر أن ما يراه نذير أيام صعبة لا بد ستأتي، وربما في وقت أبكر مما يظن الكثيرون!

صحيح أن الآغوات، وهم يشترون، لم يقوموا بذلك مباشرة، فقد كلفوا وكلاءهم وسماسرة الدواب، لكنهم اشترطوا رؤية الخيول قبل البتّ بأمر شرائها، ليتأكدوا من أنسابها وأعمارها، إضافة إلى جمالها وخلوها من العاهات، وكانوا يرددون، وهم يكلفون غيرهم بالشراء، أن ما يدفعهم إلى ذلك أنهم يتوقعون أن تكون هذه السنة من سنوات الخير. فالأمطار الغزيرة التي هطلت، وحسب تقديرات المسنين، خاصة بعد أن شحت الأمطار في السنوات السابقة، تجعلهم يزرعون أراضٍ لم يزرعوها من قبل، وتجعلهم أيضاً يستعدون، ومنذ الآن، لتأمين الدواب من أجل نقل المحاصيل إلى كركوك وغيرها من المدن! ثم إن الأبقار والثيران التي كانت تفلح الأرض بيعت أو ذبحت خلال السنين السابقة، مما يضطرهم لشراء بديل عنها، وإلا فاتهم بالكامل فلاحة الأرض وزرعها!

قالوا ذلك، أو قيل ذلك نيابة عنهم، وكانوا يفضلون أن تتم عمليات الشراء دون أسئلة كثيرة، لأن الذي يبيع، كما قال طالب محو، أحد كبار آغوات كويسنجق، لا يسأل المشتري عما سيفعله بالبغل الذي يشتريه، وإنما يحدد المبلغ الذي يريده ثمناً لبغله وكفى!

رضوان قره غولي كان متأكداً أنه سيحصل على ثمنٍ مجزٍ للخيول التي يملكها، شرط أن يصبر، رغم أن رجال القوافل الذين سألهم عن الأسعار وحركة البيع والشراء في الأماكن التي مروا بها، أكدوا أن الأسعار هذه

السنة مثل أسعار السنة التي مضت، ولم يتوقعوا أن ترتفع كما حصل حين حاصر داود باشا بغداد. وأضافوا بحزم أقرب إلى اليقين أن حركة البيع ستبقى عادية، أو على وجه أصح بطيئة. وأشار عليه بعضهم أن ينتظر إلى موسم الحصاد، عندها لا بد أن يحصل على أسعار أفضل لخيوله.

أما رؤوف الذي لا يتوقف عن متابعة حركة السوق، لما بلغت الأسعار التي يدفعها المشترون حداً معيناً، ثمناً لكل حصان أو فرس من التي يملكها رضوان، وحسب ما يعني ذلك من ربح، فقد قال لرضوان:

ـ ترى الآغوات ما داموا بكركوك يدفعون أسعار زينة، لأن كل واحد يريد يرجع لربعه وهو يفاخر: تشوفون هذا الحصان؟ هذا راده فلان وراده فلان، لكن آني دفعت أزود منهم واشتريته!

ولما هز رضوان رأسه دون أن يتكلم، تابع رؤوف بلهجة تحريض:

ـ ترى الغيرة هسة ماكلة قلوبهم، لكن إذا شيلوا ومشوا، يجوز ما تلقى أحد يسوم، يسأل بيش، فرأي يا أبو شامل: بيع!

هز رضوان رأسه عدة مرات، وخرجت الكلمات من فمه بصعوبة:

ـ العجلة من الشيطان يا رؤوف...

تنحنح ثم أضاف:

ـ طولة البال زينة، خلنا بالأول نشوف شنو ورا هالسالفة!

وحاول الكثيرون أن يستفيدوا من حماس رؤوف لاقتناعه بالأسعار التي يعرضونها، لكن موقف رضوان قره غولي لم يتغير، إذ ظل رافضاً بإصرار، الأمر الذي حيّر رؤوف وأزعجه، لأنه وحده الذي يفاوض، الذي يساوم، خاصة وأن رضوان كان مستعداً لأن يبيع بأسعار أقل من هذه بكثير قبل شهر أو شهرين. الآن يبدو برفضه غير مفهوم وغير مقنع!

قال له رؤوف في إحدى الأمسيات، وبعد أن عُرض عليه سعر مغرٍ يصعب رفضه:

ـ يا أبو شامل... الواحد يشاور الأكبر منه ويشاور الأصغر منه، وبعدين يرجع لشوره، أشوفك هالأيام حتى السلام ما ترده، شنو القصة،

ما تفهمّني؟

رفع رضوان نحوه وجهاً متسائلاً، ولم يتكلم. قالت عيناه ما يشبه اللوم. تابع رؤوف ببعض الحدة:

- صحيح آني أصغر منك يا أبو شامل، لكن، بصراحة، موقفك يحيّر، وما مقبول!

قال رضوان، وهو يهز رأسه، وكانت كلماته بطيئة:

- المسألة يا ابن الحلال، ما شقد يدفعون اليوم، المسألة شراح يدفعون باگر واللي عقبه...

- رؤوف الذي لم يفهم شيئاً، ظلّ صامتاً وعيناه تنظران باستغراب وقد قلب شفته السفلى.. فتابع رضوان:

- جيّة الآغوات بهالوقت مو لله. الأيام اللي قضوها بالقلعة ما چانت عشق وغرام، خاصة بعد ما راحت مشعولة الصفحة، روجينا. وبعدين، الآغوات اللي مردوا آخر فلس بجيوبهم بعد الحصاد، وصاروا يتدينون، فجأة اغتنوا، والواحد منهم مو بس يريد يتزوج، أو يشتري حصان، يريد يشتري الدنيا، وكأن الفلوس بجيوبهم تحرقهم، ويريدون يخلصون منها، صحيح لو آني غلطان؟

قال رؤوف موافقاً وهو يهز رأسه:

- إي نعم... صدق، هاي الفلوس منين؟

- ومثل ما قلت بلسانك: الواحد يسمع شور الأكبر والأصغر، لكن بعدني ما افتهمت شنو ورا هالقصة: قمحة لو شعيرة!

- وآني حاير، ما أدري، يا أبو شامل!

رد عليه رضوان وهو يبتسم:

- وبعدين إذا خيلنا ظلت ملك أيدينا نقدر نتحرك، نقدر نسوي فد شي، أما إذا راحت منا نتقرم، نصير إيد من ورا وإيد من قدام.

- شوّشتني هوايه يا أبو شامل..

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

ـ چنا بقصة صرنا بقصة ثانية.
ـ أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة، يا رؤوف!
ـ يعني إذا سألوني أجاوبهم: ماكو عندنا خيل للبيع؟ مو هذا اللي تقصده؟

رد رضوان قره غولي، وهو يبتسم:
ـ آني ما قلت هالشكل!
ـ لكن آني افتهمت هالشكل!
ـ زين... خلينا نسمع ونباوع زين، وبعدها الله كريم، نبيع أو نشتري!

وغادر الآغوات عائدين إلى قراهم، كانوا يسوقون أمامهم قطعاناً كثيرة من الدواب، عدا خيول رضوان قره غولي، فقد ظلت في كركوك.

غايب الذي انقطع أياماً عديدة متواصلة، حتى ظن بدري أنه مسافر، ظهر من جديد، وأخذت زياراته تتوالى كل يوم، مع حامد أحياناً، ووحده أغلب الأحيان.

كانت الأحاديث في تلك الزيارات امتداداً للأحاديث السابقة: التقدم الذي حصل في تحضير البيت استعداداً للزواج؛ التغير الذي يحصل في حياة الرجل بعد أن يتزوج؛ مباريات الفروسية؛ إضافة إلى أحاديث عابرة يفرضها الطقس والمسافرون، وما يجدّ من أحداث.

في إحدى الأمسيات، وما إن وصل غايب، حتى اقترح عليه أن يستعد بسرعة، لكي يقوما بزيارة هامة. لم يقل له أين أو لمن. وبدري الذي لم يكن قادراً على الرفض، نظر إليه، وتساءلت عيناه، لكن غايب، بمرح لا يريد ولا يقوى على إخفائه، طلب إليه الاستعجال، وقال رداً على التساؤلات التي تجول بالبال، دون أن تتحول إلى كلمات:
ـ راح تتذكر هالزيارة بعد سنين وسنين!

كان الآغا ينتظرهم. وغايب، الذي هيأ هذه الزيارة، كان فرحاً كطفل، إذ ظل يوزع نظراته بين الإثنين ليقرأ الآثار، خاصة على بدري، ليقول له، بعينيه، مدى الود الذي يكّنه له، إذ أتاح له مثل هذا اللقاء مع الآغا!

بهذا الجو الحميم، وقد تخللته أسئلة كثيرة عن إقامته في كركوك، ومدى تأقلمه مع الطقس، والذي يختلف عن طقس بغداد، خاصة في فصل الشتاء، ثم سأله الآغا، بكثير من المرح والمودة، عن الرحلة الجديدة التي يستعد لها: الزواج، وأشعره أنه يعرف ما عرضه غايب، وكيف اعتذر، وإنه يفهم ذلك. وبعد أن قُدم الشاي وعدة أنواع من فواكه الخريف المتأخرة، تمنى له الآغا حياة جديدة وسعيدة، ومليئة بالأطفال أيضاً. قال ذلك وهو يضحك، ثم التفت إلى غايب، وسأله ما إذا كان الوِلد في القلعة على معرفة بالأمر، وأنهم مستعدون لإقامة عرس «لأفضل ضابط من ضباط القلعة» وغايب الذي زايله الحذر، بعد أن أفعم الود الجو كله، أكد للآغا أنه «تم اتخاذ جميع الترتيبات من أجل إقامة عرس لن تنساه كركوك لسنين وسنين!».

هكذا كانت الزيارة، وقد تمت استعادة وقائعها، وبالتفصيل، في اليوم التالي، أثناء زيارة قام بها غايب وحامد معاً. وبدري الذي تحدث قليلاً أثناء زيارته للآغا، وكان أغلب الأحيان يرد على الأسئلة التي توجه إليه، أو يكتفي بتعليقات موجزة، كلما رأى ضرورة لذلك، كان حريصاً في اليوم التالي، وبرجاء أقرب إلى التوسل، على أن يكون العرس، إذا رغبت القلعة بالمشاركة، بسيطاً إلى أقصى حد ممكن، وقصيراً أيضاً!

حامد الذي لم يستطع أن يفهم، أو يقر، تحفظات بدري، وقد اعتبرها أقرب إلى الرفض، سأل بطريقة لا تخلو من تهكم قاسٍ:

ـ ما أدري ليش ما تريد تمالحنا، ما تفهمني؟

وحين نظر إليه بدري بعتاب، تابع:

ـ يجوز، بيوم من الأيام، كل واحد منا كان بصفحة، انت بالسراي ونحن بديرة ثانية، بس صار لنا هنا، سنة، أكثر من سنة، وأنت تبيع نزاكة: «رجاء؛ إذا ممكن؛ ممنون...» وما أدري بعد شنو، وكأنك تريد تبقى بعيد وغريب، صحيح لو مو صحيح؟

رد بدري، وقد بذل جهداً كي يحافظ على هدوئه:

ـ رحت كلش زايد. . . يا أبو جميل. . . كل اللي تقوله ما فكرت بيه، ولا ببالي: آني بالسراي وانت بصفحة ثانية، فشنو لزوم هذا الكلام؟

قال غايب، وهو يبتسم:

ـ يجوز أبو جميل أخذ على خاطره، لأنك ما قبلت صوغة الآغا، وكأنك ما تريدنا بزواجك نفرح وياك!

ـ يا جماعة الخير. . . آني كل قصدي أن نسوي عرس بسيط، بليا خبصة، وبليا تكاليف زايدة. أما أن تفرحوا وياي فهذا اللي أريد، وأتمناه!

هجم عليه حامد، عانقه بحرارة وهو يقول:

ـ بعد اليوم ماكو تبيعنا نزاكة، إنت واحد منا، مثلنا، إي أم لا؟

ـ على بختك، أبو جميل، هاي ينراد لها سؤال؟

قال غايب، في محاولة للوصول إلى تسوية:

ـ راح نسوي الضروري، ومثل ما قلت: بليا خبصة، فخلّها علينا!

ومع كل يوم يمر يزداد البيت الذي استأجره بدري اكتمالاً وتألقاً. وإذا كانت لأم قدوري نقيصة، أو خطأ في تربية أولادها، فذلك الإفراط بتدليل أبنائها الذكور، خاصة بدري، مما جعله قليل المعرفة، وفي أحيان كثيرة، مهملاً. ولولا المدرسة العسكرية التي قومته بعض الشيء، واضطرته للاعتماد على نفسه، لظل بحاجة إلى مساعدة الآخرين.

الآن، وهو يمضي بتحضير البيت، يجد قادر إلى جانبه ويساعده. لذلك يتغير نظام الغرف كل يوم. إذ بعد الاتفاق على اعتبار غرفة ما أصلح الغرف لتكون غرفة نومه، ولا يتم ذلك إلا بعد مشاورات مع قادر، وغالباً ما يتخلل الأمر اختلاف وإعادة نظر، وبدري وحده يمثل الرأي والرأي المخالف، لأن مهمة قادر تنفيذية، وهذا ما يؤدي إلى تغيير الترتيب.

يقول لقادر:

ـ هذه القبة شمالية، باردة بالشتا، فلازم نحوّلها للقعدة، لأنها لا تصلح للنوم.

ـ نحولها، شكو بيها!

ـ وهذا الصندوق، هنا، زايد، لازم نخليه بقبة ثانية!
ـ شكو بيها نخليه بقبة ثانية!
ـ وهذا الكنتور مايل.
ـ إي نعم مايل!
ـ نحط جواه وصلة خشب
ـ شكو بيها، نحط وصلة خشب!
ـ وهذا الزرع، هنا هوايه، لازم نفرّقه
ـ شكو بيها... نفرّقه!

وفي الليل، قبل أن ينام، يستعيد بدري صورة أخرى للبيت، وإعادة ترتيبه، لكي يكون أجمل، أكثر تناسقاً، ويتذكر ما كانت تفعله أختاه، ما كانت تفعله أمه، وتتراءى له صورة زكية وهي تدخل البيت أول مرة. ستصاب بالدهشة للتنظيم الدقيق، للانسجام والذوق، وحين تتطلع إلى غرفة النوم، وترى السرير النحاسي وسط الغرفة، وقد انسدلت فوقه الملاءات البيضاء، سوف تشعر بالخجل، بشيء من الارتباك. وماذا إذا أرادت هي، أو إحدى أختيه، أن تغير شيئاً في آخر لحظة؟ قال بدري لنفسه، وهو يختصر ابتسامته: «لا يمكن لامرأة أن ترضى عن طبخ أو ترتيب يقوم به رجل». وعنّت له عمته زاهدة: «وهل سترفع الزوالي والبسط لتتأكد من النظافة؟» وخيمت عليه صورة أمه: «ستسبقها الهلاهل، ستملأ الفضاء، ولا بد أن تزداد حمرة وجهها حتى لتبدو مثل الطماطا» ضحك من هذا التشبيه، وعدله: «سيبدو وجهها مثل الشمندر». وحين تمر على غرف البيت، وترى ما بذل من جهد لإعداده وترتيبه، سوف تقول بصوت عال: «صلوات على محمد... هذا يابا أنت كله بوحدك سويته؟ ألف صلاة عليك يا محمد» ولا بد أن تطلق الهلاهل من جديد، وستدمع عيناها من الفرح. وبعد ذاك ستتوالى كلمات الثناء والتقدير، وتنظر إليه زكية بطريقة تحمل معاني الحب والامتنان.

وما قرره في الليل، قبل أن ينام، من تعديلات عليه أن يجريها في اليوم

التالي، ما تلبث أن تتغير، قليلاً أو كثيراً، وهو يحاول وقادر بين يديه يعمل ويردد كلمة لا يغيرها؛ شكو بيها. . . نجرب، نشوف!

ويوماً بعد آخر يقترب موعد وصول «أهل بغداد» كما أصبح يردد، فهو لا ينتظر وصول زكية وحدها، ولم يتعود بعد أن يذكرها بمفردها، كما أن شوقه للآخرين لا يقل عن شوقه إليها.

ويقرر أن ينتقل من القلعة إلى البيت، «لأن البيت الفارغ، كما قال لنفسه، يظل بارد وموحش، والنَفَس والناس تدفي البيت، تعمره، وبعدين لازم التعود عليه، لأني راح أصير أبو بيت».

ونقل حاجاته القليلة إلى البيت الجديد. بدت تلك الحاجات زائدة، أو لا تتناسب مع الأشياء الجديدة اللامعة، والتي انتظمت ضمن نسق ارتضاه أخيراً، ووافقه قادر على ذلك. قال يمازح قادر:

ـ ترى بعد هالساعة ماكو أي كلام، وأنت لازم تقول لي: خلص، تمام؛ مو شكو بيها. . . ونجرب!

ـ شكو بيها. . . عمي

ـ يعني كل شي تمام؟

ـ تمام وانتظام. . . افندينا!

كان يود لو يطلب من قادر البقاء معه في البيت إلى حين وصول «أهل بغداد»، إذ يمكن أن يؤنسه وأن يساعده، لكنه شعر بالحرج، وقدّر أن مثل هذا الطلب، والذي سيلبيه قادر بفرح ودون تردد، سوف ينتزعه من أسرته، وفيه الكثير من الظلم، مما دعاه لصرف النظر عنه. ومع ذلك ظل قادر يأتي في الصباح الباكر مع الخبز الذي خرج لتوه من التنور، والحليب، وبعض الخضار والفواكه، ولا يترك البيت إلا بعد أن يحلّ الظلام.

في اليوم التالي لانتقاله زاره غايب وحامد. تجولا في البيت، وأثنيا على ترتيبه وجماله، وتمنيا له السعادة والفأل الحسن. وتعمد غايب أن يلقي نظرة فاحصة على المداخل والحديقة ليقدر كيف يمكن أن تجري الزفة، هكذا أشار وهو لا يخفي غبطته.

ومر يوم آخر هطلت خلاله أمطار غزيرة، ورغم قلق بدري على المسافرين، واحتمال أن تعيقهم مثل تلك الأمطار، إلا أن تفاؤل قادر، وتوقعه أن تكون هذه السنة سنة خير، ثم تلك الرائحة التي ملأت الطبيعة، بعد أن ارتوت الأرض وغسلت الأشجار، جعلت كل شيء يبدو ناصعاً متألقاً، وكأن الدنيا في ولادتها الأولى، خاصة وأن القمر تلك الليلة بدأ يظهر ويغيب، بعد أن تمزقت الغيوم وأخذت تتبعثر كالقطن في السماء.
قال قادر ليضفي جواً من البهجة، وليزيل قلق بدري:

- لازم تعرف يا أفندينا: المطر: كركوك وفوق، كركوك وجوا مطر قليل، مطر ماكو...

وبعد قليل، وحين اكتفى بدري بهزات من رأسه:

- وإذا جا مطر زين كل شي يرخص، أفندي، والفقير يشبع!

- المطر هو الخير، قادر، وبليا المطر الناس تموت، أو تهاجر، وما يبقى فد شي يستاهل، تمام لو شكو بيها؟

- تمام... تمام أفندينا

ورغم ما خلّفته الأمطار من وحول في الطريق إلى بيت بدري، فقد جاءه في اليوم التالي غايب. جاء وحده، ومنذ اللحظات الأولى بدا أن في وجهه كلاماً يريد أن يقوله.

بعد أن قدّم لهما قادر الشاي، قال له غايب، وبطريقة أقرب إلى الأمر: خلينا وحدنا كاكا!

ما كاد قادر يغادر الغرفة حتى بدأ غايب:

- أكو موضوع صار لي مدة أريد أبحثه وياك، ولازم تفهمني زين...

كانت البداية بصوت مرتجف، غايب لا يزال يتهيب من طرح ما يريد طرحه، وقد ظهر ذلك من خلال نظراته القلقة، من خلال تغيير جلسته أكثر من مرة. قال له بدري لكي يشجعه:

- تفضل، قول اللي تريده وآني كلي آذان!

- المسألة بصراحة، ولأنا وثقنا بك، ونعتبرك، مثل ما قال الآغا،

أفضل ضباط القلعة، نريدك تكون ويّانا، واحد منا...

وحين لمح ابتسامة على شفتي بدري، وقد أربكته هذه الابتسامة، أضاف بعصبية:

ـ الباشا يريد يتخلص من كل ضابط زين، من كل ضابط محبوب..

وتغيرت اللهجة، أصبح غايب أكثر سيطرة على نفسه:

ـ ودون مقدمات، دون تفاصيل، وأنت تعرف كل شي مثلي، أحسن مني، وأنت أصلاً واحد من الضحايا، ومرّ على عقوبتك أكثر من سنة ونصف ويجوز حتى الآن ما تعرف شنو الصوج، شنو الذنب، ويجوز تظل سنة، ثنتين، بعد، مشمور بكركوك أو بديرة ثانية، وماكو أحد يذكرك...

أخذ نفساً عميقاً، وغيّر جلسته ليصبح مقابل بدري تماماً:

ـ ووصلتنا معلومات من الجماعة اللي انّقلوا لبغداد: تحقيقات انفتحت، ومعها التهديد والشتايم والرزالات وما أدري بعد شنو، وكل المعلومات تؤكد أن الباشا ناوي على شر، وحتى إرسال الآغا إلى كركوك خدعة، فقررنا ندافع عن روحنا، ونريدك تكون معنا، واحد منا...

ولم يترك لبدري أن يسأل، أن يتكلم، تابع بلهجة صارمة:

ـ ولازم تعرف: الضباط كلهم ويانا، مو بس بكركوك، بأغلب القطعات، وبكل مكان. جماعة الشمال كلهم ويانا، والموصل، وحتى البصرة. ومثل ما قلت لك: المسألة مربوطة ومظبوطة، وماكو أحد يقدر يوقف بوجهنا، وحتى إلنا جماعة داخل السراي، وبالساعة المناسبة، وإذا راد الباشا يغدر، يهجم، قبل ما يتعشى بينا لازم نتغدى بيه!

حين قال كل هذا، بدا وكأن حملاً انزاح عن كتفيه، تطلع إلى عيني بدري مباشرة وكأنه يتلمس الجواب من العينين قبل أن يسمع الكلمات من الشفتين.

فوجىء بدري. إنه الآن أمام مفارق طرق، ولم يهيىء نفسه لسلوك أي منها. صحيح أنه ليس مع باشا بغداد، فالجرح الذي خلّفه في نفسه لا يمكن أن ينساه بسهولة أو بهذه السرعة، لكن لا يعتبر نفسه خصماً للباشا،

وعليه أن يثأر منه، أن ينضم إلى خصومه. ثم من هم هؤلاء الخصوم؟ وهل يمكن أن يكون الآغا أفضل من داود باشا؟

عشرات الأفكار والأسئلة تمثلت له وعصفت به، وغايب يتكلم. ثم إن هذه الأسئلة لا تحتمل الانتظار أو التأجيل، ولا بد من قول كلمة، من اتخاذ موقف. ربما قالت عيناه، ملامح وجهه، شيئاً جعل غايب يضيف، ولكن براحة أقرب إلى الثقة هذه المرة:

ـ ما أريد أضغط عليك، وما نريد أحد ويانا بليا قناعة...

ابتسم، وعيناه تبحثان عن جواب في عيني بدري، وبعد قليل..

ـ إي نعم.. قناعة وحماس، لأن هذا الشي يتسوى بالعمر نوبة وحدة، وينذكر لولد الولد.

نهض، أخذ يتمشى في الغرفة. بدري لا يزال تحت وقع المفاجأة، وقد أحس بخطورة الموقف. اتسع الصمت الذي خيم على الغرفة وقسا. وخطوات غايب، وهي تجرح الصمت، بدت ثقيلة متحدية.

في لحظة ما، قال غايب، وكأنه يضع نهاية للموقف الصعب:

ـ ما أريد جواب فوري. معك الليل بطوله، فكر، دانش روحك، ومعك باچر كله، إذا وصلت إلى جواب تعرف وين آني، إذا ردت تجي هلا وألف مرحبا، وإذا تأخرت، إذا احترت آني أمر عليك عقب باچر...

وقال له، وهو يودعه:

ـ لازم تعرف يا بدري، لولا غلاتك عند الآغا، وعند كل اللي يعرفوك، چان لا تعنّيت ولا حچيت وياك، لأن المسألة خالصة، وما تتوقف على واحد!

لم يشأ أن يقول له إن المسألة لا تتوقف عليه. لم يسمه، لكن بدري فهم جيداً ما يقصده ومن يعني!

79

إلى ما قبل هذه الليلة، كان الزمن ثقيلاً بطيئاً، إذ بعد أن غادرت قافلة كاكا محمود في طريقها إلى بغداد، أخذ بدري يعد الأيام. وكنوع من تسلية النفس، ومثلما كانت تفعل جدته في حساب أيام رمضان، إذ تجمع نوى التمر، وتعدها كل يوم، لتعرف كم انقضى من الأيام، وكم بقي. ومع كل يوم يمضى تردد: «وهذا يوم خلص»؛ طلب من قادر أن يأتيه بكمية كبيرة من الحصى، كي يحسب ما تبقى لوصول «أهل بغداد». وقادر الذي يحرص على الاتقان، ذهب إلى المجرى الكبير، حيث تتدفق مياه كركوك ومياه أمطار المناطق المجاورة، وانتقى من هناك مجموعة كبيرة من الحصى المصقولة والمتعددة الألوان. وهكذا أصبحت لعبة بدري الأليفة أن يسقط حصاة كل يوم في وعاء معدني خصصه لذلك!

كان، وهو يسقط الحصاة، بعد أن يرفع يده إلى أقصى حد، يسمع لها رنيناً عذباً، ويظل هذا الرنين يتردد في أذنيه لوقت طويل. ومثلما كانت تفعل جدته يحاول أن يفعل. ردد، وهو يسقط الحصاة الأولى: واحد، الله واحد؛ ومع الحصاة الثانية: اثنين، الله ومحمد اثنين؛ ومع الحصاة الثالثة: الله ومحمد وعلي ثلاثة؛ وواصل العد على طريقة جدته إلى حد معين، ثم لم تعد ذاكرته تسعفه ليردد كما كانت تردد، فترك الأحجار وحدها تتكلم، وتعد نفسها، من خلال رنينها العذب في الطبق المعدني.

ومع كل حصاة تسقط يزداد فرحاً، عكس ما كان يحصل لجدته، إذ تريد أن يطول رمضان ويمتد إلى آخر العمر، وتحزن على كل يوم يمضي.

أما هو، ومع سقوط كل حصاة، فتتراءى له وجوه يحبها، ومعها ينتظر حياة جديدة ستكون قادرة على محاربة الوحدة والملل، وسوف يحس بالدفء، بفرح الآخرين بفرحه، خاصة حين يرى دموع أمه وقد تفجّرت بدافع الفرح والحزن معاً، ولا تدري إن كانت سعيدة للأيام التي ستأتي أم حزينة على الأيام التي مضت!

ويستعيد بذاكرته محطات الطريق. كان الطريق إلى بغداد، رغم طوله، سريعاً قصيراً، خاصة في المرحلة الأخيرة، حين أخذت رائحة بغداد تزدحم في الجو. أما وهو عائد منها إلى كركوك، فقد طال الزمن وامتد الطريق إلى درجة وكأنه بلا نهاية. بل أكثر من ذلك راودته نفسه لو يتوقف، لو يترك القافلة. حتى رفاق الطريق في الذهاب، كانوا أكثر مرحاً وأكثر كرماً، أما حين عاد إلى كركوك فلم يستطع أن يتبادل مع الذين رافقهم إلا أقل الكلمات، ومضوا دون أن يخلفوا في نفسه أي أثر.

الآن، والحصى تزداد في الإناء المعدني، يشعر أن «أهل بغداد» اقتربوا، ولن تمر أيام إلا ويمتلىء البيت بالضجيج والضحكات والمرح، ويتغير كل شيء. فكر، كمحاولة لاختصار الزمن، أن يلتقي بهم في الحويلة، أو في مكان آخر على الطريق، لكن مثل هذه الفكرة لم تدم طويلاً، إذ من الخفة أن يُظهر عواطفه بهذه السرعة أو بهذا المقدار. ماذا ستقول زكية، أو بالأحرى ماذا ستقول أختاه وعمته زاهدة، وربما أمه أيضاً، بعد أن أرهقهم طوال سنوات برفضه، ليس الفتيات المقترحات لأن تكون واحدة منهن زوجة له، وإنما وهو يرفض مجرد مناقشة فكرة الزواج، أيليق به الآن، كما يفعل العشاق، الانتظار على قارعة الطريق؟

هذه الفكرة، وهي تراوده الآن، لشعوره ببلادة الزمن، أنه لا يتحرك إلا كما تتحرك الأشجار، يترنح لكن لا يتقدم، لا يخطو مجرد خطوة للأمام. حتى الرنين العذب للحصى وهي تهبط في الإناء خلال الأيام الأولى لم تعد كذلك الآن، رغم أنه يحاول، كما تعلم في العسكرية، إسقاط الحصاة في مكان فارغ كي لا تقع على اللواتي سبقتها، ومع ذلك ينبعث الصوت

مخنوقاً كتيماً كأنه لا يريد الاعتراف أن يوماً آخر قد انقضى!

حين جاءه غايب تلك الليلة، وقال الذي قاله، لم يستطع أن ينام! بذل جهداً، وهو يتقلّب؛ غيّر الوسادة أكثر من مرة؛ أحس بالعطش فشرب وحمل معه كوباً ليكون قريباً منه، لكنه لم يستطع أن ينام لحظة واحدة، وجاء الفجر سريعاً أيضاً، وملأ النور كركوك كلها فجأة، ولم يستطع أن ينام!

ذهب إلى القلعة، ولم يفطن أنه لم يرم الحصاة في الإناء المعدني الا وهو في ساحة التدريب! حاول أن يتذكر عدد الحصى، عدد الأيام التي مضت وتلك الباقية، وجد نفسه مشوشاً مضطرباً، تذكر ولم يتذكر. ومر الوقت أسرع مما أراد ومما قدّر.

وإذا كانت عادته أن لا يشرب إلا في المناسبات، ومع الآخرين، فقد وجد نفسه يكلف أحد العناصر في القلعة أن يشتري له من المدينة قرابية من العرق، وأن يأخذها مباشرة إلى البيت!

قال لقادر إنه متعب وينوي أن ينام مبكراً، لذلك يمكِن أن يغادر في الوقت الذي يشاء لأنه ليس بحاجة إليه. وقد فهم قادر أن عليه المغادرة، وهذا ما فعله. لأول مرة في حياته يسيطر عليه الشعور أنه وحيد، محاصر وعاجز. أكثر من ذلك، يشعر أنه بمواجهة تجربة لا يحبها ولا تعني له شيئاً، وعليه أن يكون جزءاً منها رغماً عنه. لا يستطيع أن يقول نعم لغايب أو حتى لسيده، ولا يعرف كيف يمكن أن يقول: لا. ولماذا يريد الجواب اليوم أو غداً؟ ماذا لو تركوه؟ ماذا لو تركوه إلى أن يتزوج، إلى أن يصل «أهل بغداد؟» هؤلاء الذين يقطعون الطريق إليه الآن، وقد جاءوا تعبيراً عن الود، عن الأيام الجميلة التي كانت ومع الحلم أن أياماً أجمل ستأتي، وسيكونون معاً. هل الأمر عاجل إلى هذه الدرجة؟ وماذا لو كان معهم أو لم يكن، هل يغير ذلك في الأمر شيئاً؟

ثم كيف انقضت الليلة الفائتة بهذه السرعة دون أن يستطيع الوصول إلى أي موقف؟ وكيف انقضى اليوم أيضاً دون أن يحس بمروره؟ كان مشوشاً

إلى درجة لا يقوى على استعادة الأفكار التي مرت بسرعة في رأسه. كانت مضطربة، متداخلة، سريعة، وكان الزمن سريعاً. «ما أريد جواب فوري، معك الليل بطوله، فكر، دانش روحك، ومعك باچر كله، إذا وصلت إلى جواب تعرف وين آني، إذا ردت تجي هلا وألف مرحبا، وإذا تأخرت، إذا احترت، آني أمر عليك عقب باچر».

هكذا قال له غايب. قال الكلمات الأخيرة، وكان ينظر إليه ويبتسم بطريقة فيها السخرية والتحدي معاً. وانقضى الليل. لم يفكر، أو بالأحرى لم يفكر بهدوء، بالطريقة التي تعودها، ورغم أنه بقي صاحياً الليل كله لم يتمكن من بلورة أية فكرة، أي خيار. وحين رنت بذاكرته كلمة «دانش» ضحك بسخرية «لشد ما تكون قاسية بعض الكلمات!».

في لحظة ما، أثناء التدريب، عنّ له أن يذهب، هرولة، إلى غايب، أن يفتح الباب بقوة، ويقول له: «لا يمكن أن أكون معك أو مع الآغا؛ ويجب أن تعرف: أنا لست مع الباشا». لو فعل. لو قال له ذلك، لفهم غايب شيئاً واحداً: «لا أريد أن أكون معكم»، وغير ذلك لا يعنيه، أو لا يعني له شيئاً هاماً. وماذا يمكن أن يفعل أيضاً؟ هل يتركه ليمضي هكذا؟ هل يكظم غيظه، كما حصل أثناء الاعتذار عن قبول المبلغ الذي قدمه كهدية من أجل الزواج، أم سيأمر رجاله، وبغضب، بالتحفظ عليه، أو ربما باعتقال هذا الضابط المتمرد؟

تراءت له صور كثيرة للآغا، في بغداد، وفي أماكن أخرى. حين كان يأتي إلى السراي، حين يغادر السراي؛ في القلعة؛ وبعد الانتصارات. كان يمشي مرحاً، تياهاً، فخوراً إلى أقصى حد. وتذكر حفلة القلعة، كان، رغم تواضع ملابسه، يريد أن يقول للجميع، دون كلمات، من هو، ومن هو الباشا. أو ماذا يعني الباشا لو لم يكن إلى جانبه! وقد وصلت الرسالة، لكن الباشا يعرف، أكثر من أي شيء آخر، وأكثر من أي إنسان آخر، كيف يخفي عواطفه. إنه يمتص الضربات كما يمتص القطن الماء. أما الآغا، ورغم محاولاته أن يكون متواضعاً، وبعض الأحيان محباً، إلا أن ما

بداخله ينزّ إلى الخارج، يظهر في لحظة معينة، من خلال التفاتة، من طريقته في السؤال، أو حتى رد التحية!

ولا يمكن لبدري أن يكون واحداً من رجاله، أن يحبه، أن يكون معه إلى النهاية. صحيح أنه يطيعه الآن، ينفذ أوامره، لأن العسكرية علمته أن يطيع رؤساءه، أن ينفذ أوامرهم، لكن إذا خرج على الباشا، إذا اختلف معه، فلا يمكن أن يكون معه.

تراءت له هذه الصور قبل أن يشرب، وتراءت له وهو يشرب، ولا يعرف ما إذا تبعته إلى السرير، لأنه لا يعرف كيف وصل إلى السرير، أو متى نام.

وانقضت المهلة التي حددها غايب. انتهت كالحلم وأسرع من البرق. ماذا سيرد عليه إذا جاءه اليوم؟

وفجأة وجد نفسه في اليوم التالي يذهب إلى حامد:

ـ حامد أنت تعرفني أحسن من غيرك، ويجوز تقدر تفهم موقفي. . .

وتعمد حامد ألا يفهم، هز رأسه ويده مستوضحاً، دون أن يتكلم، تابع بدري:

ـ تعرف وضعي، خاصة بهالأيام: مخبوص، وراسي ما أقدر أحكه، وكل فكري يم الجماعة اللي راح يوصلون بين يوم والثاني، فلخاطر الله هدوني، فكوا عني ياقة. .

وتعمد حامد ألا يفهم أيضاً، سأل وهو يبتسم:

ـ أشوفك تحچي ألغاز اليوم. شنو القصة، ما تفهمني؟

ـ لا تتجاهل. . أنت تعرف كل شي، رد بدري، وأريدها منك!

ـ بس قل لي شنو المطلوب، شنو اللي رايده مني؟

ـ تقول لغايب يتركني، حتى اشوف دربي!

ـ أشوفك متوازي وصاير عصبي هوايه، وكأن غايب زعلك، أو مسوّي وياك فد مكسورة. . .

صرخ على الحاجب، ليأتيهما بالماء والحامض. وتابع بمرح:

ـ نحن أخوة، خاصة بهالديرة الگشرة، والواحد منا للثاني، فإذا زعلك غايب، إذا صار فد شي، يتصلح، فلا تدير بال، يا معود!

وتعمد بدري أن يبقي الأمور بهذا الشكل، واضحة بمقدار وغامضة بنفس المقدار، وهذا من الدروس التي تعلّمها أثناء مرافقة الباشا، لأن أية كلمة زائدة قد تؤخذ عليه، ويدفع ثمنها، وحامد تعلم دروساً متشابهة، ولذلك لم يلّح ولم يسأل.

في اليوم التالي جاءه غايب، جاء وحده ليعطيه أكثر من درس:

ـ لولا الثقة والمعزة، يا بدري، ما چان حچيت وياك كلمة واحدة!

ـ خير. . . شنو اللي صار؟

ـ الكلام چان بيني وبينك، وماكو أحد ثالث، صدق لو لا؟

ـ إي نعم.

ـ وبدل ما تجيني وتحچي وياي رحت لغيري؟

ـ حامد مو غريب، وكل ما قلته إني مخبوص بهالأيام، وما أقدر أفكر بفد شي، فخلي غايب يتركني!

ابتسم غايب، في محاولة لأن يغير الجو قليلاً:

ـ أقدر ظروفك، وكل ما ردته منك كلمة، كلمة واحدة: تريد تكون ويانا؟ واحد منا؟ أم لا؟

وتغيرت النبرة تماماً:

ـ أصلاً لو صار فد شي، وأنت بهذي الظروف، وحتى لو ردت تشارك ويانا، نحن ما راح نقبل، راح نقول لك: هسه مو وقتك، روح هسه تنوّس، وبعدين يجي دورك، لأن كل شي بوقته زين!

قال بدري، ولم يخل صوته من حدة:

ـ آني قدمت على إجازة، إجازة زواج، وأنت تعرف: الضابط المجاز كأنه خارج الخدمة، لا يقدر يعطي أمر، ولا يتكلف بمهمة!

ـ كل اللي أريده منك، يا بدري، كلمة: ويانا لو ويا الباشا؟

ـ آني، بدءاً من اليوم، بإجازة، وبعد الإجازة الله كريم!

هز غايب رأسه مرات عديدة متوالية وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ زين... زين...

وبعد قليل، وكان ينظر إليه بغيظ وسخرية معاً:

ـ قال لنا الآغا: «انطوه فرصة ثانية، يمكن الله يهديه ويصير واحد منا».

لكن يبين أنك ما تريد، لو آني غلطان؟

ـ أريدك تعرف فد شي واحد: آني مو ويّا الباشا!

ـ إذا مو ويا الباشا، مو ويانا، ويا منو حضرتك؟

ـ يمكن تقول اللي تريده، غايب، لكن لازم تعرف: آني ما أريد أكون ويّا أحد، مو بس هالشكل، أريد أخلي العسكرية لأهلها وأمشي، أريد أصير بقال، صاحب علوة، بياع شرا، ولا دوخة الراس هذي: ويانا لو ويا غيرنا؛ هذا رأيي بالمختصر المفيد!

ـ أشوفك حمقان كلش، وكأن أحد آكل خبزتك!

ـ ماكو أحد ياكل خبزة أحد، إلا إذا الواحد خلص عمره!

ـ هذا رأيك الأخير؟

ـ وتسلم على الآغا، وتقول له: بدري قرر يستعفي!

ـ وترجع إلى بغداد وهناك تشتغل؟

ـ حتى حمّال مستعد اشتغل، شكو بيها.. بعدني بشبابي وقوتي!

ـ بعد ما صرت عصبي هالشكل، وضايج منا، يجوز حتى بعرسك ما تريد تشوفنا؟

ـ كل شي بوحده، غايب. فإذا شلنا هذه القصة على صفحة، فالله يحييكم بكل وقت وبكل مكان، هنا وببغداد، اليوم وباچر.

وبعد قليل، وبجو حاول بدري أن يجعله مرحاً:

ـ وأزعل إذا ما شفتكم بالعرس، وانت مفوّض تعزم اللي تريده!

ـ زين... زين، وعلى بركة الله.

80

حتى القرارات الخاطئة، وتلك التي لم يفكر فيها الإنسان من قبل، حين تُتخذ، تجعل من اتخذها إنساناً مختلفاً. قد يندم للحظة، وربما يلوم نفسه، لكن في لحظة أخرى يشعر بنوع من الراحة، فقد اتخذ القرار، ولا بد الآن من مواجهة حالة جديدة تختلف عن السابق.

بدري الذي قضى ليلتين حائراً مؤرقاً، ولا يعرف ما إذا نام أم لا، ورغم أنه لم يفكر ولم يحضّر لما سيقوله لغايب، ولم يدر في باله، ولو لمحاً، أن يعلن، وبهذا الحسم، رغبته في ترك العسكرية، حتى لو اضطر أن يعمل حمالاً، وجد نفسه، بعد أن قال الذي قاله لغايب، إنساناً آخر: أكثر حرية، وأكثر استعداداً لكل شيء.

قال لقادر، وهو لا يقوى على اخفاء نوع من الفرح انفجر في داخله:

ـ شنو رأيك، قادر، لو نشتري، أنا وأنت، قاع، ونفلحها ونزرعها؟

ـ شكو بيها، عمي، نشتري!

ـ ونزرعها حنطة لو شلب؟

ـ الحنطة أحسن، عمي!

ـ حنطة لو أشجار؟

ـ الأشجار أحسن وأحسن، عمي!

وبكركوك لو ببغداد؟

ـ بكركوك أحسن، عمي!

ـ ومنو يشتغل بيها؟

ـ أنت ما عليك، كل شي علي، عمي!
وشلون نتقاسم المحصول؟
ـ اللي تنطينياه، اللي ترضى بيه نفسك، يكفي وزود، عمي!
ـ وإذا اختلفنا، قادر؟
ـ إنشاء الله ما نختلف، عمي!
ـ هاي دنيا، كل شيء يصير بيها، فإذا اختلفنا؟
ـ ما نختلف، إذا قلبي قال لي إنك ما تريدني، أقول لك في أمان الله، عمي!
ـ وإذا آني ما وافقت، واختلفنا؟
ردَّ قادر الذي أحس باللعبة:
ـ تعرف. . . عمي؟
ـ شنو؟ قول.
ـ الأحسن، عمي، ما نشتري القاع، حتى نظل أصدقاء!
وضج الإثنان بالضحك. بعد أن هدآ، قال قادر بنوع من العتاب:
ـ الصبح اشتريت جوز مال الحويلة، أحسن جوز بالمنطقة، وأنت ما ذقته؛ والبارحة جبت رمان بعقوبة، ما مدّيت إيدك عليه، شنو خايف تمد إيدك على الشي اللي أجيبه؟

ولم يتركه ليجيب، حمل صحناً من الجوز، وبدأ بتقشير رمانة. ما إن رأى بدري حبات الرمان حتى تذكر الحصى. قال لنفسه، بعد أن نسي رمي حصاتين عن اليومين السابقين «صار لازم نكرف الحصو ونشمر». نهض بسرعة، التقط الحصاة الأولى، رفع يده إلى أقصى حد، وترك الحصاة تهبط، سمع لها رنيناً عذباً لم يسمعه في الأيام الماضية. التقط حصاة ثانية، بدا منشرحاً، رماها بنفس الطريقة، وسمع لها أيضاً ذات الرنين. قال لقادر:
ـ لازم باچر أمرّ على رضوان قره غولي واسأله شوكت توصل القافلة.
ـ شكو بيها، لازم نسأله. . .

وبعد قليل، وقد برقت عينا قادر:

ـ تريدني أروح هسه، عمي، آني أعرف بيته؟

ـ الصباح رباح، قادر، ومثل ما يقول أهل بغداد: صابح القوم ولا تماسيهم!

كان رضوان منشرحاً في ذلك الصباح المشمس، وربما عاد لتوه من الإسطبل الواقع في الجهة الجنوبية من الخان، فحبات العرق الصغيرة تتناثر على جبينه، ورائحة الخيل تملأ ملابسه. ما إن رأى بدري، وبعد أن صافحه بحرارة، حتى قال، وخرج صوته عميقاً:

ـ ابن الحلال عند ذكره..

ابتسم وهو يضيف:

ـ لو متأخر فد ساعة زمان چان ما شفتني إلا وطاب عليك!

ـ القلوب سواجي يا أبو شامل. قول. بشر

ـ الله يبشّرك بالخير..

وقبل أن يتابع أمسك بيد بدري، عند الزند، وهو يدفعه بمودة:

ـ شمسة اليوم دافية، حلوة، خلنا نقعد ونسولف.

وفي الفسحة الداخلية للخان، وتحت شمس الخريف الدافئة، جلسا. ورغم أن لدى الأسطة رضوان ما يقوله، إلا أن الفضول، وربما التحسب، لما يجري وراء أسوار القلعة، دفعه لسؤال بدري ما إذا حرب جديدة قد تقع. ولما ابتسم بدري، ونفى أن يكون احتمال مثل هذا وشيك الوقوع، رد رضوّان بتورية:

ـ بشّرتني، الله يبشرك بالخير، لأن الآغوات لمّن اشتروا دواب كركوك كلها قلت لروحي: خلص، مصبّحة مسية!

وبعد قليل، وهو يفرك يديه استعداداً ليزف الخبر السعيد:

ـ ترى الجماعة اليوم بالحويلة...

وقبل أن يتابع هدر صوته بقوة منادياً على أحد العاملين في الخان، طالباً أن يأتوا بالشاي، بالحامض، بالماء البارد، والتفت إلى بدري:

ـ وصل طارش البارحة بالليل، وصل قبل الكروان؛ وقال: الجماعة، إذا الله يسّر، يكونون بطرفنا عقب باچر العصر..

ابتسم رضوان قره غولي، كانت ابتسامته كبيرة، وهو يربت على ساق بدري، ويضيف:

ـ وآني من يمي أنطيته الحلوان، وقلت له: طمّن روحك راح نبلّغ جماعة هنا حتى يكونوا حاضرين.

وإذا كان اليومان السابقان قد مرا سريعاً، أسرع من أية أيام أخرى، فإن اليومين اللذين يبدآن منذ هذا الصباح الخريفي لا تلوح لهما نهاية.

حركة دؤوبة لا تتوقف. كميات كبيرة من الخضار والفواكه تنقل إلى البيت. زوجة قادر ومعها قريبتان يصلن من أجل إلقاء نظرة والتأكد من عدم وجود نواقص، خاصة في الأمور المتعلقة بالمواد التموينية والأدوات. ثم القيام بعمليات تنظيف أخيرة، من كنس ومسح وما شابه ذلك. إلى التوصية على كميات من الخبز والحليب والبيض، على أن يتم توريد قسم منها في اليوم التالي، ثم بعد ذلك، وقد يُطلب زيادتها أيضاً. هذا عدا عن الخراف السبعة التي اشترها بدري، وحجزت في القسم الخلفي من البستان، كما وصلت، وعلى دفعات، مجموعة إضافية من الخراف: خمسة رؤوس من الآغا، واثنان من حامد ومثلهما من غايب، إضافة إلى كبش كبير، وقد عُلّق جرس في رقبته، كان هدية مشتركة من الزملاء في القلعة! كما بعث رضوان قره غولي بخروف عمره سنة. وحين سمع بدري أصوات دجاج في القسم الخلفي، وسأل عن الأمر، رد قادر، وكانت عيناه ترفان بخجل، أن الدجاج هدية منه ومن أصدقاء آخرين لم يذكرهم!

هدية الآغا أولاً، ثم هدية غايب، وبنسبة أقل هدية حامد، لم تلفت نظر بدري فقط، بل جعلته يفكر ويتساءل، إذ ربما بعد أن تشاوروا، اعتبروا موقفه لحظة نزق، تماماً كما كان الأمر بالنسبة لرفضه هدية الزواج، وبالتالي يمكن تجاوز هذا الموقف واعتباره وكأنه لم يكن.

ومع الحركة والأصوات، ومع وصول الهدايا، أو الأشياء التي تمت

التوصية عليها، يزحف الوقت بطيئاً. تمنّى بدري لو أن بعض أفراد العائلة أو الأصدقاء، وصل قبل الآخرين، إذن لاستطاع أن يتدبر أمره بشكل أفضل. صحيح أن قادر لا يفارقه إلا في الليل، حين لا يحتاج إليه، لكن يحس أنه بحاجة إلى آخرين أيضاً، إلى أناس يعرفهم منذ وقت طويل. لو أن أحداً منهم موجود لشعر بثقة أكبر، وقد يتفتق ذهنه عن أفكار واقتراحات عديدة، ليكون كل شيء أجمل.

فكر بأخوته، بسيفو، بالأسطة إسماعيل. قال لنفسه، وقد شعر بغصة: «لا يتسنى للإنسان أن يجد أو يكون له أخوة وأصدقاء، حين يرغب أو كما يريد، لأن هؤلاء لا يكوّنهم إلا الزمن» أعجبته الفكرة، لكن وهو ينظر إلى قادر، شعر نحوه بفيض كبير من المودة. لا، ليست المودة تماماً، وإنما الثقة الممزوجة بالشفقة. إنه يعرفه ولا يعرفه، يحس أنه بحاجة إليه، لكن لا يكفيه. قال لنفسه، وهو يبتسم: «سيفو مثل الذهب العتيق، قبل ما تقول الكلمة يعرف شنو اللي تريد تقوله، شنو اللي تفكر بيه»، ووجد صوته يخرج دون إرادته:

ـ القوة يا أبو فلاح، مسّاك الله بالخير!

التفت قادر إلى أكثر من جهة ليعرف إن كان بدري يكلّم أحداً، قال بدري وهو يضحك:

ـ راح يجي فد واحد ويّا الجماعة، إسمه سيفو، ويصيحوه أبو فلاح، إذا شفته راح تحطه بقلبك، كلش خوش ولد!

ـ شكو بيها، نتعارف، ونسولف وأزوّره كركوك، أعرّفه عليها كلها...

وحين وجد بدري يسافر ويتذكر، سأله:

ـ عمي... هذا أبو فلاح أخوك؟ قرايبك؟

ـ هذا مثل أخ، أغلى من الأخ!

ـ وشيشتغل، عمي، هذا، أبو فلاح؟

ـ اشتغل سقا وبعدين بطّل!

ـ وبعدها ما اشتغل؟
ـ چان يدوّر على شغل، ويجوز صار ملاّح!
ـ يعني مثلي، چنت أبو بستان، وهسه ما أدري شنو!
قال بدري بمرح:
ـ ومثلي آني، هسه ضابط، وباچر ما أدري شنو!
وفي ساعة متأخرة أكل بدري بشهية، وشاركه قادر. أما وهما يأكلان الفاكهة، وحين لمح الرمان، فقد نهض بسرعة، التقط حصاة، والتقط أيضاً الصحن المعدني، حمله إلى قادر، وهو يقول:
ـ الزمه زين، وآني راح انيشن عليه، حتى أشوف حظي ونصيبي!
سلمه الصحن، وتراجع خطوتين أو ثلاثاً، قال وهو يوازن نفسه ليلقي الحصاة:
ـ يا حظ بدري!
لولا براعة قادر، وهو يميل الصحن قليلاً، لأفلتت الحصاة. قال قادر بمرح:
ـ تمام... أحسن نيشنجي بالقلعة!
ـ إي، شكو بيها، قول اللي تريده!
أما وهو يودع قادر، وقد خرج معه إلى الباحة، فقد رأى القمر كبيراً يملأ ضوؤه السماء، وكان يضفي على الأشجار والبيوت البعيدة، وعلى كل الأشياء، جمالاً حزيناً، أو كأنه يغطّيها بغلالة من الضباب. قال لنفسه، وكان يقفل راجعاً، بعد أن سمع خطوات قادر تشق الظلمة الخفيفة: «لو كان القمر كالشمس، يكتمل كل يوم، لما نظر إليه أحد. ولو كانت الشمس كالقمر لا تكتمل إلا مرة في الشهر لبدت وجوه الناس أجمل، ولكانوا أقل سوءاً» ابتسم لهذه الفكرة الغريبة التي لا يعرف كيف عنّت له! قال وهو يتمدد على الأريكة المواجهة للسرير النحاسي: «السرير إذا كان ضيقاً أكثر من اللازم لا يريح، وإذا كان أعرض من اللازم، وينام فيه الإنسان وحيداً، يشعر أنه فارغ» وتراءت له زكية وهي تتمدد على السرير،

إلى جانبه، ابتسم، وقال: «لن يكون ضيقاً أكثر من اللازم، ولن يكون أعرض من اللازم».

في الصباح التالي، وما إن ذرذر الضوء، حتى امتلأ الجو بصياح الديكة وثغاء الغنم. أما تغريد الشحرور الذي كان يوقظه كل صباح منذ أن نزل في هذا البيت، وكان يطرب لسماعه، ويتفاءل به، فقد حاول أن يميز صوته بين الأصوات، لكن لم يستطع، خاصة بعد أن سمع شتائم قادر وهو يتعامل مع هذه الحيوانات. قال لنفسه، وهو يلقي نظرة على السرير النحاسي الفارغ، بعد أن حلم أنه ينام فيه: «الشحرور طير خجول، أو ربما جبان، وقد يكون شاعراً أيضاً، لأنه آخر من ينام بين الطيور، وأول من يستيقظ، إنه يخجل أو يخاف من نظرة، مثلما هي المرأة قبل أن تعرف الرجل».

ومثلما كان اليوم السابق بطيئاً، كان يوم الأربعاء أيضاً. ولأن لدى قادر الكثير ليفعله في ذلك اليوم: تحضير الحطب والفحم، جلب فرش إضافية من الخان الكبير، بعد أن أبلغه الأسطة رضوان، وفقاً لما نقله الطارش الذي وصل قبل القافلة، عن عدد الضيوف المرافقين للعروس، وبناء لرغبة بدري أن ينزل أغلب الضيوف في بيته، وافق الأسطة أن يعيره الفرش اللازمة؛ ثم انشغال قادر أيضاً بإعادة التوصية على ما يحتاجه الضيوف: الحليب واللبن، الخبز والبيض، وحتى العسل، وقد أكد على العسل بصوتٍ عالٍ ليسمع بدري، وأتبع ذلك بابتسامة ذات معنى!

لأن قادر كان مشغولاً بهذا المقدار، وقد بدا عصبياً نزقاً وهو يتعامل مع الذين جلبوا الحطب، والذين جلبوا العلف، ثم مع النسوة اللواتي رافقن زوجته لتحضير البامياء وأنواع أخرى من الخضرة، لتكون جاهزة للطبخ حين يصل المسافرون، فقد شعر بدري أن عليه القيام بعمل ما، ليتغلب على الزمن، ليجعله يتسرب كما تتسرب المياه من بين الأصابع، ليقنع نفسه أنه نافع ويمكنه القيام بعمل ما. وإذا كان قد طلب من بعض النسوة أن يكنسن المداخل والباحة الخلفية، فقد اهتم بسقاية الزرع، في المداخل.

وعلى أطراف الشبابيك، ثم التفت إلى البستان.

كان، وهو يسقي الأشجار، وبعد أن قال الذي قاله لغايب، يحس نحو تلك الأشجار بمودة. إنها تعطي، تعطي كثيراً، دون أن تتكلم، دون أن تطلب من الآخرين شيئاً. حتى الماء الذي تحتاجه، تحاول أن تنتزعه من الضباب، من الندى، وتحتفظ به إلى أن يأتي المطر. أما إذا حنّ عليها الإنسان، ومنحها ما يكفيها من الماء، فإنها لا تتأخر كي ترد إليه التحية: تنتعش الأوراق، تكبر، تخضرّ، وتتشبث بالأغصان كالأطفال الذين يرفضون الفطام. قال لنفسه، وهو يحمل الماء لشجرة سفرجل اعتلت تلة في البستان، وكان الماء لا يصلها عبر القناة: «الأشجار أكثر نبالة من الإنسان، لأن كل واحدة منها لا تزاحم غيرها، فهي تنتظر، تحتمل، ومتأكدة أن الماء سيصلها في وقت ما، لكن إذا طال انتظارها، إذا عطشت، فتعرف كيف تحتج، إذ تخبىء نفسها داخل أغصانها، وبعض الأحيان داخل الجذور وقد تغادر نهائياً».

وفكر، وهو يسقي الأشجار، لو أنه يعطيها أسماء من عنده. ابتسم. نظر إلى الصف الطويل، المتتابع من أشجار الفاكهة. قال بصوت عالٍ، وقد التفت قبل أن يتكلم:

ـ لو ردت اسميها، اسميها بأسماء الوِلد أو البنات؟

وتذكر النخل. قال: «كركوك الحد الفاصل بين الشمال والجنوب، لأن النخل، حتى لو نما وكبر، يظل قليلاً وغير مثمر» وأضاف بحزم: «التلقيح ضروري، لأن الأنثى، بشراً وحيواناً وشجراً، لا شيء لولا الذكر».

وتذكر ما كانت تقوله جدته حين كانوا يذهبون إلى بستان أبو حمودي، سليمان وداي، إذ كان في مقدمة البستان شجرة توت كبيرة. كانت الجدة تسأل: هذي بيها تكي لو ما تحمل؟ وحين تجاب انها ذكر، ترد، وهي تخفي ابتسامتها، بأن تضع يدها على فمها:

ـ حتى فحل التوت بالبستان هيبة!

لقد سألت جدته عن تلك الشجرة عدة مرات، ورددت المثل نفسه، في كل مرة، وكأنها تريد أن تعطي درساً!

قال بدري، وهو يواصل سقي الأشجار: «حتى لا نختلف، إذا ردنا نسميها، نسميها سوا، آني شجرة، وزكية شجرة». وتذكر ما قاله لغايب، تابع بحدة: «خلي غيرنا يسميها، لأنْ قبل ما ينقضي أسبوع والثاني إلا ونقول لكركوك: في أمان الله، ومسلمين عليكم، يا جماعة».

وجرجر اليوم نفسه بصعوبة. أما عند أول المساء فقد زاره حامد. بدا أنيساً مجاملاً في هذه الزيارة. قال إنه جاء ليسأل ويتأكد ما إذا كانت هناك حاجة لأية مساعدة يمكن أن يقوم بها أو تقدم من القلعة. وأشار إلى أن الآغا يعرض بيت طلعت باقة مكاناً لنزول الضيوف، إن كانوا بحاجة إليه. وبدري الذي لام نفسه لأنه كان قاسياً جلفاً، مع غايب، شعر أن الآغا ليس بالسوء الذي تصوره أو افترضه. شكر حامد على عواطفه وما عرضه من مساعدة، وأبلغه أنه رتب كل شيء، بالاتفاق مع رضوان قره غولي، وفيما لو احتاج إلى مساعدة من أي نوع لن يتردد بطلبها.

وعند مدخل البيت، وفيما كان بدري يودع حامد، جاء رؤوف موفداً من رضوان قره غولي.

كان رؤوف، وهو يتكلم، يضجّ بالحيوية، إذ يتحرك جسده كله، كما تتحدث عيناه ويداه وتسبق كلماته أكثر الأحيان!

بعد أن هنأ بدري، وتمنى له حياة سعيدة، أبدى أسفه أنه لم يكن موجوداً أثناء زيارته للخان، وأكد له أنه ما كان ليتركه قبل أن يزور الاسطبل ويتفقد الخيول، ثم أضاف بكثير من المرح:

ـ وما دام فاتك تشوف الأصايل اللي عدنا، دزني أبو شامل، وطلب مني أبلغك: الخيل كلها تحت تصرفك، يا هو منها تريد فنحن حاضرين.

وحين شكره بدري، وأبلغه أن مهيوب، حصانه، يلبيه تماماً، وقد تعوّد عليه، ولا يفضّل حصاناً آخر غيره، رد رؤوف بيديه ووجهه، وبدا صوته مرحاً:

ـ كركوك كلها تعرف شنو مهيوب، والناس شافته بعيونها، بالسباقات، بالاستعراض، بكل مكان، وهذي ما ينراد لها شهادة، لكن. . . .

وضج بالضحك قبل أن يتابع:

ـ بس كل الناس تقول: الفرس من الفارس!

خفض بدري رأسه خجلاً لهذا المديح، ولم يعلق. أضاف رؤوف وقد تغيرت نبرة الصوت وارتجف الحاجبان:

ـ وآني قلت لأبو شامل: إذا بدري بك ركب واحد من خيلنا، وشافته الناس، تنطش بكركوك كلها، ولا بد توصل للآغوات، وبعدها الحصان اللي چان بمية ينباع بالف!

ـ بعد قدامنا أيام وأيام، وإذا ما صارت هالنوبة تصير نوبة ثانية. . .

وبعد قليل، وليخفف من مبالغة رؤوف ومن حماسه:

ـ وبعدين. . . الخيل ثمنها بيها، مو من غيرها، واللي يعرفون بالخيل يميزونها حتى لو شافوها بأرضها، بليا ركوب أو سباق!

ـ لكن إذا ركبها بدري بك غير شكل؛ كل آغا يقول للثاني: باوع زين كاكا، هذي فرس ركبها بدري بك، اللي فاز بكل سباقات القلعة!

وبدعابة، وبأحاديث متنوعة، تمكن بدري من صرف النظر عن استبدال حصانه، ورؤوف الذي ظل مرحاً إلى نهاية الزيارة انتزع وعداً أن يزور بدري الإسطبل في وقت غير بعيد، ويفضل أن يكون في أحد أيام الجمع، وهو يوم السوق!

وإذا كانت لبدري سلوى خلال الشهور التي قضاها في كركوك، فالحصان الذي تسلمه من القلعة عهدة، على أن يصبح مالكه بعد سنة من استلامه، ويقتطع ثمنه من الراتب. ولأنه عرف كيف يختاره، ثم كيف يعتني به، فقد أصبح مهيوب، وكان هذا اسمه منذ البداية، أميز خيول القلعة ومضرب المثل لسرعته وطاعته، حتى أن بعض الضباط الكبار حاول انتزاعه، بل ووضع طلعت باقة يده عليه، وبقي عنده أسبوعاً لم يكتمل، لأن مهيوب بمقدار ما كان يستجيب لبدري، وشديد الطاعة له، فقد تحول

إلى حصان آخر خلال هذا الأسبوع، ما جعل طلعت باقة يعيده دون أسف

كان مهيوب ابن خمس سنوات، لونه رمادي محروق، يميل إلى الزر الضاربة على سواد ما إن يعرق أو حين يُغسل، ولولا البياض في الجبير وفي الساقين الأماميتين، لبدا حالكاً ما إن تغيم السماء، أو إذا زحفت الظلمة، الأمر الذي يجعل كبار الضباط يفضلون خيولاً أقل قتاماً، كما يقولون، لكي يميزها الحراس، حين يعود الضباط متأخرين إلى القلعة!

ولأن الحصان كالمرأة، يحتاج إلى الحب أكثر من حاجته إلى الدلال، وتنشأ بين الاثنين صلات يصعب حصرها بكلمات أو قواعد معينة، فإن العلاقة بين الحصان وصاحبه تبدأ من طريقة الخطاب، من لمسة اليد، ومن نظرة العيون أيضاً.

خلال أسابيع قليلة تولدت اللغة الجديدة بين بدري ومهيوب، ووصل الإثنان معاً إلى حالة من التناغم والإنسجام قلما تنشأ بين حصان وصاحب في هذه الفترة القصيرة. بعد ذلك، ومع كل يوم جديد، يزداد التفاهم بين الإثنين، وتتعزز العلاقة، حتى أن الكثيرين في القلعة كانوا يمازحون بدري، ويسألونه متى سيتكلم مهيوب! وتراهن بعض الضباط أن مهيوب، في يوم من الأيام، خاصة إذا خلّف أمهاراً مثله، يمكن أن يحمل بمفرده، دون فارس، رسائل بالغة السرية، وكانوا يشيرون بذلك إلى طاعته وذكائه!

بدري وهو يسمع ما يقال عن مهيوب، وعادته أن يخاف من عيون الآخرين ومن حسدهم، كان يقلّل من هذه الصفات، ويعتبر أكثر ما يقال عنه مبالغات لا أساس لها، وكان يختم أي حديث عن مهيوب بأن يقول: !

ـ الحصان مثل الصديق، مثل المرأة، مثل الشجرة، شقد ما تعطي... تاخذ!

حين كان يعتذر من رؤوف عن استبدال مهيوب بأي حصان آخر، كان عازماً على أن يخصص صباح يوم وصول «أهل بغداد» للعناية به، إذ بالإضافة إلى تغسيله، فقد هيأ سرج الاستعراض واللجام اللامع، وجميع اللوازم التي تستعمل في مثل هذا اليوم. وكان في أعماقه يود أن تكون أمه

أول من يراه، إذ لم يهدأ خوفها طوال السنوات السابقة، ومنذ أن دخل المدرسة العسكرية، حول أكله ومنامته، وما يتعرض له من تعب وشقاء! الآن، حين تراه على ظهر حصانه، وهو يختال بالزينة، وكل شيء يلمع ويوجّ، سوف تتسابق دمعتها مع الهلهولة التي ستنفجر من حنجرتها حتى لو لم ترد. قال لنفسه، بما يشبه اللوم: «هل يليق بي أن أستعرض أمام الأهل، أمام أقرب الناس إلي؟ ألا يفترض أن أكون واقفاً على رجليّ، وأن أبدي كل التواضع أمام هؤلاء الذين قطعوا كل هذه المسافات من أجل الوصول إلى هنا؟»!

اضطجع تلك الليلة على الأريكة المقابلة للسرير النحاسي، وجدها ضيقة أكثر مما ينبغي، أكثر من الليالي السابقة، تقلب مرات عديدة، في محاولة لأن ينام، لكنه لم يستطع. وفجأة وجد نفسه يقفز إلى السرير، تمدد، شعر براحة أكبر، قال لنفسه: «أعرض من اللازم، لكن غداً سيكون بالعرض المناسب، لأن فيه اثنين بدل واحد» مد يده إلى الناحية الفارغة من السرير. أحس ببرودة الأغطية والملاءة. قال، وهو يحاول أن يختصر غبطته: «الدفء يولد من الجسد الآخر، جسد الأنثى، والفراش يطيب برائحة الجسد».

وتحولت الغبطة التي حاول أن يختصرها إلى قهقهة، قال بصوت عالٍ:

ـ باچر كلنا نغسل: الأول مهيوب، وبعدين آني، وآخر شي زكية! ونام في وقت ما!

81

ولم يوقظه صباح اليوم التالي صوت الشحرور، بل ضجة قادر، داخل البيت أولاً، وهو يُدخل كميات إضافية من الفواكه والخضار، ثم في الجانب الخلفي من البستان، إذ كان يقدم للخراف والدجاج العلف، مع مجموعة كبيرة من الإرشادات والأوامر، وبعض الشتائم أيضاً!

تمنى بدري لو يسمع صوت الشحرور، حتى ولو لمرة واحدة. حاول أن يتسلل بين الأصوات لعل صوت الشحرور يأتيه، لكنه لم يأتِ. قال لنفسه، وهو يجلس في السرير، ويطل على الجانب الفارغ: «أوامر وشتائم قادر تفزع مفرزة عسكرية، فكيف حال هذا المسكين الذي يخاف من ابتسامة إنسان يحبه، يشتاق إليه وإلى صوته؟» أعاد ترتيب السرير باتقان، لعله يموّه الأمر، لكن بعض الثنيات فضحته. وقال وهو يبتسم: «هذي آخر مرة تظل ممسد، وبعدها الله وأكبر».

عند الظهر تقريباً وصلت آخر وجبة من الفراش الذي بعث بها رضوان قره غولي، وبعث معها رسالة شفوية:

ـ عند أذان العصر نكون بقهوة الطاحون، اللي يوصل قبل ينتظر.

مهيوب، في شمس الظهيرة، بعد أن اغتسل وجفّ شعره، يلمع كنصل، ويعبّ الهواء بشراهة، كأنه أحس بالرحلة التي تنتظره. ولأنه لم يربط، فقد أعطى لنفسه حرية إضافية، إذ كان يقترب من الباحة الأمامية، يتشمم الأشياء الجديدة، يرفع رأسه بين فترة وأخرى وهو يزفر لكي يطرد ذرات المياه التي علقت بأنفه، وتتطلع عيناه إلى بدري بتساؤل!

نادى بدري على قادر، الذي بدا مرتبكاً أكثر من أي وقت سابق، ربما لتراكم الأعمال التي يفترض أن يقوم بها، وسأله ما إذا كان راغباً بمرافقته، أم عليه أن يتابع الأعمال هنا والانتظار.

هز قادر رأسه بحيرة، وهو يتلفت، إشارة إلى أن لديه الكثير لينجزه هنا، ولم يجد في الأخير إلا أن يقول:

ـ والجماعة راح يوصلون عطشانين وجواعى، فأحضر الماي، والزبيب والرمان. . .

وأراد أن يتابع، لكن بدري قاطعه:

ـ زين. . أنت ابق. . .

وبعد قليل:

ـ اكو طريق للطاحون غير طريق كركوك الحويلة؟

ـ اكو طريق بستان الباشا. بس تعبر القنطرة، تروح قُبل، وما تغمض عين وتفتح عين، إلا وتشوف نفسك يم القهوة!

حين سأل بدري عن طريق آخر يمكن أن يسلكه، كان يرغب بتجنب الطريق الرئيسي، الطريق الذي يمتلىء عادة بالناس، خاصة في هذا الوقت، وفي هذا الفصل بالتحديد، إذ يبدأ الكثيرون بملاحقة الشمس، لكي يتدفأوا، ولكي تقوى عظامهم على تحمل البيوت التي أخذت تميل إلى البرودة يوماً بعد آخر.

كان يريد ذلك بدافع التواضع أو ربما الخجل، رغم أن الأسطة رضوان قره غولي ومرافقيه سيسلكون الطريق الرئيسي، وسوف يراهم الكثيرون، ومعنى ذلك: أن القافلة على وشك الوصول، وفيها عروس بدري، ومع ذلك حاول، قدر ما يستطيع، ألا يظهر، ألا يكون تحت مراقبة العيون وتساؤلها.

ومن أجل ألا يظهر متفاخراً وملفتاً، فقد تجاوز بسرعة بذلة الاستعراض، ولم يتوقف طويلاً عند البذلة الجديدة التي جلبها معه من بغداد، إذ اختار واحدة قديمة نسبياً، ولا يعرف لماذا يحب هذه البذلة

ويفضلها على غيرها، وهكذا اختارها دون تردد.

أما السوط الذي يحمله عادة أثناء مباريات الفروسية، ولا يتذكر أنه استعمله إلا في الفترة الأولى، فقد استبعده هذه المرة، قال، وهو يرفعه ويضعه على حافة النافذة: «العصا لمن عصا، ومهيوب لا يستاهل الضرب حتى بوردة». أما البوط الذي احتذاه، فكان بلا مهاميز، والعادة أن يستعمله أثناء التدريب.

بدا مهيوب فخوراً حين وضع السرج المزخرف، سرج الاستعراض، وقد نفخ عدة مرات، وكان يفتح حلقه، كأنه يضحك! وحين طلب منه قادر أن يأكل شيئاً قبل أن يتحرك اكتفى ببضع حبات من التين المجفف، وتذكر الرمان، وتذكر مع الرمان الحصى، سأل قادر بدعابة:

ـ شنو رأيك، قادر تنيشن اليوم، لو البارحة عرفنا حظنا، وخلص؟

ـ القضية ما ينراد لها سؤال. . .

وفي تلك اللحظة صاح ديك، قال قادر وهو يضحك:

ـ شفت؟ ما قلت لك؟

وسأل قادر من جديد عن الزمن الذي يحتاجه من أجل الوصول إلى قهوة الطاحون، وما إذا عليه أن ينطلق الآن، او يمكن أن ينتظر بعض الوقت، رد عليه بمرح:

ـ إذا مشيت هسه تنتظر الجماعة بالقهوة، وإذا مشيت بعد شوية تلقاهم بالطريق، وإذا تأخرت بعد، تلقاهم هناك ينتظرون!

لا يعرف بدري كيف عنّ له في تلك اللحظة بستان قادر، ربما وهو ينظر إلى المنحدر، حيث سيأخذ الطريق إلى بستان الباشا، أو ربما وهو يفكر كيف سيقدمه «لأهل بغداد» خاصة لسيفو، قبل أن يغرق الجميع في الضجة، قال لقادر بتردد:

ـ راح أشوف سيفو والجماعة، فتريد أسولف لهم قصة بستانك، أو أنت تسولفها.

ـ بعد وقت على القصة، نحچي بيها بعدين!

ـ راح نسولف على الطريق، وراح أقول لهم منو ينتظرنا، وانت منو!

وهز بدري رأسه عدة مرات، وكأنه قرر أمراً، قال بحزم:

ـ إذا كلّفت سيفو أن يشوف خلف، فما راح يفك عنه ياقة حتى يحصّل كتاب من الباشا ويرجّعوا لك البستان.

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ إي نعم: سيفو وخلف، وإذا آني نسيت أنت ذكّره. قول له خلف ابو السراي.

ـ لاحقين على هالمسائل، عمي!

في وقت ما تحرك بدري. لم يكن يريد أن يسبقهم، لم يكن يريد أن يصل متأخراً. اختار الوقت الذي يرجح أن يلتقي معهم في اللحظة المناسبة.

ربت على رقبة مهيوب، وشد اللجام قليلاً، لكي يقوده نحو بستان الباشا، وقبل أن يغيب عنه قادر رفع يده والتفت. رأى قادر يرفع يده في نفس اللحظة، تبادلا التحية والابتسام، وغابت صورة الواحد عن الآخر.

82

لا يعرف قادر كم مر من الوقت حين فاجأه ذلك الإعصار، كان في تلك اللحظة يلاحق الدجاج الذي أصابه الفزع وأخذ بالهروب، بعد أن بدأت المعركة بين الكبش الذي أرسل من القلعة وخروف رضوان قره غولي. كان الجرس المعلق برقبة الكبش يرن بطريقة صاخبة عنيفة، وقادر حائر بين ملاحقة الدجاج، الذي تجاوز بعضه البستان، وبين وقف المعركة التي دبت بين الخروفين. كان يركض هنا وهناك، وهو يوزع شتائمه، بالتساوي، بين الطرفين، ويحاول أن يضع حداً لهذا الجنون الذي لا يعرف لماذا حصل.

في هذا الوقت بالذات فاجأه أمر لا يصدّق: مهيوب!

مهيوب الذي كان، إلى فترة قصيرة سابقة، أنيقاً مثل طفل يوم العيد، هادئاً كرجل مسنّ، وكان جميلاً لامعاً أنيساً، تحول فجأة إلى حصان آخر، كان يصهل بغضب؛ يرفع قائمتيه الأماميتين وكأنه اعتزم تسلق الهواء؛ يدور حول نفسه كما تدور الزوبعة؛ وكان يصرخ ويبكي ويحفر الأرض في آن واحد. أما لجامه فكان يتمرجح في الهواء كمقلاع، والزبد يتطاير من فمه وأنفه معاً، والعرق ينز من كل موضع في جسده ويتناثر في جميع الأنحاء، أو ينسرب كجداول صغيرة عمياء.

حالة قد تقع مرة في العمر وقد لا تقع، فقد امتلأت ذرات الهواء بالفزع، وارتفعت نداءات الاستغاثة من داخل الحصان، وكأن طفلاً في داخله هو الذي يصرخ ويستغيث.

قادر الذي يبدو بنظر كل من يعرفه شجاعاً كذئب، قوياً كصخرة، صبوراً كأرضٍ تنتظر المطر، الذي تحمل في هذه الحياة ما لم يستطع غيره تحمله، وعرِف كيف يقوّي كتفيه كل يوم، وهو الذي عطش كثيراً في متاهات الدروب، ومشى وحيداً بين معارج الجبال الموحشة، الذي يعتبر الموت الوجه الآخر للحياة، ولا بد لكل من يعيش أن يموت، قادر نفسه، ربما، لأول مرة، يشعر أنه خائف، خائف وعاجز. فمهيوب الذي جُنّ هكذا، والذي عاد وحيداً، جاء ليقول شيئاً، لينقل رسالة من بدري عن أمر نسيه أو حاجة يريدها، ولأن مهيوب لم يستطع أن يلبيه فقد جاء يطلب المساعدة والعون.

وإذا كان قادر لا يحب الكلام كالكثيرين، ويجيب فقط حين يُسأل. ودّ، لأول مرة في حياته، لو أنه يستطيع أن يتكلم مع مهيوب، أن يسأله إن يفهم منه!

ولأن حيرة قادر طالت، أو ربما صبر مهيوب قد نفذ، ومثلما جاء مهيوب فجأة، وبمثل ذلك الهياج والصخب، ترك قادر غارقاً في شتائمه وحيرته والأسئلة الكثيرة التي تضج في رأسه، وانفتل كحية راكضاً إلى مكان آخر.

انقذف مهيوب كصخرة إلى وسط كركوك. قطع شارع الجامع الكبير، وصعد باتجاه القلعة. أما محاولات الذين تصدوا لإيقافه، للقبض عليه، فقد ارتدت وهم يتراكضون مبتعدين، بعد أن تملكهم الفزع.

ومثلما هاج وصرخ وبكى وتوسل، وهو يواجه قادر، فعل الشيء ذاته في القلعة. ومثلما ترك قادراً وهو يسأل ويشتم، ترك جنود القلعة وهم حائرون.

قال بعض الذين رأوه يقطع شارع الجامع الكبير، هابطاً من القلعة، إنه كان أسرع من البرق، وأكثر جموحاً من مهر ابن سنة، مما اضطر الكثيرين لأن يبتعدوا عن طريقه، ولا يحاولون، مجرد محاولة، التصدي له.

وإذا كان الشباب الذين رأوه هكذا، استغربوا وتساءلوا، فقد قال

المسنون «الحقوا صاحبه قبل أن يقضي، إذ ربما قرصته حية أو طالته نار، أو ربما غرق في بئر من الآبار».

ما كاد يسمع عدد من الشباب ما قاله المسنون، حتى اندفعوا وراء مهيوب. كانوا متأكدين أنهم لن يدركوه، لكن يمكن أن يتبعوه، وأن يسلكوا الطريق الذي سكله، وهناك، في مكان ما، سوف يعرفون ما وراء هذا الهياج.

ومثلما لم يخطىء الذين رأوا الحصان أنه مهيوب، لم يخطئوا أيضاً أن بدري هو صاحبه، لكنهم قالوا لأنفسهم، لبعضهم، أن جنوناً يصيب الخيل بعض الأحيان، نتيجة الشمس القوية أو ربما بسبب الحزن الشديد.

قال الذين تبعوا مهيوب أنهم مروا ببيت بدري فوجدوا عند الباب الدجاج وعدداً من الخراف؛ وحين لم يجدوا مهيوب تابعوا سيرهم. أخذوا الطريق باتجاه بستان الباشا. عند القنطرة التقوا براعٍ، حين سألوه إن رأى حصاناً جامحاً رد بالإيجاب، وقال إنه أخذ طريق الطَاحون. واصلوا السير، لما اقتربوا من بستان الباشا لمحوا مهيوب وإلى جانبه رجل أو اثنان.

قال الذين وصلوا قبل غيرهم إنهم رأوا قادر يحتضن بدري. كان يضع رأسه في حجره، وشيخ مسنّ يبلل قطعة من قماش في مطرة كان يحملها وينقّط الماء في فم بدري. كان قادر إلى تلك اللحظة قوياً مثل ثور، وقد طلب أن يُحمل بدري ويؤخذ إلى كركوك، لكن الشيخ قال إنه لا فائدة، الرجل انتهى، وأفضل شيء، في مثل هذه الحالة، أن يُرطّب الحلق، ليعرف كيف يخاطب الملائكة الذين اصطفوا الآن لاستقباله.

عندما هدأ جسد بدري، ثم سكن، أنزله قادر. وضع الرأس، بهدوء، على الأرض، وقف، نظر إليه من فوق، نظر إلى الحصان، ثم فجأة صرخ كما لو أن سكيناً انغرزت في صدره، أو ناراً كوته. قال الذين كانوا، وأكّد الذين وصلوا بعدهم، أن قادر مع الصرخة انتزع خصلات من شعره ملأت الكفين معاً. أما الدموع التي أخذت تتساقط من عينيه فلم يُسمع عن رجل

أنه بكى بهذا الشكل. هكذا قال الذين تجمعوا، وأخذوا يتكاثرون، ولم يستطع بعضهم أن يتمالك نفسه، فبكى.

الشيخ الذي نقّط الماء في فم بدري، أغمض عينيه أيضاً. وطلب من الذين حوله أن يمسحوا الدماء التي كانت تسيل من الرقبة ومن الصدر، ثم أن يربطوا مكان الجرحين لئلا يتلف الجسد.

لما سئل الشيخ عمن قتل بدري، هز رأسه أنه لا يعرف، لكنه أكد أنه لمح اثنين، على حصانين، اتجها نحو القنطرة، ثم اختفيا بعد ذلك، ولأنه كان بعيداً لم يستطع أن يميز.

استغرب رضوان قره غولي تأخر وصول بدري، وحين استوضح الرسول الذي بعثه إليه ظهراً، أكّد الرسول أنه أبلغه بالموعد، وأن على من يصل قبل الآخر الانتظار. وحين تأخر بدري أكثر قال رضوان في محاولة لتبرير التأخر:

ـ الغايب عذره ويّاه!

أما حين بدأت تلوح القافلة، وأصبحت على مرأى العين، ولم يصل بدري، فقد اضطر الأسطة رضوان أن ينهض لملاقاتها. قال لنَفسه: «بعض الناس يخجلون أن يراهم الغرباء يقبّلون أمهاتهم وأخواتهم وزوجاتهم، لذلك يفضلون أن لا يكون اللقاء أمام الآخرين، وهذا، ربما، ما دفع بدري لأن يبقى في البيت!».

ولأن بدري لم يظهر، فقد طلب رضوان أن يتوجه «أهل بغداد»، أي أهل بدري وضيوفهم، إلى البيت مباشرة، في الوقت الذي سيصطحب رؤوف الآخرين إلى الخان.

استمرت القافلة. كان استغراب الأسطة رضوان لغياب بدري لا يقل عن استغراب الكاكا محمود. تبادل الإثنان الأسئلة وبعض الكلمات، وبدا أنهما غير مرتاحين لهذا الغياب.

ودّ سيفو الذي كان يركب بغلاً عالياً أن يرفع صوته بالغناء، دلالة أنهم وصلوا ومعهم العروس، لكن عيون الناس، وهي ترقب القافلة بفضول،

جعلته يتردد ثم يصرف النظر. النسوة اللواتي كن في مؤخرة القافلة نظرن بجرأة إلى الرجال والصبية الذين يملأون الشارع، وتبادلن عدداً غير قليل من الملاحظات، خاصة حول الملابس التي يرتديها أهل كركوك.

حين انشطرت القافلة، عند بداية المرتفع، شطر صعد باتجاه بيت بدري، والآخر توجه للخان، كانت عيون الذين يرقبون الموكب تحمل التساؤل والصمت، وتختلف بمقدارٍ ما عن العيون التي ملأت الشارع قبل المرتفع.

مشى الموكب ببطء، هبت نسمات باردة، رفع الأسطة رضوان يده كلها، وهو يشير إلى بيت بدري، وكان يتحدث إلى الذين حوله.

على الجانب الآخر من المرتفع عدد غير قليل من الناس، كانوا يتقدمون ولا يتقدمون. حين عرف سيفو البيت، ورأى الذين يتجمعون حوله ويتحركون ببطء، قال في نفسه: «البدو في الأعراس، وعند المصالحات، يتقابلون في منتصف الطريق» زم عينيه قليلاً علّه يرى بدري، لكنه لم يره.

في وقت ما، وكما يفلت عصفور من أسر، كما تهوي صخرة من جبل عالٍ، رأت القافلة الصاعدة واحداً يندفع نحوها رافعاً يديه بحركة غاضبة وحزينة، وقبل أن يصل، وهو يقترب، كان يردد كلمة واحدة:

ـ قتلوه.. قتلوه.. قتلوه... قتلوه..

ومثلما تهب العاصفة فجأة، أو يدوي الرعد، شمل القافلة كلها صمت قاس، شملها كلها، طوقها كما يطوق حبل مبلول كيساً ليناً، حتى الحيوانات خافت من الصرخات التي تتوالى، أو ربما قدرت ما وراءها، فشملها الصمت أيضاً!

لكنه كان صمتاً هشاً مراوغاً، إذ ما كادت الكلمة التي رددها قادر تستقر في الأسماع ثم في القلوب حتى صرخ الأسطة رضوان يسأل قادر الذي كان ينشج كطفل:

منو اللي انقتل؟ احچ.. قول

قتلوه.. قتلوه، هو اللي انقتل!

قد تأتي لحظة رهيبة مثل هذه في وقت لاحق، بعد مائة سنة، مائة وبعدها عقود، قبل أن يقع في كركوك مثل ذاك الذي وقع في تشرين، وكان الوقت بين العصر والغروب.

لا يمكن لكلمات، كل الكلمات؛ لا يمكن للغة، أية لغة، أن تحكي هذا الذي وقع في كركوك بين العصر والغروب، في ذاك الخريف الحزين.

البكاء يشير لكنه لا يقول. العويل بداية احتجاج وتسليم. النحيب بوابة حزن تنفتح لكن لا أحد يعرف كيف تغلق... اللطم على الخدود، على الصدور، أول المشهد، ثم تتوالى الفصول.

وادخل جسد بدري. وضع على السرير النحاسي وسط الغرفة.

لا يعرف ان توقف البكاء، بكاء كل إنسان كان موجوداً، لحظة واحدة في ذلك الليل. كان «أهل بغداد» ومعهم الكثيرون من أهل كركوك، لا يكتفون بظلمة الليل ليذرفوا الدموع، كانوا يبحثون عن زوايا أكثر ظلمة ليواصلوا هناك البكاء، فإذا اكتشفت الزوايا، إذا تزاحموا فيها، كان الواحد يتسلل بعد الآخر إلى البستان، تحت الأشجار، ليتوارى، ليواصل نحيباً فجّرته أحزان لا نهاية لها!

بعد أن سُجّيَ الجسد فوق ذاك السرير، في تلك الغرفة، وحين خيمت الظلمة التي لم يفطن لها أحد، وكانت ستاراً لبكاء الرجال قبل النسوة، أشعل الأسطة رضوان فانوساً ودخل إلى الغرفة. مع الضوء، نظر الناس إلى بعضهم، نظروا إلى الجسد، وانخرطوا جميعاً في موجة مجنونة من البكاء. فعلوا ذلك فجأة، دفعة واحدة، دون اتفاق، كانوا يبكون ويعانقون بعضهم كعشاق، كبشر يائسين.

متى استطاعت زكية أن تستخرج ملابس العرس البيضاء، وكيف استطاعت أن ترتديها، ولا يهم إن فعلت ذلك باتقان أم لا، ثم كيف تخطت الذين ارتموا على الأرض، حول السرير، و«صمدت» نفسها إلى جانب بدري؟

حين ذهب الأسطة رضوان ومعه عدد من أهل كركوك لإبلاغ القلعة، قيل لهم إن الآغا خارج كركوك. ولما سألوا عن حامد أو غايب، قيل لهم أنهما بصحبة الآغا، ولن يعودوا قبل يومين. وحين طلبوا الضابط المناوب، أو أحداً آخر، ليبلغوه بما وقع، قيل لهم أن يراجعوا القلعة، ليس غداً، باعتباره منتصف شعبان، يوم عطلة، وإنما في اليوم الذي يليه!

في وقت لاحق سوف يتذكر كثيرون أشياء رأوها، أو تراءى لهم أنهم رأوها. قد تختلف هذه الأشياء ببعض التفاصيل، لكن سوف يؤكد الجميع أنهم رأوا بدري يبتسم، وقد فعل ذلك أكثر من مرة. وسيقولون، باستغراب، إنهم لم يروا دمعة واحدة تسقط من عيني زكية! وسوف يؤكد اثنان أو ثلاثة من أهل كركوك الذين أطلوا على بدري في سريره، بدافع الفضول، وللتأكد أيضاً، أنهم رأوا العروس تضحك!

كيف انقضت تلك الليلة، ومتى تراجعت الظلمة ودخل النهار؟ وكيف استطاع الرجال، أو بعضهم على الأقل، أن ينفضّوا عن النسوة، وأن يتصرفوا بطريقة مختلفة؟

أحد ما، ربما، تدخل في وقت مناسب مما جعل أكثر الرجال يتحركون. فما عدا الحاج صالح العلو، الذي أصابه الذهول، وكانت عيناه تنظران إلى كل شيء ببلاهة، وكأنه ينظر ولا يرى، فقد تحرك الآخرون. وأصبح نعيم وحده الذي يقرر ما يجب أن يُفعل.

حين اقترح بعض الرجال نقل الجثمان إلى بغداد، ليدفن في مقبرة الشيخ معروف، إلى جانب موتى العائلة، رفض نعيم الاقتراح بحدة. قال: «يدفن بدري في المكان الذي استشهد فيه». وحين ألحّ عليه بعض الأقارب قدم تنازلاً جزئياً: «يودع بدري في أرض كركوك، ويبقى وديعة إلى ان يحول الحول، ينقل بعد ذلك لمدافن العائلة في بغداد». أما حين جرى التساؤل ما إذا يجب أن يغسل ويكفن، فقد أجمع الذين تداولوا في الأمر، أن عطر الجروح يجب أن ترافق بدري، أما ثيابه فهي أطهر الثياب، لأنها ثياب عريس، وإذا لم يتسن له أن يتزوج في هذه الدنيا، فإنه يُزفّ الآن إلى

السماء، ولا بد أن يمنحه الرب في ملكوته حورية تليق بشبابه، وقد تكون زكية هي تلك الحورية.

ولما سُمعت أصوات الخراف، وقيل إنها هدية للعرس، فقد أوعز نعيم بذبحها جميعاً دفعة واحدة، «لأن الضحية في اليوم الأول أبرك، وهي تذبح لروح شهيد» وأمر بتوزيعها على الذين يستحقون.

ضحى ذلك اليوم وصل الشيخ تقي الدين، وبعد أن قدم التعزية «بالشهيد»، هكذا قال، طلب أن ينقل إلى المسجد الكبير، وسوف يصلي عليه بعد صلاة العصر، واقترح الشيخ أن يكون قبر بدري إلى جانب مدفن عائلته، وإنه سوف يأمر بأن يهيَّأ له القبر هناك.

سيفو وقادر، دون أن يطلب أحد، ودون أن يتعارفا، اندفعا للمساهمة بحفر القبر، وذكر أحد الذين شاركهم في العمل، أن كلمة واحدة لم يتم تبادلها طوال الوقت الذي استغرقه الحفر. وأن سيفو قاس الارتفاع والعرض بخيط، وأنه احتفظ بذلك الخيط في جيب داخلي. لم يكتف بذلك، حين تم الانتهاء من إعداد القبر، رقد فيه سيفو، وكان يسبل يديه فوق صدره، ولما تأكد من السعة ونعومة الأرض قفز خارجاً وكانت دموعه تنهمر.

أما أهل كركوك الذين شاركوا في تشييع بدري، فلم يجتمع مثل هذا العدد إلا حين تم تشييع شهداء القلعة قبل ثلاث سنين. هكذا قال الكثيرون. حتى الصبية الذين كانوا يتحركون بسرعة من مكان إلى آخر لم تصدر عنهم ضجة، كما لم يمنعهم الكبار.

أكّدت زوجة قادر أن أحداً من «أهل بغداد» لم يمدّ يده إلى زاد ليلة الخميس وطوال يوم الجمعة. أما يوم السبت فقد أصرّت العمة زاهدة على ضرورة أن يأكل كل إنسان شيئاً، حتى لو كسرة خبز «لأن الصيام دون نية، دون نذر، حرام» وقد أكلت حبة من التمر مع قطعة من الخبز. وقالت، وهي تأمر الجميع أن يمدوا أيديهم إلى الزاد: «الصوم لروح بدري بعد وصولنا إلى بغداد، والله يدري بالقلوب».

وإذا كان «أهل بغداد» قد استعدوا للعودة بعد ظهر السبت، ونعيم هو الذي أصرّ على ذلك، قرّر هو أن يبقى وحده لمقابلة «أهل الحل والربط» بكركوك، كما قال، لمعرفة من قتل بدري، ولماذا قتل، وماذا يجب أن يفعل. وأصرّ سيفو على البقاء أيضاً، ليتولى الإشراف على تشييد القبر.

الكاكا محمود الذي سئل ما إذا كان مستعداً لقيادة قافلة العودة، لم يتردد أبداً في الموافقة.

زكية التي لبست ملابس العرس، تلك الليلة، أبت أن تنزعها، رغم محاولات أمها. ومهيوب الذي كاد يقتل، لان لا أحد جدير بركوبه بعد بدري. لكن نعيم صرخ بحدة رافضاً مجرد التفكير بهذا الحل؛ وكان مهيوب ضمن القافلة العائدة إلى بغداد، لكن لم يركبه أحد طوال الطريق.

83

لم يحس سكان محلة الشيخ صندل بعودة المسافرين إلا في وقت متأخر من ذلك اليوم. إذ بالإضافة إلى عدم توقع مثل هذه العودة السريعة، فإن وصول القافلة عند الفجر، وذلك الهدوء، الأقرب إلى الصمت، الذي خيّم عليها منذ أن غادرت كركوك، وإلى أن حطت رحالها في محلة الشيخ صندل، ثم التعب الذي هدّ كل واحد من المسافرين، مما جعل النوم أمنية لأي منهم... هذه الأسباب، وغيرها، لم تدع أحداً يفطن إلى أن المسافرين قد عادوا.

حتى فطيم، زوجة سيفو، التي كلفت العناية بالزرع، وأن تضع الحب والماء لعدد من الطيور في بيت الحاج صالح العلو، لا تعرف كيف نسيت هذه المهمة طوال ذلك اليوم، ولم تتذكر الأمر إلا والشمس توشك على المغيب.

ركضت بسرعة، علها تتدارك هذا الخطأ. ما إن فتحت الباب، وقد حرصت على فتحه بهدوء، وتسللت، وكأنها بهذه الطريقة تعتذر من الطيور، حتى فوجئت بالعمة زاهدة. كانت تجلس على حصير في الركن الغربي من الباحة، وقد عصبت رأسها بفوطة سوداء عريضة انهدلت على جسدها كله بحيث بدت وكأنها كتلة من ليل.

للحظة خاطفة، لا يكاد يكون لها زمن، ومضت عين العمة زاهدة، وبعد أن تأكدت أن أحداً دخل، عادت بسرعة إلى سبحتها، وإلى مواصلة التمتمة بالأوراد والأدعية.

مع تراجع صدمة المفاجأة، وإن حل مكانها الاستغراب، اندفعت فطيم نحو العمة لتسلم عليها، لتهنئها بسلامة العودة. وإذا كانت العادة أن تصافحها، فقد أرادت هذه المرة أن تقبلها لأنها عائدة من السفر، لكن العمة لم ترفع رأسها، لم تغير جلستها. وحين تتابعت كلمات الترحيب من فطيم، نظرت إليها العمة بصرامة أقرب إلى الزجر، ولما أرادت أن تتابع رفعت في وجهها سبابة يدها اليمنى وحركتها كصيغة حازمة للتنبيه، ثم وضعت السبابة على فمها طالبة منها السكوت تماماً!

ولما كانت فطيم لا تحفل بالمجاملات، وتقول ما تفكر به، ما يرد ببالها، كما لا تتردد باستعمال بعض الكلمات، وإن اتسمت بالبذاءة، إلا أن علاقتها بالحجية مزيج من الود والخوف معاً، وقد يكون السبب ما رسخ في ذهن فطيم من قناعة، لا يُعرف كيف تكونت، أن للحجية قدرات تمكّنها من الاتصال بعالم الغيب، ربما لما تبديه الحجية من تقوى أقرب إلى الورع، إضافة إلى ذلك الوسواس بالنظافة، والذي تطلق عليه أم قدوري «الطهارة»، ولا يعرف إن كانت تمتدحها أم تذمها!

كانت فطيم وهي تندفع نحوها، وكلماتها تسبقها، تريد أن تسألها عن الرحلة، عن العرس، ولكن حين وجدتها غارقة في الأدعية، وغير مستعدة لأن تنتهي منها بسرعة، إضافة إلى إشارات التنبية والتأنيب، فقد توجهت إلى الداخل باحثة عن غيرها من نسوة الدار.

ما كادت فطيم تخطو بضع خطوات، وتعبر المجاز، حتى رأت الحاج صالح. ورغم أنه لا يكتفي الاثنان عادة حين يلتقيان بالتحية والسؤال عن الصحة، بل كان يمازحها معظم الأحيان، وغالباً حول أمر واحد: ما إذا وجدت عروساً لسيفو... هذه المرة، وبمقدار اللهفة التي ملأت فطيم، وجعلتها تتكلم بسرعة وتدفق مرحبة، الا ان الحاج صالح نظر إليها للحظة ثم تجاوزها، وكأنه لم يرها، أو كأنه غاضب ولا يريد محادثتها!

لما تجاوزها، وبدا وكأنه غير متوازن في مشيته، ظنت فطيم لوهلة أن الحاج صالح مثل سيفو حين تداهمه سخونة الملاريا، إذ ينفصل عن كل ما

حوله، ويغرق في عالم من الهلوسات فلا يستطيع عندها أن يتحكم بكلامه أو بتصرفاته.

حين رأته هكذا، وبعد أن عبر المجاز نحو الباحة الخارجية، واصلت فطيم طريقها، لعلها ترى أم قدوري، أو واحدة من البنات، وعن طريق أية واحدة منهن يمكن أن تطمئن أن الحاج بخير، أولاً، ثم تسأل عن الرحلة والزواج، وغير ذلك من الأمور.

نعيمة أحست، أو ربما قدرت، خروج ابيها، وخشيت أن يواصل طريقه ويغادر البيت وهو في مثل هذه الحالة، لذلك اندفعت تبحث عنه لترده، كانت تتلفت، تنادي... وعند ذاك التقت بفطيم.

ما إن وقعت عيناها على فطيم حتى توقفت تماماً. تجمدت في مكانها. وقبل أن تمر ثوان قليلة حتى تدفقت دموعها بغزارة وهي تهجم على فطيم وتغمر وجهها في صدرها وتنتحب.

لحظات جامحة، كاوية كاللهب، الدموع تنهمر بشكل متواصل، وهي بالتأكيد ليست دموع فرح، ولا تعبر عن الشوق، ماذا يمكن أن تكون إذن؟ احتارت فطيم حول ما يجب أن تفعله لتعيد الهدوء لنعيمة، لتسألها، لتعرف سر هذه الرائحة التي ملأت فجأة جنبات البيت بالحزن، ثم لتعرف ما وراء هذه الدموع.

فجأة أصبحت فطيم متأكدة من شيء واحد: لقد وقع مكروه لسيفو، وإلا كيف تفسر ما حصل منذ لحظة دخولها إلى البيت وحتى الآن؟ الحجية زاهدة، مهما غرقت في أورادها، وما إن ترى فطيم، حتى يتهلل وجهها تعبيراً عن الود، وإن كانت لا تقطع أورادها وتعبر بالكلمات، إلا حين تنتهي، لكن خلال ذلك عيناها تعبران عن المودة والترحيب. هذه المرة تقول وتفعل شيئاً آخر: «لا أريد أن أراك. اذهبي من وجهي»، وإلا ما معنى الأصبع تهزها في الهواء، وكأنها تؤنب فتاة صغيرة أخطأت بشكل لا يمكن مسامحتها على ذلك الخطأ، أو السكوت عليه؟

والحاج صالح الذي يفيض رقة ووداً، حتى وهو يلتقيها في الشارع،

وخلافاً لرجال كثيرين، يقف معها، يسألها ما إذا كانت بحاجة إلى شيء، علاوة على أسئلته عن صحة سيفو وصحتها. الآن يمر وكأنه لم يرها، أو لا يريد رؤيتها. هل يخاف أن يكون أول من ينقل إليها الخبر السيىء عن سيفو؟ كان يمكن أن يفعل شيئاً آخر، غير أن يتجاهلها ويجرحها بهذه الطريقة التي لا تجد لها تفسيراً.

ثم هذه الموجة العارمة من البكاء، خاصة لحظة التقت نظراتها بنظرات نعيمة، وكأنها تنتظر هذه اللحظة، أن تراها بالذات، وقبل أن تنطق بلسانها، ها هي دموعها تسبقها، تتكلم نيابة عنها، وتهيىء، في نفس الوقت، لما ستشرحه فيما بعد الكلمات.

لو لم يكن الأمر متعلقاً بسيفو لعاد مثل الآخرين. كان يفترض أن يصل إلى بيته أول الأمر، أن تراه، وحتى لو لم يرد أن يبقى طويلاً في البيت، لا بد أن تعرف. أما الآن، وهي ترى الدموع، وسيفو لم يظهر، فالأمر متعلق به بكل تأكيد.

شعرت بحب جارف نحو سيفو، لا ليس الحب تماماً، إنه الحب والحقد معاً. وإذا لم يكن الحقد على وجه التحديد فهو الغضب واللوم، لأن سيفو يتذكر جميع الناس ما عداها. كان يهملها، يغيب عنها أياماً، وحين تسأله، حين تستفسر منه يلجأ إلى الصمت أو إلى الغضب، فتضطر للسكوت. لكن الآن، وبعد هذه الدموع، لا تتذكر إلا سيفو الذي تحبه، تحب طريقته في الضحك، وحتى طريقته في الغناء أيضاً، رغم أن صوته خشن ومليء بالنشاز. لكنها تشعر، خاصة في هذه اللحظات، أنها تحب الصوت، وتحب سيفو، وهي أيضاً بحاجة إليه. كيف يتركها وحيدة هكذا ويمضي؟ ماذا لو ترك لها ولداً أو بنتاً؟ إن الأولاد، خاصة بعد غياب أحد الأبوين، يساعدون على السلوى، وربما يعوضون أيضاً. قد لا يكون تعويضاً كاملاً، لكنهم يملأون الفراغ، يساعدون على النسيان، كما أن الأولاد، بعد غياب الأب أو الأم، يصبحون مختلفين، وأفضل بكثير مما كانوا عليه من قبل!

ونعيمة تواصل البكاء، وتزيد. وعلى صوت بكائها وارتفاع الصوت، خرجت ام قدوري ورضية، لكن ما إن رأتا فطيم حتى انخرطتا هما أيضاً في البكاء!

في هذه اللحظة تراءى لها سيفو شبحاً، أو مثل غيوم بداية الخريف: هشاً، سريع التبدد. بل وأخذت صورته تغيم وتتلاشى. لماذا لم تتمعن بوجهه، بملامحه، لفترات أطول كي تبقى صورته معها، ما دام قرر أن يخدعها ويمضي؟ كانت، في بعض الليالي، حين يأتي متعباً، ولا يريد سوى أن ينام، ترغب أن تبقي الفانوس مشتعلاً، ربما لتتأمل شكله، لتراه نائماً كالطفل، لكنه لم يدعها تفعل ذلك ولو لمرة واحدة، كان يجبرها على إطفاء الفانوس!

لو قدّر لها أن تراه لفترة أطول، حتى على ضوء الفانوس، بعد أن تعذر عليها رؤيته في ضوء النهار، ما دام يواصل تلك الرحلة الأبدية: من الشط إلى بيوت المحلة وثقل القربة يجعله ينظر إلى الأسفل أغلب الأحيان، لو أنها رأته لفترة أطول لترسخت صورته في ذاكرتها، لانحفرت تماماً، لكنه عنيد، ولا يخلو من قسوة بعض الأحيان. عدا أنه مستعجل دائماً، خاصة معها، أو ربما يخاف من عينيها، لأنه ما إن يراها تنظر إليه، حتى يخرج صوته غاضباً أو ساخراً:

ـ ها.. فطيم.. أشوفك تباوعين عليّ غير شكل، شنو ما عاجبك؟ تريدين فد شي؟

وأياً كان جوابها، ومهما حاولت التفسير أو التبرير، لن يوافق، يرد عليها بسخرية:

ـ الواحد قبل ما يباوع على غيره خليه يباوع روحه، وبعدين يحچي!

وتضطر فطيم للسكوت أو إلى تغيير الموضوع، وحين يمتد الصمت بينهما، يقول كأنه يحدّث نفسه:

ـ ما أحب الناس تباوع عليّ، أحسّ العين مثل المخرز، حتى لو كانت عين ابن سنة أو سنتين!

وفطيم قدر ما تحتمل، ولا تريد أن تسبب النكد، إلا أنها في حالات معينة، تحس بالاختناق، وقد تموت إذا لم تتكلم، وهكذا تجد نفسها ترد:

ـ الله بسماه العالية ما يقبل شوفة الحال، والناس تباوع عليه، فعلى ويش شايف روحك؟ شباب؟ غنى؟ جاه؟

ما كانت تريد أن تتذكر كل شيء الآن، ما يهمها استحضار صوته، أن تراه متجسداً أمامها، قبل أن تختلط الصورة مرة أخرى.

وهي تفكر بذلك، غابت الكلمات وتدفقت الدموع. أخذت تبكي بطريقة موجعة، وكأنها تتعرض لضرب قاس، لإهانة لا تحتمل، ولا يمكنها أن ترد إلا بهذه الطريقة. تمثلت لها كل أحزان حياتها، كل مواجعها القديمة، مذ كانت طفلة وحتى هذه اللحظة.

بكت فطيم بحرقة، بكت نفسها وبكت كل الذين عرفتهم وأحبتهم، ثم غابوا، تركوها ومضوا بعيداً، وها هو سيفو يفعل مثلهم، يصبح واحداً منهم.

حين انخرطت في هذه الموجة العارمة من البكاء، خاصة وهي ترى النسوة حولها يبكين، شعرت أن هذه الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تعبر من خلالها، وكانت هذه المرة تبكي سيفو بالذات!

في وقت ما، وكان التعب وحده هو الذي دفع البكاء خطوة إلى الوراء، قالت نعيمة، لتجعل البكاء مبرَّراً ومفهوماً، أو ربما لتبدأ موجة جديدة من النحيب:

ـ يا أم فلاح . . . تدرين لو ما تدرين . .

لم تكن تسألها، لم تكن تخبرها، تابعت بإيقاع:

ـ قتلوه . . قتلوه . . بدري راح، بدري راح، بدري صار جوا التراب!

وانفجرت موجة صاخبة جديدة من البكاء.

وفطيم التي تجد في الحزن سلوى أقرب إلى المتعة، لا تستطيع منع نفسها من المشاركة في المآتم، ليس في المحلة وحدها، بل وفي أي مأتم تسمع به. ولأنها تعرف الحزن إلى درجة الإدمان، فقد انحفر في وجدانها

أكثر «الغناء» الذي يقال.

وفجأة ارتفع صوتها بحداء حزين كاوٍ:

بدري العريس حنّوا بالدما غنّوا للعريس لحامي الحمى

بعد أن انحدر من الدموع مقدار كبير، وبعد أن تحول البكاء إلى نحيب متقطع، تساءلت فطيم: ولكن أين سيفو؟ خافت أن تسأل، أو وجدت أن السؤال عنه، خاصة بعد غياب بدري، لا يليق، أو على الأقل ليس هذا وقته، ومثلما تفسر غيابه دائماً، قالت في نفسها أنه ينشغل بأمور الآخرين، ولا بد أن يكون الآن في القهوة يحدث الذين حوله عن موت بدري. شعرت بالغيظ، لماذا كُتب عليها أن تكون آخر من يعرف؟ هل يخسر شيئاً لو أنه وصل إلى البيت، وأثناء وضع الثياب، وهو يغسل وجهه من آثار السفر، حدّثها عن موت بدري، عما حصل! هل يفترض أن تسمع من الناس؟

أحست أن سيفو لا يكف عن الابتعاد، عن الهروب منها، وكأنه لا يطيقها، أو على الأقل لا يودها كما توده. قالت في نفسها: «لن أسامحه، خاصة هذه المرة. خجّلني قدام الناس، الكل يحسبوني مخبّلة، جاهلة، يا سواد وجهي، جيت على رسلي، أضحك، أسأل مثل الرعنة، ولا بالي موت وصخام الوجه، شلون ما أعرف؟ ما أحد يقولّي؟ مو عيب، مو خزي؟ لو چنت أدري چان قلت لنسوان المحلة، چان لبست غير هذي الهدوم، لكن جاية على نيتي، جاية على مود عصفور وزرزور وتاري الدنيا غير شكل، يا سواد وجهك يا فطيم، والله يلعنك يا أبو فلاح لأن الصوج كله منك، ولا بد يوم من الأيام أقول لأم قدوري، أفهمها!».

وكانت فطيم تريد، إلى جانب البكاء والتساؤلات، أن تعرف ماذا حدث، كيف مات بدري، ولماذا، كما تريد أن تسمع مباشرة، لا أن تحدثها النسوة، بعد أن تتغير القصة ألف مرة على لسان كل واحدة ترويها من جديد.

وبعد معرفة بعض التفاصيل تعود فطيم إلى الندب:

صدرك خازن علم الباري وتراب الميدان يعفرك

وشـلـون بـدمّـك تـتـحـنّـى — شـلـون الـخـيـل تـهـشّـم صـدرك
ربـيـتـك وهـا الـيـوم يـومـك — وحـقّـي مـن أعـتـب ولـومـك
يـا ولـيـدي مـن تـعـثّـر جـسـمـك — ومـا لـقـيـت يـمّـك حـدّ يـلـمّـك
جـروحـك عـيـونـي ودمـوعـي — كـيـف تـعـيـش بـعـدك أمّـك

لكن على صوت البكاء، ولأن الخبر وصل إلى قهوة الشط، لا يعرف كيف، تحول بيت الحاج صالح العلو خلال وقت قصير إلى مزار يتدفق عليه الناس بالعشرات ودون توقف.

ولما كانت العادة في العزاء أن تأتي النسوة خلال النهار، وأن يخصص المساء للرجال، فإن محلة الشيخ صندل، ربما لأول مرة، تشهد أعداداً من النسوة المسنات يخترقن البوابة ثم الباحة، في طريقهن إلى القسم الخلفي من البيت. جاءت أعداد منهن، ومع دخولهن، أو مجرد تخطي الباحة، تبدأ الأصوات تعلو، أصوات البكاء والنحيب. ورغم أن الرجال، في مثل هذه الحالات، يبدون من الصلابة والقوة الكثير، إلا أن النحيب، وهو يسري في ذرات الهواء، جعل الكثيرين يمدون أيديهم إلى أعينهم كي يمسحوا الدموع التي سقطت دون إرادتهم.

ولأن الحاج صالح العلو لم يكن بوضع يمكّنه من استقبال المعزين، فقد حُمل إلى غرفة بعيدة، وناب عنه، إضافة إلى قدوري، الكثيرون. أو بالأحرى أحس كل واحد في المحلة أنه أحق من غيره بتقبل العزاء.

ورغم أن بيت الحاج صالح العلو من أكبر بيوت محلة الشيخ صندل، وأكثرها اتساعاً، إلا أنه ضاق بالمعزين، خاصة وأن كل قادم جديد يفترض أن الطريقة الوحيدة للتعبير عن المشاركة، عن الحزن، البقاء أطول فترة، الأمر الذي جعل الأسطة عواد يقترح نقل مكان العزاء إلى قهوة الشط، لكن مسنّي المحلة لم يجدوا القهوة مكاناً لائقاً، واقترحوا الجامع، وهكذا أبلغ الناس أن العزاء في الأيام التالية سيكون في جامع الشيخ صندل.

مع كل يوم يمر، وبمعرفة المزيد من التفاصيل، يشعر الناس بالحزن والغضب أكثر من قبل. صحيح أنهم لا يعرفون بالإسم من قتل بدري، أو

لماذا قتل، ولكن شعوراً بالمرارة ملأ كل قلب، والإحساس بالظلم خيم على الجميع.

وإذا كان اليوم الأول بدا طويلاً في بيت الحاج صالح العلو، فقد أشفق القريبون ورغبوا لو يفعلون شيئاً للتخفيف عنهم، كأن يصطحبوا الحاج صالح إلى مكان آخر، إلى البقاء معهم، أو حتى النيابة عنهم في تقبل العزاء. لكن قدوري بدا قوياً متماسكاً، وقد شكر الجميع، وقال إن النوم هو ما يحتاجه الذين عادوا من السفر، استعداداً للأيام الطويلة القادمة.

وهكذا بدأت أوائل الليالي في بغداد وبدري ميت، أو هكذا إحساس الذين عادوا من السفر، «ميت وبعيد» قالت أمه التي لم تتوقف دموعها منذ أن وصلت من كركوك. قالت ذلك وهي تقاوم المحاولات التي تريد حملها على النوم. وإذا كان قدوري بذل أقصى ما يستطيع، وبدا في لحظة عصبياً، فقد طلبت إليه نعيمة أن يذهب إلى النوم، وسوف تتولى هي إقناع الأم أن تنام.

نام قدوري متأخراً:

وإذا كان من طبيعة الإنسان أن يحب وأن يكره، فإن أكثر ما يكرهه قدوري: الكلاب. وربما هذه الكراهية بسبب الخوف، ولوجود الكراهية والخوف معاً بذل جهداً استثنائياً لإبعادها. أغرى أطفال المحلة بمطاردتها. كافأ الحارس الليلي الذي لم يكتف بمنعها من الاقتراب، وإنما تولى قتل من يقترب منها، وهكذا أصبحت محلة الشيخ صندل مكاناً محرماً على الكلاب!

عند الفجر كانت الظلمة مستمرة وكثيفة، لكن نتيجة الصوت، وأيضاً بدافع التأكد أن أمه نامت، استيقظ قدوري.

«كلب يعوي بالمقلوب» هكذا قال لنفسه، وقد أيقظه ذلك الصوت.

وإذا كان الذين يحبون الكلاب، وأولئك الذين ليست لهم عواطف محددة تجاهها، يتشاءمون حين يسمعون الكلاب تعوي بتلك الطريقة، فقد عزم قدوري، حين سمع الصوت قريباً، وكأنه يعوي بأذنيه، أن ينفّس عن حقده وحزنه، ليس فقط بطرد الكلب، بل وبضربه، بترك علامة في روحه،

وليس فقط على جسده، لكي لا يقترب مرة أخرى.

تسلل قدوري، وقد حمل عصا، مستعيناً بالفانوس الذي تضعه العمة وراء الباب الداخلي، كان يتقدم بهدوء، بحذر، مستهدياً بالصوت، وقد إنشدت أعصابه. عبر المجاز، فالباحة. فتح الباب، تقدم أكثر والفانوس بيده، في محاولة لأن تكون الضربة محكمة، مباشرة، وقوية إلى أقصى ما يستطيع.

الصوت لا يزال يصله واضحاً موصولاً، ومع كل خطوة يقترب يتضح الصوت أكثر، لكن مع العواء المقلوب شيء يشبه الشخير.

حين أصبحت المسافة كافية لأن ينزل قدوري ضربته، وما ان رفع يده بالعصا لكي تهوي على رأس الكلب، حتى شعر أن قوة خفية تشده، تمنعه، وما كاد يستجيب لتلك القوة، وتبقى العصا معلقة في الهواء، حتى أمعن النظر بهذا الكلب الذي أيقظه من نومه وولد في قلبه ذلك الحزن، ولا يريد أن يتحرك أيضاً، وكأن كل أمنيته أن يتلقى ضربة ماحقة نيابة عن جميع مخلوقات الأرض. في تلك اللحظة، ومن بقايا وميض العين، اكتشف قدوري أن الكلب الذي يعوي بهذا الشكل هو: حسون!

لا يُعرف أين كان حسون، ولماذا لم يصله الخبر إلا متأخراً. أما الآن، وبعد أن علم، فها هو مثل حيوان جريح ينتحب بهذه الطريقة، وحين يبلغ الألم حداً عالياً يصرخ فيخرج صراخه وكأنه عواء مقلوب.

قال له قدوري، وهو يساعده على دخول البيت:

ـ الموت نهاية كل واحد منا، دادا حسون...

وبعد قليل، وبما يشبه التأنيب:

ـ ونحن الرجال لازم نكون عاقلين وقلوبنا قوية، وإلا الناس تضحك علينا!

ـ وبدري راح...؟ ما عاد نشوفه بعد؟

ـ كلنا رايحين عيني حسون، وماكو أحد باقي إلا رب العالمين!

ـ يعني بدري ما راح يجينا، ولو خطار، يوم، ساعة، شوفة عين؟

ـ خلص، بدري صار ملاك، انتقل للسما

ـ وتريدني ما ابچي؟ هاي وين صارت؟ منو يرضى بيها؟

ـ شيفيد البكا، عيني حسون، ما دام الغالي راح!

ـ والدمعة زايدة عليه؟

ـ ولكن الرجال دمعتهم غالية، حسون، الرجال قلوبهم صخر جلمود، يتحملون كل شي.

ـ أريد أطلِّع اللي بقلبي مهما قال الناس!

وبعد قليل وهو يواصل الانتحاب:

ـ قدوري، لخاطر الله، خليني ابچي، خليني أبرِّد فوادي، لأن اللي راح مو قليل، ما يتعوّض.

ودون إرادة، دون أن يقوى قدوري على منع نفسه، أخذ يبكي وهو يردد:

ـ اويلاخ... ليش سويتها بينا، بدري، ورحت؟

والعمة التي كانت ترقب وتسمع كل ما يدور في الباحة، من غرفتها العالية، صاحت، وخرج صوتها مبحوحاً:

ـ ترى الموتى يضوجون بقبورهم إذا سمعوا الرجال يبچون!

قال حسون، بعد لحظات صمت، وقد فاجأه صوت العمة:

ـ حلفت يمين، بعد ما سمعت شنو اللي صار ببدري، يحرم علي الزواج بعده... مهما كان!

استمر العزاء، في جامع الشيخ صندل، أسبوعاً كاملاً. لم يبق أحد في المحلة الا وجاء، وجاء كثيرون من محلات الكرخ الأخرى، ومن صوب الرصافة، وقرأ لثلاث ليالٍ متوالية ملاّ مولود، شيخ مقام سيدي عبدالقادر، ولا يعرف إن جاء الملاّ مولود وحده أو طُلب منه ذلك. كما تناوب شيوخ آخرون على القراءة في الليالي الأخرى، بحيث لم تظهر للملا حمادي أية ميزة خاصة.

ومن الذين جاءوا لتقديم العزاء عدد من زملاء بدري في السراي.

صحيح أنهم لم يأتوا جميعاً في ليلة واحدة، لكن بدا مؤكداً أن الباشا أخذ علماً بقتل بدري، وقد وضح ذلك في اليوم الثالث، حين جاء خلف. وبعد أن قدم العزاء، قال إنه جاء باسم الباشا، وإنه سيمر في اليوم التالي ليقدم العزاء باسمه شخصياً. الأمر الذي جعل البعض يفهم من كلامه أن الباشا هو الذي سيأتي في ذلك اليوم. وقد أثار الخبر الكثير من الاهتمام والترقب، خاصة لدى الصبية والفضوليين. كما أن الملاّ حمادي ارتدى ثياب العيد وتعطر، وحاول أن يتذكر بعض العبارات وعدداً من أبيات الشعر التي تردد عادة أمام الخلفاء والحكام، وقرر أن يطلب من الباشا الالتفات إلى جوامع الكرخ والقائمين عليها، لأنها بحاجة لإهتمامه، كما هو الحال في الصوب الثاني من المدينة!

وأتى خلف في اليوم التالي، ولم يأت الباشا! لكن في هذه الليلة اختلى خلف بقدوري وببعض أقارب الأسرة، وأبلغهم أن دم بدري لن يذهب هدراً، ولا بد أن يعرف القاتل، وأن تنزل به العقوبة الرادعة، وإن تطلب الأمر بعض الوقت.

ولم يقل أكثر من ذلك حول الموضوع، وسأل، ربما مجاملة، ما إذا كانت العائلة تطالب بدية، وأن الباشا مستعد شخصياً لدفع المبلغ الذي تحدده العائلة، وقدوري الذي شكر واعتذر عن قبول أي مبلغ من المال، قال وسمعه الكثيرون:

- بدري ما له أعداء، وكركوك يوم التشييع كلها قالت: بدري انقتل بصوج غيره...

أخذ نفساً عميقاً، وتغيرت نبرة الصوت:

- تسلم على الباشا وتقول له: صوب الكرخ ما راح ينام قبل ما ينأخذ بثار بدري!

وإذا كان عدد من المسنين الذين سمعوا ما قاله قدوري لاموه بعد ذلك، وقالوا إن كلاماً مثل هذا لا يوجه إلى الوالي، إلا أن الكثيرين في صوب الكرخ قالوا وبصوت عالٍ: «لازم أهل السراي يعرفون: دم الآدمي

بهذا الصوب وبذاك الصوب فد قيمة، وما يفرق واحد عن اللاخ، وإذا ما أخذوا بثار بدري، فكل واحد له حق يعرف شلون يحصله».

حسون الذي لم يترك مكان العزاء ساعة واحدة، وكان يدور على الناس بالماء، يقدمه ويقول: اشربوا وترحموا على روح الغالي، متعمداً أن لا يذكر الإسم، لأن مجرد ذكره، وأنه مات، يشعره بالفزع.

كان حسون ينام في الجامع، ويساعد في التنظيف وجلب الماء واستقبال المعزين. أما بعد أن انتهى الأسبوع فقد انتقل إلى قهوة الشط. جلب ثلاثة أعلام سود علق الأول على الباب، أما الاثنان الآخران فقد وضعهما في زاويتي القهوة، عند طرف الماء، وقال للذين حوله وهو يثبت الأعلام:

ـ اللي يفوت بالجادة، وذاك الصاعد بالنهر إلى الموصل، ومثله النازل إلى البصرة، لازم كل واحد يمر يعرف: صوب الكرخ هوايه مقهور، ودم الغالي مو شلون ما چان، ومن هذا اليوم إلى ذاك اللي تنزل بيه الأعلام السود شقد بغداد راح تسمع وشقد راح تشوف!

ولما كان حسون قد اتخذ قراراً بعدم الزواج، ولئلا يبقى الأمر مجرد كلام، فقد نفذ القرار: تطلع إلى الصوب الثاني من المدينة، إلى صوب الرصافة، وتطلع تحديداً إلى الباليوز وقال كلمة سمعها الكثيرون:

ـ هذا حدنا وياكم!

وفكر حسون في العودة لعمله السابق، أي بيع الفريرات، بعد أن أهمل هذا العمل خلال الفترة الماضية، لكن حين بدأ مرة اخرى لم يعد قادراً على صنع فريرات إلا باللون الأسود، وكان أطفال صوب الكرخ يشترون الفريرات السوداء!، ثم فجأة توقف لانه وجد عملاً جديداً: العناية بالحصان!

84

شكّل الموت نهاية لحياة بدري القصيرة، لكنه كان البداية لأشياء كثيرة: بداية الحزن والتغير والأسئلة، بالنسبة لأشخاص عديدين، وفي أمكنة مختلفة.

ام قدوري التي كانت تطفو على بركة من الحزن، وكانت تبذل جهداً محدوداً لكي تؤجل الغرق، وجدت بموت بدري النتيجة لتبحر نحو الأعماق القصية في البركة التي كانت تطفو عليها.

خلال أيام قلائل، وبعد أن انتهى أسبوع العزاء، حوّلت غرفتها إلى قطعة من السواد، خاصة وأن أبا قدوري آثر، أو جاء من اقترح، أن يكون في الطابق العلوي، بعيداً عن الزوار، وعن الضجيج، خاصة وأن الغرفة التي تم اختيارها له جنوبية، وهذا يعني أنها دافئة في مثل هذا الفصل من السنة.

لا يُعرف أين كانت أم قدوري تخبىء هذه الكمية من الأقمشة السوداء، إذ فجأة غابت جميع الالوان، ولم يبق إلا اللون الأسود: أغطية الفراش، الوسائد، الستائر، حتى البساط المغزول من شعر الماعز، والذي وصل منه اثنان قبل سنين طويلة هدية من سوق الشيوخ، وقد ظهرا في البيت في الفترة الأولى ثم غابا، وصلت يد أم قدوري إلى واحد وفرشته في أرض الغرفة، وأبقت في الزوايا جلود جديان سود.

ولأن الصمت أصبح سيداً في بيت الحاج صالح العلو، بعد أن است
البكاء بصوت عالٍ طاقة الجميع، إضافة إلى ضرورة الهدوء مراعاة لص

الحاج، كما اقترح الطبيب الهندي الذي جيء به من محلة راس القريّة، فقد تحوّل الكلام في البيت إلى همس، وبعض الأحيان إلى إشارات، الأمر الذي جعل أم قدوري تحدث هذا الانقلاب في غرفتها دون أن تناقش أحداً، ودون أن يتدخل أو يعترض أحد.

قالت فطيم لأم قدوري بعد أسابيع، ولما دخلت الغرفة أول مرة:

ـ هاي شمسوّيه بروحك يا أم قدوري؟ ظلمة القبور أنفه وأرحم من هاي الظلمة!

ولما نظرت إليها أم قدوري نظرة عتاب أقرب إلى اللوم، ردت فطيم:

ـ حتى المرحوم ما يقبل، لأنك تعرفين: روح الميت تصير فراشة، وكل يوم تزور، فإذا لقت كل شي ظلمة، بالقبر وهنا، هوايه تنقهر وتقول سوّدت حياتي وحياة غيري؛ وهذي لا الله يرضاها ولا الناس!

ولأن الدموع تنوب عن الكلام عند أم قدوري، فلا يمكن لأي نقاش أن يصل إلى نتيجة. لذلك يحاول من يريد إقناعها اختيار وقت أفضل. وهكذا مرت الأيام دون أن يأتي ذلك الوقت. فتعوّد الناس على السواد، وأصبحت أية محاولة متأخرة أو غير مجدية لتغييره أو التخفيف منه. الحجية، العمة زاهدة، تعتبر أن الخطيئة التي دخلت في قلوب الناس هي السبب، إذ لا يوجد فرد واحد في بغداد كلها لم تدخل الخطيئة إلى قلبه. فإذا تركت ذاك الصوب، والذين يسكنون بعيداً، فإن صوب الكرخ يعج بالخطايا، حتى الناس في محلة الشيخ صندل فإنهم يغرقون في الخطيئة. «تمر أيام جمع هوايه والواحد لا يتصدق ولا يزور موتاه؛ وبغير رمضان ما يصومون؛ وتجي ليالي المحيا وشعبان وتروح ما يقدمون النذور، ولا يتفطنون لزيارة الأوليا». وتسمع العمة زاهدة أن الكثيرين يذهبون إلى المقاهي ويسمعون الغناء، ورغم أنها سمعت عن أناسٍ يشربون الخمر، إلا أنها، حتى الآن، ترفض أن تصدق! «ومن شوكت صار الناس يجمعون الصلوات بدل أن يقيموا كل صلاة بوقتها، وبالجامع مع أهل الإيمان؟ هذول اللي ما يطلّعون الزكاة بوقتها، ولا يتصدقون على الفقرا، شلون

تريدون ما يهتز عرش السما ويزعل عليهم الرحمان»؟

تقول ذلك العمة زاهدة لنفسها، لغيرها، حين يجري الحديث عن المصائب التي حلت بالناس، وما نشهده الآن ليس أكثر من تنبيه وإنذار. وتقول إن الله يختبر عبيده، يمتحنهم بأولادهم، بأموالهم، ليتأكد من صدق إيمانهم، وليقول لمن لا يعتبر إن الآتي أعظم!

لا تريد أن تقول إن موت بدري بسبب خطاياه، أو خطايا الذين حوله، لأنها ليست متأكدة من ذلك، لكنها تحس أن شيئاً ما تغير في حياة الناس وفي سلوكهم. قد لا يفطنون لذلك، وربما لا يقصدون، ولكن هذا ما يحصل. وإلا كيف تفسر أن أياً من أولاد الحاج صالح لما يسمع الآذان لا ينتفض ويهب إلى الصلاة؟ فإذا سألت أياً منهم يرد أنه سيصلي بعد أن يفرغ من الطعام أو من مداعبة الأطفال، ولا تعرف إن كان يفعل أم يقشمرها بكلمة!

حتى بدري... قبل أن يذهب إلى العسكرية لم يكن يصلي، ولأنه لم يعد يحفل بأسئلتها، بما تطلب منه، كانت أمه تتولى الدفاع عنه: «جاهل، حجية، زغيّر»؛ «خليه هسه، آني أقنعه، آني أحچي ويا أبوه» أما بعد أن أنهى العسكرية، وأصبح يجيء بزيارات إلى البيت، وصادف أكثر من مرة أن جاء في رمضان، وحين تكتشف أنه غير صائم، وتسأل بغلّ إن كان صائماً أم لا، مع أنها تعرف، يرد عليها مازحاً «إنه على سفر، وإنه سيعوّض الأول والتالي» ويضيف، وهو يضحك: إن الله غفور رحيم!

لم يقتصر الأمر على ذلك، فالعلاقة بين أم قدوري والحجية أخذت تتدهور يوماً بعد آخر، إذ لم يعد الهدف كسب رضى الحاج صالح، خاصة بعد أن دخل ملكوت عالم جديد، نتيجة الأدوية التي وصفها الطبيب الهندي، أصبح ينام فترات طويلة، وحين يستيقظ يكون في حالة من الذهول أقرب إلى الغياب. وأم قدوري التي فقدت، في غمرة الحزن، قدرتها على مساعدته، ما لبثت أن حلت مكانها نعيمة، المتعلقة بأبيها والقادرة بنفس الوقت على التعامل معه.

بدأت في المرحلة الجديدة حرب مختلفة بين الحجية وأم قدوري. وإذا كان لهذه الحرب هدف راهن، فإن مادتها من الماضي.

تقول العمة للواتي يزرنها، دون أن تسمّي، لكن يُعرف أو يُفهم من تعني:

ـ «الله، سبحانه وتعالى، ما عنده حجارة يضرب بيها، لكن يعرف شلون ينتقم: فإذا الواحدة تغسل يوم الاربعاء؛ إذا ما تصوم نص شعبان؛ وتمر ليلة المحيا مثل غيرها من الليالي، وإذا ماكو عندها كلمة إلا تقشب على الناس، شلون الله ما يقرّمها؟ شلون ما تنعمي عيونها من البچا؟».

ينتقل شيء مما قالته العمة زاهدة، ينتقل محرفاً وعلى شكل أسئلة، لكن أم قدوري تعرف من قاله، ولذلك ترد على العمة بالطريقة نفسها:

ـ «الدين بالقلب مو بالسبحة الطويلة؛ الدين باللي يحب الناس، اللي يساعدهم، مو بس: قال الله وقال رسوله! والواحد لمّن ينذر، لمّن يتصدق، مو يوقف على المنارة ويقول يا ناس.. يا عالم، ترى فلان شي سويت! وإذا زار قبر أو لزم شباچ ولي ما يقول: تعالوا يا ناس، تعالوا وشوفوا شمسوي آني».

ولأن أحداً لا تستهويه مثل هذه الحرب، أو يجد لها مسوغاً، لا تلبث أن تهدأ أو تتراجع إلا إذا جاء من يشعلها من جديد، وحول أمور لم تكن في البال.

مدحت النعمة، خال زكية، وصاحب العلوة في الشورجة، والذي كان معارضاً منذ البداية للمصاهرة بين الأسرتين، إذ كان يريد زكية لابنه نجم، ورفض أبوها لأنه لا يريدها زوجة ثانية لنجم، مدحت الذي قدم العزاء، وكان بصحبة الملاّ نوري، ما لبث أن ظهر من جديد، وهذه المرة من باب الشرع، كما قال، إذ طلب، عن طريق الملاّ نوري، أن يلتقي بالحاج صالح، «لمعرفة ما يستحق لزكية من ميراث المرحوم بدري».

ولأن الجرح ما زال ساخناً، ولم يكن أحد مستعداً للبحث بأمر التركة والميراث فقد أبلغ الرسول الذي أوفد من أجل تحديد موعد للاجتماع

وبحث الأمر، أن الحاج صالح مريض، وحالما يتعافى سيتم هذا اللقاء.

ما كان لمثل هذا الأمر أن يثار، أن يصبح مجالاً للأخذ والرد، لولا رغبة مدحت النعمة أن يحقق هدفاً مزدوجاً: أن يرغم الحاج نعمان المتولي على قبول ما رفضه سابقاً: أن يزوج زكية لنجم؛ وأن يضعف مركز الحاج صالح العلو في السوق، خاصة وقد تزايدت الإشاعات عن مرضه، ليس من حيث الخطورة، وإنما لأن الذهول تحول إلى حالة من الغياب أو ربما الخبل.

ومدحت الذي لم يكن يتردد على قهوة الشط إلا نادراً، أصبح لا يغيب عن القهوة ليلة واحدة، ولا بد أن يتطرق إلى موضوع الميراث: «... وتعرفون، يا جماعة الخير، آني خلالة ما توصلني. ويجوز لحصر الإرث أحط من جيبي، لكن الحق يعلو ولا يعلى عليه، وهذا اللي يقول به الشرع، وهذا اللازم يصير» ولأن الكثيرين يمكن أن يعترضوا، أو يحاججوا في أمور عديدة، إلا أنهم يقفون حائرين بل وعاجزين عندما تتردد كلمة الشرع. وقد عزّز هذا الوضع موقع مدحت النعمة، وجعله يثيره في كل مجلس.

بعث إليه قدوري يبلغه أن الموضوع لن يبحث قبل أربعين بدري، وإلى أن يعود نعيم من كركوك، «وبعد أن يتم لقاء الوالد بالحاج نعمان المتولي» وطلب من الذي حمل الرسالة أن يذكّره بالمثل الذي يقول: العم متولي والخال متخلي، دلالة أن ليس له علاقة، وإذا جرى بحث فسوف يتم مع الحاج نعمان وليس معه.

الأسطة عواد الذي سمع ما يقوله مدحت، ونُقل إليه ما يردده في بعض المجالس الخاصة، قال له ذات مساء، وقد بلغ غضبه حداً لم يستطع أن يخفيه:

ـ ما أعرف شلون أصيحك: حجي لو سيد، لكن قلت لروحي: هذا الرجال لا طاف بالكعبة ولا زار قبر النبي العربي، لأن اللي يطوفون ويزورون يصير بوجوهم نور وبقلوبهم رحمة...

ومدحت الذي لم يتوقع مثل هذا الكلام، أسقط بيده، إذ لا يعرف كيف يرد أو كيف يجيب، ولكي يعطي لنفسه فرصة إضافية سأل بسخرية:

ـ إي . . . وشكو عندك بعد، أسطة؟

ـ والسادة يبينون، لأن كلمة الواحد منهم قنطار ذهب وزود. يعرفون شوكت يحچون وشوكت يسكتون!

ـ شنو قصدك؟

ـ قصدي بالمختصر المفيد، الكلام اللي تحچيه، وانطش بالمحلة كلها، مو هسه وقته!

ـ الحق والشرع كل وقت وقته، أسطه، وما لازم أحد يزعل من الحق أو يهرب من الشرع، إلا إذا. . .

ـ إلا إذا. . شنو؟

ـ إلا إذا يريد ياكل حقوق الناس!

جرى ذلك دون أن يعلم الحاج نعمان، دون أن يستشار، لأنه بالإضافة إلى حزنه على بدري، وقد لام نفسه كثيراً إنه لم يذهب إلى كركوك، ربما خجلاً، فإن ما أصاب ابنته زكية، والمرض الذي حلّ بالحاج صالح، جعلاه شديد القلق والاضطراب. فزكية التي آثرت الذهاب فوراً إلى بيت الحاج صالح العلو، لأن هناك بيت زوجها، كما أخذت تردد، لم يستطع إقناعها بالعودة إلى بيتها إلا بصعوبة، فقد أصبحت، منذ عودتها، فتاة أخرى: استخرجت من الصناديق الملابس التي أعدتها للعرس، وأصبحت لا تفعل شيئاً طوال النهار، وقسماً من الليل، إلا أن تبدل ثوباً بعد آخر، وتتزين، وتقف عند الباب بانتظار وصول بدري!

بذلت أمها وأخواتها، ومعظم نساء العائلة، جهوداً كبيرة لمحاولة إقناعها أن بدري مات، إنتهى، وعليها أن تفكر وتتصرف بطريقة مختلفة. وحين لم تجد هذه المحاولات تدخّل أبوها برقة ومحبة، وتدخل أخوتها بنزق وقسوة، وبكلمات خشنة أيضاً، إلى أن وافقت على مغادرة الباب والباحة الأمامية، لتنتظر في غرفتها. وأثناء الانتظار، مع تغيير الملابس كل

ساعة، أصبحت هوايتها أن تغني بصوتٍ عال، وتختار من الأغاني تلك التي تعبر عن الشوق والانتظار، ولا تتردد في أن تستبدل الأسماء التي قد ترد في بعض الأغاني باسم بدري.

أما فكرة أن تتزوج رجلاً آخر، كما قالت لها أمها في محاولة لإخراجها من هذا الجو «وإن أي رجل يقتل روحه عليك، وباچر يبوسون الإيدين والرجلين بس أنت تقبلين وتوافقين» فكانت تقابلها بضحكات ساخرة أقرب إلى الهزء، مما حمل الأم على أن تكون حازمة، وبعض الأحيان قاسية، لكن الحاج نعمان قال في إحدى الليالي، وكان الجميع قلقين حائرين لهذا الوضع:

ـ الزمن هو الدوا، يا جماعة الخير، ولولا هذا الدوا ما ظل أحد!

وحين احتج الابن الأصغر، وقال إن المحلة ليس لها حديث إلا زكية، رد الحاج نعمان، وكان صوته مسالماً وراجياً:

ـ شكو عند الناس غير السوالف!

وبعد قليل:

ـ فإذا نحن ما رحمنا روحنا ترى ماكو أحد يرحمنا، وكلام الناس أبد ما يخلص!

وحين وجد الصمت مخيماً أضاف:

ـ هل هلا الله بأختكم، ترى مصيبتها چبيرة، وما لها أحد غيرنا.

أما حين وصل إلى علم الحاج نعمان ما قاله مدحت في قهوة الشط، وكيف لجأ إلى الملاّ نوري، فقال، وكان يريد أن تسمع زوجته بشكل خاص:

ـ الزواج قسمة من الله، وإذا ظل بعمري يوم واحد، نجم ما راح يفرح بزكية...

هز رأسه عدة مرات، وتابع، وكأنه يريد أن يوصل رسالة إلى مدحت:

ـ وهذي السالفة لازم أخوك يشيلها من دماغه...

واحتد فجأة، أصبح غاضباً:

ـ وبعدين . . إذا إلنا حق عند أحد نحن مو قاصرين، فما نريد أحد يدق أبواب الناس وينوب عنا أو يگدي باسمنا . . .

وتغير صوته تماماً، كأنه يكلم نفسه:

ـ بمثل هالوقت، وبعد المصايب اللي صارت، وين اكو واحد صاحب مروة، عنده نخوة، يقول: آني، يا جماعة الخير، حاضر، شتردون، شاقدر أسوي، مو يصير مثل البزون: يفرح بعمى أهله!

قال درويش، الابن الأوسط للحاج نعمان:

ـ وقال خالي مدحت بالسوق إنه راح يشتري علوة الحاج صالح، وراح يكتبها باسم نجم.

ـ لو كتب بغداد من الباب للباب باسم نجم، زكية ما راح تطب بيته!

هكذا رد الحاج نعمان بتحدٍ، فردت زوجته:

ـ إنت بس تريد حجة حتى تسب أهلي، حتى تقول عليهم فلاني وتركاني!

ـ إسمعي، نعيمة، وإنت تعرفيني كلش زين، آني ما أريد أتحارش بالناس، لكن ما أريد أحد يتحارش بي؛ اللي يقول لي مرحباً أقول له مرحبا ألف هلا، واللي يندق بي ويريد يبيعني كلاوات أشعل صفاح موتاه.

وانتهت قصة مدحت، على الأقل مؤقتاً، لأن في نفس الليلة ذهب الحاج نعمان لزيارة الحاج صالح، للقاء قدوري. ورغم أنه لم ير الحاج صالح، إذ كان نائماً، فقد أبلغ قدوري أن مدحت بمقدار ما أساء إلى المرحوم بدري أساء إليه شخصياً، وأنه يرفض الحديث في هذا الموضوع، «لأن الزواج قسمة، ويحتمل أكثر من نتيجة، يجوز يستمر ويجوز ينتهي، فإذا استمر الواحد يخلف أو ما يخلف، هذا كله من الله، أما الموت فهذا ما بيه إنّ. إذا الواحد مات راح، وإذا راح ما يتعوض بمال، حتى لو كان أكوام ذهب».

وفُهم من هذه الزيارة، ومن هذا الكلام، أن الحاج نعمان المتولي في مناخ آخر، وقد تأكد ذلك من خلال الإشاعات التي أخذت تنتشر بالسوق

حول عرض علوة الحاج صالح للبيع، مع إن إحتمالاً من هذا النوع لم يرد حتى بالبال.

في اليوم الثالث، بعد عودة نعيم من كركوك، وقد عاد معه أيضاً سيفو، وجاء زائر آخر اسمه قادر، وأُنزل هذا الأخير في مسافرخانة قهوة الشط، تجدد أسبوع العزاء، وقيل إنه بمناسبة الأربعين. وتقاطر أهل المحلة مجدداً على بيت صالح العلو، وقد استمع الكثيرون إلى ما رواه نعيم حول مقتل بدري، وأضاف سيفو بعض التفاصيل التي سمعها من الناس في كركوك، في الخان الكبير، وفي بعض المقاهي، وطلب من قادر أن يؤكد بعض الوقائع التي يعرفها أكثر من غيره، وقد روى قادر وقائع الأيام الأخيرة.

في اليوم الثالث جاء خلف، ومثلما أحدث مجيئه في المرة الأولى ضجة وتساؤلات، أحدث هذه المرة.

ورغم أنه التقى بنعيم على انفراد، قبل نهاية الزيارة، وكان لقاءً سريعاً، لم يدم أكثر من دقائق، إلا أن ما قيل بعد ذلك كثير. قيل إن الباشا كان يود أن يأتي بنفسه، غير أن سفراً طارئاً، وضرورياً، منعه من ذلك. وقيل إن خلف حمل معه مبلغاً من المال، دية لدم بدري، لكن نعيم لم يشأ أن يسمع، أن يناقش، وانه رد المبلغ قبل أن يخرجه خلف من جيبه. وقيل إن الباشا، وبعد أن أوفد ثلاثة أشخاص للتحقيق، توصل إلى معرفة القاتل، لكن من الأفضل تأجيل إعلان الاسم والتفاصيل إلى وقت لاحق، وإلى حين الاقتصاص من القاتل أو القتلة. وقيل إن الباشا منح رتبة إضافية لبدري، وإن شهادة سوف تكتب بذلك وقد كلف خطاط السراي بكتابتها، وحالما تنجز مع التواقيع والأختام، سوف يجري احتفال في السراي من أجل تسليمها للعائلة.

وقيلت أشياء كثيرة أيضاً. أما نعيم، حين سئل، فقد اكتفى بالتأكيد على أن بدري قتل نتيجة الكيد، ومن أجل تبليغ رسالة إلى جهة ما، ولا يعرف إن كانت هذه الرسالة موجهة إلى باشا بغداد أو إلى اسطنبول، أو ربما إلى باشوات الشمال، وقد تكون عبرت الحدود إلى كرمنشاه. هكذا قال نعيم،

وقد بدت له المسافات والأماكن، وحتى الأشخاص الموجهة لهم تلك الرسالة، غير واضحة، أو ربما لا تعني له شيئاً محدداً.

الأسطة إسماعيل الذي بدا غاضباً أقرب إلى الثورة، منذ أن بلغه خبر مقتل بدري، كان متأكداً من أمرين، ولم يتوقف وهو يتحدث عنهما: إن قاتل بدري أكبر مما يبدو في الظاهر؛ وإنه أرسل إلى كركوك كي يُقتل هناك! وكان يروق له، أن يذكر قصة يوسف والذئب، ويؤكد أن الحاج صالح العلو لن يشفيه الطبيب الهندي أو غيره من الأطباء، ما يشفيه قميص يوسف!

الأمر الآخر الذي لا يمل الأسطة إسماعيل من الحديث عنه: إنه لو كان في كركوك مع الذين ذهبوا، لو أنه يذهب الآن، ولمدة أسبوع أو أسبوعين، لا بد أن يعرف القاتل، «لأن المهم شلون تزلّق الواحد، تخليه يطلّع اللي بقلبه، ولا بد من هنا. . من هنا ويبين فد شي، وهذا هو راس الشليلة، فإذا الواحد لزمه يوصل».

ولأنه بهذه القناعة، ولما أبلغه سيفو أن القاتل لم يُعرف، وقد لا يعرف، أصبح يردد كلمة لا يغيرها: «إذا ما انلاصت ما تصفى»، وكان يقصد ويطالب أن تكبر القضية، حتى لو اقتضى الأمر الوصول إلى اسطنبول، وأن تعرض على السلطان شخصياً، عله يفعل شيئاً، خاصة وأن الباشا لم يفعل أكثر من إرسال أحد رجاله، خلف، ليقدم العزاء، «ويعرض فلسين ثلاثة، وكأن دماء الأوادم بلاش، قوتره».

وإذا كان مقتل بدري ولّد الحزن في قلوب أقربائه والذين يعرفونه، فإن القصص التي أخذت تنتقل عما أصاب أباه وخطيبته ولدت أحزاناً إضافية حتى عند الناس الذين لا يعرفونهم، ومع الحزن بدأت التساؤلات عما يمكن أن يكون وراء ذلك.

حتى الباليوز لم يشأ أن يبقى بعيداً، ففي إحدى الأمسيات جاء ميناس بزيارة إلى قهوة الشط، والتقى بنعيم والأسطة عواد.

صحيح أن الكثيرين لم يلتفتوا لهذا الغريب، ولم يميزه أحد، رغم أن عدداً غير قليل رأى هذا الوجه بصحبة القنصل في وقت سابق، إلا أن

العيون في كل مرة عبر فيها الموكب كانت تتركز على القنصل بالذات، وغالباً ما يفوتها التدقيق في الوجوه التي ترافقه. وهكذا كان اسم ميناس، والأهمية التي يتمتع بها في الباليوز، أكبر من شكله، الأمر الذي جعل الكثيرين لا يحفلون بهذه الزيارة إلا بعد أن انقضت.

نعيم، حين سئل عن زيارة ميناس، اكتفى بكلمات قليلة، قال إنها للتعزية، ولم يشأ أن يقول أكثر من ذلك. وقد استغرب الذين يستمعون هذا الرد، لأن الباليوز الذي يعرف كل ما يجري في المدينة قبل أن تعرف حتى السراي، لا يعقل أن يكون الخبر وصله بعد أسابيع، وبعث لكي يعزي بوفاة بدري!

الأسطة عواد، ودون أن يُسأل، قال بعد أن ودع ميناس:

ـ ما ينعرف إذا أبو عيون الزرق يشتغل لله أو لعبدالله!

وحين بدت كلماته غامضة للذين يستمعون إليه، أضاف باستغراب:

ـ يوم الموتة ما أحد منهم بيّن. اليوم: ها... شلونكم، تريدون فد شي؟

رفع الأسطة يديه الاثنتين بحيرة، وقال يكلم نفسه:

ـ اكو ناس يزرعون اليوم ويحصدون بعد سنين وسنين!

في الأيام التالية قيلت أشياء كثيرة حول زيارة ميناس. قيل عن استعداد الباليوز لمعالجة الحاج صالح العلو، وأن طبيب القنصل يمكن أن يشرف شخصياً على معالجته، لكن نعيم طلب مهلة ليستشير أباه، وسوف يرد عليهم الخبر.

وقيل إن ميناس همس لنعيم بكلمات، لم يسمعها غيره، وهي بالتأكيد تتعلق باسم القاتل وأسباب القتل. وإذا لم يكن الأمر كذلك لماذا اكتفى نعيم بكلمة واحدة وهو يرد على الذين سألوه عن الزيارة؟ قال للتعزية ولم يقل أي شيء آخر. حتى ما ذكره الأسطة عواد في اليوم التالي عن استعداد الباليوز لمعالجة الحاج صالح، لم يشر إليه نعيم مجرد إشارة!

وقيلت أشياء أخرى أيضاً، لكن في لحظة ما، ربما لمقاومة الحزن،

أن الأمر صدر عن الأسطة إسماعيل الذي كان مملوءاً بالحقد والغضب معاً، فقد قال ذات أمسية ليغير الجو:

- يا جماعة الخير اسألوا أبو حقي شنو وراء هذي السالفة!

وحين تعلقت به العيون، خاصة وأنها المرة الأولى التي يبدو فيها مرحاً، تابع بسخرية:

- العباس على عيني وراسي، أما الميناس فواي... واي!

توقف قليلاً، نظر إلى الوجوه وهو يهز رأسه، وأضاف:

- العباس صاحبنا، راسه حار ويجيب الدعا ويحقق المراد، الكل يعرف والكل يحلف. أما الميناس، هذا، فالله أعلم أنه ما جاء إلا حتى يكسر رقبة الفقير حسون!

وإذا لم يفكر أحد حتى تلك اللحظة، بأية صلة بين زيارة ميناس وحسون، فقد انفجرت تلك القصة من جديد، ولأن ليس لدى الناس الكثير ليقولوه، وربما للترويح على النفس، فقد بدأت تُغزل الإشاعات والقصص حول حسون!

«القنصل لم يرسل ميناس، الزوجة هي التي أرسلته، خاصة بعد أن انقطع حسون عن الباليوز، ولم تعد تشاهده هناك».

«... وطلب ميناس من الأسطة عواد أن يتوسط لدى حسون، بعد أن وصل لعلم الباليوز القَسَم الذي أعلنه حسون أن لا يتزوج بعد موت بدري، والأسطة عواد وافق أن يكون وسيطاً وأن يقنع حسون بالتراجع عن قسمه، وأفتى الملاّ حمادي بجواز الرجوع عن القسم شريطة أن يُذبح ديك أسود».

«... ولما سئل حسون عن رأيه فيما عرضه ميناس، رد، وكانت دموعه تنفجر من العينين وتنحدر على الخدين: تحرم عليّ وهي طالق، وردد الكلمة الأخيرة ثلاث مرات ليقطع الطريق على الذين يريدون منه التراجع!».

ولأن الأسطة عواد استعاد بذاكرته ما حصل قبل شهور، وكيف تحولت قهوة الشط، وحسون بالذات، إلى مسرح للسخرية والمقالب، فقد وضع حداً للإشاعات والقصص التي أخذت تزداد يوماً بعد يوم. قال لناشد

العبَليّ الذي يغزل الإشاعات وينشرها:

ـ ناشد، يرحم والديك، إما تخلصنا من اللقلقة؛ قال حسون وج لحسون؛ أو تدوّر قهوة ثانية، وبغداد كلها قهاوي!

ولأن الأسطة إسماعيل هو الذي فتح هذا الباب، فإنه الأقدر عل إغلاقه، وهكذا لم تمض أيام حتى انطوى الموضوع! قال الكثيرون إن حسون لم يدر بما حصل، لأنه لم يعد يأبه بما يجري في المدينة، كما كف الناس عن سؤاله.

الملا حمادي الذي كان يراقب ما يحدث في قهوة الشط، وما يحدث في المحلة، وتصله الأخبار، وإن كانت مشوشة متباعدة، كان ينتظر الوقت المناسب لكي يرد على خصومه، على الذين يشيعون عنه الأخبار التي لا تسر، وكان يستغرب أن يوجِد إنسان لا يحبه، أو يمكن أن يقول عنه كلمة سيئة.

حين سئل إن كان أفتى بذبح ديك أسود ليتحرر حسون من قسمه، رد بسخرية:

ـ آني من المنارة للمحراب، وما عليّ بغير شي!

ولما نظر إليه السائلون باستغراب، تابع، وبنفس اللهجة الساخرة:

ـ ملا حمادي ما ينفع لقطع المهر؛ الملاّ حمادي ما يعرف بقضايا الميراث، هذي خليناها لغيرنا!

وفهم الذين يسألون أنه يعني الملاّ نوري الذي قطع مهر بدري، والذي يفتي الآن لمدحت النعمة حول ما يستحق لزكية من ميراث. وحين لمح الملاّ حمادي ما يشبه التأييد في وجوه الذين يسألونه، تابع وقد شعر بالثقة:

ـ أكو ناس قُصتهم مو زينة لا بمهر ولا بغير مهر!

وبعد قليل لينهي هذا النقاش:

ـ لكن على من تتلو مزاميرك يا داود!

وبدأ موسم البرد في بغداد.

85

عبر حصان بدري في موكب الحزن بصمت، لم يفطن له، خلال الأيام الأولى، الكثيرون، لكن حسون تعهده بالاهتمام والرعاية؛ فعل ذلك دون أن يكلفه أحد، فاعتبر هذا الحل مناسباً، إلى أن يُعرف كيف سيتم لاحقاً لتصرف بهذا الحصان.

انكسرت الرتابة بوصول الحصان، وشكّل محطة جديدة وهامة في حياة حسون، وفي حياة صوب الكرخ وناسه، فقد اعتبره الكثيرون أنه لا يشبه غيره من الخيول الكثيرة الموجودة في هذا الصوب، لأنه يعني بدري أولاً وما رافق غيابه المفاجيء والحزين، وبالتالي فهو ذكرى للأسرة المفجوعة. ثم لارتباطه بحسون، وما يتولد نتيجة ذلك من اهتمام وفضول، وما سوف يُنسج من أحاديث وقصص تملأ ليالي بغداد الطويلة!

فمع الأيام الأولى لوصول الحصان تكونت عادات وطقوس، بدت غريبة أول الأومر، ثم ما لبثت أن أصبحت جزءاً مما ينتظره الناس: رحلتان يومياً إلى الشط، في أوقات تكاد تكون ثابتة. وما يرتبط بذلك من انتظار وهرج، إضافة إلى مرافقة الأطفال. الرحلة الأولى في الصباح الباكر، حين يكون الطقس حاراً، ثم في المساء المتأخر بعد أن مال الطقس إلى البرودة، «لأن الحر يؤذي، والبرد انجس» كما قال حسون شارحاً التأخير حين غيّر التوقيت. في رحلة الصباح يكون الحصان دون سرج، كما يصاحبه الأطفال الذين يبدون ضروباً عديدة من المساعدة، ويمتثلون لكل ما يُطلب منهم. يفعلون ذلك لقاء أن يسمح لهم حسون بالتمسيد على رقبة الحصان

وعلى كفليه. كانوا يقومون بهذه الحركة فرحين وبكثير من الهدوء والمودة، لأن أي خطأ يرتكبه أحدهم، كأن يصرخ بصوت عالٍ، أو يتحرك برعونة، يمكن أن يحرمه من هذه الرحلة البهيجة، إذ من شأن خطأ كهذا أن يهيج الحصان أو يحزنه، كما يؤكد حسون وهو يقسم أغلظ الإيمان!

أما رحلة المساء، وإن بدت للسقاية، فيكون حسون قد زين الحصان بالسرج واللجام الفضي، وغالباً ما يمتطيه أيضاً. أما الأطفال فيكتفون بالوقوف على جانبي الطريق، رافعين أيديهم الصغيرة لتحية الحصان والفارس، وقد يمشون بموازاته بضع خطوات، لكن دون صخب. أما الرجال الذين يكونون عائدين إلى بيوتهم، أو ذاهبين إلى قهوة الشط، فتبدر منهم، إضافة إلى تحية الفارس، كلمات الإعجاب والزهو، ولا يعرف إن كان أكثرها للحصان أو لراكبه! وحسون الذي يكون قد ارتدى لهذه المناسبة ملابس تليق بها، يرد على التحيات بمودة وجدية معاً. ويربت، بين فترة وأخرى، على رقبة الحصان وكأنه ينبهه إلى شخص أو بادرة يجدر به أن يرد عليها، فيرفع الحصان رقبته وتلتمع عيناه بالفرح، ويكون حسون عند ذاك في حالة من النشوة قلّ أن يرى في مثلها.

قدَّر الكثيرون هذا الموقف لحسون، وأثنوا عليه. قالوا إنه يملك قلباً من ذهب، وأن لديه من الحنيّة ما يكفي صوب الكرخ كله. وقال غيرهم أنه ما كان ليشفى من حب زوجة القنصل لولا هذه المصيبة، التي ألمّت فجأة، وشغلت الكثيرين عما كانوا فيه. ويضيف سيد منعم الذي تربطه بحسون قرابة بعيدة، يؤكدها وينكرها حسب الظروف، يقول، وهو يراه على ظهر الحصان، والأطفال يتراكضون حوله، مخاطباً من يحيطون به:

ـ ما أدري منو خال منو، آني خاله أو هو خالي...

وحين يسمع كلمات المودة والتأييد لحسون، يتابع بانفعال:

ـ من يوم ما الله خلق الدنيا وآني اقول لهم: ماكو غير النساء والخيل تداوي؛ فإذا ردتم إبنكم يبقى يمكم ووياكم ما يشده إلا حصان أو مريّة بنت أصل!

ويُغير اللهجة قليلاً، يبدو وكأنه يكلم نفسه:

ـ رب ضاره نافعة... وهاي هي جَتّ من كيفها!

الأسطة اسماعيل الذي أغلق محل الحلاقة متعمداً لأيام عديدة متواصلة، حزناً على بدري، ولكي يجبر الآخرين على المشاركة في الحزن، بقي ذاهلاً وغير مصدق ما حصل، لكن ما إن رأى حسون، وقد التفت إلى الحصان، تكريماً لذكرى بدري، وأيضاً حرصاً على هذا الحيوان الذي يمكن أن يهان ويتعرض للأذى إذا لم يجد أحداً يعتني به، ما كاد الأسطة يرى ذلك حتى استعاد ثقته بنفسه وبكل ما حوله. أما وهو يشهد حسون يقود الحصان في الصباح إلى النهر، ثم يقوده مرة أخرى في المساء، فقد قال وهو يقف على باب دكانه، وكان يخاطب حسون بمودة فائقة، ويريد للآخرين أن يسمعوا:

ـ لك حسون.. تسوى مو بطن، تسوى بطون!

وكان يرفع إليه يديه الاثنتين مضمومتين تحية، ويتابع بانفعال:

ـ صحيح أن الغالي راح، لكن يبقى هذا من ريحته وأثره، فألف رحمة على والديك يا حسون!

أما الأسطة عواد الذي رأى الأطفال أول مرة وهم يتراكضون حول الحصان وحول حسون، وكانوا في طريقهم إلى الشط، فقد دمعت عيناه، وقال لنفسه، دون أن يقوى على الخروج إلى الشارع، والحديث مع حسون: «هاي الدنيا، وهاي بغدادنا: الواحد للثاني، ولولا حسون وأمثال حسون چان خربت، چان فنيت، لكن الدنيا أبد ما تخلى، فيرحم البطن اللي جاب هالابن الحلال.. حسون».

وقال رؤوف أبو الحب، الذي أصبح سقاء بعد سيفو في محلة الشيخ صندل، وهو يرى الأطفال حول حسون والحصان:

ـ يواش.. يواش وِلدي، أنتم وحسون، وهذا الأزرق اللي يسوي ديرة وعشيرة على راسي، بس لا تخبطوا الماي، قولوا وين يوالمكم حتى أشيل الماي من صفحة ثانية!

وبطريقة ودية هادئة تم الاتفاق بين الطرفين. أكثر من ذلك كان يرو لرؤوف أن يتملى هذا المشهد، فيتوقف عن العمل لفترة، يدخن خلالها ويتابع الحركة النشيطة، وتلك الجدية التي تبدر من الأطفال وهم يساعدو حسون، لكن ذلك لا يدوم طويلاً، إذ على رؤوف أن لا يطيل المكوث وهكذا ينهض فجأة، وهو يخب مهرولاً نحو أبعد مكان، لكي يسقي ما نظيفاً، يحمله إلى بيوت المحلة التي يزداد طلبها يوماً بعد يوم، كان يقوا وهو يهرول:

- مو من قليلة سيفو شيّل ومشى وخلّى الحمل كله عليّ.

لقد تغير حسون خلال أسابيع قليلة، إذ لم يعد يتحدث إلا عن «شلال». ولا يُعرف إن كان هذا هو اسم الحصان حين كان لدى بدري، أو أن حسون أطلقه عليه! حتى لما عاد سيفو ونعيم من كركوك، وجرى الحديث عن الحصان في قهوة الشط، وسئل سيفو هل كان هذا هو اسمه أم لا، رد بطريقة حزينة:

- يا معودين إذا الغالي راح، فهسه ظلت على اسم الحصان؟

وبعد قليل كأنه يكلم نفسه:

- وحسون أبو خيل، يعرف شنو اللي يلوق له من أسامي!

أما حسون الذي لم يكن يجيب إذا كان «شلال» اسمه منذ البداية أم هو الذي منحه الاسم، فقد أصبح أكثر جرأة في الإجابة حين تحاصره الأسئلة حول الاسم، إذا كان يرد بغضب:

- بابا.. لازم تتعلمون: الخيل عند اللي يفتهمون ما تنطي الأسامي قوترة، لازم تتجرّب ولازم ينحزر عليها من اللي يعرفونها زين.

وحين تنظر إليه العيون إما مستنكرة أو يبدو فيها عدم الاقتناع، يتابع بلهجة حازمة:

- لأن الخيل، مثل النبات، إما ترفع الرأس أو تطمّسه بالوحل!

وتظل العيون تتابعه طالبة المزيد، فيشعر أنه محاصر أكثر من قبل، يتحرك، يتطلع إلى أكثر من اتجاه، حتى إذا راقته الفكرة أو الكلمة التي

يريدها، يضيف بنزق:

ـ وين رايحين... البنيّة تنعرف ليلة العرس، أما الفرس أو الحصان فربي كما خلقتني: كل العيون عليه، وبكل سباق يبيّن: ابن أصل، وبعد بيه حيل؛ ومثل ما يقولون: الطبل ما يندق جوا اللحاف!

ولأن هناك كثيرين يروق لهم أن يخرجوه عن طوره، أن يعاكسوه، تتوالى التعليقات:

ـ لا تاخذنا شاطي باطي.. حسون، سألناك عن اسم الحصان، هذا چان اسمه أو أنت سميته؟

ـ ويظل الحصان بليّا اسم حتى يجي واحد مثلك ويسميه؟

ـ وصاحبه، اللي دفع بيه هالكثر، يظل فاتح حلقه، وما يقدر يسميه، إلى أن يجي واحد هيتلي، وما دافع بين بارة، ويقول هذا لازم يتسمى فلاني وتركاني؟

في مواجهة الأسئلة التي تتوالى، يصرخ حسون متحدياً:

ـ هذا اسمه شلال، وما يلوق له غير هذا الاسم، فلا تتعبوا أرواحكم!

ولأن الكثيرين أحبوا الحصان، وقدّروا عناية حسون به، ولأن حالة الحزن ما تزال قوية على غياب بدري، فلم يكن أحد يسرف في المناكدة أو في الإلحاح على حسون، كما كان الأمر من قبل، خاصة لما وقع في حب زوجة القنصل. كما أصبح المسنون يلومون الشباب إذا تجاوزوا حداً معيناً في المزاح.

لكن حسون، مثل عادته كل مرة، لا يعرف الاعتدال ولا يقوى على تجنّب الآخرين، إذ لا بد أن يخلق ضجة أينما ذهب، وأن يولّد الخلاف حيث يكون. فنعيم الذي لم يعترض على أن يكون حسون مسؤولاً عن شلال، ووعد بتلبية كل ما يطلب، اشترط أن يُبعد الحصان عن السباقات والمراهنات، وأن لا يسرف حسون بالزينة والاستعراض، لأن بمجرد الموافقة على انتقال الحصان من كركوك إلى بغداد، ثم الاحتفاظ به، إكراماً للذكرى، وربما هي الوحيدة من بدري، الأمر الذي توجب أن تبقى

مصانة مهابة دون مبالغة، وأن لا تصبح مجالاً للمباهاة أو كلام الناس.

حسون الذي كان يهز رأسه موافقاً على كل ما قاله نعيم، خشي أن يتم التصرف بالحصان. خاصة وقد انتشرت الأخبار في قهوة الشط أن قدوري وهب كل الأشياء التي تعود لبدري، في محاولة للتخلص من كل ما يولد الحزن والذكرى في البيت، وكطريقة للنسيان أيضاً. حتى الملابس العسكرية، خاصة تلك التي تُلبس أيام الاستعراضات، قيل إنه تمت إعادتها إلى السراي. أما الحصان فلم يشأ قدوري أن يتصرف قبل عودة نعيم من كركوك. وهذا ما جعل حسون يوافق على شروط نعيم، لكنه لم يكن ينوي الالتزام بها إلى النهاية!

أما حين جاء أحد سماسرة الدواب، لمعرفة ما إذا الحاج صالح العلو أو أحد أبنائه مستعد للتنازل عن الحصان، وكيف رُدّ السمسار على أعقابه، فقد أصبح «شلال» أكثر أهمية بنظر الذين سمعوا بما جرى، وقدروا كثيراً موقف الأسطة عواد، وقدروا أكثر أن الأمر لم يصل إلى مسامع أسرة الحاج صالح، إذ لو وصلهم لتسبب بالأذى، خاصة وأن ذكرى بدري لا تقوّ بمال.

لما وصلت الأخبار لحسون، وعرف بجواب الأسطة عواد، وطريقته في رد السمسار، قال، وهو يتوجه بانفعال وباندفاع نحو الأسطة:

ـ رفعت رأس الكرخ كله عمي.

والأسطة عواد الذي كان فرحاً لفرح حسون، وكل من سمع بما جرى، قال بغيظ لم يستطع أن يخفيه:

ـ هذول السماسرة لازم يعرفون: الفلوس مو كل شي بالدنيا، أكو قبل الفلوس، وأهم من الفلوس، النخوة، الغيرة...

وبعد قليل وقد تغير صوته:

ـ أي نعم الناس قبل الفلوس، شنو عبالهم هذول السرسرية، الأدب سيزيّة، صارت الدنيا قوترة؟ بيش عمي؟ شيل وامشي!

قال سيفو الذي كان يتحرق غيظاً، وكان لا يقوى على الجلوس أو

الوقوف:

ـ آني مو بس حظي خرا، وهمين توقيتي انجس...

وأضاف بعد قليل، وكانت الكلمات تخرج من بين أسنانه.

ـ كل يوم، كل صبحية، آني وأبو نجم مثل الفخاتي، راسي براسه، نسولف، نحچي، إلا ذاك اليوم، جاني من غبشة الصبح جواد وقال: وينك أبو فلاح؟ أكو بلم ما تلقى مثله لا بالسند ولا بالهند، وهذا البلم مو بس للصيد، للصيد والونسه، وما ردته لغيرك. ادهدينا آني وجواد الأعور. وصلنا البلم اللي يحچي عليه. باوعنا. صعدنا. قلّبنا البلم. قلنا هذا مو زين، لكن ما يخالف. قلنا هالصفحة تتعدل. قلنا الشراع يتبدل. ضربنا أخماس بأسداس، وقلنا أولها وتاليها يتوقف على السعر. سألنا شقد تريد بيه مولانا؟ يباوع علينا وما يجاوب، يباوع وبس يباوع بعد مشوار قال: سوموا، قلنا تبيعه بهالكثر؟ قال: انطونا، قبلكم، أكثر بمرتين وما بعت. قلنا المخلص؟ قال: شكلكم ما تريدون تشترون. منا كلمة ومنه كلمة، لكن يبين الرجال ما يريد يبيع. قلت لجواد: ها يابا.. هذا صِاحبك يريد يبيع لو يريد ياكل حلاوة براسنا؟ تشاور وياه، وآني اباوع من بعيد. ساعة، وبعدين جا جواد وهو يهز راسه، قال: خلي الشغلة عليّ، آني اقنعه. قلنا على خيرة الله. خليت ومشيت، وظل جواد يتدانش وياه، والنتيجة: بوش...

تعب سيفو من هذا الحديث الطويل. تغيرت لهجته خلال ذلك أكثر من مرة. اعتدل فجأة وقال، وكأنه يريد أن يهين نفسه:

ـ أي نعم حظي خرا وتوقيتي أنجسْ...

وأضاف بسخرية:

ـ بغيبتي هذي جا ابن الزفرة، اللي دزه ساسون، يريد يشتري شلال، ولولا أن أبو نجم رِجّال، ويعرف، لانلاصت علينا...

التفت إلى الأسطة عواد، وهو يبتسم، وتابع:

ـ البوسة بين العيون ما تكفي، يا ابو نجم، لازم فوقها بوسة على

الراس وعلى القُصة وعلى . . .

رد الأسطة عواد، وكان محرجاً:

ـ لا تطوّخها أبو فلاح، خاف الناس تسمع وتصدّق!

ـ بعد ألف سنة، إذا فد واحد مرّ ببغداد، وعرف شنو اللي صار بهالأيام، راح يقول: هيچ ديرة ما ينخاف عليها من الغُرب، ينخاف عليها من نفسها ومن ناسها. . .

هكذا قال الأسطة اسماعيل، وقد تدخل بين الاثنين، وأضاف بمرح:

ـ أي نعم، صوبنا، بغداد بالصوبين، العراق كله والشام، مصر والبحرين، مكة والمدينة وما جاورها، وديرة الإسلام كلها، وما أدري بعد شنو، بيها نخوة، ولازم بيوم من الأيام تصير مثل قبل. . .

قال سيفو الذي لم يعجبه هذا الحديث:

ـ ما قلت لي، أبو نجم، هذا اللي جاك، طويل؟ قصيّر؟ سمين؟ ضعيّف؟ خشمه اقچم؟ على خده اخت؟

وعضّ على شفتيه:

ـ أتمنى بس لو أعرفه!

رد حسون بمرح:

ـ شنو تقدر تسوي له أكثر من رزالة أبو نجم، عمي أبو فلاح؟

ـ ما أريد أقول شنو، بس، الله أعلم، ما يطلع من بين أيدي حي، ولازم اراويه إحنا منو وإحنا شنو. . .

وكاد يكمل، لكن الأسطة اسماعيل قاطعه مداعباً:

ـ على كيفك أبو فلاح، ولازم تدير بالك، لأن والينا داود ماكو أحد يتشاقى وياه، وباچر إذا شفت الروس تتطاير، فلازم تتلمس راسك من هالساعة، ولازم تتعوذ من الشيطان!

قال حسون، وكان سارحاً في مكان بعيد:

ـ شلال، مثل ما قال عمي أبو نجم، مو للبيع. هذا وقف، ما ينشرى وما ينباع!

رد الأسطة بمداعبة واستغراب :
- آه يا حسون، مخبّى بقشورك، وماكو أحد يدري . . .
وتغيرت النبرة، أصبحت أكثر جدية :
- صرت تعرف بالوقف، وباللي ينباع واللي ما ينباع، هاي منين لك حسون؟ من علمك؟ منو اللي قال لك؟
- ذاك اليوم، بالسوق، سمعتهم يقولون: وقف عادلة خاتون ما ينباع؛ وقف أبو حنيفة ما ينباع؛ ووقف سيدي عبد القادر . . .
وكاد يضيف أسماء أخرى، لكن الأسطة اسماعيل فتح عينيه باندهاش وهو يقول مخاطباً الجماعة :
- وي . . وي، سمعتم يا جماعة الخير . . .؟ وأضاف يكلّم نفسه: ما تخوّف إلا المية السنطة!
والتفت إلى حسون :
- صرت تتختل وتسأل، مو هالشكل حسون؟
ولم يتركه يجيب :
- صرت تعرف الوقف، اللي ينباع واللي ما ينباع، وهسه تريد تسوي الحصان وقف؟
- آني ما علّي عمي، آني كل شي ما أريد، هم بالسوق هالشكل يسولفون ويقولون . . .
وبعد قليل وبخوف :
- آني كل ما أريده أن أنام بصف الحصان؛ احچي وياه؛ أسأله إذا يحتاج فرد شي، إذا يشتكي من فرد شي . . . وغير هذا كل شي ما أريد!
سأله الأسطة عواد بمداعبة :
- وإذا أصحابه رادوا يبيعوه؟
- شحدهم؟ منو يقدر يبيعه وآني حي؟ دمي قبل ما يطلع من صوب الكرخ!
- عفية، هالشكل أريدك، إبني حسون. ودير بالك أحد يقشمرك،

يقول لك: انطيك، أبادلك. لأن اللي يبيع حصانه أو فرسه طمع، باچر يبيع كل شي، فدير بالك إبني حسون!

قال الأسطة عواد مواصلاً الدعابة:

ـ شلال أنت تنفصل بيه، حسون؛ وأبو حقي: منو يريد زيان: الراس اللحية، أهلاً آغاتي، وآني بعد اليوم ما عليّ إذا جا سمسير، إذا جا أحد من ذاك الصوب، باليوز ماليوز، ما شفت، ما سمعت...

رد سيفو بحدة:

ـ هاي شنو أبو نجم؟ شنو راح توقع كلها براسي؟

ـ أستغفر الله، أبو فلاح، آني شنو بليّاك وبليا الناس اللي مثلك، لكنها كلمة تنقال!

تدخّل الأسطة اسماعيل:

ـ أهل صوب الكرخ إذا ما لقوا أحد يتعاركون وياه يتعاركون ويّا رواحهم، ويّا بعضهم، فالله يستر!

ـ آني ما عليّ، آني وشلال وكل شي غيره ما عليّ بيه.

هكذا قال حسون، وهو ينقل نظراته في الوجوه، ويبدو فرحاً لاختلافهم، فرد سيفو:

ـ لك لا تصير أثوَل. هسه قلنا عليك سبع وخوش آدمي، لأن هذي الدنيا ما تسوى إذا الواحد وحده، وإذا الواحد ما صار سبع، ولحمه قاسي ما ينكال!

ـ شتريد مني، عمي أبو فلاح؟ تريدني أروح لمقبرة الشيخ معروف بالليل وأقطعها بالطول والعرض؟ تريدني أنام بين القبور؟ تريدني أصوم صوم زكريا حتى يحيل الحول؟ تريدني ما أنام سبعة أيام وسبع ليالي؟

ـ على كيفك يا معوّد، لا تروح زايد، وبعدين تكسر بوط!

هكذا قال الأسطة اسماعيل رداً على الإثنين، لكن سيفو قاطعه بحدة:

ـ مولانا.. إذا الواحد خاف أكثر من اللازم، إذا حسَب زايد، ما يصير براسه خير، وأولاد الحرام ياكلون ويباوعون، فإذا شافوا بعين الواحد

خوف راح سحق، يقتلوه وبعدين يذبوه ذبة چلب. . .

استراح قليلاً ثم أضاف، وكان صوته بعيداً وعميقاً:

ـ صحيح أن الدنيا ما تسوى، لكن الواحد ما لازم يروح غدر، أو يقول: زغيّرة وما يخالف، لأن وحدة تجر اللخ، واللي يريد يغدر ويقتل ما يفرّق، وما عنده وقت حتى يسأل: أنت شنو، أنت منو؛ أول نوبة يقتل وبعدين يسأل!

قال الأسطة عواد، وكأنه يكلم نفسه:

ـ لا إله إلا الله، ما أغدر الإنسان وما أصلفه، لكن لكل ظلم نهاية، ولكل غادر نقرة يوقع بيها، أما اللي يمشي على الأرض مرحاً وشايل خشمه وما شايف أحد غيره، فبشره بالخراب والذل. . . وبعدين بالنسيان!

وغرق الجميع في الصمت، وتاهوا في أمكنة بعيدة. وفجأة نهض حسون كالمرعوب. وهو يقول:

ـ شلال ما يقدر ينام إذا ظليت بعيد عنه، لازم أغني له حتى ينام!

ابتسموا وهم يرونه يغادر القهوة، وفجأة بدأوا يسمعون دوي الناس الذين كانوا حولهم يملأون المكان!

86

كعادتها، هي الأيام، لا تتوقف. الصغير يكبر والجديد يصبح قديماً، والحزن الذي كان كاوياً يهدأ ويتطامن، إلا حزن بيت الحاج صالح العلو، فإنه يزيد ويتكاثف يوماً بعد آخر.

فمهيبة، أم قدوري، التي كانت تريد، بغريزة الأنثى والأم، أن تحوّل الدنيا كلها إلى كتلة من السواد، وقد شاركتها البنات في ذلك أول الأمر، وجدت اعتراضاً، بدأ كملاحظة، من كبار العائلة، ثم من أولادها، إلى أن أصبح رفضاً، وتحول الرفض إلى تحدٍ، من أكثر الذين حولها. حتى أخوها نعمان، الذي بكى، أو بالأحرى سقطت دموعه دون أن يقوى على منعها أو إخفائها، وهو يستقبل العائلة بعد أن عادت من كركوك، وظل أول من يستقبل المعزين، باعتباره أكبر المسنين، بعد أن احتجب الحاج صالح العلو، وكانت تربطه ببدري علاقة حميمة، زادها، كما يقال، الشبه بين الإثنين، وهذا ما تؤكده مسنات العائلة، خاصة من ناحية الأم، أن «بدري ونعمان حبّاية ومقسومة، لا راح ولا جا: العيون، القصّة، الخشم، حتى الضحكة، سبحان الله، وكأنها ضحكة خاله، الفرق بينهم أن واحد زغيّر والثاني چبير!».

حتى نعمان الذي بدا شيخاً وطفلاً في آن واحد، إذ كان شديد الارتباك وهو يستقبل المعزين، تحول فجأة إلى طفل ضخم وهو يرى أخته تذوب حزناً والتياعاً. كان، بعد أن ينفضّ جمع الرجال، يمر ليقضي معها وقتاً، لعله يخفف عنها الدموع واللوعة، لكن ما يكاد يراها حتى يصبح بحاجة

إلى أن يكفكف دموعه، وكثيراً ما سحبه قدوري، وهو يحتضنه بكلتا يديه، ليغادر القسم الداخلي من البيت، وأن يخرجا معاً إلى الحديقة، «ليشتم الهوا» كما يقول قدوري، حائلاً بينه وبين الأسوأ، إذ يمكن، وهو يقابل مهيبة، وقد تحولت إلى تمثال من الشمع بعيونها الجاحظة، وصدرها نصف المكشوف، والذي احمرّ إلى درجة يثير الخوف، بسبب اللطم، إذا استطاعت أن تلطم، أو وهي تقرص نفسها في أماكن عديدة من جسدها، علها تستحضر الألم، الذي يمكن من خلاله أن تشعر ببعض الراحة...

لكن نعمان الذي بدر منه ما لم يكن متوقعاً، أو مألوفاً من الرجال، ما بث أن تماسك بعد بضعة أيام، وعاد مثلما كان قبل الفاجعة. أما وهو يرى خته تغرق يوماً بعد آخر في الحزن، ويرى في عينيها ما يشبه الفرح واللذة، وهي تحاول أن تجعل كل من حولها يغرق أيضاً، فقد شعر بالارتباك أول الأمر ثم بالخوف. ذكّرها بالأعزاء الذين ماتوا: الأخوة والأخوات، ثم كيف مات الأب حين لم يكن أحد يتوقع موته. قال والآخرون يسمعون: جاء عند أول المساء، أكل، شرب الشاي، وبدا لكل من رآه أنه لا يختلف عن أي يوم سابق. نظر بإمعان وما يقارب الشغف إلى كل فرد من العائلة. كانت نظراته عميقة، متأملة، ثم أمسك بالقطة ووضعها في حضنه، كان يمسد على ظهرها وهو يقول: «... ويجي يوم، وتنتظرين ساعة.. ثنتين، وهسه يجي، وبعد شوي يجي، وينقضي الليل كله وما يجي، يا هل ترى سافر؟ يبطي؟ يرجع؟ لكن هالمرة سفرة طويلة وما منها ردة، فلا تزعلي؛ لا تقولي ليش.. هذه هي الدنيا».

هذا ما حصل في تلك الليلة التي مات فيها الأب. لم يقل لأحد، سوى القطة، أنه سيسافر، وأنه لن يعود. والأم التي كانت تغطي بضحكاتها كلماته الأخيرة، في محاولة لئلا يسمعها غيرها، لامته كثيراً، «لأنه يفاول»، لكنه ضحك بحزن، هكذا قالت الأم، وقبل أن يغمض عينيه للمرة الأخيرة، أيقظها، وقال لها: مسلّم عليچ، وردت: نام.. نام ويا معوّد والصباح رباح، ونام فعلاً، لكن لم ير أي صباح بعد ذلك.

ذكّرها نعمان بذلك، ولا يدري إن سمعته أو لم تسمع.

وذكّرها أيضاً بعددٍ من الذين أحبوهم وماتوا بعد مرض أو فجأة، من النساء والرجال، من الأقرباء ومن سكان المحلة، وكيف أن الحزن على كل واحد دام أياماً ثم انتهى، وعليها إن تفعل الشيء ذاته الآن. كانت تسمع، لكن لا تجيب. وحين يسألها ما إذا فهمت أم لا، كانت تنظر إليه بعينين فارغتين وكأنها تراه لأول مرة، وإذا ألح عليها بضرورة الامتثال لما يقول، كانت تسأله:

- ها نعمان، شقلت؟

ويردد نفس الكلمات، وبإلحاح يزداد، لكن ما إن تستمتع إليه قليلاً حتى تغيب مرة أخرى. قال نعمان لقدوري بعد أيام من محاولة إقناعها أن تكف عن الغرق في الحزن والسواد:

- حتى الأنبياء والأولياء ماتوا، ماتوا قتل، صلب، وأكو منهم من مات بالخازوق. انقهر عليهم الناس، وأهلهم انقهروا أزيد، لكن ما مر أسبوع أو شهر، وإذا طالت للأربعين، إلا وكل واحد قال للثاني: يبزى، كافي. الله يرحمهم والله يرحمنا لمن نموت.

- هذا الصحيح، يا خالي، وهذا اللازم يصير!

- وأختي، وآني أعرفها كلش زين: ولا تزعل مني، يا خالي، رعنة، كلمة تاخذها والثانية تردها.. ومو بس هيّ انقهرت على بدري، كلنا انقهرنا، لكن كل شي اله حد...

وتتغير لهجة الخال:

- ومو بس بدري شهيد، حتى الحسين وجعفر...

لكنه لم يتابع، إذ شعر أن هذا الطريق غير آمن. توقف. تنحنح. وتغير صوته:

- حتى محمد مات، فشنو... خلصت الدنيا؟

تلفت قدوري إلى أكثر من جهة قبل أن يسأل:

- بالقرآن مكتوب، مثل ما قال الملاّ حمادي، إن عيسى ما قتلوه وما

يطلبوه، لكن شبّه لهم، فشنو القصد: مات لو ما مات؟

ـ خليهم، يا خالي، يقولون اللي يريدونه. خليهم بكيفهم. بس لازم تعرف، يا خالي، كل من عاش بذاك الزمان، وحتى آدم مات، تعرف لو ما تعرف؟

ـ بلي.. بلي، شلون ما أعرف!

ـ وهسه ما علينا من موتى ذاك الزمان، علينا من موتانا، علينا من الناس اللي راح يموتون قهر وحسرة، علينا أبوك وأمك، فأريدك، وأنت تفهمني كلش زين، تقول لهم: كافي!

وهكذا وقف قدوري بحزم، لكن بمحبة كبيرة، في وجه السواد، وفي وجه الحزن أيضاً، الذي تحاول أمه فرضه على البيت وعلى الآخرين. وزع ثياب المرحوم، وكل الأشياء التي يمكن أن تنقل، على الفقراء. فعل ذلك دون تردد، وقد استعان بأشخاص بعيدين من طرف المحلة، لكن الأمر وصل سريعاً إلى قهوة الشط. كما طلب من حكمت داري، زميل بدري في العسكرية، وقد بعث إليه أحد شبان المحلة يطلب منه أن يوافيه دون تأخير، وحين توجس حكمت من هذه الدعوة، وحاول أن يعرف السبب، أبلغه الرسول أن الأمر هام ولكن لا يعرفه. وجاء في اليوم التالي، وإن حرص على أن يصطحب أحد أقربائه معه ليكون شاهداً! رجاه قدوري أن يأخذ معه ملابس بدري العسكرية، ويعيدها إلى السراي، «لأن المرحوم أوصى بذلك». وقد امتثل حكمت للطلب، لكنه أكد، في نفس الوقت، أن الملابس لم تكن عهدة، إذ اقتطع ثمنها خلال الشهور الستة الأولى بعد التخرج من المدرسة العسكرية!

أما طلبات الأم، وأيدتها الخالة بكرية بحماس، شراء مجموعة من الأقمشة السوداء، بأطوال وأنواع متعددة، وبكميات كبيرة، لكي تستعمل كملابس وأغطية للرأس، وأيضاً كستائر للنوافذ، واقترحت فضيلة سوادي، العدادة، أن تُشترى «أطوال» من قماش المناشف، يتم التصدق بقسم منها، وأن تصبغ بالسواد، أو بالأزرق القاتم، حتى إذا تنشّفت بها الوجوه، أو تم

الإئتزار بها في الحمام، تحوّل الوجه إلى القبلة، وتجعله يحس بيوم القيا والحساب، ومن شأن ذلك المشاركة في تحمّل خطايا الميت، وأن تجعـ يصل إلى أيدي الملائكة بريئاً وكأنه مات ساعة مولده...

... هذه الأمور، وغيرها، قابلها قدوري بكثير من الرفض والتحدي، وساعده وقوف أخوته معه، لكن بعض الأمور لا تتوقف على ما يمليه العقل، فنظرة كسيرة من أم قدوري تقلب أو تزعزع كل ما اتفق عليه. يحصل ذلك ليس نتيجة الخوف، وإنما بسبب الإحساس بالعطف والمشاركة. فحين يطلب قدوري من خالته بكرية أن تحاول إقناعها لكي تكف أو أن تخفف من هذا السواد الذي لا يملأ البيت وحده، بل ويغلف الروح أيضاً، ترد بآيات وأقوال حول ضرورة كسب رضا الوالدين وتحذره أن يكسر بخاطر الحجية، التي أصبحت على حافة القبر، فير قدوري، ويكون صوته مزيجاً من التوسل والغضب:

- إلى مكة أشيلها على كتافي، ولقبر النبي أوديها، بس تطلب وتقول. أما أن تتلحف بالسواد، وتقول هاي سُنة، فلا الله يقبل ولا النبي.

وحين ترد عليه خالة بكرية أن الجنة تحت أقدام الأمهات، يرد وهو يهتز:

- ما أقول لا، بس خلها ترحمنا وترحم نفسها...

يتلفت حواليه ويتابع بنبرة جديدة:

- وذاك المسكين، الحجي، اللي ما ينعرف هو حي أو ميت، ما ينراد له أحد يحنّ عليه؟ يحچي ويّاه؟ ما لازم يشوف ضحكة على وجه واحد منا آخر حياته؟

تجيبه الخالة بكرية بطريقة لا تخلو من سخرية:

- بعد هذي البلوى، أكو أحد يقدر يطلع سنّه أو يفك حلقه بضحكة؟ هاي وين صارت.. أنت ما تقبلها!

ويصمت قدوري، مؤجلاً المعركة لوقت آخر، ويصمم ألا يستجيب لطلبات أمه او لبعض النسوة اللواتي التففن حولها. وإذا كانت أمه توعز ولا

ـلب فبكرية تتولى الأمور كلها. وتبدأ العواصف بالهبوب بين أجنحة
يت. الحجية زاهدة في جانب، وقد كانت وحيدة أول الأمر، ثم أخذ
ـاطف معها الأخوة، لكن بشكل سري، ودون مبالغة، تبعهم الخال
ـمان. وفي الجانب الآخر الأم وبكرية، وبعض القريبات أيضاً. وفطيم،
وجة سيفو، المرسال بين الطرفين، والتي يتولد عن طريقتها في نقل
الأخبار والطلبات، وبعض الأحيان الأوامر، الكثير من سوء التفاهم،
حيث يتسنى لكل طرف أن ينكر بعض الأخبار والطلبات «لأن هذه الثولة،
طيم، ما تعرف كوعها من بوعها، ومن قبة للثانية تاهت، انلاصت عليها،
صارت تسقط حجي وسوالف من تحت ابطها» كان يحصل هذا إذا بلغ
لخلاف بين الطرفين حداً يقتضي تدخل الرجال. والمرات التي كانت
ستدعى فيها فطيم، لسؤالها عما قالت أو نقلت من أحاديث أو طلبات،
كان يتحول البيت إلى حالة من الحزن الضاحك، أو إلى ضحك مأساوي لا
يدري الإنسان كيف يتعامل معه.

وفي الطابق العلوي ينعزل الحاج صالح العلو، متوحداً، غائباً، لا يعرف أنه موجود وحيّ إلا حين تنقل إليه نعيمة الأكل، أو حين تُسمع دقات قدمه، وكأنها أصداء بعيدة، لكنها موجعة، بعد أن تبلغ مسامعه أصوات زاهدة وبكرية، وهما تتبادلان النقاش بطريقة غير مباشرة، إذ تقف كل منهما في زاوية، وتتظاهر أنها تتحدث لنفسها، لكن بصوت عال وساخر، وفي «الحديث» تكال التهم. وتعيّر الواحدة الأخرى، ولا يخلو الأمر، بعض الأحيان، من الفضائح والشتائم. يتم ذلك بإتقان وبراعة، وبصوت يرتفع بين لحظة وأخرى. فإذا بلغ الصوت حداً معيناً من العلو، أو تخلل الحديث ما يجرح ويسيء، تُسمع دقات الحاج، وكأنها إنذار أخير، إذ فجأة يحل الصمت، وكأن ريحاً خفية حملته من الطابق العلوي. تنظر المرأتان الواحدة للأخرى، وربما تكون هي المرة الأولى التي تتلاقى خلالها النظرات، وتقول العينان الكلمات الأخيرة، وهي كلمات التشفي والتهديد، وإن المعركة لا يمكن أن تنتهي بهذه السهولة!

امتناع قدوري، باعتباره المسؤول عن تأمين حاجات البيت، عن الاستجابة لطلبات أمه، التي تبلّغ بوساطة الخالة بكرية، لا يحول دون زحف السواد. فقد أخذت أم قدوري تستخرج مقتنياتها الذهبية، وعن طريق فضيلة سوادي تشتري ما تعتبره ضرورياً لاستكمال مراسم الحزن، من القماش، إلى أنواع من المساحيق والبخور والعطور والكافور، وأصبح هذا الأمر مصدراً جديداً للخلاف. فالكل يعرف، أو على الأقل يقدر، أن الذهب الذي يباع يعادل أضعاف ثمن الخرق التي تحملها فضيلة بشكل سري، وتلك المواد التي تجلبها. وإذا كان من السهل إخفاء الخرق، فإن الروائح التي تملأ البيت لا تخفى، ومثلها تلك المواد التي أخذت تعلق على الأشجار أو فوق حافات الأبواب والشبابيك.

قال قدوري لخالته:

ـ مو على مود الفلوس؛ الفلوس بألف جهنم، لكن هالعيشة ما عادت تنراد!

نظرت إليه بكرية بطرف عينها، خاصة وأنه رفض قبل أيام إعطاءها ما طلبته من نقود، وكأنها تلومه وتوبخه، قالت، ولم تخل لهجتها من سخرية:

ـ عايزة بعد، وباچر، يعلم الله، إذا طلبنا قرصة خبز، آني أو الحجية، يجوز نسمع الجواب: ماكو!

ـ على كيفك.. خالة، لأنه مثل هذا الحچي ما ينقال ببيت الحاج صالح؛ وأنت بعينك تشوفين: الأكل اللي ينذبّ أكثر من الأكل اللي ينوكل، لكن هذي القشمريات اللي ما يقبل بيها لا دين أو ناموس، ما نريدها...

وبعد قليل:

ـ هذي المريّة، بنت السوادي، إذا طبّت البيت أكسر رجلها، أشعل أمواتها!

ـ آني ما عليّ...

وتغير صوتها تماماً
ـ حسافا إن الخير هالشكل يتجازى، فضيلة ذلّت روحها على مود حجية، تركت بيتها وولدها وقابلت أمك، وبعدين هالشكل؟
أخذت نفساً عميقاً وأضافت بحدة:
ـ وتاليها... مثل ما قالوا: خير لا تسوّي، شر ما تلقى!
وقف قدوري بغضب، دق الأرض بقدميه، مرة بعد مرة، وقال بحدة:
ـ هذا اللي فوق.. علمني فد شي كلش زين، وأبد ما أنساه: اللي يكون وياك زين، كون وياه أحسن، أما اللئيم اللي ما عنده وفا فانساه، لا تكلف روحك تقول له مرحبا...
وكاد يتابع بنفس الوتيرة، أو ربما بوتيرة أعلى، لكن الدقات التي هبطت من فوق، وضعت حداً لهذا النقاش. لا يعرف إن كانت الدقات تأييداً أو اعتراضاً، أو ربما كانت إنذاراً أخيراً بضرورة أن تنتهي هذه اللعبة، أن تتوقف. قال قدوري، وهو يهبط على مقعده:
ـ العدّادة تعلي صوتها حتى تزيّد كروتها، أما قلبها فصخر جلمود، ما يحرّكه طوب أبو خزامه...
وبعد أن استقر في المقعد، قال، كأنه يكلم نفسه:
ـ إذا ما انقطعت وحدها، والله لأخلي سيفو يهزّمها من صوب الكرخ كله!
قامت الخالة بكرية وهي تقول:
ـ آني شعليّ؟ آني ياهو مالتي؟
وأضافت وهي تبتعد:
ـ وهذول بيت علو ما بيهم إلا شوفة الحال، وراسهم يابس، وألف مرة قلت هذا الكلام لمهيبة، لكن...

87

لما تأكد داود باشا أنه سيطر على معظم خصومه، بالحصار أو بإشعارهم بالأمان، وبعد أن وصل إلى علمه أن رجال الباليوز اتصلوا بصادق أفندي ابن سليمان الكبير، كما أن رسالة وصلته من قاسم الشاوي، مع حصان وسيف، وأن صادق بعث إليه بندقية فرنسية، استيقظت في قلب الباشا الظنون والمخاوف، وأخذت تزداد يوماً بعد آخر.

ولأن داود يريد أن يطوي مرة واحدة، وإلى الأبد، المشاعر نتيجة ما لحق بأغلب أفراد أسرة سليمان الكبير، فقد أحاط من بقي منهم بالرعاية والاهتمام، كما أغدق على الكثيرين وطيب خواطرهم. ورغم ما نقل إليه عن صادق، فقد قرر أن يغض النظر، وأن يطوقه ويستميله قبل أن يقع في أحضان الآخرين. ولذلك خصّه بعناية مميزة، وأكرمه أيما إكرام، إذ حرص أن يكون إلى جانبه أثناء استقبال الوفود، وأحله في مكان الصدارة في المآدب والحفلات.

كما انطلق رجال الباشا، الذين أكدوا منذ البداية براءته من دم سعيد، للإشادة بصادق، وقالوا بكلمات واضحة، مع مظاهر الفرح، إن العناية التي تولى لآخر أبناء سليمان تدل على تسامح الباشا، ورغبته في أن يقترح على الباب العالي تسميته والياً لحلب، مع أن صادق لا يزال يمانع ويعلن رغبته في أن يبقى بعيداً.

وصادق أفندي بادل الباشا وداً بود، وكان يردد أمام الكثيرين أن الذين كانوا حول سعيد هم السبب بقتله، بل أكثر من ذلك هم الذين قتلوه. وكان

يختم مثل هذا الحديث بأن يقول: «عفا الله عما مضى، ونحن أولاد اليوم» في إشارة واضحة أنه تجاوز هذا الحادث، ولا بد من طيه، والبدء من جديد.

قدر داود باشا كثيراً هذا الموقف لصادق، وأخذت المودة تزداد بين الاثنين. وتأكدت أكثر لما أبدى صادق عزوفه عن شغل اي منصب رسمي، مع أن الباشا عرض عليه مناصب عديدة، لكن في كل مرة يرد، وابتسامة حزينة تغشى وجهه:

ـ في حياته، الله يرحمه، ما أراد لاحد أبنائه أن يكون والياً بعده، وتذكر وصيته يا باشا، لكن القدر... ثم أبناء السوء، وحصل ما حصل!

يأخذ نفساً عميقاً ويضيف:

ـ وأنت يا باشا تكفي وتوفي، فكل رجائي أن تعفيني من أية وظيفة.

وحين يتطلع إليه الباشا بعتاب، يرد صادق:

ـ وبعدين... حلفت من ذاك اليوم، وما تريدني أكسر يميني.

وداود باشا يعرف أن «ذاك اليوم» هو يوم مقتل سعيد، فقد نقل عن صادق، حين بلغه الخبر، أنه صرخ أمام عدد من الذين كانوا حوله: «ألف مرة قلت لهذا الأرعن أترك ابن الخايبة، المأبون، حمادي، لكن سعيد كان يسمع بغير آذانه» وبعد أن سقطت دمعة لم يستطع صادق أن يمنعها، أضاف كأنه يحدث نفسه: «.. إذا كان الغراب دليل قوم فبشرهم بالخراب، وهذي هي النهاية» وما أن هدأ قليلاً حتى قال: «وبعدين.. داود ما هو غريب، داود منا وفينا».

لقد نقل هذا الحديث، ونقل غيره، مما قاله صادق، إلى داود، فاكبر موقفه وقرر أن يكسب ثقته، رغم كل ما حصل، وأن يصبحا أصدقاء.

بعد تفكير وتحرٍ، اعتبر الباشا أن المدخل إلى الثقة ثم الصداقة، أن يقترب من صادق أكثر، وأن يقرّبه، وكانت البداية: لعبة الشطرنج.

فهذه الهواية التي استبدت بصادق منذ زمن مبكر، كانت تشغله وإن بدت للباشا أنها لا تليق بالرجال الوقورين، لأنها تلهي عن ذكر الله، وتأخذ

الكثير من الوقت، ما لبث أن وجدها الوسيلة المناسبة للتعامل مع صادق وعليه فقد طلب من أحد ضباطه، شوقي آزوغلي، أن يعلمه هذه اللعبة وكان شوقي معلماً بارعاً، ويلم بعدد كبير من الخطط، بحيث لم يمر أسبوع إلا وأصبح الباشا يستسيغ اللعبة، ويقدر ما فيها من ذكاء، وما تتطلبه من تركيز ومهارة، وصار مستعداً لمنازلة صادق.

في الحديقة المطلة على النهر، وبعد الانتهاء من صلاة العصر، فاجأ الباشا صادق، إذ تحداه وطلب أن ينازله في الشطرنج! وصادق الذي فوجىء اعتبر الأمر دعابة، لكن حين رأى الباشا يطلب الرقعة، ويصفّ الأحجار، ويشير إليه أن يجلس مقابله للنزال، قال بارتباك:

ـ تفضل.. سيدي.. تفضل!

لا شعورياً هبط صادق على المقعد المقابل، وأخذ يتلفت هنا وهناك، غير مصدّق لما يحصل، لاعتقاده أن الباشا ما برح يمزح، وأن شخصاً ما سيظهر في اللحظة التالية لينازله. قال له الباشا، وهو يميل على الرقعة:

ـ راح العب قبلك، لأن الأبيض لي، ولأني مبتدىء!

ولما هز صادق أفندي رأسه مقراً وموافقاً، أضاف الباشا:

ـ لكن عندي شروط...

لم ينبس صادق بأية كلمة، اكتفى بأن هز رأسه مرتين، دلالة الموافقة، فتابع الباشا:

ـ بعد كل شوط، ولا يهم من يكون الغالب ومن يكون المغلوب، نغسل قلوبنا حتى تصير مثل الحليب، لأن خصومة الرقعة لا يجوز أن تنتقل للقلوب، موافق؟

وحين تهللت أسارير صادق أفندي دلالة الموافقة الكاملة على هذا الشرط، أضاف الباشا، وبطريقة أقرب إلى الدعابة:

ـ والشرط الثاني: أن الحد لكل لعبة، والحكم بيننا، هو الأذان، ولا يهم أين وصلنا أو من غلب من، فإذا وافقت.. نبدأ!

ويوافق صادق بحماس، لأنه متأكد أنه سيغلبه خلال وقت قصير، وقبل

حلول صلاة المغرب، خلافاً لتوقعات الباشا. . . وهكذا بدآ الشوط الأول في هذه اللعبة التي ستمتد بينهما وقتاً طويلاً!

ورغم أن داود باشا تعود منذ زمن مبكر على إلقاء الدروس، واستمر يقوم بهذه المهمة، حتى بعد أن أصبح والياً، ومع تزايد الأعباء، فقد رسخ في قناعته، بعد تجربة طويلة، ان ما يبقى في ذاكرة الناس من الكلام الكثير الذي يسمعونه، أو الذي يقال لهم، هو ما يأتي بشكل عفوي، ولا يأخذ صيغة الوعظ والتعليم، وهذا ما أصبح ميالاً لاتباعه مع أولاده، ومع عدد من أفراد حاشيته، وهذا ما قرر أن يتبعه مع صادق.

كان مع نقل البيادق، وأثناء التفكير بين نقلة وأخرى، يترنم ببيت من الشعر، بحكمة، أو بقول. وكان يروي، بعض الأحيان، القصص والطرائف. يفعل ذلك ليمد جسراً متيناً بينه وبين صادق، ولكي يخلق جواً يولد ثقة تتجاوز فارق السن والشكوك، وحتى هيبة المنصب. وكان، بين لحظة وأخرى، يسترق النظر إلى وجه صادق، ليرى وقع ما يقول. وصادق الذي مارس دور المستمع، أو دور السائل في أحيان قليلة، كان في مجالسه الخاصة يردد بعض ما يقوله الباشا؛ صحيح أن الكثير مما كان يردده يتغير، أو يُستعمل في غير مكانه أو في غير وقته، لكن ما أن تصل مثل هذه الأخبار إلى الباشا حتى يشعر بالفرح، وكثيراً ما فرك يديه وهو يقول: «كثرة الدق تذوّب الصخر، وصادق راح يصير محبس باصبعي!»

حين لا يستطيع الباشا ممارسة هوايته الجديدة مع صادق، لأنه لا يتحمل أن يُغلب دائماً! ولانشغالاته الكثيرة أيضاً، فقد انتدب عدداً من المهووسين بهذه اللعبة، كان على رأسهم عباس اسطنبول، وكلفهم بمرافقة صادق، وأكد عليهم أن يكونوا قريبين منه باستمرار، قبل اللعب وبعده. ولم يتأخر هؤلاء عن أداء المهمة التي أنيطت بهم على أحسن وجه.

وعباس اسطنبول، اكتسب كنيته من إقامته الطويلة في اسطنبول، إذ عاش هناك سنيناً عديدة، بعد أن غادر بغداد. كانت كنيته، أو بالأحرى اللقب الذي يطلق عليه: عباس الحجية، لفقره وليُتمه، وأيضاً لتمييزه عن

عباس آخر كان يحمل نفس اسم أبيه. وقد ظل يكنّى هكذا إلى أن جاء في إحدى زياراته إلى بغداد، وأخذ يتحدث بإسهاب عن تلك المدينة العجيبة، اسطنبول، ولم يكن يكف عن ترديد اسمها بمناسبة أو دون مناسبة، فلحق اسمها باسمه، وأصبح الذين لا يعرفونه باسم عباس الحجية يعرفونه باسم عباس اسطنبول!

كان الاسم، حين يسمع أول مرة، يثير الاستغراب بل والسخرية، لأن عباس كان غليظ الملامح، قاتم البشرة، كأنه قُدّ من نحاس قديم مستهلك، خلافاً لما تثيره كلمة اسطنبول في أذهان الكثيرين، من الرقة والبياض ودقة الملامح، حتى أن سلمان المطيرجي كان إذا رأى بعض الجنود الأتراك، ببياض البشرة وزرقة العيون والشعر الأشقر، يردد، ويريد للآخرين أن يسمعوا، وكان يخاطب عباس بعد أن لبسه الاسم الجديد:

ـ موت يكرف هالخلقة، وسليمى تاخذك، أنت اسطنبول وهذول اسطنبول؟

ولا يترك لأحد أن يعلق أو يجيب، يتابع والزفرات تصعد من صدره:

ـ إذا رجالهم بيض شقر هالشكل، فنسوانهم شلون؟ ما تقولوا لي يا معودين، يا اصحاب النظر يا أهل المروة؟

ولأنه لا يريد إجابة من عباس أو من غيره، يهز رأسه مرات عديدة، ويتابع كأنه يكلم نفسه:

ـ هذا يلوق له اسمه: عقره أو عقرقوف، وإذا تساهلنا نسميه عباس تلعفر، أما اسطنبول فتصلخ، ما ترهم!

ويتوجه إلى عباس:

ـ لك بابا... بدّل اسمك، لأنه، والله العظيم، السلطان إذا عرف يصلبك، يعلقك من خصاويك!

ويلتفت إلى الذين حوله ويقول بلهجة محذّرة:

ـ وأنتو يا معودين وين رايحين؟ لا تورطوا الرجّال، لأن هذي بيها قص راس، وأبد ما تخلصون من الحجية!

ولأن سلمان يعود إلى الغزل ببياض أهل اسطنبول ورقتهم، ويستعمل كلمات فاحشة، فلا أحد، حتى عباس، يغضب مما يقوله، بل تتوالى القهقهات والتعليقات، وينتهي الحديث عن الاسم الملائم أكثر لعباس، خاصة وأن الإقامة في اسطنبول أكسبت عباس شعوراً بالرفعة، فقد رأى ما لم يروه، ويعرف أكثر مما يعرفون، ولذلك لا يقيم وزناً لما يقولون!

كان عباس قد بلغ من البراعة في لعبة الشطرنج حداً ان بامكانه منازلة عدد من اللاعبين، قد يصل إلى خمسة، في آن واحد، وأن يهزمهم جميعاً. وقد اكتسبت هذه المهارة عن طريق بحار مالطي نسيته السفينة التي كان يعمل عليها في اسطنبول، أو نسي نفسه وهو يلعب الشطرنج في أحد مقاهي الميناء. لما سافرت السفينة، قضى هذا البحار سنيناً ينتظر عودتها، أو مجيء سفينة مالطية تحمله إلى بيته مرة أخرى! وخلال انتظاره لم يفعل شيئاً سوى لعب الشطرنج على رهان، وكان عباس، بعد أن تعلم منه، ينازله، ويؤكد انه تفوق عليه وخسّره كل ما يملك!

بعد إقامة طويلة في اسطنبول قرر عباس العودة إلى بغداد ليتزوج، وربما للإقامة الدائمة إذا وجد عملاً يلائمه، وإذا أصبحت بغداد أحسن مما تركها! ولقد صادفت عودته أن جيش داود جند الكثيرين على الطريق، وكان عباس الحجية أحدهم. ولقدرته على إقامة الصلات، وخدمة الآخرين، ما لبث أن اختير ليكون ضمن الحرس الخاص لداود، فتكونت له علاقات بالرجال المحيطين بالباشا. أما بعد أن اكتُشفت براعته في الشطرنج، ولمؤهلاته الأُخرى، فتم اختياره ليكون قريباً من صادق أفندي.

قال له خلف، وهو يبلغه بالمهمة الجديدة:

ـ الباشا يسلم عليك ويقول: عباس من اليوم يتحول من جندي إلى رخ..

وابتسم خلف ابتسامة كبيرة، وتابع بلهجة مرحة:

ـ نيّالك.. راح تخلص من الحراسات، ومن الاكو والماكو، وتصير من مرافقي أفندينا، صادق، وما لك شغل إلا: كش.. ومات.

ـ شلون يا معود.. بشر
ـ هالشكل يريد الباشا!
وبعد أن شرح له طبيعة المهمة الجديدة، والعلاوات التي سيتلقاها، ثم الإكراميات التي سيحصل عليها حين يوافيه بكل ما يقوله صادق، ويبلّغ عن كل من يلتقيه، أضاف خلف، وهو يفخر بعينه:
ـ وتعرف.. الزواج ينراد له هز كتاف، ينراد له كومة فلوس.
ولم يتأخر عباس عن لقاء خلف كل ليلة، أو بين ليلة وأخرى، وأصبح ما يتلقاه لقاء الكلام الذي ينقله عما رأى وعما سمع مبالغ غير قليلة من المال. وكان يغلب صادق في اللعب أيضاً، إلا إذا أراد مزيداً من المال، فعند ذاك يعرف كيف يخطىء، كيف يسهو، ولئلا يحس صادق بالتواطؤ، كان عباس يعنّف نفسه، يقول، وهو يوالي لطم جبهته:
ـ يا حيف أيام اسطنبول، ويا حيف تعليمك يا مالطي!
فإذا تزايدت أخطاؤه، وبدت تلوح الهزيمة، يقول برجاء:
ـ أبوس إيدك، أفندينا، إذا وافقت على أن أرجّع.
وحين يرفض صادق أفندي، «وأن اللعب له أصوله»، يقول ليشجّع نفسه:
ـ زين.. زين أخسر هالنوبة، لكن عندي خطة ما يفكها الجان، والرقعة بينا!
وحين يخسر يطيّب صادق أفندي خاطره بإكرامية، وكأنه يطلب منه، بهذه الإكرامية، أن ينسى تهديده، وأن يكون رحيماً في اللعبة التالية! أما عباس فيعطي الحجيّة ما تجمع لديه من أموال، ويسأل برجاء وعذاب:
ـ شلون، حجية، اللي جمّعناه يكفي لو بعد؟
فترد، وهي تبتسم، وينفتح حلقها عن بقايا الأسنان:
ـ بعد شويونه، عبّوسي، يا بعد عيني!
يتطلع إليها مستثاراً، ويقول بتهديد:
ـ ترى آني متوازي، فإذا ما قلت: خلص، وبنت الأوادم صارت باليد،

ترى أشيل روحي وبوجهي لاسطنبول!

وتخفف عنه الحجية، تعده أن تبيع الخلخال، لكي يصبح المال كافياً، وحين يرفض أن تبيع خلخالها، لأنه يفيد في أيام الشدة، يقرر أن يلتقي خلف كل ليلة، وأن يخسر أكثر في مواجهة الأفندي!

قال له خلف، وهو يقدم له هدية من الباشا:

ـ يسلّم عليك الباشا، ويقول بالرفاه والبنين، بس ما يريدك تغطّ وتغيب، لأن صادق أفندي هوايه يضوج إذا ما شافك قدامه كل يوم.

أما صادق أفندي الذي قدم له هدية ثمينة بهذه المناسبة، فقد قال له وهو يودعه:

ـ المريّة بعد الليلة الأولى تنكشف، تصير صفحة بيضا، وما ينراد لها حيلة أو تشغيل دماغ، أما الرقعة، بالأسود والأبيض، فتظل تنغل، وما نعرف شنو اللي راح يصير بعد هذي النقلة أو ذيك، ويبقى حرامها أطيب من حلالها، فلا تطوّل!

وهكذا أصبح عباس اسطنبول مثل ظل لصادق أفندي، لا تفصل بينهما إلا الرقعة في النهار، أما في الليل، وبعد أن انقضت أسابيع على زواج عباس، فقد قال لأمه التي أخذت تلومه على تأخره:

ـ ترى اسطنبول بمكانها، لا تغور ولا تطير، وإذا لحّيتوا أهجّ، أرجع للفي والميّ، وهناك لا دادا ولا أوي!

وامتثلت المرأتان، أصبح غياب عباس يطول، فإذا سئل يرد بنزق:

ـ آني عبد مأمور، وأفندينا وحده هو اللي يقول روح وهو اللي يقول تعال، فما أريدكم تزيدون فوق همي هموم.

وحين تتطلع إليه الحجية باستغراب، لأنه تغير كثيراً، يضيف:

ـ الحق عليّ لأني تركت اسطنبول!

88

لم تقتصر هواية صادق افندي على اللعب، فقد تعدتها أيضاً إلى جمع رقع الشطرنج بأحجام وألوان كانت تتوزع وتزداد فترة بعد أخرى، بحيث أصبح من يريد التقرب منه، باعتباره ابن سليمان الكبير، وقد يصل الآن أو لاحقاً إلى السراي، عدا عن جو المرح والكرم ولقاء الكثيرين، فإن من يريد كسب ود صادق أفندي، عليه أن يحمل رقعة جديدة، أو يذكر له واحدة ثمينة أو نادرة عند أحد الباعة، أو لدى أسرة من الأسر اليهودية، التي كانت تحتفظ بالكثير من التحف النادرة، ولا تمانع ببيعها إذا تلقّت مقابلاً مجزياً، وهذا المقابل يتفاوت تبعاً للمشتري ومدى حماسته ورغبته بالتحفة، والعادة أن تكون معروضة للبيع، وغير معروضة في نفس الوقت!

كان صادق أفندي يوصي أصدقاءه أن يبحثوا له عن مثل هذه التحف، وقد تعوّد أن يبذل لقاءها بسخاء. كما أخذ يوصي المسافرين، خاصة الذين تكون وجهتهم الهند، وليضمن أنهم سيقومون بجلبها يريهم ما لديه من مجموعات، ويدفع قسماً من الثمن مقدماً. ولأن بعض هؤلاء لا يميز بين رقعة وأخرى، بين أحجار وأخرى، فقد أخذت تتجمع لدى صادق أفندي مجموعات من ذات النوع، كما تعرّض بعض من أوصاهم إلى خدع أثناء الشراء، أو أثناء المبادلة، خاصة حين يتصدى من ينبّه أو ينصح أن لدى الأفندي مثل هذه أو مثل تلك.

وإذا كان للعب طقوسه ورقعه، فقد استقر في قناعة صادق أفندي أن رقعاً تجلب له الحظ، وأخرى تعاكسه. وأن أياماً من الأسبوع تكون خيراً

وأياماً مشؤومة. وأن أشخاصاً يغلبون أو يُغلبون ليس لأنهم أكثر أو أقل مهارة من غيرهم، وإنما لأن طريقتهم في اللعب تختلف عما تعوّد، أو خلافاً لما يحب. كما أن ملامح الشخص الذي يقابله، أو طريقته في الجلوس، وحتى الأسلوب الذي يحرك به الأحجار، كلها تؤثر على النتائج!

ولأن اللعب مع شخص بذاته، وباستمرار، يقلل من المتعة، نتيجة الحركات السريعة، الآلية، خاصة في البداية، كما يؤدي إلى تراجع مهارة اللاعب، فقد كان صادق يغير لاعبيه مثلما يغير الرقع، وهكذا لم يعد عباس اسطنبول اللاعب الوحيد الذي ينازله، إذ كان اللاعبون يتغيرون بين لعبة وأخرى، وإن بقي عباس من الذين استمروا، لأنه أراد وطُلب منه أن يبقى، ولأن «طريقته تختلف عن أهل بغداد» كما كان يؤكد صادق أفندي، وهذا ما جعل العلاقة بين الاثنين تستمر ثم تتحول إلى صداقة.

يقول بعض الذين يعرفون عباس الحجية، أو عباس اسطنبول، أكثر من غيرهم، أن إقامته الطويلة في اسطنبول، خاصة بين البحارة، والذين تقذف بهم السفن، علمته، بالإضافة إلى الشطرنج، المكر وذرابة اللسان. ويعترض على هذا الكلام من يعرفون عباس، قبل السفر: كان أمكر رجال محلة الفحامة، كان قادراً أن «يوصل الواحد للشط ويرجعه عطشان» لبراعته في الحديث والتمثيل، وأيضاً لأنه يحفظ عدداً غير قليل من الأغاني، وهذه وغيرها جعلته مميزاً على الذين حوله. أما بعد أن ذهب إلى اسطنبول، وأقام فيها فترة طويلة، «فقد ختم الصنايع» كما يقول الذين يحبونه، أو على الأقل الذين يقدرون مواهبه. أما مبغضوه، وهم كثر، وحين تتردد على مسامعهم القصص عن براعته، ومعرفته للتركية كأحد الأتراك، وأنه «افترّ العالم حتى إنه وصل إلى الهند» حين يسمع هؤلاء ما يقال عنه، يهزون رؤوسهم سخرية ويعلقون: «خلوكم من هذا الهتيلي لأنه مثل ما تشوفه عيونكم اليوم: يدق حجر بالجادة».

أما كيف يدق الحجر في الشوارع فقد جاء من اقترح على صادق

أفندي، ومن أجل استكمال جميع أشكال الرقع وأحجار الشطرنج، أ
يوصي على أحجار من الخشب بأحجام كبيرة، وأن يكون أحد مياديـ
صراع الديوك الرقعة التي تجري فيها المنازلة. ولدت الفكرة لأن الحـ
عاكس صادق أفندي مع لاعب من مشهد، على مدى أيام متوالية، وبعد أ
فكّر أصدقاء الأفندي بسبب الخسارات المتلاحقة، قيل إن طريقة تنفس
ذلك الرجل هي السبب في هزيمة الأفندي، وهكذا انتهوا إلى اقتراح مـ
هذا النوع، إذ يمكن أن يتلاقى اللاعبان، لكن المسافة بينهما كبيرة!

قيل إن ابن الحجية كان وراء الاقتراح، وقيل إن جسّام المبدر، وهو من شيوخ الخزاعل، وقد أدمن الشطرنج منذ وقت مبكر، وأصبحت هواية متحكمة به، هو الذي اقترح الفكرة، لأنه كان مصاباً بقصر النظر، ولا تلائمه الرقَع الصغيرة!

المهم أن عباس اسطنبول قضى أياماً طويلة في سوق باب الآغا ليشرف بنفسه على إنجاز الحجارة، وما يكاد النجارون ينتهون من إتمام واحد منها، حتى يبدأ عباس بوضعه على الأرض ليتأكد من توازنه ومن حجمه قياساً للأحجار التي تماثله أو التي تختلف عنه. ولفرط ما تردد على السوق خلال تلك الفترة، وبدا الأمر غير مألوف، فقد أصبح الذين يبغضونه يقولون: عباس يدق حجر بالجادة!

كان يوماً مشهوداً في بغداد حين تم صنع هذا الشطرنج. ورغم أن ابن الحجية هو الذي لعب، وكان مقابله المشهدي، فقد قيل إن تجربةً سبقت «يوم الميدان» كما أطلق على هذا النزال، وقد جرت التجربة بين صادق أفندي وعباس، لكن لم تنته نهاية واضحة، إذ حصل أكثر من خطأ أثناء نقل الحجارة، الأمر الذي أدى إلى اعتبار اللعب قائم!

أما يوم النزال فقد خُطط الميدان بشكل واضح، خطط بالفحم وبالنورة، وطلب المشهدي أن تنصب مقاعد عالية لطرفي اللعب، ليشرف، من علٍ، على الرقعة. وكان كلٌ ينزل عن كرسيه كي ينقل الحجر، مما أحدث الكثير من الهرج والأمازيح من قبل المتفرجين، الذين

تجمهروا ليشهدوا هذا النزال الذي لم تألف مثله بغداد، والذي لم يكن مفهوماً لأغلب الذين يتابعون اللعب، إذ كان كل من حضر يسأل الآخرين عن أية حركة، ماذا تعني وإلام ستؤدي، وكان لا يتردد أي واحد في الإجابة، وكأنه أحد اللاعبين، ويعرف مسار اللعبة ونتائجها! الذين تابعوا اللعبة من العارفين أكدوا أن «عباس دمّر المشهدي ورزّله وخشش (. . .) خازوق» وقد تم استنتاج ذلك من انسحاب المشهدي قبل نهاية اللعب، لأن الجمهور كان ضده ومنحازاً لعباس اسطنبول، الأمر الذي شوشه تماماً. وقد قال، كما نقل بعض الذين سمعوه: «يجي يوم يصير أهل بغداد مخابيل ويلعبون بين هذا الصوب وذاك الصوب. حجر هنا وحجر هناك، وتعال إلحق!».

حين تصل الأخبار إلى داود باشا يهز كتفيه ورأسه، فتبدو حركات غير مفهومة، حتى لفيروز، والذي لا يعرف هل ينقل المزيد من أخبار أفندينا، أم أن الأمر لم يعد يهم الباشا. حتى اللقاءات التي كانت تجري بين خلف وعباس اسطنبول، وكانت، في البداية، تتم كل ليلة تقريباً، أخذت تتباعد، لأن ليس فيها أي جديد، كما لا تستحق تلك الثرثرات أن تُنقل، خاصة وأن أغلب اللقاءات لم تعد تنتهي بأعطيات.

ورغم أن الباشا ظل حريصاً على لقاء صادق أفندي بين فترة وأخرى، إلا أن الشطرنج لم يعد الرفيق الثالث لهما. قال له الباشا، بعد أن لاعبه على مدى عدة أسابيع:

ـ الشطرنج، يا صادق أفندي، يحتاج لبال طويل وصفاء ذهن. . .

ابتسم ابتسامة واسعة وتابع:

ـ ومثل ما سمعت أن الواحد إذا لعب مع الأضعف منه يتراجع. . .

وبعد قليل، وهو يربت على كتف صادق أفندي مشجعاً:

ـ وما أريدك تتراجع، أريدك تعميه لابن الحجية، ما تخليه يشوف دربه!

كان هذا اعتذاراً من الباشا، وقد تقبله الأفندي. أصبحت اللقاءات بين الاثنين تتباعد، وحين تجري تأخذ طابع المجاملة، ولا تدوم طويلاً. كما

أصبح الباشا لا يسأل عن أخباره، ولم يعد الآخرون ينقلون إليه تلك الأخبار، إلا في حالات نادرة.

عباس اسطنبول الذي تعوّد على الأعطيات، وكان يتلقاها من الطرفين، شعر بعد أن قلّت أعطيات السراي، وتباعدت، بضرورة تأمين مصادر جديدة، خاصة وأن صادق أفندي أخذ يلاحظ، وهو يراقب عباس حين يلعب مع الآخرين فإنه شديد البراعة والمكر في آن واحد، وكان دائماً يتغلب على خصومه، أما معه فالأمر يختلف، ولا يمكن تفسير تفوقه بقوته وضعف عباس، مما دفع عباس، بعد أن أحس أن «ينزع قرون الطين» كما قال لنفسه. وهكذا أصبح اللعب بين الاثنين متعادلاً، ويميل بعض الأحيان لصالح عباس، مما يجعل الأفندي يزيد في عطاياه، لكن ابن الحجية كان يطمع بأكثر، وهكذا بدأ يتفتّق ذهنه عن طرق جديدة لمصادر إضافية:

- ولازم نوصي الصاغة على رقع وأحجار من ذهب وفضة. صحيح أنها زغيّرة، ما تناسب ابن المبدر، لكن أفندينا، وبالفراش، قبل ما يغفو، يجرّب حاله بشوط أو اثنين!

وعن هذا الطريق، ولأن الخيارات في هذا المجال عديدة وواسعة، أخذت تتجمع عند الأفندي أنواع جديدة من الرقع كان عباس يوصي عليها، ويشرف، وبعض الأحيان يشارك، في اعدادها، وفهم عليه الذين يتعامل معهم من الصاغة، وكان هذا مورداً جديداً!

أما المورد الآخر فعن طريق اقتناء المسابح:

- . . . وتعرف، يا أفندينا، السبحة. في اللعب، تصفّي الدماغ مثل ما الحِب يصفي الماي. . .

ومد إليه يده مقلوبة، أشار إلى عطب قديم في الإبهام، وقال:

- قبل ما أتعلم على السبح، ولما أنحصر بلعبة، وبليّا ما أحس، أقرض إصبعي مثل، ما الفار يقرض خبزة يابسة، وهذا العيب من ذاك اليوم. . .

وتغيرت النبرة، أصبحت مرحة:

- لكن من يوم ما تعودت على السبحة صفا الدماغ. . .

وتغيرت النبرة مرة أخرى، أصبحت أكثر مرحاً:

ـ وبعدين، يا أفندينا، السبحة هيبة، وإذا انهدت يشعر اللي توصل لأيده بقيمتها، وبكل مجلس يقعد بيه، ولما الناس تشوف السبحة تلمع، يسألهم: تعرفون هذي منين؟ ويتحزرون، هذا يقول من فلان، وذاك يقول من فلان، ولما يعجزون يرعد صوته: هذي السبحة اللي تشوفها عيونكم من... ويطلع سنه ويتهلل وجهه، والناس تباوع وتنتظر، وبالأخير يقول: هذي من أفندينا صادق!

صادق أفندي لم يكن بحاجة إلى كل هذا الإغراء ليقتنع، ولكن الآفاق التي فتحها عباس اسطنبول بدت مرغوبة وأنه يحبها، كما تعني له شيئاً، قال بانفعال:

ـ وبالسبحة يقدر الواحد يبيّت خيرة، ويشوف: يربح لو يخسر!

وهكذا أصبح اقتناء المسابح هواية جديدة لأفندينا صادق، في الوقت الذي لم يكن قبل يحفل بهذه الهواية، رغم أن الكثيرين حوله يحرصون على جمع عدد منها، ويحرصون أكثر ألا تضيع وأن لا تُلص، مع أن عدداً غير قليل من كبار الموظفين والتجار لا يترددون في أن يسطوا على مسابح اشتهوا أن تكون لهم أو بين أيديهم! صحيح أن السطو كان يأخذ شكل المبادلة في أغلب الأحيان، لكن كان يحيطه الكثير من الضغط النفسي، أقرب إلى المؤامرة! إذ بعد أن يطلب واحدهم رؤية المسبحة، وكان يفعل ذلك بسرعة أو بعدم اهتمام، يبدأ بإظهار عيوب هذا النوع، والغش الذي يحصل فيه، وتذكر أصناف أجود وأكثر أهمية من النوع ذاته، ثم يسأله من أين حصل عليها، ومتى، وقد يسأل عن ثمنها، ثم يعرّج على السبحة التي يملكها مبيناً مزاياها وارتفاع سعرها، وإن هذا النوع أصبح شديد الندرة، غالي الثمن. يقول ذلك وهو ما يزال يحتفظ بالسبحة بين يديه، وهنا يتدخل صديق مقترحاً المبادلة «ما دام عين أبو فلان بيها» وكثيراً ما يتنازل صاحبها عنها، أو يقبل بالمبادلة!

تجري عمليات كهذه، كما تجري العمليات التجارية في السوق،

وتتطلب الكثير من الدهاء وكتم العواطف وتوقيت تدخل «الأصدقاء».

كان صادق أفندي، إلى اللحظة التي لفت عباس اسطنبول نظره، لا يقبل أن تهدى إليه مسبحة: «تضيع مني، وداعتك، وبأيدك أحسن»، وإذا وصلت إليه واحدة، ورغم أهميتها، كما يذكر من يصر على أن يهديها إليه، وبعد أن يقلّبها، ويثني على جمالها وأهميتها، تبقى معه يوماً أو بعض يوم، إذ ينساها، أو يقدمها إلى أحد الذين حوله.

الآن، أصبحت النظرة إلى السبحة مختلفة. وكالأطفال طلب من الذين حوله أن يأتوه بعدد من المسابح، لكي يجربها، «ها.. شلون.. راح نشوف الخير على قصتها؟» وقد تبرع هؤلاء ببعض المسابح، لكن بعد أيام أصبح المموّن الوحيد لصادق أفندي: ابن الحجية.

كان أكثر ما يهم صادق أفندي: «أن تكون قصتها خير». ويتأكد من ذلك حين يلعب مع أحد الخصوم ويربح.

ومع كل سبحة جديدة، خاصة إذا كان ثمنها مرتفعاً، أو تقاضى عباس عمولة مجزية عنها، كان يربح صادق شوطاً، وعند ذاك يضعها ناحية اليمين، كفأل حسن، أما إذا كانت بيده سبحة، خاصة إذا كانت جديدة، وخسر، فلا يمكن لأحد أن يقنعه بشرائها، أو أن تبقى لديه ضمن المجموعة، التي أخذت تكبر يوماً بعد يوم.

ولأن الباشا أوعز لنادر أن يلبي، دون مراجعة ودون تأخير، كل ما يطلبه صادق أفندي، فقد أصبحت المبالغ التي يسحبها تزيد شهراً بعد آخر، وكان عباس اسطنبول هو الذي يحمل الأوراق الموقعة بطلب تلك المبالغ. ورغم أن الدفع كان يجري بأقل قدر من التأخير، لكن لا تخفى المرارة التي تظهر على نادر أفندي، والنظرات الحاقدة، وذلك الغيظ الذي يوجهه إلى مراجعين آخرين، ويريد بل يقصد ابن الحجية بالذات، وعباس، بمكر، يقف إلى جانب نادر، ويشارك في توجيه اللوم إلى هؤلاء المسرفين اللي لا يخافون الله، وكأن المال قوترة أو لامّينه من الجادة». لكن مثل هذه الرشوة لا تنطلي على نادر، إذ بعد أن يكون لومه موجهاً

أحد هؤلاء المراجعين، يبدأ باستعمال ألفاظ وعبارات يمكن أن تنسحب لى آخرين، ويعني عباس على وجه التحديد، إلا أن عباس تعلّم منذ قت مبكر أن يسمع الكلام الذي يريد، ويغفل عما عداه، كأن يحادث حداً، أو يظهر تأففه من حرارة الجو، وقد يخرج قليلاً من الغرفة، ريثما نتهي نادر من إنجاز معاملة غيره، ومعها اللوم والشتائم، وأن الحساب لحقيقي مو بهذي الدنيا، وإنما بالآخرة، وهناك ما يخلص من نار جهنم لا الأمين الصادق و. . . » ويستعين بآيات من القرآن، لكن بطريقة ناقصة و خاطئة، للدلالة على العذاب الذي يلاقيه من يأكل المال الحرام!

لم تطل فترة تسامح نادر، وإذعانه لطلبات صادق أفندي، خاصة حين بلغه أن الأموال التي تسحب منه تصرف على شراء «الملاعيب الذهبية» و«سبح الشيطان مو سبح الرحمان» ولأنه عاجز عن التوقف لصرف هذه الأموال، توجه إلى خلف:

ـ خلف. . . أبوس إيدك خلصني، وأريدها منك!

ـ خير أبو يقظان؟

ـ حتى الصرف على القحاب نلقى له تدبير، نقول: بشر مساكين، وهذي صدقة، أما ملاعيب صادق أفندي فما نزلت بكتاب ولا يقبلها عقل!

وبلهاث ومشقة وحزن يشرح له كيف أن فلوس الولاية انمردت، راحت، ضاعت، لأن صادق أبله، ولأن ابن الحجية ليس له قلب، وهو مثل البئر لا يمتلىء ولا يشبع. ومع أن خلف يعرف الكثير عما يجري، إلا أنه لا يقدّر حجم الأموال التي تم سحبها، يسأل باستغراب:

ـ متأكد من الكلام اللي تقوله نادر أفندي؟

ـ مستعد أحلف على ألف قرآن!

ـ هذا كفر. . . هذا ما يصير!

ـ راح أقتل نفسي. راح أموت من القهر، ومالي غيرك، خلف، أخوي!

ـ زين. . . زين، خلي المسألة سنطة، آني أراجع الباشا وأشوف

شيقول!

ـ أبوس إيدك، خلف؛ واليوم قبل باچر!

وبعد أيام، ولأن خلف لم يبلغه بأية إجابة، يذهب نادر إليه مجدداً:

ـ ها. . . خلف شفت الباشا؟ بلّغته؟

ـ اكو مسائل، يا أبو يقظان، ما نقدر عليها أنا وأنت!

ـ شلون عيني خلف؟ شلون نشوف الفلوس تحترق قدام عيونّا، تاكلها النيران، وما نقدر نسوي فدّ شي؟

وحين يرى خلف صامتاً، وكأنه غير راغب في الخوض في الموضوع، يصرخ نادر، فيخرج صوته مخنوقاً:

ـ العن أبو الساعة اللي وافقت بيها أصير محاسب لهذي الولاية المهجومة، ولو بأيدي هسه أذبّ الاستعفاء، وأقول لنفسي: لا عين تشوف ولا قلب يحزن، أما هالشكل فلا الله يرضاها ولا العبد!

وتخرز عينان متوسلتان حزينتان وجه خلف، تضرع إليه أن يتكلم، أن يوضح ما حصل أثناء لقاء الباشا. يهز خلف رأسه عدة مرات ويقول بصوت خافت:

ـ بصادق أفندي، أبو يقظان، أبد لا تتحارش كل ما يريده تسويه، هذي تعليمات الباشا!

ـ ويعرف شقد سحب، شقد أخذ؟

ـ يعرف وأزيد!

ـ والنتيجة؟

ابتسم خلف، بدت ابتسامته شاحبة، وقال، كأنه يخاطب نفسه:

ـ هذا ابن باشا، وأخوه باشا، وأنت مو غريب، تعرف كل شي!

ـ يعني أدفع والجزمة فوق راسي؟

ـ أي نعم!

ـ ماكو منها چارة؟

ـ هذي تعليماته، وتعرف. . ماكو أحد يقدر يخالف.

ـ زين . . أقدر أشوف الباشا وأشرح له بالقلم العريض، وأقول له كل شي؟

ـ لا تطوّخها . . أبو يقظان، أحسن ما تسمع كلام ما يعجبك!

وهو يخرج من غرفة خلف، كان يرفع يديه الاثنتين إلى الأعلى وهو يردد:

ـ يا رب . . يا رحيم: إذا تحب عبدك، نادر بن موسى، أمه عسلة، تاخذه لعندك، تموّته، تخفيه، تفنيه، هاي تبقى يمك، بكيفك، لأنك تشوف كل شي، وتعرف كل شي!

ولم تمض فترة إلا واستجاب الله لدعاء نادر أفندي، ليس بأن يسترد وديعته، أي يميته أو يغنيه، وإنما أزاح من طريقه صادق أفندي، فقد أفاقت بغداد ذات صباح على خبر ملأ الأرجاء: هروب صادق أفندي إلى الفرات الأوسط، وتحالفه مع ابن الشاوي، وقد اصطحب صادق أفندي معه عدداً من رجاله، كان ضمنهم عباس اسطنبول، الأمر الذي جعل الباشا يتحسب كثيراً، ويضع خططاً جديدة لمواجهة الموقف.

89

. . . مقتل بدري ثم هروب صادق كانا الدافع، وإن لم يكونا السبب الوحيد، كي يتحرك الباشا بشكل أسرع. فجميلة التي رافقت روجينا أثناء زيارة كركوك، أسرّت لأحد رجال الباشا أن الزيارة لم تكن للترفيه عن الضباط فقط، أو بهدف استعادة الذهب والأشياء التي كانت لنجمة، وإنما لنقل رسالة من الباليوز إلى الآغا. وما اصطحاب روجينا للفتيات إلا لتبقى بنظر كل الذين يعرفونها أن حركتها ضمن إطار المهنة!

لا تعرف جميلة مضمون الرسالة، لكن من بعض الكلمات التي سمعتها، تقدّر أنها تتعلق بآغوات الشمال. وما يرجح ذلك أن الأموال التي حملتها روجينا معها، وقد وزعتها على الفتيات عند توقفهن في الحويلة، عادت واستردتها ما إن وصلت إلى كركوك. ولأن هذه الأموال لم تعد فلا بد أن تكون سُلّمت إلى الآغا، أو إلى أحد آخر.

كل ذلك مجرد تقدير، لأن جميلة كانت خائفة طوال هذه الرحلة، وقد بذلت جهداً استثنائياً كي ترضي روجينا وتجعلها تحتفظ بها، لأن أحد الآغوات، وكان ضمن مسافري القافلة، لم يرفع عينيه عنها، وطلب من روجينا، في خان بني سعد، أن يصطحب جميلة معه إلى حرير، لكي تنضم إلى حريمه، وتبقى هناك بقية عمرها. روجينا لم تعطِ جواباً نهائياً، لكنها ردت عليه، وهي تضحك، أنها لا تستطيع أن تبتّ بالموضوع وتقرر إلا بعد وصولها إلى كركوك، الأمر الذي أفزع جميلة، وجعلها شديدة الطاعة والامتثال، علّها تتمكن من إفشال هذه الصفقة! ولقد كان هذا سبباً

في خوفها وتشتت أفكارها، الأمر الذي فوّت عليها الكثير من التفاصيل.

أما بعد أن جاء معظم الآغوات إلى كركوك، فقد بذلت القلعة طاقتها لإرضائهم بكل الوسائل: الحفلات تقام كل ليلة، والبنات يتنقلن من مكان إلى آخر لتلبية رغبات الآغوات. وتتذكر جميلة أنه مرّ عليها أكثر من ليلة لم تستطع أن تنام خلالها، لأن حيوية هؤلاء الثيران ومرحهم جعلهم لا يعرفون التعب أو الملل. أما الأموال التي كانوا يرمونها على صدور البنات وبين سيقانهن، ودون طلب، فكانت لا تصدق!

مثل هذا السخاء كان مألوفاً من الآغا وضباطه، وقد مارسه في حرب الفرات الأعلى، ثم بعد ذلك، ولم يكن ليثير الباشا، لكن الظنون حول وجود آخرين يدفعون أصبحت قوية، بل مؤكدة، خاصة وأن ما كانت ترسله بغداد من أموال، وتلك التي تحصّل من المناطق، لا تكفي لتفسير هذا السخاء المفاجىء الذي وصلت أخباره إلى بغداد وإلى الموصل.

كان يمكن لهذه الأمور أن تمر، أن يُغض عنها النظر، لولا الزيارة التي قام بها الآغا إلى كرمنشاه، فقد تيقن داود باشا أن الوضع بلغ حداً من الخطورة، بحيث يمكن أن ينقلب عليه، خاصة اذا تحالف الآغا مع كرمنشاه، ودعمه آغوات الشمال، فكان عليه أن يتحرك قبل فوات الأوان.

وإذا كانت نية الباشا، حين استدعى الضباط، أن يبقيهم في بغداد، إلا أنه، وبدافع الإلهام، لم يضمّن كتاب الاستدعاء أية اشارة لنقلهم، خاصة من حيث ضرورة تسليم المهمات واللوازم. كان ينوي أن يمنحهم إجازات طويلة، يراقبهم خلالها، وبعد ذلك تجري تسمية بعضهم لمواقع ثانوية، ويتم الاستغناء عن آخرين.

هذه المرة، وبعد الأخبار التي وصلت إلى بغداد من مصادر عديدة، لم يلجأ الباشا إلى الأسلوب ذاته، إذ ما إن انقضى الوقت الذي يعتبر كافياً للراحة حتى أمر باستدعاء الضباط. صحيح أنه لم تجر دعوتهم جميعاً دفعة واحدة، فقد تمت دعوة طلعت باقة أولاً، باعتباره أعلى الضباط رتبة، ثم جرى استدعاء الآخرين، وعلى دفعتين.

قابلهم الباشا، وتم في اللقاءات الثلاثة التطرق إلى مواضيع عديدة، وإن تركز البحث حول ما يجب عمله لمواجهة القبائل الثائرة في منطقة الفرات الأوسط. وقد أشار الباشا إلى ثقته الكبيرة بكفاءتهم العسكرية، واخلاصهم، وأيضاً معرفة أكثرهم بالمنطقة الوسطى، الأمر الذي يجعل لرأيهم أهمية استثنائية فيما يجب عمله لمواجهة التمرد.

تعمد الباشا أن يترك فرصة كافية بين لقاء وآخر، لتقديره أن ما سوف يتم تداوله في أي اجتماع لا بد أن ينتقل إلى الآخرين، مما يولد بينهم الثقة أن الموضوع ذاته هو ما يشغل الباشا، وأيضاً تزول الرهبة أو الشك بما يريده منهم، إذ يعرف الجميع حول أي الأمور تجري اللقاءات، وأيضا لنفي الشك حول استدعائهم.

كانت اللقاءات بعد ذلك مع ضباط السراي، وقد اتسمت، أول الأمر، بالحذر ورغبة الاكتشاف، من الطرفين. أما واللقاءات تتوالى، ويتركز البحث حول أفضل الوسائل والخطط لمواجهة القبائل الثائرة، فإن الثقة تزداد بين الطرفين، ويبذل ضباط كركوك جهداً إضافياً من أجل توثيق علاقاتهم بضباط السراي، ومحاولة كسب ثقتهم ومودتهم.

ما إن انقضت أسابيع قليلة حتى طلب الباشا الاجتماع، مرة أخرى، بضباط كركوك، كما أصبحت التسمية الدارجة لهذه المجموعة.

التقى بهم مجتمعين. كان يوماً شتائياً بارداً، وبغداد في الشتاء تصبح مدينة أخرى، ويصبح ناسها وكأنهم ليسوا هم الذين كانوا في الفصول الأخرى: أكثر عذوبة ورقة، وأكثر احتفاءً بالآخرين، ربما نتيجة الحاجة إلى القرب، والذي بدوره يولد الدفء، كما أن الحديث يصبح همساً أو أقرب إلى الهمس، وكأنه يخرج من القلب مباشرة. ورغم غلاظة الثياب وتعدد طبقاتها، إلا أن الإنسان داخلها يتحول إلى طيف، إلى قطعة من الوهج... أو هكذا أحس الضباط الثمانية وهم مجتمعون مع الباشا!

لأول مرة يبدو الوالي، بنظر الضباط المتحلقين حوله، إنساناً بسيطاً ومحباً. كان بسيطاً بملابسه وبتصرفاته، إذ بدل أن يرتدي ملابس

الاستقبال، كما في المرة السابقة، وبدل جو الرهبة، خاصة بما يشيعه رجال السراي من خلال الصمت القاسي، أو من خلال وقوفهم بطريقة متأهبة متوجسة، أو حركتهم المحاذرة وكأنهم يمشون على رؤوس أصابعهم، فإن اللقاء في هذا اليوم اتسم بالعفوية وبمقدار غير قليل من البساطة، وزاد في ذلك حين أبلغ الباشا خلف، وقد فعل ذلك بصوت عالٍ، أن تلغى جميع المواعيد، وأن تُقدّم الغلايين.

تذكر طلعت باقة الصورة ذاتها للباشا حين كانوا في الجبال، وهم يستعدون للزحف نحو بغداد، خاصة وأن الطريقة التي أدار بها الباشا الحديث بدت له أقرب ما تكون إلى اجتماعات بعقوبة، فقد تزايدت خلال تلك الفترة اللقاءات، إذ كانوا يلتقون، جميعاً، مرتين في اليوم، في الصباح الباكر وعند أول المساء، للتداول بالواجبات اليومية. وخلال تلك الاجتماعات كانت تجري الأحاديث ببساطة وعفوية، وكان يشارك فيها الجميع، وكل واحد يعبر عن رأيه بصراحة وجرأة، أو كما قال الباشا، ذات يوم، وهو يحرص على ابداء الرأي «تكلموا كما لو أن الإنسان يكلم نفسه».

ليس ذلك فقط، كان يتخلل تلك الاجتماعات الكثير من الطرائف والاستطرادات. ورغم أن القرار الأخير والحاسم للباشا، خاصة في القضايا الأساسية، إلا أن كل واحد من المشاركين يشعر بمساهمته في اتخاذ القرار.

أما حرص الباشا على ضباطه وجنوده، وتلك الطريقة في التعامل، والتي تقع عند تخوم الأبوة والأخوة والصداقة، فكانت تشعر كل واحد أنه الأقرب إليه، وبإمكانه أن يتصرف دون خوف، وبشكل مفهوم أيضاً. حتى الأخطاء التي يمكن أن تقع، فلقد كان يريد لها أن تكون دروساً أكثر منها سبباً للعقاب، تماماً كالأب الذي يريد أن يضيف معرفة جديدة لأبنائه من خلال تبصيرهم بالأخطاء.

ولما كان الضباط الثمانية قد عرفوا الباشا من قبل، وإن يكن بنسب

مختلفة، ثم سمعوا عنه الكثير، فإنهم في هذا اليوم وكأنهم يكتشفونه أو يتعرفون عليه من جديد. إذ بقدر ما يتلكّم بوضوح، ويعرف ماذا يريد، فإنه أقدر على الإصغاء. كان يصغي وهو ينظر إلى عيني محدثه، والنظرة يمكن أن تكون إطلالة إلى الداخل، وجسراً من المودة والثقة، ويمكن أن تكون، في أحيان أخرى، رقيباً يلعثم الكلمات ويبعثرها. الباشا وهو يتحدث، وهو يصغي، ومن خلال الكلمات والنظرات معاً، كان يوحي بالثقة ولا يخفي المودة.

حتى الطرائف التي رواها، وقد ساق إليها الحديث، أو رتب الحديث لكي تأتي ضمنه، فقد رواها بعفوية، وكأنه يسارّ مجموعة من الأصدقاء، مما رطّب الجو وشجع الآخرين على أن يتبسطوا. أما حين روى طلعت باقة نكتة فقد ضحك لها الباشا، وكانت ضحكته أقرب إلى القهقهة، الأمر الذي كسر حاجز التهيب، وجعل الانتقال من حديث إلى آخر يسيراً.

لما تطرق الباشا إلى الهم الذي تعاني منه البلاد نتيجة ثورة القبائل الدائمة، أكد أنه لا يمكن للعراق أن يعرف الراحة، أو أن يهدأ له بال، ما لم تتوطن القبائل وتستقر، وأن تكفّ عن الغزو وتبدأ بالزراعة. كما أثنى على الخطط التي تم تداولها، وإنه يشعر بالثقة، وبصواب الرأي الذي دفعه لاستدعائهم والتشاور معهم. وقد أشار أنه كان يود لو أن الآغا معهم في هذا اللقاء، لأن معرفته بالمنطقة، وخبرته بمقاتلة البدو تتجاوزان أي قائد عسكري، ولكنه فضل، في هذه المرحلة، أن يبقى الآغا في الشمال «لأن مجرد وجوده هناك، يشكل سداً أمام الرياح الشرقية، بحيث لا يجرؤ أي طامع أن يفكر باجتياز الحدود».

ابتسم الباشا وهو يؤكد على أهمية دور الآغا، وقال كأنه يستدرك:

ـ لا أريد أن أنتقص من أهمية أي واحد منكم، لأن أهمية القائد، أي قائد، تعتمد، بالدرجة الأولى، على الضباط الذين يعملون معه: مدى قدرتهم على ترجمة الخطة إلى أعمال فعلية على الأرض؛ مدى البراعة والابتكار بتنفيذ الخطة؛ وأخيراً مدى الإخلاص للهدف الذي تمثله الخطة

وتذكر الباشا بعض الأحداث، خاصة تلك التي وقعت في كركوك، حين كان يستعد للوصول إلى بغداد، وأشار بشكل خاص إلى شجاعة طلعت باقة أثناء اقتحام القلعة بعد أن حصل التمرد، قال بعد أن خفض صوته:

ـ يجوز ما يليق الحديث عن العزيز طلعت بوجهه وبوجوده، لكن، والشهادة لله، إني ما أترك مناسبة إلا وأتحدث عن شجاعة رجالنا، وأذكرهم بالاسم، لأن الحق... حق...

ابتسم، وعاود الكلام بنبرة جديدة:

ـ قبل أيام كنت أتحدث مع أولادي، ومن جملة ما قلته لهم: إنه لولا نجاحنا في كركوك، وشجاعة الرجال في تلك الأيام، لاختلفت النتائج.

وبخجل وارتباك رد طلعت، وخرجت كلماته سريعة:

ـ استغفر الله... يا باشا، آني ما سويت إلا واجبي ونفذت الأوامر، سيدي!

ـ اكو فرق بين تنفيذ وتنفيذ، واكو فرق بين رجل والثاني!

ـ هذا من حسن ظنكم، سيدي.

التفت الباشا إلى الضباط الآخرين، هز رأسه وهو ينقّل نظراته بينهم وأضاف:

ـ وأيام الحصار.. وشجاعة رأفت وسليمان؛ وليلة المطر وهجوم ابن ثامر، لولا شجاعة نجيب ومحمود وأمجد، كان أخذونا، مثل ما يقول أهل بغداد، فلاحة، لكن الله ستر، لأن شجاعة الشباب هي التي أنقذت الموقف كله.

خيمت لحظات صمت طويلة، جاء بعدها صوت الباشا، وكان لا يخلو من أسف:

ـ لولا حاجتنا الماسة إليكم في الشمال لطلبت منكم البقاء هنا ومعاونتنا في مواجهة قبائل المنطقة الوسطى...

وتغيرت النبرة:

- وتعرفون: إذا واجه الإنسان خطرين يعطي الأولوية للأكبر منهما، وبعد أن ينتهي منه يلتفت إلى الخطر الثاني. وفي هذه المرحلة تعتبر جبهة الشمال لها أولوية، ويجب أن تُحشد فيها أكبر القوى وأهم الكفاءات، لأننا في الشمال نواجه عدواً خارجياً، وهذا العدو إذا تمكّن منا لا يميز بين واحد وآخر، إنه يريد إذلالنا جميعاً. أما البدو فيمكن مشاغلتهم، يمكن تأجيل معركتنا معهم إلى أن ينتهي الخطر الأكبر.

وأفاض الباشا في الحديث عما ينتظر العراق من ازدهار، إذا نجا من الخطر الخارجي، وحالفه الاستقرار الداخلي، فهذا البلد الذي كان قبلة العالم خلال قرون متوالية، وكانت كلمته تدوي في جميع أنحاء المعمورة، يمكن أن يعود إلى نفس المكانة إذا تضامن أبناؤه وأحبوه وأخلصوا له.

وختم أحلامه بأن قال:

- ولي كل الثقة أن العراق الذي نريد أن نبنيه بسواعدكم وبسواعد أمثالكم سوف يُدهش العالم، وسوف تتحدث عنه الأجيال.

ورغم أنه كان لدى الباشا الكثير أيضاً ليقوله، إلا أن رغبته بسماع ضباط كركوك، ومعرفة ما يدور في عقولهم، وكيف يفكرون، لم تكن أقل من رغبته بالكلام. ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية دعاهم إلى تناول الغداء على مائدته، وطلب من خلف أن يستدعي عدداً من ضباط السراي وبعض كبار الموظفين.

وفي حفلة الغداء، التي بدأت مبكراً في ذلك اليوم الشتائي، وطالت أكثر مما قدر أي من الضيوف، تولد جو حميم من خلال الأحاديث التي دارت، وكانت في الغالب ذكريات عن أيام ماضية، وعن أحلام تنتظر هذا البلد، إذا تضافرت الجهود وصفت القلوب، وإذا منعنا الأجنبي من التدخل. وقد شارك في الحديث أغلب الضيوف، وكان الباشا ودوداً، خاصة وهو يستمع إلى إجابات ضباط كركوك.

وفي نهاية حفلة الغداء، التي استمرت إلى ما بعد العصر، منح الباشا كل واحد من ضباط كركوك خلعة ثمينة، وترك لهم حرية تحديد الوقت

الذي يختارونه للعودة إلى مقر عملهم، وإن أشار، وهو يبتسم «إن خير البر عاجله». كما أبلغهم أنه سيوفد مبعوثاً خاصاً، وفي أقرب فرصة، لكي يحمل للآغا الخلعة والفرمان بالترقية، اعترافاً بجهوده، وتقديراً لخدماته ودوره، وختم اللقاء بأن قال:

- رغم برودة الطقس، إلا أن دماء الشباب سوف تجعل رحلة العودة ممتعة، ولا بد أن تتذكروها بعد سنوات وسنوات!

وبعد أن ودعهم الباشا بكثير من الود، متمنياً لهم سفراً موفقاً، فقد رجاهم خلف، وهم يخرجون، أن يتكرموا بالمرور إلى مكتبه، ولفترة قصيرة، لاستلام الهدايا الرمزية التي أمر بها الباشا لكل واحد منهم!

90

عن طريق رجاله في بغداد، بدأت تصل إلى الآغا أخبار متلاحقة، لكن مشوشة، وكلها تؤكد أن الباشا التقى الضباط؛ وأن اجتماعات عديدة عقدت في السراي وفي الثكنات. ورغم وصول هذه الأخبار، إلا أنها لا تتضمن أية معلومات عما دار خلال تلك الاجتماعات. ومما زاد في تشوش الآغا أن الرسائل التي كان ينتظرها من ضباطه وقد اتفق معهم على مواعيد، وعلى طريقةٍ لإيصالها، تأخرت، تأخرت كثيراً.

قال لهم قبل السفر وبطريقة لا تقبل الخطأ:

ـ. . . وإذا واجهتكم صعوبة في إرسالها، يزرق فد واحد يم روجينا ويقول لها: أمانة للآغا، والباقي عليها.

الآن، والأسابيع تمر وتتلاحق دون أن تصل منهم أية إشارة، فلا بد أن يكون في الأمر مصاعب لم تخطر بالبال.

ثم لماذا تأخر إرسال ضباط عوضاً عن الذين نقلوا؟ ألا يريد الباشا أن يعزز مواقعه ويرسل رجاله بعد أن تخلص منه أولاً، ثم ها هو الآن ينقل الضباط، دون خشية من رد الفعل.

كانت الأيام ثقيلة، موجعة، فالآغا وهو يحس بالحصار والعجز يتحول قلقه إلى حالة من الغضب الحانق، يريد أن يصرخ، أن يتعارك، وإلا سيختنق. لماذا صمت رجاله؟ هل اعتقلوا، أو تعرضوا إلى التهديد والتعذيب بحيث تعذر عليهم أن يرسلوا كلمة، مجرد كلمة؟ هل يدبرون أمراً يتطلب وقتاً ولا يريدون أن يبعثوا إليه بشيء قبل أن يتأكدوا؟

ولما كانت عادة الآغا أن يتطلع إلى نفسه في المرآة، لكي يقرأ، من خلال التجاعيد، آثار العمر وبقايا الوسامة، وكان يدقق في الملامح ليعرف كيف يصبح الزمن أكبر عدو للإنسان، إلا أنه في حالات معينة لا يتردد، خاصة إذا واجه بعض المصاعب، أن يتطلع إلى المرآة بنوع من القسوة، ويصرخ: لأكن طعاماً لسمك الكوسج؛ ليكن قبري مجهولاً؛ لأمت من العطش، إذا لم أنتصر عليه! وبعد أن يكون قد حدد موعداً اعتبره نهائياً، يتخذ بعده القرار، يقف أمام المرآة، وقد اتخذ هيئة صارمة. يتطلع إلى عينيه، ثم يقول، وتخرج الكلمات مبعثرة، متباعدة، وكأنها حجارة تتناثر:

ـ أنت البداية والمنتهى؛ أنت الأمل والمرتجى؛ يا من يعيّن الولاة، ويهب الموت والحياة، أنت الذي بسيفه تشق الطريق إلى بغداد، وسمى داود والياً على العباد؛ أنت الذي دخلت القلعة مثل أسد الجبال، ولم يجرؤ أحد على الوقوف أو النزال، وأنت الذي قلت: عهد جديد لا مكان فيه لحمادي وسعيد، أمّا بعد ان جاءك الغدر من الذي تصور نفسه ولي الأمر، فعليك أن تحزم وتحسم، لأن الجميع ينتظرون الإشارة، فإلى العمل لتُحي الأمل... والله على ما أقول شهيد!

لقد ردد الآغا هذا الدرس طويلاً وكثيراً إلى أن استقام بهذا الشكل، وهو مزيج مما كتبه له نافق خليل أبرز الضليعين بالعربية في كركوك، ومما يرغب هو أن يحفظه، ويرغب فيه. ولم يكن يخفي لذته وفخره حين يردده ليلة بعد أخرى، إلى أن حفظه. يتذكر ليلة القلعة ثم اليوم التالي: رأس سعيد يتدحرج كالكرة ليصل قدمي داود، وكيف أجفل الباشا وربما خاف، وبدل أن يشكره، أن يقبّل يديه أخذ يحكي له عن افضال سلمان عليه!

وللحظات بدا يتصور أن رأس داود يتدحرج بين الأقدام، وقد انغلقت إحدى عينيه، أما الأخرى فتبدو منطفئة، وكأنها قطعة زجاج استخرجت للتو من أعماق التراب، قال وقد شعر بالألم:

ـ ابن الزفرة بدل ما يقول لنا: الله يعطيكم العافية، وقع براسنا دق عبالك أيتام!

ولأن الآغا لا يحب أن يعيش في الماضي، أو أن يستسلم للذكريات، فقد انزعج إلى أبعد حد بعد أن صمت ضباطه هذه الفترة الطويلة، قال لنفسه «جماعتي وآني أعرفهم، إذا غبت عنهم تاهوا، ما بيهم راس، وما يعرفون شلون يتصرفون: تنابل، ويغرقون بشبر ماي، وكل شي إلا الموت».

ولأنه أعطى مواعيد ومهلاً لكرمنشاه، أصبح محرجاً وهو يؤجل المرة بعد الأخرى. ماذا يقول لهم الآن؟ خلال الشهور الماضية، بعث إلى كرمنشاه يقول: «يجب أن ننتظر لاستكمال الاتصالات»؛ «يجب أن نرتب بعض الأمور لكي نضمن النتائج؛» أما حين تمادى الوقت فأخذ يتذرع بالطقس: الأمطار التي تحول دون الحركة؛ الثلوج التي سدت أغلب الطرق؛ قلة الأموال والأعلاف، ولا بد أن تتحرك كرمنشاه لتأمين حاجات الأغوات وطلباتهم!

وإذا كان الآغا قادراً على إقناع نفسه، على تأجيل المواعيد والتماس الأعذار، فإنه لا يكتفي بالقسم في بعض الليالي، يقف أمام المرآة، ويصرخ:

ـ لتقطع خصيتي اليمنى، ولتتابعني البراغيث حتى في الماء، إذا لم أقطف رأسك يا داود، لا كما تقطف الورود، وإنما كما تلوى الحبال!

أما بعد أن تعاقب ظهور الهلال، ثم صار بدراً، مرة بعد مرة، وقد حدد مواعيد اعتبرها نهائية، وامر الرجال الذين حوله أن يكونوا جاهزين، لأن أشياء كثيرة يمكن أن تقع في هذا الشهر، أو في الشهر الذي يليه، وبعد أن تنقضي تلك المواعيد دون أن يستطيع خلالها عمل شيء، فكان ضيقه يتحول إلى غضب، وتصبح الشتيمة وحدها تتردد على لسانه، وعند ذاك لا يوفر أحداً: يشتم الآغوات والبرد والذين يعملون معه، وأخيراً يشتم نفسه بصوت عالٍ:

ـ لا تباوع عليّ هالشكل، لا تفنجر عيونك مثل الحرامية، عبالك أخاف؟ آني أخوّف ديرة وعشيرة، لكن رب العالمين ذبني بين ناس ما

رف كوعها من بوعها، وبس تقول هات، وهات، فشلون أقدر أتحرك يا أوادم هالشكل؟

حالة من القلق لم يعرفها من قبل. وفي أحيان كثيرة مجرد الإحساس القلق يضاعفه، يحوّله إلى هم. لم يكن هكذا في يوم سابق، ولا يحتمل ن يكون كذلك. ماذا حصل له بحيث أصبح عاجزاً عن اتخاذ قرار؟ وماذا سيكون الأمر إذا تأخر أكثر؟

يقول وهو يحرض نفسه: على الجندي أن يسحق التردد كما يسحق الحشرة، أما إذا استسلم له فاقرأ عليه السلام.

يقف أمام المرآة ويردد:

ـ الطلقة الأولى هي أصعب الطلقات.

وتعنّ بباله أمور نسيها أو حاول نسيانها. يبتسم لوجهه، تتغيّر هيأته، وتخرج الكلمات من بين أسنانه:

ـ حتى المرأة، رغم شوقها الذي لا تستطيع أن تخفيه، أن تموهه، فإن الضربة الأولى، الليلة الأولى، لا تخلو من خوف...

يبتسم، وقد تذكر أشياء كثيرة:

ـ المهم... الطلقة الأولى!

ولكي يشفي غليله لا بد أن يشم رائحة البارود. إن هذه الرائحة تعيد إليه التوازن، يصرخ بصوت يشبه صوت الملسوع في وجه الحاجب الذي لا يفارقه:

ـ حمودي... ابن الزفرة، ما تشوف روحي طاقة...؟ ما تعرف إن دمك ما يسوي بارة؟

وحمودي الذي يعرف لحظات غضب سيده، وما يمكن أن يفعل، يسأل، وتظهر على وجهه علامات الخوف:

ـ ها عمي تريد سنجة لو منجة؟

ـ أشعل صفاح موتاك إذا ما جمعت الثنتين!

وينصب حمودي الدريئة بسرعة، وبطريقة مسرحية، وإن شابها

الانفعال الحقيقي، إذ يخاف أن يطلق الآغا عليه الرصاص، أو على الأقل يجعل الرصاص يتناثر حوله. لذلك ينصب الدريئة ويهرب بسرعة نحو الحائط وقد أحنى قامته. وما أن يطلق الآغا رصاصة أو اثنتين، ويستخرج الرصاصات الفارغة، ويتنشق رائحة البارود، حتى يكون حمودي قد هيأ المنقلة.

يجلس الآغا، ويبدأ بنقل الحصيات من خانة إلى أخرى، ويكون قد نوى وضمر، وغالباً ما يكسب الرهان! يقول بصوت عالٍ، وهو ينهض:

- يحرم عليّ النوم، أو ليقرصني عقرب أسود من إليتي، ولتأكل الأفاعي لساني إذا مر هذا الشهر دون قرار.

لما وصل الأمر إلى درجة لم يعد معها يطيق الانتظار، خاصة وأن الأخبار التي أخذت تتزايد من بغداد، زادته تشوشاً وحيرة، فقد قرر أن يبعث بناهي زبانة إلى بغداد.

وناهي أحد أقرب الرجال إليه: قصير، نحيف، صوته أجش. تجاوز الثلاثين لكنه لم يصل الأربعين، ليس له مهنة سوى أنه حاجب الآغا، وكأن هذي الصفة أعطيت إليه كوسيلة للعيش والتمويه. مهمته الظاهرية أن يضحك الآغا وضيوفه، بالأدوار التي يقوم بها، بالنكت التي يحفظها، والتي لا تروى إلا مع الحركة والتمثيل، وغالباً ما تتضمن الإشارات والكلمات البذيئة. هذه هي صفة ناهي زبانة الظاهرية، لكن المهمة الحقيقية أنه عين الآغا، خاصة وأن الكثيرين يحبون سماع نكاته. ومع أنهم سمعوها من قبل مرات عديدة، لكن حين يرويها تبدو لهم جديدة فيضحكون لها كأنهم يسمعونها لأول مرة، وخلال ذلك يرددون نكاتاً حفظوها، أحداثاً وقعت لهم، ولا يترددون في تبادل الأخبار وبعض المعلومات، أو السؤال عن بعض الأشخاص، وفي أحيان كثيرة ينسى الذين استدعوا ناهي أو استوقفوه لكي يروي النكات وجوده، ويعودون إلى ما كانوا فيه من أخبار وأسرار. يلتقط ناهي كل ما يسمعه ويحمله فوراً إلى الآغا. وهكذا أصبح عين الآغا وأذنه، وصاحب المهمات أيضاً.

قال الآغا بعد أن اتخذ هيئة صارمة لئلا يظن ناهي أن الأمر مزاح، كما في مرات كثيرة سابقة:

ـ كل اللي چان بينا كوم والشغلة اللي أريدها منك هسه كوم ثاني.

ابتسم ناهي قليلاً، لكن وجه الآغا أشعره أن الأمر أكثر جدية مما قدر، قال بحذر:

ـ أؤمر بك، وآني حاضر!

ـ الجماعة اللي راحوا لبغداد عبالهم الروحة تسيار، كل واحد منهم قعد بمكانه مثل الطابوقة، لا خط ولا خبر، وصار لهم ما أدري شقد سنطة، مثل الموتى، ونحن مذهبنا انسلق، ورجلينا بالشمس، فأريد منك تروح وتشوف شنو صاير بالدنيا.

تهلل وجه ناهي، فقد انقضت فترة طويلة وهو يطلب الذهاب إلى بغداد، ليزور أهله هناك، والآغا لا يوافق على طلبه، رد بانفعال:

ـ إذا وصلت بغداد، بك، أفلح الدنيا فلاحة، وبيومين ثلاثة أعرف الاكو والماكو وبالعجل أرد لك الخبر.

رد الآغا بحزم:

ـ أعرفك ما تتقشمر، واللي تقوله تسويه، بس خاف يصير بينا مثل ما يقولون: دزينا سعد ورا مسعود، فلا رجع الأول ولا الثاني رد الخبر!

ـ على بختك بك، وأنت تعرفني كلش زين!

ـ وأهم شيء توصل للباليوز... حتى نعرف دربنا، ونعرف الراي...

واستدرك الآغا، بسرعة:

ـ مو شرط تروح براسك، خاف أحد يشوفك فنكون بسالفة نصير بسالفة ثانية.

ـ ما عليك... بك، آني أعرف شلون أوصل.

ـ وبنت الحرام روجينا، وأنت تعرفها وهي تعرفك كلش زين، هذي تقدر تبوق الكحل من العين. بوجهك عليها، وبليا ما يحس أحد، تقول لها: أريد فد واحد من الباليوز، وهي إلها دروبها، تجيب لك أكبر راس.

إذا مو أول يوم... ثاني يوم.

وسافر ناهي زبانة إلى بغداد، وبدأ الآغا الانتظار من جديد!

وفي فترة الانتظار، تذكر الآغا أن داود باشا كان يستعين بالمنجمير خاصة في الأوقات الصعبة، وكان لا يقدم على خطوة كبيرة إلا إذا أشار عليه. ويتذكر كيف أنه غضب منه لتأخره في دخول بغداد، لأن المنجمير طلبوا منه الانتظار!

ورغم غضب الآغا، وسخريته أيضاً، من هؤلاء الذين يحكمون دون فرمانات وبلا أختام، إذ لا شيء يمكن أن يحصل دون موافقاتهم وبركاتهم، والحكام يطيعونهم كما يطيعون زوجاتهم! قال لنفسه: «شنو خسرانين إذا قلنا لهم تعالوا، لكن أبد ما راح نخليهم ياكلون براسنا حلاوة»، لقد سبق والتقى ببعض المنجمين، وسمع ما قالوا له أو لغيره، لكن قابل كل ذلك بسخرية مُرّة، وبتعريض. أما الآن، وهو ينتظر، فقد راق له أن يسمع ما يقولون، لن يقدّم إليهم تنازلاً، بل ولن يخدع بما سيقولون، لكن لا ضرر أن يسمعهم!

الشيخ إدريس، أو آغا إدريس، كما يسميه العامة، نظراً لعلاقته بالآغوات، يرافقهم، ويقرأ لهم الطالع، «ويعرف» كيف سيصبح أبناؤهم، وما إذا لزوجاتهم عشاق من العفاريت يأتون أثناء غيابهم. كان الشيخ إدريس أول الذين وصلوا إلى القلعة، بناء لطلب حامد.

قال له حامد بحزم، وكأنه يعلمه:

ـ الآغا صدره ضيق، ووقته أضيق، ما يحب: قال وقلنا؛ ما يحب اللي صار، يحب يعرف شنو اللي راح يصير، فإذا قلت له بكلمتين شنو اللي راح يصير ترى إيدك بالدهن!

رد الشيخ إدريس، أو آغا إدريس، بحدة:

ـ يا مولانا، آني لا فتّاح فال، ولا قسّام ودع. آني أقول اللي سبحانه وتعالى يلهمني... يقول لي: قول أقول، يقول لا تقول ما أقول...

إنتظر قليلاً. وقد احتار حامد كيف يرد على كلامه، فتابع:

ـ وبعدين آني ما قلت لروحي تعال، إنتو قلتو: شيخ إدريس نريدك، تعالى هنا، فإذا ما تريدوني ما يخالف!

ـ آغا... لا تفهم كلامي غلط؛ إحنا دزينا وراك، واحنا نريدك، بس أنت تدري البك...

ـ آني ما عليّ، آني أقول اللي القدر يكشف، اللي القدر يقول...

ـ أدري... أدري يا شيخنا، لكن أنت تعرف البك...

ـ آني ما عليّ، تقبل لو ما تقبل!

ـ عفوك، آغاتي، بس...

ـ ماكو بس... تقبل لو ما تقبل؟

ـ نقبل مولانا، نقبل!

قال الشيخ إدريس للآغا بعد أن تمعن بالكفين وقتاً غير قصير:

ـ الكف مو بس كف، والطالع مو بس طالع، البني آدم من يوم ما يقول آي، من الدقيقة اللي يشوف بيها الشمس، يُنعرف مين هو، وشنو اللي راح يصير...

وبحزم أقرب إلى الأمر، طلب من الآغا أن يمدّ يده اليسرى. أخذها بيديه الاثنتين، أمعن فيها النظر طويلاً، وتطلع إلى عيني الآغا بتحديد. لأول مرة شعر الآغا بالقلق، إذا لم يكن الخوف. حاول أن يمزح، أن يسخر، لكن عيني الشيخ إدريس كانتا حازمتين إلى درجة لم تدع له أن يواصل، أو أن يتمادى.

وقرأ له الشيخ إدريس طالعه، كانت القراءة، وهي تتتابع ككلمات، واضحة. لكن ما إن غادر الشيخ إدريس القلعة وغاب، حتى تحولت الكلمات التي قالها إلى ألغاز، إلى رؤى غير مترابطة وبعضها دون معنى.

يتذكر الآغا أن الشيخ إدريس قال له أشياء كثيرة، لكن ما علق بباله منها ان «طربقة كبير راح يوقع: حرب وضرب، قتل ومقتول: وإن هذا الحرب فيه انتصار للآغا. أول قمر مو تمام، ثاني قمر مو تمام، لكن الثالث كلش زين».

ولما سأله الآغا عن أطراف هذه الحرب ومتى يمكن أن تقع وأين. أغمض الشيخ إدريس عينيه قليلاً، وظل ممسكاً باليد اليسرى للآغا، وحين فتح العينين بدا كأنه آت من سفر بعيد. طلب أن يرى اليد اليمنى أيضاً. مدّ الآغا اليد بتسليم. أمعن الشيخ النظر إلى اليدين، قارن الخطوط، ويتذكر الآغا أنه قال: «حرب أول نوبة بعيد، بعدين يصير قريب. حرب أول نوبة يم ماي، بعدين يصير يم شجر. حرب أول نوبة زغير بعدين يصير كبُرْ الجبل» وترك الشيخ إدريس اليد اليمنى ودقق باليسرى. كان يفعل ذلك وهو يهز رأسه. والآغا الذي لزم الصمت، كان شغوفاً لسماع بقية ما سيقوله الشيخ إدريس. عرقت يده قليلاً، تابع «ولأن خط الحياة عند الآغا طويل... طويل، فكل واحد تكون وياه منصور، وشمسته عالية، وخبزه يكفي أيام ودهور».

لم يكن الآغا حريصاً على أن يدقق، كما يفعل غيره، لئلا يبدو مهتماً أو موافقاً، وربما لأنه لم يزل في شك من كل ما قيل، ولا يثق بمثل هؤلاء العرّافين. لكن بعض الكلمات لاقت هوى في نفسه، رغم ما شابها من غموض، خاصة وأن الشيخ إدريس استعمل عدداً غير قليل من الكلمات الغريبة، وكان يرددها بانفعال، وكأنه من خلالها يستحضر أرواحاً بعيدة، أو يقرأ ما هو مكتوب على صفحة الماء أو على أطراف الغمام.

حتى لما استفسر حامد من الآغا ما إذا كان يرغب ببقاء الشيخ إدريس في كركوك، أم يسمح له بالعودة إلى أربيل، رد الآغا بنوع من السخرية:

ـ لا... خليه يدوّر أهله، ويجوز غيرنا يحتاجه أكثر!

ولما بدا له أن الإجابة لم ترق لحامد، تابع بنبرة جديدة:

ـ وبعدين إذا ردناه نوبة ثانية نصيحه...

وتغيرت النبرة من جديد:

ـ ومثل ما شفنا هذا نشوف غيره، لأن اثنين أخير من واحد!

وإذا كان الآغا ترك الشيخ إدريس يمضي إلى أربيل، ولم يكن ميالاً لتصديق ما قاله، فقد شعر بالقلق، وبشيء من الانزعاج: حرب؟ بعيدة

تكون ثم تقترب؟ صغيرة ثم تكبر؟ وخطوط الحياة والمستقبل، التي تحدث عنها الشيخ إدريس، بمقدار ما طمأنته فقد أثارت لديه المخاوف بنفس الوقت، لأنه حين تحدث عن ذلك كان صوته يرتجف، وكانت مسافة تفصل بين كلمة وأخرى، كأنه ليس متأكداً أو غير حاسم. لماذا لم يمتحنه بأمور قديمة وقعت ليختبر مدى معرفته، وليقدر بعد ذلك ما إذا كان يعني النبوءات والكلمات التي قالها؟ قال في نفسه ليحسم الأمر «لو يعرفون هالكثر لصاروا أغنياء وما ظلوا مگادي» ارتاح قليلاً لهذه النتيجة، لكن لم يطمئن تماماً.

ومثلما تذكر الآغا منجّمي داود تذكر أيضاً قدرته على تنميق الكلام، وكيف يستطيع أن يتحدث لفترة طويلة. وأمام عدد كبير من الناس، دون توقف، دون تردد، وبطريقة جميلة. وتذكر كيف أن داود يردد كثيراً: قال الله، وقال الرسول، ويستعمل أبياتاً من الشعر، والناس يستمعون إلى ما يقوله باهتمام، يهزون رؤوسهم دلالة الاقتناع والإعجاب معاً. ويعرف أيضاً أن يخاطب الجنود، أن يخاطب البدو والحضر، فلماذا لا يكون مثله!

لقد فكر الآغا طويلاً بهذا الأمر. صحيح انه يختلف عن داود. لا يحب أن تتعلق به العيون. أن يراقبه الناس. إذا تركزت عليه الأنظار، إذا ساد الصمت وأخذ الناس يصغون إلى ما سيقوله يشعر بالارتباك، تتداخل الأفكار والكلمات في رأسه، بل وتزدحم، بحيث لا يعرف أيها يجب أن يخرج قبل الآخر، أو كيف يقولها. أكثر من ذلك لا يعرف كيف يكون حين يواجه الناس. يحس أن حلقه جفّ، ودقات قلبه تتسارع، بل يحس أكثر من ذلك أنه محاصر. حتى حامد يبدو غير مرتاح وهو يسمعه يتكلم. حين سأله ذات مرة عن رأيه بما قاله أمام رهط من ضباط الميدان قبل معركة الفرات الأعلى، تردد حامد في الإجابة أول الأمر، ثم قال إن الكلمات كانت سريعة بحيث لم تكن واضحة، وبالتالي لم تفهم كما يجب! أما ناهي زبانة الذي يسمع الآغا يعيد، بعض الأحيان، نكتة أو يروي حادثة، فيقول له إذا كانا وحيدين:

ـ ما أدري ليش تريد تخلص من النكتة أو السالفة بالعجل، يا بك، واللي يسمعك يقول لروحه كأن الآغا شايل على ظهره كيس ملح، بس يريد يشمره ويخلص منه!

ويعيد ناهي رواية النكتة أو الحادثة، فتبدو ممتلئة، تضج بالحيوية والجمال، ويضحك لها الآغا مجدداً، ويقول من بين أسنانه:

ـ الواحد منكم لبلبان، ويعرف شلون يصفّط الكلام، آني مالي خلق، ما أحب اللقلقة والأخذ والرد. . .

وبعد قليل، بصوت مختلف، كأنه يبرر لنفسه:

ـ تعلّمنا بالعسكرية نصدّر الأوامر. تعلمنا نقول: نفذ؛ تقدم؛ قف. أما إذا ردنا نقنّع كل واحد على صفحة فهذي مو عسكرية، هذي شغلة ملاّ أو قصخون.

لكن استطاع الآغا أن يقنع نفسه، ولذلك ظل لا يحمل الود للذين يتصفون بطلاقة اللسان، ولأولئك الذين يسيطرون على الآخرين من خلال الأحاديث التي يروونها أو الاشعار التي يحفظونها. أما رجال الدين فكان عداء الآغا نحوهم لا يخفى. كان يسميهم اللقامة، وإنهم مثل البراغيث يعيشون على دماء الآخرين. رجال الدين لم يبادلوه هذا العداء. كانوا يقولون، إذا ورد ذكره: إن الله يهدي من يشاء، وما دام الموت ختام رحلة الإنسان فلا بد أن ينصلح في يوم من الأيام. . . ويهتدي!

الآن يشعر الآغا بضرورة أن يتعلم كيف يخاطب الناس، كيف يتحدث إليهم، كما يفعل داود. صحيح أنه لا يحب ذلك، لكن يشعر بضرورته وتأثيره وأهميته. فإذا بذل جهداً، ولو محدوداً، إذا تدرب على ذلك أمام المرآة أولاً، ثم أمام عدد من مساعديه، فسوف يصبح خلال فترة قصيرة خطيباً مثل داود. أما حين يحفظ مجموعة من أبيات الشعر وعدداً من الأمثال، وأن يتكلم مثل الذين يقرأون على الحسين، أو حتى لو تكلم بطريقة جلفية، كما يتكلم الناس في الشوارع، فسوف يتفوق عند ذاك على داود نفسه، لأن لغة داود لغة الأفندية، وهؤلاء حتى لو هزوا رؤوسهم وهم

يستمعون إليه لا يفهمون تماماً ما يقول، أو يفهمه كل واحد بطريقته. لن يكون مثله، لن يتوجه في خطاباته إلى الأفندية، سوف يتكلم إلى الناس مباشرة، وبالطريقة التي يفهمونها، وإلى هؤلاء يجب أن يتوجه، وعليهم يجب أن يعتمد!

ولكن كيف يبدأ هذه الرحلة؟ إنه الآن قلق، مشتت الأفكار، وليس لديه الميل لأن يشرع فوراً. ومع ذلك لا بد من وضع خطة لذلك. سوف يكلّف عدداً من الأشخاص كي يهيئوا له الأشعار التي يحتاجها، ومن الضروري أن يرددوها أمامه عدة مرات، ثم يرددها بنفسه مرة بعد أخرى إلى أن يتقنها، وعند ذاك سيعرف كيف يجعل صوته يهدر أمام الجموع.

وسيتغلب على داود أيضاً من خلال كرمه. «داود أبخل من كلب، قد لا يظهر عليه ذلك بوضوح، لكن من يعاشره، من يعرفه عن قرب، يكتشف حرصه الذي يصل إلى حد البخل. إنه يشتهي كل ما لدى الآخرين، ولا يحب أن يعطي شيئاً من عنده لأحد».

واستعاد في ذاكرته وقائع كثيرة، كان على يقين أن الناس يمكن أن يتعلقوا بوالٍ أو بإنسان نتيجة قدرته على الكلام، أو بسبب شجاعته، لكن هذا التعلق لا يدوم طويلاً، ولا يكون قوياً، إذا لم يدعمه بالكرم، لأن الناس لا يعيشون على الكلام أو الأشعار، كما أن الشجاعة إذا راقت لهم وقدروها، فإنها لا تكفي. وداود الذي استهوى الكثيرين، واستطاع أن يخرج الناس من بيوتهم ليقفوا ضد سعيد، فلأن الأخير بدل أن يعطيهم، بدل أن يؤمّن التجارة ويوفر الأعمال، أخذ يزيد الضرائب، ويرهق الناس. أما داود الذي أعطى في البداية، وقال كلاماً كثيراً، فما لبث أن تغيّر، أصبح إنساناً آخر: صحيح أن التجارة عادت إلى النشاط، والمال يتوفر بأيدي الناس، لكن داود بدل أن يقلل الضرائب زادها، والتجارة بين أصدقائه. ذهب ساسون ورجاله، جاء عزرا ورجاله بدلاً عنه.

وتصور الآغا نفسه والياً: «... لا ضرائب جديدة؛ الضرائب القديمة تسقط عن الناس كافة عدا الذين يعارضون الوالي الجديد؛ لن أطالب

براتب؛ ثم لماذا هذا الجنون بملابس الحرس والتشريفات والذين يحيطون بالوالي؟ سوف أصبح بسيطاً مثل أي إنسان آخر، بالملبس، بالمأكل، ولا بد من إقامة الولائم للفقراء...». وكاد يذهب بعيداً وهو يتصور ماذا سيفعل حين يصبح والياً، لكنه قال وهو ينظر بطرف عينه إلى المرآة:

- الآغا لا يشبه غيره من الولاة، وسوف يتأكد الناس من ذلك!

وتغيرت نبرة الصوت قليلاً وهو يسأل:

- لو راح تصير مثلهم، آغا؟

غمز بعينه، ابتسم وهو ينهض، وأخذ يردد بنغم:

- على الوالي أن يتفقد الرعية، وأن يتأكد من كل شيء بنفسه، وإلا راح تمشي الماي من جواه وهو ما يدري.

وقرر أن يقضي ذلك اليوم بين ضباطه وجنوده في القلعة، وأن يز المدينة.

واستغرب الكثيرون في كركوك أن الآغا قضى ساعات وهو يتجول المدينة، وشعر الذين تحدث معهم بنوع من الاعتزاز!

91

عرف داود باشا بوصول ناهي زبانة إلى بغداد، وبلقائه روجينا. جميلة ىملت الخبر، لكنها لم تذكر أكثر من ذلك.

طلب الباشا مراقبة ناهي، وشدد على ضرورة أن تكون الرقابة محكمة، ىطة ألا يشعر بها. ولأن ناهي يمتلك من المكر الكثير، فقد ابتعد عن ىاكن الخطرة، حيث يكون رجال الباشا، خاصة وأن مظهره يساعده ى التخفي.

في الأيام الأولى جمع ناهي أخباراً، لكنها كانت أقرب إلى الإشاعات والتكهنات، وقد بدت له هزيلة، بحيث لا تستحق أن ترسل إلى الآغا، فقرر أن يلجأ إلى روجينا.

فوجئت روجينا بالزيارة. وفوجئت أكثر وهو يسألها عن أخبار البلد، وما وقع من أحداث! فطوال الفترة التي قضتها في كركوك، ورغم أنها رأت ناهي مرات عديدة، وتأكدت من قوة علاقته بالآغا، إلا أنها اعتبرته إنساناً بسيطاً وربما خادماً أو نديماً، ليس أكثر، وإن مهمته إضحاك الجميع بنكاته وحركاته، فلماذا يسأل الآن عن الأخبار السياسية والأحداث؟

أما حين طلب منها أن تؤمّن له لقاء مع أحد مسؤولي الباليوز، والأفضل أن يكون مع القنصل نفسه، فقد بلغت المفاجأة حد الذهول. ظنت أن الرجل مختل العقل، أو ربما يكون مخموراً. ولما واصل الطلب والإلحاح، وروجينا تتهرب، بحجة أنها لا تعرف أحداً هناك، أخرج لها الرسالة التي جلبتها معها إلى الآغا، ليقطع الشك، ويدفعها إلى القيام بهذه

المهمة.

قالت، وكان صوتها يرتجف:

ـ هاي شلون حصّلتها؟ ما تعرف أن بيها قصّ راس؟

ـ راس غيري!

رد عليها هكذا، وهو ينظر إليها ويُبتسم. ولئلا يذهب بها الخوف بعيداً، تابع بلهجة لا تخلو من سخرية:

ـ منين أقدر أحصل عليها، يا معودة، لوما الآغا سلمها لي ومعها همين صوغة!

وبسرعة، وبإتقان، استخرج من جيب داخلي شيئاً ملفوفاً بمنديل أبيض، ودفعه إلى روجينا. فتحت المنديل على مهل، وبحذر، وما كادت ترى ما في داخله حتى شهقت: قلادة ثمينة يتوسطها حجر من العقيق. نظرت طويلاً إلى القلادة ونظرت إليه. كانت النظرة، هذه المرة، مختلفة: ودية وفيها امتنان. لما اطمأنت تماماً، سألته عما يجب أن تقوله أو أن تفعله، فرد بمرح:

ـ بس قولي للباليوز: «رمان بعقوبة لاحه المطر». وما عليك!

أخذت تنظر إليه باهتمام، كأنها تحاول اكتشافه من جديد. فهذا الرجل القصير، الكثير الحركة، والذي اعتبرته قليل الأهمية، أو ربما لا يعرف سوى المزاح، يتبدى لها الآن شخصاً مختلفاً، خاصة وهو يطلب لقاء القنصل بالذات. قالت في نفسها: «المريّة بحسنها وجمالها تفتح أكبر باب، وتقدر على أوكح رجال. لكن هذا شكو عنده حتى صار هالشكل؟» تطلعت إليه من جديد، توقفت عند الوسط وهزت رأسها!

ولتوقعه أن يكون رجال الباليوز مراقبين، ولئلا تتعرض روجينا للشبهة أو المراقبة فيما لو تم الاجتماع في بيتها، فقد أضاف ناهي بحذر:

ـ راح أفوّت يومين ثلاثة وبعدها أمرّ وألقى الجواب، اتفقنا؟

ـ إنشاء الله يصير خير!

وكان رد الباليوز واضحاً: «مع الموافقة، بطرس يعقوب يمثل الباليوز،

يعرف ناهي زبانه، المطلوب تحديد المكان والزمان» وجاء رد ناهي فورياً: «الخميس، بين المغرب والعشاء، في قهوة الشط».

ناهي وهو يختار قهوة الشط مكاناً للاجتماع لأن لا أحد يعرفه هناك. وبطرس الذي وافق على المكان اعتبره مناسباً لاتساعه، وبالتالي يمكن التحدث بحرية، دون أن يضايقه أحد من معارفه الذين يترددون على مقاه أخرى، أغلبها في صوب الرصافة.

كان من السهل أن يلتقي الرجلان في مكان آخر غير قهوة الشط، وأن يبحثا ما يشاءان من الأمور، دون أن يراقبهما أحد، دون أن يزعجهما أحد. أما في قهوة الشط، أو أي مقهى في صوب الكرخ، فإن وصول الغرباء يثير الفضول، وقد يصبح الفضول اهتماماً أو ربما قلقاً، إذا ترافق ذلك مع حركات، أو طريقة تصرف تستدعي الانتباه. فإن يصل اثنان، مثلاً، من الرصافة، أو حتى من أمكنة بعيدة، ويجلسان ويتحدثان بتلقائية، ويتبادلان السلام أو بعض الكلمات مع الذين حولهم، فالأمر عادي، وقد لا ينتبه له أحد. أما أن يأتي واحد قبل الآخر، ويجلس وحيداً، ويأتي الآخر ويذرع المقهى من أقصاه إلى أقصاه، دون أن يتعرف بيسر على صديقه، فقد أثار الأمر انتباه ساقي الماء، مطشر، إذ بدا الرجلان وهما يتعرفان على بعضهما، وكأنهما يلتقيان لأول مرة. وحين تقارب الرأسان، وأصبح كلامهما أقرب إلى الهمس، فقد لفت أنظار الذين حولهم. أما حين دخل ذنون بصحبة الأسطة اسماعيل، ورأى بطرس، فقد قال بسخرية لا تخلو من قسوة، وبصوت عال:

ـ واي... واي، أبو زليخا... أشوفك بديرتنا، شنو لهنا لاحقنا؟

وبطرس الذي فوجىء بذنون، وبدا محرجاً، نظراً لما حصل بينهما قبل بضع سنين، حين تآمر عليه وطُرد، وحلّ مكانه مترجماً في البعثة الأثرية الإنكليزية، فقد حاول أن يكون دمثاً، إذ قال وهو ينهض مبتسماً:

ـ رب صدفة خير من ميعاد، يا أبو عمر، لأني من ذاك اليوم أريد أقول لك: آني ما عليّ، ما لي علاقة، لكن ما صار لي فرصة أشوفك.

ـ وإنشاء الله تعنيت وجيت من تلفات الدنيا، بعد كل هذي السنين، حتى تقول هذا الكلام؟

ـ أكون چذاب إذا قلت لك إني جيت قصداً، لكن ما دمنا تشاوفنا بعد هذي السنين، فلازم أبري ذمتي وأقول لك عن اللي صار واللي جرى!

التفت ذنون للأسطة اسماعيل. وقال بسخرية:

ـ باوع شقد خاست الدنيا يا أبو حقي: الواحد يحفر النقرة ويدفع الثاني حتى يوقع بيها، وبعدها يقول له: آني ما عليّ. . .

وسحب نظره نحو بطرس، وتابع:

ـ بابا روح، وابد لا تراويني وجهك.

والتفت إلى الأسطة اسماعيل: سبحانه لما خلق مثل هالشكول كان ضايج، لزم كومة تراب تفل عليها وذبها، فصارت هيچ أوادم!

وهبط بطرس يعقوب على المقعد مثل الشوال، فقد أحس أن أية كلمة إضافية يمكن أن تُخرج ذنون عن طوره، وقد يلجأ إلى العنف. قال لينهي الأمر:

ـ ما يخالف، أبو عمر، آني غلطان!

رد ذنون، وهو يتحرك، وكان يخاطب الأسطة اسماعيل.

ـ تنجّست قهوة الشط يا أبو حقي، ولازم ندوّر على قهوة غيرها!

ـ قهوة الشط، يا معوّد، مثل ميّة دجلة، أبد ما تتنجّس، يمر بيها أشكال وألوان، لكنها تعرف ناسها، وإذا جاها فد يوم الغربتلية، ثاني يوم ما يجون، وحدهم يسحسلون، ينهزمون لأن ما إلهم خبزة بقهوتنا!

وخلال دقائق قليلة عُرف أن بطرس يعقوب، العامل في الباليوز، هو ذاك الذي يجلس في الركن، ولا يُعرف جاء لرؤية من، أو ماذا يريد، كما لا يُعرف ذاك الجالس معه. وقد أثار الأمر التساؤل والقلق. هل جاء بطرس ليلتقي بأحد من عائلة الحاج صالح العلو ويبحث أمر المعالجة مرة أخرى، خاصة وأن صحة الحاج لم تتحسن؟ هل جاء لامر يتعلق بحسون؟ لأمر ثالث؟

انفتل ذنون بسرعة وجلس بالقرب من الأسطة عواد، في الوقت الذي ذهب أبو حقي للسلام على بعض الأصدقاء، وأيضاً للسؤال عن هذا الغريب الذي يجلس مع «زلمة الباليوز» مشيراً بطرف وجهه، مع غمزات، إلى بطرس وإلى مكان جلوسه.

ولأن أهل الكرخ يتميزون بقدر غير محدود من الفضول، وأكثرهم فضولاً الذين يقضون ساعات طويلة في قهوة الشط، فقد بدأت الرقاب تمتد نحو الركن الذي يجلس فيه الرجلان، وحين لا تسعف العيون في تحديد أو معرفة ذلك الغريب الجالس مع بطرس، لا يتردد بعضهم في النهوض، والدوران حول ذلك الركن. صحيح أنهم كانوا يفعلون ذلك متظاهرين بالعفوية، إذ يوسّعون دائرة حركتهم، ينظرون في اتجاهات متعددة، ثم يقتربون تدريجياً، وتتركز النظرات على الركن والجالسين.

لكن محاولات الاكتشاف انتهت إلى الفشل. قال أبو حقي، وهو ينضم إلى المجموعة التي تحيط بالأسطة عواد:

ـ هذا الوجه شايفه... ومو شايفه... يا جماعة الخير!

كان واضحاً أنه يقصد الغريب الذي يجلس مع بطرس، رد ذنون بسخرية:

ـ لا تتعب روحك يا معود، يبين وجه أگشر، وما دام جا ويّا أبو زليخا فالچلب أخو السلوقي!

ـ وهذا الراس أبد ما مرّ من تحت أيدي، لأني إذا لزمت راس ما أنساه أبد!

ـ أنت تحچي على ايام قَبل يا أبو حقي؛ أما بهذي الأيام فصارت أكثر الروس مثل روس البصل: تتقشر وتتغير، حتى إنك ما تعرف الواحد قرعة أبوه منين!

قال ذنون ذلك، وحدّث الذين حوله عما فعله بطرس يعقوب معه، وكيف أنه ساعد الإنكليز في استخراج الذهب والفضة والتماثيل من الأرض، ثم ركب السفينة التي حملت كل ذلك، وسافر إلى البصرة،

وكيف ظل البحارة يرفعون الأحمال والأثقال إلى سفينة أكبر من سفينة نوح، وسافروا بها. وختم حديثه بالقول:

ـ وما كفّاه هذا، صار يفتر الولاية من أولها لتاليها، مثل يهودي أبو بيع: منو عنده حاجات قديمة للبيع؛ منو لقى أصنام دفنها الكفار حتى نخلّص ديرة الإسلام منها؛ منو يعرف زاغور بيه طابوق وخرز ولو ليرة ذهب، ما خلّى شي إلا وقال للإنكليز: تعالوا، خذوا، شيلوا. . .

ابتسم بحزن، هزّ رأسه عدة مرات، ثم ختم كلامه:

ـ وبعد ما حمّلوا وشالوا، وحتى أبو زليخا ما يظل عطّال بطّال، قالوا له: تعال صير ترجمان بالباليوز، وهسه باوعوا عليه: وجهه متفّح وإيده بالدهن!

قال الأسطة اسماعيل:

ـ هذول الإنكليز ما ينسون جماعتهم، وما يخلّونهم، مثل غير جماعة، يگدون.

ـ قال الأسطة عواد الذي ظل صامتاً مهموماً طوال الفترة السابقة:

ـ هذا الباليوز مصيبة من الله، وما جانا من وراه إلا دوخة الراس وشلعان القلب!

قال ذلك، وكان يفكر بما حصل خلال الشهور الماضية، واعتبر أن مجيء بطرس لا يبشر بخير، لأن رجال الباليوز عندما يتحركون، عندما ينتشرون في الأسواق والمقاهي، فلا بد أن يكون وراء ذلك أمر جديد.

الأسطة اسماعيل ظل يحك ذاكرته في محاولة لأن يستعيد أين رأى هذا الوجه، وهل مر ذلك الرأس بين يديه، وحين لم يستطع أن يصل إلى نتيجة واضحة، قال كأنه يخاطب نفسه، وبدا صوته مليئاً بالغيظ:

ـ هذا الوجه ما ينشاف بمرقد أو مقام، هذا وجه ينشاف بميخانة أو يمّ القحاب. . .

ضحك بصوت عالٍ وأضاف:

ـ كأني شايفه فد يوم: بايده إبريق وعلى كتفه خاولي!

في هذه الأثناء اقترب من المجموعة حسون. كان مخطوف الوجه، أقرب إلى الارتباك، بعد أن قال له الكثيرون أن زيارة بطرس يعقوب تتعلق به مباشرة، إذ أرسله الباليوز لكي يتوسط، لأن زوجة القنصل مريضة، وهي بين الحياة والموت، وتطلب فقط أن ترى حسون، ولو عن بعد! وإن الأسطة عواد رفض تماماً مجرد الحديث في الموضوع.

سأل حسون، وخرج صوته متوسلاً، وكان يخاطب الأسطة عواد:

ـ صحيح عمي اللي قالوه الجماعة؟

ـ شنو الصحيح؟ ويا جماعة؟

ـ هم اللي قالوا، عمي، وآني ما أدري!

ـ على ويش تسأل، ابني؟

ـ على هذا القاعد بالركن!

ـ شبيه؟ احچي، قول

ـ بس آني ما اريد. آني قلت كلمتي!

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم جيبك يا طولة الروح...

وبعد قليل والأسطة عواد يهز رأسه بأسف:

ـ تعال يمي، تعال اقعد وفهمني شنو القصة.

ـ بس آني حلفت وقلت آخر كلام، عمي!

قال هذه الكلمات وهو يقترب من الأسطة عواد، وكان خوفه يزداد كلما اقترب. نادى الأسطة عواد، في محاولة لتبديد خوف حسون:

ـ مطشر... يا مطشر، صيح على فد حامض لحسون.

والتفت إلى حسون، وقد زايله الغضب، وخاطبه بلهجة أبوية:

ـ لا تخلي الناس يقشمروك، ابني، وإذا حچيت احچي عدل، فهّم. وهسه تعال وفهمني، شنو: قلت كلمتي، وما أريد؟

ـ آني حلفت بالثلاثة، عمي، والواحد إذا خان يمينه يتشوّر؛ وبعدين الله ما يرضى!

قال الأسطة اسماعيل لحسون بغضب:

ـ لك ما تصير آدمي؟ ما تعقل؟

التفت حسون نحوه وقد أجفل وتراجع، فتابع الأسطة اسماعيل بغضب أقل:

ـ لك هذا مو عليك، وجيّته على مود غير قضية!

ـ هم قالوا لي، عمي، وآني شمدريني!

قال الأسطة عواد يخاطبه بشفقة:

ـ حسون، ابني، إشرب الحامض مالك، خاف يبرد. . .

وبعد قليل:

ـ وهذا جاي على مود غير قضية، مثل ما قال أبو حقي، فلا تدير بال، ومالك لزوم، إفتهمت؟

ـ أي نعم، عمي، آني ما عليّ!

قال الأسطة اسماعيل بمرح، يختم هذا الفصل:

ـ عفاريم حسون؛ والليلة حط راسك على المخدة ونام مرتاح، اتفقنا؟

ـ أي نعم، عمي اسماعيل، اتفقنا!

وأضاف حسون بعد قليل، وقد زايله الخوف تماماً:

ـ وصار ينراد لي زيان، عمي اسماعين، فشوكت أمرّ حتى تزيني؟

ـ أنت قول وآني حاضر. بس أؤمر، حسون الورد.

ـ أستغفر الله، عمي. . .

رفع صدره، أخذ نفساً عميقاً، وقد شعر بالفخر، وأضاف بمرح:

ـ بس أباوع أنه ماكو عندك أحد، ومو تعبان، مو ضايج، أزرق وتزيّني!

ـ صار، تعال شوكت ما تريد!

وجاء سيفو وقادر معاً، في هذه الأثناء، وكأنهما جاءا بطلب. كان سيفو متوتراً، خاصة وأن إشاعة قوية انتشرت بعد أن جاء ميناس بزيارة إلى قهوة الشط، تؤكد أن طبيب الباليوز ينوي قتل الحاج صالح العلو، والوسيلة إلى ذلك أن يتولى معالجته. أما السبب وراء ذلك، كما تضيف

الإشاعة، فلأن أحد أبناء كركوك أبلغ الحاج صالح باسم القاتل، وعن علاقته بالإنكليز!

لا يُعرف من وراء هذه الإشاعة، أو كيف وصلت إلى سيفو، لكن لكثيرين في قهوة الشط أكدوا أنهم سمعوا سيفو يشتم ميناس والباليوز، هذا ما يفسر أن عائلة الحاج صالح العلو لم تشأ أن ترد، مجرد رد، على عرض الباليوز.

سأل سيفو، وهو ينظر إلى الوجوه بغضب:

ـ ها. . . شنو صاير بالدنيا؟

رد الأسطة اسماعيل، وقد تظاهر بالمزاح والغضب معاً، في محاولة تهدئة سيفو:

ـ هاي من شوكت تحچي ويانا هالشكل، أبو فلاح؟ الناس أول ما توصل تقول: السلام عليكم، شلونكم؟ شلون كيفكم؟ شنو إنت متحزم بالشر وحاط الغضب بين عيونك وتريد تتعارك؛ على كيفك يا معود!

ـ وبعدين. . . الدنيا بألف خير، يا أبو فلاح، قال الأسطة عواد، وأنت شنو اللي سمعته، حتى هادّ علينا هالهدّة؟

ـ المحلة كلها تحچي وتقول إن جماعة الباليوز يردون يجرّون الحجي لذاك الصوب وهناك يداووه.

رد الأسطة اسماعيل، وهو يغالب الابتسامة:

ـ شنو سيفو عبالك الدنيا قوتره؟ بعدين. . . شنو الحاج صالح العلو سخل حتى يجروه وياخذوه؟ هاي وين صارت؟ شنو ما عادت برووسنا غيرة؟

ـ يا أبو فلاح. . . أنت عاقل وتفهم، قال الأسطة عواد، والمداواة مو بالقوة ولا بالغصب، هاي ما تصير إلا بالرضى، وبموافقة الوجعان وأهله، وبمشاورة القريب والصديق، والواحد ما يروح للغريب إلا إذا ماكو منها چارة.

ـ قلت لروحي، لكن الله يلعن الشيطان!

هكذا رد سيفو، وهو يرتمي إلى جانب ذنون. الذي ردّ بمودة وعتاب:
ـ الله بالخير، يا أبو فلاح.

وإذا كان الرد، في العادة، على مثل هذه التحية، آلياً، وقد لا تلتقي العيون إلا لماماً وبسرعة، إلا أن الصوت الذي رنّ في أذن سيفو، وبدا له ودوداً ويعرفه دون أن يألفه، جعله يلتفت وهو يجيب. حين اكتشف أنه ذنون. نهض من جديد، قبّله بحرارة، وفجأة تحول إلى إنسان مختلف. أخذ يمازحه، بعد أن سأله عن صحته وأحواله، وما إذا كان مستمراً بخلق الأشياء الجميلة. وكاد يواصل لولا أن همساً تحول إلى لغط، انتشر حواليه!

فقادر الذي دخل مع سيفو، ووقف إلى جانبه خلال الفترة الأولى، وقد فهم جزءاً مما دار حوله النقاش، ولم يفهم أجزاء أخرى، وكان خلال ذلك يتلفت هنا وهناك، لمح ناهي!

كان في شكٍ أول الأمر، تقدم نحو الركن الذي يجلس فيه. تطلع إليه بإمعان، وكأنه يدقق بشجرة تنوس بين الحياة والموت، أو بحشرة يراها لأول مرة. ما إن تأكد وعرف أنه ناهي الذي وسّطه مرات كثيرة لدى الآغا، كي يحل مشكلته، وقد وعده ناهي بعدد المرات التي التقاه، لكن دون جدوى، حتى وقف قادر فوق رأسه، في الوقت الذي ظل ناهي جالساً ويتطلع إليه.

قال الأسطة اسماعيل لسيفو:

ـ صار إلنا ساعة ونحن نريد نعرف، هالابن الحرام القاعد ويّا الباليوز منو هو، شنو هو، وما لزمنا طرف خيط...

توقف قليلاً، وأضاف، بعد أن تغيرت نبرة الصوت:

ـ أتاري صاحبك يعرفه، ويجوز...

وقبل أن يواصل، وكأن الأمر كان غائباً عن سيفو، تساءل بدهشة:

ـ قلت الباليوز، أبو حقي؟ منو؟ وينه؟

ولئلا يندفع سيفو لارتكاب حماقة في المقهى، قال الأسطة عواد بتعقل

بهدوء:

ـ على كيفك، أبو فلاح، ولا تاخذنا بحيل صدر...

طبطب على فخذ سيفو، وكأنه يريد منه أن ينتبه جيداً:

ـ هذا اللي قاعد ويا صاحب صاحبك ترجمان الباليوز، ونحن عرفناه من الساعة اللي طب بيها القهوة، عرفناه بليا ما يقول؛ لكن اللي حيّرنا، وشغل بالنا، هذا الثاني، منو هو؟

قال سيفو، وهو ينهض:

ـ خلوها عليّ، فد دقيقة وأرجع لكم بالخبر اليقين!

وقف سيفو فوق رأسيهما. سأل، وكان لا يخفي تحديه:

ـ ها، قادر، الأخوان منين؟

ـ هذا ناهي، ناهي زبانه، من جماعة الآغا!

ـ يّا آغا؟

ولم يتركه ليجيب، تابع بسخرية:

ـ بهذي الديرة ماكو أكثر من الآغوات، فيّا هو منهم؟

رد ناهي بتحدٍ:

ـ بالولاية كلها ماكو إلا آغا واحد، سيد عليوي، لو ما تعرفه؟

ـ منو ما يعرفه...

وبعد قليل:

ـ أهلاً وسهلاً، والأخ منين؟

توجه بالسؤال إلى بطرس يعقوب مباشرة. نظر إليه بطرس، كأنه يقيسه، ورد:

ـ وحضرتك منو حتى تسأل عن الأوادم؟

أجاب سيفو بنوع من السخرية:

ـ لانّا نشوفكم هنا أول نوبة، وما دام قادر يعرف زلمة الآغا، فأنتم ضيوفنا، ولازم تشربون فد شي على حسابنا!

رد بطرس بنوع من الرفض:

ـ شربنا، وما نريد فد شي بعد!

استنفر سيفو. بدا له انه يواجه خصماً عنيداً، قال بحدة:

ـ على كيفك، مولانا. تشرب ما تشرب، هاي بكيفك، بس لازم تعرف، وهذا الشيء تقوله للباليوز: الحاج صالح العلو انولد بمحلة الشيخ صندل، وبمحلة الشيخ صندل يموت، وإذا ابنه بدري انقتل واندفن بكركوك، فيوم من الأيام لازم يرجع للشيخ صندل، وقبره راح يصير بالشيخ معروف...

وكاد يواصل، لكن بطرس قاطعه:

ـ على كيفك آغاتي، الباليوز بذاك الصوب، وإذا عندك فد شي تريد تقوله، تريد توصّله، فذاك الطريق، آني ما عليّ.

ـ أشوفك حمقان هوايه، شنو صار بالدنيا؟

ـ بابا الحق مو عليك، الحق علينا، قلنا لروحنا قهوة الشط خوش مكان، وأهل الكرخ خوش أوادم، وأن الواحد يقدر يقعد فد ساعة زمان بليا قال وقلنا. أثاري القهوة وناسها يتعاركون ويّا رواحهم إذا ما لقوا أحد يتعاركون وياه!

ـ خلي ببالك، مولانا، أهل الكرخ يحطون الخوش آدمي ببطن عينهم، أما المو خوش فمكانه مو هنا...

ـ بابا امشي، أحسن لك!

ـ لك إنت منو، إنت شنو، حتى تتكلم وياي هالشكل؟

ـ آني احچي لأنك ما تعرف الأوادم، روح أول نوبة اسأل وبعدين تعال واحچي!

لم يصدق سيفو ما تسمع أذناه. لأول مرة يقابل أحداً يجرؤ أن يتكلم معه بهذه الطريقة. فكر أن يضرب، أن يشتم، لكن دافعاً غير الخوف جعله يتردد ثم يتوقف. قال لبطرس، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ نطلع من القهوة وهناك نتحاسب!

بصعوبة تمكّن الأسطة عواد أن يستوقف سيفو، وأن يعرف من هو

لرجل الآخر، وماذا جرى من نقاش، إذ رد سيفو ليختصر كل شيء:
ـ لا تخمّسون ولا تسدسون: جدر ولقى غطاه؛ وهذا ابن الزفرة، أبو بالبوز، إذا ما أكسّر راسه، وأسويه كلاش، فلا آني سيفو ولا أكون جّال!

وبذل الكثيرون جهداً كي يتغلبوا على غضب سيفو، إذ أجبروه على لجلوس، وقالوا إن شيئاً لو حصل لا بد أن يسيء إلى المحلة وإلى صوب لكرخ كله، ولا يستبعد أن تستغل الحكومة الأمر وتنزل العقوبة بالكثيرين، خاصة وأن السراي لا تنظر برضى لأهل الكرخ.

ولأن سيفو ظل متوتراً، وإنْ تظاهر بالهدوء والموافقة على ما قيل، فقد سئل قادر عن الرجل الجالس مع بطرس يعقوب، فذكر أنه من أقرب الناس لى الآغا عليوي، وأنه يلازمه مثل ظله، وربما يعرف شيئاً عن مقتل لدري!

لا يُعرف متى أو كيف خرج سيفو من قهوة الشط، وقد تحسب الأسطة اسماعيل، إذ قال، بعد أن افتقده:

ـ وينه، هذا المخبل... سيفو؟

وأخذ يتلفت ويتساءل، وحين قيل إنه خرج قبل قليل ضرب على ساقه وهو يقول:

ـ من كل بد راح يسوي لنا مكسورة... إذا ما لحقناه وچلبنا بيه!

قال ذنون، في محاولة لأن يتبرع أحد بالعثور على سيفو وإرجاعه:

ـ ما دام آني بايت هنا، فأريد واحد نشمي يلقى لنا سيفو، ويقول له: نون بالمسافرخانة ويريده!

قال حسون بمرح:

ـ آني ألقاه، عمي، بس بشرط!

ـ شرطك مقبول، حسون، بس صيحه وتعال!

ـ شرطي أتعلل وياكم!

قال الأسطة اسماعيل، وهو يقهقه:

ـ لا بالله كملت، جبت الأقرع يونسني، كشف راسه وخرعني!

وهبّ حسون للبحث عن سيفو. التفت الأسطة عواد علّه يجد أحداً غيره يمكن أن يقوم بهذه المهمة، قال مخاطباً أكثر من واحد:

ـ يرحم والديكم... شوفوا لنا سيفو وين صار، خاف تجي براسه ويلوصها!

ورغم البحث لم يعثر على سيفو. ولأن بطرس يعقوب صمم على التحدي فقد أطال جلوسه في المقهى، وحين همّ بالمغادرة حاول الأسطة عواد أن يوضح، لا أن يعتذر، وكتعبير عن حسن النية رفض أن يتقاضى ثمن المشروب، لكن بطرس رد بخشونة، وكان ينظر إلى ذنون وهو يهز رأسه:

حسبنا قهوة الشط مكان ينقعد بيه، أتاريه كورة مال زنابير!

قال الأسطة اسماعيل بسخرية:

ـ على كيفك، مولانا، لأن الزنابير ما تخرى عسل، وماكو أكثر من القهاوي ببغداد، وبذاك الصوب أكثر من هالصوب، فلا تتعنى نوبة ثانية... وتجي!

أما حين حاول الأسطة عواد أن يرسل بعض الشباب لمرافقة بطرس وناهي، ليأمن شر سيفو، ولما اكتشف بطرس أن الشباب يتبعونه، فقد وقف بتحدٍ، وسأل:

ـ خير... إنشاء الله؟

ولما سمع همهمات غير واضحة، أضاف:

ـ قهوة الشط... خليناها ومشينا، أكو بعد فد شي لاخ؟

ورد أحد الشباب بحدة:

ـ شنو... المشي بالجادة صار حرام؟ ممنوع؟

قال آخر، وكان صوته ساخراً:

ـ لا تعمل خير شر ما تلقى، والحق مو عليك، بس ما يخالف!

عند الشريعة، انبثق واحدٌ في الظلمة. كان طويلاً، نحيلاً، لا تبين

ملامحه، إذ لم تكن تظهر إلا عيناه. قال بطرس يعقوب، وهو يعيد وصف ما حدث: «كانت عيونه تقدح مثل الشرر، وكان لازم مقوار بإيد، وخنجر بالثانية، وما أشوفه إلا واقع بينا دق، چان ناوي على قتلنا، ولولا الملاح واثنين وياه چان رحنا خلاص».

ولفترة غير قصيرة لم يشاهد سيفو في قهوة الشط. أما رجال الأمنية ورجال الجندرمة، الذين ترددوا كثيراً على قهوة الشط لمعرفة من الذي قام بالاعتداء، فلم يتوصلوا إلى نتيجة. كتبوا في محضر التحقيق «أن لصوصاً تعرضوا لترجمان الباليوز بطرس يعقوب، ولناهي زبانة، وكانت غاية اللصوص السرقة لا التعدي، غير أن مقاومة المغدورين وتدخل أولاد الحلال، منع تحقيق المرام. أما الفاعلين فالتعقيبات لا تزال جارية للقبض عليهم. لأخذ العلم والتوجيه».

وقدم أحد الموظفين من السراي الاعتذار للباليوز. أما ناهي فقد حلّ ضيفاً على السراي، وعومل معاملة كريمة، وحين استأذن بالسفر، قدمت له هدية باسم الباشا، وطلب إليه أن ينقل أزكى التحيات إلى الآغا!

92

برد بغداد جارح، في ذلك الصباح من كانون، حين بدأت القافلة سيرها نحو الشمال، نحو كركوك. فالرياح الباردة ما إن تلامس الوجه واليدين حتى تسري إلى باقي الجسد، فتولد رجفة وحنيناً لأيام الدفء، وتجعل الإنسان مشدوداً متحفزاً، خاصة وأن الدواب تبذل جهداً غير قليل لكي تتوازن بعد أمطار الأيام الماضية، إذ أصبحت الأرض رخوة، زلقة، ولولا البطء في السير، وتلك الملابس الثقيلة التي تدثر بها مسافرو القافلة، لأصبحت البرودة أشد وأقسى.

كانت أفكار الضباط وعواطفهم في القافلة تتموج، تصعد وتهبط، أو تترجّع مثل أغانٍ قديمة نصف منسية. فما إن تلمع ذكرى حتى تنطفىء، تماماً مثل السحب الصغيرة من الدخان، إذ تبني، وهي ترتفع قليلاً قليلاً، صوراً وأشكالاً، لكن وهي تواصل صعودها تتبدد الصور وتترنح الأشكال إلى أن تنتهي.

وما عدا حوافر الدواب التي تجرح الصمت، فقد كانت السكينة تتمدد كما لو أنها لحاف مبلول، ومع تمددها كانت الأفكار والأحلام تتوالى بسرعة، ومعها الذكريات التي ارتسمت بشكل معين وهم قادمون إلى بغداد قبل بضعة شهور، وترتسم الآن بشكل مختلف تماماً في رحلة العودة.

وإذا كان للأحلام والرغبات وقت آخر، فإن أفكار الضباط الثمانية، وعواطفهم أيضاً، تغيرت خلال هذه الفترة القصيرة، بحيث لا يمكن لأي واحد منهم أن يصدق ما حصل، أو كيف حصل.

ففي طريقهم إلى بغداد، قبل شهور قليلة، كان كل واحد منهم متحسباً، أقرب إلى التخفي، لا يعرف ماذا ينتظره، أو كيف يواجه الباشا ورجاله. ورغم مشاعر الخوف وعلامات المجهول، فقد كانت الرغبة لدى كل منهم أن يواجه، أن يحارب، مع قناعته بالخسارة ثم الهزيمة، لأن المعركة غير متكافئة، ومع ذلك لا يسلّم، دفاعاً عن النفس، إثباتاً لوجودٍ من نوعٍ ما، بغض النظر عن النتائج، لأن في داخله شيئاً يدفعه ويحرضه على المَقاومة.

الآن، في طريق العودة، والقافلة تخبّ في الوصول، وخلال تلك النهارات القصيرة التي لا تكاد تبدأ حتى تنتهي، فإن القلق الأقرب إلى الحيرة، وتلك الأسئلة التي بدأت منذ اللقاء الأول مع الباشا، ثم ما تلا ذلك من لقاءات مع ضباط السراي، وانتهاءً بالغداء الذي يشبه الوداع، وما جرى خلاله، وقبله الحديث الأخير مع الباشا، تتوالد الأسئلة التي لا تخلّف الحيرة وحدها بل والقلق، ولا تخلو من الخوف أيضاً، لأن كلاً منهم يقف، ربما لأول مرة في حياته، عند المفارق الخطرة، التي يترتب على اختيار أي منها نتائج لا يعرف حجمها ومداها.

طلعت بك الذي وُلد وفي حلقه «ماصولة»، كما يقول أترابه، إذ كان يروق له، منذ أن كان طفلاً في محلة باب الشيخ، أن يجمع الصغار لكي يصبح قائداً عليهم، وكانت وسيلته، وربما ميزته، الصافرة التي يعلقها برقبته، إذ عن طريقها يصدر الأوامر بالتحرك والوقوف، ويشير إلى الخطأ أيضاً، لأن الصافرة حين تنطلق بتلك القوة، وتكون طويلة وحادة، فمعنى ذلك أن خطأ وقع، ولا بد أن تتبعه شتيمة، ولكن بالصافرة أيضاً!

طلعت بك الذي ولد هكذا، وبدأ يمارس العسكرية منذ وقت مبكر، لم يتأخر في الوصول إلى المدرسة العسكرية، ثم إلى مدرسة أعلى في اسطنبول. وبعدما شارك في معارك عديدة في القرم واليونان وفي الاحساء، عاد إلى بغداد من جديد ليستقر في محلة باب الشيخ، وليصبح أحد الرموز في المحلة ومن معالمها الثابتة والمستمرة، ولأنه سافر ورأى،

وتعرض للخطر أيضاً، فقد توصل إلى مجموعة من القيم البسيطة، لكن الأساسية: «من اختار العسكرية اختار الموت، وما دام الموت قريباً هكذا فعلى الإنسان أن ينظر إليه وهو يضحك، ولأن الضحك مع المرأة والشراب يخرج من القلب، فلا بد أن نتدرب، هنا، ومبكراً، على ما سيمنحنا الله في جناته من حوريات وأنهار من خمر».

يقول ذلك في لحظات الصفاء، حين يجد لوماً أو عتباً ممن يلومونه على إسرافه في حب النساء والخمر. وفي لحظات الصفاء، إذا لم ينغّص سهراته أحد ولا يتلو عليه الدروس، فإنه لا يتردد في أن يكلم نفسه، وبصوت عالٍ، لا لكي يعطي دروساً لغيره، وإنما ليؤكد ما يعتبره أساسياً وأكثر أهمية في هذه الحياة: «لأن الموت بالمرصاد، ولن يفلت منه أحد. وحين يكون الموت مشغولاً في بعض الأحيان، علينا أن نغافله: أن نختفي، وأن نتخفى، علّه ينسانا بعض الوقت، فإذا تذكرنا، إذا جاء دورنا، نمضي معه دون أسف، وليس في النفس شهوة لأي شيء».

هذه الفلسفة هي التي جعلته لا يتزوج، إذ لا يطيق أن يكون أسير امرأة واحدة، كما لا يطيق أن يكون له أولاد، مما دفعه لأن يعيش كل يوم بيومه، وأن لا ينظر إلى ما مضى بأسف.

كما أن هذه الفلسفة جعلته مزيجاً من الشجاع والمغامر معاً، ولذلك يُقدم دون أن يأبه للنتائج، الأمر الذي دعا الآخرين إلى الالتفات لهذه الصفة فيه، واستغلالها في الكثير من الأحيان. كان يقول عنه الباشا، همساً، إذا جاء ذكره: «طلعت لا يعرف الخوف أبداً، ولولا أن الفم في القسم العلوي من الجسد، لأعطى هذا القسم إجازة دائمة واكتفى بالقسم السفلي» أما الآغا فيقول عنه، ولا يخفي ما في الكلام من تعريض: «شيّم البدوي وخذ عباته».

في اللقاء الأول مع الباشا، تركز الحديث حول محلة باب الشيخ، وحول الدور الذي لعبته في تاريخ هذه المدينة. والباشا إذا بدأ حديثاً مثل هذا يعرف كيف يستثير في القلب أحلاماً غافية، وذكريات تولّد في النفس

حنيناً للأيام التي مضت. يفعل ذلك من خلال الوقائع التي يوردها، الأسماء التي يتردد صداها حتى في الحلم. أما الطفولة والشباب وكيف عُجنا بتراب المحلة ومياهها، وأيام الزيارة والمواكب، ثم الأمجاد التي تحققت فيما بعد، خاصة في مناصرة الذين يجب أن تقف إلى جانبهم، فإن ذلك جزء من تاريخ المحلة الذي يجب أن يستمر معها إلى الأبد.

هكذا أدار الباشا الحديث مع طلعت بك، لم يكتف بذلك، أشار إلى أنه في اليوم الذي يشعر أنه لم يعد مقبولاً بنظر المحلة، أو لم تعد المحلة تريده، فسوف لن يبقى يوماً واحداً والياً، لأنه لا يقبل، بل ويخجل، أن يستمر في الوقت الذي تريد المحلة واحداً غيره!

وطلعت بك الذي حملته الذكريات بعيداً، إذ استعاد أيامه الماضية في المحلة، وعلاقته بالناس والأزقة ورائحة الخبز، وتذكر أشخاصاً كثيرين وأحداثاً حميمة، شعر بتأنيب الضمير أنه يتخلى عن داود باشا، لم يقل ذلك صراحة أو تلميحاً، لكن الارتباك الذي ظهر عليه فضحه، ثم تلعثمه وهو يحاول أن يشارك الباشا ذكرياته، فقد كان خلال ذلك الوقت مشغولاً بقضية واحدة، إذ قال، في لحظة صمت، بشكل مفاجىء، ودون أي تمهيد:

ـ هل النقل عقوبة يا باشا، وهل تغير فكرك بطلعت باقة؟

التقط الباشا الكرة الملتهبة التي تؤرق طلعت والضباط الذين تم استدعاؤهم. خاصة بعد أن قال له عيونه، والذين تحركوا بسرعة، إن الضباط يتوجسون من الاستدعاء ثم من النتائج التي قد تترتب عليه. ولقد أكد له العيون أيضاً، وكان ضمنهم بعض النساء، ان أغلب الضباط مع أنفسهم أكثر مما هم مع الآغا.

الآن، وطلعت بك يطرح السؤال بصيغته البسيطة والعادية، أحس الباشا بالخطأ، إذ كان يفترض أن يستدعي الضباط على دفعات أو من خلال مؤتمر عام، وأن تكون الدعوة محددة الهدف. لو أن ذلك حصل لوفر الباشا على نفسه الشكوك وسوء الظن، خاصة وأن الأجواء تتغير

بسرعة، مما يتطلب الانتباه للقوى التي تتربص به.

قال الباشا، وهو ينظر بمودة إلى عيني طلعت اللتين بدتا حمراوين من الغضب والسهر:

ـ أحمد الله أني سمعت السؤال منك، وأحمده وأشكره لأنك ستسمع الجواب مني، لأني لو سمعت السؤال من غيرك لما كلفت نفسي الجواب، ولأنك ستسمع الجواب من لساني، ومباشرة، فما أظن أنك تشك بما أقوله، أو تفسره خطأ!

وكانت مناسبة لأن يفيض الباشا في الحديث عن قضايا ماضية، ودور طلعت فيها، وكيف أن الثقة التي تملأ قلبه تجاهه لا تعادلها ثقة، وأنه مستعد لأن يبدأ من الصفر، مرة أخرى، كما حصل في مواجهة سعيد باشا، إذا ضمن أن طلعت وعدداً آخر من الضباط معه. أما النقل أو العقوبة، وهو لم يفكر بأي منهما، فيشبه حديث جحا حين أصبح نجاراً، إذ صعد إلى شجرة وأراد أن يقطع غصناً، فركب على ذلك الغصن وأخذ ينشره!

وبجو عاطفي مليء بالدفء، تمكن الباشا ليس فقط أن ينتزع الشكوك، بل أن يكسب، من جديد، ثقة طلعت، وأن يجعله، مثل طفل، يتمنى إرضاءه.

وداود باشا بخبرته، ومعرفته كيف يتعامل مع رجاله، لم يُرد، في هذه المرحلة، أكثر من ذلك، إذ انتقل إلى الحديث عن أحلامه ببناء دولة جديدة، كيف يجب أن تكون، وكيف أن للكثيرين أدواراً. لم يسمّ أحداً، لكنه ابتسم وهو ينظر إلى طلعت، وكأنه يعنيه.

وتركز الحديث، في مرحلته الأخيرة، حول أمرين: القبائل، وما يحتمل أن تخلق من المتاعب؛ وعن مخاوفه أن يستغل الجيران الظروف ليتدخلوا، إذا لم يكن من أجل إسقاطه، فمن أجل خلق الاضطرابات له وإشغاله عن بناء الدولة التي يحلم بها. ولئلا يظن طلعت أن هناك مطالب مباشرة في الشمال الآن، ركز الباشا على موضوع القبائل، وما يجب أن

يتهيأ لمواجهة هذا الخطر، وأنه انتدب عدداً من الضباط العاملين في السراي، والمناطق الوسطى والجنوبية، كي يلتقوا بزملائهم ضباط الشمال، ووضع الخطط المناسبة.

في اجتماعه مع الضباط الآخرين، لم يشر الباشا إلى موضوع النقل، فقد كان على يقين أن طلعت بك أبلغهم بعدم وجود نية من هذا النوع، وإنما ركز على ما يجب عمله لمواجهة القبائل. ولأن الباشا يعرف أغلب هؤلاء الضباط بشكل مباشر، فقد أولى الجوانب الشخصية مساحة غير قليلة، حين تحدث عن ذكريات الشمال، ومعركة الفرات الأعلى. وذكّر أغلبهم بوقائع ومواقف شخصية لهم رسخت في عقله وقلبه. وكان الباشا في لقائه ودوداً، لكن ضمن حدود لم يتجاوزها، كما فعل مع طلعت باقة.

وفي اللقاءات المتعددة مع ضباط السراي احتل موضوع القبائل معظم الوقت، وبدا لكل من حضر تلك اللقاءات، أن لها طابعاً عسكرياً خالصاً، بحيث كانت أقرب إلى اجتماعات الميدان التي يعقدها الضباط لوضع خطة وبدائلها، أو لمراجعة معركة واستخلاص الدروس منها. حتى الأفكار التي راودت عدداً من ضباط كركوك بعقد صلات شخصية، والاستفادة من تلك الصلات في وقت لاحق، لم تجد تلك الأفكار الوقت أو المزاج الملائم، إذ ظلت بحدود ضيقة!

ولأن اللقاءات التي ضمت الضباط وحدهم في بغداد اقتصرت على تبادل الأخبار والمعلومات العامة، فقد قرر الجميع، خاصة طلعت بك، أن يتاح لهم أثناء السفر الوقت الكافي لتبادل الرأي والاتفاق على موقف.

لكن الرأي في مثل هذه القضايا مجهد مكلف، وليس من السهل إبداؤه، أما الموقف، أياً كان، فيرتّب نتائج لا يقوى على تحملها إلا الأقوياء.

ورغم أن لدى طلعت بك والآخرين ما يقولونه قبل الوصول إلى كركوك، إلا أن التهيب، وما يشبه الحرج، أو حتى احتمال الاختلاف، ما جعل الجميع يترددون في فتح الموضوع خلال المرحلة الأولى من السفر.

صحيح أنهم كانوا يتكلمون، ويسرفون في الكلام، لكنهم بهذه الطريقة كانوا يحاولون الهرب، أو على الأقل تأجيل الحديث حول ما يجب أن يتحدثوا فيه.

انقضى يومان، واستراحت القافلة في محطتين، ومع أن الموضوع يخيّم كالثقل على الصدر، أو كالقشّة في العين، فقد تم احتماله أو تجاوزه، وبأعذار يختلقها كل واحد لنفسه؛ أما في اليوم الثالث، وما كادت القافلة تستريح في محطتها الجديدة، حتى أبلغ طلعت بك زملاءه الضباط بأن لديه ما يقوله لهم في هذا المساء، وقبل لقاء الآغا.

ذكر اسم الآغا متعمداً لكي يهيئهم لما سيقوله، لما سيدور في هذا المساء، وكما يحصل في مثل هذه الحالات: الكلمة الأولى هي الأصعب، إنها بمثابة المفتاح الذي يشقّ الصندوق إلى نصفين، يجعله مكشوفاً إلى الحد الأقصى، أو ربما مباحاً.

ما إن بدأ طلعت بك، وقد هيأ جيداً لما سيقوله، حتى اكتشف أن لدى الآخرين أكثر مما لديه: لام الجميع أنفسهم أنهم انساقوا وراء الآغا، وأنهم ضُللوا نتيجة المعلومات الخاطئة والتقدير السيء. وشكر الجميع القدر، وإن بكلمات متفاوتة، ولا تخلو من بدائية، لأنه أتاح لهم الوصول إلى بغداد ولقاء الباشا، وبالتالي انكشاف الحق وسقوط الأباطيل كما قالوا. وتبارى طلعت بك وضباطه في امتداح صفات الباشا وسلوكه وطريقته في الكلام والتصرف، إضافة إلى تفانيه في محاولة بناء دولة قوية، وما يبذله من جهد ووقت في سبيل ذلك. وكيف أن هالات زرق حول عينيه دلالة التعب، في الوقت الذي لا يفكر الآخرون، وكانوا يقصدون الآغا دون تسميته، إلا بأنفسهم، ومن أجل ذلك يمكن أن يحرقوا الأخضر واليابس، دون أن يرفّ لهم جفن، ودون أن يشعروا بالذنب.

قال طلعت بك، في محاولة لأن يخلق جواً من المصالحة:

ـ الله أعلم أن أولاد الحرام وشوشوا الآغا، قالوا له إن الباشا ما يريدك، يغار منك، ويقول عليك كلام مو زين، فانحمق الآغا، وقال لروحه:

اتغدى بيه قبل ما يتعشى بيّ، وصار اللي صار!

ـ ويجوز شغلة نسوان، قال محمود، شغلة روجينا وأمثالها، وباچر إذا وصلته الخلعة والنيشان ووياهم الفرمان، راح يلوم روحه، وياكل أصابعه ندامة!

ـ ولا تنسوا، يا جماعة الخير، أن الآغا بشر، قال أمجد، البشر من أيام آدم ونوح، قتل ومقتول، الواحد يقتل الثاني على اللي تسوى واللي ما تسوى!

قال طلعت بك، وبدا صوته حزيناً:

ـ والمشكلة أن الوالي كل همه أن شلون تصير الولاية أحسن، أقوى؛ وشلون نواجه المشاكل والمصايب، وغيره يفكر غير شكل!

ـ قلبي على قلب ولدي وقلب ولدي على الصخر، هكذا قال نجيب، وهو يترنم، كأنه يغني. وتابع بمرح:

ـ رأيي، يا جماعة، أنْ نسامح، ونقول: عفا الله عما مضى؛ وما دام الباشا راضي على الآغا، وبين يوم والثاني راح يدز له الفرمان، فالمهم هسّه أن نحنّن القلوب على بعضها، ونبدأ من جديد.

ـ هذا اللي راح نسوّيه وهذا اللازم يصير، قال طلعت، فإذا بقي الآغا معاند نقول له نحن ما علينا وما لنا لازم!

ونام الضباط تلك الليلة، وقد شعروا بالراحة لأنهم توصلوا إلى قرار.

وحين واصلوا سيرهم في اليوم التالي، كانت البرودة أقسى من الأيام السابقة، فغرقوا أكثر في ملابسهم الثقيلة، وغرقوا في الصمت.

93

العودة الجماعية للضباط أفزعت الآغا، وجعلته يحار ويضطرب. كيف حصل الأمر، ولماذا؟ هل ندم الباشا ويحاول أن يصلح خطأه؟ هل خاف من ردات الفعل فتراجع؟ ألا يحتمل أن يكون هذا الإجراء مجرد فخ ليوقع به؟

تطايرت الأسئلة والمخاوف حين رأى الضباط يدخلون إلى القلعة. كان الوقت بعد العصر وقبل الغروب. لم يصدق عينيه أول الأمر، لكن الهرج الذي رافق وصولهم، ثم أصوات الترحيب والضحكات العالية. لم تترك له مجالاً للشك. كانت الوجوه في بداية العتمة، ومن تلك المسافة، غير واضحة بالمقدار الكافي، لكن ميّز طلعت باقة، ميّزه بالشكل والهيئة، ثم من حصانه، وكانت وراءه المجموعة تسير بالتتابع، وحسب الرتب.

ما إن توقفت الخيل في الساحة، حتى دخل عليه غايب، وكان بادي الارتباك:

ـ أبشرك. . . سيدي، ضباطنا رجعوا!

ـ كلهم؟

ـ أي نعم، سيدي!

ـ ووجوههم تتكلم؟ تقول فد شي؟

ـ علمي علمك، سيدي، لكن يبين عليهم فرحانين!

وسُمعت الخطوات تتتابع وتقترب، كان الصمت، في الممر الطويل الذي يفضي إلى ديوان الآغا، قوياً شاملاً إلى ما قبل لحظات. أما الآن فلا يُسمع في هذا الصمت سوى وقع الأقدام وهي تتقدم، وكأنها أقدام سَرية

مكلفة بالقبض عليه وسوقه إلى الساحة لكي ينفذ فيه الإعدام. نظر إلى غايب ونظر حواليه، وكأنه تذكر تلك اللحظات حين كان يقطع الممر إلى غرفة سعيد، ثم فاحت رائحة الدم، وانتهى الأمر بسرعة لم يصدقها. حتى الآن، رغم مرور الأيام، لايزال يعجب كيف أنجز تلك المهمة بسرعة خارقة، وبصمت أيضاً. لولا الذهول الذي أخرس نابي خاتون، وجعلها لا تقوى على رفع صوتها لانفضح الأمر، ووقعت معركة. إن ذلك لو حصل: صرخة أو طلقة، لتغيّرت أمور كثيرة!

الصمت الذي يخيم الآن يشبه ذلك الصمت، لكن الفرق أن الرجال الذين يتقدمون الآن هم رجاله، وقد كانوا إلى ما قبل ساعة ضحايا داود، فهل يمكن أن يتحولوا إلى جلادين خلال تلك الفترة القصيرة؟

قالت عيناه، وحركة يده، طالبة من غايب أن يرى، أن يتأكد، ما إن فتح غايب الباب وأطل برأسه، حتى تراجع، وهو يقول:

ـ الجماعة وصلوا، سيدي!

ورغم التحية العسكرية، وقد بادر كل واحد بأدائها، وهو يدخل إلى ديوان الآغا، إلا أن الشوق والرغبة في معرفة ما حصل، هنا وهناك، ثم الأسباب التي دعت إلى عودتهم، هذه الأمور، وغيرها، حوّلت الجو بسرعة إلى لقاء أصدقاء، إذ تراجعت الرتب، وزالت الكلفة، كما أخذت تتطاير الكلمات والتحيات، ومعها الابتسامات، التي سرعان ما تحولت إلى قهقهات عالية.

تظاهر الآغا أنه لم يفاجأ كثيراً، لكنه لم يخفِ عتبه أنه لم يسمع منهم خبراً طوال أربعة شهور وتزيد قليلاً. قال حين بدرت أول فترة صمت:

ـ ترى آني هوايه عتبان عليكم، لأن نشفت حلوقنا وطقت مرارتنا ونحن ننتظر منكم خبر، وأنتو، الله يسلمكم، لا خط، لا طارش ولا كأنه اكو أحد وراكم!

ورد طلعت باقة، وقد حمّل صوته مقداراً كبيراً من المرح:

ـ الحق وياك، سيدي، وأعترف، والجماعة يعترفون، إننا قصّرنا،

لكن . . .

قال الآغا ليبقى مسيطراً:

- هسه مو وقت العتاب، المهم شلونكم؟ شلون بغداد! وشلون الجماعة هناك؟

وتداخلت الأصوات والإجابات، ورغم الجرس العالي والكلمات الكبيرة، إلا أن كل ما قيل لا يعدو أن يكون مجرد تأجيل لما يجب أن يقال. فالآغا لا يريد أن يسأل قبل أن يحيط بالجو، والضباط يخشون، إذا تكلموا، أن تكون لغتهم الآن مختلفة، أو بالأحرى نقيض اللغة التي تكلموا بها حين اجتمعوا مع الآغا آخر مرة قبل السفر.

قال الآغا ليخلق جواً من الثقة:

- العادة أن لا يسألوا الضيف إلا بعد ثلاثة أيام من وصوله، فلاحقين على الأسئلة. وبعدين. . . صار لكم أيام وليالي وأنتم: دي. . . دي. . . دي ماشين بالتشول، ويعلم الله ما ذقتم لقمة زينة ولا بلّيتوا حلوقكم بقطرة من ماء الحياة، فرأي، هسه، تروحوا تغسلوا وتستريحوا فد ساعة. . . ثنتين وبعدها نتلاقى على العشاء ونسولف!

كان الآغا يريد أن يكسب بعض الوقت، لكي يمتص عنصر المفاجأة، وأن يتمالك نفسه، وأيضاً ليعرف اتجاه الريح. قدر أنه لا يمكن أن يصل إلى ذلك إلا بتقصي الأخبار، بالاستفراد ببعض الذين يثق بهم أكثر من غيرهم، بتكليف عناصره لقاء العائدين كل على حدة لمعرفة ما جرى في بغداد.

لقد توصل إلى هذا القرار لأن العيون التي كانت تنظر إليه بدت غريبة، مختلفة عن الفترة السابقة. فيها المرح وشيء من المكر. انه يعرف ذلك من رفة الأجفان، من طريقة الكلام، ومن هذه الثقة التي تنبع من الرضا عن النفس. لم يكن ضباطه هكذا عندما غادروا، كانت عيونهم خابية، وفيها شيء من الانكسار. كانت أصواتهم، رغم الغضب الذي يميزها، تشوبها رنة الخوف، إذ تبدو قصيرة، حادة، ولا تخلو من رجفة، خاصة عند نهاية مقاطع الكلمات.

قال لنفسه، وهو يودعهم ليستريحوا قليلاً قبل أن يلتقوا على العشاء: «السكران الكزلي يبين من حمرة عينه ومن ريحته، وهذول، أولاد الحرام، راحوا بيادة رجعوا فرسان، فلا بد أن داود حسب وضرب وقال لروحه مو اليوم... اللي عقبه، والزمان بينا طويل، لكن ما راح أخليه يتهنّا، ونشوف».

وتراءت له صورة داود من جديد: «يتحمل مثل جمل، يصمت، ينتظر، لكن إذا ظفر بخصمه لايعرف الرحمة، ولا يقبل أية شفاعة».

وعادت الصور تتداعى منذ أن مات سليمان الكبير: كيف ذهب داود إلى البصرة، عازفاً عن أية مشاركة بالسلطة، منصرفاً إلى الدراسة. ثم لما عاد إلى بغداد، تحول إلى مجاورٍ لسيدي عبد القادر، وتغير بملابسه وطعامه وسلوكه، أصبح واحداً من رجال الدين، لكن حين شعر أن ساعته قد جاءت ترك المقام وهجر الدفاتر وعاد كما كان أيام سليمان الكبير: لا يفكر إلا بالسياسة، ولا يعرف غير القوة لتنفيذ ما يريد! وتوهم أنه وصل أو اقترب من الوصول، إلا أن نابي خاتون كانت له بالمرصاد. والمرأة دائماً أقوى، وهكذا هزمته. ولأن لذة السلطة والحكم لم تفارق حلقه، فلم يفعل مثل المرة السابقة: مجاورة سيدي عبد القادر، والغرق في الكتب والدفاتر. ذهب إلى محلة باب الشيخ، جمع من يستطيع جمعه من الرجال والأموال وصعد إلى الجبال، وهكذا بدأ معركته مع سعيد!

مرت هذه الصور والمحطات في ذهن الآغا، قال بصوت عالٍ، وهو ينظر إلى المرآة، وقد أمن أنه الوحيد في الغرفة:

- لا يمكن للواحد أن يصير والياً وحاكماً، إلا مرة واحدة في العمر، في تلك المرة إمّا أن يقبض على الولاية بأسنانه، ويبقى إلى أن يموت، أو أن يصلب ويعلق على شجرة أو يدخل فيه الخازوق!

وعاد ليفكر بداود: «كان بإمكانه أن يتقدم وأن يتراجع قبل أن يصير والياً، أما بعد أن أصبح الوالي، ويريد أن يبقى في الولاية إلى أن يموت، فلا يمكن أن يتراجع، سيبقى يتقدم إلى الأمام. وفي محطة من محطات

الطريق لا بد من القضاء عليه، بالقتل، بالسم، بالخديعة أو بالبلطة التي لا تحز الرقبة فقط، بل وتقطعها بضربة واحدة». وهز الأغا يده في الفضاء، كانت اليد كبيرة، سميكة، وقوية أيضاً، قال للمرآة بمرح:

ـ ورقبته تختلف عن رقبة سعيد: رقبة سعيد ثخينة، مليئة بالشحم والقوة والشباب، أما رقبة داود فإنها أشبه برقبة اللقلق: طويلة، مخشّبة، والضربة زائدة عليها.

وغايب وحامد اللذان كانا يتحركان مثل الفراشات التائهة، بعد أن اوعز إليهما الآغا بترتيب كل شيء، وقد ابتسم بطريقة معينة، وهو يوجه إليهما الأوامر، بدءاً من التحضير والإشراف على العشاء، وانتهاء بضرورة التحرك واستراق السمع ومعرفة الأخبار، فقد استمرا يتنقلان بين الأبهاء وأجنحة الضباط، والتردد على ديوان الآغا.

لم يكن الآغا يريد أخباراً سريعة، الأكثر أهمية أن يعرف المناخ العام، أن يتحرى ما إذا الضباط لا يزالون على ولائهم له، يحبونه، أو بكلمة أدقّ: رجاله، أم أن رحلة بغداد غيّرتهم، جعلتهم بشراً مختلفين، ولا بد أن يحتاط ويحذر، إلى أن تأتيه الأخبار من بغداد؟ ناهي زبانه سيكتب إليه، سيكتب بوضوح وتحديد، وخلال فترة قصيرة، بعد أن خذله هؤلاء الرجال. وسوف تأتيه الأخبار من مصادر أخرى، وما يعتبر اليوم سراً سوف ينكشف، سوف يُعرف بعد أيام!

قال له حامد، وقال له غايب، أشياء سريعة، أخباراً التقطوها من أفواه الحرس والمرافقين، لكن الآغا، في هذه المرحلة لم يكن مستعداً لأن يرهق نفسه، لأن ينشغل بالأخبار الصغيرة. إنها لا تعني شيئاً مهماً، على الأقل الآن، وقد تشوشه أكثر مما تفيده، قال لحامد بحدة، وكان غايب يسمع:

ـ لا تخبص حالك وتخبصنا وياك، قال فلان وسمعت فلان شي، هذي كلها لاحقين عليها، المهم هسه نعرف شلون نفرزن الصدق من الكذب، منو بعده ويانا ومنو اللي عبر الشط لذاك الصوب!

ولئلا يساء فهم كلامه، أضاف:

ـ الليلة، ويجوز باچر واللي عقبه، ما أريد أخبار أبد، لأنْ اللي انتظر شهور وأيام يقدر ينتظر كم يوم زايد، فخلونا هسه نشوف دربنا!

ومر يوم ثانٍ والآغا لا يبدي اهتماماً لسماع ما جرى في بغداد، طلعت باقة الذي أراد وقتاً ملائماً ليتحدث في الموضوع، وجد أن الآغا لا يرغب، أو بالأحرى يشغل نفسه. ويشغل الآخرين بأمور مختلفة.

في اليوم الثالث التقى، هو وطلعت، منفردين:

ـ ما أريد أخفي عليك، سيدي، آني رحت لبغداد براي، وردّيت من هناك براي ثاني.

هكذا بدأ طلعت، وقد شاب صوته التأثر. وأضاف، وكانت عيناه تهربان من عيني الآغا:

ـ وإذا حسيت بالغيرة فد يوم من الأيام، فما تتصور شقد غرت لمّا الباشا صار يتكلم عنك . . .

ابتسم طلعت باقة وهو يحاول أن يتذكر:

ـ وأصلاً ما يحلف إلا براس الآغا، وماكو عنده بالدنيا أغلى من الآغا، وما أدري شلون قادر على فراقك!

الآغا يتطلع إليه، رسم ابتسامة وقورة على شفتيه. لا يعرف هل يصدق الكلام الذي يسمعه، أم أن شخصاً آخر غير طلعت هو الذي يتكلّم. ماذا جرى للرجل؟ كيف حصل هذا الانقلاب وبهذه السرعة؟ ولئلا يقطع الطريق على نفسه، سأله:

ـ أي . . . وشنو بعد؟

ـ وحلف براس يوسف أنه لو كان عنده بنيّة بعمر الزواج ما يتزوجها إلا الآغا . . .

وخلال ساعتين أو أكثر لم يترك طلعت قضية اعتبرها هامة إلا وحدّث الآغا عنها. كان يتحدث بانفعال، بتدفق، وكيف أن الباشا أشاد بكفاءاته، بجرأته، بانتصاراته، وانه يشعر بحزن لا يمكن أن يخفيه لبُعد بعض رجاله عنه، وكان يقصد الآغا تحديداً «لكن الشمال يحتاج إلى رجال كالأسود:

شجعان ومجربين، يخافهم القريب والبعيد، وبمجرد أن تُذكر أسماؤهم يدخل الرعب إلى قلوب الأعداء، وهذا ما استدعى اتخاذ قرارات صعبة وبقاء بعض القادة خارج بغداد».

ظل الآغا يسمع، ولا يكاد يسأل، إذ بهذه الطريقة يمكن أن يفهم كيف حصلت الأمور، وما قد تؤدي إليه. أما لو تدخل، وأشار إلى عيوب داود، أو طريقته في التصرف مع الخصوم، فقد يجفل طلعت، وربما تصدى للدفاع عنه، الأمر الذي قد يفتح معركة قبل الأوان. كان يستمع، يهز رأسه، يتذكر، يتساءل، يحاول أن يبتسم، ويحس في نفس الوقت أن جروحاً في داخله تنزف، وأنه فقد الصلة مع أقرب الناس إليه. فها هو طلعت باقة الذي لم يفارقه طوال السنوات الماضية، وكان يحاول أن يقلده في كل شيء: طريقة الكلام، الملابس، وحتى الشتائم، ما إن غاب عنه بضعة شهور حتى تغير، أصبح إنساناً آخر. قال لنفسه، وقد خيم الصمت للحظات: «داود ساحر ولا يبطل سحره إلا السيف».

وطلعت الذي تحدث وأفاض في الحديث، كان يخبىء أهم مفاجآته إلى الأخير، إذ ما كاد يجد أن الوقت قد حان، حتى قال، وبطريقة احتفالية:

ـ . . . وكان يتمنى لو أنك في بغداد لينعم عليك بالنيشان الأسمى، وبفرمان الترقية، وكنت أتمنى لو أحمل إليك، على الأقل، الخلعة، لكنه قال: كل شيء سيصل للآغا بالطريقة التي تليق بمقامه. . .

وتغيرت اللهجة، أصبحت مرحة، وهو يضيف:

ـ ولا تستغرب، سيدي، أن يصل الكيخيا بين يوم وثاني ليحمل إليك النيشان والخلعة والفرمان!

ـ ينعم الله عليه ويكثر من أمثاله!

هكذا رد الآغا، وكان صوته بارداً محايداً، وتابع بنبرة جديدة ذات وجهين:

ـ منو إلنا غيره يا معوّد، إنشاء الله نقدر نجازيه!

وسمع الآغا من الضباط الآخرين تفاصيل عديدة، وان تركّز أكثرها

حول الخطط التي تمت مناقشتها لمواجهة البدو في الفرات الأوسط، وكيف أن الباشا ينتظر الوقت المناسب، ولا بد أن يكون عقب فيضان الأنهار وقبل دخول الصيف، وأن الانتصار في الفرات الأوسط سيعقب توطين البدو في أكثر المناطق، وبالتالي تتغير الأوضاع في كل أنحاء البلاد!

ولأن الآغا لم يشأ أن يناقش هذه الأمور، فقد اكتفى بالاستماع وبأسئلة جانبية حول إقامتهم في بغداد، وعن الأسعار وتوفر المواد. وسأل أيضاً عن جو السراي وما إذا حصل تغير في مراسيم الاستقبال وملابس الحرس. ولم ينس السؤال عمّا إذا قضوا فترة ممتعة في بغداد. قال الكلمات الأخيرة وابتسم، وقد فهمت كلماته ما إذا تسنى لهم زيارة زوجينا أو رؤية البنات اللواتي كن معها. وإذا اكتفى الضباط بنظرات تبادلوها، فقد عادوا للتأكيد من جديد أن معظم الوقت انقضى في دراسة الخطط، ولم تتح لهم الفرصة حتى لزيارة الأصدقاء وبعض الأهل!

لم يعش الآغا فترة قاسية مريرة كما هي الآن. لقد تداخلت الأمور واختلطت إلى درجة لا يعرف كيف يتصرف، أو ماذا يجب أن يفعل. صحيح أنه أخذ بترتيب أوضاعه العسكرية وكأن هؤلاء الضباط لم يعودوا معه. لكن أن يتحولوا ضده، أن يكونوا مع داود، فهذا شيء لا يحتمل مجرد تصوره أو وقوعه. لقد كان إلى قبل شهور قليلة يحاول التغلب على غضبهم وردات أفعالهم، لأن بعضهم فكر برفض الانصياع لأوامر الاستدعاء، وطالب أكثرهم بإعلان العصيان على داود، وظل يبذل جهده ويحاول إقناعهم، «لأن ساعة التحرك يجب أن نحددها بأنفسنا لا أن يفرضها علينا داود»، إلى أن اتفقوا على صيغة للتحرك والعصيان، حتى لو نُقلوا بطريقة تتلاءم والتحرك العام الذي سيقوده الآغا في الوقت المناسب.

وتذكر الآغا الأيام الصعبة التي عاشها، بعد أن أصدر الوالي سعيد حكماً بإعدامه، وكيف تدخل الباليوز لتخفيف الحكم، ثم هربه إلى كرمنشاه. وكيف مرت عليه فترة ظن خلالها أن كل شيء انتهى، وعليه أن يفكر بطريقة مختلفة عن السابق، كأن يعيش مثل أي إنسان عادي، دون أن

يفكر بالعسكرية أو السلطة. ولكن الأيام لا تتوقف أبداً، إنها تواصل دورانها، وتوزع الفرص والحظوظ، وعلى الإنسان الذكي أن يدرك اللحظة المناسبة كي يتحرك، كي يغادر موقعه السابق، ويلتحق بصيغة قد لا تبدو أول الأمر براقة أو مشجعة، لكن حدساً داخلياً يدفعه لأن يواصل. وهكذا تتآلف الأشياء، تلتقي، حيث لم يكن أحد يقدر ذلك من قبل، وبهذه الطريقة تكتمل الحلقة ويواتي الحظ، وهذا ما حصل معه حين التحق بداود، ودخلا معاً إلى بغداد.

وعاد يتذكر كيف انتقم من سعيد، لم يدع أحداً ليقوم بهذه المهمة، كان يريد أن يشفي غليله، أن يقول لسعيد، حتى بلا كلمات، بلا صوت، من هو الآغا! التقت النظرات لثوان قليلة، لكنها كانت كافية ليدرك سعيد من هو الآغا، وكيف أنه قادر على الانتقام!

لا يريد أن يبدّد الآن ما راكمه وجمعه خلال الفترة الماضية كلها. يجب أن يكون أذكى من داود وأشد مكراً، ليوقعه، ليتغلب عليه. قد لا يقتله مثلما قتل سعيد، لكنه سيضعه في إحدى التكايا ليقضي ما تبقى له من عمر هناك. لن يدعه يفلت كما أفلت من سعيد، ولن يدع أحداً يراه. ليناجي ربه قدر ما يشتهي، قدر ما يستطيع لكن لن يمكّنه من الاتصال بأحد!

لما تداخلت الأمور إلى هذه الدرجة، ولئلا يتخذ الآغا قراراً يندم عليه فيما بعد، أعطى نفسه فرصة إضافية للتفكير، لإعادة ترتيب الأوراق، وأيضاً من أجل الاتصال مع كرمنشاه والتشاور حول ما يجب عمله ومتى.

قال لنفسه، وهو يزفر بهم: «صارت القضية ينراد لها صفنة، لأن أي خطأ بيه كسران رقبة، ولأن بعد الغرق ما يفيد القياس».

تطلع إلى المرآة، وجد ملامح وجهه مشدودة، أقرب إلى القسوة، ربما دلالة الهم والتفكير معاً، قال بمرح، في محاولة لأن يخرج من هذا الجو:

ـ قلنا: فكر زين، بس لا تصفن صفنة زمال، وتحرق الأول والتالي، إفتهمت لو أكرر؟

نهض وهو يبتسم، وقد قرر أن يشهد آخر سباق للخيل في هذا الموسم.

94

ما إن أصبحت الطرق بين بغداد وكركوك سالكة، بعد أن توقفت الأمطار الغزيرة عن الهطول، حتى أمر الباشا بتجهيز موكب على رأسه كيخياه، يحيى بك، للسفر إلى الشمال، لتفقد هذا الجزء من الولاية، ولتقليد الآغا النيشان الكبير، تقديراً لخدماته!

كان الحرص شديداً كي يأخذ موكب الكيخيا مظهراً كبيراً مهيباً إلى أقصى حد، إذ أراد الباشا أن يُبلّغ من خلاله قوة الدولة وما وصلت إليه من إمكانية وجبروت، لذلك منح نائبه صلاحيات كبيرة، وزَوّده بالمال والخيول والهدايا. كما طلب منه أن يتوقف في محطات الطريق الرئيسية، وفي كل مدينة كبيرة يمر فيها، ليرى الناس بأعينهم قوة الدولة، وكيف أنها قادرة على أن تمنح وأن تمنع، من يواليها يحصل على الكثير، ومن يعاديها يلحق به الكثير، لذلك على يحيى بك أن يتصرف بطريقة تقول ما هي الدولة.

ولئلا تُترك الأمور للصدف أو للاجتهاد، طلب الباشا استدعاء ناطق أفندي:

ـ . . . وأريدك، يا ناطق أفندي، تخلي حتى الولد ببطن أمه يحس شنو هي الدولة. . . ومنو هو الوالي داود!

ابتسم قليلاً، لكي يزيل أو يخفف من خوف ناطق، وتابع:

ـ وهيبة الدولة، مثل ما تعرف، يا ناطق أفندي، خد وعين، نوبة تظهر وينشاف كل شي، والثانية تعبر مثل برق السما، حتى الأول ما ينسى اللي

شافه، وحتى الخيال يظل يشتغل بقلب الثاني. بالليل وبالنهار!

وناطق أفندي الذي سمع، ورغم وضوح كلمات الباشا، لا يعرف كيف يمكن تجسيد هذه الطلبات. فما لم يقله لسانه قالته العينان، لاحظ الباشا ذلك، سأله بمداعبة.

ـ ها... ناطق أفندي، افتهمنا لو نعيد؟

ـ مفهوم باشا، وما يصير إلا اللي يرضيكم، سيدي.

ـ وهذي ينراد لها فلوس، مو هالشكل؟

بليا فلوس، باشا، كل شي ما يصير!

ـ وشلونك إنت ومگدي اليهود؟

تطلع ناطق أفندي بعينين متسائلتين إلى الباشا، وظهرت ابتسامة تقع بين الود والتساؤل. تابع الباشا:

ـ ما عرفت منو هو مگدي اليهود؟

ـ...

ـ نادر، نادر أفندي قندقجي، لو أنت وياه موخوش؟

ـ نادر أفندي، يا باشا، يخاف من رد السلام، لأن بباله ورا كل سلام جرّ فلوس، ولهذا السبب يقول: ما أريد من أحد حتى المرحبا!

ـ زين... زين، الفلوس خلف يتكفل بيها، بس أريدك أنت تتكفل كل شي بالسفرة: شوكت الكيخيا يقوم، وشوكت يقعد. المن يستقبل قبل اللاخ، شنو اللازم يتسوى اليوم وثاني يوم. متى تعرض الخيول. متى تقدم الهدايا، لأن الناس بعيونهم يفتهمون ويقتنعون. ولهذا السبب لازم كل شي يكون محسوب ومعلوم، أفتهمت كلامي؟

مرت صور كثيرة في مخيلة ناطق أفندي، ولأنها بهذا المقدار فقد شعر بالرهبة، قال وخرجت كلماته مضطربة:

ـ أريد فد أسبوع، يا باشا، حتى أضع خطة الحركة، وأريد كوكبة للطليعة، وهذي تكون قبل الموكب، حتى نتحضر زين. وتعرّف الأوادم اللي راح نلقاهم.

وأوعز الباشا بأن تتحرك «كوكبة المقدمة» قبل ثلاثة أيام من الموكب. كما قام التاتار بإبلاغ كل نقطة على الطريق بقرب قدوم الموكب، وضرورة الاستعداد للقائه. وفي حديقة السراي المطلة على دجلة، كان الاجتماع الأخير بين الوالي ونائبه، وقد قام الباشا بإعطاء آخر توصياته:

ـ . . . وهذول البدو، وأنت تعرفهم كلش زين، نفسهم حامضة. الكلمة بالنسبة لهم تعني الكثير، فطوّل بالكم عليهم، إسمع منهم، إسمع الكثير، وهذا يفرّحهم، ودائماً اسألهم ولا تعلّمهم، لأن الواحد منهم يظن روحه لقمان زمانه. . . ويجوز أعلم. . .

وبعد قليل: وبهذه الديرة أكثر من أي مكان: الجماعة ينتخون، ويتشيمون، فإذا تريد تكرم واحد تنظر لعيونه وتبتسم، وتخاطبه باسمه: يا أبو فلان.

هز رأسه أكثر من مرة وكأنه يتذكر:

ـ أما الخيول بالنسبة لهم فهي مثل أولادهم وأعز، ولازم تعرف هذي الخيول من أي صلب، من هي الأم ومن هو الأب. وإذا أهديت أحدهم فرس أو حصان تعرف شلون تختار، وتتأكد أن هذا اللي أعطيته كان يتمنى هذه العطية.

شرب مقداراً كبيراً من عصير التوت، الذي يفضله، وتابع، فبدا صوته مختلفاً:

ـ وطلبت من الجماعة بالسراي أن يخصصوا لك عدداً من الخيول، ومعها سواسها، ومعك وقت طويل تعرف أحسابها وأنسابها، وقلت لجاسر الروضان يكون قريباً منك، وهذا بالخيل مثل مالك بالخمر، يعرف كل شي عنها. وقلت لكوكبة المقدمة أن يوافوك بالمعلومات كل يوم بيومه، وتتشاور مع الجماعة: أي حصان يقدم لفلان، وأي حصان يقدم لفليتان!

وتغيرت اللهجة مرة أخرى:

ـ وتعرف يا يحيى بك: الشمال مثل كورة الزنابير، ومثل سوق هرج،

كل واحد ناصب للثاني نوجة، وكل واحد يريد يبيع ويشتري قبل غيره، حتى يحصّل أكثر من غيره، ونحن، بهذي الأيام لا نريد نبيع ولا نريد نشتري،

وبدا ما يشبه القلق في صوت الباشا، وفي ملامحه، وهو ينقر على طرف الكرسي الذي يجلس عليه، ويريد من نائبه أن يدرك بعمق ما ينتظره من مصاعب:

ـ والآغوات، وهذا راح تشوفه بنفسك، ينقسمون إلى قسمين: جماعة ينحطّون ببطن العين، خوش أوادم، يخافون الله، ويعرفون الرحمة والشفقة؛ وجماعة يسرقون الكحل من العين، الواحد منهم يريد المال ولو من إبليس، وما يفكر إلا باليوم العايش فيه، وهذول يتكلمون بلسان العصفور: يشقشقون، يضخكون وما تريده بالكلام يصير، لكن إذا درت ظهرك: هذا حدنا وياك، ينسون ما قالوه من كلام، ويدورون على من يدفع أكثر!

في لحظة ما أحس الباشا أن كلاماً كهذا لا يقال لواحد مثل يحيى بك، إذ بالإضافة إلى موقعه، فقد خبر الحياة، وعرف الكثير. صحيح أنه لم يمكث طويلاً في الشمال، لكنه اهتم بعدد غير قليل من الآغوات، وعرف طبائعهم ومشاكلهم، كما عرف الظروف والعوامل التي تؤثر بهذه المنطقة. قال، وقد لاحظ جو الصمت الذي خيم فجأة:

ـ أكثر اللي تقوله ببالي يا باشا، ودائماً أقول لروحي: مثل أهل الشمال بالدنيا كلها ما تلقى: ناس طيبين، على باب الله، عندهم نخوة وسباع، وبالشغل مشغولين، لكن حظهم مو زين، والحق مو عليهم، الحق على الآغوات وبغداد، فلو كان آغواتهم غير آغوات، ولو بغداد غير شكل، كانت الدنيا بألف خير.

كان الباشا ينظر إليه ويهز رأسه، ولا تُعرف هذه الهزات إن كانت موافقة وتأييداً أم شيئاً آخر، ولئلا يساء فهم الكلمات الأخيرة التي قالها، أضاف يحيى بك بسرعة:

ـ بغداد من أيام أبو ليلة، واللي جوا بعده، وحتى أيام المرحوم سليمان الكبير، وإلى أيامنا هذي، ما تتذكر الشمال إلا: دزوا لنا ألف خيال؛ صار عليكم هالقد ألف كيس مال متأخر؛ حضّروا حالكم لفلان شي...

وتغيرت النبرة، صارت قاسية:

ـ وإذا بغداد ما تذكرت هم يذكرون بحالهم: ما نريد. ما ندفع. مالكم شغل بينا، وبعدها يعلنون العصيان، وتعال أخلص: إما ما تقدر توصلهم أو إذا وصلت: انهزموا، عبروا الجبل، وطفروا النهر، وهناك ينتظرون، حتى تدير وجهك، أو يجي البرد، ورجعوا نوبة ثانية، ورجعت المشاكل من جديد!

قال داود بلهجة أبوية:

ـ ما قلته، يا يحيى بك، حقيقة، والعاقل لازم يواجه الحقيقة في يوم من الأيام، وأنا ببالي هذي المسألة، ولازم نحلها في يوم ما هو بعيد، لكن البدو، والناس وراء الحدود، من هذه الجهة ومن الجهة الثانية، ما تركوا لنا فرصة...

كاد يتابع، لكن يحيى بك قال بطريقة فخمة:

ـ وآني، إنشاء الله، بهذه الزيارة، أتعرف أكثر، أسأل وأتقصى، وبرجعتي أبسط قدامك الكبيرة والزغيرة، وبعدها الله يقدرك على فعل الخير!

ـ فعل الخير فرض عين، وما هو فرض كفاية يا يحيى بك، وبقدر ما مطلوب مني مطلوب من غيري. صحيح أن الوالي مسؤوليته أكبر، لكن الوالي بلا رجاله ومساعديه، بلا الناس العقلاء والموثوقين، ما يقدر يحل كل المشاكل.

بعد قليل، وبعد أن شرب ما بقي في كأسه من شراب التوت، وكأنه أراد أن يمنح نفسه فسحة من الوقت، أضاف. وهو يبتسم:

ـ المهم في هذا الوقت، يا يحيى بك، أن تكون بغداد هي المرجع، وهي صاحبة الشور والقول، وأية قضية لها حل مع بغداد، لأن بدون بغداد

لا يمكن الوصول إلى نتيجة. والشي الثاني: لازم العقلاء، هنا وهناك، يعرفون أن من يبيع مرة يبيع كل مرة، فكل ما نريده الوقت، أي نعم الوقت وحسن النية.

رد يحيى بك، وكان نزقاً:

- لكن الجماعة هناك، يا باشا، ملوّعين، سمعوا هوايه، لكن قبض ماكو!

- مو بس وحدهم الملوعين. منو ما تلوّع؟ منو ما طلعت روحه ألف مرة؟

أخذ الباشا نفساً عميقاً، ونادى، كان فيروز يقف في الزاوية البعيدة، وعيناه تنتظران إشارة من الباشا، ومثل البرق أصبح بين يديه:

- هنا بالسراي، ومن أيام المرحوم سليمان الكبير: إذا راح الشربت تجي القهوة، وإذا راحت القهوة يجي الشاي، حتى الواحد يقول: بس؛ فشنو لازم نگدي، نطلب بلساناتنا القهوة والشاي والشربت؟

- اللي تريده حاضر، باشا، بس أنت أؤمر!

- ها. . . يحيى بك، شنشرب؟

- اللي تأمره، باشا.

- هاتوا شربت وهاتوا قهوة!

كانت هذه الاستراحة القصيرة كي يستجمع الباشا نفسه، وكي يقول ما يجب قوله الآن، ومن أجل هذه الرحلة تحديداً. قال ليخلق جواً جديداً:

- إذا الله مدّ بعمرنا، وأعطانا الصحة والعافية، وإذا أولاد الحلال أعطونا الفرصة والوقت الكافي، وما دام الشمال بجهودك، وبتوفيق من الله، راح يخلص من المشاكل، فما تمر سنة والثانية إلا ونشوف عراق غير شكل!

- شكراً على الثقة يا باشا، والله يقدّرنا. . .

وبعد قليل، وقد شعر بالعبء:

- روحة الشمال، يا باشا، استطلاعية، رحلة تعرّف، وإذا عدنا

بالسلامة، إنشاء الله، الصورة تكون أكمل وأوضح. أحط بين أيديكم كل المعلومات وأنتم تقررون!

ـ ولازم تعرف، يا يحيى بك، انت بهذي الرحلة: الوالي والولاية، أنت الحاكم الناهي، وماكو أحد أكبر منك...

ابتسم، هز رأسه عدة مرات، وأضاف:

ـ يعني أنت الأول والأكبر، أنت من تمنح النيشان في كركوك، ولا حاجة لأن أقول أكثر!

نادر أفندي، مثل عادته، عندما توالت عليه الطلبات، سقط مريضاً. فإذا كان للحرب ما يبررها، ويضطر للصرف بعد المماطلة والتأجيل، ومحاولة اختصار بعض التكاليف، لأن الغنائم ستردّ عليه أضعاف ما دفع، فإن هذه الزيارات، بالإضافة إلى عدم جدواها، ترتب أعباء لا يقرها عقل ولا يقبل بها صاحب ضمير، كما يقول، ولذلك فإن رفضه يكون صارماً، ومزاجه يكون حاداً. فإذا لم يستطع منع هذا «الجنون» من خلال الرفض، فإنه يلجأ إلى الغياب، إذ يغادر السراي لأسباب واهية أو يحبس نفسه في غرفته لا يغادرها، ولا يجيب على النداءات أو على طرق الباب، وقد مرض فعلاً!

الوحيد الذي يعرف كيف يتعامل مع نادر حين يبلغ هذه الحالة: خلف. يقف في مواجهة غرفة نادر، وبعد ثلاث طرقات، بإيقاع معين، وقد اتفقا عليها، وهذه كافية في الأحوال العادية لأن يفتح الباب، في الوقت الذي يتعب الآخرون من الدق والنداء دون أن يحفل نادر، أو أن يكلف نفسه مجرد معرفة الذي يقف على بابه، لأنه على يقين أن لا أحد يريد أن يزوره، أن يتجاذب معه أطراف الحديث، ناهيك عن الاطمئنان على صحته، بل كل واحد يطالب بالمال، ولكل واحد أسبابه، ولديه الحجة أو السند بطلب المال. ونادر يكون في حالة من الفرح، وقد يصل الفرح إلى حدود الغبطة، عندما يرغم الآخرين على تأجيل المطالبة أو نسيان الديون!

في الأحوال العادية، تكفي طرقات خَلَفْ المنغّمة لأن يفتح الباب، أما عندما يحس أن الطلبات تزايدت أو بلغت حداً كبيراً، فإن الطرقات لا تجدي، ويحاول خلف بصبر ومداعبة أن تبقى الصلات بينهما ودية، قدر الإمكان، فيمهله، لكي يفسح له المجال أن يفكر بهدوء، بروية، وبالتالي أن يدفع ما أمر به الباشا. فإذا جاءه المرة الثالثة، الأخيرة، ولم يفتح بعد تلك الطرقات، يضع خلف فمه في فتحة الباب الصغيرة ويصيح:

ـ من خلف إلى نادر، وخلف ما هو خلف، خلف اللي دزه الباشا. . .

يستريح قليلاً، ويتابع بصوت جديد، ولا يخلو من حدة:

ـ إعلم يا نادر أنه ما على الرسول إلا البلاغ، فإذا ما انفتح الباب راح يتصخم وجهك، وأُعذِر من أنذَر. . .

يظهر في إطار الباب وجه غير حليق، شديد الانهاك، والهالات الزرق حول العينين. وكل من يرى نادر في تلك الحالة يشعر نحوه بالشفقة فعلامات الإعياء واضحة، وربما يكون مريضاً فعلاً، خاصة حين يخرج الصوت ضعيفاً مسكيناً:

ـ ليش ما تخلوني أموت وأخلص، عيني خلف، لو تردون تحرموني حتى من راحة الموت؟

يبتسم خلف، يضحك، وبعض الأحيان يقهقه، كصيغة للمواساة، وبعد أن يتملى وجه نادر أفندي، يقول له بغلّ:

ـ لك ما تصير آدمي؟ ما تبطل هالمكسرات؟

ـ ما تشوفني وجعان، دادا خلف، ما تقول خطيّة؟

ـ موتة أبوي، لأنك أنت تحب ترزّل روحك، وما تجي إلا بالعصا!

ـ هاي آخرة الخبز والملح. . . خلف؟

ـ عاب هالخبز اللي أكلناه سوية، لأن ما بيه ملح!

ـ وهسه. . . شتريد مني؟

ـ لنفسي، كل شي ما أريد، مسامحك بالأول والتالي، لكن سوّدت وجوهنا قدام الباشا: كل دقيقة يسأل: وينو نادر؟ خلّص اللي طلبناه منه؟

كل شي تمام مثل ما ردنا؟

وتتغير لهجة خلف:

ـ وما دام أولها وتاليها راح تدفع، فليش ما تجي بالهلا والمرحبا بدل الكفخة وجرّة الأذن؟

ـ أنت توافق على كل هذي الطلبات اللي ما يقبلها عقل، دادا خلف؟

ـ لك أنت دافع من جيبك فد شي؟ إدفع وما عليك!

ـ قلبي ما ينطيني، عيني خلف...

وحين يبتسم خلف هزءاً وسخرية، يتابع نادر، وتكاد تخنقه العبرة:

ـ بالقرعان ما أقدر. أتمرض، أسخّن، أموت، تريدني، أموت؟ هاي الله يقبلها؟ أنت تقبلها؟

يزفر خلف بغضب. يتطلع إليه ملياً، وتخرج الكلمات أقرب إلى شتائم:

ـ لك مية نوبة قلت لك: تشاقى ويّا كل الناس، ويّا الباشا لا تشاقى...

وتتغير النبرة، تصبح ناصحة:

ـ شلون الله يقول كن فيكون، هالشكل الباشا، ماكو أحد يقدر يقول له لا، ماكو أحد يقدر يقول أقبل وما أقبل...

وتتغير النبرة مرة أخرى:

ـ وأنت، يا نادر أفندي، مو جديد بهالشغلة، وتعرف الباشا كلش زين، فليش تريد ترزّل حالك: تتمرض، تغيب من الوجه، ما تريد تشوف أحد، وبعدين تزوّع الأول والتالي، وهمين تاخذ تمني؟ ما تفهمني؟ ما تقول لي ليش هالشكل تسوي؟

ـ وهسه... شنو لازم أسوي؟ شنو المطلوب؟

ـ عندك من هسه للظهر، القايمة اللي وصلتك من ديوان الباشا تكون حاضرة لآخر بارة!

ـ راح أسوي اللي الله يقدّرني عليه، بس أريد موافقة عزرا أفندي،

أريده يكون كفيل!

ـ رجعت حليمة لعوايدها. . . ؟

وبغضب أقرب إلى الحقد، أضاف خلف:

ـ يا معود، يا ابن الأوادم، لا تخليني أقول عليك كلام تزعل منه. وبعدين تنلاص بيني وبينك.

ـ زين. . . زين من هسه للظهر تنقلب ألف عمامة!

ـ الحق عليّ، آني أبو العقلين، احچي ويّا أوادم عبالي يفتهمون، يقدّرون، لكن. . .

استدار خلف، تاركاً في إطار الباب شبحاً لا يقوى على الدخول، ولا على الخروج، قال وهو يتحرك:

ـ إذا قال الله أكبر، وما جيت على رجليك للديوان فلا تلوم إلا نفسك!

قبل الظهر بقليل، كان نادر أفندي يمشي وراء عزرا، وهما يدلفان إلى ديوان الباشا. كانت الأنظار مركزة، بالدرجة الأساسية، على نادر، بعد أن عُرف كيف ادعى المرض، وغاب عن الأنظار خلال الأيام الماضية، في محاولة لأن يختصر جزءاً من القائمة التي وصلته من ديوان الباشا، وكانت تلك القائمة تحمل الختم والتوقيع، وقد سلمها خلف بنفسه.

كان نادر أفندي أصفر الوجه، يمشي كحزمة حطب رخوة، عيناه تحاولان تجنب نظرات الآخرين، ويداه تحملان كيساً كبيراً من الخام الخشن.

ما إن أبلغ الديوان أن عزرا أفندي يود رؤية الباشا، وخلال دقائق الانتظار، وحين قيل لعزرا أن الباشا بانتظاره، سلّم نادر أفندي الكيس إلى خلف، واستدار عائداً إلى الجزء الآخر من السراي!

خلال اللقاء القصير الذي تم بين الباشا وعزرا، كان الحديث يدور، بعد أن أشير لتأمين كافة طلبات الديوان، حول ضرورة أن يرافق موكب الشمال عزرا أفندي، أو أحد كبار مساعديه، ليحصّل الضرائب المتأخرة المستحقة على هذه المنطقة، خاصة وأن اسطنبول بعثت عدة رسائل تطالب

فيها بضرورة دفع ما يستحق لها قبل انتهاء السنة، وأن التجار الذين تتعامل معهم بغداد في مقر السلطنة رفضوا الدفع ما لم يتم التحويل الرسمي.

كان الباشا حاسماً في رفضه لاقتراحات عزرا. ولئلا يغضبه، قال وهو يودعه:

ـ ومثل ما تعرف، يا أبو يوسف، بالعرس الناس يهنون، وبالعزا الناس يعزون، وعرس وعزا ما يجتمعون سوا...

وطبطب على كتفه، وكان يبتسم، وأضاف:

ـ وبعدين نريد لروحتك هرجة ولازم كل الناس تدري أن عزرا أفندي جايهم. أما إذا رحت مع يحيى بك فما راح ينعرف عرس أو عزا، واللي عندهم فلوس مثل الطير النكري، قبل ما توصلهم، توصلهم الأخبار وينهزمون!

وقبل أن ينتصف نيسان تحركت «كوكبة المقدمة»، وبعد ثلاثة أيام بدأ الموكب مسيرته نحو الشمال، وكان أشد الناس قلقاً في هذا الموكب هو ناطق أفندي، الذي كتب أوراقاً كثيرة تتضمن التعليمات الواجب التقيد بها. أما أشد الناس حزناً في السراي، وربما في الولاية كلها، فكان نادر أفندي، الذي وقع مريضاً منذ أن غادر ديوان الباشا، واشتد المرض وامتد بعد أن عرف كيف رفض الباشا اقتراح عزرا أفندي أن يكون ضمن الوفد أحد له صلاحية تحصيل الضرائب المتأخرة!

95

كان قد مضى شهران على عودة ناهي زبانه إلى كركوك، حين وصلها يحيى بك، كيخيا داود باشا، لكي يقلد الآغا الوسام الأكبر الذي أنعم به عليه الباشا، وليسلمه الفرمان مع الهدية؛ وكانت الهدية عبارة عن خلعة من جلد السمور، وهي في العادة لا تمنح إلا نادراً، والذي يمنحها في الغالب هو السلطان، يمنحها للولاة، أو لكبار الموظفين والقادة العسكريين.

وإذا كان الآغا وصله خبر النيشان، عن طريق الضباط الذين عادوا من بغداد، وما قيل عن الحفاوة التي سترافق تقليده لهذا النيشان، فإن السؤال الذي لم يجد له جواباً: لماذا يقوم الباشا بهذه الالتفاتة الآن؟ هل حلّ عليه الكرم فجأة أم أنه لام نفسه نتيجة الإجراء بنقله إلى الشمال؟

وناهي زبانة الذي رجع إلى كركوك، بعد شهر قضاه في بغداد يبحث ويتحرى ماذا وراء عودة الضباط، ولماذا منحوا الأوسمة، وحقيقة موقف الباشا تجاه الآغا، ثم رأي الباليوز فيما يجب عمله ومتى... عاد ناهي بحصيلة شوشت الآغا أكثر مما ساعدته على اتخاذ موقف ثم الشروع بتنفيذه.

فبعد ليلة الاعتداء على بطرس يعقوب، طُلب من ناهي أن يكون ضيف السراي، تكريماً له أولاً، وثانياً لتأمين سلامته، خاصة وقد اعتبر أن ما حصل يحمل دلالات أمر خطير، وربما يحمل رسالة من رجال سعيد إلى الآغا. وقد مال ناهي لهذا التفسير ووافق عليه، لأن الرجال الذين خرجوا فجأة في الظلمة قالوا، وهم ينهالون عليه بالضرب: اليوم أنت وباچر سيدك

وراح تشوف عينك! وهكذا عاد ناهي برأي حائر رجراج. فالباليوز الذي بعث ببطرس أبلغه، بعد لقاءين، الأول في قهوة الشط، والثاني عند روجينا: «ضرورة التفاهم مع كرمنشاه، وضرورة مشاركة أغوات الشمال، خاصة الآغا واصف عثمان. وسيبذل الباليوز كل قوته وتأييده لأن تكون بغداد معكم».

أما سبب إعادة الضباط إلى كركوك كما قرر ناهي فلأن الباشا لا يستطيع أن يفتح جبهتين في آن واحد. خاصة أن عصيان قبائل الفرات الأوسط أصبح أمراً مؤكداً، وقد يمتد العصيان إلى الجنوب كله. ومما يرجح ذلك أن أعداداً من قبيلة لام انتقلت إلى الفرات الأوسط، ورغم ما قيل عن أن وصولها مرتبط بالزرع والمرعى، فقد فُهم الأمر على أنه رسائل تأييد، ودعم ومشاركة في ما تنوي قبائل الفرات القيام به.

لهذا السبب أعاد الباشا الضباط، ويتوقع أن يكون الرد تأييداً له.

بعد أن سمع الآغا القصص التي جاء بها ناهي من بغداد ازداد حيرة واضطراباً. فالباليوز الذي كان يدفعه للثورة على الباشا، يطلب منه الآن أن يتفق مع كرمنشاه والأغوات، ويكتفي بالإشارة أن الذين معه سيساندون الثورة بعد أن تقوم. لماذا تغير موقف الباليوز؟ وماذا تعني هذه المساندة إذا كان داود باشا مسيطراً على السراي والقلعة وأبواب بغداد؟ أما الشارع الذي وقف ضد سعيد باشا، وساهم بإسقاطه، فلا يزال موالياً لداود، فهل يستطيع الباليوز شيئاً؟

حتى الأموال التي بادر الباليوز إلى إرسالها مع روجينا، وكان يفترض أن تُرسل مبالغ إضافية، لم يجر التطرق لأمرها البتة خلال اللقاءين اللذين عقدا مع ناهي.

لما أبلغ الآغا بتحرك موكب الكيخيا، يحيى بك في طريقه إلى الشمال، وأنه سيكون في كركوك مطلع شهر مايس، قال لنفسه: «إذا كان داود باشا ماكراً، وأرسل لي النيشان مع الكيخيا، فيجب أن أكون أكثر مكراً منه» ولمعت في ذهن الآغا فكرة استمالة يحيى بك إلى جانبه «صحيح أنه

ما يقدر يحل رجل دجاجة، لكن المهم أن يكون ويّانا، لأنه يفيد باسمه وموقعه، فالتحالف مع القوي يجر الجميع لموقفه، ويسخّر الكل لمصلحته، فداود لم يترك لغيره أي شيء» وتذكر أموراً كثيرة «حتى أنا لعبني وذبني قشر، أما هذا الطلي فيجوز بكلمتين نجره، وبعدما نخلص، نخليه صورة أو نقول له: في أمان الله» وهكذا قرر الآغا أن يهيىء ليحيى بك استقبالاً فخماً واحتفالات استثنائية.

قرر الآغا أن يلعب اللعبة بطريقته الخاصة: أن يمد الحبل إلى أقصى حد ممكن، أن يخلق لدى الذين يخافونه الطمأنينة والشعور بالرضى، وأن يزيل من ذهن داود بشكل خاص أي شعور بالخطر، وحتى يتحقق ذلك يضرب، والعادة أن تكون الضربات القاتلة هي الضربات المفاجئة، حيث لا يتوقعها الإنسان، ولا يكون مستعداً لتحملها.

والبداية كذلك: طريقة التعامل مع يحيى بك، ثم إشعار داود، عن طريق رجاله، الموجودين في كركوك، بما يجب أن يشعر به!

لقد كان الآغا على قناعة أكيدة أن لداود رجالاً في كركوك، وبعضهم داخل القلعة، وربما في جميع الثكنات، وهؤلاء ينقلون إليه كل ما يجري، وكل ما يسمعون. هذه قناعة الآغا، وقد ترسخت نتيجة التجربة أثناء حصار بغداد، ثم بعد ذلك. كانت تصل لداود الأخبار لا أحد يعرف كيف أو من أين. حتى أنه في أحيان كثيرة فجأة يبدل الخطط ويبادر للقيام بأعمال كان إلى الأمس القريب يرفضها، وحين يُسأل لماذا ينفذ الآن ما رفضه بالأمس، يشير إلى أن معلومات وصلته تستدعي ذلك!

قال الآغا لنفسه بنوع من الحسرة: «داود لعنة، أمكر من إبليس، ثعلب في جلد خروف وما ينصاد إلا من منقاره.» وتذكر جملة رددها مرات عديدة الآغا محمود زهاو قبل أيام حين كان يتحدث عن أحد خصومه الأشداء، ومن صفاته الحذر الشديد، أما كيف استطاع التغلب عليه: «من مأمنه يؤتى الحذر» هكذا قال، وقد وصل إليه عن طريق خادمه الذي كان أقرب الناس إليه!

الآن، وبعد أن تبلورت الخطة الجديدة في ذهن الآغا، أبلغ ضباطه وكبار الموظفين ووجهاء كركوك والمناطق المجاورة بقرب وصول الكيخيا. صحيح أن الأخبار بدأت تصل عن طريق المسافرين، لكنها كانت مشوشة في البداية، لتعدد الروايات وتضاربها، خاصة وأن التاتار الذين أبلغوا حامد، وسلموه الرسالة، استبقاهم في الخان، وطلب منهم أن لا يتحدثوا لأحد حول الموضوع، إلى أن أبلغ الآغا، فأوعز له الأخير، بعد تردد، أن يتابع رجال البريد سفرهم، دون أن يلتقوا أحداً، حتى صاحب الخان الكبير الأسطة رضوان قره غولي الذي كان يريد أن يوصل رسالة لواصف عثمان، لم يتسن له مقابلة التاتار!

حين توصل الآغا للخطة التي قرر اعتمادها، وكطريقة لاستمالة الضباط إلى جانبه بشكل كامل ونهائياً، أذاع خبر وصول الكيخيا، وضرورة الاستعداد لاستقباله. وتعبيراً عن حسن النية. زار طلعت باقة في بيته:

ـ أبشر يا أبو رامز، قال الآغا، وهسه آمنت وتيقنت!

ـ الله يبشرك بالخير، آغا، رد، لكن ما تقول لي على شنو؟

ـ الكيخيا والنيشان والخلعة والفرمان. . . كلهم سوا.

ـ صدق؟

ـ وقبل ما يوصل الخبر چنت أقول لروحي: الباشا إذا يريد يفرّح واحد چان يقول له: تذكر يوم عرسك!

توقف الآغا قليلاً، وتابع بمرح:

ـ أما بعد أن وصلت الأخبار، فلازم نسوي استقبال، ونفرح ونغني، حتى يعرف الباشا أن انعاماته تغزّر بالعين، وأن الواحد إذا قال لك مرحباً، ترد عليه: مرحبتين!

إلى ذلك الوقت كان طلعت باقة في شك، ويحس أنه محبط، أو كما قال لضباطه، بعد أن قرر مغادرة القلعة إلى بيته في المدينة:

ـ راح افارقكم، يا جماعة الخير، حتى لا العين تشوف ولا القلب يحزن.

ولما نظر إليه الأصدقاء باستغراب وحيرة أضاف:

ـ صرت مثل معايد القريتين: لا مع سيدي بخير، ولا مع ستي بخير، والأحسن أغيب عن الوجه، لأنها انلاصت عليّ: نروح لبغداد يقول الباشا كلام نصدقه، ونجي كركوك... اليوم يتذكرنا الباشا، باچر يتذكر، ومثل ما أنتم شايفين: لا خط... لا خبر.

استراح، خيم الصمت على المجموعة التي تتابع كلامه. وبعد أن انقضى وقت غير قصير عاد طلعت للكلام، كأنه يخاطب نفسه:

ـ أسدّ الباب على نفسي، أشرب إلى أن أدوخ، وبعدها أحط راسي على المخدة وأروح بسابع نومة، وخلي أهل علي يلطمون على علي!

ـ وتعوفنا وتمشي، أبو رامز؟

هكذا سأل نجيب نور الدين، الضابط الذي يلي طلعت رتبة، ولم يكن أقل منه حماسة لاتخاذ موقف حازم من الباشا رداً على النقل.

نظر طلعت ملياً إلى الوجوه، ورد:

ـ حتى ما أخدع أحد، حلفت يمين بيني وبين نفسي: إذا الباشا ما دز النيشان، مثل ما وعدنا، فآني بحل من كل عهد، ومن كل وعد؛ ويجوز ما يمر شهر والثاني إلا وأذب استعفاء وادور على فد شغلة ثانية!

ورغم شعور المرارة الذي أحس به الضباط، فقد شعروا، وإن يكن بنسب متباينة، أنهم أكثر حرية، وأكثر استقلالاً، إذ يمكن لأي منهم أن يتخذ الموقف الذي يلائمه، الذي يتفق ومصالحه، وقناعاته.

لم يعترض الآغا على مغادرة طلعت باقة القلعة، بل اعتبر الأمر أكثر جدوى، إذ سيتمكن من التعامل مع كل ضابط على انفراد، حتى مع طلعت باقة ذاته، الذي يعتبر رأس هذه المجموعة، وكان الضباط يلتفون حوله. فما أن يغيب فترات طويلة حتى يتحرر الضباط، وبالتالي يمكن استعادتهم بطريقة جديدة. وهكذا نشط غايب بشكل خاص في لقاءاته مع أفراد هذه المجموعة، وقدم لهم مزايا، على شكل هبات وطلب ترفيع استثنائي. فعل غايب ذلك بكثير من اللباقة وبشيء من السرية، لئلا يظنّ أن في الأمر رشوة

أو محاباة على حساب الآخرين!

مرت هذه الصور، وغيرها، في ذهن الآغا، وهو يزفّ البشرى لطلعت باقة.

ما كاد طلعت يستوعب ما سمع حتى اندفع يقول للآغا بنوع من المرح:

ـ مثل ما قال أهل قبل: كل واحد يردّه حليبه، وهذا الباشا باشا من صدق، أعطى كلمة ولازم يوفي بيها، فالله يخلف عليه!

ـ وأقول لك الصدق يا أبو رامز... كل الأيام اللي مرت، من يوم رجعتكم إلى أن وصلني الخبر، وآني حاير وخجلان من نفسي: العيون تباوع عليّ، وتسأل: وين النيشان؟ شنو نسوك أهل بغداد؟ اشو كل الضباط حصّلوا على ترفيع ونواط وأنت ما أحد تذكرك؟

ـ خلص... فرجت... آغا!

ـ ولازم بهذي المناسبة نقول للغريب والبعيد، لجماعتنا واللي يعادونا، منو إحنا.

كان الاستقبال الذي أُعد للكيخيا، في بستان الباشا، حافلاً إلى درجة أن كركوك لم تشهد له مثيلاً منذ فترة طويلة. وخلال الأيام الثلاثة التي قضاها الكيخيا في المدينة، وزار أيضاً بعض الضواحي، بما في ذلك المكان الذي يطلق عليه حديقة إبليس في بابا كركر، حيث كانت الأرض تنفث اللهب بشكل دائم. خلال هذه الأيام كانت الحفاوة التي قوبل بها الكيخيا في كل وقت، وفي كل مكان، لا توصف. بل ولام الكيخيا نفسه لأنه لم يكن حسن الظن بالآغا، وكان يأخذ عليه بذاءة اللسان، والسلوك الفظّ الذي لا يتناسب مع رجال الدولة. خاصة الكبار منهم!

في اليوم الثاني، عند العصر، حين جرت مراسيم تقليد النيشان وتقديم الخلعة والفرمان، لم يصدق الكيخيا ما رأت عيناه: لقد بدا الآغا إنساناً بالغ الرقة والتهذيب، إذ بالإضافة إلى الدموع التي ترقرقت في عينه، وقد رآها الكثيرون، بعد أن تم توسيمه، فإن الطريقة التي استلم بها الخلعة كانت

بالغة الاحترام والتقدير، إذ ارتدى الخلعة، وقبّل الفرمان ووضعه على رأسه، والتفت إلى الكيخيا وقال:

- يوم لا يُنسى، وتكريم هو الأسمى، لنفتخر أن والينا داود، وأننا نحن له الجنود، الشكر لمن منح ولمن قدّم، وطول العمر لمن أعطى ولمن سلّم، والعافية لوالينا داود ولكيخياه يحيى، وأنعم وأكرم.

وإذا كان بعض الذين يعرفون الآغا في أوقات سابقة قد فوجئوا حين رأوه يخطب هكذا، فإنه شرح بكثير من المرح والتواضع أن الأيام تجبر الإنسان على أن يتعلم أشياء لم يكن مقدراً في البداية أنه يحتاج إليها، لكن «للضرورة أحكام» كما قال، لينهي هذا الموضوع، وكان يبتسم!

أما أثناء الاحتفال الذي جرى بعد تقليد النيشان، فقد كان الآغا مضيفاً عذباً، ورغم أنه تحادث بسرعة مع الكثيرين، إلا أنه خص الكيخيا بالكثير من الوقت والاهتمام، وشرح أحوال المنطقة، وضرورة أن يلتفت لحل مشاكلها ومساعدة الناس، والذين يشبهون الذهب، كما وصفهم!

استغرب الكيخيا كثيراً ما ترى عيناه من ود حقيقي يبديه الآغا تجاه الباشا، وهذا التقدير الذي لم يكن يتوقعه أو يتصور وجوده، فالعلاقة بين الاثنين هي مزيج من الحب والكراهية، الإعجاب والحسد المتبادل، وكان شعور لدى كل منهما أنه يفتقد شيئاً يجده لدى الآخر، الأمر الذي جعل هذه العلاقة ملتبسة، أو لها وجوه كثيرة متناقضة!

فالباشا حين يتحدث عن الآغا يستعمل أسلوباً زلقاً، يحتمل تفسيرات متعددة، ولا يُعرف بالتالي هل يمدحه أم يذمه، إذ يمكن أن تفهم الكلمات على الوجهين. فهو بقدر ما يشيد بشجاعته، وما يتصف به من إقدام، إلا أنه ينهي حديثه بالتأكيد على أهمية العقل، وأنه الهبة الكبرى التي منحها الله للإنسان، وميّزه بها عن باقي المخلوقات. أما إذا جرى الحديث عن الرئيس والمرؤوسين، فيلحّ الباشا على ضرورة التواضع والبساطة من الرئيس تجاه من هم دونه، لكنه يستدرك بسرعة أن التواضع لا يعني أن ينجرّ الرئيس إلى المزاح أو السخرية أمام المرؤوسين، الأمر الذي يحصل

بعض الأحيان. أما حين يكون الرئيس بذيء اللسان، ولا يكف عن الشتيمة، فعندئذٍ يسقط بعيون مرؤوسيه أولاً، ثم بعيون الناس!

يقول الباشا ذلك دون أن يشير إلى الآغا مجرد إشارة، لكن يترك لمن يسمع أن يقارن، وأن يدقق. وغالباً ما يتراءى الآغا كنموذج في أذهان الكثيرين.

أما الآغا حين كان في بغداد، فكثيراً ما نقل عن لسانه كلام يفهم منه أنه يعني الباشا، وان يكن بشكل غير مباشر. كان يقول وهو لا يخفي هزأه:

ـ هذول اللي لاوين رقابهم، ويتظاهرون بالتقوى والمسكنة، وكلمة الله ما توقع من حلوقهم، ويخافون، أو يخجلون إذا شافهم أحد يضحكون... هذول خاف منهم، وأحسب حسابهم أكثر من اللي ما يصلون وما يصومون!

وإذا جرى الحديث عن التغيرات التي أجراها الباشا في تنظيم السراي، بما في ذلك ملابس الحرس، ومظاهر الاستقبال، فالآغا يقول، وهو يغالب الضحك:

ـ ترى يجي يوم، يا جماعة الخير، ما نقدر نطب السراي، إلا إذا قال الواحد منا للحارس كلمة السر...

ويتحول ضحكه إلى قهقهة، وبعد أن يهدأ:

ـ وكلمة السر مو مثل حجة الفرس... ترى هذي تتغير كل ليلة وكل يوم، ولازم الواحد يثبت أنه أبو الحصيني وإلا جلده راح للدباغ...

وتتغير لهجته:

ـ إذا كان القصد أن يهابنا الغُرب، فالغرب يعرفونا على البطانة، والحارس والحاجب والبواب كلهم قشمرة، وعلى منو؟ علينا مو على الغريب!

وما يقوله رجال أحدهم يصل إلى الآخر، عن طريق رجاله وعيونه، إذ يتولى هؤلاء نقل ما يسمعون، ويضيفون من عندهم الشيء الكثير، لتصبح القصص التي تُنقل جديرة بأن تُسمع! ولكي تتزايد وتتراكم الأحقاد.

هكذا يقول الذين يراقبون، لكنهم لا يجرأون على قول ذلك أو تأكيده. حين يرون الاثنين كيف يتعاملان، كيف يتصرف أحدهم في مواجهة الآخر، وأية كلمات يتبادلان. إنهما يفعلان ذلك بعفوية، بل وبصدق وحرارة ظاهرين، وحين يصادف أن يكونا مع الآخرين، فإن الباشا والآغا يتصرفان وكأنهما وحيدان: الأسرار التي يتبادلانها، الهمسات التي تتكرر لأن أحدهما تذكر أمراً فاته أن يبلّغ به الآخر، ثم العيون التي يقرأ فيها من يراهما الكثير من الود.

فُسِّر الأمر أن الباشا يكنُّ للآغا مودة خاصة. وهي بمثابة الاعتراف بالجميل، ويعزون ذلك لسببين: أن الآغا ترك كرمنشاه بسرعة، ما أن عرف بخروج داود باشا إلى الشمال، وكان له دوره العسكري في حصار بغداد ثم في دخولها. أما السبب الثاني، وهو الأهم، والذي لا يذكر إلا همساً، فهو قضاء الآغا على سعيد باشا.

أما الآغا الذي طال غيابه عن بغداد، حتى ظن في بعض الفترات أنه لن يراها مرة أخرى، فإن الحقد الذي يملأ صدره على سعيد باشا، لا بد أن يرتدّ عليه، وقد يقتله في الغربة. لذلك لم يتردد في الالتحاق بداود الذي ثار على سعيد، وكان يعتبره الشخص الوحيد الذي يمكن أن ينازل سعيداً والقادر على هزيمته، لذلك عندما جاءت الفرصة ليعود الى بغداد، عاد، للشوق، ولخدمة الوالي داود!

يقول الآغا ذلك لمن يسأله، إذا جرى الحديث عن الأيام الماضية، ويقوله للكثيرين. لكن الذي يقوله لبعض خلصائه، أن داود، وبعد أيام من دخول بغداد، بدأ يتغير، وهذا ما يجعله يستغرب ويتساءل. أما الذي لا يقوله لأحد فهو أن الرحلة مع داود انتهت، ولم يعد مستعداً لأن يعمل لحساب أحد، لأن الإنسان، وبعد التجربة، يتغير فجأة ما إن يصبح حاكماً، تماماً مثل الفتاة حين تنتقل من المراهقة إلى سن النضوج، إذ تتحول بسرعة، تصبح راغبة أن تحمل وتنجب الأولاد بنفسها، لا أن تبقى مربية لأولاد الآخرين، حتى لو كانوا الأخوة، مهما كانت علاقتها أو

محبتها لهؤلاء!

قد يكون ذلك حديث بعض الناس، وحديث بعض المجالس، وقد يختلف من مكان لآخر، من وقت لآخر، لكن الذي حزّ في نفس يحيى بك: التجاهل الذي أبداه الاثنان تجاهه! صحيح أن كلاً منهما يظهر له الاحترام، إن كان موجوداً، ويقدمه الباشا بحفاوة ظاهرة في المآدب وأثناء استقبال الوفود، وقد خصص له جناحاً كبيراً في السراي، مع الحراسات والمرافقين، كما أحال إليه عدداً من الأعمال والمهمات، إضافة إلى الخيول وصلاحيات الصرف، لكن الأمر لم يتعد هذه الحدود.

هكذا تكونت الصورة لدى يحيى عن الاثنين، لكن بعد أن التقى الباشا، ومنذ أن غادر بغداد، تبدو له الصورة مختلفة، وها هي تتأكد أكثر هنا في كركوك، خاصة وهو يسمع الآغا ويرى تصرفاته. قال الكيخيا لنفسه: «الواحد بين ناكر ونكير ما لازمه يتدخل أبداً، لأنه إذا فلت من الأول ما يفلت من الثاني». ابتسم وأضاف وهو يبتسم: «لأن الحجّاز بين المخابيل تصيبه الدفرات من الصفحتين».

وإذا كان الآغا قد أبدى هذا الاهتمام وهذه الحفاوة بالكيخيا، فإن الضباط الثمانية تجاوزت فرحتهم كل الحدود، خاصة وأن توقعهم وصول النيشان ومعه الخلعة طال أكثر مما ينبغي، حتى لظن بعضهم. أو ربما الجميع، أن الباشا خدعهم، وأنه لم يكن يعني الكلام الذي قاله عن الآغا، عن شجاعته، وضرورة أن يكون معه في بغداد، والود الذي يخصه به أكثر من أي واحد آخر.

وقد رافق التأخير الود الكبير الذي أبداه نحوهم الآغا، ومحاولة كسبهم من جديد، خاصة وأن طريقته في الحديث عن الباشا تغيرت، أصبح لها طابع النقد أكثر من طابع الهجوم. وأشار مرات عديدة أن الباشا لا يتذكر إلا الناس الذين حوله، أما الذين يرسلون بعيداً، فبالإضافة إلى الرغبة بتجاهلهم، فإنهم، في أغلب الأحيان، يُتركون في المنافي إلى أن يموتوا قهراً، أو بسبب النسيان.

وكان الآغا ينتهي من هذا الحديث بأن يقول:

ـ والواحد إذا ما رجع لبغداد بذراعه ماكو أحد يقول له: تفضل!

مثل هذه الطريقة في التعامل، والإلحاح في الكلام إذا لم تلاق قبولاً، فلا بد أن تترك أثراً، أن تدفع إلى التساؤل. وقد استطاع الآغا أن يصل إلى هذه النتيجة، حتى أن طلعت باقة الذي بدا حاسماً ومتحمساً من أجل «تصفية القلوب» بين الآغا والباشا، كما كان يردد، ما لبث أن شعر بالإحباط، ثم تخلى عن هذه المهمة، وانتقل مرة أخرى من القلعة إلى بيته في المدينة. وقيل إنه غرق في السكر، وبدأ يهذي ويشير في سكره إلى مقتل نجمة وبدري، وأن هناك مؤامرة كبرى تستهدف الكثيرين، وسيكون هو في مقدمة هؤلاء!

أما الضباط السبعة الآخرون فقد تفاوتت عواطفهم ومواقفهم، غايب الذي نصب الشراك حولهم بإيعاز من الآغا، وجد أن إمكانية كسبهم من جديد مسألة وقت لا غير، خاصة بعد أن غادر طلعت باقة القلعة.

قال كبار السن من أهل كركوك، إن المدينة لم تشهد احتفالاً، كهذا الذي أقيم للكيخيا، إلا يوم وصلها سليمان الكبير بزيارة، وكان في طريقه إلى الموصل، بعد أن وافقت اسطنبول على اتباع هذه الولاية لبغداد. وقال هؤلاء المسنون إن احتفالاً كهذا أقيم أيضاً يوم تولى السلطان محمود!

ولم يتأخر طلعت بك في العودة إلى القلعة، بعد أن أبلغه الآغا بقرب وصول الكيخيا. قال للضباط الذين جاءوا للسلام عليه:

ـ يجوز أن الباشا يتأخر، لكنه أبد ما ينسى!

ولما بدت كلماته غير واضحة بالمقدار الكافي:

ـ من حلقه لأذني: الآغا مستحق أعلى نيشان بالولاية، ولو كان من صلاحيتي إعطائه نيشان أكبر، ما كان وقفت دقيقة واحدة!

ولأن الخبر كان قد انتشر، وعرف به الكثيرون، ومنذ فترة طويلة، فقد انصبّ الحديث حول أسباب التأخر: قيل الأمطار التي قطعت الطرق؛ قيل سفر الباشا إلى الحلة لتفقد القوات المرابطة هناك؛ وقيل إن الباشا كان

ينتظر الوقت المناسب لكي يقوم بزيارة إلى مناطق الشمال، وإلى كركوك بالذات، ليقلد الآغا النيشان الكبير، لكن مشاغله وهمومه حالت دون ذلك، وهذا ما دعاه للتأجيل مرة بعد أخرى، إلى أن اضطر لإرسال نائبه كي يقوم بهذه المهمة نيابة عنه. الذين قالوا ذلك أضافوا بحسرة.

ـ لو واتته الظروف لجاء بنفسه، لأنه يحب الشمال، ولهذه المنطقة ذكريات في قلبه لا ينساها، وأيضاً ليتولى لقاء الصديق الذي له منزلة خاصة عنده: الآغا. لكن...

ويفيد أحدهم، وهو يترنم:

ـ ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

لما عاد نائب الوالي، الكيخيا يحيى، من رحلة الشمال، أبلغ الباشا أن الأوضاع هناك ليست بالسوء الذي افترضه أو توقعه، وأن الأغوات لا يهمهم إلا اليوم الذي يعيشون فيه. وإذا كانت كرمنشاه قد وعدتهم وأمدتهم بالمال، إلا أن المخاوف التي تساورهم، خاصة بعد تجارب كثيرة سابقة، تجعلهم مترددين وشديدي الحذر، الأمر الذي يمكّن من كسبهم وكسب ولائهم مرة أخرى.

أما حين جرى الحديث عن سيد عليوي، والاستقبال الذي أعده له، والحفاوة التي قابله بها، ثم الخطاب الذي ألقاه في الاحتفال الكبير، فقد ظهرت على وجه الباشا ابتسامة ساخرة أقرب إلى الاستهجان، مما جعل الكيخيا يتوقف قليلاً ويتلفت، إذ بدت له تلك الابتسامة غريبة، وتحمل أكثر من دلالة. سأله الباشا مستوضحاً:

ـ قلت لي أن عليوي وقف قدام الناس وخطب؟

ـ أي نعم باشا، وقال خوش كلام!

ـ وأنت سمعته؟

ـ أي نعم، باشا!

ـ بالعربي خطب أو بالكردي؟

تطلع الكيخيا إلى الباشا بإمعان ليكتشف ما إذا كانت أسئلته جادة أم تخفي شيئاً وراءها، خاصة وأن الابتسامة الساخرة لم تفارق وجهه، وترافقت أيضاً مع هزات رأسه المستغربة، تابع بنبرة جديدة:

ـ والكلام اللي قاله عنك يا باشا بالخطاب، وبعدين ما قاله بيني وبينه، ما يقوله أخ عن أخوه: محبة وتقدير، وكله احترام، حتى صوته كان يرجف لما يذكر اسمك!

ـ بارك الله فيه، لكن أتعجب أنه صار خطيب. .

توقف لحظة، عدّل جلسته قليلاً، وأضاف بلهجة تذكّر:

ـ تعبنا وياه، ومو يوم واثنين، سنين، ونحن نقول له: لازم تتعود الحديث ويّا الأوادم يا آغا؛ لازم تحفظ بعض الآيات ومثلين ثلاثة؛ وإذا حفظت بيتين من الشعر عال العال، لأن الناس تفتهم وتقتنع بعيونها وآذانها، والكلام مرة بعد مرة يؤثر، يوصل للعقل والقلب، والكلمة إذا دخلت للراس أبد ما تطلع منه. . .

استراح لحظة، وقد تذكر أحداثاً كثيرة، فتابع:

ـ قلنا هذا الكلام مرات ومرات، وكان يرد: الله سبحانه لما خلق البشر ما سوى الواحد مثل اللاخ، كل واحد خلقه شكل. وآني مثل نبي الله زكريا: صايم عن الكلام، لي حلق ياكل ومالي حلق يحچي، فخلوني!

ـ ولأن البني آدم يسها وينسى يا باشا، فأنا كلفت كاتبي، عارف آغا، أن ينقش كل ما ينقال وكل ما يجري، ولا بد يكون بدفاتره ما قاله الآغا، وراح تشوفه بعينك يا أفندينا وتتأكد.

ـ كلامك يكفي وزود. . . يا أبو فيضي.

وبعد قليل، وكان يهز رأسه بثقة:

ـ الحاجة تعلّم، وللضرورة أحكام، فإذا فاته هذا الدرس هنا لا بد انه تعلّمه هناك!

ورغم أن الحديث أخذ مجرى آخر ثم تشعّب، إذ كان الكيخيا مأخوذاً بجمال تلك الديار: الخضرة التي تنتشر في كل مكان؛ المياه الباردة التي تتساقط من قمم الجبال؛ ثم طيبة الناس هناك وبساطتهم، إلا أنهم يجهلون البلاد التي وراء جبالهم، فلم يسمعوا ببغداد واسطنبول إلا كما تُسمع القصص. ولا يحلم أحد منهم بالوصول إلى أبعد من أربيل وكركوك،

ويذكرون مكة بحنين ونشوة، لكن لا يتصور أي منهم أنه قادر على زيارتها، اللهم إلا إذا انفتحت له أبواب السماء في ليلة القدر!

وعاد الحديث إلى الآغا، كيف ينظر إليه الناس في كركوك، وكيف يتعامل هو مع الناس، وماذا قال عنه الأغوات في الأماكن التي زارها. وكان الكيخيا يعاود ذكر الاستقبال الذي لقيه في كركوك: كيف احتشد الناس لرؤية موكبه، الفرح، الخراف التي ذبحت أمام الموكب. ويؤكد مجدداً أن الأغوات سريعي التقلب، دائمي الشكوى، وأنهم يحبون من يعطيهم، ويكرهون من يطالبهم بضريبة أو بدين، كما أنهم مستعدون لإنفاق ما لديهم في يوم وليلة، دون خوف من الأيام التالية، شريطة أن تبقى أسلحتهم بين أيديهم، لأنهم على قناعة أن السلاح قادر على جلب المال، أو على الأقل يحميهم من الذين يأتون لمطالبتهم بالضرائب.

كان الباشا يسمع ويهزّ رأسه، فهو يعرف أكثر مما يقوله نائبه، وقد خبر الأمور بنفسه، لكن كان يهمه بالدرجة الأولى أن يعرف مزاج الناس، وأن يقدّر بالتالي ما إذا حان الوقت لكي يصفي حسابه مع الآغا.

وفجأة سأل الباشا عن الهدايا والخيول، لمن أعطيت، وكيف كان وقعها على الذين أعطيت لهم.

تهلل الكيخيا لهذا السؤال، تحرك بحيوية، ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة، قال وهو يمد آخر الكلمات:

ـ روحة ابن الروضان وياي بالسفرة، يا باشا، كوم، والباقين كوم!

وأفاض الكيخيا بمعرفة ابن الروضان بالخيول، أحسابها وأنسابها، وما يميز فصائلها، والفرق بين الذكور والإناث، وأيُّها يجب أن تعدّ للسباق وأيها للنسل. كما أشاد بما يحفظ من قصص الخيل، عن وفائها وذكائها وتحملها، وكيف كان يثير الإعجاب حين يروي هذه القصص، وكيف كان يستعيده رواية هذه القصة أو تلك، ومدى الدهشة والإعجاب في نفوس الذين يسمعون! وروى الكيخيا أيضاً كيف أن الآغا أخّر سفر الموكب يوماً إضافياً لكي يستعين بابن الروضان في معالجة أحد خيوله، ثم محاولاته في

أن يستبقيه وقتاً آخر، أو على الأقل، أن يأتيه بزيارة في زمن لاحق، وتمنى لو يبقى عنده بصورة دائمة.

أما عندما أهدى الآغا الحصان مقدام وهو من أطيب خيول الباشا، فقد كانت فرحته لا توصف، إذ كان شديد الانفعال، بالغ التأثر، وقال إن هذه الهدية أثمن ما تلقى في حياته. وتعبيراً عن فرحه وتقديره ركب ذلك الحصان أثناء وداع الموكب، وأصرّ على مرافقتهم مرحلة إضافية، وكان لا يخفي إعجابه بالحصان وتقديره للباشا الذي خصّه به.

وتحدث الكيخيا أيضاً عن الخيول التي أهديت إلى عددٍ من الأغوات، ومدى الإعجاب والتقدير لهدية الباشا، وكيف أُحلّت هذه الخيول بالأماكن التي تليق بها، وأضاف بمرح. وقد مرّ شريط الذكريات أمام عينيه:

ـ وما يروح يوم ويجي يوم، يا باشا، وإذا الله سلّم الخيل اللي راحت، إلا ونشوف خيلهم صارت مثل خيلنا!

رد الباشا، وقد هزته القصص التي سمعها:

ـ الخيل مثل الطير، يا أبو فيضي، وهذا العراق ما يصير وما يرتفع ويطير إلا إذا توالمت الجناحات، شمال وجنوب، فعسى تكون قُصة خيلنا خير علينا!

ومع أن الكيخيا واصل الحديث عن رحلته، إلا أن أفكار الباشا واصلت رحلتها إلى مكان آخر: ما دام الآغا أصبح أكثر اطمئناناً، وأخذ يقترب تدريجياً من الفخ، فإن اصطياده أصبح أيسر وأسرع، وهذا ما يجب أن يحصل.

والباشا الذي كلف كيخياه أن يستدرج الآغا بأكثر من أسلوب، علّه يقول ما يفكر فيه. فقد أشار، عرضاً، إلى أن الخمرة يمكن أن تحمله على الكلام والبوح، ولا بد من أحد لكي يتبرع بمشاركته في الشراب، أو على الأقل، استدراجه للحديث وهو شارب. تطلع الكيخيا إلى عيني الباشا بامعان، ليعرف ما إذا وصل إلى علمه ما يؤكد له أنه يشرب في بعض الليالي، أو أن الأمر لا يتعدى ان يكون طلباً بريئاً!

رد الكيخيا بطريقة تحتمل أكثر من تفسير :

ـ ما أظنه يشرب قدامي، يا باشا، ومع ذلك راح نشوف طريقة تخليه يزوّع اللي ببطنه، ويقول الأول والتالي!

وأوعز الكيخيا لبعض رجاله، خاصة من الضباط الذين رافقوه في الرحلة، ومن الذين خدموا مع الآغا، ان يسايروه، «وان يذبوا بطريقه قشر لعله يزلق، ويقول اللي بدماغه». ولم يتأخر هؤلاء الضباط في نقل كل ما دار من أحاديث وتصرفات. كان الآغا ميالاً لأن تبقى السهرة في جو المرح، ا كان يضحك بعربدة ويطلب من بعض رجاله أن يرووا نكات بذيئة، ولم يترد في شتم بعض الذين حوله، وان بطريقة تبدو أقرب إلى المزاح! لكن ما ا جاء ذكر الباشا حتى تغير الجو تماماً. صحا الآغا بسرعة، وكأن أصابع مدرب قرصته في مواضع حساسة، اذ اكتسب وجهه فجأة ملامح جدية، وتيقظت حواسه، حتى العينان الذابلتان، واللتان كانتا مغمضتين أغلب الوقت، انفتحتا فجأة، ورغم الحمرة الطاغية فيهما، فقد أصبحتا ماكرتين، وهما تتنقلان من وجه إلى آخر. أكثر من ذلك، ذكر مدحت صفا، وهو من الضباط الذين شاركوه الشراب، وحين سأله ما إذا كان راضياً عن نقله إلى كركوك، وهل يحنّ لبغداد، كانت إجابته ان أوامر الباشا فوق الرغبات، وأنه مستعد للذهاب إلى أي مكان يريده ان يكون فيه. وزيادة في التأكيد وقف، أحكم تزرير سترته العسكرية، وقال، وكأنه يرد على أمرٍ من الباشا نفسه: أمرك سيدي، بس انت تؤمر أفندينا، ثم رفع يده بالتحية!

وتذكر الكيخيا كيف كانت إجابة الآغا حين سأله عن إقامته في الشمال. قال له، وهو يرفع يديه في الهواء:

ـ الحمد لله والشكر، خلصنا من السراي وطربقاتها. . .

أخذ نفساً عميقاً، وأضاف بلهجة مختلفة:

ـ يوم السراي بسنة يا بك، هنا راسنا مرتاح: أكل وونسة، وشغل ماكو. . .

وابتسم ابتسامة عريضة قبل أن يضيف:

ـ على الأقل خلصنا من البدو وسوالفهم وطلايبهم. . . كل يوم جايين يهفون، نريد ونريد وتعال اخلص من هذي الطلايب!

وحين سأله عن أغوات الشمال، رد بمرح:

ـ هذول. . جماعة على باب الله، إذا ما تحارشت بيهم هم ما يتحارشون. كل واحد منهم ناصب له خيمة من شجر براس جبل من الجبال ويغني: يا ليل. . يا عين، وإذا تعب يصيح أوف، وربعه يردون وراه: أمان. . أمان!

كان الكيخيا على يقين ان الآغا يواسي نفسه، يتظاهر ان نقله إلى الشمال أمر عادي، ربما لاخفاء ما يعتمل في داخله، كما لا يريد ان يظهر انه مهزوم أو معاقب.

بعد أن نقل يحيى بك أخبار الشمال، خاصة أخبار الآغا، بدا الباشا مسروراً، فقد أصبح على يقين أنه يستطيع الآن ان يفعل كل ما يريد، ويتخذ أي اجراء، دون ان يقوى الآغا على الاعتراض، أو يبدر منه أي رد فعل. وللاطمئنان أكثر، ولمعرفة كيف تصرف أثناء سهرة الشراب، طلب من الكيخيا أن يأتي في اليوم التالي، ومعه مدحت صفا، كبير الضباط المرافقين في الرحلة، للاستفسار حول ما تحتاجه الحاميات، فيما لو وقعت معارك عسكرية.

ورغم ان الحديث تركز في اليوم التالي حول هذه الحاميات، وما تحتاجه من عتاد وتموين، فقد سأل الباشا في نهاية اللقاء، وبدا سؤاله عارضاً، أو كأنه تذكره في آخر لحظة، كيف تصرف الآغا في تلك السهرة، والتفت نحو الكيخيا، وهو يقول ويبتسم:

ـ سهرة الشرب، يا بك واللي قلت ان مدحت أفندي حضرها!

ومدحت صفا الذي احمرّ وجهه، وتملكه الحرج، اذ نظر إلى الباشا حيرة، وإلى الكيخيا بعتاب، ولم يكن متوقعاً أن تنقل إلى الباشا مثل هذه نفاصيل الثانوية، رد بعد فترة تردد وارتباك:

ـ ماكو شي يستاهل، يا باشا، ومثل ما تعرفون: الخمرة، الله يخزيها،

تطلق اللسان، تخلي الواحد يهذرف . .

صمت قليلاً ثم أضاف :

ـ وصاحبنا لما شرب صار يفشّر ويهذي!

ولم يتأخر الباشا، سأل بانفعال :

ـ اي شقال؟

ـ مثل ما قلت لجنابكم، باشا، ما قال فد شي له أهمية ؛ لكن . .

وتطلع إلى الكيخيا بحيرة، وكأنه يستأذنه أيضاً، فلما وجده يهز رأسه بالحاح، أضاف :

ـ الشي الوحيد اللي استغربته، يا باشا، انه لما كان يتذكر اسم جنابكم كان الآغا يوقف استعداد ويؤدي التحية!

ـ وصدق لو قشمرة . . تحيته؟

ـ ما يندرى، يا باشا، لكن اللي يشوف عروق رقبته شلون تزرق وايد شلون ترجف بالتمني، يقول : تحية صدق!

قال الباشا، وكأنه يكلم نفسه :

ـ لا بد انه تعلم، والبني آدم ما يتعلم إلا من كيسه!

97

حين تأكد الباشا أن الطريدة لم تعد تخاف، ولئلا تصبح الملاحقة سبباً لنفورها من جديد، فقد قرر أن يتظاهر بنسيانها، وأن يلتفت إلى مكان آخر، وهكذا أصدر أمراً بتسمية يحيى بك القرملي قائداً لحملة الجنوب، وأخذ يعد كل ما يلزم من أجل تحقيق نصر سريع وساحق، وليكون هذا النصر العنوان الكبير لما سيأتي من الأيام.

وبغداد حين تحس بالحرب، حتى قبل ان تقع، تعتريها حالة من الترقب والانتظار، ويداخل تصرفات الكثيرين القلق، رغم الثرثرة التي يحاولون إشغال أنفسهم بها، كما أن حزناً شفيفاً يصيب القلب ثم ينتقل إلى باقي الجسد، فيصبح الكبار أكثر تجهماً وصمتاً، وقد يمرضون، إذ تتبدى لهم، من جديد، الحياة التي عاشوها، وكيف كانت مليئة بالأحزان والخسارات المتتالية، فإذا كانوا قد اضطروا للصبر والتحمل، فكان يراودهم الأمل أن تكون حياة الذين سيأتون بعدهم أكثر يسراً. أما أن يتوالى الموت، وتتوالى الأحزان يوماً بعد آخر، ودون توقف، فلا يستطيعون أن يجدوا لكل هذا سبباً أو ضرورة. إنهم لا يخافون على حياتهم التي تكاد تنقضي، وما تخللها من تحديات وصعوبات وآلام، وإنما كل خوفهم على الأصغر منهم سناً، بعد أن وعدوهم كثيراً بأيام سعيدة سوف تأتي، وبآمال يتوقعون أن يراها الأبناء والأحفاد بعد أن فاتتهم رؤيتها.

ومع الحزن والترقب، والنزق أيضاً، تظهر محاولات الحرص الشديد، خاصة من النساء المسنات، وأكثر ما تظهر في المأكل واللباس، وكأنها

استعداد أو تهيئة النفس للأيام الآتية، وهكذا يلجأن إلى التقليل من الأكل والشراب، ولا يترددون في رفع بعض المؤونة وخزنها في أمكنة بعيدة، بل أكثر من ذلك يملن إلى نسيانها، علّها تكون ذخراً للأيام الأكثر صعوبة. يفعلن ذلك بحرص يزيد بالتدريج، وبحساب يدق مع تزايد الأخبار عن الحرب.

يتوافق كل هذا مع جموح في القول والتصرف تجاه الصغار الذين ينظرون بعيون مدهوشة لما يجري، ولا يجدون له سبباً أو تفسيراً. ورغم أن الصغار لا يسلمون بسهولة، ولا يقفون أمام العقبات التي يصادفونها، فيزداد الحاحهم، إلا أن الحزن الخفي الذي يسيطر على الكبار لا يلبث أن ينتقل إليهم يوماً بعد آخر، فيجدون أنفسهم، دون إرادة، وقد امتثلوا للجو الذي فُرض ثم سيطر، لكنهم يزدادون إصراراً لمراقبة ما حولهم، وتتنبه حواسهم لمعرفة ما يجري، ويتساءلون لماذا أصبح الكبار هكذا، ثم لا يلبثون أن يخترعوا لأنفسهم ألعاباً تكون الحرب أبرز مظاهرها. وفي هذه الألعاب يسقط القتلى وتتزايد الضحايا، فيتشاءم الكبار أكثر من قبل، ويحسون أن الحرب قد اقتربت أكثر مما ينبغي وأكثر مما يحتملون، فتتعالى صرخاتهم، ومعها الشتائم، لمنع الصغار من مواصلة هذا الفأل السيء.

أما السوق التجاري الذي كان يمتلىء بالمواد والحركة، وكان يرافق ذلك الود والمرح، وتطغى عليه المساومات، وكثيراً ما تكون مقصودة لذاتها، لاختبار الكفاءة وقوة الاحتمال، فإن أي حديث عن حرب وشيك يغيّر مزاج السوق، بل في أحيان كثيرة يقلبه رأساً على عقب. يصبح التجار شديدي الحذر في البيع والشراء، كما تصبح كلماتهم قليلة وخالية من أي ود، ويميلون إلى الحزم والاختصار، وتختفي الابتسامات من الوجوه، ويحل مكانها الحزم الأقرب إلى العداء: «اشترِ أو امشِ يا معود، خلينا نشوف دربنا».

ويوماً بعد آخر ترتفع الأسعار، وتنفقد المواد، وتتحول الحركة من النهار إلى الليل، إذ كثيراً ما تنتقل البضائع من المتاجر إلى المخازن، وقد

تُستعمل البيوت مخازن إضافية. كل ذلك يجري بحرص، وبكثير من السرية والحذر، وغالباً تحت جنح الظلام، لكي لا يرى أحد ما يجري، ولئلا يعرف أحد ما يُدبّر.

بل أكثر من ذلك، بدأ عدد كبير من التجار يلبس ثياباً قديمة، استخرجوها لا يعرف من أين، بدل الملابس الجديدة الفاخرة، الزاهية الألوان، التي تعودوا ارتداءها في أوقات سابقة، وكانوا يفاخرون بها. فعلوا ذلك لكي لا يُطمع بهم، كما قالوا لأنفسهم، وكذا قالوا للأقارب والأصدقاء. كا عزفوا عن ارتياد مقاهي السوق أول الأمر، ثم ما لبثوا أن أدمنوا على الجلوس فيها، خاصة بعد أن فرغت المتاجر من مواد كثيرة، وقل البيع والشراء. جلسوا في المقاهي، مع مسابحهم الطويلة، ليتسقطوا الأخبار، وليعرفوا ما يدور في السراي، كي يوازنوا البيع مع توقعات الأحداث، وما يمكن أن تحمل من مفاجآت واحتمالات.

ساسون الذي غاب عن الأنظار فترة طويلة، ثم ظهر بعد المصالحة التي تمت بينه وبين عزرا، وما أثير حول ذلك من إشاعات ولغط، خاصة المبالغ التي دفعها للوالي، وما تنازل عنه لعزرا. . ظهر ساسون مجدداً في السوق، وبدا أقوى من أي وقت سابق. قال الذين يعرفونه: «ساسون بربوق، أبد ما يغرق، وعظمه كله ذهب؛ وهو مو بس أغنى من قارون، حيّال ويعرف شلون يخطف العظمة من حلق السبع.» وقال بعض الذين تعاملوا معه: «ساسون مثل حية التبن، يعرف شوكت يضم راسه وشوكت يطلعه، فالله ستر» ونُقل عن أحد موظفي السراي أن الوالي التقى بساسون أكثر من أي مخص آخر في الأسابيع الأخيرة، وكلفه بتأمين كل ما يلزم الجيش من مؤن» وما أكد هذه الأخبار أن ساسون اشترى مطحنة صادق الدجيلي، وأخذت هذه المطحنة تعمل، دون توقف، ليل نهار، لتأمين احتياجات العسكر، بعد أن كانت متوقفة. قال صادق الدجيلي، بعد شهرين من هذه الصفقة:

ـ الدنيا مو بس حظ، حظ وشطارة، وهذا ابن الحرام، ساسون، ما اشترى إلا بعد ما شافني واقع. وآني، لأني زمال، وبدل ما أثقّل روحي،

وأقول أريد وما أريد، ذبيت نفسي: يا معوّدين.. تعالوا، اشتروا، بس أريد أخلص، وهالشكل راحت المطحنة، وهمين فلوسها راحت بول بشط!

أخذ نفساً عميقاً، وأضاف محدّثاً سلمان البياتي الذي نصحه ببيع المطحنة:

ـ إحنا الإسلام، أبو ثامر، عقولنا مثل العصافير، ما نفكّر إلا بيومنا: آني ضجت من المطحنة وأنت قلت: بيع؛ آني خسرت، وأنت قلت يبزي خسارة. آني قلت هالكثر وتعالوا شيلوا، وابن اليهودية يقول هواية ما أريد؛ وبعدين بعناها برخص التراب، ومثل ما يريد، وفوقها قلنا له: تشوف الخير، ورب العالمين صدّق الكلمة اللي قلناها من طرف اللسان، وقال لساسون: خذ يا عبدي، بس أحمد واشكر!

قال سلمان البياتي بحسرة:

ـ كل شي بالدنيا، يا أبو عبد الله، قسمة ونصيب، والواحد ما ياكل إلا الخبزة اللي قسمها الله، فلا تدير بال، ولا تخلي الندم ياكل فؤادك.

ـ هسّه كل شي راح، لكن ليش ما سألت روحي: أكو بالدنيا يهودي يدوّر على فد شي طايح حظه ويشتريه؟ ليش ما قلت له: أبيع النص وأخلي النص ونصير شراكة؟ ليش ما قلته له: أكريها كروة، سنة، خمسة، وبعد ما تخلص المدة نشوف؟

وبعد أن هز رأسه عدة مرات تابع بانفعال وحِدّة:

ـ يا أبو ثامر: آني مو بس حظ سز، آني عقل سز، آني زمال، لأن هيج سواية ما يسويها غيري!

ـ على كيفك، أبو عبد الله.. الدنيا ما تخلص بيوم واثنين، فإذا فاتتك هذي النوبة، ربك يعوّض نوبة ثانية!

ـ تمام، مولانا، وعيش يا كديش إلى أن يجيك الحشيش!

وتزايد خوف الكثيرين، خاصة في السوق، لأن ساسون، عن طريق وسطاء، أخذ يشتري أشياء كثيرة وبكميات كبيرة. كان يشتري المؤن بأنواعها، وقطعان الغنم والماعز والبغال، وبلغ الحال أن اشترى أيضاً عدداً

غير قليل من الحمير الصغيرة الشهباء اللون والأخرى الرمادية، التي كانت تثير الشفقة لهزالها، بحيث لم يكن أحد يفكر من قبل بمجرد سومها، لكن وجدت من يشتريها الآن، وبأسعار لم يحلم بها.

لما بلغ الأمر مسامع رواد قهوة الشط، وبعد أن توثقوا مما يسمعون، قالوا باستغراب أقرب إلى الدهشة:

ـ ما باقي على ساسون إلا يشتري الچلاب ويشد على ظهورها سروج، حتى يحمّل عليها البلايا اللي جمّعها بمخازنه.

أكثر من ذلك، بعث ساسون رجاله إلى صوب الكرخ لشراء ما يستطيعون شراءه من الدواب، ووصل الأمر أن جاء هؤلاء إلى قهوة الشط للسؤال من جديد عن الحاج صالح العلو أو أحد أبنائه. ولما استوضحه الأسطة عواد عما يريد، رد، وكان لا يخفي فرحه:

ـ ذكروا لنا، بذاك الصوب، أن الحاج صالح عنده حصان ويريد يخلص منه، فجينا نشتريه.

ـ خاف تكون غلطان، آغاتي؟

ـ أنت ما عليك، بس قول شوكت يجي الحجي، والباقي علينا!

وبعد قليل، وهو يفرك يديه بنشوة:

ـ وشقد ما يريد إحنا حاضرين!

ـ بس ما قلت لي منو جنابك، ومنو دزك لهنا؟

ـ المهم، هسه، الحصان. بس نشتريه تعرف إحنا منو. إحنا شنو!

ـ يبين عليك، مولانا، وبليا سؤال، لأن الدهن يخرّ من عكوسك، ومتوازي بس تريد تشتري!

وبعد قليل وبغيظ لا يخفى:

ـ بابا.. روح على اللي دزك، وقل له: الحاج صالح ما عنده خيل للبيع!

والرجل الذي فوجىء بالجواب، فوجىء أكثر باللهجة الرافضة المغتاظة، رد بمزاح أقرب إلى التعريض:

ـ ماكو أحد بالدنيا إذا جتّه الرزقة يقول ما أريد. . .

وغمز بعينه، وهو يضيف:

ـ وحلوانك ما راح ننساه!

وقف الأسطة عواد، وقد بدا عليه الغضب الشديد، دق على الطاولة بجمع يده، وخرجت الكلمات من بين شفتيه بطيئة، لكن بالغة الحزم:

ـ بابا. . روح، أحسن لك، والكلام اللي قلته إنساه، شيله من دماغك، لأن بكل هالصوب ما تلقى خيل للبيع، لا عند الحجي ولا عند غيره. افتهمت لو بعد؟

ـ ليش حمقان، آغاتي؟ الدنيا كلها بيع وشرا، أخذ وعطا، فشنو إنتو أحسن من غيركم؟

ـ قلت لك إمشِ، ولا تراويني وجهك نوبة ثانية، أحسن ما ألعب بخلقتك وأقلب الدنيا فوق راسك.

ـ على كيفك مولانا، شنو صار بالدنيا، وليش شايفين حالكم وما تتحاچون؟

وبعد قليل، وهو يستدير ويتحرك:

ـ اكو ناس يحبون الفقر، ويحبون يظلون طامسين بالسيانات!

ثم تناهت إلى سمع الأسطة عواد الكلمات الأخيرة، والرجل يغادر المقهى:

ـ وأنتو يا أهل صوب الكرخ راح تظلون مفاليس إلى قيام الساعة!

رد الأسطة عواد، وكان صوته أقرب إلى الصياح:

ـ تنشب وتاكل خرا يا ابن الزفرة، يا سمسير اليهود، يا قواد!

ما كان الأسطة عواد ليتصرف بهذه الطريقة الخشنة لولا المعلومات التي انتشرت، ووصلت إلى الكثيرين، حول ما يلجأ إليه بعض التجار من تكليف عدد من السماسرة لشراء الدواب، والمواد، وكيف وصلوا إلى جميع الاحياء، وبلغوا القرى أيضاً، من أجل تأمين وسائل النقل، وكيف يتظاهر هؤلاء السماسرة أنهم يشترون لأنفسهم، وهم في الحقيقة يشترون

لغيرهم ونيابة عنهم.

وما زاد في غضب الأسطة عواد، أن الحاج صالح الذي تعرّض لتلك الصدمة، بفقد ولده، وجد في الأسابيع الأخيرة نوعاً من السلوى، بل وأخذ يتعافى، وإن ببطء، من خلال العناية بالحصان الذي تركه بدري، وكيف أخذ ذلك الحصان يستحوذ على وقتٍ يزيد يوماً بعد آخر من اهتمام الحاج، حتى قال كثيرون إنه إذا قُدّر شفاء هذا المريض، فلا بد أن يكون الحصان السبب.

أما أن يأتي أحد السماسرة، ويتحدد مطلبه بشراء ذلك الحصان، فلا بد أن يكون خصماً، وهدفه الوحيد قتل الحاج صالح العلو، ليس بشراء حصان، لأن لا أحد يفكر، مجرد تفكير، بالتخلي عنه، إنما بتعكير الجو إثارة النكد، من خلال طرح الفكرة.

في المساء ذاته، ورغم أن الأسطة عواد لم يشأ أن يثير الأمر، ويخلق منه مشكلة، إلا أن من صفات قهوة الشط أنها تمتلك مقاييس متناقضة، إذ بمقدار ما تقوى على إخفاء أدق الأسرار، وحماية أخطر القضايا، فإن للعيون المدققة، ولمن يتشمم الهواء ويميزه، إمكانية كشف الأخبار والأسرار، يستطيع ذلك من خلال الصمت، من طريقة رد التحية، وأيضاً من خلال هروب العيون.

في هذا المساء، وما كاد الأسطة اسماعيل وسيفو يصلان ويجلسان حول طاولة الأسطة عواد، وما كادا يحسان بتلك الرائحة المختلفة، حتى سأل الأسطة اسماعيل، وقد بدأ بلهجة مازحة:

ـ تدري يا أبو فلاح . . .

ولما تطلعت إليه عينا سيفو تابع:

ـ جتني اليوم حمامة، چنت أزين راس سيد منعم، حطّت الحمامة على الحِب، شربت، رفعت راسها للسما، شكرت ربها وقالت: «حِمل سم ولا مثقال هم». قلت لسيد منعم: سمعت؟ قال: قرقرت وطارت. قلت للحمامة: شنو بعد؟، ردت وقالت: خش بضيق تعرف العدو من

الصديق، قلت لسيد منعم: سمعت؟ قال: ما افتهمت فدّ شي، كله قرقرة التفت على الحمامة وسألتها: وشنو بعد؟ ردت وقالت: روح على القهو وخذ زعوط أو تتن!

استراح قليلاً، وتابع بمرح:

- تركنا سيد منعم نص زيان، قلنا له ترجع ثاني يوم، قال يخلف الله وشلنا روحنا على القهوة، ومثل ما تشوف عينك: لا قوجه ولا مرحبا، ! قهوة ولا تتن!

رد سيفو:

- صدق، أبو نجم، شنو القصة؟ أشوفك مدلغم وما لك واهس تحچي ويّا الأوادم؟

قال الأسطة عواد، وهو ينقّل عينيه بين الاثنين:

- شأحچي، شاقول إذا من الصبح انغثيت وانكسر واهسي؟

ودون تحريض، دون انتظار، أخذ يروي للاثنين ما جرى له مع السمسار الذي جاء يسأل عن حصان بدري، وما إذا العائلة تريد بيعه، وكيف تلاسن معه ثم طرده. ولولا خشيته أن تكبر القضية، وتصل إلى الحاج صالح، لما تردد بضربه.

بعد أن انتهى من رواية ما جرى، قال الأسطة اسماعيل، وهو يهز رأسه غيظاً، ويقلب شفتيه بعصبية:

- لازم تعرف، أبو فلاح، الحمامة مو بس نجّت سيدنا نوح، هذي ما تقول إلاّ الصدق، تقول الاكو والماكو، ولهذا السبب يحرم قتلها وأكلها، ولهذا السبب تشوفها توكّر بالجوامع، بالمقامات، لأنها تريد تعرف هموم الناس، شيقولون، المن يدعون ويشكون، وتحمل ما تسمع وتفتر بالولايات تخبّر وتنذر وتبشر...

وكاد يستمر، إلا أن ضحكة سيفو العالية استوقفته، أما حين سأله ما إذا الحمامة تحكي أم وحده الذي يفسّر هديلها، ويفهم منه ما يشاء، فقد رد بعصبية:

ـ هذا اللي أقوله، يا أبو فلاح، مو قشمرة، ولا قال عن قيل، بإذني سمعته، وعندي شاهد: سيد منعم!

واتفق الثلاثة على طي الموضوع، «لأن صحة الحجي بالدنيا كلها» هكذا قال أبو حقي، أما سيفو الذي وافق على هذا الرأي، فقد كان متحرقاً لمعرفة هذا السمسار، ولتصفية الحساب معه.

ـ ابن الحرام هذا ما يحچي من راسه، لا بد فدّ واحد دازه، فإذا لزمناه، وراشدي والثاني يعترف وبعدين نقول له: شنو صوب الكرخ، ومنو الحاج صالح العلو.

لكن الأسطة عواد امتص غضب سيفو، إذ قال، لكي ينهي الموضوع:

ـ على بختك أبو فلاح، لأن ابن الحرام بعد الرزالة اللي ترزلها سلحب مثل الچلب. حتى الدرب ما له عين تشوفه، وظني أنه ما يحط رجله بصوب الكرخ نوبة ثانية!

ناطق أفندي الذي رافق الكيخيا برحلة الشمال رجع حانقاً ه ... آ، كان، حين يُسأل عن الرحلة، لا يخفي انزعاجه وغيظه، وبعض جرأ فيشتم، «لأن لا أحد يعرف الأصول، لا أحد يتقيد بنظام»، وم نقي الباشا ليشرح له كل شيء، وكيف أن الكيخيا ذاته، ورغم ما شر حول الطريقة التي يجب أن يستقبل بها الأغوات والشيوخ، وما يحسن ان يقوله ولا يقوله، حتى الكيخيا نفسه لم يتذكر شيئاً مما قاله له، الأمر الذي جعل الرحلة فوضى من البداية إلى النهاية، ولم تحقق الغرض ويخشى أن تتكرر الاخطاء مرة اخرى في حملة الجنوب، اذا لم يبادر إلى وضع نظام يتقيد به الجميع.

كان هذا سبب حنق واضطراب ناطق أفندي، رغم أن الكثيرين الذين رافقوا الكيخيا عادوا راضين ومحملين بالهدايا. فقد شعر ناطق أفندي بالفشل والخيبة، مما سبب له آلاماً مبرحة، خاصة في المعدة، وجعله لا يرى إلاّ الجانب السيء، وربما الضار في هذه الرحلة، الأمر الذي دفعه مضطراً الآن للتباحث مع الباشا من أجل وضع حد لهذه الفوضى، الفوضى

في الملابس، في التعامل، في استقبال الوفود، والفوضى في الأكل أيضاً، حتى ليجرؤ على القول، إنه لم يتذوق طعاماً على أية مائدة من الموائد الكثيرة التي أقيمت لنائب الوالي.

هكذا كانت انطباعات ناطق أفندي، وهكذا كان رأيه. وإذا كانت شجاعته لم تواته في مرة سابقة، لكي يضع نظاماً كاملاً للسراي، فلن يغفر لنفسه إنْ تقاعس هذه المرة، لأن وضعاً مثل هذا، إذا استمر، فلا بد أن ينعكس على هيبة الوالي، وقد يضعفه، وهو لن يسمح بذلك. ولا بد أن يوافقه الوالي بكل تأكيد. لكن كيف الوصول إلى الوالي.

قال ناطق أفندي لنفسه بنوع من التحدي: «النظام الذي يجب أن يسود في السراي لا يخضع لرغبات اي انسان، لأن النظام وحده الذي سينقذ الولاية، وهذا ما سوف أكتبه برسالة للباشا، وسوف أشير بكثير من الحرص إلى أخطاء الرحلة، أما حين نتواجه فسوف أقول له كل شيء». استقر على هذا الرأي لبضع ليالٍ، لكن أعطى نفسه فسحة إضافية للتفكير، «لأن الخطأ في مثل هذه القضايا يصعب إصلاحه، ثم إن الباشا ليس لديه الوقت الطويل لقراءة كل ما يرفع إليه من أوراق».

فكر أن يقضي أطول وقت ممكن متجولاً في أنحاء السراي، إذ لا بد أن يلتقي بالباشا، وعند ذاك سوف يتحدث معه، أو على الأقل يطلب موعداً، «لأن رحلة الشمال تستحق انتباهكم يا أفندينا، ولدي الكثير لأقوله حول الرحلة» سوف يكون الباشا سعيداً لأن يستمع إليه، وإذا لم يكن أثناء تلك المقابلة، فلا بد أن يحدد له موعداً، وعندذاك سيسعد نفسه، ولكن لماذا لا يعد نفسه منذ الآن؟

ظل ناطق أفندي يتنقل من مكان إلى آخر في السراي انتظاراً ليوم الحظ ولقاء الباشا. كان يفعل ذلك طوال النهار وقسماً من الليل، حتى إذا تأكد أن الباشا انتقل إلى السلاملك، وأغلقت الأبواب وراءه، كان ناطق أفندي يعود إلى جناحه، وهناك ينصرف إلى تدوين الملاحظات. كان يعمل بكثير من الحرص والتدقيق، لأن الأمر من الخطورة إلى درجة تستوجب ذلك.

كان يكتب ويمزق، يكتب ويمزق. وحين ينهض ليأوي إلى فراشه كانت تعاوده آلام المعدة، وتعصف به مشاعر الإحباط. لكن مثل عادته، يقول وهو يطفىء النور: «بناء النظام ليس أمراً سهلاً، خاصة مع بشر لا يعرفون معنى النظام، لكن المسألة هامة جداً. إلى درجة تتطلب أن يتقدم أحد ليفعل ذلك» يشعر بغبطة أنه توصل لهذه القناعة، يهتف ليشجع نفسه: «إنطق يا ناطق، لأن لا أحد سواك قادر على القيام بهذا العمل الجليل» وينام على أمل أن يجد حلاً في اليوم التالي.

بعد أسابيع عديدة، صدف أن جاء عدد من شيوخ عشائر الجنوب لزيارة الباشا، كان الوقت بين العصر والغروب، وقد ارتأى الباشا أن يستقبلهم في الحديقة المطلة على النهر. أحدث وصولهم الكثير من الهرج، وكانوا وهم يتقدمون نحو المكان الذي أعدّ لهم يتكلمون بصوت عالٍ، ويتبادلون الأخبار والمواعيد، في الوقت الذي افترض ناطق أفندي أن يكون الجو أقل ضجة وأكثر هيبة، خاصة وأن من المتوقع في كل لحظة أن يطل ثم يصل الباشا.

في لحظة ما، ورغم الضجيج والفوضى، وصل الباشا. تقدم ناطق أفندي ليكون قريباً منه، ليساهم في خلق الجو المهيب، ويسيطر الصمت. رآه الباشا، ابتسم له، قال له: ما شفناك ناطق أفندي؟

ارتبك ناطق، احمر وجهه. آلمته معدته، وبصعوبة خرج صوته:

ـ بين الأيادي، سيدي!

ولأن الباشا اقترب أكثر نحو جمع الشيوخ، وتداخل الحرس مع الضيوف، ولم يشأ ناطق أفندي أن يترك المناسبة تمر دون أن يتفق والباشا على موعد، فقد قال، وكان صوته خفيضاً مبحوحاً:

ـ سيدي.. لدي الكثير عن رحلة الشمال!

التفت الباشا بطرف وجهه، وقال بسرعة:

ـ شوف خلف!

وانتبه الشيوخ لوصول الباشا، فالتفتوا نحوه وعمّ الصمت!

98

لم تنقضِ فترة من الزمن حتى بدأت حملة الجنوب.

وبغداد التي قدرت، منذ أول الربيع، أن الوالي يحضّر لأمر ما، وإن لم يكن هذا الأمر واضحاً أو محدداً، فقد أحست بذلك نتيجة ارتفاع الأسعار، وشراء دواب الحمولة والنقل، ثم حركة رجال التجنيد على مخاتير المحلات طالبين منهم، بسرية مفضوحة، إعداد قوائم بأسماء الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخمسين. قال رجال التجنيد في تبرير إعداد تلك القوائم أن السلطان أمر بإحصاء الرجال، ليصار إلى توزيع أراضي الإدارة السنية عليهم، بعد أن جاءه صبي في أعقاب عدد لا يحصى من البنات!

استمع المخاتير إلى الكلام الذي قيل لهم، وصمتوا. لم يكلفوا أنفسهم عناء السؤال عن هذه الأراضي، أين هي أو متى ستوزع، وما إذا كان الذين ستوزع عليهم راغبين أو قادرين على القيام بأمرها. أما حين نقل المخاتير ما سمعوه، فقد فعلوا ذلك بكلمات مليئة بالحزن والتعريض، وأضافوا، لكي يبرروا اضطرارهم إلى إعداد مثل تلك القوائم، انهم مأمورون وغير قادرين على المخالفة.

بدران عمشة، مختار الدهدوانة، قال لأعيان المحلة، وقد قصد قهوة الشط لإبلاغهم:

ـ آني عبد مأمور، يا جماعة الخير. ويعلم الله، ما ردت أجيكم يوم من الأيام بوجه أسود، أو حامل أخبار مو زينة...

إنتظر قليلاً، وهو يتطلع إلى وجوه الرجال الذين التفوا حوله، وقد فاجأهم مجيئه إلى القهوة أولاً، إذ لم يتعود المجيء، ثم ذلك التجهم الذي رافق كلماته الأولى. كانوا يستمعون إليه بقلق. تابع بعد أن جلا صوته:

ـ كل ما قلنا خلصنا، وصارت الدنيا بخير، نفك عينا على مصيبة جديدة، وكأن المصايب تتدردب فوق روسنا من عين حاسد أو من غضب رب العالمين، وما يندرى نستاهل أم لا.

بعد أن خلق هذا الجو الحافل بالخطر والتوقع، أبلغهم أن رجال التجنيد، ومعهم واحد من السراي، طلبوا منه إعداد قوائم بأسماء رجال المحلة، وأضاف بسخرية أن الأمر يتعلق بتوزيع أراضي الإدارة السنية عليهم! وفهم، وفهموا، ما تعني تلك القوائم!

ناجي البكري، الذي دخل قهوة الشط مع ارتفاع صوت الملاّ حمادي منادياً لصلاة المغرب، وبعد أن سمع ما قاله بدران المختار، ورأى القلق، وما يشبه الخوف، على وجوه الرجال الذين كانوا يصغون ويهزون رؤوسهم. قال والابتسامة الساخرة تملأ وجهه:

ـ اللي ما يلزم الجدح بيده ما يرتوي...

وحين تطلعت إليه العيون، وقد بدت كلماته غريبة، أو لا تتناسب والكلام الذي قاله بدران عمشة، تابع بذات اللهجة:

ـ إذا مالك البر والبحر، مولانا السلطان، جاءه ولي للعهد ويريد يوزع القاع على الفقرا، وينطي من كيسه الذهب والفضة، فلازم بالعجل تكتبون، تباركون وتشكرون، بدل الصفنة وهزات الراس؟

ـ جوز يا معوّد، وين أكو قاع وذهب، شنو السلطان ما عنده شغل حتى يتفطن بالفقرا، الطايح حظهم، ويقول لهم وينكم؟

هكذا رد الأسطة اسماعيل، وكان صوته مزيجاً من الغيظ والسخرية، وتابع بنفس الحدة:

ـ وبعدين الكتابة للسلطان ينراد لها واحد دارس، متعلم، شايف الدنيا، وماكو غيرك يقدر عليها، آغاتي!

- آني، مولانا، زنادي ما بيه نار، وما باقي لي بالدنيا إلا القليل، وولي العهد راح يصير سلطان بزمن غيري، فشوفوا لكم واحد بعد حيله بظهره حتى ينقش لكم عرضحال للسلطان!

- آني مو بس سنوني واقعة، وهمين خلاخيل طيزي، فما أقدر أزرع وأحصد، فمنو منكم يشتري مني القاع اللي راح تجيني من السلطان بنص قيمتها؟

بهذه الطريقة تدخل سيفو ليمنع الاحتكاك بين ناجي والأسطة اسماعيل، فقاطعه الأسطة عواد:

- خلونا من الأعمار، يا جماعة، فإذا الأستاذ ناجي جاز السبعين، وأبو فلاح مثل ما يقول عن روحه، فالمسألة ما لها علاقة بالعمر، المسألة الها علاقة بشي ثاني، وسالفة القاع سمعنا مثلها من قبل، فلا بد يكون وراها فد شي!

- شلون الآدمي يصيد السمج يا أبو نجم؟

حين التفتت العيون نحو سيفو، وقد بدا سؤاله غريباً، وقف، وهو يقول:

- السمچة ما تنجرّ إلا بشص أو بطعم، وسالفة القاع شيلوها من بالكم، لأن والينا بباله سالفة ثانية، غير سالفة السلطان!

وتشعب النقاش وطال، لكن الاتفاق بين الجميع كان مؤكداً أن توزيع الأراضي مجرد خدعة لسوق الرجال إلى الجندية.

ناجي البكري الذي طالب الكثيرين وحرضهم في وقت سابق حول ضرورة الكتابة إلى السلطان، وإرسال الوفود، إذا اقتضى الأمر، من أجل إقناعه أن يُترك لأبناء كل ولاية اختيار الوالي، لئلا تحدث ثورة مثل التي حصلت في فرنسا، لكن أحداً لم يجرؤ ويستجيب لهذا الاقتراح، مما جعل ناجي يشتم ويقاطع قهوة الشط فترة من الزمن، أما بعد أن سقط نابليون فقدأصبح أكثر يأساً وأكثر سخرية.

أما الآن، وهو يسمع ما يقوله ابن عمشة، وذلك الخوف الذي يلمسه

لدى الكثيرين، فقال بتشفٍ:

ـ مية نوبة قلنا: اللي يحكمون أول ما يوصلون ماكو عندهم إلا قولة: حلت البركة، ومع طالع كل شمس وعد جديد، وعيني وآغاتي؛ لكن ما يحول الحول إلا وينسون كل اللي قالوه، يتغيرون، وما تسمع منهم إلا قولة: هات. وتتجمع تحت أيديهم الفلوس، وما ينشاف الواحد منهم إلا بألف ويلاه. وينشغلون ببناء القصور والعلالي؛ وبدل المريّة عشر، ويقولون على سنة الله ورسوله! وبعد ما يشبعون، يتلفتون هنا. . هنا، وكل واحد يقول: راح أسوي فد شي ما سواه أحد قبلي، ولازم ذكري تسير بيه الركبان. . . وبهذي عيوني الثنتين، وباذني هذي، وأمسك أذنه اليمنى، ياما شفت وياما سمعت. . .

استراح قليلاً، هز رأسه عدة مرات، وأضاف:

ـ ومثل ما قال أبو فلاح: سالفة القاع شيلوها من بالكم، وولي العهد إذا ما جا يخلقه خلقة، أما اللي نشوفه اليوم، إذا الله ما كذبني، فالاستعداد للحرب. . .

وتغير صوته، أصبح بطيئاً ومتآمراً:

ـ لازم تحضروا أرواحكم للأيام السودا اللي جايه: الشباب لازم يغيبون من الوجه، هنا. . هنا، عند قرايب، عند معارف، حتى إذا الزبانية جوا ما يلقون أحد. واللي يقدر منكم يضم فليساته وتمراته للأيام اللي راح تجي، أحسن ما يمدّ إيده للناس، ويقول: حسنة يا أولاد الحلال، لأن الفلس الأبيض، مثل ما يقولون، لليوم الأسود، وديرتنا وأنتو تعرفوها كلش زين.

كان ناجي البكري يتكلم باسمهم، يعبر عما يجول في خواطرهم من قلق وخوف، لأن الحرب، أية حرب، تغيّر حياة الناس، تقلبها، وقد خبروا ذلك بأنفسهم مرات عديدة. فما إن ترتفع الأسعار، وتختفي المواد، ويبدأ التجار بالجلوس في المقاهي لفترات طويلة، ثم يظهر رجال النفير، حتى يتحسب الناس وتمتلىء قلوبهم بالهموم.

قال سيفو، الذي ظل واقفاً حين كان ناجي البكري يتكلم:

ـ قلبي من الصقعات تعلّم، وهذا الخد من لطمات إيديّ تدمّى، راح يجي أنجس من اللي شفناه، فعلى ويش الخوف؟

ـ الخوف مات بقلوبنا، يا أبو فلاح، وأنت تعرف هذا كلش زين، بـ الواحد خاف يترزل بآخر أيامه!

هكذا رد الأسطة اسماعيل، وقد شاب صوته غيظ ظاهر، وكأنه يعاتب سيفو، أو يعتبره مسؤولاً. رد سيفو بسخرية مُرّة:

ـ على كيفك أبو حقي. آني وأنت بايعين ومخلصين، ما راح يسوقونا عسكر، وقاع ما راح نحصّل، لكن كل الخوف على هالشباب، اللي الواحد منهم يسوي ديرة وعشيرة. هذول اللي يمردون القلب إذا جاهم السَّوْق، ويعلم الله أنه ما لنا عيشة إذا أخذوهم وما رجعوا.

تدخل الأسطة عواد، وبدا كأنه يكلم نفسه:

ـ وجماعة السراي من يوم سليمان الكبير وإلى اليوم، ما يشوفون واحد من وِلدنا إلا وتتدهدى من حلوقهم نفس الكلمة: سالم، مسلّح، مشاة، والولد اللي راحوا جوا التراب أكثر من اللي تزوجوا وخلّفوا، . . هذي القصة ما لها تالي؟

قال ناجي البكري، وخرج صوته عميقاً:

ـ لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. . .

وأضاف، وهو يهزّ رأسه:

ـ أي نعم لا يغير الله، لأن سبحانه يقول: يا عبدي عين نفسك حتى أعينك، أما أن نفتح حلوقنا وننتظر، ونقول الله قادر على تغيير كل شي وحقنا راح يوصلنا على البارد المستريح، فهذي شيلوها من بالكم، لا تحلموا بيها.

ـ شنو قصدك، أستاذ، نوّرنا!

سأل الأسطة اسماعيل، وبدت في لهجته السخرية، فرَدَّ ناجي البكري بعصبية:

ـ مولانا، إحنا مو خوش أوادم؛ الواحد منا يا نفسي؛ ما نحب بعضنا؛

ما نشغل دماغنا؛ ما نعرف شنو اللي نريده. وبعد كل دقة، بعد كل كفخة، نشمرها على الله: نقعد وندعي: يا رب، يا أبو الخيمة الزرقا، أنت مالك الملك، أنت القادر، يا مُنتقم يا جبار اقتص لنا من اللي ظلمونا، إهلك زرعهم واقطع نسلهم وقل لهم منو إنت وشنو إنت...

ولأن الصمت خيّم، وقد زاده تدفق الكلمات السريعة، وكأن ناجي هيأ نفسه لها، وحين رأى التأثر، وما يشبه الموافقة، على وجوه الذين يتابعونه أضاف بلهجة ابوية:

ـ أي نعم، الحق علينا، إحنا المسؤولين عن كل اللي صار وجرى، والجاي أعظم، لأنه ماكو واحد منا شال راسه وقال: يا جماعة.. هيّ موتة موتة، والبني آدم ما يعيش بهذي الدنيا إلا نوبة وحدة، فاما يعيش معزز مكرم أو يموت موتة تسوى. كل واحد منا يقول: آني ما عليّ، آني مالي لازم، أو يقول: الدنيا قسمة ونصيب، والمكتوب لازم يصير، والله صاحب التدبير، وتاليها مثل ما تشوف عيونكم: وِلدكم، كل واحد منهم: سالم، مسلح، مشاة، وينجرون مثل الغنم لتلفات الدنيا، واللي يرجع مكتوب له ألف سلامة...

قال حسون الذي انزلق بين الجمع دون أن يحس به أحد:

ـ آني ما اخاف، والعن أبو الخوف، واذا تريدون مني هسه أروح لمقبرة الشيخ معروف، وأنام بين القبور، وإذا ما تصدّقون من هناك أجيب نيشان.

ابتسم الذين يستمعون بحزن لكلمات حسون، وقد اتجهت نحوه العيون، الأمر الذي جعل ناجي البكري يدرك أنه يكلم نفسه، أو أن كلماته بعيدة، غامضة إلى درجة لا تُفهم، أو لا تصل مثلما يريد. أما حين قال سيفو لحسون:

ـ عفية حسون، العن أبو الخوف، واللي يخافون، أريدك مثل ما أعرفك دوم: سبع والموت يخاف منك!

ـ على بختك، عمي أبو فلاح، وهسه، بعدما جا شلال، وين ما تريدني أروح، وأحارب اللي تقول لي عليه موخوش آدمي، وإذا بيه خير

خليه يوقف بوجهي.

نهض ناجي البكري. تطلع بحزن إلى العيون التي كانت تتحرك برتابة وقلق، وتنتقل بين حسون وأضواء المقهى والفراغ، قال وهو يهمّ بالمغادرة:

ـ ينراد بعد لبغداد سنين وسنين!

وفي كل المقاهي والبيوت، وفي الأزقة والسوق التجاري، دارت أحاديث مثل ذاك الذي دار في قهوة الشط. ومع كل يوم يمر تزداد المخاوف وتكبر الهموم، لأن الأسعار لا تتوقف عن الارتفاع، والمواد تختفي لأيام ثم تظهر من جديد، وقد تضاعفت أسعارها عدة مرات.

ذنون الذي انتقل أخيراً إلى بيت العائلة الصيفي في الأعظمية، وما كاد يمر اليوم الأول على إقامته الجديدة، حتى جاءه شمسي زيدان، مختار الأعظمية، والمقيم حالياً مع زوجته الجديدة في الكاظم، وبعد كلمات المجاملة سأله عن عمره. وذنون الذي فوجىء بالزيارة والسؤال، وبدا له الأمر غريباً، ابتسم قبل أن يقول:

ـ الله وكيلك، مختارنا، لا أريد أتزوج والعافية من الله!

وحين ظل المختار صامتاً ومنتظراً الجواب، تابع بسخرية:

ـ العادة أن ربّات الحجال هن اللي يضمّن أعمارهن، أما أعمار الرجال فعلى سن ورمح، فشنو القصة مختارنا؟

ـ ماكو كل قصة، مولانا، بس الجماعة سألوني عن عمرك؟

ـ عن عمري؟ ويا جماعة؟

ـ جماعة التعداد؟

وأضاف ذنون بعد قليل باستغراب:

ـ كل ظني أن جماعة التعداد يسألون عن الغنم والخيل...

وابتسم بسخرية وتابع:

ـ وتكرم.. يسألون نوبات عن الحمير والبغال، حتى يحصلوا الباج، فشنو صار الباج همين على الأوادم؟

ـ يا ذنون أفندي، جماعة السراي مروا قبل أيام، وطلبوا تسجيل الرجال بين العشرين والخمسين.

ـ شنو. . يريدونهم عسكر؟

ـ علمي علمك، يا ذنون أفندي، لكن اللي قالوه أن السلطان والوالي يريدون يباهون الولايات الثانية، ويريدون يقولون لهم: نحن أزيد!

قهقه ذنون قبل أن يرد:

ـ خوش سالفة: القرعة تتباهى بشعر بنت خالتها. . .

وبعد قليل:

ـ شنو. . الأقل من العشرين واللي فوق الخمسين ما ينحسبون؟ والنسا؟

ـ آني ما عليّ، ذنون أفندي، قالوا لي سوي فلان شي أسويه، لا تسوي فلان شي ما أسويه!

ـ زين. . زين مختارنا، بس بربك، بدينك، هذي قصة المباهاة تقنّع جاهل؟ واحد عنده عقل؟

ـ يا ذنون أفندي. . قلبنا ذاب من سوالف السراي، لكن شنقدر نسوّي؟

هزّ ذنون رأسه دلالة الأسى، ورد:

ـ أريد أقلبها شقا وياك مختارنا، فلا تزعل مني، شتقول؟

ـ قول، مولانا. . .

وبعد قليل، وبمرح:

ـ وأنت مو أول واحد يضحك على قصة المباهاة. كلهم قالوا لي: أترك كلام الهزل واحكِ كلام الجد يا مختارنا، نورنا حتى نعرف شلون نتصرف!

ـ اتفقنا. . وقبل ما أقول لك شقد عمري، قدّر أنت!

ـ اللي يباوعك يقول فوق الخمسين، واللي يسمع عنك، يقول ما جاز الثلاثين أو الأربعين. . .

ـ لازم سامع عني هوايه، مختارنا، ومن عدوين!

ـ استغفر الله يا ذنون أفندي، لأن طاريك ما يجي إلا بالخير، وكل من

عرفك يقول: ذنون أفندي على الراس والعين. رِجّال ماله حرشة بالناس. وكل واهسه بالقراية. ويقولون، مولانا، إنك تنظم الشعر. صحيح؟

ـ ويقولون همين يشرب العرق ويحب الطرب، مو هالشكل؟

ـ ما سمعت، وما أحط بذمتي!

ـ زين.. زين، شتقدر عمري؟

ـ أكيد فوق الخمسين، لو آني غلطان؟

ـ إذا على مود الجندية قول جوا الخمسين، مولانا، حتى يباهي والينا والسلطان، وإذا على مود الدنيا والصدق فيا الله وصلت الأربعين!

ـ نقول فوق الخمسين ونسدّ حلوق العدا، شنو رأيك؟ موافق؟

هز ذنون رأسه عدة مرات قبل أن يجيب:

ـ الجنة بليا ناس ما تنداس، مختارنا، وآني شنو إذا راح ربعي، إذا انقتلوا؟

وبعد قليل، كأنه يكلم نفسه:

ـ الموت مع الناس رحمة؛ وآني مثل غيري.

تطلع إلى المختار وقال بلهجة حازمة:

ـ أكتب يا شمسي زيدان، يا مختار أبو حنيفة وذاك الصوب: ذنون بن الحاج حسين: سالم، مسلح، مشاة، ووين ما راح ربعه وياهم يروح!

قال المختار، وهو يودعه:

ـ أنت، مولانا، قلت كلمتك: سالم. مسلح، مشاة، لكن آني الي رأي وعندي كلمتي!

أما بعد أيام، حين ذهب ذنون إلى صوب الكرخ، والتقى بالأسطة اسماعيل، فكان أول سؤال وجهه إليه:

ـ قل لي، بربك، أبو حقي، سواد شعرك خلقة الله لو سواية العبد؟

نظر إليه الأسطة بتساؤل أقرب إلى الاستغراب، التفت إلى أكثر من جهة، قبل أن يجيب:

ـ ما أدري.. منو المزين آني لو أنت؟ لو تريد تتعلم الصنعة؟

وبعد قليل:
ـ سواد الشعر، مولانا، مو دليل، تعال.. شوف شنو بالقلب!
ضحك بسخرية وتابع:
ـ قلبي صاير عطّابة، يا ذنون أفندي، وما أدري ليش راسي ما يشيب!
ضرب على كتفه، وقال بلهجة جديدة:
ـ يقولون على اللي يكبر ويشوف هموم هوايه وما يشيب بشعره: غيرة سز، فشنو رأيك؟
ـ حاشاك أبو حقي، مثلك بالدنيا ماكو!
ـ زين.. نرجع مرجوعنا لسؤالك، ليش سألتني؟
ـ قبل أيام جاني مختار الأعظمية...
وروى له ما جرى في ذلك اللقاء. حين انتهى قال الأسطة اسماعيل بحرارة:
ـ هذول المخاتير، يا ذنون أفندي، ما يندرى، يقشمرون روحهم أو يقشمرون الناس لما يقولون توزيع القاع والذهب أو مباهاة الأمم الثانية..
ابتسم بحزن، وأضاف بصوت خفيض:
ـ عمية تحفّ مجنونة وتقول لها حواجبك مقرونة!
ـ ويقولون بعد، يا أبو حقي؛ تساوت القرعة وأم الشعر!
ومع أن ذنون جاء ليقص شعر رأسه، إلا أن الأسطة اسماعيل اقترح تأجيل الأمر إلى يوم آخر. قال له، وهو يهمّ بارتداء ملابس الخروج:
ـ لاحقين على الزيان، ذنون أفندي، مو اليوم، باچر، عقبه. هسه خلينا نسيّر على القهوة، ننفّه عن روحنا شوية، لأن روحي طاقة، وخاف أزينك زيان أيتام!
ـ يا معود.. تعنيت من ذاك الصوب حتى أزيّن.
ـ لاحقين على الزيان.. يا الله، خلينا نمشي!

99

قبل ان تتحرك القوات نحو الفرات الاوسط بفترة قصيرة، طلب ناطق افندي بإلحاح مقابلة الباشا، وأكد لخلف، بأكثر من طريقة، ان لديه امراً هاماً يريد ان يعرضه شخصياً على المقام العالي، وان هذا الامر لا يحتمل الانتظار او التأجيل.

وخلف الذي يحاول اختصار الكثير من الطلبات، باجابات من عنده لكن يضعها بصيغة وكأنه عرض الامر على الباشا، او على الاقل اشار اليها امامه، وباعتبار ان وقت الباشا لا يسمح، خاصة في الظروف الراهنة، لذلك امام صاحب الطلب احد خيارين: اما ان يصرف النظر عن طلبه، خاصة الان، لعل الوقت يسعفه بعد شهر او شهرين، او ان يبلغ خلف ما يريده ويتولى خلف بنفسه عرض الامر على الباشا «في ساعة صفاء، وعسى ان تكون النتيجة خيراً».

ناطق افندي رفض باصرار اياً من الخيارين، رفض التأجيل، ورفض ان يتولى غيره عرض الامر على الباشا. وفي محاولة للضغط، لجأ الى التهديد الخفي:

ـ لعلمك، خلف، لا أريد علاوة ولا زيادة معاش، والامر اوله وتاليه متعلق بالحملة، فاذا ما سهّلت لي المقابلة راح تاكل اصابعك ندامة!

ـ يا معوّد الباشا مخبوص، ليله ونهاره اجتماعات وخطط وخرائط...

وبعد قليل، وفي محاولة للتأثير:

ـ الله يساعده، نوم ما يقدر ينام، ياخذ غفوة مثل الكركي بين اجتماع

واللاخ . . .

وتغيرت النبرة:

ـ وآني مثل اخوك، انوب عنك بالزغيرة والچبيرة، وكل ما تريد تقوله له انقله بالحرف، فلا تخف!

ـ اكو مسائل، خلف، ما يفيد بيها قيل عن قال. لازم اشوف الباشا!

ـ زين، انتظر عسى ولعلّ!

في اليوم نفسه، او في اليوم التالي:

ـ ها خلف شنو اللي صار وياك؟ شفت الباشا؟ قلت له؟

ـ ناطق افندي سوّفت فوادي، على الطالعة والنازلة: شفته؟ قلت له؟ قابل آني عيسى او موسى: اجترح المعجزات؟ يصمت قليلاً ثم يضيف:

ـ طولة البال ماكو مثلها ناطق افندي. طول بالك. ثقّل نفسك، يمكن الله يفك لنا درب، ونقدر نشوفه ونقوله!.

ـ ما أريد اوصيك خلف، لأن المسألة تتعلق بأرواح الناس!

بعد أيام من الالحاح المتواصل، استطاع خلف ان يبلغ الباشا برغبة ناطق أفندي، وان لديه أموراً هامة يريد ان يعرضها.

قال الباشا، وهو يهز رأسه ويبتسم بحزن مشوب بالسخرية:

ـ شكو عنده هذا الفطير، الباش بزغ؟

ـ ما ادري، سيدي، لكنه يصر على المقابلة، ويؤكد ان الامر يتعلق بالحملة وبأرواح البشر!

ـ واي واي. صار يفتهم بالعسكرية، همين!

ـ ما أعرف، سيدي، بس هذا اللي قاله!

ـ دز عليه، خلي يجي، بس وصيه، لقلقة ما اريد. مقدمات وحواشي ما اريد، رأساً يدخل بالموضوع!

لما مثل ناطق أفندي بين يدي الباشا، خاصة بعد هذا الانتظار الطويل الشاق، ارتج عليه، كان في منتهى الارتباك والاضطراب. ورغم انه حضر نفسه بعناية لما يجب ان يقوله وكيف يقوله، وادى الدور امام المرآة اكثر

من مرة، بصوت عالٍ مع نغم يتناسب مع المقاطع والكلمات، وكيف يجب ان يتوقف في بعض اللحظات، ويترك للصمت ان يمتد قليلاً، كي يتيح لمن يسمعه الفرصة من اجل التمعن، وربما، استعادة، الافكار والكلمات التي قالها، فان اللحظات الاولى للمقابلة كانت مشحونة بالتوتر والاضطراب الى درجة أنه بدا كالمشلول.

قال له الباشا ليخرجه من هذا المأزق، وقد لاحظ ارتجافه:

- صار زمان ماشفناك يا ناطق افندي؟

- بين الأيادي سيدي!

- قال لي خلف ان عندك امور هامة تريد تعرضها!

- بلى سيدي!

- حاضرة لو تحضرها وتَعرضها بعدين؟

- اللي تشوفه سيدي!

- وأرواح الناس اللي يقول عليها خلف وتريد تنقذها!

- الارواح بيد رب العالمين، سيدي!

- وانت، شكو بايدك، ماتقول لي وتخلصني؟

- سوف اكتب لك كتاباً حول الامر يا سيدي، لأن عقلي اضطرب، وسوف يصلك الكتاب قبل طلوع الفجر!

ضحك الباشا باشفاق، وهو يرد:

- لا . . . بعد طلوع الشمس احسن، يا ناطق افندي!

هز رأسه بانحناءة كبيرة موافقة، قال الباشا كي يصرفه:

وكلّ ما كان الكتاب مختصر أقوى وأحسن، يا ناطق أفندي!

وقبَل ان يستأذن ليغادر، مد يده الى جيبه، أخرج ورقة وقال:

- قرأت هذا في كتاب هام، واذا سمحتم اقرأه على مسامعكم!

- اقرأ . . . يا ناطق افندي

- وقالوا: ينبغي للقائد العظيم ان يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان: سخاء الديك، وتحنن الدجاجة، ونجدة الاسد، وحملة

الخنزير، وروغان الثعلب، وصبر الكلب، وحراسة الكركي، وحذر الغراب، وغارة الذئب، وسمن بعروا، وهذه دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء.

ـ لم تترك حيواناً، الا الضفدع، ان يعتب عليك، يا ناطق افندي!

وبعد قليل وهو يهز رأسه:

ـ أفادنا الله بعلم امثالك، وبورك فيك!

لما خرج من ديوان الباشا، كان خلف بانتظاره. سأله بلهفة:

ـ ها... بشر، انشاء الله صار خير ومشت الأمور زين؟

ـ اسكت خلف، انلاصت عليّ فد مرة. قبطت. وكل اللي كنت افظه، محضره، امّحى من رأسي بقدرة قادر!

ـ شلون يا معود؟ شنو اللي صار؟

ـ اسكت وخليها سنطة...

وبعد قليل:

ـ شلون واحد يحلم حلم، وبعد ما يقعد من نومه ينساه كله؟ شلون احد يكون محضر روحه وفجأة يوقف، يشكّل، لا لقدام ولا لورا؟ هذا لي صار وياي يا خلف وازود...

ثم بحزن أقرب الى الأسى:

مثل ماي وانطشت، يا خلف، لا تنلم ولا تنجمع. اريد احچي، اريد اقول. ابد. الله ما فتح عليّ. والباشا ينتظر يباوع، وآني فاك حلقي، لكن بليا كلام، وما اعرف آني بحلم لو بعلم!

ـ وتاليها؟

ـ يخلف عليه الرجال، طلع آدمي وابن حلال. قال لي اكتب، وهسه ني بوجهي رايح مو بس اكتب اللي نسيته. راح انقشه نقش!

الله.. الله يا دنيا

ـ ثبرتنا، ما خليت لنا درب: أريد اشوفه، من راسي لراسه. اليوم قبل باچر، ولما وصلت ضاع الاول والتالي... هالشكل؟

ومع ان ناطق افندي قضى الليل بطوله ساهراً، وسمع اصوات الكلاب في البداية، ثم اصوات الديكة لما انتصف الليل، ثم سمع اصوات المؤذنين يدعون الناس لصلاة الفجر، وقد كتب خلال ذلك ومزق اوراقاً كثيرة، ورغم ان الافكار كانت قريبة من الوضوح في ذهنه، الا انها تغمض تتلاشى ما ان يبدأ بوضعها على الورق! ليس ذلك فقط، كانت تبدو له مضحكة، صبيانية، هذا عدا عن كونها غير قابلة للتنفيذ.

قال لنفسه، وهو يطوي الاوراق ويدخلها في الدرج وقد رأى انوار النهار: «لا يكفي ان يكون لدى الانسان افكار كثيرة، الاكثر اهمية ان يعرف كيف يعرضها، ومتى وامام من. وهذا يتطلب ان افكر بكل شيء من جديد!»

في اليوم التالي، ثم في الايام اللاحقة، نسي خلف الموضوع، ولم يعد الباشا يتذكره، اما ناطق افندي فقد صمم على مواجهة هذا التحدي: اوصى احد الخطاطين في بغداد لتجهيز مجلد بمائتين وخمسين صفحة بيضاء وبغلاف اخضر، وطلب ان يكتب على غلافه، وبماء الذهب، عنوان: «هيأة المقاتل». وقرر ان ينتهي منه قبل ان يحول الحول، «لأن جميع ما يجب ان يدون فيه واضح وضوح الشمس في رابعة النهار».

خلال الليل، وكان يفكر بعنوان الكتاب، اعتبر ان الصيغة التي طلب ان تخط على الكتاب غير واضحة وغير كافية، مما اضطره لمراجعة الخطاط في اليوم التالي، طالباً ان يكون العنوان كما يلي: «هيأة المقاتل واحسن الشمائل لقهر العدو المتطاول».

قبل يوم من حملة الجنوب. وقد التقى الباشا بقادة الحرس والمسؤولين عن ابواب بغداد، قال خلف الذي سيرافق الباشا، لناطق أفندي:

ـ لا تخاف، ناطق افندي، اللي ما صار بذاك اليوم، بذيك السنة، ترى يصير بيوم تاني، بسنة غيرها، لان الهوا مو دائماً غربي، واكو اشجار اذا ما اعطت هذي السنة تعطي بالسنة اللي بعدها!

وناطق افندي المتحسب، المتطير، سأل بعصبية:

ـ شنو قصدك، لبلبان آغا؟

ـ لازم تعرف، آغاتي، اللبلبان واحد غيري. آني مسهل الحاجات، كل واحد يريد فد شي من الباشا، كل واحد ما له درب عليه، يترجى ويقول: لف، ايدي بحزامك، يمكن تقول للباشا، يمكن تترجى الباشا، لأنك وفه كل يوم...

وضحك بسخرية، وأضاف:

ـ ما يخالف، الدنيا ما تخلص بيوم او اثنين، ويجي يوم تقول: اريد شوف الباشا، وبذاك اليوم راح اقول لك: ذاك ديوانه. شوف الياروان. وف المرافقين، شوف رجال الديوان، آني ما عليّ!

ـ أشوفك زعلت

ـ ما زعلت، لكن... كان بالدنيا خير... وطار!

ـ خلف...

ـ اي نعم... ناطق أفندي.

100

عند الباب الشرقي، جرى للكيخيا يحيى وداع مهيب. كان على رأس المودعين الباشا، ورجال الدين والوجهاء وعدد من الأغوات، الذين جاءوا من الشمال مع فرسانهم، إضافة إلى مجموعة من شيوخ البدو، خاصة من الفرات الأعلى، زيادة على خلق كثير، جُمعوا أو تجمعوا. وأصر حسون أن يعبر إلى صوب الرصافة مع شلال، إذا لم يكن من أجل الوداع، فلكي يراقب كل شيء بنفسه كما قال للذين رافقوه من الصبية حتى طرف النهر. وينقل بعد ذلك إلى «الجماعة» في الكرخ، خاصة في قهوة الشط، كل شيء، وبأدق التفاصيل!

قال الخبثاء في قهوة الشط، بعد أن عرفوا بعبور حسون إلى الرصافة، أن الأمر متعلق بزوجة القنصل، ولا شيء غير ذلك! وبمرور الوقت أقسموا أن حسون لم يصل إلى الباب الشرقي، اذ ظل مرابطاً في رأس القريّة، في مكان لا يبعد إلا قليلاً عن الباليوز. ولتأكيد وجهة نظرهم، استشهدوا بما اعترف به حسون، قبل أيام، لصائب الدغش، مالك مصبغة الحق، إذ قال له أنه تعمد اختيار هذا المكان بالذات من النهر لغسل الحصان كل يوم فقط ليتاح له رؤية الباليوز، ولكي تراه زوجة القنصل! وما أكد ذلك أكثر المنديل الأبيض الذي كان يحمله حسون، وكان يلوح به بين فترة وأخرى، ولم يُعرف سبب لذلك خلال فترة طويلة!

واعترف حسون لصائب أيضاً، كما يقول الخبثاء، أنه لا يقوى على التخلي عن زوجة القنصل. صحيح أنه حاول النسيان؛ وصحيح أنه انشغل

عنها بأمور كثيرة، لكنه لم يستطع أن ينسى كما لم تدعه ينسى! إذ كانت تظهر له كل ليلة ما ان يضع رأسه على الوسادة. أما حين يخيم الصمت وتعم الظلمة، فكان يراها بوضوح أكبر: قريبة، شهية، وتناديه باستمرار. وكان في أحيان كثيرة يسمع أنفاسها، وقد رآها مرة تبكي!

هكذا اعترف لصائب، وهو يضحك بمكر. أما تظاهره بالتخلي عنها، وحتى القسم بأنه طلقها ثلاثاً، كما فعل ذات ليلة أمام الكثيرين في قهوة الشط فلكي يبعد عن نفسه المراقبة، وليصبح بالتالي أكثر حرية! وأكّد لصائب، في إحدى المرات، ان أهم سبب منعه من الوصول إليها حتى الآن: خجله، ثم هيأته. أما بعد أن أصبح «مالك» حصان، وأخذ يعتني بهدومه، فقد اختلف الأمر، إذ لن تستطيع أن تكتم حبها أكثر مما فعلت، ولن تتردد الآن في مواجهة زوجها، بل وستتركه بكل تأكيد!

لولا الأحداث التي توالت، وطغت على قصة حب حسون، وكان آخرها سوق عدد غير قليل من صوب الكرخ إلى العسكرية، ما كان الكثيرون ليتركوا ممازحته في قهوة الشط، بل وترتيب المكائد له، لكن هذا النسيان أتاح له أن يهييء نفسه لأمر خطير: ان ينتقل وشلال إلى صوب الرصافة، من أجل ان يحسم أمره مع تلك المرأة!

صائب أبلغ بعض الأصدقاء أن حسون في الأيام الأخيرة، قبل أن يعبر لذاك الصوب، كان في حالة اضطراب ظاهر. أكثر من ذلك استدان منه بعض النقود، وأبلغه أن لا يقلق عليه إذا تأخر!

وأهل بغداد، في الصوبين، الذين غرقوا في الحزن والهموم، ولديهم أسباب لذلك لا تحصى، لم يكونوا مستعدين لأن ينشغلوا بأمور ثانوية. حتى الذين كانوا يروّحون عن أنفسهم في صوب الكرخ بمراقبة حسون، وهو يقود شلال مرتين يومياً إلى الشط، كفوا عن ذلك. إذ صار مروره عادياً ولا يعني لهم شيئاً. حتى الأطفال الذين تعودوا مرافقته، وكانوا يمتثلون لكل ما يأمرهم به، تغيروا. قلّ عددهم أولاً، ثم أصبحوا أقل استجابة لما يطلب منهم، بل ومُنع عدد من الصبية من مرافقته لأن جماعة

النفير يتعمدون عدم التمييز بين الأعمار! المهم أن يساق أكبر عدد، ثم بعد ذلك يمكن أن يُفرج عمن هم دون السن، إذا لاحق أهلوهم الأمر، وتوفر من يساعدهم.

حتى المزاح البريء الذي كان يملأ قهوة الشط، لتزجية الوقت، والتغلب على الرتابة التي تلف الحياة، وكان حسون أبرز الذين يتوجه إليهم هذا المزاح، توقف أو كاد، وحل مكانه نوع من الوجوم، رافقه الصمت الحزين، أغلب الأحيان.

الآن، وبعد أن نادى المنادون، طالبين من الأهالي أن يودعوا جنود الحملة، وان يدعوا لهم بالتوفيق والنصر، واشترك مع المنادين الطبالون، وأوعز إلى أئمة المساجد ان يرفعوا الدعاء أيضاً، فان الناس الذين سمعوا هذه الدعوات، وقد مازجتها الضوضاء والفوضى، كانوا غير مستعدين للمشاركة في هذه «الجنازة» كما سماها الأسطة عواد. أما سيفو الذي وصل إلى علمه، لا يُعرف كيف، أن الملاّ حمادي سيرفع الدعاء ذلك المساء، وسيطلب من الناس المشاركة بالوداع يوم الخميس، فقد ذهب إليه. رغم القطيعة بينهما، ذهب ومعه اثنان من قهوة الشط. قال له، وكان حول الملاّ عدد من الرجال يستمعون إليه في درس من الدروس التي يلقيها في أيام محددة من الأسبوع:

ـ اسمع ملا: هذا البيت بيت الله، وما ينذكر فيه غير اسمه، سمعت؟

والملا حمادي الذي بدا منشرحاً إلى قبل لحظات، خاصة وهو يحدّث الرجال عن الخلوة الصحيحة، فوجىء وهو يرى سيفو. لم يعرف كيف يتصرف، هل يبتسم ويرحب به؟ هل يستحضر الخصومة بينهما، وما سمعه من سيفو، ثم ما نقله إليه الآخرون؟

لما استوعب ما قاله سيفو، وأكدته وقفته وتعابير وجهه، رد بصوت لا يكاد يسمع:

ـ اللّهم جيبك يا طولة الروح . .

التفت إلى أكثر من جهة، وكأنه يقدّر كل خطوة، كل كلمة، لعله يصل

إلى صيغة تجنبه الاصطدام دون تنازل. قال في محاولة لامتصاص غضب سيفو وشره:

ـ شاركنا يا أبو فلاح بذكره، لا إله إلا هو.

ـ يا رب أخافك، وأخاف من اللي ما يخافك...

وكاد يتابع، إلا أن الملاّ حمادي قاطعه بحدة، وهو ينظر إليه لحظة، وإلى الذين حوله لحظات، في محاولة لأن يدفعهم للوقوف معه:

ـ تعوذ من الشيطان يا أبو فلاح، وإذا بينا سالفة فلا هذا وقتها ولا هنا مكانها، يرحم والديك يا أبو فلاح!

رد سيفو، وهو يتقدم نحوه خطوة:

ـ ترى وصلت السچين للعظم: وِلدنا وأخذوهم عسكر: بيوتنا وانهجمت؛ وبكل محلة ببغداد مناحة، فما أريدك تصعد على المنارة، تلقلق مثل ما قالوا لك جماعة السراي، سمعت؟ افتهمت؟

ـ آني ما ألقلق، سيفو، آني أدعو الناس لذكر الله، وأقول لهم شنو الحلال والحرام، مو مثل غيري...

وتقدم سيفو خطوة أخرى، أصبح فوقه تقريباً. تراجع الملاّ حمادي قليلاً، انكمش وزعق بصوت أقرب إلى المواء:

ـ وبعدين.. آني أقول اللي الله يلهمني، وماكو أحد بالدنيا يأمرني، يقول لي شنو اللازم أسويه!

ابتسم سيفو وهو يمد يده لينتزع الملاّ حمادي، وخرج صوته من الحنجرة، بطيئاً عميقاً، وكأنه يكلم طفلاً:

ـ تعال وياي، ملا، حتى نتفاهم زين!

يقول بعض الذين تواجدوا هناك ان الملاّ نهض استجابة لطلب سيفو. ويقول غيرهم ان سيفو انتزعه كما تنتزع الخسة من الأرض، إذ لوى ذراعه وأنهضه، ورغم أن عديدين حالوا بينهما، إلا أن قوة سيفو، ثم غضبه، جعلهم يتراجعون. ولولا وصول الأسطة عواد في تلك اللحظة، ولا يعرف من ناداه، لاخذت الأمور مساراً لا تحمد عقباه.

في ذلك المساء، حين نادى الملاّ حمادي لصلاة المغرب، قيل إن صوته بدا ضعيفاً مشروخاً لا يكاد يُسمع. وقيل إنه كان يغالب الألم من ملخ يده، علاوة على الحزن الذي ملأ صدره نتيجة ما حدث، وهذا ما يفسر الحشرجة التي بدت واضحة في نهاية الأذان. وقيل إن الأسطة عواد أخذ الرجلين إلى زاوية في المسجد، وأسمعهما كلاماً قاسياً، لأن كلاً منهما، بعد أن سمع ذلك الكلام، أخذ طريقه بصمت، ومضى.

وفي ذلك المساء لم يدع الملاّ حمادي الناس للمشاركة في وداع الحملة، ولا يعرف ما إذا كان ذلك بسبب تهديد سيفو، أو لأنه كان ضعيفاً منهكاً، بحيث لم يتذكر أو لم يكن قادراً. أما في الأيام التالية، وإلى أن غادرت الحملة، فقد لازم الملاّ حمادي الفراش، وناب عنه ابن أخته، مزهر، حارس مقبرة الشيخ معروف، في الأذان. أما الذي أمّ المصلين خلال تلك الأيام فكان خضيّر ملا نوري، وقد طلب منه الأسطة عواد، وبطريقة أقرب إلى الرجاء، ان يفعل ذلك.

سيفو بعد تلك الحادثة غاب عن قهوة الشط لأيام عديدة متوالية. لم يُعرف إن فعل ذلك توقياً من جندرمة السراي، أو ان الأسطة عواد، وربما بسبب الكلمات الخشنة، وكانت تتجاوز اللوم، التي أسمعه إياها، جعله يفعل ذلك، الأمر الذي دفع حسون، مستفيداً أو مستغلاً غياب سيفو، لأن يسرج الحصان ويذهب إلى صوب الرصافة، ليرى كل شيء بنفسه ثم ينقله إلى قهوة الشط.

الأمر المؤكد أن حسون انتقل إلى الرصافة، انتقل وشلال، وكان الاثنان في أبهى الحلل. شلال بسرجه الجميل المزين بالخرز الملون، وباللجام الفضي، وريشات نعام وضعها حسون على الوجنتين، وعلى رأس الحصان، فوق العرف، أما هو فارتدى ثياباً جديدة، أو بدت جديدة لكل من رآها. وعبرا في الصباح الباكر.

ولأن بغداد، ذلك اليوم، كانت تحت وطأة همٍّ ثقيل، فان التحركات اللاحقة لعبور حسون إلى صوب الرصافة من الاضطراب والتداخل،

واختلاف الروايات أيضاً، بحيث لم يُعرف ما حصل.

قال أناس ان حسون ما أن نزل والحصان من المركب حتى توجه فوراً لمقام سيدنا عبد القادر، لكي يصلي ويطلب البركة لشلال. ولا يعرف إن وصل المقام فعلاً وحصل على البركة، أو انضم قبل وصوله إلى واحدة من التجمعات التي كانت تجوب باب الشيخ، محتجة على سَوْق الشباب إلى العسكرية، وكان صوت بكاء النسوة يفتت الصخر، ويمنع أي إنسان أن يمر دون أن يشارك، وربما هذا ما دفع حسون لأن يكون في واحدة من هذه التجمعات أو على رأسها، مما أدى إلى الإصابات التي لحقت برأسه ووجهه، وإلى تمزق ثيابه أيضاً. ويضيف هؤلاء، أنه لولا قوة حسون في مواجهة الجندرمة لأخذ منه شلال، وربما لحقته إصابات أخرى.

ويقول غير هؤلاء أن حسون توجه فور نزوله من المركب إلى الباب الشرقي، ليرى بأم عينه كل شيء ومنذ البداية، كي يتسنى له بعد ذلك أن ينقل «للجماعة» كل التفاصيل. ولأنه اقتحم الكثير من الصفوف، وهو يتقدم إلى الأمام، وتجاوز بعض الأماكن المخصصة للمودعين، فقد تعرض له الحرس، وحين رفض الاستجابة لأوامرهم، اشتبكوا معه واوقعوا به الإصابات التي ظلت ظاهرة بوضوح لأيام، بل لأسابيع، لاحقة.

ويضيف بعض هؤلاء، ان حسون حين منع من الوصول إلى حيث كان يريد من هذه الناحية، اتجه إلى ناحية أخرى، مخترقاً الكثير من الحواجز، وكان رافعاً منديله الأبيض، دليل المسالمة، وأنه يحمل رسالة عاجلة لا تحتمل التأخير، مما أدى إلى إفساح المجال أمامه، بحيث وصل بالقرب من طليعة القوات المتوجهة إلى الجنوب، والتقى هناك بعدد من أبناء محلات الكرخ، وتحدث معهم، وأعطاهم ما كان يحمل من دراهم، وقيل إنه هوّس وغنّى، مما أثار حميتهم، وكادت تقع أحداث لا تحمد عقباها، الأمر الذي أدى إلى إبعاد حسون، بل وقيل إنه حجز والحصان، وهذا ما يفسر الإصابات التي لحقت به، ثم تأخر عودته إلى صوب الكرخ بضعة أيام.

أما خبثاء قهوة الشط، الذين أنكروا، منذ البداية، ان يكون حسون وصل إلى الباب الشرقي، وإنما اتجه فوراً إلى الباليوز، فإنهم يعتمدون في تأكيد ما يقولون على بعض الصبية الذين عبروا النهر سباحة، ولم يعودوا إلا بعد الغروب. اذ حين سئل هؤلاء ما إذا رأوا حسون، أو سمعوا شيئاً عنه، هزوا رؤوسهم بالنفي، وقال ثلاثة أو أربعة منهم أنهم رأوا أشياء كثيرة، وهم ينتقلون من مكان إلى آخر، وشاهدوا الباشا أيضاً، أما حسون فلم يكن له أي أثر!

ولكي تكتمل رواية خبثاء قهوة الشط، وقد تمت على مراحل، خاصة بعد أن انقضى اليوم الأول دون أن يعود حسون، فقد أضيف إليها الكثير ساعة بعد أخرى، وتعدلت، ثم تأكدت أكثر من قبل. بل وصارت الرواية الوحيدة، بعد أن عاد حسون، وهذه الرواية تؤكد انه تعرض للضرب على أيدي حراس الباليوز.

ثلاثة أيام بلياليها امتدت غيبة حسون، وبعد هذه الأيام والليالي عاد.

أين كان؟ ماذا حصل له خلال هذه المدة؟ وإذا كان على الجزء الظاهر من جسده أثار الكدمات وبقايا الدم فماذا عن الأجزاء الأخرى غير الظاهرة من الجسد؟

لم يكن لمثل هذه الأسئلة إجابات، لأن صمت حسون، بعد أن عاد، أقوى من الصخر، هكذا قال الأسطة عواد وهو يستجوبه لمعرفة ما حصل. كما لم يكن هناك شهود، حتى ولو عن طريق النقل، ليوضحوا الأمر.

سيفو الذي ظهر مجدداً عصر اليوم التالي لسفر الحملة، وحين سمع الهمس الذي يدور عن حسون، ولا يُعرف هل ما زال حياً أم وقع له مكروه. ورغم الحزن والهموم الكثيرة، فقد قرر أن يعبر فجر اليوم التالي لذاك الصوب، ويبحث «عن هذا الأثول اللي ما يرتاح ولا يخلي غيره يرتاح»

الملاح الذي نقل حسون أكد أنه انزله في شريعة الكمرك. وحين سئل عن وضعه، وما إذا تكلم معه، وهل يعرف أين كان مقصده، أو أين يحتمل

أن يكون ذهب، هز كتفيه دلالة أنه يجهل كل شيء، لكنه أشار أن حسون كان صامتاً وهم يعبرون، وبدا عليه شيء من النزق، أو ربما الخوف، وقد فسر الأمر أنه خوف على الحصان، خاصة أثناء النزول إلى المركب أو الصعود منه إلى الشاطىء.

أما المعارف، وبعض الأقرباء، الذين يحتمل أن يكون حسون زارهم أو بات عندهم، فقد أجابوا بالنفي حين سألهم سيفو عنه، وأكد بعضهم أنه يصعب أن يصل حسون إلى الرصافة دون أن يمر بهم، واستغربوا أكثر ان يكون معه حصان أيضاً! قال سيفو أنه لم يترك مكاناً أو أحداً إلا ومرّ به وسأل عنه، وكانت الإجابات، بعد الاستغراب، واحدة: لم نره، ولم نسمع أنه جاء إلى هذا الصوب.

وإذا كان سيفو بدأ رحلة البحث وهو متأكد أنه سيعثر عليه، «. . . يجوز نسي روحه بفد زاغور، أو ظل مسحسل وهو مخيّل ومترهي بالدرابين حتى الناس تشوف شلون تحول أبو الفريرات وصار خيال الشقرا، لكن لازم أعطه والزمه مثل ما ينلزم الجريدى. . .» هكذا فكر سيفو، وانقضى اليوم كله دون ان يعثر له على اثر. قال سيفو للذين سألوه في قهوة الشط، وقد عاد بعد الغروب بقليل:

ـ هذا حسون عمره عمر تفگة، يموّتنا وما يموت!

ولما بدا جوابه غامضاً، تابع بنزق:

ـ آني أبو عقلين، قلت لروحي وجع الكتف ولا وجع القلب، شلت نفسي لذاك الصوب، وما خليت زاغور يمكن يروح عليه هالمخبل الا ودوّرت ونشدت لكن أبد، لا أحد شاف، ولا أحد سمع!

وحين سئل ماذا يمكن أن يحصل له، أجاب سيفو وقد قطب وجهه:

ـ يطبّه مرض، وروحة بليا ردة. . .

وبعد قليل وقد تغير صوته تماماً:

ـ والله كل روحتي على مود الحصان، لأن هذا وحده اللي يستاهل، أما هذا الخبل، حسون، فلوّعنا مو نوبة، ألف نوبة؛ يغيب. . يغيب،

وبعدين ينبت من جوا القاع، ولا كأنه غاب. . .

وعاد لصوته الغضب:

ـ سوينا سبايات لما جا فد واحد يسأل إذا شلال للبيع أم لا، فما أدري شنو هسه نقول لقدوري، لنعيم، للحاج صالح إذا سألونا عن شلال!

قال له الأسطة اسماعيل:

ـ الحق اللي قلته يا أبو فلاح، حسون وين ما غابت شمسه ينام، وهذي عادته من قبل؛ أما بعد ما جا شلال، والشهادة لله، فصار عليه أغلى من روحه، وظني أنه يموت قبل ما يهد رسنه، فخلنا ننتظر يوم، اثنين، عسى ولعل!

قال الأسطة عواد، الذي شابت صوته المرارة:

ـ غصباً علينا راح ننتظر. شنقدر نسوي؟

وتغير صوته:

ـ وأبو فلاح، يخلف عليه، تعنّى وعبر لذاك الصوب، وما خلى مكان الا ودوّر بيه، وما خلى آدمي يعرف حسون إلا ونشده عنه، ورجع الرجال إيد من ورا وايد من قدام. فشنو نقدر أزود من هذا؟

ضحك سيفو بسخرية قبل أن يقول:

ـ حتى لمكانات صراع الديوك رحت أنشد عنه؛ وما خليت طولة، حتى مال كدش، إلا وسألت: يابا شفتو حسون؟ واللي ما يعرفون حسون أوصفه الهم، وأوصف الحصان. ورحت يم اللي يبيعون الباجلة واللبلبي، واللي يبيعون الباچه، وكل واحد يهز راسه وما يكلف روحه حتى الكلام. . .

والتفت إلى الأسطة اسماعيل:

ـ حتى وقفت يم مزيّن، يا أبو حقي، وسألته: يابا، يامعود، شفت حسون؟

باوع علي الرجال وفزّ راسه، عباله مخبل يسأله، وقال: حسون اللي تسأل عليه: جاهل؟ چبير؟ طير؟ مطي؟ ضحكت وقلت له: فارس، واله

شوارب ولا أبو زيد، وجواه حصان ولا برق الوالي! رد وقال: اسأل التكان اللي بصفي، لأن صاحبها يبيع شعير!

قال الأسطة عواد بصوت خفيض:

ـ الغايب عذره وياه، وهذا حسون إله كل دقة وحدة أنجس من اللّخ.

وبعد قليل وكأنه يحدث نفسه:

ـ والله إذا شافتك عيني يا حسون لأودّي جلدك للدباغ، وأسوي بيك سوايات ما صارت... بسيطة.. تجي ونتواجه!

ـ خلي يجي هسه، وبعدها الله كريم!

هكذا رد الاسطة اسماعيل، وأضاف وهو يدير وجهه بعيداً عن الأسطة عواد:

ـ ويعلم الله ان ماكو أحد فسّده إلا أبو نجم، هو اللي حماه ودلله...

وتغيرت النبرة، كأنه يقلد صوت الأسطة عواد:

ـ حرام. خطية. هل هلله بحسون. ديروا بالكم على حسون. كل الناس كوم وحسون كوم...

والتفت إليه وعاد إلى لهجته:

ـ صدق، أبو نجم، لو آني غلطان؟ مو أنت اللي حميته ودافعت عنه؟

ـ شنو تريدني اسوي؟ فوق غضب الله غضب العبد؟

هكذا، بنزق، تساءل الأسطة عواد، وأضاف بحدة أقل:

ـ كلنا نعرف حسون: رِجّال على باب الله، فطير وفقير، هالشكل خلقه الخالق. هذا ما علينا بيه؛ اللي علينا بيه ان ما يؤذيه الناس، ما يثرمون براسه بصل لأن بعدها نبتلش!

ـ زين.. زين، خلينا ننتظر ونشوف شنو تاليها؛

هكذا قال الأسطة اسماعيل وهو ينهض. أما سيفو، الحزين، الحائر، الذي لا يعرف هل يذهب إلى بيته ليستريح بعد تعب هذا اليوم الطويل، ليواصل البحث في هذا الصوب، بعد أن لم يجد له أثراً في الصوب الآخر، عنّ له أن يذهب من جديد إلى الملاّ حمادي، ان يتعارك معه، إذ

يعتبره المسؤول، بشكل ما، عما حصل، لكن وجد نفسه يقول: «حرام ضرب الميت» وبدا له وجه الملاّ حمادي حزيناً مهموماً، وتبدت في عينيه دموع أيضاً. قال لنفسه: «شنو ذنب هذا المسكين، وليش ما أطلّع مراجلي إلا عليه؟» هز رأسه بأسى: «هو. . أي نعم، هو اللي يتحارش بالناس، هو اللي يتعيقل، وقاعد للناس سكينة خاصرة: حلال، حرام، جهنم ونار الله الكبرى، ديروا بالكم، الموت ينتظر والله والملائكة يحاسبون. . شنو ما عنده غير هالسالفة؟ خلينا يا معود، فك عنا ياقة».

وفكر لو أن ذنون قريب، ليتحدث إليه «أحب كل كلمة يقولها، لأنها تطلع من القلب، وتركض للروح مثل الغزال. وبعدين مع الكلمة رفة عين وبسمة. وحتى لما يصفن تباوع عيونه تقدح وكأنه يدوّر على غيمة أو نجمة، وأبد ما يخليك تضوج أو تروح لمكان بعيد» هكذا تراءت له صورة ذنون، لكنه أضاف بحزن «لكنه، هسه، بعيد، بآخر تلفات الدنيا، والواحد ينوش القمر وما ينوشه»

قال له الأسطة عواد، ليخرجه من متاهاته:

ـ اللي يصفن هوايه، يا أبو فلاح، يتعب. . . وهذا المقرود مهما طالت غيبته يرجع، إذا مو اليوم، عقبه، فوكل الله يا ابن الحلال، ومثل ما قالوا: تفاءلوا بالخير تجدوه.

ـ مثل ما تقول يا أبو نجم. . .

وبعد قليل:

ـ لكن هذي الدنيا تعبتنا، وما شفنا يوم راحة. إذا راحت مصيبة تجي غيرها، أكبر منها، وما يندرى لشوكت، وشقد نقدر نحمل.

ـ أي والله. . نقضنا يا أبو فلاح، وتاليها خبز شعير!

وزفر الأسطة عواد، كانت زفرة كاوية صعدت من أعماق قلبه، وكأنه يلوم الحياة والقدر. هز رأسه مرات عديدة، وخرج صوته مسكيناً:

ـ قوم، تيسر، يا أبو فلاح، لان بعد تعب هاليوم ينراد لك أسبوع راحة، والصباح رباح. . .

وأضاف في محاولة لأن يطمئن نفسه وسيفو:

ـ وباچر ما تشوفه الا جاي يهفي: ضحكته شبر، ولا كأنه مسوي فد شي! وإذا أحد سأله: ها مولانا وين هالغيبة؟ وين سيّرت والمن شفت؟ يجاوب ويرد: آني ما عليّ؛ آني كل شيء ما مسوي، وتنقضي المسألة كلها شقا، أو ما أعرف وما أدري، وأبوك الله يرحمه!

ـ آني، أبو نجم، حسون شلته من دماغي نهائياً. هسه كل همي الحصان وأهل الحصان، هاي شلون راح تدبر؟

ـ يا أبو فلاح، بدري ومات، وحتى محمد، عليه ألف صلاة، مات، فشنو ظلت هسه على الحصان؟ قابل نخلقه من جديد؟

وأضاف يكلم نفسه:

ـ شاب راسنا من كثر ما شفنا، وما أدري ليش الله شادّ ويانا؟ شنو ماكو بالدنيا إلا العراق وأهل العراق؟

رد سيفو وابتسامة حزينة ترتسم على شفتيه:

ـ وهذا مو من اليوم ولا البارحة، أبو نجم، لأن الكبارية يسولفون، وسوالفهم أباً عن جد، انه، سبحانه، شادّ عداوة ويا أهل العراق، وما مخلي لهم سچة او درب: كفخات ودفرات، وإذا تعب يسلّط عليهم الطوفان، وبعد الطوفان الجراد والمحل، وهذا كله، أبو نجم، حتى يمتحنهم، حتى يشوفهم شيقولون، فإذا قالوا: الحمد لله والشكر، وهذي إرادتك يا خالق الخلق ويا مالك الملك، يشيل عنهم غضبه، ويقول لهم: خلص، رضيت عليكم، وصرتم خوش أوادم، أما إذا ظلوا يكذبون، مثل هسه، ويفنجرون عيونهم بالسماء، ويقولون ما نقبل، وهذا ما يصير ومو عدل، فسبحانه يعرف ويسمع، حتى النملة يسمع دبيبها، يا أبو نجم، فما راح يقبل، وتعرفه أنت، ما يقبل يسكت، ومثل ما تشوف عينك: مصيبة بطيز اللخ، كفخة ورا الثانية، وما يندرى بعد شنو اللي راح يصير!

الأسطة عواد الذي كان يسمع، ويهز رأسه، لم يكن يتوقع أن سيفو يمتلك هذا القدر من الإيمان أو الحجة على الاقناع، وقد استغرب لما

يسمعه الآن، قال، وخرج صوته ودوداً ومازحاً معاً:

- اللي يسمع كلامك، يا أبو فلاح، يسأل روحه: على ويش العداوة بينك وبين ملا حمادي؟ وليش مو انت تلزم الجامع وتعلم الناس شنو الدين. وشنو اللازم يصير وما يصير!

- أنت وين... واحنا وين، يا أبو نجم؟

هز سيفو رأسه وهو يرد، ثم تابع بسخرية:

الدين، يا أبو نجم، مو بس صوم وصلاة، الدين، مثل ما يقولون، المعاملة، الدين القلب، الدين الحنية، وان يكون الواحد خوش آدمي، ما يزاغل على الناس ولا ياكل أموالهم ولا يتعدى عليهم. أما ان الواحد يحنّي لحيته، ويطول سبحته، ويحوقل بالطالعة والنازلة. وبس ديروا بالكم. وهذا حرام.. وهذا حرام، فهذا ما هو دين، هذا قشمرة، باب رزق...

وابتسم فجأة، وتطلع إلى عيني الأسطة عواد وسأله:

- شقد عندك فلوس، مولانا؟

ولأن الأسطة فوجىء بالسؤال، ولم يدرك المغزى الذي يرمي إليه سيفو، قلب شفته وسأله بدوره:

- ليش تسأل على الفلوس؟ محتاج فد شي؟

- سؤالي يا أبو نجم: شقد تملك بهذي الدنيا؟

- الله عاطي وكافي، يا سيفو!

- كل اللي تملكه، مولانا، ما يساوي عشر معشار اللي يملكه الملاّ حمادي...

وتحولت ابتسامة سيفو إلى ضحكة صغيرة، قبل أن يتابع:

- دين الملاّ حمادي هو اللي يسوي الفلوس، اللي يلقف الطير بكبد السما والسمچة جوا المي، ودائماً عنده الحجة: قال الله وقال الرسول. ولازم تقول أي نعم، تمام. وإذا قلت لا، أو ليش، انت كافر، إنت فاسق، إنت مو خوش آدمي...

استراح لحظة وسأل:

ـ صحيح اللي أقوله، يا أبو نجم، لو آني غلطان؟

ـ يقولون، وأنت تعرف كلش زين: من الملاّ بالك بالك، وآني أقول.. وحتى سيفو إذا حب صار عمك وخالك، وإذا عادى صار مثل ملك جهنم: مالك، فالله يستر اللي تعاديه!

وابتسم الاثنان في محاولة لأن يبددا الحزن الكثيف الذي ينبع من كل مكان، وما هذه المحاورة إلا طريقة للنسيان، أو للابتعاد عن اللهب الذي خلفته الحملة، وسوق الشباب لا يعرف إلى أين، وما إذا سيرجعون أم لا، ثم جاءت دقة حسون، كما أخذ الأسطة اسماعيل يردد حين يذكر اسم حسون.

قام الأسطة عواد. تمطى. قال لسيفو، في محاولة أخيرة ليدفعه إلى الذهاب إلى بيته:

ـ انت قلبك من حديد، لا تتعب ولا ترتاح، فاذا ما تريد تدوّر اهلك وتروح فآني ما عاد بي حيل، لازم آخذ لي غفوة قبل ما يفززني ملا حمادي من غبشة الصبح!

وهو يتحزم، ويسوي ثيابه، وسيفو حائر لا يعرف هل يذهب أم يبقى، قال له، وبدا كأنه يكلم نفسه، لكن يريد سيفو أن يسمع:

ـ يقولون عن الرحمة والحنّية، وذيك المسكينة، فطيم، ما تدري عندها رجال لو ما عندها، واذا عندها هسه يجي، بعد شوي يجي. واذا جاء هسه...

وبغضب مدبر، وقد تغيرت لهجة الأسطة عواد، أصبحت أقرب إلى الأمر:

ـ لك قوم، امشِ، قول عندي مرية واكو عين تسهر علي.

ونهض الاثنان، وما ان توادعا حتى غيّبت الظلمة سيفو الذي كان يتجه بخطى مترددة نحو بيته في الدهدوانة!

101

بعد انتظار طويل، مرير وقاس، جاءت الفرصة أخيراً ليحيى بك القرملي، فقد صدر الفرمان بتعيينه قائداً لحملة الجنوب.

أما زيارة الشمال التي كلفه بها الباشا قبل ذلك، فكانت بمثابة اختبار، إذ لم يعهد له خلالها بمهمة واضحة أو محددة، فقط طلب منه الاطلاع وتفقد الأحوال، لذلك كانت الزيارة أشبه بالرحلة. أو كمن يرسل من ينوب عنه في فرح أو عزاء. أكثر من ذلك، ظن الكيخيا ان مصيره، بعد أن يغادر، وفي إحدى محطات الطريق، سيحدده رسول من الباشا مع كتاب قصير: «ابق حيث أنت إلى أن نبلغك بأوامر جديدة». لكن الأمور سارت باتجاه آخر، إذ كانت تلك الزيارة بداية الصعود، وهذا ما أكده للكيخيا المنجمون الذين استشارهم، ثم جاءه ملاك بملابس بيضاء، أيقظه من النوم وقال له: «السعد جاء، السعد جاء»، وفي ذات اليوم صدر الفرمان!

قبل هذه الزيارة كان يحيى بك ضيق الصدر، بالغ الاضطراب، بل وكان يشعر أنه كالحيوان الحبيس في القسم الغربي من السراي، فهو لا يعرف ان كان كيخيا الولاية فعلاً أو مجرد رهينة أو سجين، وهل الباشا راض عنه أو غاضب عليه. كان قلقاً مملوءاً بالظنون. حين يلتقيه الباشا، وغالباً في المناسبات أو أثناء استقبال الوفود. تملأ وجهه ابتسامة عريضة، ويعامله بود ظاهر، ويحرص على أن يرى ذلك الآخرون، للتدليل على المودة والانسجام بينهما، كما يهمس في أذنه: «انت ذخرنا وعليك الاعتماد في الأيام الصعبة، يا يحيى بك». ورغم الغيظ الذي كان يموج في

صدر الكيخيا بسبب تجاهله وعدم إسناد أية مهمات جدية له، يبادل الباشا وداً بود، ويبالغ أمام الآخرين في إظهار الاحترام والتقدير. فإذا انتهى اللقاء، وعاد الكيخيا إلى جناحه، يقول لنفسه في محاولة لإزالة كل الظنون: «. . . لا . . لا . . هذي النوبة تأكدت بنفسي، مو قال عن قيل، لان قلبي حچى وقال: مثل داود باشا بالدنيا أبد ما تلقى واذا سها أو نسي فالله يساعده، لأن الناس خابصينه، ما مخلين له وقت حتى يشوف دربه، لكن يجي يوم . . ويتفطن».

وبعد كل لقاء، وخلال الأيام التالية، وغالباً ما تمتد تلك الأيام لتصبح أسابيع، يتغير مزاج الكيخيا. يكف عن ذرع الديوان الطويل، ويجلس بأبهة باذخة وراء مكتبه هادئاً مفكراً فيما يجب أن يعمله! ويقدّر الرجال الذين حوله، من الهدوء المسيطر، ان مزاجه قد راق، خلافاً للأيام السابقة، والتي لم يكن يسمع خلالها سوى وقع أقدامه تضرب أرض الديوان، خاصة حين يستدير، الأمر الذي يجعلهم لا يقتربون أبداً. حتى نظمي، خادمه الخاص، الذي يحمل إليه القهوة والغليون، يشق باب الديوان بحذر شديد ويطل برأسه، فإذا رآه البك وأمره ان يأتيه بشيء لبّاه فوراً. أما إذا تجاهله، أو لم يفطن لحركته، فانه يغلق الباب بحذر أكبر وينسحب. وحين يُسأل نظمي عن الجو، يرد، وهو يضع إصبعه على شفتيه، بكلمة أصبحت اصطلاحاً بين المجموعة المحيطة بالبك «مسافر». ومعنى ذلك أن لا يقترب أحد، وان لا يُزعج البك بطلب أو سؤال، لأن غيظه في ذلك الوقت يكون بالغاً ذروته، الأمر الذي يحمله على شتم، وربما ضرب، أي إنسان يقطع عليه أفكاره وأحلامه، أو يعيده من ذلك «السفر».

بعد كل لقاء بالباشا يعود الكيخيا وحده من أسفاره البعيدة. يصبح إنساناً متواضعاً، يتبسط بالحديث مع الذين حوله، يميل إلى البشاشة، وقد يمزح، كما يغدق على مساعديه، ويستجيب لكثير من المطالب المؤجلة. أما حواسه خلال ذلك فتتيقظ، وتتركز بشكل خاص على زوار الباشا. يستقصي أخبار كل زائر جديد، كم قضى لديه من الوقت، وما إذا خرج

راضياً أم غاضباً، وهل مر على نادر أفندي أو لم يمر. هذه الأخبار، أو ما يشابهها، تعني له الكثير، لأن أهم شيء أن يروق مزاج الباشا، وان يعود إلى طبيعته، اذ عندها سيتذكر رجاله الأقربين، وما يجب أن يفعله من أجلهم، لأن الخشية، بل وحتى الخوف، كما يقول الكيخيا لنفسه من «هذول الحبربشية، اللقامة، أولاد الزفرة، اللي يحملون الأخبار الرديئة ويركضون للباشا: قالوا. . وقالوا، وعندها ينكسر واهسه وتروح هذي بذيك!»

كان الكيخيا يبقى متحفزاً منتظراً استدعاء الباشا له في أية لحظة، إذ لابد ان يصل خلف، ويطلب منه، والارتباك بادٍ عليه، ان يتفضل للقاء الباشا. وفي اللقاء الذي سيضمهما على انفراد، وبعد كلمات المجاملة، لابد ان يفضي إليه بما يفكر فيه، بما يجب ان تكون عليه العلاقة بينهما، خاصة وانه الكيخيا، أي الرجل الثاني في الولاية، ولا بد أن يفوضه بكل الصلاحيات المخولة للكيخيا، كما جرت العادة، سيقول له: «. . . لازم نذبحها على قبلة يا باشا، لاني ما عدت قادر على الصبر. إذا تريدني، ولك ثقة بي، فاني على العهد، يمكن أن أنوب عنك بأمور كثيرة، أما إذا لك رأي ثاني فأطلب الاستعفاء أو النقل» وسيرفض الباشا بكل تأكيد، ولابد ان يسترضيه، ليس بالكلمات وحدها، وإنما باصدار الفرمان. وسوف يقول له: لقد تعبت وآن لي أن استريح، وانت ستتولى: أمور الجيش، وشؤون البدو. . وكل ما تراه ضرورياً.

لكن خلف لا يأتي. تمر الأيام ولا يأتي. وتزداد حيرة الكيخيا في تفسير هذا الغياب، أو إلى متى سيستمر النسيان؟ لكن الباشا لا ينسى تماماً، فما ان يصل وفد إلا ويبعث وراءه، ويكرر الترحيب ويظهر المودة، ويعيد الكلمات ذاتها التي قالها في مرة سابقة! وتزداد حيرة الكيخيا ويزداد قلقه.

إذا تأخرت الوفود عن السراي، أو لم يكن لدى الباشا الوقت لاستقبالها، لابد ان يطل خلف، لا ليرى البك أو ليطلب إليه الحضور، وإنما بزيارة خاطفة لأقرب رجال الكيخيا. كان يأتي بين فترة وأخرى، لكن

بسرعة، ليهمس ببضع كلمات، وهذه الكلمات تُفهم أو تفسر بأشكال عديدة، وكلها تؤكد الثقة والمودة التي يكنها الباشا لكيخياه، ويضيف خلف، وهو يتلفت، لئلا يسمعه أحد، ان أشياء هامة سوف تحصل في وقت قريب.

يحيى بك الذي يعرف بسرعة ان خلف في ديوانه، ونظمي ينقل إليه ذلك، يجد انه من غير اللائق، بحكم موقعه والسن، استدعاء خلف ليسمع منه. بل ويجد أنه من غير اللائق ان يسأل رجال ديوانه بشكل مباشر عما قاله خلف. يترك الأخبار تتسرب إليه على شكل نتف، على مراحل، قدر ما يسمع نظمي أو قدر ما يستوعب! لكنه في داخله يتحرق لمعرفة أدق التفاصيل، ويتمنى لو سمعها مباشرة!

وتنقضي أيام كثيرة والتوقعات لا تنتهي. فإذا امتد الوقت دون ان يحصل شيء، وأكثر مما يطيق الكيخيا، يبدأ «السفر». وبين رحلة واخرى، ولئلا ينفجر، لا بد أن يفعل شيئاً. وقد وصل إلى حلول كانت تمتص جزءاً من الغيظ: الطعام والزواج. كان يهتم بالأكل إلى أقصى حد، وكان لديه طباخ فارسي، جمشيد برهاني، يعرف كيف يلبي رغباته بإعداد أنواع من الأطعمة لا يحسنها غيره من طباخي السراي. فإذا لم تشبعه أطباق اللحم المطبوخ، لابد أن يبحث عن اللحم الحي، شرط أن يكون على سنة الله ورسوله، كما يقول، ومعنى ذلك ان يتزوج امرأة جديدة، بعد أن يطلق واحدة من الزوجات القديمات، لئلا يزيد ما عنده على أربع! لكن كثيراً ما يخطىء الكيخيا في الحساب، وكان شمسي أميني، نائب المفتي، يجد له فتوى مناسبة، تكون أغلب الأحيان بإطعام عدد من المساكين!

الباشا يعرف كيخياه معرفة جيدة، ويحسن التعامل معه، إذ بالإضافة إلى مظاهر الفخامة التي وفرها له، والأموال التي وضعها تحت تصرفه، كان يتذكره بين فترة وأخرى بخلعة جديدة، أو مجموعة من الهدايا. ولا ينسى أن يخصه بأعداد كبيرة من الطيور والغزلان التي تصل إلى السراي. كما تفقّده مرات عديدة بكميات من العسل الذي كان يوصي عليه من

الشمال! أما الهدية الخاصة، الثمينة، وكانت من روح العسل، التي وصلته ذات يوم من أحد أصدقائه العسكريين في اليمن، فقد بعث فوراً بها إلى نائبه، مع كلمة قصيرة خطها بنفسه «. . . ويقول صديقي وجدي بك ان هذا النوع من العسل الملوكي لايعيد القوة والحياة فقط، بل ويجعل ابن السبعين أقوى من رجل في العشرين!».

أما زيجات يحيى بك، وكان يحرص على أن تتم دون جلبة، أو بأقل جلبة ممكنة، فقد حضر الباشا، على غير توقع، اثنتين أو ثلاثاً منها، وقدم فيها هدايا تليق بالمناسبة، الأمر الذي أحرج الكيخيا كثيراً، إذ لم يكن يتوقع أن يصل إلى علم الباشا مثل هذه الأخبار بتلك السرعة، أو ان يحضر خصيصاً للتهنئة والتبريك!

وعقب أية لفتة كريمة، أو تصرف غير منتظر من الباشا، يزداد يحيى بك حيرة، كيف يجب أن يتعامل مع الوالي، أو كيف يحدد موقفه منه. إنه يحبه ويكرهه في آن واحد. وإذا كانت الكراهية لا تعبر عن حقيقة مشاعره تماماً، فإن ما يحس به تجاهه هو الغيظ.

لقد اختلف الباشا كثيراً عما كان في السابق. انه الآن أشد تحفظاً وأكثر صمتاً. لكن ليس تجاهه وحده، بل تجاه الآخرين أيضاً. كان يحيى بك يسأل نفسه. ويتساءل أمام عدد من أصدقائه المقربين «. . . يا جماعة الخير. . داود باشا اللي نشوفه هذي الأيام غير داود اللي كنا نعرفه، غيره أيام سعيد، وغيره وهو في الحضرة الكيلانية. أما أيام الشمال، وتذكرون، فكان يباوع بوجوهنا ويقول: إذا الله يسر ومكّنا، راح تصير الولاية غير ولاية. وبعيونكم راح تشوفون. وكل واحد حارب ويّانا، كل واحد من «الجماعة» راح ينال حقه وزود، ويبقى رافع راسه إلى ان يموت. وحتى ولِده راح يكونون معززين مكرمين. فشنو اللي صار بالدنيا؟ منو تغير احنا أو هو، ام الدنيا تغيرت وما عاد أحد لأحد؟»

حين يتساءل يحيى بك هكذا، لا يتوقع، أو لا يريد، جواباً، لأنه بمقدار ما يخاف الإجابة على مثل هذا السؤال، أمام الآخرين، يحدس م

يفكر فيه الآخرون. ولا ينتظر منهم أي جواب، لكن في قرارة كل واحد منهم ان داود تغير، تغير كثيراً، وضع مسافة بينه وبين أغلب رجاله السابقين. وهذه المسافة تبدو لمن يراقب ويتابع، تتسع وتكبر، لأن الباشا، بالإضافة إلى العزلة التي فرضها على نفسه، لم يعد يلتقي إلا بعدد محدود من رجاله، ولا يُعرف متى يفعل ذلك، لأن جو التكتم التي فرضه على السراي أضحى شديداً لدرجة أن لا أحد يجرؤ على نقل ما سمع أو ما رأى للآخرين. وإذا صدف ان التقى الباشا بأحد فإنه يستمع أكثر مما يتكلم، وينظر إلى عيون من يحدثه، وكأنه يريد قراءة الأفكار والنوايا أكثر مما يريد سماع الكلمات التي تقال له. فاذا تحدث تخرج الكلمات من بين شفتيه زلقة، محاذرة، خلافاً لطريقته عندما كان في الشمال. كان ذلك الوقت، يتكلم كثيراً، ورغم ما كان يشوب كلامه من انفعال، فهو شديد الوضوح، بالغ الصراحة، أو هكذا كان يبدو. الآن لا يُعرف بماذا يفكر، أو ماذا يريد. فكلماته تشير ولا تقول، وحين يقرر أمراً يبلّغه عن طريق رجال الديوان، وغالباً ما تكون أوامره قصيرة، سريعة، وغير قابلة لأي نقاش!

حين تشكل الأمور هكذا على يحيى بك، وفي محاولة لتخفيف مشاعر النقمة على الباشا، كان يقول لنفسه: «. . . يظل الباشا مثل أب. أشغاله كثيرة، ما تخلص، وسبحان من لا ينسى. لكن إذا هناك أحد دمّر الأول والتالي فهو الآغا، هو السبب وهو العدو». ويتذكر كيف دخل الآغا إلى السراي كالزوبعة، إذ بعد أن استولى على القلعة وأبواب بغداد، ووضع رجاله هناك، أصبح الآمر الناهي. حتى الباشا كان يخشاه، بل وصار أسيراً بيده، وقد اكتسب تلك القوة حين حزّ رأس سعيد وقدمه هدية إلى الباشا. أما بعد معارك الفرات الأعلى، فلم تعد الأرض تحمله، أصبح مغروراً مثل طاووس، وأصبح يقول، دون كلمات: أنا ربكم الأعلى. ويا ويل من يقف في وجهه.

احتمل الباشا الكثير. كان يتظاهر أنه لا يرى. ولا تصله أخبار الآغا.

لكن لما جاءت الفرصة المناسبة، قال للآغا: «يا آغا. . أهل الشمال يسألون عنك، وبينهم نزاعات ومشاكل لا يحلها إلا أنت، وهم لا يقبلون غيرك يحكم بينهم، فأريدك في الشمال!» وأرسله إلى الشمال، وذاك يوم وهذا يوم وهو هناك!

وأخذ يستعيد لقاءاته الأخيرة بالآغا في كركوك:

كان الآغا، خلافاً لما عرفه من قبل، ودوداً هادئاً في أحاديثه وبتصرفاته. أما حين تحدث عن الباشا فقد فعل ذلك باحترام شديد. وكأنه في حضرته. كان يريد أن تصل إلى مسامعه لا الكلمات وحدها، بل والطريقة التي قيلت بها، رغم تأكده ان الباشا وضع حوله العيون، وهؤلاء لا يتوقفون عن نقل كل شيء، حتى التفاصيل الصغيرة. مع ذلك كان حريصاً على أن يسمع الكيخيا أيضاً، وان يدلل على نواياه الحسنة أمامه!

قال الباشا ليحيى بك، وهو يوفده لتفقد أحوال الشمال: «. . . والآغا ما ينباق لسانه، ما يقول اللي بقلبه، إلا إذا تعمر راسه، إذا كروع وشرب مثل عقرق. وعندما يفك حزامه ويمد رجليه، إعرف أنه خلص وراح يطلّع اللي ببطنه، وبذاك الوقت نعرف شلون نداويه. فكل ما أريده منك ان تحوفه من هنا لهنا حتى يقول، حتى يتكلم، وبعدها الله كريم».

والكيخيا الذي ظل فترة طويلة من شبابه وأول كهولته لا يقرب الخمر، اكتشف متأخراً ان الخمرة ليست سيئة، كما يقولون. كان هذا الاكتشاف حين دعاه أحد أصدقائه الأرمن، وقدم له طبقاً من البط المطبوخ. كان الطبق لذيذاً إلى درجة أن طلب الكيخيا إرسال طباخه، جمشيد، لتعلم طريقة اعداده. وأخذ جمولي، كما يسميه الكيخيا، يعد الطبق بنفس الطريقة التي تعلمها. ولما امتدح عدد من ضيوف الكيخيا الأكل، وقالوا وهم يتلمظون «. . . هذا مو بط، مولانا، هذا فستق، أطيب من الفستق» وكان هؤلاء من رجال الدين الذين يعرفون، «طعم حلقهم» كما قال الكيخيا، فقد شعر بالفخر لهذا المديح! جمولي لم يستطع أن يخفي عن سيده، بعد أن وصله المديح والثناء، ان ما يعطي طبق البط هذا المذاق، الخاص واللذيذ، الخمر

الذي تنقع فيه الطيور ليلة بكاملها، ثم الخمر، وهو من نوع ثانٍ، الذي يضاف قبل أن ينضج بقليل! والكيخيا الذي أجفل أول الأمر، وتطلع حواليه، ما لبث أن هز رأسه وقال لجمولي بطريقة لا تخلو من مكر:

ـ لو خليتها سنطة، يا ابن الحرام، لو ما قلت، چان الله غفر لنا، لكن هسه شلون؟

وجمشيد الذي يعرف سيده جيداً، وقد عمل لديه منذ وقت طويل، رد بمكر لا يقل عن مكر الكيخيا:

ـ إحنا ما علينا، عمي، نحطّها برقبة الأرمن، خلي الله يحاسبهم ويفتصل وياهم!

ولان الكيخيا خلال تلك الفترة لم يكن بمزاج رائق، فقد رد مغضباً:

ـ أنت مثل عادتك ما تجوز من المكسرات: وين اكو سالفة تغث، تشوط الفؤاد، تشيلها حارة وتذبها بشليلي!

ـ لكن يقولون، عمي، ان النار إذا لاحت أي أكل تطّهره، يصير حلال!

ـ اش ما قلت، الشهادة لله، أخبث منك ماكو. تقول للحرامي بوق.. ولأبو البيت دير بالك!

ـ آني ما عليّ، عمي، هم هالشكل يقولون!

زين.. زين، نوبة ثانية تركّب الأكل بليّا ما تقول لي حطيت فلان شي وفلان شي. سمعت؟

ـ أمرك عمي!

ولم يتأخر الكيخيا ليطلب تذوق النبيذ، ثم الشراب الأقوى، الذي يضاف إلى طبق البط، واكتشف ان مذاق الأول خفيف مستساغ، أما الشراب الآخر، والذي لم يكن جمشيد نفسه يعرف اسمه، فقد كان ثقيلاً، كاوياً، «وينوّم بالعجل» كما وصفه الكيخيا، وهكذا أخذ يحتسي مقداراً من النبيذ. وهذا المقدار يتوقف ويتناسب مع برودة الجو، ومع الحالة النفسية التي تسيطر عليه. كان يفعل ذلك بتكتم شديد، وأمر ان يتولى جمولي

وحده تقديمه له، وبسرية كاملة، كما أمره ان يجيب، فيما لو سئل، ان ما يقدّم حساء أو دواء، وزيادة في التمويه أخذ جمشيد يقدمه بأطباق الحساء!

تذكر الكيخيا احداثاً كثيرة، ومرت أمام عينيه مشاهد اكثر، وهو يقطع الطريق إلى الحلة، حيث سيكون هناك مقر قيادته في هذه الحملة التي انتظرها منذ وقت طويل.

لقد جاءت الفرصة أخيراً. فتحت أمرته الآن أحسن القطع العسكرية الموجودة في الولاية كلها. قال له الباشا وهو يودعه: «. . . وإذا لزم الأمر، يا يحيى بك، سوف نرسل إليك المزيد من الجنود والعتاد. المهم إخماد العصيان، وتلقين هؤلاء البدو درساً قاسياً ليعرفوا من هي الدولة ومن هو الوالي، وحتى يقولوا: ان الله حق».

ولأن الفرصة جاءت، يجب ان يقبض الكيخيا عليها بأسنانه، سوف ينفض عن روحه الغبار الذي تكدس خلال السنين الأخيرة، وسوف يثبت لدواد، لكل الآخرين، من هو يحيى القرملي، وماذا يمكن ان يفعل، خاصة وان الكثيرين لم يعودوا يحسون بوجوده، أو يتذكرونه. قال لنفسه، وقد أصبح قريباً من الرضوانية، حيث يستريح ليومين قبل أن يواصل سفره: «داود لا يتحمل ان يكون إلى جانبه أحد قوي، ولا يريد لغيره ان يظهر، وهو يختلف عن الولاة الذين سبقوه: السلطة بالنسبة له أهم وأغلى من كل العواطف، وهي فوق القرابة والصداقة، لأنه يخشى أن يكون مصيره مثل مصير سعيد أو التوتونجي وأغلب الذين سبقوه».

قال لجمولي الذي سبقه إلى معسكر الرضوانية:

ـ من هنا إلى ان نوصل الحلة: كل يوم بط، لان بعد الحلة ما يندرىٰ شنو اللي يصير، سمعت؟

ـ أمرك ـ سيدي!

ولما رأى الكيخيا على وجهه ابتسامة استغراب، سأله بتحدٍ:

ـ شنو. . أشوفك مسوي روحك أعرج. . وهمين لابس قبقاب!

والعياذ بالله، سيدي، لكن اللي أعرفه ان البط من الحلة وانت

نازل . . .

وابتسم جمولي، وهو يضيف :

ـ حتى البدو اللي ما ياكلون اللحم الا بالعيد، واقعين دق بالطيور . واللي يوصلنا لبغداد أقل القليل!

ـ تظل اثول شقد ما نعلّمك، لك البط ينراد له زردوم طري حتى ينبلع !

وصاح الكيخيا على نظمي، الذي لم يكن بعيداً :

ـ لك. . تعال، اسطر لي هالمطي سطرتين حتى يتعلم!

وبطريقة تمثيلية، ولكي يضحك الكيخيا وضع جمولي يديه حول رأسه، وكأنه يحاول تجنب الضربات التي ينهال بها نظمي عليه، وهرول وهو يردد :

ـ التوبة. . سيدي، وما يصير الا اللي تريده!

ولم يتأخر لكي يحمل اليه، بآنية الحساء، شراباً يرطب به حلقه بعد عناء يوم طويل!

102

رغم ان الأخبار تأتي لداود باشا من مصادر عديدة، الا أنه لا يعمل إلا بعد أن يتأكد، وتكون الخطوة الأخيرة، قبل الاقدام على اتخاذ قرار كبير، استشارة محب الدين المرادي، كبير المنجمين، والملازم له في السراي.

ومحب الدين المرادي، لأنه رافق الباشا منذ وقت طويل، يعرف متى يصمت ومتى يتكلم، خاصة وان له عيونه في السراي، في الجناحين، ينقلون إليه الكثير، وهذا ما يجعل مخاطبته للنجوم، أو مراجعته للكتب، مختلفة عن منجمين آخرين، ويجعل كلمته عند الباشا محل اعتبار وثقة. كان يروق له، بعض الأحيان، رغم ميله إلى الصمت في حضرة الوالي، ان يحدثه عن الخدع التي يلجأ إليها المنجمون، ولإثبات رأيه يطلب ان تُجرى الاختبارات، ليتأكد الباشا بنفسه! وقد نجح مرات عديدة، بحيث أصبح مركزه في السراي قوياً إلى درجة لا يمكن لأحد أن يزاحمه. كما كان موضع خوف الكثيرين، لأنه إذا لم يعرف الأسرار، يمكن ان يشوّر، حسب رأي مرافقه معين.

ولأن سمنته المفرطة كانت تعيقه عن الحركة النشيطة، وتحد انتقاله من مكان إلى آخر بسهولة، فقد أصبح ولداه معتز وصائب لا يفارقانه، وينوبان عنه، بعض الأحيان، في استقبال كبار موظفي السراي. وبمرور الوقت أصبحا يقومان ببعض الأعمال التي كان يقوم بها سابقاً، وتخصص هو في تلبية الواجبات المتعلقة بالباشا، وببعض الذين يطلب الباشا ان يقرأ لهم الطالع.

ومع الولدين كان مرافق الظل، معين، وهو رجل متين الجسد، بالغ القوة، مهمته ان يساعده على الحركة والانتقال، إضافة إلى تلبية مطالبه وتقصي الأخبار والأسرار، خاصة وان له علاقات واسعة، ويعرف كيف يستدرج الكثيرين للكلام.

كان معين بالإضافة إلى صفاته الجسدية التي لا غنى عنها، يعرف كيف يشيع جواً من الرهبة حول سيده: نبوءاته الخارقة؛ معرفته بأسرار ما حصل وما يمكن أن يحصل؛ الأذى الذي يمكن ان يلحقه بمن يخالفه أو يشكك بمقدرته. يقول ذلك وهو يروي الكثير من الحوادث.

مقابل الخدمات التي يطلبها معين ممن يتصلون به، لعل الشيخ يشفيهم من مرض أو يعيد لهم غائباً، أو يكشف عما ينتظرهم، كان يجمع أسراراً جديدة تنقل في نفس اليوم، وأحياناً في نفس الساعة، إلى الشيخ محب الدين، ويتلقى أيضاً مبالغ سخية لقاء ذلك.

وإذا كان الشيخ محب الدين حريصاً على الأسرار التي ينقلها إليه معين. فان حرصه على الأموال التي وصلت إليه لا يقل عن ذلك. كان يتطلع إليه، وهو يحدثه عما سمع، فيحرك أصبعي يده اليسرى، الابهام والسبابة، بطريقة لا يمكن لأحد ان يخطىء في الفهم أين هي أموال ذلك اليوم؟ فاذا تغاضى معين عن رؤية الاصبعين، أو تردد في وضع المبالغ التي تجمعت لديه على طرف الفراش الذي يجلس فوقه الشيخ، يقول له ببرودة وبحزم معاً:

ـ طلّع. . طلّع قبل كل شي، ولا تدوخني بقال وقلنا!

ومثل عادته معين، يتظاهر أنه سها، ويبدأ يبحث في جيوبه، وكأنه نسي أين وضع النقود، لكن يجدها بسرعة، لأن أي خطأ مع الشيخ يرتب نتائج خطيرة، أقلها أن يسمع شتائم لا يظن أحد أن الشيخ محب الدين يعرفها، أو يمكن ان يتفوه بها.

يقول، وابتسامة ماكرة ترتسم على شفتيه:

ـ بلاّع (. . .) تعلمت القسمة؟ صار براسك غيرة وصرت تقول هذا

الي وهذا لغيري؟

ويقف معين، وهو ينفض ملابسه، دلالة انه اعطاه كل شيء، ويقسم الايمان انه لم يبق لديه بارة واحدة، وينتهي بان يقول:

- إذا ما تصدقني انزع هدومي حتى تتأكد!

- تنزع هدومك؟ تتصلخ؟ هذي العايزة!

ويعود الشيخ إلى سبحته أولاً، وبحركة يده يطلب منه ان يواصل ابلاغه بما رأى وبما سمع. وحين يجلس معين بين يديه مجدداً، يقول له قبل أن يدعه يتكلم:

- مية مرة قلت لك: هذي الفلوس للأيتام والقُصّر، وللناس اللي طايح حظهم، ويحرم عليّ أكل فلس منها!

ويروي معين الكثير من الأخبار والأسرار فتتغير معاملة الشيخ له، يضحك لما يسمع، يهز رأسه، يضرب على فخذه دلالة الأهمية ولئلا ينسى، ويمد يده الى جيبه، يخرج قطعة نقود، وهو يقول:

- هذا من جيبي، مو من أموال الايتام، مصروف هذا اليوم، وبس تتجمع عندك فلوس كافية راح ازوّجك خوش بنّية!

ومع ان معين متزوج، ولديه عدد غير قليل من الأولاد، إلا أنه المرض الذي أصاب الشيخ محب الدين أُصيب بعدوى: الرغبة في التغيير!

كان الشيخ محب الدين خلال الليالي التي يقضيها في السراي، وهي كل الليالي عدا الاثنين والخميس، يعوّض عن لقاء نسائه بالحديث عن جميع النساء. وأكثر ما يروق له ذلك مع يحيى بك ومع شمسي أميني نائب المفتي.

تعوّد ان يلتقي الثلاثة عند الشيخ محب الدين، باعتبار ان حركته ثقيلة. ولأن زوجاته يعشن خارج السراي، مما يتح ان يجري الحديث، وما يرافقه من ضحكات عالية، دون تحفظ، وبلا رقابة. ورغم ان الثلاثة كانوا يشاركون في الحديث بنشاط وحيوية، الا ان الشيخ محب الدين كان السيد، نظراً لتجاربه، ولما لديه من مراجع يمكن الاستعانة بها في بعض الأحيان.

ومع ان الشيخ محب الدين حازم في قبول أو رفض من يكون في جلسه، خاصة في البداية، فان الموقف لا يلبث ان يلين بمرور الوقت، ولكن إلى حد لا يتجاوزه. اذ مثلما يحرص الشيخ على وجود ابنه معتز، باعتباره كبيراً ومتزوجاً، ويجب ان يلم بما يعرفه الكبار والمتزوجون، فان صائب الذي يدفعه حب الاستطلاع ان يكون موجوداً، أو أن يسمع ما يقال، يلجأ الأب، ليعطي درساً للآخرين، لنهرِه طالباً منه أن يترك المجلس، وقد يكلفه بأمور تقضي بمغادرته للسراي، لكن صائب يعرف كيف يحتال على الأمر، ويبقى حاضراً، إذا لم يكن كل الوقت، فالقسم الأكبر منه، بحجة خدمة الضيوف، أو تلبية بعض الطلبات. كما ينيب عنه آخرين لتأدية ما طلبه منه أبوه!

يحيى بك، الذي يصل المجلس في العادة متأخراً، ويبدو متجهماً مهموماً، وغالباً ما يعطي للقاء طابعاً جدياً في البداية، من خلال الأحاديث التي يخوض فيها، إلا أن شمسي أميني يعرف الوقت المناسب كي يوجه الحديث وجهة أخرى. يفعل ذلك بسؤال الشيخ ما إذا وصل الدواء الذي وعده به، لأنه لم يعد قادراً على الانتظار أكثر مما فعل، ويتبع ذلك برجاء وتهديد. يجري الحديث برموز لا تخفى على أي منهم، ولا تخفى على بعض الذين يكون وجودهم ضرورياً في المجلس من أجل تلبية الطلبات، خاصة جلب الماء وبعض الأشربة، إلى تعمير الغلايين، أو تقديم القهوة وإمرار المباخر والعطور.

حالما يأخذ الحديث ايقاعاً، وكان الشيخ محب الدين يحسن الحركات والاشارات مثلما يحسن الكلام، يتحول يحيى بك إلى طفل كبير: يتحرك جسده بسرعة وخفة، وينزع جزءاً من ملابسه بمثل السرعة التي ينزع التجهم عن وجهه، كما تعلو ضحكاته وكأن أحداً يكركره. فإذا أخذ الحديث منحى متعلقاً بالطعام والشراب، فلا بد ان يستدعي هذا «العجمي الملعون» جمشيد، أو جمولي كما يسميه، لكي يتعلم كيفية اعداد تلك الأطعمة والأشربة. وشمسي أميني الذي لا يمانع، لا يحب أن ينقطع

الحديث أو يتباطأ إلى أن يأتي جمولي. يقول بطريقة لا تخلو من تعريض:

ـ بابا خلونا نسمع باقي السالفة، ولاحقين على القراية والكتبة!

فيرد يحيى بك بمرح:

ـ يا شيخنا، هذي المسائل ما يكفي بها الكلام، نريد الشي اللي يعبي الدماغ، نريد الفعل، اي نعم، الفعل، مولانا!

ويستمر الشيخ بالحديث، لكن بتمهل وبطء، لأن إرضاء يحيى بك أمر هام بالنسبة له، ولكي يجعله أكثر اقتناعاً، يضيف:

ـ وآني راح أملي على معتز الوصفة، وهو يعلمها لمن تريدون.

ويتغير صوت محب الدين وهو يتابع:

ـ «. . . تؤخذ ألسنة العصافير، وبزر الجراجير، وبزر اللفت من كل واحد مثقال، ويدق الجميع ويستف منه مثقال ويشرب عليه شراب حلو، وعقيد العنب فانه جيد.

«واعلم ان الخواص لها في هذا الباب فعل عظيم، فمن ذلك ان خصي العجل الأصفر إذا مُلحت وجففت وسُحقت واستفت أعانت على الباه، وذكر الثور إذا مُلّح وجفف ثم يسحق ويشرب منه قدر حمصة مع شراب أو لبن أو بيض نيمرشت فانه يفعل فعلاً عجيباً. وكذلك انفحة الفصيل المجففة تفعل في الزيادة في الباه فعلاً عجيباً حسناً إذا أخذ مقدار الحمصة، وقيل ان خصية الثعلب اليمنى إذا جففت وسحقت وشرب منها درهم بماء التمر قدر كأس فعل فعلاً عجيباً من الزيادة في الباه.

«وقال جبرئيل الطبيب: ينبغي لكل من فرغ من الجماع ان يشرب عقيبه قدحاً من ماء العسل، فانه يرد الصلب إلى حالته ان شاء الله».

ويكون جمولي قد وصل في أحد مقاطع الحديث فيدخل أول الأمر متهيباً خائفاً، إذ يظن ان البك غاضب عليه لأمر ما، لكن حين يسمع فيفهم ولا يفهم، يهدأ، يجلس في الركن، وقد فغر فاه، ويتابع. فإذا انتهى الشيخ محب الدين يسأل يحيى بك طباخه:

ـ ها، شلون، أسطة، افتهمت لو لا؟

وحين يرفع جمولي كتفيه، دلالة أنه لم يفهم جيداً، يقول يحيى بك بأسى:

ـ لا بالله حصّلنا، فاذا اهل الصنعة تاهت عليهم شلون غيرهم؟

يهز رأسه عدة مرات ويقول، كأنه يخاطب نفسه:

ـ الله بيم بلا ويرسون

ويتغير صوته، يصبح ودوداً وهو يسأل جمولي من جديد:

ـ شنو اللي افتهمته، ابني؟

ـ كل اللي افتهمته، عمي، خصوة أبو الحصيني إذا اندقت زين وانخبطت ويّا التمر تفيد!

ويسأله شمسي أميني بمداعبة:

ـ تفيد شنو.. جمولي؟

يتلفت جمولي إلى أكثر من جهة، وكأنه يتوقع مساعدة من أحد، وحين لا تأتيه تلك المساعدة، يرد بحيرة:

ـ آني، بعمري، ما مركّب خصاوي واويات، عمي، وبعمري ما ذايقها، فما ادري!

ويحسم معتز المسألة، يخاطب جمولي، ويريد للآخرين ان يكفوا عنه:

ـ تمر عليّ باچر وآني أفهمك كل شي!

ـ من صياح الديك، من ساعة ما يقول الموذن: الله أكبر، تشيل روحك وتجي يم معتز، افتهمت؟

يقول شمسي أميني بمرح:

ـ خلوا معتز ينام ويشبع نوم، مولانا، ليش مستعجلين؟ شنو صاير بالدنيا؟

ـ باوعوا الفسقان، مترهي ويقسّم، ولا كأن الناس متوازين، وينتظرون رحمة الله اليوم قبل باچر!

ولأن لا أحد فطن لمعين طوال الوقت السابق، يقول، وهو ينظر إلى

الشيخ، كأنه يستأذنه:

آني، من الغبشة، أوصل الخط بنفسي.

يرد يحيى بنزق:

ـ أنت ما عليك، لأن المسألة ما تنحل بنقش كلمة والثانية!

وفي خضم انتقال الكلام من جهة إلى أخرى، ولأن معين اشترك في الحديث، يتشجع جمولي فيسأل:

ـ وخصاوي أبو الحصيني والذيب، وما ادري بعد شنو، منين نجيبها؟

يرد عليه يحيى بك بغضب:

ـ هذا مو شغلك، انت عليك تركّب. تعلّم شلون تتسوى المسائل، وما عليك بغير شي!

حين ينقل ما دار من أحاديث إلى الباشا، يبتسم بحزن، يهز رأسه، ويقول لنفسه بصوت عالٍ.

ـ اي بالله الدنيا بألف خير: بغداد مبنية بتمر، فلّس واكل..

وبعد قليل، وهو يبتسم:

ـ لكن النوى بعبي... وتاليها الحساب!

103

الحاج صالح العلو، الذي كان طويلاً مثل رمح، وله شاربان مشذبان يدلان على الاعتداد بالنفس، لكن دون غرور، وتميزه لحية صغيرة يختلط فيها البياض بالسواد، أصبح خلال فترة قصيرة، أو منذ اللحظة التي رأى فيها ابنه قتيلاً، شخصاً آخر، مختلفاً. لفّه الصمت في كركوك، ثم أثناء رحلة العودة، وما لبث الصمت ان تحول إلى شرود، اذ لم يعد يسمع الأحاديث التي تدور حوله، كما لم تعد له رغبة بالكلام أو أن يكون بين الناس. أما عيناه المتألقتان، وكانتا تضحكان باستمرار، فقد أصبحتا مليئتين بالأسى، وبدتا وكأنهما تحدقان في الفراغ. وانحنى جسده قليلاً وضمر، كما ابيضّ الشاربان واللحية بسرعة فبدت كأنها لم تعرف السواد في يوم من الأيام!

صحيح أن هذه التغيرات لم تقع فجأة، أو دفعة واحدة، لكن تتابعت بسرعة كبيرة، حتى ان الذين جاءوا لتعزيته او للتخفيف عنه فترة لاحظوا صمته وشروده، بل بدا لهم كأنهم لا يعرفونه، أما حين رأوا عضلات وجهه تتمدد وتتقلص دون إرادته، ورأوا يده اليسرى تنتفض كما لو انها تقاوم ضغطاً، او شداً، فقد تظاهروا انهم لم يروا شيئاً، لئلا تفسر نظراتهم شفقة أو عطفاً، الأمر الذي حمل ابنه قدوري على ان يريحه ويبقيه بعيداً، وما عاد الناس يرونه بعد ذلك إلا نادراً.

لم يبق أحد ممن يعرف الحاج صالح، أو سمع بما وقع له، الا وأبدى أسفاً وصل إلى درجة الحزن لهذا المصاب. ورغم المحاولات الكثيرة التي

بُذلت في معالجته الا انها لم تسفر عن نتائج مرضية. ولأن الاجابات أصبحت هي ذاتها التي تتكرر حين يُسأل أحد ابنائه أو أقاربه عن حاله، **فقد** كف الكثيرون عن السؤال، أو كانوا يقرأون الإجابة في وجوه اولاده والأقارب حتى لو لم يسألوا. وشعرت محلة الشيخ صندل، وشعر رواد قهوة الشط على وجه الخصوص، بنوع من الأسى لم يمر مثله، لأن الرجل «لا هو حي فيرجى ولا هو ميت فينسى». كما قال الملاّ نوري بعد ان زاره، وأضاف بكثير من الحسرة: «يتمنى الإنسان أن يسمع بموت بعض الناس عن ان يراهم هكذا».

بمرور الأيام بدأت تتراجع صورة الحاج صالح العلو، لكنها لا تغيب تماماً. فالأمور التي تذكر به كثيرة: رائحة الزهور التي تنبعث من الدار، وكذلك ألوانها، وكانت تعلن عن نفسها لكل من مر بالجوار، في الليل أو النهار؛ صوت الطاووس يتردد مرات عديدة كل يوم، ويتجاوز الصوت البيوت القريبة ليصل إلى قهوة الشط؛ الصدقات التي كانت توزع في السابق لم تتوقف، بل تزايدت، مع فارق وحيد: أصبحت فطيم، زوجة سيفو، هي التي تقف عند الباب لتوزع الصدقات، نيابة عن أم قدوري. وقيل إن أخوات بدري كن وراء ذلك، لشفاء الأب، ولروح بدري بشكل خاص، في الوقت الذي كانت توزع في السابق حسنة ولأرواح موتى المسلمين.

ومثلما غادر الحاج صالح ملكوت القهوة وأزقة الكرخ، وذلك المشوار اليومي الى متجره، تاركاً لأبنائه أمور الحياة، وغارقاً في عالم من الذهول لا يعرف الذين حوله مساره أو نهايته، فان أم قدوري التي كانت تشرف على كل شيء دون أن تمل، دون ان تعرف التعب، وكانت تجد في ذلك غبطة تعوّضها عن الركض اليومي، وتجعلها أقدر على تحمل المصاعب والخسارات، بما في ذلك ذكرى خسارة عدد من الأبناء الذين انجبتهم، ولم يقدر لهم ان يبقوا على قيد الحياة. فجأة تحولت أم قدوري إلى عالمها الداخلي: أصبحت لا تعبأ بكل الذين حولها، تنام في الوقت الذي تشاء، وتأكل وحيدة، وفي أوقات تحددها بنفسها، ولا تحفل بمواعيد الآخرين،

ولا يعنيها الذين يأتون للعزاء أو الزيارة.

ولأن الحزن كسر الظهر، كما قال نعيم، وهو يحدّث خاله عن أمه وأبيه، ولا يعرف كيف يتصرف، فقد تولت نعيمة العناية بأبيها، في الوقت الذي رفضت الأم أي تدخل في شؤونها، بل وقالت كلمات قاسية، وهي تمنع أي انسان يتقدم إلى مساعدتها، أو يبحث معها التصرفات التي لجأت إليها.

العمة زاهدة، بعد أن رأت السواد يزحف متجاوزاً غرفة مهيبة، أم قدوري، لينتقل إلى أنحاء البيت الأخرى سألت فطيم ذات يوم:

ـ فطيم.. شلون تعرفين اذا البني آدم بعده بعقله أو جن.

ولما بدت الدهشة على وجه فطيم، ولا تعرف بماذا تجيب، تابعت العمة زاهدة:

ـ إذا قلنا ان الله، سبحانه، أخذ وديعته، فشنو اللازم تسويه؟

ردت فطيم بسؤال:

ـ عمتي زاهدة ما افتهمت، شنو قصدك؟

ـ راح أشبه تشبيه حتى تفتهمي زين...

مسحت بالسبابة والإبهام حول حلقها، واستمرت:

ـ لو قلنا، الله لا يقدر، ان رب العالمين أخذ رجلك، أبو فلاح، فشنو اللى راح تسويه؟

ردت فطيم بعصبية حادة:

ـ فال الشيطان ولا فالك، عمتي...

وبعد قليل:

ـ شنو اللي صار بالدنيا، حجية؟ شنو اللي سويته أو سواه أبو فلاح حتى تفاولين عليه؟

ردت العمة زاهدة بقوة:

ـ لچ.. لا تصيرين ثولة، هذي كلها تشابيه، إنشاء الله يعيش أبو فلاح مية سنة وأزيد، لكن... استراحت، مسحت مجدداً حول حلقها،

وأضافت بصوت مختلف الجرس:

ـ آني ما محيرني إلا أم قدوري!

استدارت فطيم إلى أكثر من اتجاه قبل أن تسأل من جديد:

ـ ها.. شبيها أم قدوري؟

ـ شنو.. ما تشوفين بعينك؟ ما تشوفين شلون ثابرة الدنيا، وتريد تسوّد عشيتنا؟

ـ ما أدري على ويش تحچين، عمتي!

ـ الحق عليّ... عيني فطيم،..

وبعد قليل، وكأنها تحدث نفسها:

ـ جبت الأقرع يونسني كشف راسه وخرعني!

ردت فطيم بحدة:

ـ حجية ـ صحيح آني فقيرة، على باب الله، ولساني قصيّر، لكن مثل قلبي ماكو، فحرام تقولين عليّ هالشكل!

تطلعت إليها الحجية زاهدة طويلاً، قبل أن تقول:

ـ يا أم حسين.. كنتِ بواحد صرتِ باثنين!

واضطرب الحديث بين المرأتين وتشعب، ورغم إنه لم يكن يهدف إلى نتيجة، إلا أن ما أرادت الحجية زاهدة أن تؤكده: إنها كانت ضد هذا الزواج وأن سبحتها الألفية، من كل المرات التي استخارتها، كانت تحرف عند السبعة، وتقف عند الأربعين، لا تتجاوز ذلك.. وكأن السبحة تقول: باب سيدي عبد القادر مقفول.

قالت السبحة ذلك، وأضافت العمة زاهدة، أن سيدي عبد القادر ظهر لها مرتين، لكن في المرتين ظهر حافياً، صامتاً. وفي المرة الثانية رأت في عينيه دمعة كبيرة، ولقد سقطت الدمعة بصمت، ثم صارت تلك الدمعة نهراً، وهذا ما قالته للحاج صالح، لكن نظر إليها وابتسم، دون أن يقول كلمة واحدة. ولو أنه طاوعها، وحال دون هذا الزواج لأخذت الأمور مساراً مختلفاً، ولم تقع كل هذه المصائب.

معنى ذلك أن أم قدوري هي المسؤولة عما حدث، وبالتالي لا يجوز لها أن تحزن أكثر من الآخرين أو أن تتظاهر بذلك، وكأنها تحاول أن تبرىء نفسها. ليس هذا فقط، بل أن ما حلّ بأخيها، الحاج صالح، مهيبة مسؤولة عنه أيضاً، لأنها لم تتوقف ليل نهار وهي تزّن بأذنه: «زكية ماكو مثلها» «زكية مكمّلة: حُسن واصل وأخلاق، وهمين ما تباوع على اللي يحچي وياها، فمنين نلاقي مثلها» «والحجي يسكت، يسمع ويسكت، إلى أن قال: زين زين.. إذا هذا اللي تريدونه، وهذا رأيكم، على بركة الله» «وكلامي وكلام نعيم، وهمّ كلام قدوري، كله راح. وبعدها صار اللي صار».

تقول الحجية زاهدة هذا لنفسها، وقالته مرات عديدة لفطيم. وقالته، لكن بطريقة مختلفة، لبعض النسوة، وقصدها من ذلك أن تضع اللوم والمسؤولية على لهيبة، وتتعمد أن تخطىء في اسمها، لكن نيّتها لا تخفى، إذ تقول، ويخالط صوتها شيء من اللذة:

ـ ما أدري شلون يستنقون الأسامي، وكأن الأسامي بفلوس!

تقول ذلك في محاولة اعتذار، لأنها أخطأت باسم أم قدوري، في الوقت الذي ظلت تحكي مع أخيها، ولسنوات طويلة، بصيغة الغائب حين تتحدث عنها: قالت؛ سوّت؛ رادت، دون أن تذكر اسمها، وكأنها بهذه الطريقة تؤنبها أو تنتقص منها.

أن ذلك جزء من تاريخ قديم، مرت بعده أجزاء تصالحت خلاله المرأتان، خاصة لما تولت العمة تربية الأولاد، أو العناية بهم، لكن ما أن يكبر ولد بعد آخر حتى يبدأوا التفكير ثم السلوك بطريقة خاصة بهم، الأمر الذي تعتبره الحجية زاهدة تنكراً لها بشكل خاص، في الوقت الذي تتغاضى مهيبة كثيراً عن أفعالهم أو عما يقولون، ونتيجة الملاحقة والإلحاح أصبح الأولاد أكثر رغبة في الاستقلال، وبالتالي أكثر بعداً عن ما تريده المرأتان.

الآن، وبعد الذي جرى، بدت الفرصة سانحة للعمة زاهدة أن تعوض

ما فاتها، خاصة وأن الحاج صالح انعزل في الطابق العلوي، لا يغادره إلا قليلاً، وأم قدوري دخلت في حالة من الحزن، أو مظاهر الحزن، كما تقول العمة، وفقدت سيطرتها على البيت وشؤونه، لكن الأمور تغيرت، أو أخذت مساراً غير الذي تريده العمة. فالأبناء الذين أصبحوا أكثر همّاً، وأكثر نزقاً أيضاً، لم يعودوا راغبين أو قادرين على تحمل «لغو النساء» كما ردّ قدوري ذات مساء حين طلبت خالة فضيلة أن يشتري، بناء لرغبة أم قدوري، طُولاً من القماش الأسود، من أجل صنع أغطية للوسائد.

قال، وكان أقرب إلى الغضب:

ـ الحزن بالقلب مو بالخرق السودا والبيضا، فيرحم والديكم خلصونا من هالمكسرات!

وحين ردت الخالة فضيلة أن أمه تريد ذلك، أجاب بحدة أكبر:

ـ انتو، بدل ما تثقلوها، بدل ما تخلوها تصير عاقلة، مالكم شغل إلا: ها حجية، أكو فد شي لاخ تريدين؟ نقدر نسوي فد شي حتى تنسين القهر؟ بس اطلبي وقولي، حتى لبن العصفور نقدر نجيبه، بس ترضين!

تريث قليلاً ثم أضاف وكأنه يطلب المساعدة.

ـ خلصونا، لأنْ هذه السالفة ما لها تالي!

أمور كثيرة مثل هذه جرت. لكن الأبناء، والبنات أيضاً، وضعوا حداً لها. حتى محاولات العمة في أن تبدو محايدة، لكي تستغل الأمور فيما بعد، وقفوا في وجهها، مما أدى لأن يصبح الصراع له طرف واحد!

وبدأ بيت الحاج صالح العلو يعيش في حالة من الحزن الصامت.

104

احتاج نادر أفندي إلى وقت غير قليل، وبذل جهداً كبيراً، لكي يتعافى بعد رحلة الكيخيا إلى الشمال، أما بعد ان أبلغ بالاستعداد للحرب، فقد أصيب بالذعر، وأصبحت تصرفاته وحركاته غير موزونة.

وإذا كانت عادته في مثل هذه الحالات ان يلتزم «وكره». كما يقول ناطق أفندي حين يسأل عنه، أو حين يرد ذكره، ويمتنع عن لقاء الآخرين، كما لا يستجيب للدقات التي تتوالى على باب غرفته، فقد أصبح هذه المرة شخصاً آخر، أخذ يتجول في أنحاء السراي بملابس خلقة وعيون زائغة، وقد طالت لحيته وكانت بلا تشذيب، وهو يكلم نفسه، ويرفض الكلام مع الآخرين أو حتى الرد على تحياتهم، ويبدو بنظر كل من يراه وكأن مساً أصابه، تحول يوماً بعد يوم إلى حالة من الضياع تصل حد الغياب. فإذا استوقفه أحد وحاصره بالأسئلة، كان ينظر باستغراب إلى سائله، مع حركات من رأسه ويديه تدل على الأسف وبوار الحال. وحين يضطر إلى الكلام كان يقول وابتسامة بلهاء ترتسم على وجهه:

ـ اللي يدري يدري، واللي ما يدري يحسبها چف عدس!

وحين يراد الاستسفار منه عما يقصد، ولماذا يتكلم بهذه الطريقة، ولايجرؤ على ذلك الا القليلون، يجيب وهو يغالب دموعه:

ـ يا عباد الله، يا أهل العقل، اتقوا الله، لأن النعمة لا تدوم، والقرش الأبيض لازم ينضم لليوم الأسود. وهذا أبو الخيمة الزرقا شايف وعارف، وكل شي عنده مكتوب ليوم الحساب.

ولأن الذين يسألون لا يكتفون، ولا يريدون جواباً من هذا النوع، تتوالى عليه اسئلتهم:

هذا الكلام ما ينصرف، يا نادر أفندي، هذا الجواب ما يسوى فلس، فنقّه عن اللي بصدرك وقول شنو صاير بالدنيا.

ـ اللي ما يتعب بالفلوس ما يقدرها. يمردها، يذهبها، وهذا اللي صاير وياي!

أسبوع وراء آخر ينقضي على حملة الجنوب، لكن دون ان تبدأ الحرب فعلاً، لأن البدو، نتيجة تجارب سابقة، وبحس غريزي لا يفارقهم، يعتبرون ان أكثر الأمكنة ملاءمة لهم، لكي يخوضوا الحرب: أطراف الماء أو قرب الصحراء. ففي احد هذين المكانين يشعرون بالثقة والقوة، حيث يستطيعون الحركة بسهولة، ويكونون أقدر على الكر والفر دون خشية من هزيمة تلحق بهم، ودون ان يضطروا لتقديم خسائر كبيرة.

الكيخيا أراد ان ينازلهم قبل ان يصلوا الأهوار، وقبل ان يدركوا الصحراء، وهذا ما جعله يأمر قوّته بالزحف السريع، عله يسبقهم ويقطع عليهم الطريق، لكن البدو أمعنوا في التوجه غرباً وجنوباً دون الاشتباك بالقوات النظامية. وحين قدر الكيخيا أنه لن يدركهم طلب من قواته ان تتباطأ. وفي مرحلة أخرى ان تتوقف، اذ ربما بهذه الوسيلة يوحي لهم بزوال الخطر، وبالتالي يسترخون ويزايلهم الخوف، فإذا حصل هذا يمكن ان يشدّ عليهم، وهناك، قبل الاهوار، تكون معركته الحاسمة معهم.

داود باشا لا يريد للحرب ان تطول، أو ان تتحول إلى مناوشات، لأن هذا ما يتمناه البدو، اذ يجعلهم يتوهمون أنهم قادرون على منازلة الحكومة، بل وهزيمتها، وبالتالي يشجع القبائل الأخرى على التمرد. لذلك لم يتوقف عن ايفاد الرسل طالباً ضرورة حسم المعركة بسرعة.

وتذكر الباشا كم تحدث مع كيخياه حول هذه النقطة بالذات، وكيف أوصاه ان يلتف حول البدو، وان يمنعهم من الوصول إلى الأهوار، او الى الصحراء، لكن الكيخيا، وهو يطيل استراحاته في المحطات، ويتردد في

اتخاذ القرارات، ويترك أخباره تسبقه، أفسد كل شيء. والآن، من خلال الرسل والتوصيات، لا يعرف الباشا كيف ستنفذ أوامره، أو ماذا يجب عليه لتدارك الأسوأ.

طلب داود باشا من خلال موفديه ان يسألوا الكيخيا، وان يتأكدوا بأنفسهم، ما إذا كان بحاجة إلى قوات إضافية، أو إلى أسلحة. والكيخيا الذي يجيب بتردد، ما يكاد يقول شيئاً محدداً اليوم، وقبل ان يسمح للموفدين بالعودة، مع الطلبات والخطة، حتى يعدل ويغير فيما يجب ان يقال للباشا.

بعد مرور شهور عديدة، ولخشية الكيخيا من الهزيمة، أصدر أوامره بالتوقف، بل وبالتراجع في عدة مناطق، كما أشعر الباشا أن المعركة ستطول، ولا بد من الانتظار إلى ان يعتدل الجو، وانه سيفاجىءالبدو في مطلع الخريف ليصفي معهم حساباته كلها!

حين بلغت هذه الأخبار الآغا فرح واستاء في آن واحد، فقد شعر بالفرق بينه وبين الكيخيا، والذي «لا يفرق بين الدجاجة والديك» واستاء لأن الباشا استبعده وأوكل هذه المهمة «لليد اليسرى، العوجة». كما أخذ يفيض الآغا في الحديث عن معارك الفرات الأعلى، والخطة التي اتبعها هناك، وقد حققت النصر خلال فترة قياسية، أما «ان تُترك الحرية للبدو في تحديد مكان المعركة أو توقيتها، فهذا معناه: ترى يا معودين نحن جاهزين للهزيمة!»

لم يترك الآغا الأمور هكذا، فقد قدّر ان زمنه أزف، ولابد ان يتحرك، ولكي يجنب نفسه أي خطأ، ولئلا يستمر في التأجيل مرة بعد أخرى، قرر ايفاد ناهي زبانة إلى بغداد لاستطلاع الجو، ولكي يطلب من الباليوز ايفاد أحد رجاله المفوضين من أجل بحث ما يجب اتخاذه من خطوات لحسم الموقف.

ولأنه سمع الكثيرين يتحدثون عن ذكاء داود، حين قرر مغادرة مركز الولاية نحو الشمال، ليبدأ من هناك الثورة، ثم الزحف نحو بغداد

ومحاصرتها، تمهيداً لدخولها، فقد شعر ان الله إلى جانبه هذه المرة، حين جعله في الشمال، وعلى صلة بكل أعداء داود، والذين سيقفون معه حالما يتخذ القرار.

لم يكن ناهي يتمنى الا مهمة من هذا النوع، وكي يختصر الكثير من توصيات الآغا، بعد أن عرف ما يريده منه، قال بثقة زائدة:

ـ خليها عليّ، سيدي، مسافة الطريق، وفوقها يوم والثاني واجيك بالخبر اليقين.

رد عليه الآغا، في محاولة لئلا يثير أية شبهة:

ـ وإذا صادف ورجعت، ومعك بنفس الكروان زلمة الباليوز، فلا تعرفه ولا يعرفك...

وتغيرت اللهجة:

ـ ماكو مانع تتشاقى مع الجميع، أما زلمة الباليوز فتعطيه العين الحمرا حتى المرحبا ما تطلع منك الا بألف ويلاه، لانا ما نريد أحد يظن ان اكو علاقة، سمعت؟

رد ناهي بمرح، وبطريقة غنائية:

فاذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا   لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

هذا ما قاله شاعر قديم، ومثل ما قال راح أسوي. سيدي!

أما حول الطريقة للاتصال بالباليوز، ولاحتمال ان تكون روجينا مراقبة، فان عارف زنجاري هو المفتاح. وعارف زنجاري، وكيل الشركة الشرقية للبواخر بين البصرة وبغداد، لا يُعرف ان بقي موظفاً عند ساسون ام تحول إلى شريك منذ ان دخل داود باشا إلى بغداد واختفى ساسون، اذ أصبح فجأة الآمر الناهي بكل ما يتعلق بأمور الشركة، من حيث أجور السفر، وتحديد مواعيد نقل الأفراد والمواد، وحتى طريقة التعامل مع المسافرين. كما أصبح على دراية بأمور السوق التجاري، متى تصل البضائع، وما يمكن ان يطرأ على الاسعار، وهذا ما جعل له علاقة بالكثيرين.

الآغا وهو يختار عارف زنجاري وسيلة للاتصال بالباليوز، أراد أقصى درجات التمويه والسرية، اذ سيكون ناهي واحداً من عشرات يراجعون الشركة، ولذلك لن يثير شكوك أحد حتى لو شوهد هناك. أما كلمة السر بين الاثنين فلها علاقة بالبواخر أيضاً. «متى تصل باخرة الركاب من مرسين إلى البصرة؟» وسيكون الجواب: «هذا الخط انقطع» «رأيك خط البر أحسن؟» فإذا جاء الرد «بالتأكيد... بالتأكيد» مرتين، يمكن عن طريقه ابلاغ الباليوز «رمان بعقوبة عطشان، وما ينتظر، واليوم أحسن من غير يوم».

ولم يتأخر ناهي زبانة في الوصول إلى بغداد، لكن وجد ان معرفة مزاج الناس يحتاج إلى وقت، ويتطلب الكثير من الجهد. وان الاتصال بعارف زنجاري قدر ما هو ضروري، فانه يحتمل التأجيل، اذ لا فائدة من سفر موفد من الباليوز قبل معرفة المزاج الشعبي، وهكذا تأجلت الأمور أياماً امتدت إلى أسابيع.

حين التقى ناهي بعارف زنجاري، وسأله عن باخرة مرسين متى تصل الى البصرة، تطلع اليه عارف ملياً، ورد عليه بعدم اهتمام:

ـ بابا.. سفينة هالشكل ماكو...

ولما أعاد عليه ناهي السؤال، وأكد له ان أقرباء سيصلون على هذه السفينة.

أجابه عارف بعصبية:

ـ وجماعتك ما قالوا لك: هذا الخط انقطع؟

ـ قالوا.. وما قالوا، وهسه أريد اسألك: رأيك خط البر أحسن؟

وقبل أن يجيب عارف على هذا السؤال، قام بنفسه، أغلق الباب، والتفت إلى ناهي ليقرأه من جديد، اذ ربما يكون هناك خطأ من نوع ما، وقد يكون الحوار جرى هكذا بالصدفة. سأله، وكانت لهجته محايدة:

ما تقول لي أنت منو، وشنو اللي رايده؟

وافهم ناهي أنه يعمل مع الآغا. وأنه كلفه أن يلتقيه لابلاغ رسالة. فرد

عارف، وقد انبسطت أساريره:

ـ اذا هالشكل.. فخط البر أحسن بالتأكيد!

وجلس من جديد، وهو يردد:

ـ بالتأكيد.. أي نعم بالتأكيد!

ورغم أن عارف أحس بغريزته أن الحديث لم ينته، لكنه لم يكن مستعجلاً، إذ بدأ يسأل عن أحوال الآغا وكركوك والشمال، كما تطرق إلى ارهاق العمل اليومي، خاصة وان رجال الباشا بدأوا يتحركون ويسألون عن امكانية ان تكون للولاية بواخرها، واحتمال أن يخلقوا مشاكل وعراقيل للشركة الشرقية للملاحة. وأفاض في الحديث عن عظمة هذه الشركة وسفنها الكبيرة التي تصل إلى أقصى أنحاء المعمورة، وإن مصير العراق وبلدان كثيرة يتوقف على خدمات هذه الشركة، والتي وحدها يمكن ان تقوم بهذا الدور.

بعد هذه الجولة حول هموم العمل، سأل عارف، وبدا ودوداً:

ـ اي مولانا.. شنو نقدر نخدمك؟

ـ استغفر الله.. مولانا، بس كلفني الآغا ان يتبلغ الباليوز عن طريقكم ان «رمان بعقوبة عشطان، وما ينتظر، واليوم أحسن من غير يوم».

ورغم ان الرسالة قصيرة. ولا تتطلب جواباً، الا أن عارف زنجاري أصرّ على ناهي ان يراه مرة أخرى قبل السفر، قال بطريقة احتفالية:

ـ لا بد يجي يوم توصل بواخرنا لفوق فوق، واللي ما نقدر نقوله للآغا اليوم الا عن طريق الأجاويد، أمثالكم، راح صفرة الباخرة لما توصل الموصل تفزز حيات الشتا، وعسى ما يكون ذاك اليوم بعيد...

استراح قليلاً، وتابع بلهجة جديدة:

ـ فإذا شفناك نوبة ثانية نحمّلك سلامات للآغا؛ ويجوز الجماعة همين عندهم فد شي، فلازم نشوفك!

قال بطرس يعقوب للذين جاؤوا لوداع أقرباء لهم مسافرين في القافلة:

ـ ابعد من ماردين ما لي نية بهذي السفرة، فإذا لأحد منكم غرض او

وصية بماردين يقول، ومن هالعين. . . .

وتابع بعد قليل في محاولة للتمويه:

ـ الرجعة سهلة: الكلك من الموصل ونسيّر ويّا الماي، لا وقفة ولا دوخة راس!

قال ناهي للآغا، وهو لا يقوى على كتم فرحه:

ـ. . والناس ببغداد، سيدي، مثل الأيام الأخيرة لسعيد: ماكو أحد راضي. غلاء وخبز شعير. ورجال الوالي ما يعرفون الا كلمة: هات. والناس حايرة وضايجة، تدفع وتقول: الله لا يبارك. وراح يجي يوم، وهذا اليوم مو بعيد، الناس تموت بالجادة من الجوع والقهر، وماكو أحد الا ويتحسر على أيام قبل. حتى أيام سعيد صار يترحم عليها الناس. . .

استراح قليلاً، وهو يحاول أن يتذكر، وتابع فجاء صوته مختلفاً:

ـ وبالقهاوي، سيدي، شتيمة الوالي بفلس وفلسين، والغريب أنهم يشتمون بدون خوف، أشكرا. والواحد يذكر مخازي الوالي وكأنه يتكلم عن الحجاج او عن الشّمر، يسولف ويقول فلان شي وفلان شي بليا ما يهاب أحد.

والآغا الذي يستمع ويهز رأسه، يريد أن يسمع المزيد. يتطلع بفرح إلى ناهي ويردد كلمات لا يغيرها:

ـ اي. . وبعد؟

ـ والناس اللي يعرفون اني بكركوك، واني بخدمة الآغا، يقولون بقهر: ليش الآغا تركنا للظلام وراح؟ لو كان هسه ببغداد وشاف هذا اللي صاير واللي يجري، كان ثار الدم براسه وطفر الدمع من عينه، وكان طربق الدنيا فوق راس داود، لكن الرّجّال بعيد، وما يندرى توصله الأخبار او الباشا ضام كل شيء تحت عباته وما يريد أحد يعرف أو يسمع. .

ـ اي. . وبعد؟

ـ وما ادري بعد شنو اللي لازم ينقال لان الدنيا مليوصة، وكل واحد يجر القرصة لصفحته، والباشا لاطي بالسراي، لا احد يشوفه ولا أحد

يعرف شنو اللي بباله، والبدو اذا ما وصلوا بغداد اليوم يوصلون ثاني يوم، والله يستر!

وقف الآغا. تمطى. باعد بين يديه في محاولة للتريض، قال كأنه يكلم نفسه:

- غريب أمر داود. كل ما لزّمناه الجادة، وقلنا له: هذا هو الطريق، مال عن الجادة وتعربش بالوعر.. وبعدها تعال خلّص هالزمال من هالوحلة!

والتفت إلى ناهي، يخاطبه وهو واقف:

- اي.. وبعد، سولف عن بغداد وعن أحوال الناس هناك!

- والله لو كتبنا كتب ما تخلص هذي السوالف، سيدي، وبعدين: الشوف غير السمع! ومهما قلت، ومهما حكيت، تظل القضية اكبر!

وتغيرت لهجة ناهي، أصبحت منخفضة الجرس، كأنه يكلم نفسه:

- وإذا الله ما يسر ابن حلال، يعرف الداء والدواء، ويتولى المسألة، ويفك عن الناس الغمة، ما يندرى شلون راح تنقلب الأمور!

وانتشرت إشاعات في كركوك، لا يعرف كيف، ان حملة الجنوب تعرضت لهزائم قاسية، وان القوات تراجعت في عدة مواضع، وما لم تُعزّز بقوات إضافية، وربما تطلب الأمر تغيير القيادة، فالهزيمة مؤكدة، وقد يصل البدو إلى بغداد، كما حصل أكثر من مرة قبل أن يصبح داود والياً. وما قد يترتب على ذلك من نتائج!

ما كاد يمر أسبوع على هذه الاشاعات حتى وصل خلف إلى كركوك.

اختلف ضباط القلعة حول مضمون الرسالة التي حملها خلف إلى الآغا، وما نقله شفوياً. قيل ان خلف سلّم الرسالة، وقبل ان ينهي الآغا قراءتها، وقع خلف على قدمي الآغا يقبلهما ويرجوه ان يبادر فوراً إلى نجدة الباشا. وقيل ان الرسالة الشفوية رافقها الكثير من الدموع والتوسل، لأن كل ساعة تمر تقرّب البدو من بغداد، وقد تصبح النجدة متأخرة أو غير ذات جدوى، وان الباشا يعتمد على اثنين لانقاذ الموقف: الله والآغا.

ووجد من قال ان خلف سلم الرسالة بطريقة رسمية، دون بكاء أو رجاء، «لأن الباشا يأمر ولا يتوسل، يطلب ولا يترجى، وهذا ما يفسر الاحترام الذي قوبل به خلف، وانزاله في الجناح الغربي من القلعة، وهو جناح كبار الضيوف» وقيل ان الآغا بعد أن قرأ الرسالة واستمع إلى شرح خلف غرق في صمت عميق، وقد طال الصمت إلى درجة لم يعرف خلف كيف يتصرف أو ماذا يقول، إلى أن طلب منه الآغا ان يستريح تلك الليلة، بعد مشقة السفر، وسوف يواصلان بحث الأمر في اليوم التالي. وهذا ما يفسر عدم لقائه بأي من الضباط؛ حتى وجبة العشاء حُملت إلى الجناح الغربي، وقيل ان «ضيف الآغا شديد الارهاق ويفضل ان يرتاح في جناحه».

ورغم الاجتماع المنفرد الذي عقده خلف صباح اليوم التالي مع الآغا، ثم بوجود الضباط القادة، خاصة الذين قاموا بزيارة إلى بغداد قبل بضعة شهور، فان خلف سافر صباح اليوم الثالث فجأة، كما جاء فجأة. ولم يعرف خلال الأيام الأولى على أي شيء تم الاتفاق، الا ان الوضع في القلعة والثكنات اختلف تماماً، اذ بالإضافة إلى الحركة وتوالي الاستعداد، فقد ارسلت وفود إلى أمكنة متعددة، وبدا كأن أمراً ما يُرتب، ولا بد ان تظهر آثاره!

مع الحركة التي لها طابع عسكري، وصل فجأة إلى القلعة الشيخ ادريس.

قال له حامد بنوع من اللوم الضمني:

ـ وينك يا شيخنا.. صار لنا أيام ندّور عليك وإنت ماكو؟

ـ بابا.. شيخ ادريس هوايه مشغول، من مكان لمكان، حتى نوم ما يقدر ينام، شنو عبالك؟

ـ ما خلينا مكان الا ونشدنا عنك، وكل واحد يقول: الشيخ إدريس البارحة چان هنا، وبعدها ما ندري وين صار وين راح!

ابتسم الشيخ ادريس قبل ان يجيب:

ـ لوشيخ ادريس يريد يجاوب كل سؤال، يروح عند كل من يقول له تعال، ينراد له يعيش ألف سنة، الفين. . .

وبعد قليل، ليضفي على استجابته منّة وشرفاً:

ـ ولولا الآغا عزيز، ما تشوف الشيخ ادريس قبل شهر شهرين!

قال حامد، في محاولة للسيطرة.

ـ يا شيخنا. . الآغا يقول: شيخ ادريس قوي، ويعرف كلش زين، بس كلام النوبة اللي فاتت صار وما صار!

ـ يعني شنو؟

ـ قصدي: تفسّر، تقول كلام ينفهم!

ـ يعني ما يصدّق كلام شيخ ادريس؟

ـ معاذ الله يا شيخنا، بس يريدك تقول: راح يصير فلان شي وفلان شي، والأحسن تسوي هذا الشي وما تسوي هذا الشي!

ـ يعني تريد تعلّم الشيخ ادريس شنو لازم يقول، شنو لازم يسوي؟

ولم يتركه ليجيب، تابع بانفعال:

ـ هذا ما يقبله شيخ ادريس، وهذا ما يصير.

ـ على كيفك شيخنا، ولازم تفهم كلامي زين، لان الآغا بعد ما رحت النوبة الماضية أكل قلوبنا: شنو يقصد الشيخ ادريس بهذي الكلمة. . وبهذي الكلمة، وانت مثل ما تعرف، يا شيخنا: علومك بحر وينراد لها غواص من البحرين حتى يعرف ويفرزن، فخذنا على قد معرفتنا. . والا تهنا!

ارتاح الشيخ ادريس لهذا التفسير، ورغم ان ابتسامة متحفظة ظهرت على وجهه للحظات، الا أنه لم يتخل عن صرامته. قال في محاولة لتجاوز ما قاله حامد:

ـ مولانا. . عالم الغيب بحر كبير كبير، والواحد منا كأنه ماشي بالظلمة ما يعرف شنو هنا منو هنا، وشنو اللي راح بصير بعد شهر. . بعد سنة، ومو بس تك نفر بروحه، الآلاف؛ ولولا إلهام ربنا، سبحانه وتعالى،

وهذي ما تحصل لكل واحد، كانت الدنيا انقلبت، وكان كل واحد صبغ لحيته وطوّل سبحته وقال للناس: تعالوا حتى أشوف لكم حظكم اليوم، وزرقكم اليوم واللي عقبه، والناس تدفع وتسأل، والنتيجة قبض ماكو، وهو يقشّ الفلوس ويمشي، وما له لازم باللي يصير...

وانفعل فجأة، وهو يضيف:

ـ وهذي أبد شيخ ادريس ما يقبلها...

ثم بلهجة مرحة:

ـ وانت بنفسك: شقد تعبت حتى لقيت شيخ ادريس؟ غير شيخ يدوّر القمل بهدومه ويلعب بخصيانه، لان ماكو أحد يقول له مرحباً!

ومع أن الآغا كان ينوي ان يبقي بعض رجاله إلى جانبه أثناء استقبال الشيخ ادريس، عله يستطيع ان يستعين بهم لاحقاً لتفسير ما سيقوله، الا ان الشيخ أصرّ على الرفض، وحين وجد ثلاثة أو أربعة من الرجال حوله، قال للآغا، وبطريقة حازمة:

ـ راسي لراسك، آغا، لأن الملائكة ما تقبل، ما تجي.

ـ الجماعة يقعدون سنطة، وانت اشتغل براحتك، شيخ ادريس!

ـ شيخ ادريس ما يقدر. شيخ ادريس ما يوافق!

ورغم محاولات من الآغا ثم من خلف، وتدخل ناهي، لكن الشيخ ادريس هز رأسه رافضاً بشكل كامل، وغرق في الصمت، الأمر الذي ضطر الآغا لأن يطلب من رجاله مغادرة المكان. أما ما جرى بعد ذلك فظل سراً، وان بدت مظاهر الارتياح والتفاؤل على الآغا بعد انتهاء اللقاء. ثم جاءت الخطوات اللاحقة في الأيام التالية لتؤكد ان الشيخ ادريس أبلغ الآغا ان أيام العز قد أقبلت، وهذا ما يجعله يرسل عدداً من ضباطه إلى بغداد على جناح السرعة، وأبلغهم وهم يغادرون انه لن تمر أيام قليلة الا ويكون هناك، وغمز بعينه دلالة الفرح والتفاؤل، لكن دون أن يقول ما ينويه، وما سوف يحصل خلال هذه الزيارة.

105

مع بداية حملة الجنوب تزايد ظهور ريتش، وكأنه يتعمد ان يراه الناس وان يتحدثوا عن تحركاته وأخباره. فإذا لم يظهر في السوق التجاري، عند بائعي السجاد أو الكتب القديمة، لابد ان يظهر في إحدى زياراته للمعالم الأثرية، أو وهو في طريقه إلى الصيد. أما حين اشتدت الحرارة وزادت عن الحد الذي يطيقه أو يحتمله أجنبي جاء من الشمال البارد، فقد أصبحت أكثر جولات ريتش بعد أن ينقضي النهار، عند الغروب وأول المساء. كان يمتطي أحد خيوله، ومعه عدد قليل من حرسه، وينطلق إلى ضفة النهر. كان هناك يمارس رياضته. وبعض الأحيان يطيل مشاويره، وكأنه يكتشف كل ما حوله بعيون جديدة.

وزيادة في التأكيد على حضوره، لم يتردد في القيام ببعض الجولات على قدميه. صحيح ان أغلب هذه الجولات ظلت في محيط الباليوز، لكن كان يرافقها الكثير من الطرافة والجدة، اذ يصطحب عدداً من كلابه المفضلة، وهي مختلفة عن الكلاب التي يعرفها الناس: أكبر حجماً من الكلاب العادية، او أنها أصغر منها بكثير. وهي مدربة، مطيعة، تتصرف وفقاً لما يصدره لها من أوامر، وكأنها تفهم كل ما يقال لها.

الصبية الذين يتقنون إلى درجة المكر التحرش وخلق المتاعب، ما ان وصل إلى سمعهم ان القنصل يتجول على ضفاف النهر، حتى منّوا أنفسهم بأوقات ممتعة وهم يراقبونه أو يتبعونه، وربما سخروا منه أو ضحكوا للهجته الغريبة، لكن حين رأوا الكلاب ترافقه، وتأكدوا من شراسة هذه

الكلاب وقوتها، وقد تعمد ريتش ان يطلق بعضها عليهم لاخافتهم، فقد أصبحوا يضعون بينهم وبينها مسافة أمن كافية، ثم أخذوا يتجنبونها تماماً، الأمر الذي جعل ريتش يواصل جولاته دون انزعاج.

أما وهو يوالي مداعبة هذه الكلاب أو تدريبها، فقد أثار اهتمام الكبار والصغار. كان يحمل معه عدداً من الكرات، ولا يتردد بعض الأحيان في التقاط حجر أو عصا من الأرض، وبمكر لا يخفى، وبقوة، كان يقذف الكرة أو العصا، فتنطلق الكلاب لالتقاطها واعادتها إليه. الكبار الذين رأوا ذلك لم يخفوا دهشتهم من ذكاء الكلاب وطاعتها، أما الصغار فأخذوا يجربون حظوظهم في ان يفعلوا الشيء ذاته مع كلاب لا يُعرف كيف تسنى لهم القبض عليها، وبعض الأحيان مع كلاب القنصل، لكن من بعيد. وفي جميع الحالات كانت النتائج سلبية تماماً. فكلاب القنصل لا تحس بهم، وبالتالي لا ينتظر ان تستجيب لهم، والكلاب البائسة التي تسنى لهم جرها، وأجبروها على مرافقتهم، بعد أن شدوا حبالاً برقابها، ما ان ترى الحجارة أو العصي تتطاير حولها، وما ان تُطلق، حتى تواصل هربها الى ابعد مكان يمكن ان تصله، لتأمن إزعاجات الصغار!

وفي كل يوم جديد تروى قصة أو أكثر عما فعله ريتش وأين ذهب. فوقوفه عند عدد من صيادي السمك، وشراؤه لكل صيدهم دون مساومة، وبالمبلغ الذي حددوه، ثم ان يطلب منهم توزيع السمك على فقراء المدينة.. قصة تروى!

وأن يحمل بندقية الصيد، ويكمن عند طرف النهر، وما ان تبدأ الطيور تتساقط بين الزرع أو وسط الماء، وتتراكض الكلاب لالتقاطها، فيما الناس يتفرّجون قصة تروى أيضاً.

وان يصطحب معه في إحدى الأماسي قرداً صغيراً، ويطعمه الفستق بيده. ولا يتردد القرد، في لحظة، بالقفز على كتفه، ويأخذ بالتصفيق. مشهد كان يتمنى الكثيرون رؤيته، بعد أن روى القصة من رآها!

أما الأمسية التي جاء فيها إلى قهوة مراد، وكانت غير بعيدة عن

السراي، فلم يبق أحد في بغداد إلا وتحدث عن ذلك! وقد فُسرت الزيارة بأشكال وأسباب عديدة ومتناقضة، مع ان الزيارة كانت قصيرة، أو ربما عابرة، ولم تتعد احتساء القهوة والرد على تحيات الجالسين. وقد تكاثر المارون والصبية ليروا القنصل وليتأكدوا بأنفسهم. وبعد أن تركزت الأنظار عليه، مما سبب له الحرج، سقط كوب القهوة من يده، وتحطم، فصرخ الأسطة مراد بمبالغة ظاهرة:

ـ فدوة.. فدوة مولانا، المهم أنت سلامات، لا تعوّرت ولا توسخت!

وقد اضطر ريتش للانسحاب، بسبب الضيق الذي شعر به، وبسبب تدافع الصبية وتصايحهم، وهم يشيرون إليه، لتمييزه عن بعض مرافقيه؛ وكوب القهوة الجديد الذي حمله الأسطة مراد بنفسه، عوضاً عن ذاك، وصل متأخراً، بعد أن غادر ريتش القهوة!

حين بلغ الباشا ان القنصل جلس في قهوة مراد، سأل فيروز بمداعبة، وكانا يتمشيان في الحديقة المطلة على النهر:

ـ وإنشاء الله ترس خشمه بالبرنوطي وعرّت بنركيله نربيجها طويل وجر نفس من كل قلبه؟

ـ ما باقي عليه، سيدي، الا يروح لحمام كجّو، فإذا وصل لهناك يكون ختم الصنايع كلها!

ـ وهناك يصيح: حار الشمندر، استوى الشمندر، وهسه جا من طمة حمام كجو!

كان الباشا يتساءل عن هذه الحركة النشيطة للقنصل، وما يحتمل ان يكون وراءها، خاصة وأنه في ظروف مماثلة كان يكرس وقته كله لتقصي الأخبار، والاتصال بمن يمكن ان يؤثروا سياسياً أو عسكرياً. أما الآن فهو يريد تمويه تحركاته، وكأن لا شيء لديه سوى ملاعبة الكلاب وتدليل السعادين!

لقد تحسب الباشا كثيراً من حركات ريتش، خاصة بعد ان توفرت لديه

معلومات كثيرة عن علاقاته واتصالاته، مع الآغا تحديداً، لكن هناك أموراً لم يحن وقتها بعد، لذلك يمكن ان ينتظر.

واذا كانت عادة نساء السراي ألا يصلن إلى هذا الجانب من الحديقة سوى في الأوقات التي يحددها الباشا، وبعد أن يُغلق الباب الكبير المفضي إلى الديوان، فان المرأة الوحيدة التي تستطيع ذلك، وفي أغلب الأوقات: نائلة خاتون.

فجأة، والباشا يواصل تمشيه، وفيروز غير بعيد الا خطوة منه، ظهرت نائلة خاتون، وعلى كتفها، خلافاً لمرات كثيرة سابقة، محسنة. كانت الصغيرة، بصوتها الذي يسبقها، تريد ان تصل لأبيها باسرع وقت ممكن. كان جسدها يهودج على الكتف، يكاد يتحول إلى غيمة صغيرة، بالحركة، بالضياء، باللهفة التي تتزايد مع الضحك والزقزقة ورغبة الوصول.

قال الباشا لفيروز، وهما يتجهان لملاقاة الصغيرة:

ـ كل الوِلد كوم، وهذي المسكينة كوم.

ومع كل خطوة تقرّبها، ومع كل خطوة يخطوها ليتقرب منها، كان صوته يتردد منغماً:

ـ هلا.. هلا.. بالوردة، بالحبابة، هلا بقلبي وبعد عيني، تعاي.. تعاي.. تعاي!

ومحسنة كعصفورة على وشك الطيران: تصرخ، تدق بيدها الصغيرة على رأس نائلة خاتون كي تسرع، ان توصلها كالبرق، ونائلة خاتون تحاول بذل أقصى جهدها لأن تسرع، وان تتحكم بخطواتها في نفس الوقت.

ما ان اقتربت، وأصبحت يدا الباشا قادرتين على تلقيها واستقبالها، حتى رمت بنفسها. احتضنها. قبلها مرات عديدة. غمر وجهه في شعرها، وتوالت كلمات الشوق والمداعبة. وخرج صوتها فرحاً وقوياً معاً:

ـ أريد أمشي.. شوكت أمشي.. بابا؟

ـ باذن الله راح تمشين، قالت نائلة خاتون لتخفف عن الباشا.

ـ كل يوم تقولين هالشكل، ببيي، وما صار شي، قالت محسنة،

والتفتت نحو أبيها، وهي تواصل السؤال: شوكت امشي، بابا؟

رد فيروز على خلف، حين سأله لماذا هو حزين هكذا:

- الي يشوف الباشا شقد هو مقهور على مود هالزغيّرة، محسنة، يتفتت كبده..

وبعد ان عبّ مقداراً كبيراً من الهواء، جاء صوته أكثر حزناً:

- تسأل الباشا شوكت تقدر تمشي، وهو، مسكين، حاير، ما يعرف شلون يجاوب، شيقول. والزّغيرة تلح وتسأل، وهو يفر براسه، زفراته نار تحرق، ودموعه من العيون تسحّ، وما يدري شلون يتصرف!

- سبحانه، له في خلقه شؤون!

ولأن فيروز لم يجب، لم يعلق، تابع خلف، وكأنه يحدث نفسه:

- وسبحان الله، الباشا متعلق بها أكثر من كل أولاده، ويحبها أزيد، وهي، مسكينة، عيونها تذبح، وما بها الا السؤال الي يقطع القلب: شوكت؟ هذا السؤال ما يقدر يجاوب عليه الا خالق الخلق ومالك الملك، فشنو اللي يقدر عليه الباشا؟

حين وصل ناطق أفندي، سكت الاثنان، وكأن لا رغبة لديهما لمواصلة الحديث.

ولأن ناطق أفندي، مثل الكثيرين، بلغه ان القنصل جاء بزيارة لقهوة مراد، لكنه لم يصدق، ولما سخر الذين نقلوا إليه الخبر من رفضه وعناده، وتزايد تأكيده ان القنصل لا يمكن ان يزور مثل هذه الأماكن، رد عليه واحد وصل إلى القهوة مباشرة بعد مغادرة القنصل، وسمع الناس يتحدثون عن ذلك باهتمام، قال له بتحدٍ:

- قهوة مراد خطوة من هنا، فإذا ما تصدّق تخطى للقهوة، وانشد الناس هناك!

ولم يتأخر ناطق، ذهب بنفسه إلى القهوة. سأل الأسطة مراد، وسأل آخرين، وحين تأكد تماماً، رجع إلى السراي متوتر الأعصاب مملوءاً بالحنق. ولم يتأخر في نقل انطباعاته لفيروز وخلف، لعل الاثنين، أو

واحداً منهما على الأقل، ينقل كلامه للباشا:

ـ صحيح ان من حق القنصل يروح وين ما يريد، لكن مو من حقه يباوع بكل زرف ويدوّر، حتى يشوف كل مخازينا. . .

تغيرت اللهجة، أصبحت أكثر غضباً:

ـ قهوة مراد مثل خان جغان، وسخة، تلغّي النفس، كل شي بيها طايح حظه: تفال بكل مكان، وشلون تفال. . مال تتن سنون؛ وريحة البرنوطي مالية الدنيا، والنراكيل وقامجياتها، تكرمون، سيان. استكانات الشاي كأنها مال محابيس، والناس تسولف مع بعضها مثل الطرشان، وإذا طلع أبو اللبلبي يطب أبو الباجلا. واحد يصيح والثاني يجاوب: مالح وطيّب هاللبلبي؛ خس. . أبو الطوبة يا خس. هذي قهوة مراد. .

ولأن الاثنين يعرفان القهوة، وهي ليست بالصورة التي يصورها ناطق أفندي، لكن ليس لديهما ما يقولانه له، فقد واصل:

ـ. . . وانت، يا قنصل الملك، تفتهم وتقدّر الأصول، وتعرف شنو اللي يصير وشنو اللي ما يصير. . حامل روحك. . وطُرّق. . طُرّق. . ووين؟ على قهوة مراد!

هدّأ نفسه، فهدأت اللهجة قليلاً:

احكِ، قول، لان الواحد، حتى ببيته إذا تحرك يقول: احم. . ودستور، حتى الناس تعرف، تتحضر، أما هالشكل فلا يقبلها لا عقل ولا دين.

ـ هذا كله نعرفه، قال خلف، وسمعنا بيه، فإذا عندك سالفة ثانية، يا ناطق أفندي، فقولها، يرحم والديك، وخلّصنا، لأن قلوبنا من الهم سايفة. . .

ـ يا خلف، يا ابن الأوادم، هذي ما صارت من قبل، والعوجا ما يرضى بها أحد ولا ينسكت عليها!

ـ شنو اللي ما صارت من قبل؟ وشنو اللي ما ترضى بيه، ناطق أفندي؟

ـ مولانا. . إذا القنصل يريد يزور فد مكان لازم يقول لنا، لازم نعرف!

ـ لكنه سواها بليا ما نعرف، بليا ما يقول، والنتيجة؟

ـ بس أشوف الباشا راح أقول له كل شي . . من الألف إلى الياء!

ـ على خيرة الله . . هذا ديوان الباشا، كل اللي تريده قوله . . وانجاز انت وياه!

رد ناطق أفندي، وكان يحمّل لهجته مقداراً من الرجاء:

ـ أريد عونك، اخوي خلف، وهذي أريدها منك!

تطلع خلف إلى فيروز، وكأنه يوعز له ان يجيب بنفس الجواب، إذا طلب ناطق مساعدته، والتفت اليه، وخرج صوته مزهواً:

ـ آني ما عليّ ناطق أفندي لأني ما اقدر على القضايا اللي هالكبر!

نهض ناطق أفندي، وقد عاد إليه غضب اللحظات الأولى:

ـ زين . . زين . . خلف، الدنيا ما تخلص بيوم واثنين!

حسون الذي عرف بزيارة القنصل في اليوم التالي، خاف وتحسب، وربما هذا السبب جعله يعود مبكراً لقهوة الشط، إذ لابد ان يفكر ملياً وبعمق «إذا اليوم بقهوة مراد، يجوز ثاني يوم بقهوة الشط، ومن هنا سالفة، ومن هنا سالفة ثانية، وتنلاص، وبعدها شلون نخلص؟ شلون تمر على خير؟ وأولاد الحلال قاعدين لي ركبة ونص، واذا لساناتهم ما قالت راح عيونهم تغزل، وكلها تباوع عليّ، وبعدها تشتغل رحمة الله، وما يندرى شنو اللي يصير»

ورغم ان كثيرين في صوب الكرخ، وفي قهوة الشط، عرفوا بأمر الزيارة، فان عودة حسون المبكرة لم ترق للأسطة عواد الذي سأل ليختبره:

ـ ها حسون، شنو سمعت اليوم؟ شنو اللي صاير بذاك الصوب؟

ـ كل شي ما ادري، عمي، واحلف بالقرآن!

ـ ما ينراد لها حلفان، يا معود، وكلها، من أولها لتاليها، سؤال؛ قول ما سمعت فد شي، وأبوك الله يرحمه!

ـ آني ما شفت فد شي، لكن الناس تسولف، عمي!

ـ عن هذا نسألك، يا ابن الحلال!

وبطريقة مشوشة متداخلة، أخذ حسون يروي ما سمعه، ما نقله اليه عدد من معارفه، وقد وصل خلال ذلك سيفو والاسطة اسماعيل، وصلا معاً، وكانا يبتسمان لنكتة رواها أبو حقي. ما كاد سيفو يسمع أطراف الحديث، وقد فهم انه يتعلق بالقنصل، حتى أصبح كله اصغاءً، علّه يستنتج ما فاته من حديث. وحسون الذي لاحظ هذا الاهتمام في عيون سيفو أخذ يفصل ويجود. ما ان انتهى حتى سأله:

ـ طبّ القهوة.. وطلع منها.. سلامات؟

ـ هذا ضيف يا أبو فلاح، قال الأسطة اسماعيل، وانت تعرف الأصول، ماكو أحد بالدنيا يقدر يتحارش بيه، لو نسيت انه ضيف؟

ـ ونسيت الأصول، همين، يا أبو حقي، لأنه ضيوف هالشكل ما ينرادون!

الأسطة عواد، الذي سمع خبر الزيارة قبل ان ينقلها اليه حسون، قال بغيظ:

ـ الباليوز يسرح ويمرح، هذي مو يمّنا؛ وانه ضيف، مثل ما قال أبو حقي، على العين والراس، لكن اللي حارق فوادي مراد...

توقف قليلاً. أخذ نفساً عميقاً، وأضاف:

ـ قالوا لي ان مراد طول الوقت اللي قعده القنصل بالقهوة، صار مثل الدجاجة اللي بطيزها بيضة: يقوقي، يصيح، يمسّ الميز نوبة ونوبة ثانية، ويباوع على القنصل وعيونه ما مصدقة: «الف هلا ومرحبا، زارتنا البركة، هذا يوم مو مثل كل الأيام، والقهوة راح تتذكر هذا اليوم لقيام الساعة.. يا الف مرحبا، ويا مية هلا» وهذا الزعطوط يهز راسه، ويضحك.

ـ مية نوبة قلت لك يا أبو نجم: مراد وقهوة مراد اغسل ايدك منهم، قال الأسطة اسماعيل، لأنه وين اكو مخنث، طايح حظه، تلقاه هناك، ومراد يدلل، وعيني وآغاتي، وما يندرى شنو ورا هذا الدلال!

ـ الله العليم إذا ابن هالحرام طب قهوة الشط لابدّ اسوي له مكسورة،

قال سيفو، وبعدها زعل أبو نجم، رضي، هاي يمه، هاي بكيفه.

ـ يكفينا شره، يا معوّد، ما نريد نحط ايدينا بالنار وبعدها نصيح يا غريب الفرج

قال حسون الذي ظل صامتاً:

ـ ويقولون، بذاك الصوب، انه وهو راكب حصانه يبيّن هيبة، طويل عريض، لكن لما شافوه بقهوة مراد بيّن زعطوط، يا الله طارّه شواربه، وعيونه زرق مثل عيون البزون، وإذا حكى، إذا قال، ما ينفهم كلامه، عبالك جاهل... ابن سنتين!

قال الأسطة اسماعيل:

ـ هذا هو السبب اللي دلاّه على قهوة مراد، مثل ما الجلب يندل درب القصاب، فنيّال اللي يدورون فروخ!

رد سيفو بحنق:

ـ خلينا من هذي السوالف، أبو حقي، مراد وأكو من يفتصل وياه، بس شلون اذا جا لهذا الصوب، الى قهوة الشط؟

ـ فال الشيطان ولا فالك، يا أبو فلاح، قال الاسطة عواد، شنو من الصبح شارب لبن حامض؟

ـ ويقولون كان شايل عصا بيها شعر حصان، وما عنده شغل الا يحركها يمنة ويسرى!

هكذا أضاف حسون، وبعد قليل وبمرح:

ـ ويقولون ان مراد قدم الماي بنفسه، وقال له: ماي بارد، أفندينا، لكن لا مدّ ايده ولا قال فد كلام. هز راسه، وباوع على صفحة ثانية. وما ظل أحد بالقهوة الا وصارت ضحكته شبر!

قال سيفو، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ هذي بغدادنا تحمل هوايه، لكن ابد ماتنسى؛ واذا مو اليوم ثاني يوم!

وإذا كان الباشا قد تحسب من حركات القنصل، ومحاولات التمويه التي لجأ إليها، فقد أمر ان تحكم عليه الرقابة، وان تنقل إليه فوراً كافة

التفاصيل المتعلقة بتحركاته واتصالاته.

أما بعد ان وصل طلعت باقة من كركوك، ومعه رجاله، فقد التقاه الباشا. كان يريد ان يتأكد ما إذا طلعت، كما عهده، حين سافر، ام تغير. قال له، وكانا وحدهما في الحديقة المطلة على النهر:

ـ هذي الولاية، يا طلعت بيك، خيرها كثير، وهذا ما يطمّع الغير بها، فإذا الغُرب ما قدروا يحصلون على هذا الخير فما عندهم مانع ان يدمروا كل شيء!

طلعت هز رأسه موافقاً، لكن الباشا أحس ان هذا الكلام العام لا يعني شيئاً، كمن يشير من بعيد إلى شجرة في غابة كبيرة، تابع في محاولة للاقتراب:

ـ لو الله خلّصنا من هؤلاء القناصل، كان هسه نحن بالف خير...

انتفض طلعت قليلاً، وكأنه تذكر شيئاً. هكذا قالت ملامحه، وهكذا قالت تحديداً عيناه. فجأة اعتدل أكثر من قبل في جلسته، وتطلع باهتمام إلى الباشا.

قال داود باشا، وقد ظهر الحزم على وجهه:

ـ القنصل الانكليزي يظن الأمور مثل أيام سعيد: يأمر فيطاع. يشاور بأصبعه فيقول له الكبير والصغير، أمرك سيدي، واللي تريده يصير. لأنه كان يفرض الولاة على اسطنبول، هو وغيره، وانت تعرف السالفة من أولها لتاليها، يا طلعت بك.

ـ الحق اللي تقوله، يا باشا، وكل الناس تعرف.

ـ وبعد ماشاف بغداد اليوم غير أيام زمان، أخذ على خاطره، وصار اللي ما يقدر يسويه بالعلن يسويه بالسر، وهذه هي الخطورة يا طلعت بك!

ـ الحق اللي تقوله، يا باشا، وهذول الأجانب ابد ما يتأمنون!

أخذ الباشا نفساً عميقاً، تماماً مثل الغواص الذي يستعد للنزول تحت الماء، تطلع إلى طلعت باقة، وتساءل همساً:

ـ كل ما أخاف منه، يا طلعت بك، ان يكون ذاب لقط لصاحبنا،

الآغا، يريد يصيده، فشنو رأيك؟

ـ ما احط بذمتي، يا باشا، لان بهذي الدنيا كل شي يصير!

ـ أتمنى ان يكون رجالنا مثل ما عرفناهم: لا ينباعون ولا ينشرون. والواحد منهم كرامته بالدنيا كلها، لا تغريه فلوس، ولا يجر رجله واحد غريب.

ـ كرامة الانسان وشرفه، يا باشا، رأس مال الواحد بهذي الدنيا، فاذا تنازل عن كرامته او باع شرفه، شنو اللي يبقى منه؟ شلون يقدر يباوع بوجوه الناس؟

ـ هذا الكلام الزين، يا طلعت بك، وهذا اللي يرفع الراس؛ والله اعلم ان رجالنا على العهد، لا يخونون، ولا يرخصّون أنفسهم؛ وما اظن ان أحداً منهم مد أيده للغريب وقال: حسنة، او اعطوني لاني أقدر أسوي فلان شي وفلان شي، وإذا أكو مثل هذا فهو الاستثناء، ولا بد ينكشف!

تلفّت طلعت باقة حواليه، ربما ليتأكد ان لا أحد يسمعه سوى الباشا، وقبل ان يقول شيئاً جديداً، او ان يعلق على ما دار ابتسم. كانت ابتسامته تقع عند الحدود المتداخلة للود ورغبة الاعتراف، ولقول شيء مختلف. نظر إليه الباشا ملياً، وابتسم ليشجعه. قال، وخرجت كلمته بطيئة:

ـ لا بد سمعت عني هوايه يا باشا، ويجوز انقالت لك أشياء مو زينة: يشرب، يحب الونسة، هذي اعترف بها، وان كنت الوم نفسي، وكل مرة بعد ما اشرب، أقول لروحي: هذي آخر مرة.. لكن...

تطلع بامعان إلى الباشا ليقرأ ردود أفعاله، فلما وجد ان ابتسامته متسامحة، أقرب إلى التفهم، أضاف، وقد توتر صوته:

ـ يجوز أكو مبالغة بالكلام اللي انقال، هذي نحطها على صفحة، لكن ان يدني الواحد نفسه للغريب، للأجنبي، ويبيع ربعه، فهذا موبس يكون بليا ناموس، بليا شرف، هذا لازم ينقص راسه مو بالفجر مع صياح الديك، وانما والدنيا ضو، حتى ما يظل أحد الا ويشوفه!

ومثلما تنفس الباشا حين بدأ الحديث، فعل هذه المرة أيضاً، قبل ان

يقول:

ـ بارك الله فيك، يا طلعت بك، وهذا اللي كنت اتوقعه منك. . .

وتوالت هزات رأسه وهو يضيف بأريحية:

ـ أما ان الواحد يشرب، أو يتونس، فهذي ينجاز هو وربه عليها، يمكن يسامحه اذا كانت نيته زينة، ويمكن غير شي!

ابتسم قليلاً، وأضاف:

ـ وانت، يا طلعت بك، تعرف تديني وتمسكي بالشعائر، لكني قادر على التفريق بين التصرفات الشخصية، التي تخص الانسان وحده، وبين الأفعال التي لها علاقة بالآخرين، وهذه ما تهمني كوالي، كمسؤول عن الرعية. . .

ازدادت ابتسامته:

ـ طبيعي لازم انبهك ان الخمرة مو زينة، مو بس حرام، لكن لاحظت انك تحس بهذا الشيء مثلي، أحسن مني، لانك كل مرة، بعد ما تشرب، تقول لنفسك: هذه آخر مرة. . .

وابتسم أكثر من قبل، أصبح وجهه ضاحكاً:

ـ ولا بد يجي يوم، يا طلعت بك، نقنعك تبطّل هذي المكسرات كلها، نحن نريدك تكون بالجنة، ويانا، فشنو رأيك؟

الله كريم، يا باشا، ولازم يجي يوم واترك!

ـ عفاريم. . عفاريم؛ طلعت بك

106

قصر الريحان، في الأعظمية، الذي لا يُفتح الا لكبار زوار الولاية الآتين من ناحية الشمال، خاصة من اسطنبول، فُتح للآغا، الذي وصل إلى بغداد بعد ضباطه بأسابيع قليلة، ومعنى ذلك تكريم استثنائي لزائر كبير، ومعناه أيضاً استراحة قصيرة قبل الدخول إلى المدينة.

كان رد فعل الآغا مزيجاً من المشاعر المتناقضة: قدّر انه يستحق مثل هذا التكريم، رغم ان الباشا تأخر فيه. وقدر ان الباشا يخشاه، وهذا ما دعاه لان يخصه بهذا التكريم، في محاولة لازالة خطأ نقله إلى الشمال، وربما للاعتذار أيضاً. وقدّر ان الوضع في بغداد وصل الى درجة من التردي، وبلغت النقمة على الباشا حدها الأقصى، كما نقل إليه ناهي زبانة، الأمر الذي يضطر الباشا لبذل كل جهد من أجل كسبه مجدداً.

وقدر أموراً كثيرة أيضاً، وهذا ما جعله مضطرباً، قلقاً، بعض الشيء. أما حين زاره، أو بالأحرى كان في استقباله، عدد من ضباطه، ولمس الاهتمام الذي رافق وصوله، ثم الحفاوة التي خُصّ بها، ولما بلغ الاستقبال ذروته، فقد وجد من يهمس بأذنه بضرورة قول بضع كلمات، فوقف وسط الجمع، وقال كلاماً ما كان ليقوله في الأحوال العادية. قال، وهو ينظر إلى وجوه المستقبلين «أنا جندي لدى الباشا، وأنا رهن السمع والطاعة» وقال «لا يُعرف الرجال الا وقت الشدة والضيق، وقد جئت امتثالاً للأوامر».

وامتثالاً للعادة الجارية قام في اليوم التالي بزيارة مقام الإمام أبي حنيفة،

وقد طلب منه مرافقوه، تنفيذاً لتعليمات سادن المقام، بكري الدده، ان يصلي ركعتين تحية للمسجد، ومثلها لروح الإمام الأعظم. ورغم الحرج، أو ربما الضيق، الذي شعر به في البداية، فقد قام بما طلب منه. وحين عاد إلى قصر الريحان بعد الظهر، وكان يتوقع ان تكون الترتيبات قد تمت كي يدخل بغداد بين العصر والغروب، الا ان النداء الرسمي تأخر، ثم وصل رسول من بغداد، عند العصر تماماً، يحمل تحيات الباشا، والتهنئة بسلامة الوصول، وأبلغ أيضاً ان ترتيبات السفر ستصل في اليوم التالي.

كان معنى الرسالة ان السفر لن يتم ذلك اليوم.

وفي اليوم التالي أبلغ بوجوب الانتظار، لان زيارة سوف يقوم بها مسؤول كبير. لم يُذكر من، ولم يذكر متى.

ورغم الضيق الذي سيطر على الآغا، فقد شعر ببعض التعويض، لأن مسؤولاً كبيراً، ولابد ان يكون الباشا نفسه، هو الذي سيقوم بالزيارة، وقد يدخلان بغداد معاً، في محاولة للايحاء ان العلاقة بينهما تتسم بالود البالغ وهذا هو الدليل. صحيح انه لم يرد اثناء التبليغ بالزيارة اسم الباشا، لكن هكذا قدّر، وهكذا قدر رجاله، وهم الذين أشاعو الخبر!

وتأخر الدخول إلى بغداد يوماً آخر.

وانقضى ذلك اليوم دون ان يظهر الباشا، أو أي من رجال السراي الكبار، ولم تصل من بغداد أية إشارة جديدة. شعر الآغا بالضيق أكثر من قبل، وراودته أفكار كثيرة. ماذا لو دخل إلى بغداد دون هذه المراسيم؟ وحتى لو تمت.. هل تخدمه أم تضر به؟ هل هو ضيف، مثل الضيوف الغرباء، ويحتاج إلى هذه المظاهر؟ ورجاله، والذين ينتظرونه، هل سيكونون راضين أو مرتابين لهذه الصيغة؟

قال لنفسه، في محاولة لان يفتح ثغرة في هذا الجدار الكتيم: «لو لم يكن الباشا في وضع صعب، وبحاجة ماسة لان يستغل مثل هذه العودة، ويريد ان يرتب لها صيغة تعطيها كل القوة والتأثير، ما أجّل الدخول إلى هذا الحد» شعر بأهميته البالغة وتأثيره، وانه قادر على فرض الشروط،

وهذا ما يجعله في مركز قوي، لذلك لا داعي للتحسب، سوف يعرف كيف يفرض شروطه، وسيرغم داود على الاذعان.

في اليوم التالي أوعز للضباط الذين كانوا في استقباله، وكان عدد منهم يرغب ان يكون في موكبه أثناء دخول بغداد، طُلب لهؤلاء ان يلتحقوا بمراكز أعمالهم فوراً؛ ترافق ذلك مع رسالة وصلت إلى قصر الريحان، تقول، لكن بكلمات غائمة، ان تعليماتٍ جديدة سوف تصل من السراي، وتطلب من الآغا ان يكون على أهبة الاستعداد بين العصر والغروب. ولم تقل الرسالة أكثر من ذلك.

حتى غائب، الساعد الأيمن للآغا، طُلب منه منذ اليوم الأول لوصول الآغا ان يرافق مجموعة من الضباط، لكي يتم الاتفاق معه على التفاصيل المتعلقة بموكب الدخول، وأمور أخرى، كما قيل. لم يُشر لتلك الأمور، كما لم يعد غائب. وحين سأل الآغا عنه، أو متى سيعود، كان الرد ان غائب، وبناء لرغبته، فضل ان ينتظره عند باب المعظم، لان هناك سيكون الاستقبال الكبير!

كان الآغا يريد الاستفادة من كل لحظة، ومن كل شخص، لكنه الآن يشعر بالعجز، فبين الانتظار، وبين اختيار أشخاص يكلفهم بمهمات محددة، وذلك الشعور الطاغي أنه المنقذ، وقد حان وقته، وجد نفسه مرتبكاً، حائراً، بل وغير قادر على الحركة. حتى حامد، الذي أبدى استعداداً متحمساً لان يذهب إلى بغداد، لمعرفة العوائق التي أخرت الدخول، وما إذا هناك أسباب أو ملابسات تحول دون ذلك، لم يقابلها الآغا بالرضا أو الحماسة الكافية. قال لحامد الذي كان يلّح في الذهاب، لمعرفة الأسباب، والتأكد.

ـ خليك يا معوّد، كنا بواحد، خاف هسه نصير باثنين . . .

وأضاف بعد قليل وبحزن:

ـ قال لي غايب: مشوار الطريق، وهسه، مثل ما تشوف عينك، صار له أيام؛ وبعدين دز خبر، ما يندرى صدقه من كذبه: انتظرك بباب

المعظم، لان هناك راح يكون الاستقبال الكبير!

وحين خيم الصمت وامتد، أضاف الآغا، وكانت لهجته حانقة:

- يا استقبال.. يا عزا...

وبعد قليل:

- كنا بسالفة وهسه نحن بسالفة ثانية، وما يندرى بعد شنو!

في اليوم السادس وصلت كوكبة من حراسة السراي. وصلت قبل الفجر، وطلبت ايقاظ الآغا للضرورة القصوى، وعلى الفور. حاول حامد مع قائد الكوكبة تأجيل الأمر الى الصباح، الصباح الباكر، لكن القائد كان من العناد إلى درجة لا يقبل ولا يحتمل أي تأخير أو أية مناقشة، وقد امتزجت كلماته بالحزم والخوف معاً، الأمر الذي جعل حامد يقدّر ان خطراً يهدد الآغا، نتيجة اضطرابات حصلت ببغداد، مما يستوجب انتقاله إلى مكان آمن، وبالسرعة الكلية، خوفاً على حياته، وليكون قادراً على ان يتحرك في الوقت المناسب.

هذا ما نقله حامد للآغا، وهو يوقظه. وقد استجاب الآغا دون ان يعرف الكثير من التفاصيل، لكنه قدر ان شيئاً ما يجري في بغداد، وقدر ان كل لحظة لها قيمة، اذ يمكن ان يفعل شيئاً في اللحظة الأخيرة، وهذا ما جعل الأمور تأخذ هذا الشكل.

في العربة التي كانت تحمله إلى بغداد. سأل قائد المجموعة الذي جاء لاصطحابه:

- الباشا بعده بالسراي؟

- ما ادري، سيدي!

- وين نحن رايحين؟

- اذا لم نُبلَّغ بمعلومات جديدة، عند باب المعظم، فإلى القلعة!

- والباشا هناك؟

- ما ادري، سيدي!

- وانت منو اللي دزك؟

ـ تبلغت الأوامر من خلف، سيدي.
ـ وشنو اللي قال لك بعد؟
ـ قال لي: لازم قبل أذان الصبح يكون الآغا في القلعة!
ـ وبعد؟
ـ هذي هي الأوامر، سيدي!

وحاول الآغا مرة أخرى، لكن لم يستطع ان يصل إلى نتيجة. قال لنفسه، في محاولة لأن يحرض ما في داخله من القوة والتفاؤل: «القلعة أكثر حصانة من السراي، ولابد ان يكون الباشا هناك، وبالتأكيد هو الآن بحاجة إلى الدعم وإلى المشورة، ويعرف عند من يجدهما!»

كان الفجر يتراجع، وبداية أضواء النهار تبين وتتضح لما وصل الآغا إلى القلعة.

وهو يصعد الأدراج، في الطريق إلى الطابق الثاني، شعر الآغا ان الجو، رغم بعض البرودة، خانق ولا يخلو من رائحة عفونة، وشعر أنه لا يحب هذا الجو ولا يطيقه. ولا يعرف لماذا أخذ يدقق بعيون الحرس الذين كانوا يؤدون التحية، وينظرون إليه بطريقة لم تعجبه. أما بعد أن اتجه قائد الحرس الذي كان يرافقه نحو الجناح الجنوبي، الجناح الذي كان يحتله سعيد باشا، وهناك كانت نهايته، فقد انقبض صدره، وشعر أنه لا يحب هذا المكان!

إنها المرة الأولى، بعد تلك الليلة الحافلة، التي يصل فيها الى هذا الجزء من القلعة. لم يقرر ذلك على نحو واع أو جلي، لكن شيئاً في داخله كان ينفّره ويمنعه من الوصول إلى هذا المكان. لذلك كان يعقد اجتماعاته في ثكنة الفرسان، في السراي، في أية قطعة عسكرية، ولم يفكر أبداً ان تكون القلعة مكاناً له، وهذا ما جعلها تبتعد عن تفكيره ثم تغيب.

الآن، في اللحظات التي يتوجه فيها نحو الجناح الجنوبي، تهاجمه الذكريات والرائحة، وتلك اللحظات المجنونة. شعر أنه قوي، انه لا يخاف ولا يبالي، ولكن لماذا اختار الباشا هذا المكان وهذا الجناح بالذات

ليتحصن فيه؟

كان لديه عشرات الأسئلة والأفكار والتوقعات، وكان واثقاً انه بعد لحظات سيصل إلى إجابة، إذا لم يكن عن كل ما يدور في رأسه، فعلى القسم الأكبر منها، كما ستتضح له الصورة بكل ملامحها. وإذا كان الباشا يعرف من صفاته انه قادر على اجتراح المعجزات، وفي اللحظة المناسبة، فسوف يثبت له الآن من هو الآغا وماذا يستطيع ان يفعل. وتذكر الكلمة التي كان يرددها، حين يسأل عن الخطة التي سيعتمدها لمواجهة مشكلة من المشاكل، كان يقول رداً على مثل هذه الأسئلة، والابتسامة تملأ وجهه: «الشهر اللي مالك فيه، لا تعد أيامه».

حين وصل إلى الجناح المقابل لجناح سعيد وجد ثلاثة ضباط من السراي في استقباله. أدوا له التحية بطريقة رسمية ومختصرة، وقال له المتوسط بينهم في العمر، وكان صوته صلباً، وان شابته رجفة صغيرة في النهاية:

ـ بأمر الباشا.. أنت موقوف، إلى ان تأتي تعليمات أخرى!

صرخ. حاول أن يفعل شيئاً، لكن لما التفت حواليه ووجد ان عدداً من الجنود اقتادوا حامد بعيداً، ووجد ان من العبث، في تلك اللحظة، ان يقاوم، ان يصل إلى نتيجة ترضيه، قال، وهو يصطنع الهدوء، في محاولة لانكار هزيمته، ولاظهار عدم مسؤولية هؤلاء الضباط:

ـ ما يخالف، ولدي، انتو عسكر مأمورين، مالكم غاية وما عليكم ذنب، والحساب بيني وبين الباشا!

قال بعض الحرس، ان الآغا ما كاد يجرَّد من سلاحه الفردي، ويغلق عليه باب الغرفة من الخارج، وقبل ان تغيب أصوات الضباط في الممر الطويل، حتى انفجر صوته بالصياح والشتائم، وقد استمر ذلك بعض الوقت، أعقبته لحظات صمت قصيرة، ثم بدأ البكاء فالنحيب.

أكد أكثر من حارس ان صوت البكاء كان قوياً إلى درجة أنه اخترق الجدران وعبر الممر الطويل، ووصل إلى الطابق السفلي. وما يرجح مثل

هذه الرواية ان عدداً من الموجودين في أمكنة بعيدة هرعوا نحو مصدر الصوت، ظناً منهم ان مكروهاً وقع، مما يتطلب المبادرة إلى تقديم المساعدة، لكن حين وصلوا وعرفوا، تبادل الكثيرون النظرات سخرية واستغراباً، ورفع واحد يديه إلى السماء وقال:

- بشّر القاتل بالقتل، ولو بعد حين!

لم يعرف من يقصد أو ماذا يعني. وقال آخر بتشفٍ ظاهر:

- صحيح ان الله ما عنده حجارة يضرب بها، لكن يعرف شلون ينتقم!

وعقّب ثانٍ وهو يستدير للعودة من حيث أتى:

- ابو هالدنيا، ما لها أمان، وماكو أكبر من الله...

وحين وجد ان بعض زملائه ما زال راغباً بالوقوف فترة أطول، والاستماع إلى بكاء الآغا، الذي كان رتيباً أول الأمر، ثم أخذ يتغير، قال بحدة:

- يا الله يا معودين، خاف يباوعنا من زرف الباب ويعرفنا، فإذا ولانا نوبة ثانية والله وبالله وتالله راح يعلقنا من خصاوينا، لأن أصعب شيء «للكبير» ان يشوفه الزغار، أمثالنا، يبكي وينوح!

ولان الحرس المولجين بالآغا خشوا من العاقبة، او ان يرى الرؤساء هذا التجمع عند باب الآغا، ويظنوا الظنون، فقد لجأوا إلى الخشونة في ابعادهم أولاً. ثم الطلب منهم ان يغادروا المكان.

لا يعرف متى كفّ الآغا عن الكباء أو النحيب، لكن واحداً من وجبة الحرس الثانية، قال إنه سمع صوت البكاء قبل ان يدخل القلعة! ربما بسبب اختياره للباب الشرقي، والمطل على الباحة الداخلية، وهذا ما يفسر ان لا أحد في السوق القريب، من الجهتين الشمالية والغربية، سمع صوت البكاء.

أما وجبة الغداء التي جيء بها من مطعم ابن عجينة، القريب من القلعة، وكان يفترض ان يتناولها الآغا، فقد تناثرت ولطخت وجوه الحرس وملابسهم، ولطخت الباب وجزءاً من الجدار المقابل، مع ان الحرس

قدموها بكثير من التهذيب، لكن ما كاد يراها الآغا حتى فعل ذلك، الأمر الذي اضطر الآمر إلى اغلاق الباب بسرعة، خشية ان يحصل شيء أكبر. وقد أعقب ذلك فترة صمت، تلاها بكاء مكتوم!

في تلك الليلة شددت الحراسات، وتضاعف عدد الحرس عند غرفة الآغا، كما منع الدخول إلى القلعة أو الخروج منها.

بكاء الآغا ونواحه خلال الليل، رغم الوهن الذي أصاب الصوت، كانا واضحين ويسمعان لمسافات أبعد من النهار. وقد أقسم اثنان من الصيادين لم يكونا بعيدين عن القلعة، انهما سمعا بكاء أشبه بالاستغاثة كان يتوالى وقد تشاءما من الصوت، خاصة حين أصبح في مرحلة معينة عواء مقلوباً، الأمر الذي جعل احدهما يطوي الشباك بسرعة، «لان حتى السمك جوا الماي يتسودن، ولحمه يصير فطيس».

الأمر ذاته أكده حراس وجبة منتصف الليل، اذ بعد ان تعب الآغا من البكاء، ولم تعد حنجرته تسعفه، ليستمر في الاحتجاج، أخذ نواحه يتباعد ويأخذ هذه النغمة المشؤومة، وكان أحد الحراس الذي جاء من جهة السماوة، ما ان يسمع ذلك الصوت، حتى يضع يده على عينيه ويردد: عوذة، عوذة، فال الخير ولا فالك!

أغلب المقيمين في القلعة كان نومهم، تلك الليلة مضطرباً، أو ربما لم يناموا، اذ بالإضافة إلى صوت البكاء والنواح، فقد هاجت الذكريات، وهجمت الأسئلة، هذا عدا عن الحرارة الخانقة والبعوض. وقد تبادل الجنود في المهاجع، وعند البوابات، واينما التقوا، التعليقات ونتف الأخبار. وحتى لو أرادوا الهروب من موضوع الآغا، والانشغال بموضوعات أخرى، لا يلبث الآغا ان يعود، وبقوة، من خلال صوته، أو من خلال تذكُّر حادثة له علاقة بها، أو استحضار شكله وكلامه حين كان يزهو كالطاووس، وهو يوزع شتائمه، أو حين يمازح بعض الجنود بالنكات البذيئة!

ليلة لا تشبه غيرها من الليالي في القلعة.

ما كادت شمس اليوم التالي ترتفع مقدار ذراع أو ذراعين، حتى وصل إلى القلعة طلعت باقة ومعه عدد من الضباط. وكان قد سبقه في الوصول مجموعة من الناس، لم تعرف أسماؤهم وصفاتهم الا في وقت متأخر.

وخلال أقل من ساعة تحول الجناح الذي شغله في يوم ما سعيد باشا إلى قاعة للمحكمة التي يرأسها طلعت باقة!

كان الشهود في المحكمة، بعد ان اقسموا اليمين، أربعة: ناهي زبانة، رستم قاورد، جميلة ساهي وروجينا حزقيل، الملقبة بروجينا مراد.

حين فتح باب غرفة الآغا، وطُلب منه ان يرافق الحرس، بدا شاحباً زائغ النظرات. رفض بحدة ان يمسكه أحد، وتطلع إلى الوجوه بامعان، وكأنه يحاول ان يتذكرها أو أن يحفظها، وقبل ان يتحرك مع حرسه، سأل بغضب إلى اين يأخذونه، قال له آمر المفرزة، وهو يحاول الابتسام: «قريّب، قريّب، لا تخاف» ولم يضف أكثر من ذلك، ولما تأكد ان الجنود مسالمون، لكنهم حازمون، سار معهم.

أدخل إلى الجناح المقابل، الجناح الذي أقام فيه سعيد باشا. ورغم الخطوات القليلة، الا ان توتره كان يزداد ويعنف مع كل خطوة، ولابد ان تكون أفكار كثيرة مرت في ذهنه خلال تلك الخطوات، لكن عدد جنود الحراسة، والجو، وتلك الرائحة التي عبقت فجأة، كل ذلك جعله يمتثل ثم يخضع.

يمكن لمشاعر كثيرة ان تثور، ان تتطاير في كل الأنحاء. يمكن ان تتفاوت وتتضارب وتصطدم، لكن لا يمكن ان يحدث مثل هذا الذي حدث، وتبقى الأشياء والافكار والذكريات كما كانت.

بعد ان أُدخل الآغا إلى الغرفة الكبيرة، الملحقة بغرفة نوم سعيد، وترك وحيداً، بدت له الوحدة غولاً، وتمثل له ذلك المكان قبراً كبيراً. حتى الصمت الذي امتد تحول إلى حبل مبلول يلتف حول عنقه.

ولا يعرف أية مشاعر أخرى انتابته خلال تلك اللحظات، لكن أياً منها كان شاقاً ثقيلاً قاسياً. أما حين دخلت هيئة المحكمة، وكان على رأسها

طلعت باقة، فلم يصدق الآغا عينيه. صرخ كالملدوغ:

ـ طلعت . . . انت؟

طلعت لم يجب. كان وجهه حازماً كتيماً كالجلد الرطب، وكانت العينان تقدحان شرراً.

خلال فترة قصيرة أبلغ الآغا انه خان العهد والأمانة، وانه تلقى أموالاً من الأجانب ليقوم ضد الوالي، وطلب منه ان يؤكد هذه التهمة او أن ينفيها. لم يجب الآغا، كان صامتاً، وعيناه فقط اللتان تتكلمان. كان ينقل نظراته بين الوجوه. يتملاها. وإذا لم تقل العينان كل شيء فكان كل جزء من الوجه يتحرك ويتكلم.

بعد ان مضى وقت طويل على صمته، أو بالأحرى رفضه الكلام، قال طلعت باقة:

ـ الآن نستمع إلى الشهود.

كان رستم قاورد أول الشهود.

هل يعقل ان يكون طباخه، أقرب الناس إليه، والذي يأتمنه على حياته، شاهداً عليه؟ سألت المحكمة رستم أسئلة عديدة، خاصة عن زياراته لكرمنشاه، وأجاب رستم على الأسئلة. كان يتجنب النظر إلى الآغا، كما يتجنب التلميذ أستاذه، لكن لم ينس تفصيلاً أو تاريخاً، ولئلا يُظن انه يتجنى، ذكر الدعوات التي أقامها الآغا لمضيفيه ومدى الثناء الذي تلقاه، الأمر الذي جعل الآغا يستدعيه ليسمع الثناء بأذنيه. وكيف تعلم تحضير أطباقٍ جديدة خلال تلك الزيارات. ثم الهدايا التي قدّمت اليه. وانه باع واحدة من هذه الهدايا لبدري، لا بقصد الربح، وانما ليقول له أين كان الآغا.

كان الآغا يستمع ويضرب على ساقه، يعض على شفتيه. يهز رأسه يمنة ويسرى، وحين انتهى رستم من شهادته، أكد ان لديه من الاثباتات ما يكفي لتصديقه، وإذا اعطته المحكمة الفرصة سوف يأتي بها كلها.

سئل الآغا اذا كان لديه ما يثبت العكس، وهل لديه ما يقوله حول

شهادة رستم قاورد، فلم يجب بكلمة. كان يسحب نفساً وراء آخر، ويهز رأسه بلوعة.

أما حين استدعيت جميلة ساهي، فكانت مضطربة، اقرب إلى الخوف. قالت إنها حملت أموالاً، سلمتها لها روجينا، وقد جرى ذلك في الحويلة، قبل الوصول إلى كركوك، ثم استردتها منها ما ان وصلت، وتعتقد ان الأموال سُلّمت للآغا. أما من اين هذه الأموال أو لماذا، فلا تعرف شيئاً.

والآغا الذي لم يقل كلمة، حين كان طباخه، رستم قاورد، يدلي بشهادته، ما ان انتهت جميلة من شهادتها، حتى هاج وصرخ، وقد خرج صوته مخنوقاً، وفيه بحة ظاهرة:

ـ اذا كان كل شهود الباشا هالشكل لا بالله حصلنا، وحقوقنا وصلتنا!

وحين سأله طلعت باقة ما إذا لديه اسئلة يمكن ان يوجهها للشاهدة، رد بسخرية:

ـ مثل ها لعذارى مالنا شغل وياهن، يجوز لغيرنا شغل أزيد!

ولما جاءت روجينا ضرب الآغا، لا شعورياً، على جبهته، وهو يراها تدرج مثل بطة: سمينة، مرتبكة، ومليئة بالأسى. جلست، أول الأمر، على كرسي طلب منها ان تجلس عليه. سأل طلعت باقة الآغا ما إذا كان يعرفها أو له علاقة بها، والآغا الذي رفض الاجابة، ركز نظراته على روجينا، يريد ان تلتقي عيناه بعينيها، لكن روجينا ظلت مطرقة. أما حين سألها طلعت باقة ما إذا كانت تعرفه، فقد وقفت وهي ترد:

ـ منو ما يعرف الآغا؟

ولما كرر عليها السؤال كيف عرفته وأين، وماذا تعرف عنه، ردت:

ـ شغلتنا، يا بك، عرّفتنا عليه وعلى غيره!

ورغم ان الآغا لزم الصمت، رافضاً الاجابة على الأسئلة التي توجه إليه، وبعد ان قالت روجينا كلماتها، صرخ بانفعال:

ـ سمعت، يا طلعت، شنو اللي قالته روجينا؟

سألها طلعت من جديد ما إذا حملت مالاً للآغا. وما مقداره، ولماذا.

وردت بالتفصيل كيف حملت مالاً من الباليوز لتسلمه إلى الآغا، وانها كانت مجرد رسول. وتقدّر ان شيئاً ما كان مطلوباً، لكن لا تعرف ما هو هذا الشيء!

بكت أكثر من مرة وهي تدلي بشهادتها. ولطمت على خدها أكثر من مرة. ووصفت نفسها انها امرأة شقية، وما كانت لتفعل ذلك لولا خوفها من انتقام الآخرين. وقالت انها نادمة لأنها لم تبلغ السراي، ولم تقل ذلك لأحد. كما أكدت انها استعانت بالفتيات اللواتي يعملن معها، بمن فيهن جميلة ساهي.

وقالت أخيراً، وهي ترفع يديها للسماء:

ـ واشهد يا ربي اني ما عصيت، وانت تعرف ما في القلوب!

وطلب من الآغا ان يقول شيئاً، ان يسأل، لكنه هزّ رأسه مرات عديدة، ولم تفهم دلالة هذه الهزات؛ وحين خيم صمت طويل وقاسٍ، طلب طلعت باقة ان يؤتى بالشاهد الأخير.

وناهي زبانه شيطان أزرق، له حدقتا صقر، ولسان حرباء، أما ذاكرته فانها تشبه الحفر على الصخر، تسجل الأحداث دفعة واحدة لتبقى إلى الأبد.

ما كان الآغا بحاجة لأن يتكلم، لأن يعلّق، وهو يرى ناهي زبانة داخلاً للشهادة. يمكن ان يتصور أي إنسان عدا ناهي. يمكن ان يكذّب اي انسان عدا ناهي. وناهي مثل أي عفريت يدخل تحت الجلد؛ قد لا يحب الانسان شكله، أو بعضاً من تصرفاته، لكن لا يملك الا الاعجاب به وتقدير مواهبه.

حين دخل ناهي، ولما رأى الآغا، ابتسم وقال بسرعة:

ـ مرحباً سيدي. شلونك؟ شلون كيفك؟

لم يكن ناهي ينتظر جواباً، والآغا لم يرد!

حين بدأ ناهي يدلي بشهادته، وما كاد يقول بضع كلمات، حتى هدر

صوت الآغا:

ـ سويتها يا داود، وفاتت عليّ. هذه لازم اعترف بها، لانها أكثر من ضربة فالة، هذي ضربة ما يطلع بعدها شعر، لكن الحق عليّ، آني المغرور المخبل، وهذا الصيد اللي كنت تنتظره يا باشا.. وصدت.. وصدت.. وصدت

وخلال شهادة ناهي كان الآغا يهز رأسه، وكأنه يؤكد كل كلمة، أو يندم على كل لحظة قضاها معه. وحين انتهى من الشهادة، بما فيها المهمات التي كلفه بها الآغا، والأموال التي استلمها، ولمن سلمها، وماذا حصل في كل قضية صغيرة أو كبيرة، ومتى وأين، ومن قام بها، اكتفى بكلمات ظل يرددها وهو ذاهل:

ـ تقتل بدم بارد، يا ابن الحرام.. اي نعم تقتل، تقتل وتمشي بالجنازة يا ابن الزفرة، وما أقدر أقول ان هذي النوبة، وحدها، فاتتني، لاني أكبر مخبل بهذي الدنيا، المية تسري وتسرح، وآني مثل اي مخبل ما ادري!

بعد أن انتهت الشهادات، سأل طلعت باقة الآغا ما إذا لديه ما يقوله. فهز الآغا رأسه بالنفي، ولم يقل كلمة واحدة.

وعند الغروب أصدرت المحكمة حكمها بإعدام الخائن سيد عليوي.

وسُحب الآغا إلى الغرفة المقابلة، لأنه لم يستطع ان يمشي. ولم يُسمع خلال تلك الليلة بكاء أو نواح. وحين عرض عليه ان يأكل شيئاً طلب كوباً من الماء وكسرة خبز.

أما في صباح اليوم التالي، حين فتح عليه الباب، وطلب منه الحرس ان يرافقهم، فقد رجا ان يقابل الباشا، لان لديه ما يقوله، ولابد ان يسمعه. لكن محيي الدين رمضان، المكلف بالتنفيذ، قال له كلمة ظلت تتردد زمناً طويلاً. قال له، وهو يرجوه ان يمشي معه:

ـ إذا فاتتك مقابلة الباشا هذي النوبة، فلا بد نؤمن لك مقابلة بوقت ثاني.. حلّت البركة!

وهو يحاول الوقوف أمام البنادق لم يتمالك نفسه. بكى. صرخ.

ترجى. بال على ملابسه ثم تهاوى. أوقفه محيي الدين لكي لا تذهب الطلقات في الهواء. أوقف، بعد أن ربط، وقبل ان ترتفع الشمس ذراعين أو ثلاثة أذرع في السماء، كانت الرصاصات تخترق جسده، وتستقر اثنتان منها في الجمجمة.

قيل إنه دفن؛ وقيل انه رمي في النهر؛ وقيل ان قبراً حفر على عجل قريباً من الباليوز، والقيت فيه جثة، أو شيء مشابه، وقد جرى ذلك بصمت، ودون ان يعرف الكثيرون!

107

منذ الصباح الباكر، وصل بطرس يعقوب إلى السراي، طالباً لقاء صفوت قرداغ لأمر مستعجل، وحين أبلغ ان صفوت لم يصل بعد، طلب لقاء أي مسؤول آخر يمكن ان ينوب عنه، لأن الأمر في غاية الأهمية ولا يحتمل التأجيل، فأبلغ مجدداً، بعد ان استشار الحرس رؤساءهم، ان ليس هناك من يستقبله في هذه الساعة المبكرة، وعليه الذهاب الآن والعودة في وقت آخر.

ولأن ريتش أكد عليه بضرورة ألا يعود قبل تحديد موعد زيارة القنصل للباشا، فقد قدر ان انتظاره في قهوة مراد أفضل من عودته إلى الباليوز، اذ ربما يتعرّض هناك للتوبيخ، لانه لم ينجز المهمة التي كلف بها، خاصة وان من صفات ريتش، وقد كرر عبارة بالذات لتدل عليها، وليجعل موظفيه ملتزمين بها: «لا أعرف كلمة اسمها: مستحيل، لان الانسان اذا وضع هذه الكلمة أمامه لا يمكن ان يحقق النتائج الكبيرة التي يطمح اليها».

الانتظار اذن في قهوة مراد أسلم، فمن هناك يستطيع ان يرقب العربات والخيول التي تصل السراي، ولابد ان يكون أول زائر لصفوت، تمهيداً للاتفاق معه على الموعد الذي ينتظره القنصل.

قال له مراد، في محاولة تزلف ظاهرة:

ـ من ذاك اليوم، خاطري مكسور، يا بطرس أفندي!

ولان بطرس يعرف ما يقصد، ومن يعني، فقد رد عليه دون اهتمام:

ـ لا تدير بال يا معوّد، وهذي تحصل بكل وقت وبكل مكان!

ـ ردنا نبيّض وجه، يا بطرس أفندي، لان ضيف مثل صاحبنا ما يحصل كل يوم، لكن ما رهمت، وصار اللي صار.

ـ نجيك بزيارة ثانية، وثالثة، والخير بالجايات.

ـ ومن ذاك اليوم نبّهت وقلت: تفال بالقاع ماكو؛ وكرزات بالقهوة ماكو؛ وقشور رقي وبرتقال بالقهوة ماكو . . .

ولأنه غير قادر على تذكر كل ما يريد منعه في القهوة، وقف، وهو يجيل نظراته في جميع الأنحاء، وجاء صوته مليئاً بالاعتزاز:

ـ وأريدك تتلفت وتباوع شلون كانت القهوة وشلون صارت!

وجامله بطرس يعقوب، الذي كان يراقب الشارع بانتباه لئلا تفوته عربة صفوت، والتفت بسرعة إلى حيث أشار، وخرجت كلماته بطيئة ودون حماس:

ـ تسلم ايدك يا أسطة . . هه صارت القهوة تفتح النفس.

ـ بعد ينراد لها صبغ ومسائل من هنا . . ومن هنا.

وحين هز بطرس رأسه دلالة الفهم والرضى، فرك الاسطة يديه، وسأل:

ـ هذي خلصنا منها، وأبد ما راح انسى وعدك بزيارة ثانية وثالثة. وهسه . . شتريد تتريق مولانا؟

ـ ريوق ما أريد أسطة. أريد فد استكان شاي، يرحم والديك!

ـ هاي وين صارت، بطرس أفندي؟ انت ما تقبلها!

وصفق بيديه طالباً من أحد صنّاعه ان يوافيه، لكي يأمره بجلب ريوق يناسب الضيف الجليل، والى ان يصل الصانع، ولكي يتفق مع بطرس، بدأ يعدّد:

ـ أكو هريسة كلش طيبة، وهذي مكانها قريّب، من عند الزيبق؛ واكو كباب سلطان، كباب ابن شهدة؛ وأكو باچه، وانت تعرف باچه قدوري، هذي ما ينراد لها سؤال؛ وأكو مولانا صحون حار ويّا القيمر والعسل، فقول، شنو تشتهي، وبدقيقة يصير حاضر!

ـ وداعتك، أسطة، ما أريد غير استكان شاي.

ـ مولانا، وانت سيد العارفين، ما تتصور شقد آني مقهور على سواية ذاك اليوم، فلازم نعوِّض. . .

ـ خيرها بغيرها أسطة مراد، وبس نجيك نوبة ثانية نطلّع القصور!

ـ هذا وعد بطرس أفندي.

ـ خلص. . خذها من هالشوارب!

ـ صرت مديون بوعدين، بطرس أفندي، ان نتمالح فد يوم؛ وان تجيب صاحبنا وتجي، تمام؟

قبل ان ينتهي من احتساء استكان الشاي، لمح صفوت قرداغ داخل عربة متجهة إلى السراي، ففزّ واقفاً كمن لدغته حية أو كوته نار. انطلق دون ان يودع مراد. امتطى حصانه بسرعة واتجه إلى السراي.

قال الحارس، حين وقف أمامه مجدداً، وبدا الضيق في صوته!

ـ يا فتاح. . يا رزاق، شنو صاير بالدينا؟

تظاهر بطرس انه لم يسمع، أو ان الكلام غير موجه اليه، وطلب ان يرى صفوت.

استُمهل وقتاً إضافياً لكي يسأل الحارس رئيسه، وليسأل الرئيس مركز الحراسة المتقدم. وبعد انتظار، والتأكد من الصفة، ومن يريد ان يقابل، وما إذا كان الأمر عاجلاً إلى هذا الحد. وقد أجاب على هذه الأسئلة بأناة وصبر، وحين سُمح له. طُلب منه ان يبقي حصانه في الباحة الخارجية، وهناك سوف يرافقه أحد الحراس إلى ديوان صفوت بيك.

لم يبد عليه الضيق اثناء الانتظار، ولم يعترض على ان يكون الوصول إلى ديوان صفوت بيك مشياً على الأقدام. فقط يريد ان يصل، وان ينجز المهمة المكلف بها.

ورغم انه اضطر لانتظار إضافي في ديوان صفوت، اذ تأخر الموظف المختص في الابلاغ عن وصوله، ثم تأخر هذا الموظف أيضاً لدى صفوت بك، وحين خرج من لدنه ابتسم له ابتسامة قصيرة متحفظة، وقال له: بضع

دقائق!

لما رآه صفوت قرداغ، وقد نهض لاستقباله بصعوبة، نتيجة داء المفاصل الذي يشكو منه، قال بمرح:

ـ لو كنت مسلم وتقي، كان قلنا لروحنا: بعد ما صلى الصبح طارت النومة من عينه، وقال لنفسه: فلان ما شفته من شهور، فلازم نزوره ونطمئن عليه؛ وفلان نال ترفيع وما زرناه ولا هنيناه، فخاف ياخذ على خاطره ويزعل، ولازم نمر بيه نهني ونعتذر عن التأخير..

كاد يستمر صفوت بالعتاب، وكان يعني تحديداً ان لا أحد من الباليوز هنأه بالترفيع والموقع الجديد الذي حصل عليه، وكان بطرس يعقوب يدرك معنى هذه الاشارة، فرد، وقد شاب صوته شيء من الحرج:

ـ هذي لك حق بيها، يا صفوت بك، لكن لو تعرف أشغالنا، وشقد مطلوب منا...

ـ أدري.. أدري، شلون ما أدري، يا بطرس أفندي!

ـ وبالليل وبالنهار، يا صفوت بك!

نظر إليه صفوت بخبث، وخرج صوته الجاد والساخر معاً:

ـ ما يجوز تتعب نفسك ازيد من اللازم، خاصة بالليل، يا بطرس، لان بعدين يبيّن التعب، وتصير مثل حالتنا!

وضحك الاثنان، وصمت الاثنان قليلاً، تمهيداً للدخول في الموضوع الذي جاء من أجله بطرس يعقوب، خاصة في هذه الساعة المبكرة.

سأله، بعد ان زحف قليلاً في كرسيه:

ـ انشاء الله جماعة الباليوز بخير وعافية، وماكو أحد منهم وجعان أو متأذي؟

ـ كلهم بخير، وكلهم يسلمون.

ـ وانشاء الله ماكو سفر، أقصد القنصل أو أهله؟

ـ لا هالفترة باقين ببغداد.

تراجع صفوت قرداغ في كرسيه، وقال كأنه يكلم نفسه:

ـ بغداد بالصيف ما تنحمل، تصير نار، فالله يساعد الناس اللي ما متعودين على هذي الحرارة، خاصة القنصل وأهله.

ـ الحق اللي تقوله يا بك، ومع ذلك الواحد يتعوّد!

رد صفوت بمرح:

ـ أكو اشياء، مولانا، ما يقدر البني آدم يتعود عليها، حتى لو حاول...

وضحك ضحكة طويلة، وأضاف ليثبت وجهة نظره.

ـ جهنم، مثلاً، شلون الواحد يقدر يتعود عليها؟

كان صفوت قرداغ يلعب مع بطرس لعبة ماكرة، فهو يعرف ان لديه ما يقوله، خاصة وهو يجيء في هذا الوقت المبكر، لكن لا يريد ان يبدي لهفة او اهتماماً، تاركاً لبطرس ان يدخل في الموضوع الذي جاء من أجله. وبطرس، رغم تأكيد القنصل عليه بضرورة انجاز المهمة بسرعة، يعرف ان أقصر الطرق للوصول، ذلك الطريق الذي لا يتوقعه الطرف الآخر، والذي قد يأتي عرضاً، ولا يحاط بأهمية استثنائية.

لما خيم الصمت وطال، سأل صفوت بتهذيب مصطنع.

ـ لا اعرف اذا كان لديك يا بطرس أفندي، طلب أو رسالة؟

ومع ان بطرس يعقوب هيأ نفسه هذه المرة، كما في كل مرة، أن يكون بارداً ومترفعاً، مثلما طلب القنصل من موظفيه في علاقاتهم مع السراي، فقد وجد نفسه يرد باندفاع:

ـ سعادة القنصل يطلب موعداً مستعجلاً مع الباشا...

هز رأسه صفوت قرداغ، وقلب شفته السفلى، وكأنه يعني قبل ان يقول، ان موعداً مثل هذا لن يكون قريباً. ولئلا يبدو متعجلاً، سأل:

ـ شنو قصدك بالمستعجل، يا بطرس أفندي؟

ـ الآن، فوراً، أفضل من الظهر أو العصر.

ـ اف.. أف.. انت تطلب المستحيل!

ـ ولكن هناك أمور بالغة الأهمية يريد سعادة القنصل ان ينقلها للباشا.

ـ ويجب ان تتم بهذه السرعة؟

ـ كما ذكرت لك، يا صفوت بيك، السرعة بالغة الضرورة والأهمية!

وليعطي صفوت قرداغ نفسه فرصة التفكير والتقدير، وما اذا يستطيع شيئاً، فتح الدفتر الكبير أمامه ليتأكد من مواعيد الباشا. تأمله طويلاً. هز أسه مرات عديدة، وبأشكال مختلفة. تطلع إلى بطرس وكأنه يقرأه من جديد. قال كما لو أنه يخاطب نفسه!

ـ ما زال الوقت مبكراً لمراجعة ديوان الباشا . . .

وبعد قليل، وبصوت له رنين:

ـ انت متأكد ان الأمر لا يحتمل التأجيل لبضعة أيام؟

ـ صفوت بك. نحن نتكلم عن الساعات لا عن الأيام!

استأذن صفوت لكي يجري اتصالاته مع ديوان الباشا، وأشار أنه إذا تسنى له لقاء الباشا شخصياً فسوف يبذل قصارى جهده لتأمين موعد مبكر.

غاب صفوت وطال غيابه، وحين عاد بدا متعباً. جلس مجدداً وراء طاولته، أغمض عينيه، تمطى. وبعد ان استراح بما يكفي، قال بصوت له وقع الظفر:

ـ حظك يا بطرس أفندي من السماء . . .

قال ذلك وصمت، صمت طويلاً، وكأنه يستعيد مشاهد كثيرة رآها خلال فترة انتقاله من مكتبه إلى المكاتب الأخرى. ورغم ان بطرس استرخى للكلمات القليلة التي سمعها، الا أنه يريد شيئاً واضحاً ومحدداً. سأل يستعجله:

ـ اي . . يا بك، شلون صار الاتفاق؟

ـ اسمع، مولانا، وانت قرر . . .

وفجأة انتبه إلى ان ضيفه لم يشرب شيئاً جديداً، خاصة أثناء غيابه، ضرب بعنف على الجرس الموضوع على الطاولة أمامه، وقال، بعد ان خذ نفساً عميقاً.

ـ هؤلاء الخدم يسودون الوجه . .

وتغيرت النبرة:

ـ أمرتهم ان يحملوا اليك ماء بارداً، وان يأتوا بالشاي.

حين دخل الخادم خاطبه بهدوء:

ـ ابني.. جيب شاي ومي بارد.

وعاد إلى الموضوع الذي ينتظره بطرس بلهفة:

ـ اسمع، مولانا، وانت قرر..

زحف قليلاً على كرسيه، ليكون أقرب إلى بطرس، وقال:

ـ إذا رغب القنصل بموعد عاجل وقصير يمكنه ان يأتي قبل ساعة من صلاة الظهر، أما إذا رغب بموعد طويل لتبادل الأحاديث والأفكار، فيمكن ان يأتي بين العصر والغروب.

ولم ينتظر بطرس يعقوب وصول الشاي والماء البارد، استأذن بسرعة، وكان راضياً عن نفسه، وعن النتائج التي توصل لها. قال، في محاولة لتأكيد الموعد الأول:

ـ سنكون في السراي قبل صلاة الظهر بساعة، وسوف تبلغون البوابة الرئيسية والحرس بالموعد!

كان الباشا متأكداً ان موضوع المقابلة متعلق بالآغا، وسوف تكون فرصة لان يختبر احتمالات عديدة. كما سيلقن القنصل درساً، ويقول له من هو داود باشا بالمقارنة مع الولاة السابقين.

وخلافاً لزيارات سابقة قام بها القنصل للسراي، جاء هذه المرة بموكب مهيب، لكنه مختصر، اذ اقتصر على عدد محدود من رجاله. أما تعليمات الباشا التي أصدرها فور الموافقة على لقاء القنصل، فكانت صارمة بضرورة اتخاذ أقصى الاستعدادات لاظهار عظمة السراي وقوة الوالي وخلال الساعات الباقية دب النشاط، وتم ارتداء ملابس الاستقبالات، وغسلت الباحات ومسحت الأبواب الخارجية، بحيث بدت السراي وناسها في وضع قلما تكون بهذا الشكل المتألق الزاهي.

في بداية اللقاء تعمد الباشا ان يتحدث عن الحرارة الشديدة، والتي

جاءت هذه السنة قبل الأوان؛ وقال ان من شأن هذه الحرارة ان تنضج الفواكه في وقت مبكر، وحالما تنضج الفواكه يقل استهلاك الانسان من اللحوم، وفي ذلك فائدة للجسد بكل تأكيد. وهذا ما يجعل الناس قادرين على تحمل الطقس الحار. وتمنى الباشا، في نهاية هذه الفقرة، ان تكون شهور تموز وآب وأيلول رحيمة، لأن سكان البلاد اذا كانوا قد تعودوا على على احتمالها، ولانها تعجل بانضاج التمور، وهي الغذاء الرئيسي لأكثر السكان، فلا يعرف كيف سيتحمل الضيوف هذه الحرارة!

ورغم ما يتصف به الأجانب عادة، والأوربيون منهم بوجه خاص، من تهذيب وحسن المجاملة الا ان المستر ريتش، مع اتقانه ذلك حين يريد، يرغب في أحيان كثيرة ان يتخلى عن هذه الصفة، لقناعته ان سلوكاً مثل هذا يمكن ان يحدث صدمة للعقل الشرقي المغلق، وبالتالي يجعله أكثر قدرة على الفهم، وكان ذلك يضطره لخوض مناقشات لا تخلو من صعوبة، حتى مع الباشا ومع كبار الموظفين.

في هذه الزيارة كان حائراً، ويواجه موقفاً صعباً، فهو لا يحب الحذلقة أو الأحاديث التي لا تتعدى ان تكون كلاماً معاداً، لتمرين اللسان أو لمحاربة الصمت، كما لا يقوى على الرفض، لان المهم ما بعد هذا الحديث.

التزم الصمت، لم يعلّق، لم يضف شيئاً، ولم يسأل عن أي شيء متعلق بالطقس. أما حين توقف الباشا قليلاً، فقد اعتبر ان الوقت أصبح مناسباً لان يبدأ:

- ان طلبي لموعد عاجل مع فخامتكم فمن أجل موضوع محدد. . .

- تفضل . . تفضل، سعادة القنصل، قاطعه الباشا.

- وارجو الا يفهم ان بحث هذا الموضوع يعتبر تعدياً على صلاحياتكم أو تدخلاً في أمور السياسة الخاصة بكم.

- نرجو ذلك يا سعادة القنصل، ونحن متشوقون وكلنا آذان صاغية لآرائكم الحكيمة!

ـ فخامة الوالي . . .

وابتسم قليلاً، في محاولة لان يمتلك جرأة إضافية من أجل الدخول في الموضوع :

ـ لقد جئت من أجل التماس شفاعتكم وسعة صدركم . . .

تغيرت ملامح الوالي. تحرك قليلاً لتصبح جلسته أكثر راحة، وجاء صوته يحمل مقداراً من الود :

ـ يجب ان تعرف، سعادة القنصل، انه لا يُرد لكم طلب، وسوف أبذل كل جهدي لتلبية رغباتكم .

ـ لقد جئت يا صاحب الفخامة من أجل سيد عليوي!

رفع داود باشا يده في الهواء ثم اسقطها على فخذه، فسمع لسقوطها وقعاً مكتوماً، دلالة الأسف، وما يشبه الندم. ترافق ذلك مع هزات متوالية من رأسه، وخرجت كلماته بطيئة، ولا تخلو من أسى :

ـ لقد وصلت متأخراً يا سعادة القنصل!

وخيم صمت ثقيل. فالباشا لا يريد، بعد، ان يدخل في التفاصيل، وريتش لا يقوى على السؤال عن معنى وصوله متأخراً.

ولان الصدمة أحدثت تأثيرها، وفي اعقاب هذا الصمت القاسي، أضاف الباشا، بعد ان أضفى على صوته أسى شفيفاً :

ـ لوعرفت رغبتكم هذه، لو وصلتني قبل ساعات، لتغيرت أمور كثيرة .

ـ أرجو ان أتلقى منكم المزيد من التوضيح، يا فخامة الباشا .

أخذ الباشا نفساً عميقاً قبل ان يجيب :

ـ كان الآغا من أحسن رجالي، وكنت اعتمد عليه في الأمور الأساسية . خاصة العسكرية، وكنت أهيئه لمناصب أعلى. لكن . . .

توقف الباشا متعمداً، ليرى ردود الفعل بسبب الكلمة الأخيرة التي قالها، لأن الكثيرين، حتى تلك اللحظة، لا يعرفون ما حصل ذلك اليوم . ومن خلال الكلمة الأخيرة يريد الباشا ان يقدر كيف وصلت المعلومات

للباليوز قبل ان تصل لمعظم رجال السراي. بعد ان جال بنظراته في الوجوه، وتوقف برهة أطول من المعتاد، وهو يقرأ ردود الفعل في وجه ريتش، أضاف بلهجة هي مزيج من الأسف والحقد معاً:

ـ كان يمكن أن أسامحه، ان أعفو عنه، لو لم تمتد يده إلى خارج حدود، ولدي من الأدلة الكثير!

أحس ريتش انه معني بالموضوع بمقدار ما، ولابد ان يكون أمر الاموال ني أرسلها إليه، وصل خبر بعضها أو كلها إلى الباشا. قال في محاولة للتوضيح:

ـ أريد ان أوضح نقطة قد تكون خافية على فخامتكم، ومن المفيد ان تقفوا عليها..

عدّل جلسته قبل ان يتابع:

ـ لقد أرسلت، يا فخامة الباشا، إلى عدد من الاغوات في الشمال بعض المبالغ ثمناً لخيول اشتريتها منهم، ولان من عادة هؤلاء الأغوات ان يغيروا أماكنهم بين الصيف والشتاء، فقد ارتأيت ان أرسلها إلى الآغا ليتم ايصالها اليهم بمعرفته، وهو الأقدر على الوصول إليهم.

ـ مسألة الأموال التي ارسلت ثمناً للخيول أعرفها، يا سعادة القنصل، وليس لي اعتراض عليها، لكن المسألة أكبر من ذلك ومختلفة!

هكذا رد الباشا ليترك ظلالاً من الشك على أكثر من جهة، وليشعرالقنصل انه يعرف بالأموال التي أرسلها. وريتش الذي اكتفى بهذا التوضيح، كان يريد الوصول إلى الهدف الأساسي الذي يعنيه الآن: انقاذ الآغا، وبعد ذلك يمكن ان يعيد ترتيب أوراقه بشكل أفضل.

قال للباشا، وقد حمّل لهجته مقداراً من الود:

ـ ربما حصلت أخطاء أو بعض التجاوزات، يا فخامة الباشا، لكن كما حصلتُ على عفو عنه من سعيد باشا، وتتذكرون ذلك، أطمح ان تكونوا كرماء معي هذه المرة أيضاً!

فرّ الباشا يده اليسرى بحركة نصف دائرية، وقال بأسف ظاهر:

ـ لو كنت أدري ان هذه رغبتكم، يا سعادة القنصل، ولو تبلغت بهذه الرغبة في الوقت المناسب، لأخذت الأمور مساراً آخر. . .

ولم يترك القنصل ينتظر طويلاً، أضاف، وهو ينظر بتحديد إلى عينيه:

ـ لقد تم تنفيذ حكم الاعدام فجر هذا اليوم، يا سعادة القنصل، ويؤسفني أشد الأسف ان أبلغكم بهذا الخبر، وأعجز عن تلبية الرغبة التي جئتم من أجلها!

كان معنى ذلك انتهاء المقابلة، ولا شيء يمكن ان يُفعل أو يضاف.

لم يكن القنصل قادراً على اخفاء انفعاله وتأثره. حاول ان يتماسك، أن يبدو قوياً. قال للباشا، الذي حرص على توديعه بمودة ومجاملة زائدة:

ـ من المؤسف ان يصل الإنسان متأخراً، خاصة في الأمور التي لها علاقة بالحياة والموت، لأن الموت إذا حلّ تنتفي الحاجة إلى الكلمات، أية كلمات، ويصبح كل شيء زائداً أو لا ضرورة له.

هز الباشا رأسه موافقاً، وقال:

ـ لقد جاء في الكتاب الكريم: «واذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون» وكانت هذه مشيئة الله!